العمران المصري

بين الرحلة والأسطورة

د. عمرو عبد العزيز منير



تاريخ المصريين

٢٨٨

هذا الكتاب

ليس مجرد دراسة معمارية أثرية، تؤرخ للمباني والآثار، وتحدد تاريخ بنائها وسماتها المعمارية، بل هو دراسة تاريخية في إطار ما يسمى بالتاريخ الحضري، تبحث في عوامل الازدهار وأسباب الانحدار والاندثار، وتحلل جوانب التطور الحضري في المجتمعات؛ مما يعد إضافة مهمة للمكتبة العربية التي تفتقد إلى مثل هذا النوع من الدراسات التي قطعت شوطًا كبيرًا في الغرب، بينما لا تزال في مهدها في الشرق. وقد لفت العمران الإسلامي بشكل عام ، وفي مصر الإسلامية بشكل خاص، أنظار الرحالة المسلمين والأجانب، فتحدثوا في أعمالهم عن فنون العمارة ومراكز العمران من حيث أحجامها وهيئاتها وتعددت لديهم الكلمات المستخدمة للدلالة على العمران ومراكز الاستيطان البشرى في القرنين السادس والسابع الهجريين، وتغيرت مدلولات بعض الكلمات التي كانت مستخدمة من قبل، فذكروا على سبيل المثال البُلَيْدة والبلد والمدينة والقرية والمصر، ومزجوا بين الحقيقة والأسطورة في حديثهم عن كثير من مظاهر العمران، فكان الموروث الشعبي حاضرًا في كتاباتهم من حيث لم ينتبهوا. والكتاب الذي بين أيدينا هو محاولة للغوص في كتب الرحالة بالدرجة الأولى، واستخراج اللآلئ العمرانية من تلك المصادر التي لا يلتفت إليها كثير من المؤرخين. وقد نجح المؤلف الدكتور عمرو عبد العزيز في رسم صورة واضحة المعالم للتطور العمراني لمصر في القرنين السادس والسابع الهجريين، وكيف كان للعمران دور مهم في صمود مصر أمام الغزو الصليبي.


ISBN# 9789774217847
6 221149 020221

١٥ جنيها

الهيئة المصرية العامة للكتاب

العمران المصري

بين الرحلة والأسطورة

منير، عمرو عبدالعزيز.
العمران المصرى بين الرحلة والأسطورة/ تأليف: عمرو عبدالعزيز منير. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.
٦٢٤ ص، ٢٤ سم. (سلسلة تاريخ المصريين)
تدمك ٧ - ٧٨٤ - ٤٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - تخطيط المدن
أ - العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب ٤٠١٩ /٢٠١١
I.S.B.N 978-977-421 - 784 -7
ديوى ٧١١,٤

الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة - جمهورية مصر العربية - كورنيش النيل - رملة بولاق
ص . ب : ٢٣٥ - الرقم البريدى : ١١٧٤٩ رمسيس
ت : ٢٥٧٧٥٢٢٨ / ٢٥٧٧٥٠٠٠ - فاكس ٢٥٧٥٤٢١٣ (٢٠٢)
www.egyptianbook.org.eg/e-mail:info@egyptianbook.org.eg.

العمران المصري

بين الرحلة والأسطورة

تأليف

د. عمرو عبد العزيز منير



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١١

فهرس الموضوعات

على سبيل التقديم

لقد اهتم العرب منذ صدر الإسلام بتخطيط الأمصار والقصبات والمدن وإنشائها، وتوفير وسائل الحياة لها، فحرصوا على بناء المساجد والقصور والأسبلة والحمامات وغيرها، فكانت حركة عمرانية واسعة شملت كل أرجاء الدولة الإسلامية. وفى مصر تميزت الحركة العمرانية بملامح خاصة، فكانت (الفسطاط) أولى المدن العربية الأفريقية، ثم تلتها (العسكر) التي شيدها صالح بن علي العباسي في شمال الفسطاط، ثم اختط أحمد بن طولون (القطائع) ، وتلتها (القاهرة) التي أنشأها جوهر الصقلي ، والتي أصبحت منذ ذلك الحين قلب الديار الإسلامية وحصن العرب الحصين الذي يزود عن الثقافة العربية والإسلامية.

ولأن الاستقرار والتحضر عند العرب يعد ضرورة دينية ودنيوية تستدعى المعرفة بأحوال الحواضر وسماتها مما لا يتم الواجب إلا بها؛ لذا كان الإلمام بقواعد العمران وأحوال الحواضر والبوادي من شروط تعيين القضاة، كما كان احترام حقوق الجيران في المباني ، وعدم التعدي على الطريق، من القواعد الأساسية في القضاء الإسلامي. وقد تميز العرب بحس عمراني مرهف، وثقافة عمرانية راقية، فطوروا تخطيط المدن، ومزجوا الطرز المعمارية في بناء البيوت والقصور، وكانوا أكثر مرونة في تصميم المساجد، التي تطور تصميمها، ومئذنتها، وصحنها، ومنبرها، ومكان الوضوء فيها، وغير ذلك من عناصرها المعمارية.

وقد لفتت العمران الإسلامي بشكل عام ، وفي مصر الإسلامية بشكل خاص، أنظار الرحالة المسلمون والأجانب، فتحدثوا في أعمالهم عن فنون العمارة ومراكز العمران من حيث أحجامها وهيئاتها وتعددت لديهم المصطلحات المستخدمة للدلالة على العمران ومراكز الاستيطان البشرى في القرنين السادس والسابع الهجريين، كما

تغيرت مدلولات بعض الكلمات التي كانت مستخدمة من قبل، فذكروا على سبيل المثال البليدة والبلد والمدينة والقرية والمصر. ومزجوا بين الحقيقة والأسطورة في حديثهم عن كثير من مظاهر العمران، فكان الموروث الشعبي حاضرًا في بشكل دائم.

والكتاب الذي بين أيدينا هو محاولة للغوص في كتب الرحالة بالدرجة الأولى، واستخراج اللآلئ العمرانية من تلك المصادر التي لم يلتفت إليها كثير من المؤرخين. وقد نجح المؤلف الدكتور عمرو عبد العزيز منير في رسم صورة واضحة المعالم للتطور العمراني لمصر في القرنين السادس والسابع الهجريين، وكيف كان للعمران دور مهم في صمود مصر في مواجهة الغزو الصليبي.

وأهم ما يميز هذا الكتاب أنه ليس مجرد دراسة معمارية أثرية، تؤرخ للمباني والآثار، وتحدد تاريخ بنائها وسماتها المعمارية فقط؛ بل هو دراسة تاريخية في إطار ما يسمى بالتاريخ الحضري، تبحث في عوامل الازدهار وأسباب الانحدار والاندثار، وتحلل قواعد التطور الحضري في المجتمعات؛ مما يعد إضافة مهمة للمكتبة العربية التي تفتقد إلى مثل هذا النوع من الدراسات التي قطعت شوطًا كبيرًا في الغرب، بينما لا تزال في مهدها في الشرق.

وختاماً لا يفوتني أن أشكر أسرة تحرير سلسلة "تاريخ المصريين" على ما بذلوه من جهد في إخراج هذا الكتاب المهم، وأخص بالشكر الدكتور عماد هلال على ما بذله من تحرير وتنسيق ومراجعة للكتاب ليخرج بهذا الشكل الطيب.

والله وتاريخ أمتنا من وراء القصد

د. محمد صابر عرب

المقدمة

كثير من الرحالة والأدباء الذين ارتحلوا شرقاً وغرباً، أرادوا أن يعبروا عن تجربتهم من زاوية "مشكلة تكوين صورة"..وكان ذلك أيضاً شأن المصور الفوتوغرافي الذي التقاط صورة للأشياء على نحو ما هي عليه بالضبط "للآخر نفسه في واقعه الفعلي والحيوي" وكان هؤلاء الرحالة والكتاب والأدباء، يريدون الانغماس في اكتشاف الآخر وأن " يلمسوا بأصابعهم حضارات أخرى ومعارف جديدة وغريبة".. وكان من شأن هذا الانغماس، أن يسمح بوفرة من التفاصيل الأثنوغرافية في مؤلفاتهم وكتاباتهم، كنتائج تجربة مباشرة وقريبة مع الآخر، تطورت إلى رغبة في اتصال مباشر وفيزيقي مع الغريب والعجيب والمثير جداً..!

فاقبلوا بأقلامهم وريشاتهم، مشوقين إلى روائع آيات الماضي، ووقفوا على منابع المعرفة، بخاصة في شرقنا العربي الساحر، ما بين إبداعات الطبيعة وجاذبيتها، ومعاقد التاريخ المقدس.. من ضفاف النيل الخالد وطور سيناء إلى بيت لحم والناصرة وبيت المقدس إلى مشارف مكة والمدينة، إلى ما يحف بهذه الأصقاع من آثار قدسها الله، وأضفى عليها سحراً من الجلال، ما يدل على أن الشرق هو "ربعة المختار".. وما نهض في أحضان هذا التاريخ المقدس، من إبداعات فكرية وحضارية للعقل الإنساني..

وكان الكثير من هؤلاء الرحالة والأدباء حريصين على إلزام أنفسهم بما توحي إليه مشاعرهم وأحلامهم بالتنقيب عن "الجديد " في أرض الأديان والرؤى والماضي العريق.. حتى إذا ما رووا ظمأ نفوسهم وخلوا إلى أقلامهم وريشاتهم، جرت انطباعاتهم السحرية خبباً على أفراس الرواية والوصف والملاحظة والإبداعات الفنية والأدبية التي شكلت اللبنات الأساسية لأدب الرحلات العربي.

وقد دعم الرحالة ذلك كله بانطباعاتهم الشخصية إما سلباً أو إيجاباً حسب الرؤى الخاصة بهم. وتسجل لنا هذه الكتابات معلومات قيمة عن فترات سابقة من الزمان قد يغلفها كتاب التاريخ أو تندر الكتابة عنها، وهي وجهة نظر لها احترامها ولها فائدتها، فقد تركز أحياناً على مسائل دقيقة، كأن تكشف هذه الكتابات عن لغات مجهولة أو لهجات غير مسجلة في كتب اللغات، أو تراث شعبي غير مدون في بطون الكتب أو تكتشف عادات وتقاليد نادرة في مناطق نائية بين فئات محدودة من أفراد الشعب أو قبائل تعيش في أقاليم مجهولة أو مجموعات بدائية لا تميل إلى الاختلاط وتؤثر الانعزال والانطواء عن العالم. هذا هو شأن أحد أهداف أدب الرحلات الذي يجتهد في توضيح صورة الغير والآخر وبيئته.

والكتاب الذي فوق راحة اليد الآن ما هو إلا خطوة في هذا المجال الخصب والذي لا يزال باقياً غير مدروس دراسة علمية دقيقة.حيث تفتقر المكتبة العربية إلى مؤلفات علمية في تراث أدب الرحلات بالقدر الذي نطمح إليه.لذا أؤمل أن يسد كتاب (العمران المصري بين الرحلة والأسطورة في القرنين السادس والسابع الهجريين) ولو بصورة جزئية هذا النقص في المكتبة العربية. وغايتنا من ذلك هو استمرار تراث أدب الرحلات سارياً متغلغلاً على مستوى

الوعي أو حتى اللاوعي في توجهات أصحابه. وبانعطافنا نحن ناحية تراث أدب الرحلات العربي نستحييه ونستمده كلما شعرنا أنه يغذي حاجاتنا الحاضرة وينمي قدراتنا على مواجهة حاضرنا.

إذ إن تراث أعمال الرحالة وكتاباتهم يعد أحد المصادر المهمة لإلقاء الضوء على الحضارة العربية والإسلامية في عصورها المختلفة، وهذه الأعمال وما قدمت من مادة ثرية دليلٌ بارزٌ على قيمة رحلاتهم والتي أمدتنا بمعلومات مستقاة من الملاحظة المباشرة والمعاينة الشخصية عن الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية للبلدان التي

ارتحلوا إليها أو أقاموا فيها، وعن طبائع أهلها ومعالم العمران بما تمثله تلك المعالم من دلائل حضارية.

وحيث إن أدب الرحلات هو إبحار في أعماق الحضارة وكشف عن دلائلها، ولكون العمران دليلاً بارزاً على وجود الحضارة ، فارتبطت به وارتبط بها، صنوان متلازمان يسيران جنبا إلى جنب، تؤثر الحضارة في العمران فتطبعه بطابعها، ويعكس العمران ملامح الحضارة فتنطبع عليه ملامحها، فيرى الناظر إليه كيف كانت تلك الحضارة وإلام انتهت ومن ثم فقد أضحى العمران وما يماثله من آثار قائمة في مقدمة ما يحرص علماء تاريخ الحضارات على استنطاقه والاستماع إلى ما يبوح به وعلى الوقوف على ما يخفى وما يعلن عند تدوينهم تراث الأقدمين.

على جانب آخر نجد أن تراثنا العربي الذي وصلنا من عصور التألق الفكري في رحاب الحضارة العربية الإسلامية، قد ضم الكثير من الموروث الشعبي بين صفحات الكتب التاريخية والأدبية وكتب الرحلات، فضلاً عن الموسوعات ودوائر المعارف، المتخمة بالأساطير والحكايات الشعبية والخرافية، التي تتطلب – في حقيقة الأمر – دراسة مستقلة ومستفيضة لا تقتصر على جمع النصوص وتحقيقها فحسب. وإنما عليها أن تستخلص أيضاً ما قد تنم عليه من دلالات، وأساسيات في التفكير العربي والإسلامي، وما تفصح عنه النظرة إلى علاقة الإنسان بالكون، ويضيق بنا المقام لو حاولنا تتبع الخطوات العامة لأنماط عناصر الموروث الشعبي في كتب التراث العربي. لذا تأتي هذه الدراسة في محاولة لإثارة الوعي أو قل (عودة الوعي) بتراثنا الحضاري، وهي تصدر عن رؤية تلتمس في الماضي التفسير الشعبي للتاريخ. أو ما يمكن أن نسميه بـ (البعد الثالث) للدراسات التاريخية ؛ أي التفسير النفسي والوجداني ورؤية الجماعة الإنسانية لذاتها وللكون والظواهر والأحداث من حولها.

والمتأمل في موضوعات الدراسة يلمس خيطاً أو عقداً فريداً يربط فصولها. إذ أنها تعالج فكرة محددة فحواها أن التاريخ والموروث الشعبي وجهان متوازيان يفهم

أحدهما بواسطة الآخر مما يسر على الباحث أن يتخذ المنهج التاريخي والتحليلي في رصد الأساطير والحكايات الشعبية والخُرافية في كتابات الرحالة والمؤرخين القدامى وما نفذ إلى النصوص المتعلقة بعمران مصر من مضامين فكرية ذات محتوى أسطوري موروث من المرحلة الغيبية السابقة التي كانت تشكل أراء التاريخ وموضوعاته على الرغم من صياغتها صياغة تاريخية فنية على يد المؤرخين إلا أن أصولها لم تستغلق — في الأغلب الأعم — مستفيداً من أشتات المعلومات الدينية والتاريخية الممزوجة بالحكايات الشعبية والخرافات والأساطير المتناثرة عن مصر في بطون كتابات الرحالة. بوصفها أدلة وأسانيد ووثائق دامغة تعين المؤرخ القادر على استنطاقها والنفاذ من خلالها إلى الحركة المضمرة في هذه الأنساق الشعبية مما يوسع ــ بلا شك ــ من آفاق البحث التاريخي ومن ثم إيجاد سبل جديدة للوصول إلى المعرفة التاريخية.

ولقد اتخذت الدراسة من (مصر) محوراً بوصفها نموذجاً طيباً يمثل العنصر الثابت في أركان العملية التاريخية (المكان) كما تأتي تلك الدراسة لاستكمال حلقة من سلسلة حلقات البحث في تاريخ عمران المشرق العربي في العصور الإسلامية من خلال رصد التفاعل بين البيئة والإنسان والمجتمع في إطار مشاهدات الرحالة.. كما تأتي تلك الدراسة في محاولة منها لرصد التطور العمراني لبعض مدن المشرق العربي في فترة من أخصب وأهم فترات تاريخنا الذي يضرب بجذوره في أعماق الماضي، فترة المواجهة ضد المغول والصليبيين الكاثوليك في المشرق العربي، وكانت مصر آنذاك أحد أهم معاقل الحضارة العربية والإسلامية بعد سقوط بغداد وإحياء الخلافة الإسلامية على يد السلطان الظاهر بيبرس.

أضف لذلك أن تلك الدراسة هي محاولة أولية لما يسمى بـــ " الـــتأريخ الحضري " الذي سبقتنا إليه أوروبا حيث تبين الدراسة الشروط الموضوعية لتقدم عمران مدننا العربية في ظل الحضارة العربية والإسلامية، بما يقدم الدرس والعبرة

للعمران الحديث والمعاصر!!. فالعمران نادراً ما أغفله أيٌ من الرحالة المسلمين أو غيرهم فيما تركوا لنا من أعمال، وعلى الرغم من كثرة الأعمال التي تناولت أدب الرحلات إلا أنه قلما تطرقت دراسة إلى تناول رؤية الرحالة للعمران في المشرق العربي، ولا يزال المجال فسيحاً لدراسات أخرى تضيف المزيد إلى هذا الشأن، من هنا تأتي مشروعية تلك الدراسة كي تحاول أن تملأ فجوات في بنية (المسكوت عنه تاريخياً عمداً أو بدون قصد) في المصادر التاريخية والجغرافية وفي محاولة منها للوقوف على صورة العمران وما ارتبط به من موروث شعبي.

وتلك هي الغايات التي اهتديت إلى وضعها آملاً أن تكون مستوفية موضوع الدراسة من الجوانب كافة،ومتكفلة بتحقيق النتائج المرجوة لي في هذا المجال، وهى أيضاً خطوة لا تخلو من نقص ضروري، يدعوني إلى المزيد من الحرص على البحث، والتنقيب والتأمل والتسلح بطموح ورغبة في الفهم والتساؤل.. يرجى أن تتبعها محاولات أكثر جدية ومنهجية لكشف جوانب هذه النوعية من التاريخ، واقتحام منطقة بحثية معرفية تحتاج إلى الكثير من جهود الباحثين العرب لاكتشاف الكثير من جوانبها الخفية كشفاً عربياً صرفاً لا نحتاج بعده إلا للتواصل مع الغرب في هذا المجال كأنداد لا متلقين تابعين.

والله الموفق والمستعان

عمرو عبد العزيز

القاهرة. مارس ٢٠١٠م

الفصل الأول

الرحلة: الالتقاء بالآخر

جاء حينٌ من الدهر كان فيه من بين أسباب تطور الإنسان وتقدمه حبه للرحلة والانتقال، فالرحلة حركة وسعي ونشاط ولولاها ما استطاع الإنسان أن يحصل على قوته وأن يوفر لنفسه ولأهله المسكن والملبس وأن يكتشف بعد ذلك العالم المحيط به [١]. فقد خلق الله الإنسان محبا للحركة والتنقل، فالحركة روح الحياة وسمة أساسية في التركيب الجسدي للإنسان لذلك أمده الله بالعقل الذي يدعوه للتفكير في كيفية الانتقال من مكان إلى آخر وبالجسم القوى الذي يعينه على الحركة بحثاً عن الطعام والشراب أو هرباً من القوى المعادية له سواء أكانت الطبيعة – برقاً ورعداً وعواصف– أم كانت حيوانات مفترسة كالأسود والنمور والذئاب[٢].

والحركة واحدة من خصائص الكائن الحي تكون أبسط ما تكون في الكائنات الدنيا وتندرج في التمام مع تدرج هذه الكائنات في الارتقاء حتى تصل إلى الانتقال من موضع إلى آخر وهو ما سمته اللغة: الرحلة[٣]. وهي أيضاً مخالطة للناس والأقوام، وهنا تبرز قيمة الرحلات كمصدر لوصف الثقافات الإنسانية ولرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة[٤] تصور أحوال الناس والعمران بالعين الباصرة اللاقطة[٥]. فهي أمر طبيعي يتعلق بحياة الأفراد والأمم [٦] وما أكثر ما حفل به التراث العربي الإسلامي من أخبار الرحلات والرحالة.

فلقد ترددت ألفاظ عديدة – في دواوين شعراء المعلقات تدل على الحل والترحال فجاءت الألفاظ ".. حلَّ – أحلَّ – احتلَّ – الحلول – التَحلال – خيَّم – سَكَنَ – أقامَ – المقام – الإقامة – وثوى – الثّواء – أثوى – الثّواية " للدلالة على الإقامة والحلول. واستعمل شعراء المعلقات أيضا ألفاظا تدل على الحلول والإقامة في

وقت معين مثل " ارتبع – تربّع – التربّع " الدالة على الإقامة في زمن الربيع و(قاظ) الدالة على الإقامة في زمن الصيف و(شتا) الدالة على الإقامة في زمن الشتاء(٧) فقد أصبح وصف الرحلة عنصراً أساسياً من عناصر القصيدة الجاهلية؛إذا كان يحتل المرتبة الثالثة بعد بكاء الأطلال والنسيب(٨).

أما في اللغة: رَحَلَ، رَحْلاً، ورَحيلاً، ترحالاً عن المكان؛ تركه– وإلى المكان انتقل ومنها ترحل القوم عن المكان: انتقلوا، والرحلة: الجهة التي يقصدها المسافر، تقول: ".. مصر رُحْلتُنا " أي الجهة التي نقصدها، والرحيلة: الارتحال، تقول: " غداً رحلتنا "، الرَحَّالة: الكثير الترحال والانتقال(٩). والرَحَّال: صانع الرحال والعالم بها المُجيد(١٠)، والرِحْله بالكسر الارتحال، يقال دنت رِحْلَتُنا وأرحله، أعطاه راحلة، والراحلة الناقة التي تصلح لأن تُرْحَلَ(١١). ورحل عن البلد: ظعن عنه وارتحل وترحل ورحلته أنا وغداً يوم الرحيل والرُّحلة ومكة رُحْلتي: وجهي الذي أريد أن ارتحل إليه(١٢).ويرتبط مفهوم الرحلة كذلك في الأصل اللغوي العربي، بركوب الإبل، أو الجياد ونحوهما، وترويضها حتى تصير "راحلة"، وقد نقل ابن منظور عن أبي زيد قوله: "أرحل الرجل البعير.. إذا أخذ بعيراً صعباً، فجعله راحلة"، ثم يضيف ابن منظور: "الراحلة من الإبل البعير القوي على الأسفار والأحمال، وهي التي يختارها الرجل لمركبه ورحله.." ونستنتج من هذا القول، أن تحقيق متعة الاكتشاف من ناحية والرغبة في مكابدة الشدائد، والتغلب عليها من ناحية أخرى، هما من الأضداد التي ينشدها الإنسان في الرحلة(١٣).

ولقد حفل التراث العربي بالأقوال والأشعار والحكم والأمثال حول الرحلات وأدب الرحلات حينما يتصدى له العلماء والمفكرون فإنه يظل مخصباً ومفيداً وذا عطاء علمي غزير، بحيث يبرز فيه الجانب التصويري والسياق الأدبي والتحقيق التاريخي،والبحث الاجتماعي مع تطعيمه بمأثور الشعر والحكم مما تقتضيه المناسبة(١٤).

إذاً فالرحلة فن من فنون القول العربي يعرض في مضمونه إلى ناحية أو إلى أخرى من نواحي الحياة فإننا نقول: إن نمط الرحلات يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد. إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافي، وعلماء الاجتماع، والاقتصاد، ومؤرخي الآداب، والأديان، والأساطير، وهي: بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور(١٥). وهي بذلك مصدر من مصادر التاريخ التي تضيف الكثير من المعلومات والأحداث وتقدم وصفاً للأماكن والبلدان،والعمران، والشخصيات،والمواضع والطرق ومناهل المياه والجوانب التاريخية والجغرافية والاجتماعية والحضارية للمناطق والبلدان(١٦). فهي مزيج من فنون شتى لا تدخل تحت الحصر، ولكنها في بعض أشكالها فن أدبي خالص أو أقرب إلى الفن الأدبي وتختلف باختلاف كتابها وأغراضهم منها(١٧). وهي جزء من الحضارة الإنسانية ونتاج لها(١٨).

الرحلة ودورها في حياة الإنسان

ولعل أهم مساهمات الرحلة جاءت من خلال طرح وسائل معرفة الإنسان بعالمه، ذلك أن الرحلة تكشف عن حال يتعرف فيها الإنسان على الآخر في إطار بيئة مغايرة وثقافة مختلفة ونشاط حضاري بعيد عما ألفه واعتاده في بيئته وبذلك يصبح الإنسان أكثر استعداداً للاعتراف بوجود الآخر والتعاون معه(١٩) كما لعبت دورها في الكشف الجغرافي فقد يحصل معها أيضاً الاتصال بين الشعوب واكتساب معرفة الواحد بالأخر خصوصاً فيما يتعلق باللغة والتقاليد والعادات، الأمر الذي جعل المؤرخون يرون أن تلك المعرفة قد وضعت الجذور الأولى لمادة الاثنوجرافيا(٢٠) التي تشكل بدورها قاعدة هامة للمقارنة بين النظم الاجتماعية لدى البشر، والتنظير بصدد تطورها عبر التاريخ الإنساني.(٢١) فالرحلة كشف للذات وفهم للآخر وانفتاح عليه(٢٢).ووسيلة مثلى من وسائل المعرفة، وربما كانت أقدم وسائل الإنسان للحصول على المعرفة قبل اختراع الكتابة. فما تراه العين، ويحسه الإنسان بمدركاته الحسيّة، أقوى كثيراً من تلك المعرفة

التي يحصلها بالسماع من الغير، أو بقراءة ما كتبه الآخرون، فما يدركه واحد قد لا يدركه آخر[٢٣].ولا يخفى تأثير الرحلات تأثيراً كبيراً في الآداب العربية، حيث نقل الأدباء نماذج كثيرة منها؛ بل اعتمدوا عليها اعتماداً كبيراً في بعض الأحايين، وقد زاد احتلال عنصر الخيال على جانب لا يُستهان به من أدب الرحلات.[٢٤]

لقد كانت عين الرحالة دائما بمثابة آلة تصوير تسجل ما يراه غريباً جديراً بالتصوير.على حين كان الناس في عاداهم وممارساهم اليومية لا يرون فيه غرابةً أو طرافةً أو شيئاً جديراً بالتسجيل، لقد كانت ملاحظات الرحالة هي المادة الخام لكثير من علوم البشر[٢٥]. فكان كاتب الرحلة يصور الحياة كما كان يحياها والوجود كما كان يتصوره، وقلما نرى شيئا مثل هذا في الأدب العربي النثري[٢٦]. يقول كراتشكوفسكي:

... يكون وصف الرحلة أحياناً قصة ممتازة يسجل فيها صاحبها كل ما رآه أو ما هو جدير بالاهتمام، وكثيراً ما تبلغ مستوى عالياً من الفن والصياغة الأدبية "[٢٧].

الرحلة والإنسان العربي:

كان العرب منذ فجر الإسلام يتلون آناء الليل وأطراف النهار كتاباً يحثهم على السير في الأرض والاعتبار بآثارها الدائرة وأممها الغابرة فقال: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ، هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران/١٣٧-١٣٨.

كما تؤيد ذلك الأحاديث النبوية عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﴿ ﷺ:لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر وهو ميزان الأخلاق إن الله بالمسافر رحيم ﴾[٢٨].

وهكذا اندفع الإنسان العربي بعد الإسلام إلى خارج الجزيرة وبلغ في عصر واحد تخوم المشرق والمغرب، ووقف عند مستوى حضاري رفيع، ظل يرقى به ويحافظ عليه.وبينما كان الغربيون يقيدون أنفسهم بأخذ المعارف من مصدر واحد ويعدون كل

شيء سوى ذلك كفراً يستوجب القتل. وكان العرب يطلعون على كل شيء ويبحثون في كل مصدر ولا غرو، فالقول المأثور الذي يروى للأمام علي بن أبي طالب: " الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها التقطها " دستور علمي صحيح سار العرب عليه واهتدوا به واعتقدوا أن الرحلات ضرورة من ضرورات العلم وجمع المعارف(٢٩).

أما رأى العرب في الرحلة فقد دونه ابن خلدون في مقدمته تدوينا حسناً، ودل على أن الرحلة لا تكون فقط لجمع المعارف بل لاحتكاك الآراء وهذا عنده أفضل من جمع المعارف.

وأوضح ابن خلدون: " أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم " وقال في فصل خاص عقده في مقدمته لهذه القضية: " إن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم، وما ينتحلون من المذاهب والآراء والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثيرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين...فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال. "(٣٠).

وها هو محمد بن تاويت الطنجي يرجع فوائد الرحلة في طلب العلم إلى أمرين: أولهما: ضمان سلامة المنهج النقلي، وذلك عندما يقع تصحيح المتون المروية ووصل أسانيدها بأصحابها، لتكون أساساً صالحاً للبحث والدرس وبناء الأحكام عليها.

ثانيهما: تصحيح منهج التفكير وبناؤه على أثبت القواعد، ومن الأقوال المأثورة: " إذا أردت أن تعرف مقدار شيخك فجالس غيره"(٣١).


الرحلة وأثر الفتوح الإسلامية

وجاءت عملية الفتوح رحلة أو رحلات في ذاتها قدمت للعرب تجارب ومعارف جديدة كلما توسعوا في هذه الفتوح. وخلقت ظروفاً أخرى جديدة اقتضت الرحلة والبحث عن المجهول ومحاولة اكتشافه [٣٢]. وبرز العرب عن الأمم التي سبقتهم من آثار في ميدان الرحلات ساعدهم على ذلك اتساع رقعة الدولة الإسلامية، وازدهار في التجارة والزراعة وتقدم في الحياة العلمية والثقافية، هذا إلى جانب العامل الديني الذي يقضى بشد الرحال والسعي في الأرض. والمكتبة العربية تذخر بعشرات الرحلات التي تؤكد اهتمام العرب الأوائل بهذا اللون من الكتابة وتدل على نشاط وحيوية فائقين[٣٣].

دوافع الرحلة بين العلم والإيمان:

وتنوعت دوافع الرحالة العرب، فلم تنشأ عن ضرورات الإدارة والبريد وضبط الضرائب فحسب. بل كان لتأدية فريضة الحج والتجارة في البر والبحر من أعظم البواعث للرحلات، لذا فقد كان لكل بلد فجر ولمكة فجران: البيت الحرام وهو نور متجدد بدد الظلم والظلام وفجر النهار. من هنا كانت أفئدة المسلمين تهوى إليه من كل فج عميق..إليه الناس يوفضون آناء الليل وآناء النهار؛فأما صلاة وأما اعتمار وأما طواف وأما تعبد وأما تهجد وأما راحة واسترواحة إذ الإنسان يتملاه(٣٤). وكان الناس والحجاج عند عودتهم إلى بلادهم يخبرون عن الطرق التي سلكوها والأحداث التي صادفوها. (٣٥)

كذلك كانت التجارة من العوامل الهامة الدافعة إلى الرحلة في التراث العربي الإسلامي واتسع نطاق التجارة عند العرب والمسلمين اتساعاً لم يبلغه عند شعب آخر قبل كشف أمريكا. فانتشرت قوافل التجارة عند المسلمين في القسم الأعظم من العالم المعروف في ذلك العهد، وخاضت سفنهم عباب البحار والمحيطات وازدهرت على أيديهم الطرق التجارية بين بحار الصين وآسيا الوسطى وسواحل بحر البلطيق والأندلس وشواطئ المحيط الأطلنطي والبحر المتوسط وساحل أفريقيا الشرق وجزر المحيط الهندي وصحارى السودان(٣٦).

وشجعهم في هذا الدين الإسلامي الذي دعى لركوب البحر والاستفادة من خيراته وموارده، كما أسهم بشكل عام في إحياء الفكر الجغرافي وفى تحفيز الجغرافيين والرحالة المسلمين لتحمل مسئولياتهم وصولاً إلى ما هو أفضل في مجال المعرفة الجغرافية بالأرض وواقعية الحياة في أنحائها(٣٧).

واكتسب التاجر العربي المسلم شهرة واسعة في سائر أنحاء العالم المتحضر آنذاك بيد أنه كان من بين التجار علماء تركوا لنا نفائس يفخر بها تراث الحضارة العربية

الإسلامية فلم تخلو رحلة التاجر العربي المسلم من العلم[٣٨]. مثل موفق الدين عبد اللطيف ابن يونس البغدادي (٥٥٧-٦٢٩هـ/١١٦٢-١٢٣١م) الذي اشتغل في دمشق بالعلم وإقراء الناس بالجامع الأموي، وفى القاهرة بإقراء الناس بالجامع الأزهر صباحاً ومساًء، وإقراء الطب في وسط النهار[٣٩].

وهكذا.ووجدت الرحلات العلمية، التي تعمل لحساب العلم وطلب المعرفة وباستثناء رحلات معينة أولتها الدولة الاهتمام وتولت تمويلها وتحديد أهدافها الرسمية[٤٠].ونجدأن ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) قد ترك سفره الهائل "معجم البلدان" دليلاً على أن رحلة التاجر المسلم لم تخل من العلم إذ كان ياقوت يقوم برحلاته بهدف التجارة أساساً [٤١]

فالرحلة العلمية ظاهرة مألوفة عند المسلمين والعرب في جميع الأقطار شرقها وغربها، وقد أورد المقري المتوفى (١٠٤١هـ) أسماء ما يزيد على مائتين وثمانين شخصاً ارتحلوا إلى المشرق في طلب العلم وحده[٤٢].ساعدهم علي ذلك اشتغالهم بالتجارة أحياناً بل كانت التجارة السبب الذي دفع الكثير من الرحالة إلى القيام برحلاتهم، وأمثل لذلك بعبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري(٨٤٤ —٩٢٠هـ/١٤٤٠-١٥٤٤م)[٤٣]، الذي كان يكسب نفقات أسفاره من التجارة في العبيد والبضائع المصرية والمغربية[٤٤]والتي كانت هي العمل المتاح للرحالة في كل مكان وزمان فأقبل عليها أكثرهم.

وهناك أسباب أخرى متعددة للرحلة عند العرب والمسلمين منها رحلات الهروب نتيجة لأحداث وظروف سياسية أو بيئية أو اجتماعية واقتصادية، وإذا كان الدافع للرحلة لدى بعض الرحالة؛ هو الهروب من بيئة ووضع حضاري أو إنساني غير مقبولين،وقد يكون الدافع للترحال أحياناً ضرباً من هروب الرحالة نفسه من ذاته؛ إذ تسوق لنا الباحثة نادية عبد الله " رأي عالم النفس يونج في النظر إلى الرحلة باعتبارها

تعبيراً عن رغبة عميقة في التغيير الداخلي للرحالة تنشأ متوازنة مع الحاجة إلى تجارب جديدة أكثر من تعبيرها في الواقع، عن تغيير مكاني[٤٥] فالرحلة ــ في رأي الباحثة ــ لا يمكن أن تتم إلا في قلب الوجود، كما أن هدفها قد يكون البحث عن الحقيقة أو السكينة والسلام، كما قد يكون بحثاً عن الخلود، أو من أجل اكتشاف مركز روحي"[٤٦].

كما وجدنا في تراث الرحلات العربي ما يسمى بــ (الرحلات التكليفية) التي بدأت منذ عهد النبي ﷺ [٤٧]، ويدخل في باب التكليف بالرحلة أيضاً الحاجة إلى المعلومات والبيانات عن البلدان والشعوب التي امتد إليها الإسلام، وأصبحت جزءاً من عالمه فلقد اقتضت ضرورة الحكم والإدارة وتقدير الثروات وحجم الضرائب أن يكلف الحكام بعض الأشخاص بالقيام برحلات تفقدية لجمع البيانات والحقائق وتقديم التقارير وسواء أطلق على هذا النشاط صفة "الجغرافية الإدارية " أو " كتابة تواريخ الأقاليم" فإننا نجد أن الرحلات لعبت دوراً هاماً في أدائه[٤٨].

خاصة وأن دولة المسلمين قد فاقت إمبراطورية الرومان في فتوحها وأملاكها، وقد استلزم ذلك فضلاً عما كان هنالك من قبل كثير من طرق البريد ومصانعه وموظفيه مما توجد تفاصيله في الكتب العربية التي ألفت لإرشاد العاملين في تلك الناحية من الإدارة الإسلامية، وهذه الكتب هي أول ما كتب العرب والمسلمون في وصف البلاد التي خضعت لحكمهم[٤٩]. لذا جاءت الرحلات الإدارية التي تعمل لحساب العلاقات بين الدول الإسلامية ومجتمع الدول الخارجي[٥٠]. نتيجة الحاجة لمعرفة أخبار الولايات الخاضعة للحكم الإسلامي العربي بل أخبار العالم الخارجي وأدى ذلك إلى العناية بالطرق ونظام البريد، فكانت الثمرة كتب المسالك والممالك التي تصف هذه الطرق والمواضع التي تربط بينها والمسافات فيها والمنازل الآمنة[٥١].

ولم يكن غريباً أن نجد الرحلة اعتباراً من القرن السادس الهجري تنطلق على أوسع مدى لتتجاوز ديار المسلمين على أمل أن تحقق أهدافاً متنوعة منها،الأهداف

الاقتصادية وهى تعمل لحساب التجارة(٥٢) والأهداف الدينية التي تعمل لحساب فريضة الحج إلى مكة المكرمة وشد الرحال إلى المدينة المنورة، كذلك كانت فلسطين عامة والقدس خاصة قبلة لرحلات كثيرة إسلامية ومسيحية ازدادت زيادة واضحة منذ عصر الحروب الصليبية(٥٣)؛ فقد كان الحج إلى الأراضي المقدسة التي شهدت قصة حياة المسيح عليه السلام حركة اجتماعية دينية ذات مضمون عاطفي منذ وقت باكر وتخبرنا النصوص التي تركها الرحالة الأوربيون في ذلك الوقت المبكر – قبل عصر الحروب الصليبية– أن المسيحيين القادمين من الغرب الأوربي إلى فلسطين كانوا يحرصون على الأكل في كهف أكل فيه المسيح مع حوارييه أو يستحمون في مياه نهر الأردن التي تم تعميده فيها(٥٤). إضافة لذلك كانت الحركة الصليبية لقتال المسلمين والحج إلى فلسطين احتفظت بقدر كبير من الجاذبية في نفوس الأوربيين آنذاك(٥٥). ــ جدير بالذكر أن من كان يشاركون في الحملات الصليبية يوصفون بأنهم حجاج (PREREGRINI) وغالباً ما استخدمت عدة تعبيرات ومصطلحات أخرى مثل عبارة (PEREGRINATIO) ومعناها (رحلة الحج)التي كانت شائعة تماماً في الفترة الباكرة من تاريخ الحركة الصليبية(٥٦).

على أن أهم ما يلفت النظر في تاريخ الرحلة العربية الإسلامية، هو أن طابع المبادرة الشخصية كان العامل الحاسم في غالبية هذه الرحلات، فكانت الرحلة العربية بصفة عامة جهداً ذاتياً واجتهادًا شخصياً بحتاً. ولم تقم الدولة أي دولة بتمويل هذه الرحلات سوى في أضيق نطاق، وعندما يكون من يقوم بالرحلة مكلفاً بسفارة أو مهمة رسمية لحساب الدولة(٥٧).وتدل أخبار الرحلات التي وصلت إلينا أن الرحلات السفارية عند العرب كثيرة كثرة لافتة للنظر، وأن الجناح الغربي من العالم العربي فاق الجناح الشرقي في عدد الرحلات واتساع مجالها(٥٨).

رحلات عربية بين آفاق الأدب والموروث الشعبي:

وإذا كان الإنسان قديماً قد عرف الرحلة الاختيارية، والرحلة الإجبارية تحت الظروف المعاكسة، فإنه كذلك عرف الرحلة الجماعية التي اتخذت شكل الهجرة، كما عَرَفَ حديثاً أبعاداً جديدة للرحلة مثل رحلات الفضاء. والتي ربما تعد تحقيقاً لحلم عُرِفَ قديماً في تراثنا العربي وموروثنا الشعبي بـ(الرحلة الخيالية) حيث البطل الذي يقطع الآماد على بساط سحري حين كان الانتقال من بلد لآخر مشقة عظيمة.

والتي نجد صدى تلك الرحلات الخيالية في المقامة الإبليسيّة لبديع الزمان الهمذاني (٣٥٨-٣٩٨هـ)، وخلاصتها أنّ أبا الفتح الإسكندري، بطل المقامات، فقد إبلاً له فخرج في طلبها، حتّى ساقته الأقدار إلى وادٍ أخضر فيه أشجار باسقة وثمار يانعة وأزهار منوّرة، ويلتقي في ذلك الوادي شيخاً يجلس على الأرض، فيأنس لحديثه ويبادله القول إلى أن يسأله الشيخ إن كان يروي شيئاً من أشعار العرب فينشد لامرئ القيس وعبيد ولبيد وطرفة، لكنّ الشيخ لا يطرب له، فيطلب إلى الإسكندري أن يسمع فينشده قول جرير:

بَانَ الخَليطُ ولو طَوَّعْتُ ما بَانَا   وقطَّعُوا من حِبَالِ الوصْلِ أقْرانَا

فيستغرب الإسكندري منه أن نسب القصيدة لنفسه ويسأله عن سبب ذلك الادعاء، فيتهرّب الشيخ من السؤال بسؤال عن شعر أبي نواس فيسمعه الإسكندري قول أبي نواس:

لا أندبُ الدّهْرَ رِبْعَاً غَيرَ مأنوسِ   ولسْتُ أصبُو إلى الحادينَ بالعيسِ

وهي قصيدة ماجنة فيطرب لها الشيخ ويشهق ويزعق، فيقول له الإسكندري: قبّحك الله من شيخ، لا أدري أبنتحالكِ شعر جرير أنت أسخف أم بطربك من شعر أبي نواس وهو فويسق عيّار؟... فيردّ عليه الشيخ ردّاً طويلاً مسجوعاً، على عادة الهمذاني

ليكتشف الإسكندري أن الشيخ الذي قابله هو شيطان شعر جرير، وهو الذي ألهمه النونية التي مرّ مطلعها[٥٩].

ولقد استفاد الهمذاني في رحلته الخياليّة تلك من أسطورة شيطان الشعر المشهورة، فكانت سابقة فريدة في الأدب العربي تبعتها تجارب مشابهة وربّما كانت مستقاة من جوهرها كرحلة التوابع والزوابع لابن شهيد.

وقد استوحت رحلة التوابع والزوابع لابن شهيد (٣٨٢-٤٢٦هـ)، فكرة المقامة الإبليسية، حيث يرتحل ابن شهيد مع بنات أفكاره محلّقاً على أجفان الرؤى، مبتكراً شيطان شعر خاصّاً به ينقله إلى أودية الجانّ، ليلتقي من يشاء من شياطين الشعراء وقرنائهم من الجنّ، ويطارحهم الشعر والنثر وفنون الأدب، ويسألهم عمّا ألهموه لأدبائهم من شعر ونثر وينشدهم بعض شعره، وغايته من ذلك التفكّه والتندّر في هذه الرحلة.

وهكذا بدت رحلة التوابع والزوابع كمحاولة جديدة استطاع الشاعر من خلالها طرح آرائه الشعرية والأدبية والعقلية، وصبّ جام غضبه على خصومه وحاسديه، ورسم من خلال صورة فكهة ونادرة بعضاً من ملامح المجتمع الأندلسي في عصره.[٦٠].

ثم كانت رسالة الغفران كرحلة خياليّة صوّر المعري من خلالها رؤيته للجنّة والنار وفهمه لهما، وعبّر من خلالها عن موقفه من الأدب والشعر والشعراء والحياة والمجتمع، مستفيدا في ذلك كلّه من قصّة الإسراء والمعراج ومن التصوّر الإسلامي للجنّة والنار وإن كان لا يعبّر بالضرورة عن صورة الجنّة والنار في الإسلام، مما يجعل صورة الجنّة في رسالة الغفران هي تصوّر المعرّي لها.

وهكذا بدت الرحلة الخياليّة في الأدب العربي مبنيّة على التصوّر الشعبي الأسطوري، لأسطورة شيطان الشعر لتحمل قضايا الأديب في عصره ولتعكس الوجه

الاجتماعي لبيئة تعنى بالفنّ والأدب وتقيم وزناً عظيماً للأديب كما حملت الرحلة تصوّر بعض الشعراء الأدبي والفكري للجنّة والنار، وإن كان هذا التصوّر متأثّراً بالثقافة القرآنية والنبوية فهو يحفظ للأديب خصوصيّة الرؤية والتصوّر(٦١).

رحلات استكشافية في الأساطير العربية:

توق الإنسان إلى المعرفة والحركة ومحاولة فهم الطبيعة من حوله والوقوف على أصولها وأسرارها دون أن يتكئ على أية مرجعية علمية أيقظت فيه النبل الإنساني العظيم الباعث على الرغبة في إماطة اللثام عن أغوار المجهول، خاصة فيما يتعلق بمنابع الأنهار. فخرجت من خيالاته رحلات استكشافية امتلأ الحديث فيها بالعديد من العناصر الأسطورية من جن وشياطين وقصور مطلسمة وجبال شاهقة ووديان مخيفة ومغارات وكهوف إلى بحيرات وأنهار غامضة وجزر عجيبة ومن عالم البشر إلى عوالم الجن والسحرة والمخلوقات العجيبة وغيرها ــ ولنأخذ نهر النيل مثالاً لذلك ــ حيث يمكن تنضيد معظم الروايات التي قيلت في ذلك الشأن فيما يلي:

ويقال أن: "ملكاً من ملوك مصر الأول، جهز أناساً للوقوف على أول النيل فانتهوا إلى جبال من نحاس، فلما طلعت عليهم الشمس، انعكست عليهم أشعة الشمس الواقعة عليها فأحرقتهم، وقيل أنهم انتهوا إلى جبال براقة كالبلور، فلما انعكست عليهم الأشعة الواقعة عليها فأحرقتهم"(٦٢).

وعن رحلات كشف منابع النيل بعد الفتح الإسلامي لمصر، أورد المؤرخون والرحالة قصصاً عديدة منها، أنه قد حدث: "أن سافر أناس إلى منابع النيل عدة مرات في أيام السلطان المؤيد بلغوها بعد ثمانية أشهر وعادوا منها حاملين أمتعة وسلعاً"(٦٣) ويشير ابن عميرة إلى أن: "الملك الصالح نجم الدين أيوب، اشتهى أن يعرف أصل النيل فأمر أن يشتري عبيداً صغاراً زنوجاً أو ما شاكلهم، ثم يستوعبوا، ويسلموا لصيادي السمك والتجار ليعلموهم صنعة البحر، صيد السمك، لتكون قوتهم، فإذا مهروا في

ذلك، يصنع لهم مراكب صغار ليركبوا فيها ويأتوه بخبر النيل..".[٦٤]، ويقول: "ناصر خسرو": "يُقال أن حقيقة منابع النيل لم تعرف، وسمعت أن سلطان مصر، أرسل بعثة لتتبع شاطئ النيل سنة كاملة، ودرسه، ولكن أحداً لم يعرف حقيقة منبعه"[٦٥].

كما تحكي رواية أخرى وقائع رحلة مثيرة عن: "أن بعض خلفاء مصر أمر قوماً بالمسير إلى حيث مجرى النيل، فساروا حتى انتهوا إلى جبل عال، والماء ينزل من أعلاه، وله دوي وهدير لا يكاد يسمع أحدهم كلام صاحبه، ثم أصعدوا واحداً منهم إلى أعلى الجبل، فلما وصل رقص وصفق وضحك، ثم مضى في الجبل ولم يعد ولم يعلم أصحابه ما شأنه، ثم ثانيا: ففعل مثل الأول، فصعد ثالث، وقال: أربطوا وسطي حبلاً فإذا وصلت وفعلت مثل ما فعلا فاجذبوني، ففعلوا، فلما صار في أعلى الجبل فعل كفعلهما، فجذبوه إليهم. فقيل: إنه خَرِسَ ولم يرد جواباً، ومات من ساعته، فرجع القوم ولم يعلموا غير ذلك والله أعلم..."[٦٦] ويفسر الرحالة ابن معصوم سبب ما حدث لهؤلاء الناس بقوله: "أنهم رأوا حجر الباهت وهو نوع من المغناطيس في لون المرقشيشا يتلألأ حسنا، إذا رآه الإنسان ضحك حتى يموت ولا يمسك عنه البتة"[٦٧].

ما يهمنا في الرحلات السابقة هو أن الوجدان الشعبي في صياغته لهذا النوع من الرحلات قد استفاد من بعض التفصيلات والأسماء التاريخية في نسج الرحلة لكي يضفي على رحلته مصداقية زائفة لغرس الإيحاء بمصداقية ما يُروي، وإلباسه ثوب الحقيقة بهتاناً، على الرغم من اتجاهه الأسطوري الواضح، مع حرص الراوي على إثارة ملكه التخيل لدى المتلقي، كما أن مثل هذا النوع من القصص يوضح مدى الاهتمام الذي استحوذ على الناس لمعرفة أصل الأشياء كما يؤكد على رفض العقلية الشعبية فكرة الاعتراف بالجهل فيما يتعلق بالنهر الذي ارتبطت به حياة الناس وجوداً وعدماً.

رحلات أسطورية من عالم الإسرائيليات:

الواضح أن الوجدان الشعبي كان على معرفة وثيقة بهذا الموروث الفولكلوري الجغرافي المتعلق بمصر ونيلها على نحو يسمح له بإعادة إنتاج هذا الموروث العلمي بمفهوم ذلك الزمان، وصياغته صياغة تقدم لنا القراءة الشعبية لقصة الصراع الملحمي بين النيل والمصريين وكيف كان النهر في بداية الموقف (العنصر الطبيعي) بل إلها يعبد وكلها، أمور تتفق، كثيراً وقصة (حايد بن أبي شالوم) التي وردت تارة في الأساطير الإسلامية ــ (الإسرائيليات) ــ أو الفكر الديني الشعبي وتارة في الفكر الجغرافي القديم. وتضمنت أحداثا مواقفاً متباينة بحيث لا يكاد يتضح فيها أي نوع من المنطق. حيث نجد أفعالا خارقة تقع في مكان مجهول غالبا أو في لا مكان كما أنها تقع في زمان معين أو في لا زمان واشتملت على عوالم غريبة لها فهمها الخاص بفكرة الزمن فتقول الأسطورة: – "أن رجلا من بني العيص يقال له حايد بن أبي شالوم بن العيص بن اسحق بن إبراهيم عليه السلام، وأنه خرج هاربا من ملك من ملوكهم حتى دخل أرض مصر، فأقام فيها سنين، فلما رأى أعاجيب نيلها، وما يأتي به نذر لله تعالى ألا يفارق ساحله حتى يبلغ منتهاه، ومن حيث يخرج أو يموت قبل ذلك، فسار عليه ثلاثين سنة في العمران، وثلاثين سنة أخرى في الخراب حتى انتهى إلى بحر أخضر، فنظر إلى النيل يشق مقبلا، فصعد على البحر فإذا رجل قائم يصلي تحت شجرة من تفاح، فلما رآه استأنس به وسلم عليه، فسأله الرجل صاحب الشجرة وقال له: من أنت؟ قال أني حايد ابن أبي شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. فمن أنت؟ قال: عمران بن فلان بن العيص(٦٨).

قال: فما الذي جاء بك ها هنا يا عمران؟ قال: جاء بي الذي جاء بك حتى انتهيت إلى هذا الموضع، فأوحى الله تعالى إي أن أقف هنا حتى يأتيني أمره فقال له حايد: أخبرني يا عمران ما انتهى إليك أمر هذا النيل، وهل بلغك في الكتب أن أحداً من بني آدم يبلغه؟ قال عمران: نعم. قد بلغني أن رجلاً من بني العيص يبلغه، لا أظنه غيرك يا

حايد، قال له: يا عمران فأخبرني كيف الطريق إليه؟ فقال له عمران: لست أخبرك بشيء إلا أن تجعل لي ما أسألك، قال وما ذاك يا عمران؟ قال: إذا رجعت إليَّ وأنا حيُ أقمت عندي حتى يوحي الله إلي بأمره أو يتوفاني الله فتدفنني. قال: ذلك لك عليَّ، فقال له: سر كما أنت على هذا البحر، فإنه ستأتي دابة ترى آخرها ولا ترى أولها، فلا يهولنك أمرها، أركبها فإنها دابة معادية للشمس؛ إذا طلعت أهوت إليها لتلقمها حتى تحول بينها وبين حجبها، إذا غربت أهوت إليها لتلقمها، فتذهب بك إلى جانب البحر، فسر عليها حتى تنتهي إلى النيل، فسر عليه، فإنك ستبلغ أرضاً من حديد جبالها، وأشجارها وسهولها من حديد، فإن أنت جزتها وقعت على أرض من نحاس، جبالها وأشجارها وسهولها من نحاس، فإن أنت جزتها وقعت في أرض من فضة، فإن أنت جزتها وقعت في أرض من ذهب جبالها وأشجارها وسهولها من ذهب. فيها ينتهي إليك علم النيل.. فسار حتى انتهى إلى أرض الذهب فإذا فيها قبة من ذهب لها أربعة أبواب، فنظر إلى ما ينحدر من فوق ذلك السور حتى يستقر في القبة، ثم ينصرف في الأبواب الأربعة؛ فأما ثلاثة فتغيض في الأرض وأما واحد فيسير على وجه الأرض قال حايد: فيشق على وجه الأرض وهو النيل، فشرب منه واستراح،... فقال له: يا حايد أنه سيأتيك من الجنة رزق فلا تؤثر عليه شيئا من الدنيا، فإنه لا ينبغي لشيء من الجنة أن يؤثر عليه شيء من الدنيا، فإن فعلت بقي منك ما بقي.

فبينما هو كذلك واقف إذ نزل عنقود من عنب فيه ثلاثة أصناف: صنف لونه كالزبرجد الأخضر، وصنف لونه كالياقوت الأحمر، وصنف لونه كاللؤلؤ الأبيض، ثم قال: يا حايد أما أن هذا من حصرم الجنة وليس من طيب عنبها فارجع يا حايد فقد انتهى إليك علم النيل، فقال: هذه الثلاثة التي تفيض في الأرض ما هي؟ قال: أحدها الفرات والآخر دجلة، والآخر جيجان، فارجع.

"فرجع حتى انتهى إلى الدابة التي ركبها فركبها، فلما أهوت الشمس لتغرب قذفت به من جانب البحر، فأقبل حتى أتى عمران، فوجده ميتاً فدفنه وأقام على قبره ثلاثة أيام، فأقبل عليه شيخ مشبه بالناس أغر من السجود، فسلم عليه وقال: يا حايد، ما انتهى إليك من علم النيل؟، فأخبره فقال له: هكذا نجده في الكتب، ثم أخرج بعض التفاح، وقال وهو ينظر في عينيه: ألا تأكل منه؟ قال معي رزق قد أعطيته من الجنة، ونبهت ألاّ أؤثر عليه شيئا من الدنيا، قال: صدقت يا حايد.. وهل رأيت في الدنيا مثل هذا التفاح؟ إنما أنبت لعمران في الأرض وليست في الدنيا وإنما هذه الشجرة من الجنة، أخرجها الله تعالى لعمران يأكل منها تفاحة، فعضها، فلما عضها غض يده قال له: أتعرفه؟ (يقصد التفاح) هو الذي أخرج أباك من الجنة، أما إنك لو سلمت هذا الذي كان معك لأكل منه أهل الدنيا قبل أن ينفد، ثم أقبل حايد حتى دخل مصر، فأخبرهم بهذا الخبر، ثم مات حايد بأرض مصر"[٦٩].

فالزمن ــ كما رأينا آنفا ــ يقترب بشدة من كونه زمناً أسطورياً عندما استخدم الضمير الشعبي وحدات زمنية خاصة للإشارة إلى المسافات بين المواقع الجغرافية اتسمت بـ "اللامعقولية" فمثلا (جايد) سار ثلاثين سنة في العامر وثلاثين سنة في الخراب وهى وحدات زمنية ووقتية غير مألوفة للبشر، فالسنين تأخذ أزماناً مختلفة عن الأزمان التي نعرفها لهذه المصطلحات في استخدامنا الإنساني،وقد بدا المكان في تلك الرحلة الخيالية ذا طبيعة خاصة له معاييره وخصائصه التي لا تخضع لمقاييس الواقع.فجاء المكان واسعاً لانهاية لامتداده، فهو في الفضاء وما وراء البحار، وفي رحاب الجنة.الإلهية تارة، وضيق محدّد في أودية الجانّ والنحاس والذهب والياقوت والزمرد، أو وراء الشمس آناً آخر وهو في أغوار النفس الإنسانية الغامضة، أو هو خيالي يقع فيها وراء الحياة الكونية والإنسانية،وتنوّعت الشخصيّات في الرحلة من إنسانية إلى حيوانية إلى شيطانية ولعلنا نلمح في القصة السابقة صورة قريبة الملامح جداً من فرس البحر الذي كانت تعرفه مياه النيل حتى الصعيد في العصور القديمة.

كما نشهد حيواناً ضخماً يشبه الهايشة في سيرة (سيف بن ذي يزن) التي يعلو ظهرها في حذر وهي نائمة، وعند الفجر تتحول بجسدها إلى ناحية الشمس فتنقله بهذا من شاطئ إلى شاطئ عابرة به عرض البحر الممتد الكبير فهذه القصة الواردة في سيف بن ذي يزن شبيهة بحكاية عمران الذي عبر البحر متعلقاً بظهر دابة بحرية ضخمة، يوردها المسعودي في مروج الذهب فيقول: "منها خبر عمران [بن جابر] الذي صعد في النيل، فأدرك غايته، وعَبر البحر على ظهر دابة تعلق بشعرها وَهي دابة ينجر منها على الأرض شبر من قوائمها تُغَادي قرن الشمس من مبدأ طلوعها إلى حال غروبها[فاغرة فاها نحوها لتبتلع – عند نفسها– الشمس] فَعَبَرَ – على ما وصفنا من تعلقه بشعرها– البحر، ودار بدورانها طالباً لعين الشمس، حتى صار إلى ذلك الجانب، فرأى النيل منحدراً من قصور الذهب من الجنة"(٧٠) إلا أن المسعودي يحترز فيما يحكي فيعقب قائلاً: " إلى غير ذلك من خرافات حشدية عن أصحاب الحديث"(٧١). كما استلهم الضمير الشعبي القصص الديني المتعلق بـ(رحلة المعراج)(٧٢) الواردة بالسيرة النبوية في سرد بعض أحداث الأسطورة، لما للمعراج من أثر في إثارة لخيال الناس وللرواة. فكان نواة لحياكة قصص ذات طابع أسطوري تؤدي وظائفها الاجتماعية / الثقافية وتلبي احتياجات الوجدان الشعبي، ويجد فيها مجالاً خصباً يقدم من خلالها تصوراته الخاصة لسيَّر الأنبياء وما اتصل بهم من موضوعات تخص العالم الآخر وخرافات عذاب القبر ونعيمه، وذكرها الفكر الديني ولم يقدمها له بأبعادها المختلفة، مثل الجنة وأنهارها. كما تحمل قصة أكل حايد من التفاح بعض الشبه في الفكرة دون التفاصيل بقصة الغواية وخروج آدم من الجنة، والتي تواترت في القصص الديني، كما وردت في الإصحاح الثالث من سفر التكوين. فالذاكرة الشعبية هنا تدمج في داخلها الموروثات السابقة عليها وتعيد انتاجها بشكل معدل، يساهم في صياغة وحي المؤمنين، كما أن ظهور الخضر (عليه السلام) في وصف طريقة معرفة منابع النيل ــ في بعض الروايات ــ متعاصراً مع البطل، لا يعني مثلاً أن أحداثها وقعت في زمن موسى عليه السلام أو بعده

بقليل؛ ذلك لأن الخضر بذاته شخصية تتمتع في التراث العربي بأبعاد أسطورية واضحة؛ منها اكتسابه الخلود[٧٣]، ومن هنا فإن وجود الخضر في تلك الرواية الأسطورية لا يشير إلى زمن بعينه ووجوده كذلك في نسيج زمن كهذا يضفي شيئا من "المطلقية" على زمن الرواية، والمطلقية كما هو معلوم إحدى سمات الزمن الأسطوري.

كما أن الرواية السابقة تعكس التصور الشعبي لمنطقة منابع النيل التي جعلوها جزءاً من الجنة، والحوار المثير بين أبطال هذه القصة يوضح لنا بجلاء أبعاد الحب والاحترام الذي حمله الوجدان الشعبي لنهر النيل قوام الحياة المصرية ومصدر استمرارها، ومن المهم أن نشير إلى أن هذا التراث الأسطوري المتعلق بنهر النيل لم يكن وليد الفترة التي اتخذت فيها مصر ثقافتها العربية واعتنقت الدين الإسلامي، ولكنه استمرار لموروث شعبي تناقلته الأجيال عبر تاريخ مصر وهذا الموروث الشعبي يخلط بين أساطير مصرية قديمة وتصورات شائعة عن الجنة وثمارها، وهكذا فإن التصور الشعبي عن منطقة منابع نهر النيل، كما اتضح من نصوص الأساطير العربية، كان في حقيقته نتاجا لخيال المصريين ووجدانهم بسبب العجز عن معرفة الحقائق الجغرافية حول منطقة أعالي نهر النيل ومنابعه، ومن ناحية أخرى، كانت هذه الأساطير نوعا من الموروث الشعبي المصري حول النيل، والذي ظل موضوعا للتداول الشفوي والمكتوب طوال عصور التاريخ المصري، وإن جرت عليه بعض التحويرات والتعديلات بحيث يتوافق مع التطورات الاجتماعية والثقافية، وبحيث يلبي الحاجة الاجتماعية والثقافية لأبناء هذا المجتمع ــ وقد حرص الذين كتبوا عن فضائل مصر في المصادر التاريخية والجغرافية العربية على أن يجمعوا هذا التراث الشعبي ويدونوه في كتبهم باعتباره نوعاً من الحقائق المسلم بها[٧٤].

الرحلة الأسطورية إلى الجنة !!

هذه الرحلات الخيالية الغنية بالموتيفات الأسطورية يجيء غناها من انفتاح العجائبي على السجلات الشعبية والمتخيل بكافة أنواعه ومراجعه التاريخية والدينية والثقافية،مما أعطى له أنوية وقنوات تنهض بتشغيل الحكي وتفعيل المتخيل،حيث ارتباطات العجائبي كثيرة إضافة إلى أنه يتغير بتغير العصور والثقافات،وتوجهات الرؤى والتحولات الممكنة في النسق والمرجع.فما يعتبر في عصر ما من باب العجيب قد تُزال عنه هذه الصفة فيفقدها في عصر موال.كما يتخذ تلوينات مغايرة مع كل مؤلف جديد حيث العجيب كذلك حسب المسافة التي تفصل بينه وبين تصور مألوف للواقع يزيد من أهميته ظهور عنصر النبوءة ليضفي على المكان قداسة ومهابة وهو ما يتمظهر بوضوح في حديث الكثير من الرحالة والمؤرخين عن أحد الآبار التي لها مكانة روحية عند أهل بيت المقدس وهي (بئر الورقة) فيقول الموروث الشعبي: " بجامع النساء بئر عن يسرة الداخل من الباب الكبير يسمى بئر الورقة وقد ورد في أمر الورقة حكايات وأخبار وأحاديث كثيرة مختلفة فمن ذلك ما رواه أبو بكر بن أبي مريم عن عطية بن قيس إن رسول الله ﷺ قال ليدخلن الجنة رجل من أمتي يمشي على رجليه وهو حي فقدمت رفقة بيت المقدس يصلون فيه في خلافة عمر رضي الله عنه فانطلق رجل من بني تميم يقال له شريك ابن حيان يستقي لأصحابه فوقع دلوه في الجب فنزل ليأخذه فوجد بابا في الجب يفتح إلى الجنان فدخل من الباب إلى الجنان فمشى فيها واخذ ورقة من شجرها فجعلها خلف أذنه ثم خرج إلى الجب فارتقى فأتى صاحب بيت المقدس فأخبره بما رأى من الجنان ودخوله فيها فأرسل معه إلى الجب ونزل الجب ومعه أناس فلم يجدوا بابا ولم يصلوا إلى الجنان فكتب بذلك إلى عمر فكتب عمر يصدق حديثه في دخول رجل من هذه الأمة الجنة يمشي على قدميه وهو حي وكتب عمر أن انظروا إلى الورقة فان هي يبست وتغيرت فليس هي من الجنة فان الجنة لا يتغير منها شيء وذكر في حديثه إن

الورقة لم تتغير وورد في ذلك أحاديث بغير هذا اللفظ ويقال إن الجب هو هذا الذي بالمسجد الأقصى عن يسرة الداخل للجامع"٧٥تلك القراءة الشعبية لعمران القدس جاءت زاخرة أيضاً بالحكايات الشعبية والأسطورية والنبؤات والإشارات التلميحية، وهو ما يعكس بوضوح تأثير ذلك النوع من القصص التاريخي الذي كان شائعا في المجتمع العربي يومئذ على أيدي الإخباريين والرواة الذين كانوا يعقدون مجالسهم في المساجد والمحافل وساحات الإنشاد الديني، ولما كانت الرواية شفوية كان لا بد من عنصر الإثارة والتشويق لجذب انتباه السامعين، ومن الواضح أن الرحالة والمؤرخين قد اعتمدوا على جانب كبير من هذه الروايات الشفوية التي تروي تاريخ المدينة المقدسة.

ولعل عنصر اختفاء باب الجنة في بئر الورقة من شأنه أن يؤجج العجائبي المرتبط بالقدس ويعمق مساربه خالقاً نفقاً آخر في جسم النص الرحلي والتاريخي للارتباط بالشرايين الأخرى التي تبقى غير بعيدة عن أفق النسق الثقافي الذي أنتج تلك الرواية.فالاختفاء بدوره يؤسس لعوالمه انطلاقاً من استحضاره لتأكيد قدسية وعجائبية البئر اعتماداً على السند التاريخي والديني مما يساعد على بناء مسار العجائبي وترسيم خطابه.كما يمثل عنصر الاختفاء في الرواية الشعبية تقاطعاً مع الخارق.فعجائبية القدس عموماً بهذا الحضور هو مسار استراتيجي في النص الرحلي والتاريخي والعجائبي متجذر في الثقافة العربية ومرتبط بعناصر / محفزات تستمد قوتها من التاريخ والدين لتدعيم الرؤية والخطاب(٧٦).

ويبدو أنّ الحديث عن بئر الورقة يتشابه كثيراً مع حكايات الرحلات الخياليّة التي حاولت استشراف الغيب وساعدت على إرواء ظمأ النفس التوّاقة لمعرفة شيء عن مصائر البشر بعد الموت.وكذلك عن معرفة أوصاف الجنة وما ينتظر المرء الصالح من نعيم وفواكه وأشجار وعيون بشر بها القرآن الكريم.

فقام الوجدان الشعبي بتلك الرحلة الخياليّة إلى الجنة عبر آبار القدس لتعكس آمال الإنسان وطموحاته التي يريد تحقيقها وذلك بعد أن يقتحم عوالم مجهولة. ربّما

تكون قد شغفته شوقاً لكشف مجاهيلها. فكانت الرحلة إلى الجنة التي شغفته حباً وتطلعاً وسيلة لتحقيق الوعد الإلهي الخالد في القرآن الكريم،ووسيلة معرفة واستشراف للمستقبل الذي ينتظر الإنسان، وطريقاً يصل المرء من خلاله إلى فكرة أن القدس كما كانت أقرب الدروب إلى السماء في رحلة المعراج فهي أيضاً أقرب الطرق إلى الفردوس الموعود،ولكي يضفي الراوي على كلامه جواً من الصدق المغلف بالحقيقة يعمد إلى سرد الخبر بأسماء رواة يحرص فيها على التسلسل، لغرس الإيحاء بمصداقية ما يروى ,وإلباسه ثوب الحقيقة على الرغم من اتجاهه الفولكلوري الأسطوري الواضح فيقول صاحب مثير الغرام: "روى عن ابن عباس، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما مرفوعاً: أقرب الأرض إلى السماء بيت المقدس باثني عشر ميلاً...وروي عن على بن أبي طالب قال: أوسط الأرضين بيت المقدس وأرفع الأرضين كلها إلى السماء بيت المقدس بينهما أربعة عشر ميلاً..وعن عمر: صخرة بيت المقدس أقرب بقعة إلى السماء بأربعة فراسخ..وعن قتادة عن كعب: بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً ".٧٧ فتأثير قصة الإسراء والمعراج واضح ولا شك في تصورات القاص أو الراوي الشعبي،وقد أتاحت قصة الإسراء فرصة للخيال الشعبي لأن يعبر من خلالها عما يساوره من أفكار إزاء العالم الآخر.

وعلى الرغم من أنه كانت، ولا تزال، هناك جوانب مشينة ومظلمة للرحلة، مثل التجسس من أجل العدوان على الآخرين، أو التخريب، أو سرقة ثروات الأمم الأخرى.. وما إلى ذلك، فإن الإشراقات الإيجابية للرحلة قدمت خدمات جليلة للإنسانية، وللإنسان الفرد على السواء. فلولا الرحلة لظلت معارف الإنسان عن العالم الذي يعيش في رحابه رهن الأساطير والخيالات والأوهام (مثل شكل الأرض وحدودها، وموقع الجنة التي تصورها الأوربيون في مكان ما قرب الهند).

كما قدمت الرحلة إسهامات مهمة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مثل: التاريخ، وعلم الإنسان، والأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع؛ بل إنها أثرت في علوم مثل: الاقتصاد، والسياسة، والآثار، والدراسات اللغوية، والدراسات الشعبية.. وما إلى ذلك. باختصار وفرت الرحلة، وما زالت توفر، معرفة الإنسان بذاته، وبالكون الذي يعيش في رحابه. فالرحلة حالة يتعرف فيها الإنسان على (الآخر) وربما يصبح أكثر استعداداً للاعتراف بوجود هذا الآخر والتعامل معه، وربما يحدث العكس تماماً. بيد أن الرحلة في كل الأحوال نشاط إنساني / ثقافي يختلف عن أي نشاط آخر يمارسه الإنسان(٧٨).

الرحلة وصرخة الميلاد العربي:

وأقدم ما وصلنا من أخبار الرحالة المسلمين في القرنين الثالث والرابع للهجرة يشير إلى أن تجاراً من العرب من عمان وسيراف والبصرة كانوا يصلون إلى الصين وقد روي المسعودي أخبار بعض هؤلاء الرحالة،فيذكر أن تاجراً من سمرقند خرج من بلاده، وقد حمل من المتاع أحمالاً كثيرة، فوصل إلى العراق، ورحل إلى البصرة، ثم ركب البحر حتى وصل إلى عمان، وركب من هناك إلى بلاده كلاه الواقعة في منتصف الطريق إلى الصين. ونستنتج من أقوال الرحالة سليمان السيرافي الذي ينسب إليه كتاب أخبار الصين والهند وجود جالية عربية وإسلامية بالصين كانت تتمتع بامتيازات خاصة ولقد ذيل رحالة عربي هو أبو زيد الحسن بن اليزيد السيرافي على كتاب سليمان السيرافي وأضاف إليه معلومات استقاها من أحاديثه مع التجار والملاحين في سيراف. (٧٩).

وعلى الرغم من تعدد دوافع الرحلات عند العرب في ظل الإسلام ـــ كما رأينا آنفاً ـــ،فإن ما وصلنا من كتب الرحلات قليل إذا قيس بالمصنفات الخاصة بالرحلات. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى ضياع معظمها، وإلى أن كثيراً من الرحالة آثر أن يدمج

مشاهداته فيما ألفه من كتب تاريخية أو جغرافية كابن حوقل واليعقوبي[٨٠]** والمسعودي[٨١].

غير أنه بداية من (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) بدأت الكتب الجغرافية الوصفية، وكتب الرحلات تتميز طابعها أكثر فأكثر بالتنسيق الأدبي للمواد الواردة في المصنفات المتقدمة وبدأ الناس يشعرون بثقل وطأة التقليد، وجنح الرحالة والمؤلفون إلى تدوين فوائد المعارف التي جمعتها الأجيال السابقة دون تمييز بينها وصوغها في أسلوب أدبي وبدأ التقريب بين الجغرافيا الوصفية والجغرافيا الفلكية، وأبرز مثال لذلك كتاب رحلة الإدريسي " نزهة المشتاق " المتوفى ١١٥٦م، ويشتهر هذا الكتاب بمصوراته السبعين، ويظهر أن شهرة الإدريسي تنحصر في القسم الغربي من العالم الإسلامي، وجاء الرحالة ابن سعيد في القرن السابع الهجري بكتاب يشبه كتاب الإدريسي وهو "كتاب جغرافيا في الأقاليم السبعة "، واستغل هذا الكتاب كثيراً من الحقائق الجديدة، مثل أخبار رحلات ابن فاطمة**[٨٢]. ومن الملاحظ في تاريخ الثقافة أن أدب الرحلات أزدهر في العصور المتأخرة التي اعترى الجمود مختلف الجوانب منذ القرن الحادي عشر الهجري حتى نهاية القرن الثالث عشر[٨٣]

ويرى العديد من الدارسين أن الفترة ما بين القرنين(الرابع—السادس الهجري/ العاشر – الثاني عشر الميلادي) هي فترة ازدهار المؤلفات الجغرافية والرحلات من ذلك النوع المبسط. ففي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي بلغ أدب الرحلات والجغرافية ذروته، وذلك على أثر ظهور مؤلفات من نوع المسالك والممالك، أي بظهور المدرسة التقليدية للرحالة والجغرافيين العرب التي كانت على صلة وثيقة " بأطلس الإسلام " الذي يمثل قمة علم المصورات عند العرب، أو علم الخرائط.

كما حظي التبسيط الجغرافي بمجال رحب لدى الجمهور، الذي أقبل عليه بشغف وتعددت مناهج وصف الرحلات. وإجمالاً يمكن القول: بأن القرن (الرابع

الهجري/ العاشر الميلادي) كان عصر تكامل الأنماط في المصنفات الجغرافية والرحلات، وفيه قال العرب بكروية الأرض، وكان أكبر المدافعين عن هذه النظرية أبو عبيدة مسلم البلنسي في القرن الرابع الهجري، وقد حافظ العرب على هذه النظرية حتى عصر الاكتشافات. وامتاز الرحالة والجغرافيون في القرن الرابع الهجري بأن معظمهم كانوا رحالة جمعوا كثيراً مما كتبوه بوساطة المشاهدة والاختبار والأسفار.

ونسجل بكل فخر بعض أعلام الرحالة الذين ساهموا في هذا المضمار حتى وصلت إلى الشرق والغرب وكانت المنهل الذي استقوا منه معلوماتهم وعلى رأسهم:

الرحالة المسعودي: وموسوعة القرن الرابع الهجري

ويعد المسعودي من أشهر الرحالين العرب في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي؛ فقد كانت حياته رحيلاً دائماً بين بلاد وأجناس متعددة، وتجاوزت نصف القرن زمناً،و أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي المتوفى سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م نجده قد عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. ونشأ في بغداد، ثم أقبل على السياحة لطلب العلم،وخرج إلى رحلته ولم يبلغ العشرين من سنى حياته. وجمع الحقائق الجغرافية والتاريخية. فطاف في إيران، ثم رحل إلى الهند وجزيرة سرنديب، ثم رافق جماعة من التجار في رحلة إلى بحار الصين، وجال بعد ذلك في المحيط الهندي وزار زنزبار وسواحل إفريقية الشرقية والسودان، ثم قام برحلات في إقليم بحر قزوين وآسيا الصغرى والشام والعراق وبلاد العرب الجنوبية ومصر [(٨٤)]

وقد تحدث المسعودي عما لقيه من التجارب والمشاهدات خلال رحلاته في مؤلفات تاريخية ضخمة ضاع أكثرها بسبب ضخامة حجمها وقلة انتشارها منها كتاب" التنبيه والأشراف" الذي ألفه عام ٣٤٥هـ/٩٥٦م. في خلافة المطيع[٨٥]. وهو سابع كتاب يؤلفه ومن ثم فهو يقدم فيه خلاصة وافية لمعارفه وتحليلاً لكل مؤلفاته. ونجد في الكتاب أول محاولة لتصنيف سكان العالم حيث يقسم المسعودي الشعوب إلى

سبع مجموعات النولوچية هى: الفرس، الكلدانيون ومعهم العرب، وسكان أوربا، الليبيون والأفارقة، سكان السند والهند، الصينيون[٨٦].

أما أعظم ما وصل إلينا من مؤلفاته كافة فكتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" وهو أشهر من أن يعرف لشيوعه في القرن الرابع الهجري فهو كتاب في التاريخ ولكن إذا شئنا الدقة فإن الكتاب ليس تاريخاً فحسب وإنما هو موسوعة ضمت معارف المسعودي جميعها تلك المعارف التي حصدها أثناء رحلاته المتعددة الطويلة. صحيح أن الجزء الأكبر من الكتاب مخصص للتاريخ الذي يعني بالماضي أساساً ولا يتيح للمؤلف مجالاً لحكاية تجاربه الذاتية غير أن المسعودي لم ينس عصره ولم ينس شخصه فظفرا – عصره وشخصه – بقسط من اهتمامه وكان ذلك الربط بين الماضي والحاضر زماناً والقريب والبعيد مكاناً والموضوع والذات منهجاً – كان ذلك كل سبباً في نجاح مؤلفات المسعودي والإقبال عليها[٨٧].

وعلى هذا فإن نسبة الكتاب إلى محيط الأدب أقرب إلى الدقة خاصة وأن المسعودي كان أديباً قبل كل شيء حريصاً على التأنق في عباراته والاستشهاد بالمأثورات الأدبية والشعبية. ولذا فالكتاب يسمح في محتواه بأن يضم إليه مجموعات من العجائب والأساطير تسير معه في نسق واحد ويمكن أن يحملها معه مختصر يجمع كل شاذ وغريب والواقع أن المسعودي نفسه استهوته حكايات الأساطير وقصص العجائب فجمعها بكثرة إما من الكتب وإما من خلال أسفاره ومشاهداته في رحلاته المتعددة[٨٨].

فالكتاب يعتمد على مصادر رحلاته ولكن هذا الحصاد مبعثر في جنباته وما يمكن جمعه من إشارات إلى وجوده في أماكن معينة[٨٩] فالمسعودي اعتبر هذه الرحلات مصدراً رئيسياً وحقيقياً فيما يتعلق بالعادات والتقاليد أو الممارسة العقلية للحياة ولهذا فهو يضيف مشاهداته إلى ما جمع من أخبار، يسأل ويستقصي السر وراء

كل ظاهرة، ثم يقدم ما يرى وما يسمع كشاهد حي على حركة التاريخ في عصره كمستقصي باحثاً عن أسرار الظواهر ومعانيه، وهو يقول عن الواحات بمصر: (وقد رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات بباب الإخشيد محمد بن طغج وذلك من سنة ثلاثين وثلاثمائة وسألته عن كثير من أخبار بلدهم وما احتجت أن أعلمه من خواص أرضهم وكذلك كان فعلي مع غيره في سائر الأوقات ممن لم أصل إلى بلادهم وأخبرني هذا الرجل عما بأرضهم من العشب وأنواع الزاج وما يجمل من بلادهم وما بأرضهم من أنواع العيون)(٩٠).

بالإضافة إلى ذلك اعتمد المسعودي على مصادر حية في إمداده بالمعلومات كما جاء في الخبر السابق وكذلك: (لم أترك ممن شاهدت من التجار ممن له أدب وفهم وممن لا فهم عنده من أرباب المراكب إلا سألته عن ذلك)(٩١) فالمسعودي إذن يشاهد ويسأل أهل العلم والفهم ثم يسأل أهل الخبرة والمهنة ممن لا فهم عندهم ولكن عندهم التجربة الممارسة والفعل اليومي الدائم وقد أكسبته هذه الممارسة الفعلية للمواقع التي يصفها نوعاً من الإحساس بالثقة فيما يذكر من معلومات وما يناقش من آراء أوردها غيره ممن لم يتمتعوا بهذا المصدر الرئيسي أعنى به الرؤية والمشاهدة فيقول في ص ٨١ من الجزء الأول: (وقد زعم عمر بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذي هو نهر السند من النيل ويستدل على أنه من النيل لوجود التماسيح فيه.. فلست أدري كيف وقع له هذا الدليل.. لأن الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار ولا يعرف المسالك والأمصار وإنما كان حاطب ليل ينقل من كتب الوراقين)(٩٢).

كتاب المسعودي إذن هو عمل موسوعي يضم إلى جوار التاريخ مشاهدات الكاتب وأرائه وما وقع عليه من معرفة بعادات الشعوب وثقافاتها ومعتقداتها فقد دون المسعودي كل ما سمع وشاهد الكثير من المعتقدات الشعبية الموجودة في عصره وأيضاً مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية التي تكشف الستار عن حقيقة نبض

الشعوب التي تحدث عنها وأفاض في وصفها والنقل عن "الثقات" من أهلها مما جعل كتابه حقلاً خصباً يفيد منه أي باحث في التاريخ والجغرافية والأدب.

*ابن حوقل البغدادي والعقل الناقد.

ومن الجغرافيين في (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الذي ظل يتجول في البلاد الإسلامية نحو ثلاثين سنة، ولسنا نعرف شيئاً كثيراً عن سيرة حياته عدا أنه غادر بغداد سنة ٣٣١هـ / ٩٤٣هـ، طلباً لدراسة البلاد والشعوب، ورغبة في الارتزاق من باب التجارة. فطاف في العالم الإسلامي من شرقيه إلى غربيه ويبدو أنه شاهد كل ما كتب عنه وعاينه، ما خلا الصحراء الكبرى فإنه لم يشاهد إلا جزءاً منها وقد دون ذلك في كتابه الأشهر"صورة الأرض" إذ هو كتاب جغرافي جامع يكشف عن النظرة الجغرافية لبلدان العالم المعروف حيث حاول أن يضع كتاباً لا يأخذه من أفواه الناس ولا مما قرأه وإنما يأخذه عن عينه ومشاهداته[٩٣]في العالم الإسلامي ولكننا في النهاية ننتقل في كتابه بين أخبار جغرافية وتاريخية وقصصية ومشاهدات يرويها.

ومن هنا كانت أهمية المادة الموجودة به والتي تثري المكتبة العربية بفيض من المعلومات الهامة التي تحلى فيها صاحبها بالروح العلمية الحق، فبدا كتابه متماسكاً، واضح المعالم[٩٤]، كما بدت أمانته العلمية في غير موضع، إضافة إلى تواضعه الشديد في مثل قوله: " ولما كان العلم بكليته بإزاء أبناء البشر بكليتهم، فلن يبلغ الإنسان الواحد منه بجزئيته إلا ما اقتضته سعادته"[٩٥].

برغم ذلك لم يسلم ابن حوقل من بعض الانحياز لإقليمه الأكبر ـــ العراق ـــ، فبالغ في مدحه [٩٦] وادعى أنه سيوجز في وصفه؛ لأنه مشهور معروف، كما أولى مسقط رأسه ـــ نصيبين ـــ اهتماماً كبيراً، فأرخ لها، وصب جام غضبه على الحمدانيين لتسببهم في تدهورها، وهو سلوك ليس غريباً على ابن حوقل الذي ما

انفك ينعى على الحكام المسلمين تقاعسهم وتخاذلهم أمام أعدائهم، وطغيانهم وتجبرهم على مواطنيهم، وكانت بلدته المثال والنموذج الحي للسلوك الأخير. فما أشبه الليلة بالبارحة !!.

ويبدو أن ابن حوقل كان معنياً بتدوين كل ما يصل إليه علمه مما يفيد موضوعه منذ بداية خروجه عام ٣٣١هـ والدليل على ذلك هذا التوثيق لبداية رحلاته كما يدل عليه أيضاً ذكر أسماء مصادره أو صفاتهم في أغلب الأحوال مما يعني اهتماماً بالخبر والمخبر معاً. بل إنه كان يسأل مصدره أكثر من مرة عن الخبر الواحد – في أزمنة مختلفة – حتى يتأكد من صحته، يقول: (وكنت إذا لقيت الرجل الذي أظنه صادقاً وأخاله بما أسأله عنه خبيراً فأجد – عند إعادة الخبر الذي أعتقد فيه صدقه وقد حفظت نسقه وتأملت طرقه ووصفه – أكثر ذلك باطلاً وأرى الحاكي بأكثر ما حكاه جاهلاً ثم أعاوده الخبر الذي التمسه منه.. وأجمع بينهما وبين حكاية ثالث بالعدل والسوية فتتنافر الأقوال وتتنافى الحكايات)(٩٧).

أهمية "صورة الأرض" في تراث أدب الرحلات تتلخص في كون ابن حوقل كان موقفه من العجائب والغرائب علمي فقد نزه كتابه عن ذكر ما لا يعقل قدر الإمكان وحاول أن يتأكد من صحة ما يروى له فقد سمع عن سمكة "العروس" بالإسكندرية حكاية غريبة (ورأيتها أنا وجماعة من ذوي التحصيل فشهدوا بكذب هذه الحكاية) (٩٨) وهو ما لم يفعله غيره ممن رووا الحكاية نفسها(٩٩).

ويحسب له أيضاً أنه ناقش المعتقدات الجغرافية الخرافية المستقرة في عصره وانتهى إلى نقدها مثل أن الأرض مصورة بصورة طائر(١٠٠) وأن الدنيا مسيرة خمسمائة عام(١٠١) ومع هذا جاءت لغة كتاب ابن حوقل مميزة – إذا قورنت بغيرها – حسبما يرى "آدم متز" فقد (جاءت كتب المقدسي وابن حوقل في القرن الرابع الهجري فكانت هي الذروة التي بلغها العرب في وصف البلدان وكلاهما قد سافر حتى دوخ المسالك وحمل تيار الأسفار واستهوته حياة الارتحال والسياحة على طريقة

المسلمين.. وكلاهما قد انتهت إليه اللغة و.. وقد استعملاها في فنهما استعمال من يملك ناصيتها وإن كان ابن حوقل في ذلك أقل إظهاراً لتكلف الطرافة والجمال من المقدسي)[١٠٢].

شمس الدين المقدسي: قصة كتاب في المورث الشعبي.



هو من أعظم الرحالة الجغرافيين في القرن (الرابع الهجري / العاشر الميلادي) المقدسي، أبو عبد الله، المعروف بالبشاري. وقد طاف في الأقاليم الإسلامية، وقال عن نفسه إنه لم يظهر كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" حتى بلغ الأربعين عام

(٣٧٥هـ /٩٨٥م) ومن ثم يكون مولده على الأرجح عام (٣٣٥هـ / ٩٤٦م) حيث أشار إلى أنه أقام في بيت المقدس عشرين عاماً قبل رحيله، ثم تصادفنا أول إشارة زمنية إبان حجه عام (٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)، فيكون مولده في العام السابق نفسه، أو قريباً منه جداً.[١٠٣] وولد في بيت المقدس لأب مقدسي، وأم ذات أصول فارسية،وكان لهذا الاختلاط العرقي أثره في توجهاته.

وبرغم إسراف المقدسي في وصف مزايا كتابه وذكر ما عانى في سبيل تأليفه إلا أن هذا الكتاب يعد من الأعمال القليلة التي نالت تأييد رهط غير قليل من الباحثين – من عرب ومستعربين – على أنه عمل مميز مما جعل تأييدهم يكتسي أهمية بالغة وقد أيد البحث العلمي الموضوعي ذلك الإجماع مما جعل من هذا العمل أكثر قيمة وأدعى للاحترام ونال – وما زال ينال – إعجاب وتقدير كل من تعاملوا معه نظراً لما تميز به من جدة وطرافة.

وقد تناول فيه أحوال كل بلدة وأهلها من طبائع وعادات حتى في لغاتهم. والكتاب بذلك يعد طرفة حقيقة ففيه مادة غنية عن سكان كل بلدة ذكرها وما يمتازون به في طعامهم وثيابهم وعباداتهم ونسكهم فيعرض علينا سكان العالم الإسلامي بكل خصائصهم وصفاتهم[١٠٤] كقوله عن سكان العالم الإسلامي: (أظرف الأقاليم العراق..وأكثرها بركات وصالحين وزهاداً مشاهد الشام،وأكثرها عباداً وقراءً وأموالاً ومتجراً وخصائص وحبوباً مصر..وأجفاها وأثقلها..وأكثرها مدناً وأوسعها أرضاً المغرب) والكتاب كذلك (نموذج للكتاب العلمي المرتب المنظم المبوب المقسم)[١٠٥]

برغم أنه قد اختلطت في هذا الكتاب الجغرافيا بالأخبار وعجائب الآثار والخرافات والأساطير بجانب أحوال الناس والعمران في تناغم آسرين وكانت مخيلة المقدسي من المخيلات اللاقطة التي تلتقط كل ما تشاهده وتسجله مع التحقيق والتدقيق في الرؤية وما ينقله عن الأفواه والشفاه[١٠٦] مما جعله حقلاً خصيباً ينهل منه

أي باحث في جوانب شتى وإشارات غزيرة منها صريح الدلالة ومنها خفيها واتبع في ذلك نهجاً علمياً صارماً – في أغلب الأحيان – كفل له تقديم صورة شديدة الوضوح غنية المحتوى لبلدان العالم الإسلامي. واعتمد كذلك على الدراسة الميدانية المباشرة مما أحدث شيئاً من التوازن في المضمون وأبعد عن الكتاب شبح الجفاف الصرف أو العلمية البحتة(١٠٧).

ومما هو جدير بالذكر، أنه لا يمكننا أن نغفل ذهنية الرحالة ومشاعره العاطفية التي غالباً ما قد تُوجه مشاهداته وتؤثر في صياغة كتاباته، وهنا يكمن الخلط بين الممكن والمستحيل أو الواقع والخيال. ومع ذلك فالرحالة شمس الدين المقدسي يشهد له بالبنان فيما كتب، والصدق فيما وصف، والمنهجية فيما قدم من بيانات أو معلومات عن الأماكن والناس. فوجدنا مؤلفه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" مزجاً بين الرحلة والأثنوجرافيا (أي الوصف المنهجي لثقافات الشعوب)، علاوة على ما فيه من تفاعل في شخصية هذا الرحالة بين الحس الوصفي والنزعة الأدبية في عرض المعلومات بطريقة سلسة وشيقة. هذا بالإضافة إلى جمال الوصف وحسن التعبير.١٠٨

فقد حفظ لنا المقدسي عن بلدان المشرق العربي بعض الملاحظات الطريفة التي تدل على دقة النظر مثل أن: " تسمية واسط بهذا الاسم سببها أن منها إلى بغداد أو إلى الكوفة أو إلى البصرة، أو إلى حلوان، أو إلى الأهواز خمسين فرسخاً – هو استدلال خاطئ لأن وسط العراق العاقول "(١٠٩)وكذلك قوله: أن نيل مصر كان يصب في البحرين الأحمر والمتوسط قديماً ونقل ذلك عن بعض العلماء المصريين ليؤيد نظريته في التقاء البحرين وتحديدهما وأن بناني المسجد الحرام من مصر والشام بدليل أسمائهم المكتوبة على الحائط(١١٠) وكذلك لاحظ المقدسي أن المصريين (يكثرون الإشارة في الصلاة والنخع والمخاط في المساجد ويجعلونه تحت الحصير وأنهم يحبون رؤوس السمك)(١١١) ولاحظ على أهل المغرب: "حب التغرب "(١١٢) وكذلك: "

البخل الشديد"[١١٣] ولاحظ أنه: " إذا تكلم أكثر أهل بخارا هزو أكتافهم إلى فوق، ورأيت أبا بكر الإسمعيلي يفعل ذلك" [١١٤] ويصف أبا الهول في مصر بأنه صنم يزعم أن (الشيطان كان يدخله فيكلمه حتى كسر أنفه وشفتاه)[١١٥].

ومعنى هذا كله أن كتاب المقدسي يحتوي على ثروة من الموروث الشعبي كبيرة جديرة بدرس خاص يكشف عن أسرارها، أضاءت لنا العديد من النقاط الهامة. والتي تؤكد على وجود "اللُحمة" بين التاريخ والموروث الشعبي. تلك (اللُحمة) التي تلتمس في الماضي التفسير الشعبي للتاريخ. أو ما يمكن أن نسميه بـ (البعد الثالث) للدراسات التاريخية؛ أي التفسير النفسي والوجداني ورؤية الجماعة الإنسانية لذاتها وللكون والظواهر والأحداث من حولها. والتي تتطلب – في حقيقة الأمر – دراسة مستقلة ومستفيضة لا تقتصر على جمع نصوص الرحلات وتحقيقها فحسب. وإنما عليها أن تستخلص أيضاً ما قد تنم عليه من دلالات، وأساسيات في التفكير العربي والإسلامي، وما تفصح عنه النظرة إلى علاقة الإنسان بالكون.

وأن نفتح ما نسميه بالنافذة الفولكلورية (العلمية / المنهجية) على تراثنا المدون في أدب الرحلات، الممتد طويلاً في المكان والزمان العربيين، فتتجدّد الرؤى المعرفية، وتتعدّد القراءات، فتتجذّر المناهج، وتتواصل الدراسات التاريخية والشعبية والأدبية العربية، اكتشافاً وتأويلاً، دراسة وتأصيلاً، فتتجدّد الإفادة من هذا التراث بقدر ما يتنامى الوعي التاريخي والمعرفي والثقافي به ويضيق بنا المقام لو حاولنا تتبع الخطوات العامة لأنماط عناصر ذلك الموروث الشعبي في كتب التراث العربي بعامة وأدب الرحلات بخاصة.

البكري: ومعجم ما استعجم من أسماء البلاد.

ظهر في الأندلس في القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي علم من أعلام الجغرافيين العرب والمسلمين.هو عبد الله بن عبد العزيز البكري، صاحب

"كتاب المسالك والممالك" غير أن هذا المؤلف لم يدون في هذا الكتاب الكبير نتائج أسفاره ورحلاته، وإنما اعتمد على ما جمعه من الآثار العلمية التي خلّفتها من سبقوه[١١٦] كما ألف البكري معجماً جغرافياً، هو "معجم ما استعجم من أسماء المواضع والبلاد " وهو معجم لغوي جغرافي، يصف جزيرة العرب، ويتحرى ما بها من المعالم والمشاهد، والبلدان والمعاهد والآثار، والمناهل والموارد، ويتتبع هجرة القبائل العربية من أوطانها، وترددها بين مصايفها ومرابعها، ومباديها ومحاضرها، ويذكر أيامها ووقائعها، وأنسابها وعشائرها.

مؤلف هذا المعجم هو الرحالة والجغرافي العربي أبو عبيد، عبد الله بن أبي مصعب عبد العزيز بن وائل، وهو لغوي من الطراز الأول في الأفق الأندلسي، تحدثنا مؤلفاته النادرة أنه أمتاز على أهل عصره بثقافته اللغوية العالية، كما يحدثنا أصحاب التراجم بأن أسلافه كانوا من بيت الرواة والشرف والرياسة، وأرباب النعم. ولم تصرح كتب التراجم بالسنة التي ولد فيها أبو عبيد، وغنما ذكرت وفاته سنة ٤٨٧هـــ عن سن عالية.

أخص مزايا معجم البكري الضبط لأسماء البلدان، لأنه ألف لهذا الغرض، وقد أبان هو عن ذلك في مقدمته، إذ رأى كثيراً من أسماء البلدان التي ترد في الأحاديث والأشعار والسير والتواريخ، وقد دب إليها التصحيف والتحريف، وضرب لذلك أمثلة كثيرة.والبكري يضبط الكلمات بالعبارة لا بالحركات، وهذه إحدى مزاياه، ولولا ذلك لاختل المعجم، وضاعت قيمته، ولم يسلم من شوائب التحريف، التي ذهبت بكثير من محاسن غيره في ذلك العصر[١١٧].

وبنهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي والقرون التي تلته نشهد التطور الختامي لأنواع المصنفات الجغرافية: وبداية من تلك الفترة ظهرت المعاجم الجغرافية والمؤلفات الجغرافية العالمية واحتلت الموسوعات التاريخية والجغرافية مكانة

هامة في المشرق العربي(١١٨). حيث صار النشاط الثقافي في المشرق العربي خلال القرن السادس الهجري موجهاً نحو الحفاظ على التراث الفكري الثري أكثر منه نحو المشاركة في إثراء هذا التراث، وظهرت في هذا العصر مؤلفات ضخمة ذات طبيعة موسوعية أو شروح وتفسيرات جامعة أو كتب تبسط العلوم وتختصرها، وتشرح الشروح وغالباً ما يكون هذا الاتجاه علامة على التوقف الفكري والجمود الذي يعتري حضارة من الحضارات.(١١٩).

وأخيراً كثرت أقاصيص الرحالة الجغرافيين وبدءًا من فترة التوقف الفكري آنذاك ينتهي الطور الإبداعي في الأدب الجغرافي العربي الذي أصيب بالعقم فيما بعد فلم ينتج أي صور جديدة بل اكتفى بمحاكاة الأنماط السابقة عدا بعض التعديلات الطفيفة في المضمون انسجاماً مع متطلبات العصر الذي كتبت فيه(١٢٠).ويمكن أن نصنف ما اهتم به الرحالة العربي من أمور التصنيف التالي على الرغم من تداخل عناصره بعض التداخل، مثل ما يتصل بالرحلة ذاتها والأمور الجغرافية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

وصور الرحالة العرب كل أنواع الطبيعة التي مروا بها تصويرا يتفاوت إجمالاً وإسهاباً وتفاوتت قدراتهم على الملاحظة والوصف، وتختلف ميولهم فيوجد في حديث أحدهم ما لا يوجد عند الآخر، ويمكن أن نلاحظ أنهم قد عنوا بتحديد موقع الأماكن التي زاروها ومساحتها ومياهها وثرواتها ومناخها وسكانه(١٢١).

ولا يوجد واحد من الرحالة العرب أهمل إهمالاً تاماً الحديث عن العمائر والمعالم العمرانية من آثار وأبواب وأديرة وأسوار وأضرحة وجسور وجوامع وحصون وحمامات وخوانق ودواوين ودور وفنادق وقباب وقصور وقلاع وقناطر وكنائس ومبان ومتاجر ومحارس ومدارس ومساجد ومستشفيات ومشاهد ومقابر ومنارات ومنازل ونقوش، فأسهب البعض وأجمل آخرون(١٢٢).

ووجدنا أن هذا الاهتمام العسكري والسياسي المتصاعد كان يوازيه اهتماماً آخر على مستوى التجارة والدبلوماسية والمعرفة والثقافة فقد وفدت الرسل من كل أنحاء أوربا إلى مصر حجاجاً إلى فلسطين وزوراً للأماكن المسيحية المقدسة في الشام وسيناء والفسطاط والمطرية والصعيد متلمسين طهارة خطى مريم العذراء مع ولدها المسيح عليه السلام في بقاع المشرق الإسلامي المختلفة.

وفي خضم هذا جاء الرحالة بمختلف الجنسيات، سفراء، جواسيس تجاراً وباحثين، حجاجاً وزواراً ودونوا في مذكراتهم من الأخبار والملاحظات عن بلدان المشرق العربي بأنماطها الثقافية والحضارية وتقاليد أهلها وملابسهم وطعامهم فقرائهم وأغنيائهم مبانيهم ومؤسساتهم، وقد غلبت على البعض منهم نزعة المقارنة بين ما يشاهدوه وبين ما هو موجود في بلدانهم[١٢٨].

وكان في طليعة هؤلاء الرحالة نفر كثير من الرحالة العرب الذين شجعهم على الارتحال شعور العربي بأنه في بلده مادام في ديار عربية بشكل خاص وإسلامية بشكل عام، وكان للعروبة والإسلام هيبة في سائر دول العالم. فكان العرب المسافرون يلقون من كرم الضيافة، وحسن المعاملة، ما يحبب إليهم الرحلات والأسفار. وكان العالم العربي في العصور الوسطى يمثل دائما كتلة ثقافية وروحية واحدة على الرغم من المنازعات السياسية!! فكان الرحالة ينعمون بوحدة روحية شاملة؛ فلا جواز سفر ولا تصريح بل ترحيب للنابهين منهم، وأخوة بين أفراد الأمة الواحدة التي تكره التجزئة ولا تضن باحتقارها على الملوك والحكام الصغار كقول ابن رشيق الأندلسي.

ما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضـــد
أسماء مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد[١٢٩]

ومن هنا أفادت مؤلفات الجغرافيين والرحالة من المسلمين والعرب – عصر الحروب الصليبية وعلى مدى القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث

عشر الميلاديين – في تقديم صورة جلية للحضارة والعمران والطبوغرافية التاريخية ببلدان المشرق العربي حينذاك.

ومزجت بين الجغرافيا والتاريخ والأدب في تناسق حيوي وهام ومن المهم بمكان إدراك أن كتابة تاريخ المنطقة العربية بدون الاعتماد على رؤية الآخر يعد أمراً غير كامل الأركان غالباً؛ وذلك على اعتبار أن الجغرافية توجه التاريخ وأن التاريخ في بعض جوانبه ما هو إلا صراع على الجغرافية في أشكالها المتعددة الطبيعية والبشرية والاقتصادية إلى غيرها من فروع الدراسات الجغرافية(١٣٠).

وخلال الأسطر القادمة سنحاول عرض بعض النماذج لأشهر رحالة من العرب والمسلمين في العصور الوسطى بإيجاز من خلال عرض موجز لتراجمهم ورحلاتهم كمدخل طبيعي للوقوف على صورة شاملة لتلك الحقبة التاريخية خاصة وأن الرحالة الآتية ترجمتهم تعتبر كتاباتهم بمثابة أكثر النصوص التي أثرت المكتبة العربية.

الرحالة الإدريسي وأول خريطة للعالم:

كان الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني المعروف بالشريف الإدريسي) من علماء القرن السادس الهجري(١٣١) " ٤٩٣ – ٥٦٤هـ/ ١٠٩٩ – ١١٦٩" حفيد لإدريس الثاني الحمودى أمير مالقة، ويبدو أنه درس في قرطبة(١٣٢).

وهو من سلالة الرسول ﷺ، ومن بيت بني حمود الذين تملكوا بعض بلدان الأندلس في القرن الحادي عشر وولد في سبتة(١٣٣) سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م.

أما رحلتـــه: بدأ الإدريسي في الارتحال الذي ملك عليه فؤاده منذ أن كان في السادسة عشرة من عمره[١٣٨]. وفى هذا المجال طاف ذلك الجغرافي بالأندلس وفرنسا وانجلترا وكذلك أنحاء الشمال الأفريقي واتجه نحو تأدية فريضة الحج فذهب إلى الحجاز.. كما ارتحل إلى مصر وبلاد الشام واليونان[١٣٩]. والتي يقال إنه وصل إليها في عام ٥١٣هـ/١١١٦م.

ونزل ضيفا في بلاط ملك صقلية، حيث كانت لا تزال متأثرة بالمدينة الإسلامية واختاره ملكها روجر ليضع له كتابا في وصف الأقاليم المعروفة إذ ذاك وقام بما عهد إليه مستعينا بما أفاده من رحلاته الخاصة وامتاز كتابه بغزارة المادة ودقتها ووضوحها[١٤٠].

وقد تم تأليف هذا الكتاب المسمى" نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " قبل وفاة رجار سنة ٥٤٨هـ (١١٥٤م) وظل الكتاب ينسب إلى أمير البلاد فيقال " كتاب رجار" أو الكتاب الرجاوى[١٤١].

أقام الإدريسي في بلاط ملك صقلية نحو عشرين سنة في جو أقل ما يقال فيه أن العلم والعلماء كانوا فيه موضع تقدير واحترام، وقد صنع الإدريسي خريطة العالم على " لوح الترسيم " وهو دائرة من الفضة الخالصة، ثم وصف هذه الأقاليم، فخرج من ذلك كتابه " نزهة المشتاق "، وتم له ذلك في خمس عشرة سنة[١٤٢].

وقد نقل إلى اللاتينية موجز لهَ في القرن السادس عشر، ومنذ هذا التاريخ يهتم بهذا الكتاب المستشرقون إذ يرون في مؤلفه " إسطرابون" العرب وأكبر جغرافييهم على الإطلاق[١٤٣]. وزود الإدريسي كتابه بإحدى وسبعين مصدرا، ولذلك يعد أعظم مصنفات العصور الوسطى في الجغرافية[١٤٤] وهو يتبع الطريقة العربية، طريقة العرض الجغرافي القائم على المشاهدة وتفضيل أحوال الأمم والسكان، وبيان ما بكل بلدة من

عجائب البنيان والعمران والآثار، ولا يقف بكتابه عند وصف العالم الإسلامي، بل يضم إليه وصفا دقيقا للعالم المسيحي في أوربا[١٤٥].

وانتهى الإدريسي من تأليف هذا الكتاب سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، وتوفى روجر وخلفه غليوم الأول (١١٥٤-١١٦٦م) وألف له كتاباً آخر في الجغرافية سماه " روض الأنس ونزهة النفس " أو كتاب " المسالك والممالك " وقد توفى الإدريسي سنة (٥٦٢/١١٦٦م)[١٤٦].

وفى عهد غليوم لم يحظ ذلك الجغرافي بنفس الرعاية والاهتمام السابقين وعاد أدراجه في أيام شيخوخته إلى مسقط رأسه سبتة حيث توفى هناك[١٤٧].

وتجدر الإشارة أن الإدريسي تفنن بدراسة الأقاليم السبعة المعروفة آنذاك، ولكنه أيضاً قسم كل إقليم إلى عشرة أقسام وعمل لكل قسم خريطة خاصة به وجمعها ورتبها ترتيبا علميا فصار عنده خريطة للعالم[١٤٨]. على شكل مستطيل وقد أخرج الألماني " ميللر" خريطة الإدريسي في طبعة ملونة عام١٩٣١م، وكان كتاب " نزهة المشتاق" قد ترجم إلى اللاتينية وترجمت كل أمة ما يعنيها منه، وتعلمت منه أوربا جغرافية القرون الوسطى، واستمرت تنسخه لأكثر من ثلاثة قرون[١٤٩]. وجاء في دائرة المعارف الفرنسية: " ... إن كتاب الإدريسي أوفى كتاب جغرافي تركه لنا العرب وإن ما يحتويه من تحديد المسافات والوصف الدقيق يجعله أعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى"[١٥٠].

ابن جبــــير: الرائد الأ ندلسي

من رحالة القرن السادس الهجري، ويعتبر من أهم هؤلاء الرحالة– الذين ارتحلوا إلى المشرق العربي – في تلك الحقبة.

وهو (محمد بن أحمد بن جبير بن محمد جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد جبير بين محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير)

أما الرحلـــة: فهي إحدى رحلات الحج وتحصيل العلم التي قام بها الكثير من العلماء والكتاب من المغرب إلى المشرق العربي وقد رأى صاحبها – ابن جبير – تدوينها في شكل مذكرات لتكون دليلا لقومه في رحلتهم متبعا في ذلك طريق أبو بكر بن محمد العربي الذي دون رحلته في القرن الخامس الهجري. وقد دون أحمد بن جبير الجزء الأول منها والذي يختص ببلاد الأندلس باختصار شديد، ثم بدأ بفصل الكلام من بعد ركوبه البحر من سبته، حتى عودته مرة ثانية إلى بلدة جاءت رحلته مدونة وافية لجميع ما شاهده، وصفحة واضحة لبعض تاريخ البلادُ الإسلامية والمسيحية التي مر بها، وقاموسا لمصطلح عصره في بناء السفن والملاحة البحرية وثبتا بأسماء البارزين من علماء المسلمين وملوكهم في أواخر القرن السادس الهجري وثبتا هاما للمعالم العمرانية في المشرق العربي آنذاك، وهذا فضلاً عن أنها كانت كتاب دعاية لدولة الموحدين تمنى ابن جبير فيه أكثر من مرة أن يمتد نفوذ تلك الدولة شرقا إلى مصر والحجاز (١٥٩).


ابن جبير

وتعتبر هذه الرحلة التي قد تأخذ اسم " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"(١٦٠) من أفضل نماذج رحلات المغاربة، لأصالتها وصدقها، وبساطة أسلوبها رغم أنها كتبت بعبارة منمقة إلا أنه يغلب فيها السجع المتكلف(١٦١).

ثم الملاحظة الدقيقة لكثير من المظاهر، والمقارنة بين ما يراه ويجد له نظيرا في موطنه، وهو إلى جانب اهتمامه بالمشاهد والمزارات ومجالس العلماء، ووصفه المفصل للحرم المكي والمسجد النبوي، يبدى اهتماما مماثلا بالعمران في مختلف أشكاله في هذه المنطقة فيتحدث عن المدن والقرى ومراكز الاستيطان الصغيرة على طول طريق الرحلة.

وتحظى المدن من بين كل هذه المعالم بقدر كبير من اهتمامه، ولعل نشأته الحضرية من ناحية، وتنوع وتعقد ظاهرات المدن من ناحية أخرى ورؤيته للمدن والحواجز الإسلامية بعين مسلم جياش العاطفة كانا سببا في هذه الخطوة[١٦٢]. وجدير بالذكر أن الناس لا تلقى مثل هذا الاهتمام عند أحمد بن جبير وتظهر الانطباعات الذاتية في الأجزاء المتناثرة التي يأتي ذكرهم فيها.

خرج – ابن جبير – من ثغر سبتة وسارت السفينة محاذية لشاطئ الأندلس، واتجهت شرقا مارة بجزائر البليار، ووصل إلى نهر دانية، وأقلعت به السفينة بعد ذلك إلى صقلية، وبعد شهر من بدء رحلته استقر به المقام في الإسكندرية في عهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب[١٦٣].

وصف ابن جبير مدينة الإسكندرية وصفا دقيقا فذكر آثارها وعمائرها ومنارها ومدارسها ومساجدها، وشاهد فيا دخول الأسرى الصليبيين الذين وقعوا في يد المسلمين، ثم أقام في القاهرة عدة أيام، وزار مشهد الحسين والقرافة وضريح الإمام الشافعي والمدرسة الناصرية التي شيدها السلطان صلاح الدين ومارستان القاهرة والقلعة والسور والقناطر التي أقامها السلطان عند بدء الصحراء الغربية وترك في يومياته صورة دقيقة لخطيب الجمعة كما رآه بالقاهرة وزار ابن جبير أهرام الجيزة الثلاثة ووصفا وصفا يدل على أنها كانت في أيام صلاح الدين مثلما هى عليه الآن تقريباً[١٦٤].

ولذا نجده قبل البدء في وصف المدن التي في أيدي المسلمين ينعتها بعبارات تدل على حبه لها كقوله عن بعضها حرسها الله أو كلأها الله، أما تلك التي ظلت في حوزة الصليبيين نجده ينعتها في البداية بمثل قوله أعادها الله أو دمرها الله[١٧٤].

وقد حرص ابن جبير على التزام الأسلوب المقيد بقيود الصفة الفنية في مقدمات وصفه لبعض المواضع والمدن التي مر بها وإزاء بعض المناظر والمشاهد التي أدهشته وأثارت انفعاله وإعجابه وقد جمع في رحلته بين صفة المؤرخ والأديب وبين أسلوبهما في التعبير.

فرحلة ابن جبير لا تعتبر مصدرا تاريخيا لمعرفة أحوال بعض المجتمعات الإسلامية في المشرق العربي في القرن السادس الهجري،وحسب ولكنا نعتبرها كذلك فنا أدبيا جمع فيه كاتبه بين دقة الوصف وجمال التعبير وحسن العرض[١٧٥]. مما أتاح لها فرصة عظيمة من الانتشار بين قراء عصره قال المقري المغربي: " له رحلة مشهورة بأيدي الناس".

السائح الهروي: الرحالة الزاهد

هو أبو الحسن على بن أبي بكر بن على الهروي الأصل الموصلي المولد السائح المشهور[١٧٦].

و الهروي كان من معاصري ابن جبير. أصل أسرته من هراة، لكنه ولد في الموصل وطاف في سورية وفلسطين ولبنان والعراق واليمن والحجاز ومصر وبلاد الروم وجزر البحر المتوسط حتى صقلية[١٧٧]. فقد طاف البلاد وأكثر الزيارات وكاد يطبق الأرض بالدوران وله معرفة بعلم السيمياء وبه تقدم عند الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب وأقام عنده وكان كثير الرعاية له وبني له مدرسة بظاهر حلب وفى ناحية منها قبة هو مدفون بها[١٧٨]. على ما رآه ابن خلكان، وكانت المدرسة لا تزال قائمة في عهده.

والهَرَوي بفتح الهاء والراء وبعدها واو هذه النسبة إلى مدينة هراة(١٧٩). وهى أحد كراسي مملكة خراسان والمعروف أنه زار القسطنطينية في زمن الإمبراطور عمانوئيل كومنينونس وأنه زار دمشق سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م. قبل أن يستعيدها صلاح الدين من يد الصليبيين وكان في الإسكندرية سنة ٥٧٠هـ، ثم كان في قافلة نهبها الصليبيون في سنة(٥٨٨هـ /١١٩٢م) ففقد فيها كتبه وبعض المذكرات التي جمعها(١٨٠). ولعله كان حانقا لهذا السبب.

كان الهروي في القافلة التي نهبها ريكاردوس في جنوب فلسطين سنة(٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) على ماء الخويلفة في مقاطعة الداروم وطلب ريكاردوس الهروي ليقابله فرفض الهروي مقابلته الملك ريكاردوس قلب الأسد الذي سمع بفضله وحرص على أن يتحدث إليه(١٨١).عرف الهروي باتساع نطاق رحلاته وأسفاره حتى أنه طاف أنحاء المشرق الإسلامي، وقلم جدت فيه صفة مميزة وهي؛ حب الترحال والأسفار، ثم كتابة اسمه على الآثار التي يزورها(١٨٢). ويبدو أنه رغب من وراء ذلك أن يخلد اسمه من بعد وفاته على اعتبار أن الأشخاص يرحلون وتبقى الآثار شاهدة عليهم حتى بعد رحيلهم(١٨٣).

ولا نزاع في أن كثرة أسفاره بمثل تلك الصورة قد أدت إلى أن اطلق عليه معاصروه لقب السائح الهروي، ومعنى هذا أننا أمام رحالة محترف باعتراف معاصريه، ولا شك في أن ترحاله المتسع بمثل هذه الصورة قد أفاده بالتأكيد عندما ألف مؤلفاته المتعلقة بالرحلة(١٨٤).

و الهروي أحد الرحالة الذين زاروا المشرق العربي وتحدثوا عنه وعنى بتدوين تطوافه، ولكن من جهة خاصة هي ما شاهده من المساجد والأبنية والعمارات والأصنام والآثار والطلسمات، وألف في ذلك كتاباً سماه " الإشارات إلى معرفة الزيارات"(١٨٥). على أن للهروي كتباً أخرى غير هذا، فقد قال هو أن ما ذكره من الأبنية والآثار

والعجائب والأصنام له كتاب مفرد، وأشار في موضع آخر إلى كتاب " منازل الأرض ذات الطول والعرض"، وروى ابن خلكان أن له كتابا اسمه "الخطب الهروية"[١٨٦].

وقال المنذرى: " كان يكتب على الحيطان وقلما يخلو موضع مشهور من مدينة أو غيرها إلا وفيه خطة حتى ذكر بعض رؤساء الغزاة البحرية أنهم دخلوا في البحر المالح إلى موضع وجدوا في بره حائطا وعليه خطه"[١٨٧].

أما آثاره العلمية [١٨٨]. فقد بذل الهروي جهدا عظيما في التأليف فأنتج نتاجا حسنا، فمن مصنفاته: الإشارات إلى معرفة الزيارات.،التذكرة الهروية في الحيل الحربية،الخطب الهروية، كتاب الأصول، منازل الأرض ذات الطول والعرض.،كتاب الآثار والعجائب والأصنام.

كان لدى الهروي ولعاً جيداً في تدبر علمي الجغرافية والتاريخ، واشتملت مؤلفاته على بعض الأفكار الأصيلة في ميدان الجغرافية والتاريخ، ويظهر ذلك جلياً في كتابه عن كل من مدينتي القاهرة ودمشق، حيث تحدث عنهما بطريقة علمية في غاية الروعة، كما أن كتاباته في هذين المجالين تدل على اطلاع واسع وتكوين علمي متين[١٨٩].

أما رحلتـــه: " الإشارات إلى معرفة الزيارات " فتعتبر إحدى الرحلات السياحية الدينية في القرن السادس الهجري [١٩٠]. وقوامه ذكر الآثار والعمائر الدينية التي زارها الهروي، والتي يستطرد في الحديث عنها إلى بعض البيانات التاريخية الطريفة، ومما يؤسف له أن هذه الرحلة غنية بالخرافات والأساطير وإن كنا نجد في بعض أجزائها وصفا وأحاديث تدل على دقة الملاحظة[١٩١].

وقد جاء في الإشارات ذكر لمئات من الأماكن الدينية وهى المقصودة بالذات من التأليف، لكن الهروي يضيف بين آن وآخر فوائد تاريخية وملاحظات عامة وإشارته لرأس الحسين ونقله من عسقلان [١٩٢].

طاف الهروي أرجاء المشرق العربي ومصر ناظراً إليها بعين مسلم جياشة طواقة لرؤية الأضرحة والقرافات المباركة والأماكن ذات الأهمية الشعبية التي تحمل دلالات دينية وارتبطت بروح التدين في ذلك العصر.

حيث إن دوافع الهروي لا يمكن أن نفصلها بأي حال من الأحوال عن دوافع العصر ذاته من خلال، زرع العدو الصليبي كيانه الدخيل والطفيلي في المنطقة خاصة إنشائه مملكة بيت المقدس، أدى لزيادة التمسك بالمظاهر الدينية لدى المسلمين، ومن ثم تعاظمت ظاهرة التصوف وإكبار المتصوفة والأولياء بنفس الصورة التي رأيناها في رحلة – ابن جبير من حيث اهتمامه بذكر المزارات الدينية والمساجد ذات القيمة الدينية والتاريخية– ومن ثم فإن العصر نفسه الذي عاش فيه الهروي وجدنا فيه الظاهرة الدينية هي التي تظهر على السطح[١٩٣].

كانت المنطقة تعاني لفترة طويلة من سلسلة حروب طويلة مرهقة كان لها من الإفرازات الدينية والاجتماعية ما يفوق إفرازات الحروب العادية، حيث ظهر انعكاسات الوضع في المنطقة على جماهير الناس في العالم الإسلامي عامة والعالم العربي بصفة خاصة، فامتلأت النفوس بالغضب[١٩٤] ومشاعر الإحباط والمرارة التي زادت من حدتها أعداد اللاجئين الهاربين من وحشية الصليبيين عند كل هجوم جديد.

شعر الناس بمدى عجز الحكام وامتلأت النفوس في كل مكان بروح العجز وشاعت روح من التقوى السلبية والتدين العاطفي الهروبي، وقد تجسد هذا كله في انتشار الطرق الصوفية الجاهلة التي اتخذت شكل الظاهرة السائدة في الحياة الاجتماعية في العصر الأيوبي[١٩٥]. وتمثل اهتمام الأيوبيين بهذا النمط من التصوف في اعتماد صلاح الدين عليهم في إذكاء حماسة الجنود من جهة وإنشاء المؤسسات اللازمة لخدمتهم ووقف الأوقاف السخية عليها من جهة أخرى[١٩٦].

جاء ذلك تلبية لروح الانصراف التي شاعت في عصر الأيوبيين والتواكل التي بدأت تغزو حياة الناس وأفكارهم منذ القرن الخامس وازدادت بزيادة الأحداث التي تكالبت على الوطن العربي والإسلامي[١٩٧]. خاصة وأن الأمة قدر لها أن ترزق بكثير من الحكام هم أقرب إلى الطالحين منهم إلى الصالحين مما أصبح معهم المؤرخون يستثنون حاكماً من كل عشرة حكام ليس بفاسد- كأبي المحاسن صاحب النجوم الزاهرة – أنه " لم يكن له ميل للشباب كعادة الملوك قبله"[١٩٨].

تلك الأمور وغيرها دفعت الناس إلى قصد مزارات الأولياء والمشايخ ولم يكن أمراء المماليك وسلاطينهم أقل اعتقادا في الأولياء من عامة الشعب، إذ كثيرا ما اجتمع بهم السلاطين والأمراء طالبين البركة[١٩٩]. وهذا الوضع السابق، يفسر لنا بالضرورة ضخامة التراث الديني الذي وصل إلينا من ذلك العصر، لقد كانت هناك استجابة إسلامية وحربية وعلمية من خلال إطار عام للمواجهة الشاملة ضد الصليبيين[٢٠٠].

إن الهروي من خلال رحلته المسماة " الإشارات إلى معرفة الزيارات" تكشف لنا أنه اعتمد على مشاهداته الشخصية في تأليف كتابه، فهو يقدم في المقام الأول رؤية شاهد عيان معاصر ورحالة خبير، ويفيدنا الهروي في ثلاث نواحي، ونعني بها: الناحية السياسية والحربية، ثم السياحة العلاجية، وكذلك السياحة الدينية[٢٠١].كما يفيدنا في تقديم صورة العمران في المشرق العربي،فالهروى —وهو الذي ارتحل من أجل رؤية الآثار والمزارات- يتجه اهتمامه إلى رؤية آثار المشرق العربي وعمرانه الشامخ ومزاراته المتنوعة،فمثلاً كانت مصر ماثلة أمامه بآثارها القديمة تحكى أمجاد هذا البلد العريق، ولم تكن الآثار وعجائب المباني والعمران بمصر هي التي شدت انتباه الهروي فحسب، بل إن نيلها وجوها ونباتها وزهورها كان له في نفس الهروي الشيء الكثير، وفى ذلك يقول: "... فإن ديار مصر ونيلها من عجائب الدنيا ... والأهرام من عجائب الدنيا وليس على وجه الأرض شرقيها وغربيها عمارة أعجب منها ولا أعظم ولا أرفع ... "[٢٠٢].

يذهب شوقي ضيف في كتابه " الرحلات " إلى أن الهروي ربما أطلع على كتاب عبد اللطيف البغدادي عن مصر، فإنه تابعه في وصف آثارها ومعابدها وقبور فراعنتها، وقال إنه دخل الهرم، غير أنه يختلف عن البغدادي في أنه لم يكن عالماً ناقداً ولا فيلسوفاً بصيراً(٢٠٣). فملأ كتابه "الإشارات" بالأساطير والخرافات والحكايات الشعبية ويقدم لنا صورة عن الكيفية التي رأى الناس بها تاريخهم والكيفية التي فسر بها الناس الوجود من حولهم.

وخلاصة القول إنه عندما نقرأ كتاب " الإشارات إلى معرفة الزيارات " لأبي الحسن الهروي لا يسعنا إلا أن نلاحظ حقيقة ناصعة توحي بدقة الملاحظة وأصالة التفكير عنده. ولذا لا عجب أن ينهل ياقوت الحموي من هذا المعين الصافي الذي لا ينضب، كما استفاد منه في تأليف كتابه " معجم البلدان"، ومن الثابت أن كثيرا من الباحثين في العالم في ميدان الرحلات الجغرافية اقتبسوا من كتاب " الإشارات إلى معرفة الزيارات " للهروي مما يكون لدى القارئ فكرة صحيحة عن المكانة التي احتلها هذا الكتاب في المكتبة العربية. وما قدمه من صورة جديدة وأصيلة عن المشرق العربي عصرذاك(٢٠٤).

أسامة بن منقذ: وصورة الآخر في الشرق

كليرمون/فرنسا. في السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥م..

كان أوربان الثاني ـــ بابا الكاثوليك في الغرب ـــ قد أعد خطبة احتفالية بمناسبة انتهاء أعمال مجمع كليرمون تلا فيه البابا أوربان الثاني خطابه المحسوب بحق وداعبت كلماته الحماسية أوتارا حساسة لدى جميع الحاضرين، وباعتبار نتائجه الصليبية أفعل خطاب في التاريخ..

في هذا العام ولد لبني منقذ الأمراء في شيزر على نهر العاصي " وذلك في ٢٧ جمادى الآخر سنة ٤٨٨ هـــ الموافقالرابع من تموز ١٠٩٥م" صبي أطلق عليه والده

اسماً تحل به في صدر الإسلام أول قائد عربي عهد إليه أمر بفتح الشام، وكان قد ورد في الرقم الحميرية السابقة للإسلام ذلك هو أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ مؤلف كتاب الاعتبار.. أو هو أبو المظفر بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر الملقب بمؤيد الدولة مجد الدين[٢٠٥]. ويطيل ياقوت في ذكر نسب أسامة فيرتفع بسلسلة نسبه إلى يعرب بن قحطان، ويهمل ذكر جده على ويذيل هذه السلسلة بقوله: " هكذا ذكر هو نسبه وفيه اختلاف يسير عند ابن الكلبي"[٢٠٦].

ولأسامة العديد من الكنى والألقاب فيكنى أبا المظفر وأبا الحارث ويضيف ياقوت أنه يكنى أبا أسامة ومن ألقابه: مؤيد الدولة ومؤيد الدين ومجد الدين[٢٠٧].

ولد أسامة بن منقذ في أسرة توارثت إمارة " شيزر"، وهى مدينة في الشمال الغربي لحماه وتبعد عنها خمسة عشر ميلا، وتقع على هضبة يحيط بها فهو العاصي من جهات ثلاث وتنهض فيها قلعة شامخة حصينة، وكان لهذه القلعة قيمتها في عصر الحروب الصليبية لمركزها الحربي الحصين، فكانت مطمح الطامعين من أمراء المسلمين والصليبيين[٢٠٨].

وقد كان أسامه بن منقذ أحد أبطال المعارك الصليبية، وكان شاعراً وأديباً عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. وعمر طويلا (٤٨٨-٥٨٤هـ/ ١٠٩٥-١١٨٨م) [٢٠٩]. فقد نشأ وترعرع أسامة بن منقذ في بيت علم ومعرفة؛ فوالده الأمير مرشد بن على بن منقذ بذل كل غال ونفيس لتعليمه وتربيته التربية الإسلامية، فكان والده رجلاً فاضلا ورعاً يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، ويحب مجالسة العلماء[٢١٠]. وقد كان من حق والد أسامة بن منقذ الأمير مرشد أن يتولى الإمارة، بيد أن نسخ القرآن ملك عليه قلبه، بالإضافة إلى القيام برحلات الصيد والقنص، فتنازل عن الإمارة لأخيه سلطان[٢١١]. وعنى الأمير بأسامة ابن أخيه ولكنه رزق ولدا ذكرا فاتجه إليه بعطفه مهملا أسامه وحاور هذا قلعة شيزر وحدث أن دمرت

هذه القلعة في زلزال سنة(٥٥٢هـ /١١٥٧م) ومات من كان فيها من آل منقذ. أما أسامة فقد كان في بعض أسفاره ومات سنة(٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) بعد أن جاوز التسعين[٢١٢].

إلى جانب هذه النشأة التي تعد للحرب والنضال تلقى أسامة الثقافة التي كان يتلقاها الأمراء في ذلك العصر، فدرس الحديث والأدب، والفقه المقارن والنحو واللغة وحفظ الكثير من الشعر[٢١٣].

عاش أسامة فارساً شهما وجاب أنحاء المشرق العربي وصرف معظم شبابه في البلاط النوري بدمشق، وفى قصر الخليفة الفاطمي بالقاهرة (١١٤٤ – ١١٥٤ م) وأما كهولته فصرفها عند أتابكة الموصل وفى حصن كيفا[٢١٤].

ألف أسامة العديد من المؤلفات، ومن أمثلتها كتاب الاعتبار وكتاب البدرى، وكتاب الشيب والشباب وكتاب رسائل السائل وكتاب نصيعة الرعاة وكتاب البشارة، وكتاب العصا وكتاب أزهار الأنهار، وكتاب النوم والأحلام، وكتاب التأسى والتسلي وكتاب نزهة الناظر في البلاء والخاطر وكتاب درع الظالم ورد المظالم، وكتاب تاريخ ذكر الحوادث من أول الهجرة إلى زمانه مختصرا وكتاب لباب الألباب، وكتاب التجارة المربحة، وكتاب المكارم والكرم ورعاية النعم، وكتاب مكارم الأخلاق، ويقال إنه وقع في عشرين مجلدا، وكتاب المنازل والديار وكتاب البديع في الشعر... وغيرها من المؤلفات التي تعكس لنا عقلية ذلك الرجل الغزير الإنتاج في العديد من المجالات الأدبية والتاريخية في ذلك العصر[٢١٥].

لقد امتازت مؤلفات أسامة بن منقذ بأمانة النقل وصدق الرواية وسهولة وسلامة الأسلوب، حيث كان يروى رحلاته ومشاهداته الجغرافية بطريقة قصصية رائعة وممتعة[٢١٦].

مضى أسامة يوم أخرج من شيزر إلى دمشق، واتصل بحاكمها: معين الدين أنر واعتمد هذا الحاكم على أسامة في تصريف الشئون السياسية، وترك أسامة دمشق وسافر إلى القاهرة فوصل إليها في جمادى الثانية سنة(٥٣٩هـــ /نوفمبر سنة ١١٤٤م) في عهد الخليفة الحافظ لدين الله[٢١٧].

يروى المؤرخون أن أسامة اشترك في المؤامرات التي انتهت بقتل الوزير ابن السلار والخليفة الظافر، ورأى أسامة أن يعود إلى دمشق برغم الصلة الوثيقة بينه وبين الوزير المصري الجديد "طلائع بن رزيك". وعاد أسامة لدمشق سنة (٥٤٩هـــ/١١٥٤م) واتصل بحاكمها نور الدين محمود وحدثنا أبو شامة في الروضتين عما أبداه أسامة من ضروب البسالة في حصار قلعة حارم[٢١٨].

بعد زهاء عشر سنين قضاها في دمشق مضى لحصن كيفا وهناك عكف على البحث والدرس والتأليف[٢١٩]. وزار بيت المقدس وحج وتنقل بين معظم العواصم الإسلامية وتعرف إلى كبار الإفرنج فضلا عن صداقته للخلفاء والملوك، وقبيل وفاته دعاه صلاح الدين إلى دمشق وأجرى عليه رزقا وأعاد إليه إقطاعه وأخذ الشيخ يلقى محاضراته في البديع ويدرس في المدرسة الحنفية بدمشق، وقد أملى مذكراته في هذه الفترة وتوفى أسامة سنة(٥٨٤هـــ/ ١١٨٨م)[٢٢٠].

أما رحلتـــه:

كان كتاب " الاعتبار " هو المسرح الذي اختاره لتسجيل مذكراته، وقد قصر الباب الأول فيه على حروبه وأسفاره إلى دمشق ومصر ومشاهداته للصليبيين في رجاره أثناء الحرب وفى السلم، وهنا وهناك ينشر طرائف ما شاهده بنفسه في حروبهم، ومن أطرف ما في الكتاب حديثه عن طبائع الإفرنج وأخلاقهم وهو يصور ذلك في قالب قصصي يوضح لنا فيه تأخرهم الثقافي وأنه لم يكن عندهم شيء من الفكر أو الفلسفة

يقتبسها العرب عنهم، وسخر من طرقهم في القضاء ولاحظ على رجالهم نقص الغيرة على نسائهم[٢٢١].

وندعه يتحدث بنفسه شاهداً على جهلهم لنقف على الفرق بين حضارتنا العربية وحضارتهم في وقت كانت الشعوب التي ترفع الآن شعار حقوق الإنسان تعيش في خيام بأطراف الصحراء أو في الكهوف بجبال أوربا، ومازالت يعاودها الحنين إلى شريعة الغاب تمارسها بوحشية كلما سنحت لها الفرصة لذلك ! فيقول: "..احضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت وحميت المرأة ورطبت مزاجها فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم هذا ما يعرف شيء يداويهم.. فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قطعة خشب كبيرة وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة تقطعها فضربه وأنا أراه ضربة واحدة فما انقطعت وضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته..."[٢٢٢].

ويتحدث أسامة عن أخلاقهم وفساد طبائعهم، فيقول: ".... كان عندنا رجل حمامي.. قال فتحت حماما في المعرة أتعيش فيها فدخل إليها فارس... فمد يده فجذب مزري من وسط رما فرآني وأنا قريب عهد بحلق عانتي فقال سالم فتقربت منه فمد يده على عانتي وقال: سالم جيد !! وحق ديني اعمل لي كذا واستلق على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع فحلقته، فمد يده عليه فاستوطأه، فقال سالم وحق دينك اعمل للداما، والداما بلسانهم الست.. احضرها وأدخلها فاستلقت على ظهرها، وقال: أعمل كما عملت لي. فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينتظرني فشكرن ووهبني حق خدمتي.." [٢٢٣].

وأسامة بذلك يعطينا صورة واضحة عن حياة الصليبيين حين استقروا في المشرق العربي وكونوا بها مستعمراتهم التي أزالهم عنها فيما بعد صلاح الدين وخلفاؤه من

الأيوبيين والمماليك، في حين عرض لبطولة النساء من العرب في كفاح القوم، وكيف كن يؤثرن الموت عن الوقوع أسيرات في أيدي العدو(٢٢٤).

ووصل أسامة إلى مصر (٥٣٩ -٥٤٩هـ) يوم الخميس الثاني من جمادى الآخر سنة ٥٣٩هـ، وقد تمتع بمكانة ممتازة خاصة أيام الحافظ واتخذ لفرسه سرجا من ذهب، وامتلك القرى وصار صاحب إقطاع ومماليك، ويقال أن أسامة ساهم في حياكة المؤامرات السياسية في ذلك الوقت وأنه اضطر للخروج وهو كاره ولم تكن رحلة الخروج من مصر هينة فقد ثار عليهم المصريون قبل خروجهم وسرقت دورهم(٢٢٥). وتجدر الإشارة إلى أن أسامة بن منقذ يمتاز بعدة مميزات عن غيره من الرحالة المسلمين على مدى القرنين السادس والسابع الهجريين، ويمكن إجمالها في الآتي:

- أولاً: تميز أسامة كونه فارسا مسلما قوي الشكيمة، وخبير في أمور الحرب والقتال والصيد، وتلك الصفات لا تجدها في الرحالة المسلمين الآخرين، وبالتالي اختلفت اهتماماته عن غيره من الرحالة المسلمين لتلك المرحلة التاريخية الهامة من تاريخ المشرق العربي في العصور الوسطى(٢٢٦).

- ثانياً: توطدت علاقات أسامة بن منقذ بعناصر مهمة سياسياً مما جعله داخل دائرة الضوء وكان ذلك على المستوى الإسلامي والعربي والصليبي على حد سواء مما جعله قريباً جداً من دوائر صنع القرار آنذاك فسجل الحوادث التي عاش فيها بمسقط رأسه وبمصر وقص كثيراً عن الصليبيين، وكانوا يجلونه واتخذ منهم غير صديق(٢٢٧). وهذه الناحية لم تتأت لغيره من الرحالة العرب(٢٢٨). كما تميز عن غيره من الرحالة أنه استقى كثير مما كتبه من أفواه قيادات صليبية وإسلامية على أعلى مستوى قيادي وسياسي في ذلك الوقت.

ومن طريف ملاحظاته عن إقليم الطور في مصر أنه كان ولاية مصرية بعيدة، وأن الخليفة الحافظ لدين الله كان إذا أراد إبعاد بعض الأمراء ولاه الطور(٢٢٩).أما الباب

الذي عقده أسامة للكلام على الصيد والطرد فشهد بأن هذا اللون من الرياضة كان جد شائع ومستحسنا في الشرق الإسلامي حينذاك[٢٣٠].

وكتاب الاعتبار بالإضافة إلى ما فيه من عبر رمى إليها الكاتب يحوى إشارات كثيرة إلى أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية[٢٣١]. ونال أسامة بن منقذ شهرة عظيمة من كتابه "الاعتبار" الذي يعتبر مرآة للحضارة العربية والإسلامية ليس فقط في علم الجغرافية ولكن أيضا في علمي التاريخ والأدب.

القزويني: رائد الفكر العجائبي في أدب الرحلات

برغم أصوله غير العربية إلا أنه كان مسلم الفكر عربي الهوى والنشأة حيث. وُلدَ عماد الدين أبو يحيَ زكريا بن محمد بن محمود أبو عبد الله جمال الدين أبو يحيى الأنصاري القزويني في قزوين من إقليم الجبال بفارس سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م. وطاف بفارس والعراق والشام، وشغل منصب قاضي واسط بالعراق[٢٣٢]. ترك كتابين كبيرين أحدهما في الطبيعيات وهو "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات"، والآخر في الجغرافية والتاريخ وهو " آثار البلاد وأخبار العباد"، ويسمى أحياناً " عجائب البلدان". وكتبه حوالي سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٠م.

القز ويني الذي عاش في القرن السابع الهجري وتوفي سنة (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م). يعد كتابه الجغرافي من أطرف الكتب الجغرافية عند العرب وهو فيه لا يهتم بالمسالك إنما يهتم بأحوال البلاد والسكان مضيفاً كل ما يستطيع من طرفه نادرة وعجيبة خارقة وقد قسم الكتاب إلى سبعة أقاليم تكلم في كل إقليم عن بلاده مرتباً لها على حروف المعجم[٢٣٣] وهو لا يقف كما فعل كثير من الرحالة والجغرافيين عند المملكة الإسلامية. بل يتعداها إلى ذكر البلاد الأوربية، ويجمع من هنا وهناك طرفاً عن السكان وحياتهم، ويذكر غرائب كثيرة عن العالم في أوربا وآسيا وإفريقية وبلادها البعيدة مثل ايرلندة والهند والصين. ويبدو من كتاباته أنه اتصل بكثير من الرحالة الذين

أتيحت لهم زيارة بعض المدن الأوربية فذكر بعض المدن الفرنسية والألمانية والهولندية مثل: ايطرفت ATRECHT وأبو لده FULDAومغانجه MAINZوشلشويق SCHLESWIG واطربوورونه PADERBORN. (٢٣٤).

آثار القزويني كلها تتصل بعلمي الجغرافية ووصف الكائنات وكتابه هذا "آثار البلاد وأخبار العباد" يساوي في قيمته كتابه "عجائب المخلوقات" فقد جمع فيه كما يقول في مقدمته: (كل ما وقع له وعرفه وسمع به وشاهده من لطائف صنع الله وعجائب حكمته المودعة في بلاده وعباده) (٢٣٥) ليفتح القزويني في كتابه باب الخرافة والأساطير على مصراعيه ليجمع الكتاب لنا خوارق النساك والمتصوفة بجانب خوارق البنيان والآثار ومن حين إلى حين نلتقي بغرائب الأخبار لا في الإنسان، بل أيضاً في الطير والحيوان البري والبحري والزواحف وعجائب الحيوانات النيلية ونقل أخباراً وحكايات كثيرة عن الرواة الذين كانوا يوردون الخرافات والمستحيلات دون تمحيص وكان يقبلها على علاتها ويثبتها دون أن يحكم عقله على أنه كان يتخلص أحياناً من تبعتها بقوله: (والله أعلم).

ومن أمثلة وصفه قوله: (عجائب مصر حوض لعين ماء منقور في حجر عظيم يسيل الماء إلى الحوض من تلك العين من جبل بجنب كنيسة فإذا مس ذلك الماء جنب أو حائض انقطع الماء السائل من ساعته وينتن)(٢٣٦).فالكتاب كأي مصنف من المصنفات القديمة لابد من أن يكون حافلاً بالفولكيلور: أي الأفكار العامية السيَّارة والشائعة غير المحققة علمياً،وتحتاج لباحث معاصر ليفرز هذه المقولات ويحللها على ضوء العلم الحديث، وما استقرت عليه الدراسات الجغرافية والتاريخية والأدبية ولكن ذلك لا يقلل من قيمة مثل هذه المصنفات على الإطلاق، بل يكفي لتقديرها واحترامها أن العلماء الأجلاء الذين صنفوها قاموا بتلك الأعمال الغنية بمفردهم قبل أن تتوفر أدوات البحث الحديثة التي تيسر على الباحث.

ومهما يكن من أمر فإن هذا الكتاب يعتبر من بواكير دراسة الإنسان مقترناً ببيئته الجغرافية وفي إطار من المعتقدات والعادات والتقاليد والغرائب.ولا غرو في ذلك فقد كان الاهتمام بـــ "عجائب المخلوقات" قاسماً مشتركاً بين كتب الجغرافيين والمؤرخين والأدباء في العصور الوسطى والإسلامية. المهم أن المؤلفين العرب والمسلمين في تلك العصور حرصوا على الالتزام بالمفهوم القديم للأدب بمعناه العام أي ذلك الأدب الذي يصلح زاداً للإنسان الشريف الذي يقع في مترلة بين المترلتين في المجتمع الإسلامي فلا هو من عامة الناس الذين يعيشون على إبداعهم الشعبي تأليفاً وتلقيناً ولا هو من الطغاة والحكام والقادة العسكريين، بل هو من الطبقة – ذاها – التي ينتمي إليها هؤلاء المؤلفون: التجار والإداريون والعلماء والكتاب.

فالفكر العجائبي والغرائبي والخرافي في المؤلفات القديمة ينهل بغير حساب من كل مناهل المعرفة – عالم البحر والبلدان والأساطير والجبال والكائنات ناقصي الخلقة والشعوب الأسطورية مثل: يأجوج ومأجوج والموروثات الشعبية الفارسية والهندية والعربية – والعجائب التي تقع عليها عيون الرحالة والتجار في عوالم الجماد والحيوان والنبات[٢٣٧] وقد بلغ الاهتمام بتلك العوامل الغرائبية أن فرضت نفسها على كتاب القزويني الذي ألفه أساساً لوصف الأرض ومسالكها وممالكها فسماه بـــ "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات " وفيه أيضاً عالج وصف الكون وما به من كواكب وأبراج وحركتها وتأثيراها على الأرض، والأرض وغلافها الجوي وبحارها وجزرها، والظواهر الفلكية والجوية والجيولوجية، وما على الأرض من حيوان ونبات وجماد، وفي كتابه الكثير من الوقائع الغريبة والعجائب والخوارق.

ابن سعيد المغربي: وكتاب الأجيال

إذا كان ابن جبير قد زار المشرق العربي في بداية العصر الأيوبي فإن لدينا رحالة آخر من الأندلس في أواخر ذلك العصر، هو (على بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن

سعيد المغربي الأندلسي) الذي زار بلدان المشرق العربي في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.، أي وقت احتدام الأحداث التي أدت إلى قيام دولة سلاطين المماليك في مصر والشام(٢٣٨).

وقد زار بلدان المشرق العربي بصحبة أبيه سنة ٦٣٩هـ، ويعتبر أخر حلقة في سلسلة أجيال من المؤلفين من أهل الأندلس ألفوا كتاب " المغرب في حلى المغرب " على مدى مائة وخمس عشرة سنة، وعلى الرغم من أهمية هذا الكتاب الذي اشترك في تأليفه ستة من الرجال على مدى هذه السنوات الطوال فإننا سنقصر اهتماماً على القسم الذي أسماه "النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة"(٢٣٩).

ولد بغرناطة ليلة القطر سنة ٦١٠/١٢١٤ في أسرة عريقة في الحسب والنسب كان لأفرادها صلة بالملوك، وكان أبوه من أهل الأدب والتأليف والمترجم به متم كتاب " المغرب في حلى المغرب" فقد بداه أبوه وأتمه هو(٢٤٠) توفى ابن سعيد المغربي في دمشق سنة ٦٨٥هـ، وهناك رأى آخر أنه توفى في تونس، ويكفى عائلة ابن سعيد المغربي فخرا واعتزازا أن نسبهم يرتبط بذرية الصحابي الكريم عمار بن ياسر(٢٤١).

كان والده موسى بن محمد بن سعيد المغربي محبا للمطالعة والقراءة والكتابة، لذا ترك الحكم وتفرغ لطلاب العلم الذين أتوا إليه من كل فج عميق تتلمذ ابنه على يده فنبغ في كل من العلوم الشرعية واللغوية والتاريخية والجغرافية، اشتهر الولد موسى بورعه وتقاه وإخلاصه للبحث والتنقيب والاستقصاء، فهو من قادة الفكر في بلاد الأندلس(٢٤٢).

وتجدر الإشارة إلى أن جده لوالده أبدى ولاء لدولة المرابطين على نحو أثار غضب وحقد أهل الأندلس عليه وعلى أسرته عام ٥٦٩هـ، فاضطر إلى اللجوء إلى قلعة بحصب (٢٤٣). ALCALA LARVALالواقعة على بعد ٥٢ كيلو متر من غرناطة بالأندلس(٢٤٤). ثم اتجه نحو تأييد الموحدين من بعد ذلك(٢٤٥) وكان والده أبو

موسى عالما بارعا في العديد من الفنون لا سيما فنون الأدب فعكف على القراءة لجميع أشتات الأدب والإحاطة بأصوله وفروعه وكان ابنه علي بن موسى شديد الإعجاب بسعة اطلاع أبيه[٢٤٦].حرص والده – موسى بن محمد – على إعداده وتثقيفه فأتيح له أن ينهض بإتمام " المغرب" وأن يخرج عشرات الكتب في الأدب والتاريخ وتقويم البلدان، وانتفع بعلم المؤدبين والمعلمين الذين اختارهم أبوه فضلا عن الأدباء والعلماء الذين قرأ عليهم حين عكف على الدرس في أشبيلية كأبي الحسن على بن جابر الدباج[٢٤٧].

ونهض على بن موسى بإخراج كتاب "المغرب " في صورته الأخيرة، فلا عجب أن أشاد بذكره من ترجموا له، فأجمعوا على أنه كان ممن انقطعوا لطلب العلم فبلغوا منه موضعاً جليلًا وأصبح من أئمة عصره الذين يشار إليهم بالبنان[٢٤٨].

قال المقري: " أديب زمانه غير مدافع، من اعترف له أهل الشرق بالسبق وأهل المغرب بالإبداع المغرب.. الشهير بالمغارب والمشارق، المحلى بجواهره صدور المهارق"[٢٤٩].

وهناك من يرى أن ابن سعيد المغربي قد خرج إلى المشرق في رحلتين وفى الرحلة الأولى اتجه صوب مصر والشام والعراق وأرمينية وتجول في تلك المناطق وذلك على مدى أكثر من عشر سنوات كاملة[٢٥٠]. وكان قد استأذن من وزير الموحدين بأفريقية ابن جامع برسم الحج بعد خلاف وقع بينه وبين أحد أقربائه العاملين لدى الموحدين أيضاً.. فوصل الإسكندرية سنة ٦٣٩/١٢٤١هـ، وكان والده قد رحل إليها وأقام فيها[٢٥١].

يقول حسين مؤنس في كتابه " تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس": "عاش ابن سعيد حياة طويلة عريضة حافلة بالأحداث والتجارب والأسفار والعمل وهو دون

شك من أعظم الأندلسيين الذين وفدوا على المشرق، ومن أكثرهم أثراً فيه فقد أقبل إلى المشرق يحمل قطعة عزيزة من تاريخ بلده..". [٢٥٢]

وفي الرحلة الثانية خرج ابن سعيد صوب مصر وأرمينية وإيران وتجول في تلك المناطق على مدى ثلاث سنوات، وذلك قبل أن يعاوده الحنين إلى تونس فذهب إليها مرة أخرى[٢٥٣].

كان أبو الحسن بن سعيد مغرما بالأسفار، فقد أقام في كل من الموصل وبغداد والبصرة وتنقل بينها لطلب العلم وتجميع المعارف الأدبية والتاريخية والجغرافية، لذ صارت مؤلفاته ذات قيمة علمية أصيلة عند الباحثين ليس فقط في علم الجغرافية، ولكن في التاريخ والأدب[٢٥٤].

وقبل استيلاء هولاكو على بغداد بأعوام قليلة تمكن على بن سعيد من متابعة دراساته بمكتباتها البالغ عددها ستا وثلاثين مكتبة والتي يصفها لنا بحماس يماثل الحماس والإعجاب الذي وصف به ياقوت الحموي مكتبات مرو لعهد"[٢٥٥].

وقد ألف ابن سعيد العديد من المؤلفات في مجال الجغرافيا والرحلات والأدب والتاريخ على نحو عكس ارتفاع شأنه في تلك العلوم والفنون[٢٥٦]. ومنها:

كتاب المرزمة، ونشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، عنوان المرقصات والمطربات، لذة الأحلام في تاريخ أمم الأعجام، الطالع السعيد في تاريخ بني أيوب، الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة، القدح المعلى في التاريخ المحلى، النفحة المسكية في الرحلة المكية، كنوز المطالب في آل عليّ بن أبي طالب، كتاب ملوك الشعر، المقتطف من أزاهر الطرف، نتائج القرائح في مختار المراثي والمدائح، ريحانة الأدب في المحاضرة، الغراميات، حل الرسائل، عدة المستنجز وعقلة المستوفز، كتاب المحلى بالأشعار، حيا المحل وجنى النحل، تاريخ مرتب على السنين، المعرب عن سيرة ملوك أهل المغرب، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، رايات المبرزين وغايات المميزين، ديوان

الشعر، كتاب الجغرافيا.وهو الكتاب الذي ذكره القلقشندى وأبو الفدا، [٢٥٧] ونقل عنه كل منهما في صبح الأعشى وتقويم البلدان على التوالي.

وأخيراً كتاب" الملتقط من السلك من حلى العروس الأندلسية". والراجح أن هذا الكتاب مقتبس من كتاب المغرب في حلي المغرب. المعرب عن سيرة ملوك أهل المغرب[٢٥٨]. ومنهج ابن سعيد امتاز عن غيره بسلامة الوصف ومتانة الأسلوب ودقة التعبير، فهو لا يطنب ولا يستطرد عرف بغزارة المادة ورسوخ العلم ورحابة الصدر وطول الأناة، وهو علم من أعلام الفكر العربي والإسلامي[٢٥٩].

أما الرحلة: نجد أن إشارات ابن سعيد المغربي عن مدن المشرق العربي أفادت في إلقاء الضوء على جوانب متعددة عن أوضاع بلاد الشام ومصر خلال القرن السابع الهجري فقد زار ابن سعيد (على بن موسى) مصر سنة ٦٣٩هـ ومكث بها حتى سنة ٦٤٤هـ حين رحل إلى حلب[٢٦٠]. فقد كان قد جاء مصر كمال الدين ابن العديم رسولاً من الملك الناصر صاحب حلب إلى مصر فتعرف ابن سعيد إليه فأكرمه وحبب إليه الرحلة إلى حلب فدخل إلى الناصر صاحب المدينة فأنشده قصيدة أعجبت السلطان فأكرمه ووعده بالمساعدة[٢٦١].ويذكر أن ابن سعيد قد أقام في الإسكندرية بضع سنوات؛ ثم قام برحلات طويلة في العراق والشام والحجاز وتونس وأرمينية، وأكبر الظن أن ابن سعيد جال في غربي إفريقية، ورأى مصب نهر السنغال.

ترك لنا ابن سعيد وصفا نفسيا لمصر والفسطاط أعطانا فيه صورة حية لما كانت عليه الحالة يومئذ؛ فتناول الشوارع بالمدينة وأبنيتها وأزقتها بالوصف ثم تحدث عن نواح من الحياة في الأحياء المخصصة للهو والطرب، إذ قال عنها أنه قد يرقص الواحد في وسط السوق، وقد يسكر الناس من الحشيش لكن المقريزي علق على ذلك بقوله: " وفيه تحامل كثير "[٢٦٢].

وعلى الرغم من أن القاهرة قد شهدت في تلك الفترة أحداثاً جساماً تحت حكم السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧هـ/٦٤٧هـ - ١٢٤٠م/ ١٢٤٩م) انتهت باستيلاء قوات الحملة الصليبية السابعة سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م على دمياط ثم استئثار المماليك بحكم البلاد بعد هزيمة الصليبيين وأسر لويس التاسع، نفسه وتبدد فرسان جيشه وجنوده ما بين قتيل وأسير عقب الهزيمة المخزية التي أوقعها به الجيش المصرى في مدينة المنصورة والتي كانت بمثابة إرهاصات الميلاد لدولة سلاطين المماليك التي حكمت مصر والشام في الفترة (٦٤٨هـ-٩٢٣هـ/١٢٥٠م-١٥١٧م)(٢٦٣).

تلك الهزيمة لم تكن تخطر ببال لويس التاسع، واعتقاده أنه المسئول الأول عما لحق بأهل الغرب من كوارث في المشرق العربي(٢٦٤) ووقوع الجيش الصليبي بأجمعه تقريبا ما بين أسرى وقتلى وكان من جملة الأسرى لويس نفسه الذي سيق مكبلا بالأغلال إلى المنصورة حيث سُجِنَ في دار القاضي ابن لقمان(٢٦٥). ومصرع توران شاه آخر الأيوبيين في مصر على أيدي فرسان المماليك(٢٦٦). جريحا غريقا محترقا(٢٦٧).

رغم كل هذه الحوادث الجسام فإن " ابن سعيد " لم يهتم بالأمور السياسية والعسكرية الجارية واكتفى بأن يعبر عن مشاعره غير الودية تجاه القاهرة منذ السطور الأولى.يقول (ابن سعيد) عن القاهرة " هذه المدينة اسمها أعظم منها " ويشكو من أدخنة وغبار القاهرة "...تضيق منه الصدور وتسخف منه العيون..."(٢٦٨). وعلى الرغم من كلمات (ابن سعيد) الحانقة يرسم لنا صورة حية لبعض مدن المشرق العربي وفي مقدمتها القاهرة في أواخر العصر الأيوبي.انتقل (ابن سعيد) بعد ذلك إلى الحديث عن الفسطاط ووصفها بأنها أكثر أرزاقا وأرخص أسعار من القاهرة(٢٦٩).

وهكذا نجد أن رحلة ابن سعيد رسمت لنا لوحة تاريخية لكثير من الجوانب الاجتماعية والثقافية والعمرانية لبعض مدن المشرق العربي في فترة من أحرج فترات التاريخ بما حملته من نماذج ودلالات حيث كانت شواهد التاريخ في تلك الفترة كانت

مليئة بانقسامات حادة بل متعارضة بين الشعوب على كل المستويات الإنسانية والثقافية والحضارية والدينية، هذه الانقسامات التي وصلت أحياناً إلى درجة من درجات الصدام أمام صراع القوى والمصالح، وأخذت هذه الانقسامات أشكالاً وألواناً كثيرة شملت الجوانب الثقافية والحضارية، وكان أشدها خطراً الانقسامات العقائدية وما تركته من رواسب صليبية لا تزال قائمة علىفكرة الصراع بين الإسلام والنصرانية عضدها سياسة الغرب بمحاولاته في تغيير واقعنا قبل أن يغيرفكرنا وتصوراتنا ثم يتهم فكرنا وتصوراتنا بالتخلف والهمجية.

وأخيراً فإن كتب هؤلاء الرحالة والجغرافيين المسلمين الذين زاروا المشرق العربي في القرنين السادس والسابع الهجريين غالباً ما عقدوا المقارنات بين مدن المشرق التي زاروها كما أشاروا إلى المجتمع بطرف أو بآخر وقد تراءت لنا كثير من أوصاف المدن والمعالم العمرانية من ملحوظات هؤلاء الرحالة وأشاروا إلى كثير من العادات وألوان النشاط الاقتصادي، كما أطنب بعضهم في وصف أحوال البلاد ومدنها وبيان الحياة فيها كل بقدر ما سمحت به ظروف إقامته أو تجواله فيها أو تأليفه واعتمادا على روايات أو كتب مؤلفة قبله وقد أفادت أوصاف هؤلاء الرحالة للمدن العربية والمعالم العمرانية لها والطرق التي سلكتها التجارة داخليا وخارجياً. وساعدت هذه الكتابات والمذكرات على محاولة قراءة ورسم صورة أقرب إلى الحقيقة لمدن المشرق العربي من زاوية جديدة وهامة حيث كشفت عن جانب من جوانب رؤية الآخر.

عبد اللطيف البغدادي: الطبيب الرحالة

إذا كان ابن جبير قد انطلق في رحلته من الطرف الغربي للعالم الإسلامي، فإن الرحالة عبد اللطيف البغدادي انطلق في رحلته من قلب العالم الإسلامي لا من أطرافه، فقد ولد في بغداد وعمل في خدمة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي في الشام وخدمة أولاده في مصر، وقد رتبوا له مائة دينا في الشهر ليتفرغ للعلم.

ومن الملاحظ أن الرحالة الذين انطلقوا من وسط العالم الإسلامي لم يقوموا برحلات طويلة، وإنما كانوا يزورون بلادا معينة يتوجهون إليها، فلم يتعد ابن فضلان[٢٧٠] الذي انطلق من بغداد في عهد الخليفة السياسي المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ) بلاد الصقالبة، ولم يتعد البغدادي مصر والشام والحجاز[٢٧١].

كان عبد اللطيف البغدادي عالمًا بغداديًا كبيرًا واسع الثقافة، درس الفلسفة والطب وعلوم الدين واللغة وترك مؤلفات كثيرة في كل فن[٢٧٢]. وقد ولد عبد اللطيف بن يوسف في بغداد سنة(٥٥٧هـ /١١٦٢م) وتنقل بين مصر والشام والعراق واجتمع بأعلام الأساتذة، ولم يكن " يأخذ بقلبه ويملأ عينه" إلا النفر القليل منهم[٢٧٣].

ترجم له ابن أبي أصيبه فقال: " هو الشيخ الإمام الفاضل موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد، ويعرب بابن اللباد موصل الأصل بغدادي المولد كان مشهورا بالعلوم متحليا بالفضائل مليح العبارة كثير التصنيف.اعتنى كثيراً بصناعة الطب لما كان بدمشق واشتهر بعملها وكان يتردد إليه جماعة من التلاميذ وغيرهم من الأطباء للقراءة عليه، وتتلمذ على يد ابن الفتح محمد بن عبد الباقي المعروف بابن البطي وأبو زرعة طاهر بن محمد المقدسي وأبو القاسم يحيى بن ثابت الوكيل.. وغيرهم، وكان يوسف والد الشيخ موفق الدين مشتغلا بعلم الحديث بارعا في علوم القرآن والقراءات وكان سليمان عم الشيخ موفق الدين عبد الله كثير الاشتغال لا يخلى وقتا من أوقاته من النظر في الكتب والتصنيف والكتابة[٢٧٤].

وقدم عبد اللطيف البغدادي لمصر بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي واشتغل بالتدريس في الأزهر[٢٧٥]. وبذل عبد اللطيف البغدادي جهداً عظيماً في دراسته لعلمي الحيوان والنبات لعلاقتهما الوطيدة في مهنته كطبيب، كما نتج عن اهتمام بهذين العلمين تنقله في معظم بلاد العرب والمسلمين باحثاً عن الأعشاب والحيوان، وبهذا اطلع

على الطرق والمناخ والتضاريس لكل بلد حل به، لذا يعتبر عبد اللطيف البغدادي[٢٧٦]. من أعلام الجغرافية الوصفية.

غلب عليه الاتجاه العلمي في كتاباته فنراه يشير إلى أنه رأى وفحص ونقب، فضلا عما يسمع وإذا روى له أمر وشك فيه وأظهر ذلك في كتابته وخلف لنا وصفا لمصر في سنوات الضيق والقحط والوباء (٥٩٥-٥٩٨هـ) هذا بالإضافة إلى أنه تناول أمورا في حياة مصر الاجتماعية والعمرانية بتفصيل العالم ودقته[٢٧٧]. وإن كان قد بالغ في وصفه وقال إن الناس كانوا يأكلون لحوم الموتى وهذا الوصف ضمنه كتابه " الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" والكتاب طرفة من طرف كتب الرحلات[٢٧٨].

ويصفه أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه "تاريخ الأدب الجغرافي العربي" فيقول: " كان عبد اللطيف البغدادي رجلاً جم المعرفة ضارباً في جميع فروع العلم بسهم، كان عالما دقيقا في الملاحظة فهو بهذا يمثل طراز العالم المحقق الذي يتوق إلى المعرفة الإيجابية مع ميل — واضح إلى التجربة العلمية[٢٧٩].

وعلى الرغم مما حظى به البغدادي من درجة عالية من الدرس والتحصيل وما بلغه من سمو الشأن بين أهل الموصل والعراق بصفة عامة فقد رأى مواصلة الرحلة للتعرف على آفاق جديدة أخرى في ميدان العلم الفسيح"[٢٨٠].

فعندما لم يجد بين شيوخ حاضرة العباسيين وعلمائها من يشفى غليلة ويروى ظمأه ويشبع نهمه الشديد للتعرف على جديد أو قديم لم يصل يديه في العلوم المختلفة تولدت عنده الرغبة في الرحلة للقاء أئمة العلم وكبار الفقهاء في حواضر الإسلام الأخرى للأخذ عنهم والحوار معهم وفى نفس الجلوس للتدريس والانصراف إلى الكتابة والتأليف كلما سنحت له الظروف[٢٨١].

غادر البغدادي بغداد في سن الخامسة والثلاثين من عمره متجها إلى مصر فمر ببلاد الشام وأمضى وقتا قصيرا هناك، ولكنه ما لبث أن استقر مدة طويلة في مصر يتعلم ويعلم ويؤلف في كل من الطلب والصيدلة والنبات والحيوان والجغرافية، وعندما أشبع عبد اللطيف البغدادي نهما بالمعارف غادر مصر سنة ٦٠٢ هجرية إلى القدس وظل يعلم طلاب العلم في المسجد الأقصى وفى هذه الفترة التقى بصلاح الدين الأيوبي وأعجب به كثيرا[٢٨٢].

وبقى عبد اللطيف البغدادي ينتقل بين عواصم البلدان العربية والإسلامية باحثا عن جهابذة الفكر العلمي لكي يتبادل الأحاديث معهم، وأخيرا قرر العودة إلى مسقط رأسه دار السلام بغداد [٢٨٣].

أما الرحلة: فتحتوى على معلومات أصيلة عن كل من سطح ومناخ ومياه ونبات وحيوان مصر، وهذه العناصر تعتبر من المقومات العامة في علم الجغرافية.ويذكر شاكر خصباك في كتابه " في الجغرافية العربية – دراسة في التراث الجغرافي العربي" أن كتاب " الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة في أرض مصر " لعبد اللطيف البغدادي ينقسم إلى قسمين رئيسيين:

الأول: يتناول دراسة جغرافية مصر النباتية والحيوانية والإقليمية مع الاهتمام بآثار مصر القديمة، كما تظهر روح المقارنة والبحث العلمي الدقيق واضحة في هذا الجزء.أما الثاني: فيشمل شرحا واضحا وشاملا عن نهر النيل ومنابعه وأثره على الحياة الاقتصادية في مصر[٢٨٤].

وقد قسم الكتاب إلى مقالتين، وقسم المقالة الأولى إلى ستة فصول، تحدث في الفصل الأول عن خواص مصر العامة، فقال إنها واد تكتنفها الجبال والصحارى والنيل ينساب فيها ويتشعب بأسفل الأرض وجميع شعبه تصب في بحر الروم[٢٨٥]. وعقد الفصل الثاني من هذه المقالة للنباتات ووصفها وصفا دقيقا وصف عالم فيلسوف

واستهله بالحديث عن البامية(٢٨٦): " وهي ثمر بقدر إبهام اليد كأنه جرأ.. شديد الخضرة إلا أن عليه زيبر مشوكا وهو مخمس الشكل يحيط به خمسة أضلاع.."(٢٨٧).

ويمضى في وصف بقية نباتات مصر وفواكهها، وفى الفصل الثالث يتكلم عما تختص به مصر من الحيوانات مما يمشي على الأرض أو يجرى في النيل أو يصاد من البحر الرومي، فيقول: " ... والحمير بمصر فارهة جدا وتركب بالسروج وتجرى مع الخيل والبغال النفيسة لعلها تسبقها.. يركبه رؤساء اليهود والنصارى ويبلغ ثمن الواحد منها عشرين دينارا إلى أربعين."(٢٨٨).

ويتحدث في الفصل الرابع عن آثار مصر العجيبة حديث العالم المحقق وكأنه عالم عصري من علماء الآثار، فيذكر الأهرام مبنية بحجارة جافية يكون طول الحجر منها ما بين عشرة أذرع إلى عشرين ذراعا وسمكه ما بين ذراعين إلى ثلاثة وعرضه نحو ذلك.

والعجب في وضع الحجر بهندام ليس في الإمكان أصبح منه بحيث لا تجد بينهما مدخل ابره ولا خلل شعرة وبينهما طين كأنه الورقة.. وعند هذه الأهرام بأكثر من غلوة صورة رأس وعنق بارزة من الأرض في غاية العظمة يسميه الناس أبا الهول.. تناسب وجه أبي الهول فإن أعضاء وجهه بالأنف والعين والأذن متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة.." (٢٨٩).

وعقد الفصل الخامس من المقالة الأولى في هذا الكتاب للحديث عن غرائب الأبنية المستحدثة والسفن، ووقف طويك عند الحمامات وأشاد بها وبأحواضها وما يتخذ فيها من غرائب الأطعمة(٢٩٠).

والواقع أن البغدادي أعجب بكل ما شاهد في القاهرة من غرائب الأبنية ووسائل الراحة التي قرنها أحد العلماء المحدثين بما نعرفه في الفنادق الحديثة من أرقى المخترعات وأساليب الترف(٢٩١).أما المقالة الثانية فقد قسمها لثلاث فصول جعل الفصل الأول منها للنيل وكيفية زيادته وعلل ذلك وقوانينه. وأما الفصلان الثاني

والثالث فجعلهما للكلام في حوادث سنتي ٥٩٧، ٥٩٨هـ وكان قد تصادف وجود قحط وظهور وباء بمصر فأفاض في وصف ذلك وكثرة ما كان من موتى وفقر ما حق ساحق[٢٩٢].

لقد كانت الرحلة إذا عونا كبيرا للمؤرخ والجغرافي على حد سواء ولعل من بين أهمية الرحلة لأعمالها هو صقل المنهج وتأكيد المشاهدة والمعاينة، الأمر الذي أوثق المرئيات وأكد حدوث الوقائع. هذا علاوة على ما وسعته الرحلة من أفق ومدارك كل من الجغرافي والمؤرخ بسبب اتساع دائرة اتصالها، بالبلدان والأقوام وحوارهما مع العلماء وأصحاب المعرفة بأحوال البشر وتقلبات الأحوال في الزمان والمكان[٢٩٣].

جدير بالذكر أن رحلة عبد اللطيف البغدادي تصدت لذكر مكتبة الإسكندرية ونسبة حرقها إلى عمرو بن العاص وأيده في روايته رجل توفى بعده بأكثر من خمسين سنة وهو المؤرخ أبو الفرج الملطى المتوفى سنة(٦٨٥هـ /١٢٨٦م) في كتابه المسمى " مختصر تاريخ الدول" وكان عبد اللطيف أول من نسب حريق المكتبة إلى عمرو[٢٩٤]. إذ روى أنه سمع عن مكتبة كانت قائمة في الإسكندرية وأن هذه المكتبة لم يعد لها وجود على يد عمرو بن العاص بناء على ما كان يردده العامة.

ولا يفوت عبد اللطيف البغدادي أن يحدثنا عن الظاهرة الاقتصادية والاجتماعية الخالدة وهى أن مصائب قوم عند قوم فوائد، فيقول في سياق وصفه لأحد الأوبئة التي ألمت بالمنطقة عصر ذاك: " ومما يقض به العجب أن جماعة من الذين مازالوا مجددين سعدوا في دنياهم في هذه السنة فمنهم من أثرى بسبب متاجرته في القمح ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل إليه بالإرث، ومنهم من حسنت أحواله لغير سبب معروف فتبارى من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط"[٢٩٥].

ولقد كتب لنا المقريزي في كتابه " إغاثة الأمة بكشف الغمة" عما كان يحل بمصر من مجاعات متكررة وأوضح لنا أسباب ذلك،ولكن البغدادي كان قد شاهد مظاهر

المجاعة التي ألمت بمصر فيما بين سنتي(٥٩٥/٥٩٨هــ)(١١٩٨/١٢٠١م) فذكر أن " الفقراء لشدة المجاعة عليهم كانوا ينبشون قبور الموتى ويلتهمون جيفهم وكانوا يقتلون أولادهم ويأكلون لحومهم.." [٢٩٦]. وفى ذلك يقول المقريزي: " ثم تزايد الأمر حتى صار غذاء الكثير من الناس لحوم بنى آدم بحيث ألفوه.."[٢٩٧].وهكذا قدم لنا عبد اللطيف البغدادي الكثير من جوانب الحياة الثقافية – المادية منها والمعنوية – والحياة الاجتماعية ووقفنا معه على الجوانب الإثنوجرافية للناس في القرن السابع الهجري.

أبو عبد الله محمد العبدري المغربي: الرحالة الغاضب

من مميزات العصور المرينية اهتمام أدباء المغرب بتدوين أخبار أسفارهم فألفت في هذه العصور عدة رحلات نالت حظوة وإقبالاً لدى الأدباء بالمشرق والمغرب، وقد نبغ عدد كبير من المغاربة في هذا النوع الأدبي، ولئن كان سبقهم غيرهم إليه، فما ذلك إلا لأنهم لم تنتشر الثقافة العربية بين ظهرانيهم إلا مؤخرا ولكنهم لما اقبلوا على هذا النوع الأدبي برزوا فيه حتى إن أشهر رحالة في العالم كان من أهل المغرب وهو ابن بطوطة، وحتى إن أعظم رحلة ألقت في العربية ألفها مغربي وهو الإمام ابن رشيد الفهرى وكلاهما من رجال العصور المرينية.

ومن أقدم من ألف في هذا الفن وأشهرهم من أهل المغرب أبو عبد الله العبدري وقد رحل ابن رشيد خمس سنوات قبله إلى المشرق، إلا أنه عاش أكثر من ثلاثين سنة بعد سفر العبدري[٢٩٨].

اسمه الكامل محمد بن محمد بن على بن أحمد بن مسعود – أو سعود– العبدري وكنيته أبو عبد الله لا أبو محمد، كما قال محمد بن شنب في المادة التي أدارها عليه في دائرة المعارف الإسلامية[٢٩٩]. وينتهى نسبه إلى عبد الدار بن قصى بن كلاب وإليه نسبته[٣٠٠]. كان سلفه يقطنون بلاد حاحة القبلية البربرية التي تحيط بمدينة الصويرة على الشاطئ الأطلنطى والنسبة إليها حيحى[٣٠١].

وقد جرت العادة عند الكلام على العبدري صاحب (الرحلة المغربية) على اعتبار أنه بلنسى الأصل على حد قول نقولا زيادة الذي ذكر: " ... واعلم أن العبدري مرتبط ببلنسية..."[٣٠٢]. وزكى محمد حسن في قوله: " ... نسبة إلى جده الأعلى عبد الدار ابن قصى القرشي واصله من بلنسيه..."[٣٠٣]. ولكن محمد الفاسي نفى هذه النسبة الأندلسية عن الرجل وقرر أنه مغربي الأصل: " ... والحالة أنه مغربي صميم وهو يعتز بالمغرب وأهله في كتابه..."[٣٠٤]. وسواء أكان الرجل أندلسيا بلنسى الأصل ثم نشأ في المغرب مثلما ذهب في ذلك أحمد بن جدو أو كان عربيا مغربيا لا صلة له بالأندلس فإنه يعد من المغاربة[٣٠٥].

لم تسعفنا المصادر – حتى الآن – بمعرفة تاريخ ولادة العبدري وتاريخ وفاته وكل ما نعرفه أنه قام برحلته في الخامسة والعشرين من ذي القعدة عام ثمانية وثمانين وست مئة وكان عبدها في عنفوان عمره، كما قال له شيخه أبو زيد الدباغ[٣٠٦]: " وقال لى: أنت أولى بها منى فإني شيخ على الوداع وأنت في عنفوان عمرك، ومن حيث رأيتك أنغرز حبك في قلبي.."[٣٠٧].

ولكن الثابت أنه كان حيا بعد سنة ٦٦٨هـ[٣٠٨] وإذا افترضنا أنه كان آنذاك في الخامسة والأربعين بدليل قوله عن ابن خميس التلمساني الذي كان – حين لقيه في تلمسان – في الثامنة والثلاثين من عمره بأنه " فتى السن" فتكون ولادته حوالي سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م) وأغلب الظن أن وفاته كانت بعد سنة سبع مئة للهجرة، وهذا قريب مما قدره الدكتور عمر فروخ إذ جعل وفاته سنة(٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م)[٣٠٩].

ولا تمدنا المصادر في معرفة شيئا عن دراسته الأولى وبدايات تكوينه الثقافي ولا يستبعد أنه تتلمذ على والده ودخل الكتاب في بلدته " حاحة" وتعلم على الطريقة المتبعة حينئذ من التدرج في حفظ المتون، وتعلم العمليات الحسابية ثم ارتقى إلى أن أصبح من الطلاب عندها انتقل إلى مراكش التي كانت مركزا علميا مرموقا آنذاك

فأخذ عن جلة من علمائها أمثال محمد بن على بن يحيى الشريف الذي كان شيخه وشيخ صاحبه ابن عبد الملك المراكشي[٣١٠]. والغالب أنه نشأ وترعرع في بلدة صغيرة تعرف باسم الحاحة تقع بين يبسكرة وتوزر في المغرب الأقصى[٣١١]. وكان العبدري رجلا ريفيا ألف العيش في الجو الطلق الصحي في الجبال بعيدا عن زحمة الناس وضجيج المدن[٣١٢].

وقد أفاد العبدري من كثرة مشايخه وتنوع ثقافاهم فأتقن كثيرا من الفنون ظهرت جلية في رحلته التي بدا فيها المؤلف حافظا للقرآن والحديث مطلعا على الأدب العربي نثره وشعره وخطبه ورسائله عارفا بأيام العرب وغزواقم وفصحاء خطبائهم وله مغرمة بالأسماء والألقاب والكنى وأسماء الأماكن وبمصطلحات علوم الأدب والبلاغة والعروض[٣١٣].

ولا نعرف للعبدرى مؤلفا غير الرحلة ويبدو أن غوائل الدهر قد أتت على ما أنتجه هذا العالم ولم يسلم لنا سوى الرحلة[٣١٤]. ولكن يبدو أن للعبدري كان له ديوان شعر مثل الرحالة أسامة بن منقذ ولكنه فقد، والدليل على ذلك قول العبدري في رحلته: "…. وقد كان هذا المعنى عرض لى قديما فنظمته في بيت من قصيدة وزدت فيه معنى آخر وهو أن الشيب لما ولى قام بأعلى الرأس خطيبا"[٣١٥]. خاصة وأن أبا عبد الله العبدري كان شاعرا بارعا ومبدعا وتحدث بعض المؤرخين عن هذه الموهبة بدهشة[٣١٦].

المتواتر أن أبا عبد الله العبدري بدأ رحلته لشمال أفريقيا سنة ٦٨٨هـ[٣١٧]. واتخذ في رحلته طريق يإفريقيا الشمالي إلى الإسكندرية، ومنها بالطريق البرى إلى مكة، وأقام بعد الحج فترة من الزمن بفلسطين، ثم قفل معرجا على الإسكندرية ودون أخبار رحلته وأشار فيها إلى ابن جبير [٣١٨]. وقد تأثر برحلته ابن جبير الحجازية التي قام بها قبله بنحو ٨٩ سنة[٣١٩].

وكان من أسباب الرحلة سببان حملاه على المضي قدما فيها:

الأول: سبب ديني، وهو القيام بفريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة والاتصال بالمتصوفة والصالحين، وقد صرح العبدري مرارا بأنه كان ينوى الإقامة بمكة والمجاورة بها وبأنه قد اعترى المترل وحضر لوازمه وصرف الركب إلى المغرب لولا حدوث فتنة هناك أرغمته على الرحيل عن مكة[٣٢٠]. فيقول: " ... حتى قضى الله بفتنة وقعت بين الركب وبين صاحب مكة بأسباب سيرتها المقادير؛ فتقاتلوا في اليوم الأول... "[٣٢١].

الثاني: هو رغبته في لقاء العلماء والمشايخ والأخذ عنهم فكان العبدري في سؤال دائم عن الأحوال العلمية والثقافية في البلاد التي مر بها فإذا صادف مجموعة من العلماء في بلد من البلاد طرب لذلك وانشرحت نفسه، فانطلق لسانه ثناء وحمدا، كما حدث معه في تونس[٣٢٢]: "...مدينة تونس مطمح الآمال ومصاب كل برق... لا تنشد بها ضالة من العلم إلا وجدتها ... وأهلها ما بين عالم كالعلم ورافع بين أهله للعلم"[٣٢٣]. وعلى الجانب الآخر نجده إذ لم يجد هذا النوع من العلماء هجا بلسانه هذه البلاد وأهلها كصنيعه في طرابلس حيث تحامل على أهل طرابلس ووصفهم بأسوأ الصفات وأنهم قد تفرقت عنهم الفضائل[٣٢٤]. فأورد في رحلته: "... ثم وصلنا إلى مدينة طرابلس وهي للجهل مأتم وما للعلم بها عرس..."[٣٢٥].

أما مدة الرحلة فيبدو أنها استمرت أكثر من سنتين، ويذكر أن العبدري زار تونس مرتين في طريق ذهابه إلى الحج سنة (٦٨٨هـ/١٢٨٩م) وعند رجوعه سنة (٦٩١هـ/ ١٢٩٢م) فعلى هذا يكون العبدري قد أمضى ثلاث سنوات في رحلته، ويؤكد هذا البلوى حين أورد أبياتا للعبدرى في رحلته فقال: "... أنشدها في رجب الفرد سنة" (٦٩٠هـ/١٢٩١م) ...."[٣٢٦].

والرحلة كانت ذات هدف مزدوج مثل كثير من الرحلات الحجازية التي كان أصحابها يقصدون الديار المقدسة لأداء فريضة الحج ويغتنمون الفرصة ليلتقوا بالشيوخ

في المدن التي كانوا يمرون بها ويأخذون عنهم ما يتيسر لهم من العلوم المختلفة(٣٢٧). والثابت لدينا أن العبدري كان من هذا الصنف من الرحالة حيث ظهر خلال رحلته الحجازية أنه عالما مطلعا واسعا في العلوم الإسلامية والآداب العربية، عالما باللغات والكثير من اللهجات فهو لحسن اللغة البربرية، وفى هذا دليل على أن العلم كان منتشرا في كل الأصقاع المغربية حتى البعيدة المتطرفة منها، وأن حركة النهضة العلمية التي بدأت مع المرابطين ثم مع الموحدين كانت قد أنتجت وآتت أكلها طيبا في أواخر القرن السابع الهجري(٣٢٨).

وكان العبدري قد سافر على طريق البر من وراء الأطلس قاطعا المغازة التي بين جنوب المغرب ومدينة تلمسان وهو يصف كل المحلات التي يمر بها، ويذكر أحوال أهلها وأكثر اهتمامه بالعلم والحركة العلمية بالمدن والبلاد التي يحلها وقد قال في مقدمته أنه سيستعمل الصراحة في هذه الرحلة والإنصاف وأنه لا يعمد إلى تقبيح حسن ولا تحسين قبيح. (٣٢٩).

وقد كان العبدري وفيا لهذا المنهج الذي ارتضاه لرحلته مطبقا له فقد وصف البلدان وصفا دقيقا بمبانيها وآثارها وكثيرا ما كان يعرج على أهلها فيصف عاداقا وتقاليدهم ولباسهم ومستواهم العلمي، ولم يكن متساهلا في نقد ما كان يراه غير طبيعى سواء في أخلاق الناس أو في عاداقم وخصوصا فيما يتعلق بالناحية العلمية للبلاد التي كان يدخله(٣٣٠) كقوله عن تلمسان: ".. وأما العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد وغاضت أنصاره فازدحم على الثماد فما ظنك بها وهى رسم عفا طلله ومنهل جف وشله.." (٣٣١).

ويهجو القاهرة فيقول عنها: " ... فهي سوق ينصب بها الشيطان رايته ويجرى إليها غايته ويرى فيها لأتباعه وهم أهلها آيته.. وقد قيل فيهم: إنهم أعقل الناس صغاراً وأحمقهم كباراً.. ثلثها كلاب وثلثها تراب وثلثها دواب..." (٣٣٢).

رغم قسوة أحكامه وفظاظة كلماته وسوء منطق لسانه في كثير من أوصافه للناس والمدن فيذكر محمد الفاسي أن هذا إنما يظهر لنا أنه كان رجلا فاضلاً محباً للفضيلة والأخلاق الكاملة ورجلاً عالماً متضلعاً من العلوم الإسلامية، وفوق كل هذا كان صريحاً إلى درجة لم تعهد من قبله ولا من بعده، فكان أكثر ما تقع عليه عينيه بضرورة الحال مذموماً لأنه يقيسه بميزانه فهو يريد أن يكون العالم كما يتصوره لا كما كان في الواقع فلذا أكثر انتقاده لكل ما كان يشاهده(٣٣٣).

بينما ذهب حسين مؤنس إلى كون العبدري رجلا متشائماً سيئ الظن في الدنيا والناس وكان من أولئك الناس الذين لا يدرون ما يريدون فهو دائماً في سأم وقلق وضيق وإسراع إلى النفور والمذمة(٣٣٤). وهذا ما جعل بعض الباحثين يوصف آراءه بالنظر والتعقيد لأن العبدري لم يترك بلداً دون أن يوجه إليه نقده بصراحة لا مدارة فيها ولا موارية(٣٣٥).

إلا أن رحلة العبدري احتوت على معلومات جغرافية وتاريخية وأدبية واجتماعية إضافة إلى المعلومات الفقهية، لذلك نلاحظ أن مصادره متنوعة تنوعاً كثيراً، ويأتي في أولها المشاهدة ثم الرواية الشفوية ثم المصنفات المختلفة التي نقل منها(٣٣٦).

لهذا تستحق هذه الرحلة دراسة أوسع من هذه لأهميتها من هذه الوجهة التي درسناها ولاحتوائها على أوصاف البلاد التي مر بها ومعالمها العمرانية والأنماط العمرانية السائدة وهي إحدى حلقات سلسلة الرحلات الطويلة التي بدأت برحلة الإمام المعافري وتبعتها رحلة ابن جبير فرحلة ابن رشيد فرحلة العبدري ثم رحلة التجيبي وغيرها(٣٣٧).

ورحلة العبدري لا تقل أهمية عن رحلة ابن جبير (في القرن السادس الهجري) ورحلة ابن بطوطة (في القرن الثامن الهجري) إن لم تكن تفوقهما في بعض الجوانب، ولا سيما في جانبها الأدبي لأن العبدري صاحب الرحلة كان أديباً عالماً من علماء المغرب في

القرن السابع الهجري، صرف جل اهتمامه في رحلته إلى الناحية العلمية في البلاد التي قطعها براً من المغرب الأقصى إلى البلاد الحجازية والقدس والخليل.

ومما يزيد في أهمية الرحلة أنها تعد وثيقةً مهمة عن الحياة الثقافية في أواخر القرن السابع الهجري في البلاد التي مر بها العبدري والتقى علماءها فقد أعطانا صاحب الرحلة فكرة موسعة عن المستوى الثقافي في هذه البلاد وعرفنا بأعلام العلماء وما كان يهتم به من العلوم المختلفة كما دلنا على الكتب التي كانت رائجة آنذاك وطرائق التدريس المتبعة عصرئذ.

وترجم العبدري لمجموعة من العلماء الذين لا نكاد نعثر لهم على صورة واضحة في المصادر المختلفة فأضاء جوانب من شخصياتهم وعرفنا بهم وبطبائعهم، وكانت أوصافه وأحكامه تتصف بالدقة لأنها صادرة عن شاهد عيان.

كذلك فإن الرحلة تفيد علماء الجغرافية والتاريخ في دراسة الظواهر التي كانت سائدة آنذاك كما تفيد مؤرخي الأدب في التاريخ الأدبي للأقطار التي مر بها العبدري، فهي تضم نصوصاً أدبيةً —شعريةً ونثريةً ونقديةً — مهمة تنفرد الرحلة في بعضها بما يزيد في أهمية الرحلة ويضعها في مكانها الصحيح بين كتب الرحلات المختلفة.

ابن بطوطة: درسٌ في عشق الرحلة.

ولما كان العالم العربي والإسلامي متصلاً ومتواصلاً، ورحلات الرحالة وزيارات التجار والسفراء، وتنقلات العلماء والأدباء من وطن إلى آخر لا تنقطع، وكان سلاطين هذه العصور يهتمون بطرق التجارة والقوافل والبريد لذا أقاموا عليها العمارات وأنشأوا الرباطات، وأمنوا السالكين في الآفاق، ولذلك كانت أخبار الممالك العربية والإسلامية معروفة ومتداولة، ولا تخفى خافية عن جوابي البلاد من الرحالة والمؤرخين، فلم يكن عجباً أن يظهر في القرن الثامن الهجري أحد أشهر الشباب الرحالة كامتداد

طبيعي لهذا المناخ الطيب وهو صاحب "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" الذي ذاعت شهرته في الآفاق.

وهو: محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة، رحالة مؤرخ، ولد سنة ٧٠٣هـــ، ونشأ في طنجة بالمغرب الأقصى،وخرج منها سنة ٧٢٥هـــ، فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان، وما وراء النهر وبعض الهند والصين والجاوة وبلاد التتر وأواسط إفريقية. واتصل بكثير من الملوك والأمراء، فمدحهم، وكان ينظم الشعر واستعان بهباتهم على أسفاره، وعاد إلى المغرب الأقصى فانقطع إلى السلطان أبي عنان من ملوك بني وين، فأقام في بلاده. وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي بمدينة فاس سنة ٧٥٦هـــ. وسماها " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ". وكان يحسن التركية والفارسية، واستغرقت رحلته ٢٧سنة (١٣٢٥- ١٣٥٢م)، ومات في مراكش. وتلقبه جمعية كمبردج في كتبها وأطالسها بأمير الرحالين المسلمين، وفي نابلس بفلسطين أسرة تدعي بيت بطوط، وتعرف ببيت المغربي وبيت الكمال، وتقول: إنها من نسل ابن بطوطة[٣٣٨].

ورحلة ابن بطوطة تعد وثيقة تاريخية واجتماعية ذات قيمة كبيرة، فهذا رجل حمل نفسه مهمة لا تضطلع بمثلها إلا جمعية علمية كبيرة ذات مال وافر، وهي مهمة استطلاع العالم الإسلامي كله في عصره استطلاعاً مباشراً يقوم على المشاهدة والمعاينة والمعاناة وكتابة "تقرير" واف قدر الإمكان عن ذلك العالم الإسلامي الذي ذرعه بالطول والعرض، وشقه بشجاعة وإقدام وصبر ومحبة.

وهذا على وجه التقريب هو الوصف الدقيق لهذه الرحلة: إنها "تقرير" عن أحوال الأمة الإسلامية خلال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وجدير بنا أن نذكر هنا أن هذا الرجل الذي تجشم عناء الرحلة والانتقال في عصور كانت وسائل

الانتقال فيها لا تخرج عن المسير أو ظهور الدواب أو متون سفن يرهب الإنسان منظرها فضلاً عن ركوبها، لكي، يرى بعينيه عالم الإسلام من أوله إلى آخره، ولو أنه قام بهذه الرحلات في أيامنا هذه ووسائل المواصلات ميسرة والرحلات قصيرة الأوقات، لكانت رحلة طولها مائة وأربعون ألف كيلو متر !!. (٣٣٩) ناهيك عن أن ابن بطوطة قد خرج لرحلته وهو بَعْدُ في الحادية والعشرين من عمره لم تكتمل دراسته بعد، فاستكملها على الطريق، وخرج خاوي الوفاض لا يملك إلا بضعة دنانير، فلم يحفل الشاب لذلك ولا ضجر، وإنما أقبل على السير في شجاعة تستوقف النظر، وأحسن تدبير أمره فلم يشك طول رحلة زادت على ربع قرن مسبغة، ولا هو اضطر إلى التصعلك أو الكدية، بل سار على سمته. شيخاً كريماً على نفسه وعلى الناس، وقانعاً بالمبيت في الزوايا وبما يقدمه القَوَمَةُ عليها من طعام بسيط أكثره الثريد وشئ من التمر.وهذا كله يضفي على هذه الرحلات متعة وجمالاً، بالإضافة إلى الفائدة التي لاشك فيها(٣٤٠).

إذ تحوي الرحلة كثيراً من طريف الأخبار، ونادر الحكايات، وعجائب المخلوقات، في الحيوان والنبات، فكان لذلك أثر ظاهر في تقدم علم الجغرافية ونمو الثروة الأدبية لدى المتأدبين.من جراء ثلاث رحلات قام بها ابن بطوطة جاب فيها أكثر ما عرف في زمانه من البلاد.

إذ كانت الرحلة الأولى ١٣٢٥- ١٣٤٩م. قضى في تلك الرحلة ٢٤سنة: فخرج من طنجة في سنة ١٣٢٥م،للحج، فمر بمراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر. ثم قصد إلى عيذاب على البحر الأحمر، فلم يتهيأ له ذلك للحرب التي كانت قائمة بين المماليك والبجاة، فعاد إلى الفسطاط، ثم رحل عنها إلى فلسطين ولبنان وسوريا والحجاز، فحج حجته الأولى. ومن مكة سافر إلى بلاد العراق والعجم وبلاد الأناضول، ثم عاد إلى مكة، فحج حجته الثانية، وأقام بها سنتين، ثم غادرها إلى اليمن واجتاز البحر إلى إفريقية الشرقية. ثم عاد منها ماراً بجنوبي جزيرة العرب حتى الخليج

الفارسي، فزار عمان والبحرين والإحساء. ثم رجع إلى مكة، فحج حجته الثالثة. ثم خرج من مكة إلى بلاد الهند، فمر بخوارزم وخراسان وتركستان وأفغانستان وكابول والسند. وتولى القضاء في دهلي على المذهب المالكي للسلطان محمد شاه. ولما أراد السلطان محمد أن يرسل وفداً إلى الصين، خرج ابن بطوطة فيه.

وفي عودته مر بجزيرة سرنديب وجزائر الهند والصين. ومن ثم عاد إلى بلاد العرب عن طريق سومطرة سنة ١٣٤٧م. فزار بلاد العجم والعراق وسوريا وفلسطين. ومنها إلى مكة، فحج حجته الرابعة. وبعد هذا رأى بن بطوطة أن يعود إلى وطنه، فمر بمصر وتونس والجزائر ومراكش، فوصل فاس سنة ١٣٤٩م.الرحلة الثانية: لم يقم ابن بطوطة في فاس طويلاً حتى وجد في نفسه نزوعاً إلى السفر إلى بلاد الأندلس، فمر في طريقه بطنجة وجبل طارق وغَرناطة. ثم عاد إلى فاس.



الرحلة الثالثة: ١٣٥٢- ١٣٥٤م. فكانت إلى بلاد السودان مبتدئة بسجلماسة، ثم تغازا ومالّي وزاغَرِى وكارسخو وتمبكتو وتكدًّا وهكَّار، ومن هناك رجع إلى فاس. ويعد ابن بطوطة أول سائح كتب عن مجاهل إفريقية المتوسطة[٣٤١].فنبه ابن بطوطة برحلاته الأفكار، وأيقظها بعد طول سباتها، ووجه الأنظار إليه، فكان الناس فيما قال بين مصدق ومكذب. وقد أتى ابن خلدون في مقدمته بما يكشف لنا عن حال

ابن بطوطة في أهل زمانه حيث يقول: " ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بنى مرين رجل من المشرق، وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند، ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند، وهو السلطان محمد شاه. وكان له منه مكان. واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله. ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان. وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض. وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند، ويأتي من أحواله بما يستغرب به السامعون: مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان، وفرض لهم رزق ستة أشهر تعطى لهم من عطائه، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد، ويطوفون به، وينصب أمامه في ذلك الحفل منجينيقات،وترمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه. وأمثال هذه الحكايات. فتناجى الناس بتكذيبه"(٣٤٢).

من هنا نجد تمظهر العجائبي عند ابن بطوطة متنوع في العادات والسلوك، ويتراوح في تلويناته بين الوهمي والمحتمل لأحداث عاشها أو سمع بها، ويرويها شاهداً وفاعلاً ووسيطاً، وهو في هذا السياق يدرج ابن بطوطة رؤيته لما يورده، وهو يُسَوّغ العجائبي للقارئ كما سوّغته ظروفه ومعطياته لنفسه: "وسنذكر من أخباره من عجائب لم يسمع بمثلها عما تقدمه. وأنا أشهد الله وملائكته ورسله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين بالله شهيداً، واعلم أن بعض مآثره من ذلك لا يسوغ في عقل كثير من الناس، ويعدونه من قبيل المستحيل عادة، ولكنه شئ عاينته وعرفت صحته وأخذت بحظ وافر منه، ولا يسعني إلا قول الحق فيه(٣٤٣)".

وبرغم ذلك فنحن أمام عمل علمي من الطراز الأول، كتبه رجل عالم ومكتشف لا يقل عن عظماء المكتشفين في التاريخ، ولو وعى معاصروه ومن جاء بعدهم قدره

لكان لهذا الكتاب شأن عظيم في تقدم هذه الأمة. كما كان الحال مع ماركو بولو في تاريخ العلم الأوربي.

ولقد قيل عن كتاب رحلات ماركو بولو: إنه " واحد من أعاظم الكتب على مر العصور " وتوالت طبعاته والدراسات حوله حتى أصبحت هناك مكتبة تسمى مكتبة ماركو بولو، وأفادت أوروبا من كتاب رحلاته فوائد أكبر فيما يتعلق بعلاقاتها مع المغول أو مع الصين وآسيا. وعلى أساسه رسمت سياسات وخطط بعضها يتصل بالتجارة، وبعضها يتصل بالسياسة، لأن ماركو بولو وعميه نيكولو ومايتو اخترقوا عالم الإسلام، وتسللوا إلى بلاد المغول، وحاولوا أن يكسبوا قبلاى خان للنصرانية، وبذلوا في ذلك جهداً كبيراً واصله الأوربيون ــ والبابوية خاصة ــ من بعده.

لقد تعاصر ماركو بولو[٣٤٤] وابن بطوطة بعض الوقت، فقد عاش ماركوبولو فيما بين سنتي١٢٥٤و ١٣٢٤، وعاش ابن بطوطة فيما سنتي ١٣٠٤و ١٣٧٨. وقد بدأ ابن بطوطة رحلته في ١٤ من يونيو ١٣٢٥ أي بعد موت ماركو بولو بسنة ونصف السنة تقريباً، فقد توفى هذا في البندقية في الثامن من يناير ١٣٢٤– وفي رحلتيهما زارا المواضع نفسها وسلكا في كثير من الأحيان الطريق نفسه، كما هى الحال في رحلة الاثنين في الصين والعودة من هناك إلى الغرب، ولكن شتان بين الاثنين في الدقة وتفتح الذهن ويقظة القلب ودقة الكلام وصدقه، وما أكثر ما كذب ماركو بولو ا وما أقل ما بالغ ابن بطوطةا[٣٤٥].

هوامش الفصل الأول

١– عثمان موافي: لون من أدب الرحلات دراسة نقدية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧٣، ص ٥.

٢- محمد السيد مطر: الرحلة عند شعراء المعلقات دراسة موضوعية وفنية ، رسالة ماجستير ـ غير منشورة ـ آداب بنها، ١٩٩٦، ص١٣.
٣- حسين نصار:أدب الرحلة، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، القاهرة، ١٩٩١، ص١.
٤- حسين محمد فهيم:أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة ، العدد١٣٨، الكويت ١٩٨٩، ص١٩.
٥- شوقي ضيف: الرحلات، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ص٥.
٦- حسنى محمود حسين:الرحلة عند العرب، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٩٧٦، ص٤.
٧- ندى يوسف: معجم لغة دواوين شعراء المعلقات تأصيلاً ودلالة وصرفاً، ط١، بيروت، ١٩٩٣، ص١١٢-١٢٥.
٨- عثمان موافي: المرجع السابق، ص٥، ص٦.
٩- المنجد في اللغة: ط٢٦، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٣، ص٢٥٣.
١٠- بطرس البستاني: كتاب قطر المحيط، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٧٣٩.
١١- الرازي: (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر) مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، الطبعة الأميرية، القاهرة،١٩١٩، ص ٢٣٧.
١٢- الزمخشرى:(جار الله أبي القاسم محمود بن عمر)أساس البلاغة، الجزء الأول، ط٣، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٩٨٥، ص٣٢٨، ص٣٢٩.
١- محمد بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥، مادة: "رحل".
١٤- عبد الله بن حمد الحقيل:رحلات إلى الشرق والغرب، ط أولى، الرياض، ١٩٩٣، ص٤.
١٥- حسين محمد فهيم:أدب الرحلة: ص٥.
١٦- عبد الله بن حمد الحقيل: الحج في أدب الرحلات " (مقال) جريدة الجزيرة، العدد ١١٠٧٨، السعودية ٢٠٠٣م، ص ٣٨.
١٧- منصور الحازمي: " رحلات العرب في جزيرة العرب "، الدارة، العدد الثالث، السنة الخامسة، السعودية، ١٩٨٠، ص٣٠.
١٨- حسين فهيم: الرحلات: ص ٢٤٩.
١٩- قاسم عبده قاسم:عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، ط١، دار عين للدراسات، القاهرة، ١٩٩٨، ص٢٠٢.

٢٠- الإثنوجرافيا: كلمة معربة تعنى الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة (حسين فهيم: قصة الانثروبولوجيا فصول في تاريخ علم الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، عدد فبراير ١٩٨٥، ص ١٨ -١٩ - وانظر حسين فهيم: أدب الرحلات، مرجع سابق، ص ٤٩).

٢١-قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، ص ٢٢.

٢٢- نفس المرجع: ص ٢٤٩.

٢٣- قاسم عبده قاسم: الذهب والعاصفة (دراسة ضمن كتاب العربي بعنوان"الغرب بعيون عربية "، الجزء الأول ، العدد٥٩، الكويت ٢٠٠٥م) ، ص٩٤.

٢٤- علي محسن عيسى:أدب الرحلات عند العرب في المشرق ــ مكتبة المثنى ببغداد ــ ١٤٠١ هــ ــ ص ٣١٠.

٢٥- عصر سلاطين المماليك، ص ٢٠٢؛ مازن عوض الوعر: التفكير اللغوي عند الجغرافيين والرحالة العرب، مجلة التراث العربي- دمشق٢٠٠٦ العدد ١٠٤ السنة السادسة والعشرون - كانون الأول، ص٢٣.

٢٦- محمد الفاسي: الرحالة الشهير أبو عبد الله محمد العبدري، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مجلد ٩، ١٠ مدريد ١٩٦٢، ص١.

٢٧- كراتشكوفسكي: الأدب الجغرافي عند العرب، جـ١، ترجمة: صلاح الدين عثمان، القاهرة،١٩٦٥، ص ٣٣٢.

٢٨- نقلاً عن:عبد الرحمن حميدة:أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، ط٢، دمشق، ١٩٨٠، ص٣٤.

٢٩- عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، الطبعة الرابعة،المكتبة العصرية، بيروت،١٩٨٥، ص٩٣.

٣٠- ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي)(ت٨٠٨هــ): مقدمة ابن خلدون، دار الأمين للنشر، القاهرة ١٩٩٦م المقدمة، ص ٤٠٧.

31 – أبو الفضل بن موسى اليحصبي: ترتيب المدارك ، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي ، ط . الرباط ، المغرب ، بدون تاريخ ، نقلاً عن محمد أبو الأجفان: مقدمة تحقيق رحلة القلصادي ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ١٩٧٨م، ص٦٠ .

٣٢- حمد بن ناصر الدخيل: من أعلام الحضارة الإسلامية، ط الأولى، دار السبيل، الرياض، ١٩٩٣، ص ٣٥١

٣٣- شوقي ضيف: الرحلات، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٦ – ٨.

٣٥ – نعمات أحمد فؤاد: رحلة الشرق والغرب ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦،ص٢٦٤

٣٥- سعد عبد العزيز الراشد: درب زبيدة طريق الحج من الكوفة إلى مكة، ط الأولى، دار الوطن للنشر، الرياض،١٩٩٣،ص٢٧.

٣٦- زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار المعارف،١٩٤٥، ص٨.

٣٧- يوسف طعماس: دور العرب فى تطور العلوم البحرية، المنهل، عدد فبراير ١٩٩٧، ص١١٤.

٣٨- عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص١٧٩.

٣٩- حسين نصار: أدب الرحلة، ص ١١.

٤٠- حسين فهيم: ص٩١، صلاح الشامي: الإسلام والفكر الجغرافي، ص٩٥.

٤١- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٧٩ ، حسين فهيم: مرجع سابق، ص٩٠.

٤٢- عطية عودة أبو سرحان: أثر الرحالة المسلمين في تعريف المجتمعات الإسلامية، مجلة الفيصل، العدد٢٥، يونيو ١٩٧٩ م، ص ٣٢.

٤٣- زين الدين عبد الباسط ، ولد في ملطية في رجب سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٠م. وكان أبو من أمراء المماليك بمصر ، وأعلام رجال الإدارة في عصره بل كان من كبار المؤلفين كما يشهد بذلك كتابه " زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" . وهو عرض للوظائف السياسية والإدارية في عهد المماليك في القرنين السابع والثامن بعد الهجرة. انظر:زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون، ص١٧٢.

٤٤- زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون، ص ١٧٤، حسين نصار: أدب الرحلات،ص١١.

٤٥- نادية محمود عبد الله:الرحلة بين الواقع والخيال في أدب أندريه جيد، مقال بمجلة عالم الفكر ، الكويت ، مجلد رقم ١٣ ، العدد الرابع ، مارس ١٩٥٣م.

٤٦ - المرجع السابق ، وانظر: حسين محمد فهيم: الرّحلة والرَّحالة (دراسة إنسانية) ، الطبعة الأولى ، ندوة الثقافة والعلوم ، دبي ١٩٩٧م، ص٤٢، ٤٣.

٤٧- حسين فهيم: أدب الرحلات، ص ص ٩٠، ١١١.

٤٨- المرجع السابق، ص ٩١.

٤٩- محمد مصطفى زيادة: مقدمة رحلة ابن جبير، طبعة بيروت، ص ٥ .

٥٠- حسين فهيم: مرجع سابق، ص ٩١.

٥١- حسين نصار: المرجع السابق، ص ٣٨.

٥٢- حسين فهيم: المرجع السابق، ص ٩١.

٥٣- حسين نصار: المرجع السابق، ص ١٩، ٢٣.

٥٤- قاسم عبده: عصر سلاطين المماليك، ص١٨٠.

٥٥- المرجع السابق، ص ١٨١.

٥٦ - قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية (الطبعة الأولى ، دار عين القاهرة ١٩٩٣م) ، ص١٤.

٥٧- قاسم عبده: عصر سلاطين المماليك، ص ١٨٠.

٥٨- حسين نصار: المرجع السابق، ص ٤٤.

٥٩- ينظر:الهمذاني، بديع الزمان، شرح مقامات بديع الزمان، تح.محمد محيي الدين عبد الحميد، ط، ثانية، ص: ٢٥٣-٢٧٧.

٦٠- ينظر: ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، جامعة القاهرة، ١٩٣٩، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج٤، ص: ١٠٦-١٠٩.

٦١- محمد الصالح السليمان:الرحلات الخيالية في الشعر العربي الحديث، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق٢٠٠٠م، ص١٣-١٥

٦٢-السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٧م، ج٢، ص ١٨٤.

٦٣-أوليلچلبي، سياحتنا مه مصر، ترجمة محمد على عونه، تحقيق: عبد الوهاب عزام، وأحمد السعيد سليمان، مراجعة: أحمد فؤاد متولي، الطبعة الأولى، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٥م، ص ٤٣٠.

٦٤ - ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، مركز تحقيق التراث، دار الكتب، القاهرة ١٩٦٩م، ص ١٦٤.

٦٥-ناصر خسرو علوي: سفرنامة (ترجمة: يحيى الخشاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد ١٢٢، القاهرة ١٩٩٣م)، ص ٩٦.

٦٦-ابن ظهيرة: مصدر سابق، ص ١٦٤.

٦٧-ابن معصوم: الرحلة، ص ١٥٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٤.

٦٨ -ورد عند ابن إياس في (بدائع الزهور) أن الرجل صاحب الشجرة هو: "أبو إلياس الخضر". انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ص ٢٥.

٦٩-ابن ظهيرة:الفضائل الباهرة، ص ١٧١-١٧٤؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ١٤٢، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٠-١٨٢؛ السيوطي: كوكب الروضة، ص ١٣٢-١٣٣؛ الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول، ص ١٨٨-١٨٩؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص٥٢، ابن إياس: بدائع الزهور، ص ٢٤-٢٦.

٧٠ - المسعودي: مروج الذهب ، ج١، ص١٢٣.

٧١ - نفسه ، ص١٢٣.

٧٢ - كانت الرحلة الخياليّة في الملاحم والسيَّر وسيلة للإنسان للوصول إلى عالم الموتى المجهول تارة، وصفحة يستشرف من خلالها آفاق المستقبل وغامض الغيب تارة أخرى، كما تبدو تلك الرحلة الخياليّة صورة معكوسة للحياة الاجتماعية =في عصر صاحبها. ثمّ جاء الإسلام فأعطى المسلمين تصوّراً غنياً وعميقاً عن اليوم الآخر، وهو حقّ وصدق، كما أغنى خيالهم، وأشبع نفوسهم، وأراح أرواحهم بحديث الإسراء والمعراج، وكان الاعتقاد به ركناً من أركان الإيمان لديهم، ولذلك استقر في نفوسهم وأشبع لديهم الرغبة في معرفة العالم الآخر. ولهذا كلّه لم يظهر نصّ أدبي يتصوّر الرحلة إلى العالم الآخر إلاّ في عصور متأخرة، ولعلّ أول ما ظهر في هذا المجال هو قصة الإسراء والمعراج بأسطوريتها التي توسّعت في حديث الرسول ﷺ عن الإسراء والمعراج، وهي نصّ شعبيّ نسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما ويبدو أنّ تلك الرحلة الخياليّة حاولت استشراف الغيب وساعدت على إرواء ظمأ النفس التوّاقة لمعرفة شيء عن مصائر البشر بعد الموت.وكذلك كان الأمر في رحلة جلجامش

تعبيراً عن توق الإنسان إلى المعرفة وكشف المجهول ومحاولته معرفة سرّ الحياة والخلود. والقضاء على قوة الموت والفناء.

٧٣ -فاز الخضر عليه السلام بالخلود في الموروث الشعبي حتى أصبح رمزاً لاستمرار الحياة ونجد بقايا ذلك في عادة جرت عليها بعض الأمهات، عندما يشرق الطفل وتخاف على حياته تقول له "خضر" كأنها تطلب له حياة (الخضرعليه السلام)، والخضر في الموروثات الشعبية هو الذي قام بدفن آدمعليه السلام، وهو صاحب موسي، ووزير ذي القرنين، وصاحب الظهورات التي تدل على المقامات وعنه يقول أحد المؤرخين: "سيدنا الخضر النبي: رجلاً مسناً ذا تجارب وتدبيرات عظيمة في جيش الاسكندر، وكان معه في رحلاته في أنحاء العالم، ويقال أنه لا يزال حياً يرزق ..".أوليا‌چلبي: سياحتنامه مصر، ص ٥٠.

٧٤ -قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٩٩.

٧٥ - شهاب الدين المقدسي: مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام ،ص١٨٤؛ مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بأخبار القدس والخليل، ج١،ص١٤

٧٦ - للمزيد عن عناصر الاختفاء في النصوص العربية راجع شعيب حليفي:الرحلة في الأدب العربي ، ص٤٥٤وما بعدها.

٧٧ - شهاب الدين المقدسي: مثير الغرام ، ص٢٤٢.

٧٨- آن وولف: كم تبعد القاهرة ؟(ترجمة قاسم عبده قاسم ، سلسلة المشروع القومي للترجمة ، العدد١٠٥٣ ، القاهرة ٢٠٠٧م)، ص١١.

**الرحلة وصرخة الميلاد العربي

٧٩ -هويدا عبد المنعم إدريس:دراسة تاريخية في المصادر العربية ،دار الثقافة العربية ،القاهرة ٢٠٠٣،ص١٧٤

٨٠**- هو أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب. جغرافي ومؤرخ ورحالة ، ولد ببغداد ، وطاف بكثير من البلاد فزار أرمينيا وخراسان والهند وبلاد الشام ومصر والمغرب . وتوفى في سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م وقيل في سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م. وله كتابان أحدهما تاريخ اليعقوبي في جزأين ، وهو يهتم فيه بالأثنوجرافية إلى جانب التاريخ ، والآخر كتاب البلدان ، ألفه حوالي ٢٧٨هـ/٨٩١م. وجمع فيه ما عرفه بنفسه من أحوال البلاد الإسلامية في عصره نتيجة لأسفاره الطويلة ، وقد حدد منهج الكتاب في مقدمته فقال:" وذكرت أسماء

الأمصار ، والأجناد والكور، وما في كل مصر من المدن والأقاليم والطاسيج، ومن يسكنه ويغلب عليه ويترأس فيه من قبائل العرب وأجناس العجم ، ومسافة ما بين البلد والبلد والمصر والمصر .. ومبلغ خراجه وسهله وجبله ، وبره وبحره ، وهوائه في شدة حره وبرده ، ومياهه وشرابه" ومن ثم كان كتاباً جديداً في عرضه ، ونزعة المؤلف العلمية والتحليلة واضحة في الكتاب.

٨١ – المرجع السابق ، ص١٧٣.

٨٢– دائرة المعارف الإسلامية: طبعة الشعب، المجلد الثاني عشر، ص ٩٥ – ٩٦.

** الرحالة ابن فاطمة: قام برحلة بحرية جنوبي مراكش ، وغرقت السفينة التي كان فيها عند الرأس الأبيض (جنوبي ساحل الذهب) ، بعد أن توغل في كشف الساحل الإفريقي الغربي إلى أبعد مما كان معروفاً عند الأوربيين حينذاك والظاهر أن ابن فاطمة قام بأسفار طويلة في أفريقية . ولعله كتب أخبار هذه الرحلات؛ ولكن شيئاً من آثاره لم يصل إلينا ما خلا الذي نقله عنه ابن سعيد، حين أشار إليه في أكثر من موضع. انظر: زكي محمد حسن ، مرجع سابق ، ص١٢٢.

٨٣– حمد الجاسر: في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج، مجلة العرب، السنة التاسعة، ج٥، ٦، يناير ١٩٧٥، ص ٣٢٨.

٨٤– زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون ، ص ٣٥–٣٦.

٨٥– ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري(الطبعة الأولى، دار الوفاء – دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة ١٩٩٥م)، ص١٤٢.

٨٦– وجدي عباس أبو أحمد: نهاية عصر إسلامي من الكشوف في القارة المظلمة (مقال بمجلة المنهل السعودية ، العدد ٥٣٨، المجلد ٥٨، العام ٦٢ ، عدد فبراير /مارس١٩٩٧م) ، ص٢٥٨.

٨٧– ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص١٤٢.

٨٨– فاروق خورشيد: جولة في التراث معادن الجوهر(سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩م)، ص١٨.

٨٩– انظر – مثلاً: ١/١٠٠، ١/٣٤٣، ١/٧٦٧ (مروج الذهب).

٩٠- المسعودي: مروج الذهب، جـ١، ص٣٤١.

٩١- المسعودي: مروج الذهب، جـ١، ص١٢٥.

٩٢- نفسه، جـ١، ص٨١.

٩٣ - شوقي ضيف: الرحلات(الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م)، ص١٢.

٩٤ - ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص ١٦٦.

٩٥- ابن حوقل (أبي القاسم بن حوقل النصيبي) (ت ٣٦٧هـ): صورة الأرض(تحقيق: كرامرس، ليدن ١٩٦٧م)،ص١٤٣.

٩٦ - نفسه ، ص٢٣٤.

٩٧- ابن حوقل: صورة الأرض،ص ٣٢٩.

٩٨-ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٥٧.

٩٩- انظر: مروج الذهب، جـ١،ص ٣٥٦؛المسالك والممالك للإصطخري، ص٤١؛ أحسن التقاسيم، ص٢٠٨، الإفادة والاعتبار للبغدادي، ص ٤٣.

١٠٠- ابن حوقل: صورة الأرض، ص٢٠٩.

١٠١- نفسه: ص ٥٢٧.

١٠٢- آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري(الجزء الثاني، ترجمة محمد عبد الهادي أبوريدة، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص٤، ص٥.

١٠٣- ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص١٧٢.

١٠٤- شوقي ضيف: الرحلات، مرجع سابق، ص ١٥، ص١٦.

١٠٥- نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب(دار الكتاب اللبناني المصري، القاهرة ١٩٦٢م)، ص٥٠.

١٠٦- ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي، ص ١٧٢.

١٠٧- نفسه: ص ١٨٦، ص١٨٧.

١٠٨ - حسين محمد فهيم: الرحلة والرَّحالة دراسة إنسانية ، ص٤٥.

١٠٩- المقدسي: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١٣٥.

١١٠- المقدسي:كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،ص٧٣.

١١١- المصدر السابق، ص٢٠٥.

١١٢- نفس المصدر السابق: ص ٢٠٥.

١١٣- نفسه: ص٢٤٣.

١١٤- ذات المصدر ، ص٣٢٨.

١١٥- المقدسي: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٢١٠.

١١٦-زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون ، ص٤٥

١١٧ -وجدي عباس أبو أحمد: نهاية عصر إسلامي من الكشوف ، مقال بمجلة المنهل ، العدد ٥٣٨المجلد ٥٨،مارس١٩٩٧، ص٢٦١.

١١٨- عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص ٤٩.

وكذلك: آدم متز: الحضارة الإسلامية، ج٢، ص ١ - ٨ .

١١٩- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات، القاهرة،١٩٩٣، ص ٢١٩.

١٢٠- عبد الرحمن حميدة: المرجع السابق، ص ٥٠.

١٢١- حسين نصار: المرجع السابق، ص ص ١١٦ - ١١٧.

١٢٢- المرجع السابق، ص ص ١٢٣، ١٢٤.

١٢٣-القلقشندى (أبي العباس أحمد بن على) (٨٢١هـ - ١٤١٨م): صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، الجزء الأول، طبعة وزارة الثقافة،ص١٧؛ البدراوى زهران: الصراع اللغوي في عصر الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص٥٤ .

١٢٤- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ص ٦٥، ٦٧ .

١٢٥- محمد خليفة حسن: آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، ط١، عين للدراسات، القاهرة،١٩٩٧ ص٢٤٢ .

١٢٦- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٧٩.

١٢٧- قاسم عبده قاسم: مقدمة كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبن تغري بردي ، ج١ ، سلسلة الذخائر، القاهرة ٢٠٠٧.ص:ج .

١٢٨- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ١٨٢.

١٢٩- عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص ص ٤٣،٤٢.

١٣٠- محمد مؤنس: الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، ط أولى، عين للدراسات، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٣٢٧.

١٣١- الإدريسي: (أبي عبد الله محمد) نزهة المشتاق في احتراق الآفاق، المجلد الأول، مكتبة النفقة الدينية، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٥.

١٣٢- حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، ط القاهرة، ١٩٨٦، ص ٨٤.

١٣٣- شوقي ضيف: مرجع سابق، ص ١٩.

١٣٤- أغناطيوس كراتشكوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافي، تاريخ الأدب الجغرافي، ترجمة: صلاح الدين هاشم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧، ص٣٠٦.

١٣٥- حسين محمد فهيم: مرجع سبق ذكره، ص ص ٩٥، ٩٦.

١٣٦- زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ٦٧.

١٣٧- على عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية، مرجع سابق، ص١٥٤.

١٣٨- محمد مؤنس: الجغرافيون والرحالة المسلمون، مرجع سابق، ص١٧.

١٣٩- محمد رشيد الفيل، أثر التجارة والرحلات فى تطوير المعرفة الجغرافية عند العرب، المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود، م١٣، ط الرياض، ١٩٨٤م، ص٤٤٥.

١٤٠- على إبراهيم حسن: مرجع سابق، ص ٩٤.

١٤١- زكى محمد حسن: المرجع السابق، ص٦٥.

١٤٢- نقولا زيادة: الرحالة العرب، ص٥٧.

١٤٣- شوقي ضيف: الرحلات، مرجع سابق، ص ١٩.

١٤٤- المرجع السابق، ص ٢٠، محمد غريب جودة: موجز تاريخ العالم، سلسلة مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ١٠٤.

١٤٥- شوقي ضيف: المرجع السابق، ص٢٠.

١٤٦- شوقي ضيف: المرجع السابق، ص٢١٠.

١٤٧- محمد مؤنس: مرجع سابق، ص ١٨.

١٤٨- على عبد الله الدفاع: مرجع سابق، ص ١٥٤.

١٤٩- مصطفى محمد كمال: الشريف الإدريسي وأثره في الجغرافيا، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر، القاهرة، ١٩٦٤م، ص١٢٠.

١٥٠- أحمد فؤاد باشا: العلوم الجغرافية فى التراث الإسلامي (مقال، مجلة المنهل، العدد المتخصص، العدد ٥٣٨، المجلد ٥٨، العام ٦٢، السعودية، ١٩٩٧م، ص٩٨.

١٥١- المقريزي (تقي الدين أحمد المقريزي)، ترجمة لأحمد بن جبير بمقدمة الرحالة (رحلة ابن جبير) الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٠٨م، ص ٩.

١٥٢- ليفى بروفنشال: الحضارة العربية في آسيا، ترجمة الطاهر مكي، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٧٥.

١٥٣- زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، دار المعارف، ١٩٤٥، ص٧٠.

١٥٤- محمد محمود محمد: الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، دار العلوم، ١٩٨٣م، ص١٥٣.

١٥٥- شوقي ضيف: الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٧٠.

١٥٦- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، ص ١٨٢.

١٥٧- إسماعيل العربي: دور المسلمين فى تقدم الجغرافيا الوصفية والفلكية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٤، ص ١٤٥.

١٥٨- شوقي ضيف: مرجع سابق، ص ٧٠.

١٥٩- محمد مصطفى زيادة: مقدمة لرحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، بدون تاريخ، ص ٦.

١٦٠- لم تتفق المصادر التاريخية على صحة هذا الاسم واجمعوا علي تسميتها بـــ[رحلة ابن جبير].

١٦١ أحمد العوامرى: مقدمة (مهذب رحلة ابن بطوطة)،ج الأول، المطبعة الأميرية، القاهرة،١٩٣٣م، ص س

١٦٢- قاسم عبده قاسم: المرجع السابق، ص ١٨٤.

١٦٣- على إبراهيم حسن: استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي وفى التاريخ المصري الوسيط، ط الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٠، ص٩٨.

١٦٤- محمد مصطفى زيادة: المقدمة، مرجع سابق، ص ص ٥ – ١٨.

١٦٥- على إبراهيم حسن: استخدام المصادر وطرق البحث، مرجع سابق، ص ٩٩؛

١٦٦- محمد محمدين: الجغرافيا والجغرافيون، مرجع سابق، ص ١٥٣. زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى،ص٨٢.
١٦٧- محمد عبد العزيز الدباغ: مقال (رحلة ابن جبير بين ويليام رايت وعبد القدوس الأنصاري) مجلة المنهل، العدد ٤٧١ السنة٥٥ المجلد ٥٠، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٩ م، ص ٣٢٩.
١٦٨- محمد مؤنس أحمد عوض: الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ط الأولى، عين للدراسات، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٢٨٥.
١٦٩- على عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا فى الحضارة العربية والإسلامية، ط الثانية، مكتبة التوبة، السعودية، ١٩٩٣م، ص ١٧٣.
١٧٠- نقولا زيادة:الرحالة العرب، سلسلة الألف كتاب رقم ٩٧، دار الهلال، القاهرة ١٩٥٦، ص ٥٨.
١٧١- جان صدقة: الرحالة العرب، ط أولى ن دار الشواف للنشر، ١٩٩٣ م، ص ٢٢.
١٧٢- ليفى بروفنسال: الحضارة العربية فى أسبانيا، ترجمة الطاهر مكى، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٩٩.
١٧٣- عثمان موافى: لون من أدب الرحلات، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية،١٩٧٣، ص٢٥.
١٧٤- المرجع السابق، ص ٢٦.
١٧٥- المرجع نفسه، ص ٣٥.
١٧٦- ابن خلكان: أبى العباس أحمد بن محمد:وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق يوسف على طويل، مريم قاسم طويل، المجلد الأول، الجزء الثالث، دار الكتب العلمية، ط أولى، بيروت ١٩٩٨، ص ٣٠٢.
١٧٧- نقولا زيادة: الرحالة العرب، مرجع سابق، ص ٥٩.
١٧٨- ابن خلكان: مصدر السابق، ص ٣٠٢.
١٧٩- نفسه: ص ٣٠٢.
١٨٠- زكى محمد حسين، مرجع سابق، ص ٩٠.
١٨١- نقولا زيادة: المرجع السابق، ص ٥٩.

١٨٢- ابن خلكان: المصدر السابق، ص ٣٠٣ .

١٨٣- محمد مؤنس أحمد عوض: مرجع سابق، ص ٢٦٥.

١٨٤- المرجع السابق، ص ٢٦٦.

١٨٥- شوقي ضيف، الرحلات، مرجع سابق، ص ٦٧.

١٨٦- نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٥٧.

١٨٧- المنذري (عبد العظيم بن عبد القوى ت ٦٥٦هـــ)، التكملة لوفيات النقلة، بيروت، ١٩٨١م، الجزء الثاني، ص ٣١٥.

١٨٨- على عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا، مرجع سابق، ص ١٧٠ .

١٨٩- المرجع السابق، ص ١٧١.

١٩٠- صلاح الدين الشامي: الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، ط الأولى، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص ٢٥٨.

١٩١- زكى محمد حسن: الرحالة، مرجع سابق، ص ٩٠.

١٩٢- نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب، مرجع سابق، ص ١٥٧.

١٩٣- محمد مؤنس: مرجع سابق، ص ٢٦٩.

١٩٤- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ط أولى، دار عين للدراسات، القاهرة ١٩٩٣، ص٢٠٢.

١٩٥- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص ٢٠٣.

١٩٦- المرجع السابق، نفس الصفحة.

١٩٧- محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي، جـــ١، دار المعارف، ١٩٧١م، ص ١٩٧.

١٩٨- أبو المحاسن (جمال الدين يوسف ابن تغرى بردى، ت ٨٧٤هـــ)، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ط مصر سنة ١٣٥٣هـــ /١٩٣٥م، ج الخامس، ص ١٥٨.

١٩٩- سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٢٦٠؛الظاهر بيبرس، للمؤلف نفسه، ص ص ١٦٢، ١٦٣، حيث

بنى الظاهر بيبرس جامع العافية بالحسينية بالقاهرة وأنشأ على مقربة من زاوية الشيخ خضر وهو شيخ السلطان بيبرس.

٢٠٠- محمد مؤنس، مرجع سابق، ص ٢٦٩.

٢٠١- المرجع السابق، ص ٢٧٠.

٢٠٢- الهروي (أبي الحسن على بن أبي بكر، ت ٦١١هـ): الإشارات إلى معرفة الزيارات،تحقيق على عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ص ٤١-٤٩.

٢٠٣- شوقي ضيف: الرحلات، مرجع سابق، ص ٦٧.

٢٠٤- على عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية، مرجع سابق، ص ١٧٠.

٢٠٥- على إبراهيم حسن:استخدام المصادر، مرجع سابق، ص ٩٦.

٢٠٦- حسن عباس، أسامة بن منقذ حياته وآثاره، الجزء الأول، حياته وشعره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ص ٦٧.

٢٠٧- المرجع السابق، ص ٦٨.

٢٠٨- أحمد أحمد بدوى: الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة بمصر، القاهرة، ص ١٧١.

٢٠٩- شوقي ضيف، مرجع سابق، ص ٥٦.

٢١٠- على عبد الله الدفاع: مرجع سبق ذكره، ص ١٦٧.

٢١١- محمد مؤنس عوض: مرجع سابق، ص ٢٤٥.

٢١٢- زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، مرجع سبق ذكره، ص٩٤.

٢١٣- أحمد أحمد بدوى: المرجع السابق، ١٧٢.

٢١٤- نقولا زيادة: الرحالة العرب، مرجع سبق ذكره، ص ٦٢.

٢١٥- محمد مؤنس: مرجع سابق، ص ٢٤٦.

٢١٦- على عبد الله الدفاع: مرجع سابق، ص ١٦٨.

٢١٧- أحمد أحمد بدوى: مرجع سابق، ص ١٧٣.

٢١٨- المرجع السابق، ص ١٧٤.

٢١٩- المرجع نفسه، نفس الصفحة .

٢٢٠- نقولا زيادة، الرحالة العرب، مرجع سابق، ص ٦٢.

٢٢١- شوقي ضيف: الرحلات، مرجع سابق، ص ٥٧.

٢٢٢- أسامة بن منقذ: الاعتبار، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٣٣.

٢٢٣- المصدر السابق، ص١٣٥.

٢٢٤- شوقي ضيف: الرحلات، مرجع سابق، ص ٦٠.

٢٢٥- حسن عباس: مرجع سابق، ص ص ١٠٣، ١١٠.

٢٢٦- محمد مؤنس: مرجع سابق، ص ٢٤٧.

٢٢٧- شوقي ضيف: مرجع سابق، ص ٥٧.

٢٢٨- محمد مؤنس: مرجع سابق، ص ٢٤٧.

٢٢٩- زكي محمد حسن: مرجع سابق، ص ٩٩.

٢٣٠- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٢٣١- نقولا زيادة: مرجع سابق، ص٦٢.

٢٣٢- على عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص ١٨٤.

٢٣٣- شوقي ضيف: الرحلات، ص ٢١.

٢٣٤- زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص١٢٦.

٢٣٥- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) (ت ١٢٨٣م): آثار البلاد وأخبار العباد، (الجزء الأول، سلسلة الدراسات الشعبية، العدد ٧٧، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص ٥.

٢٣٦- القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٧٠.

٢٣٧- سيد خميس: وصل ما انقطع قراءات في التراث العربي الإسلامي(مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢م)، ص٤٤.

٢٣٨- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٢.

٢٣٩- المرجع السابق، ص ١٩٠.

٢٤٠- نقولا زيادة: الرحالة العرب، المرجع السابق، ص ١٠٣.

٢٤١- على عبد الله الدفاع: مرجع سبق ذكره، ص ١٨٨.

٢٤٢- المرجع السابق، ص ١٨٩.

٢٤٣- محمد مؤنس: مرجع سابق، ص ١٨٣.

٢٤٤- علي عبد الله الدفاع: مرجع سابق، ص ١٨٨.

٢٤٥- أحمد رمضان: الرحلة والرحالة المسلمون، دار بن سند، الرياض، بدون تاريخ، ص ١٨٩.

٢٤٦- زكي محمد حسن: مقدمة كتاب المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، سلسلة الذخائر ٨٩، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص م١٤.

٢٤٧- ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، الطبعة الثالثة، الجزء الأول، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٢٦٤.

٢٤٨- زكي محمد حسين: مقدمة "المغرب"، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، مرجع سابق، ص م١٥.

٢٤٩- المقري " أبي العباس أحمد بن محمد " ت ١٠٤١هـ، نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، الجزء الثاني، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦٨م، ص ٢٧١ وما بعدها .

٢٥٠- محمد مؤنس: مرجع سابق، ص ١٨٤.

٢٥١- نقولا زيادة: مرجع سابق، ص١٠٤.

٢٥٢- حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٣٠٥.

٢٥٣- محمد مؤنس: الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ص ١٨٤.

٢٥٤- علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية، مرجع سابق، ص ١٨٩.

٢٥٥- أغناطيوس كراتشكوفسكي: مرجع سابق، ص ٣١٥.

٢٥٦- محمد مؤنس: مرجع سابق، ص ١٨٤.

٢٥٧- إسماعيل العربي: دراسة ومقدمة لكتاب الجغرافيا لأبي الحسن بن موسى بن سعيد المغربي (تحقيق: إسماعيل العربي، سلسلة ذخائر التراث العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٧٠م.)،ص١٦-٢٤.

٢٥٨- زكي محمد حسن: المقدمة، مرجع سابق، ص م ٢٤.

٢٥٩- علي عبد الله الدفاع: مرجع سابق، ص ١٩١.

٢٦٠- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص١٩٠.

٢٦١- نقولا زيادة: الرحالة العرب، مرجع سابق، ص ١٠٤ .

٢٦٢- المرجع السابق، نفسه الصفحة.

٢٦٣- قاسم عبده قاسم:دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١١١.

٢٦٤- جوزيف نسيم يوسف: لويس التاسع فى الشرق الأوسط (١٢٥٠-١٢٥٤م)، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٦، ص ٦٠.

٢٦٥- سعيد عبد الفتاح عاشور:الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام،دار النهضة العربية، القاهرة١٩٧٠، ص١٤٨.

٢٦٦- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ١٩١.

٢٦٧- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول نشرة محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ص٣٥٩ .

٢٦٨- قاسم عبده قاسم:المرجع السابق، ص١٩١، وكذلك ابن سعيد: النجوم الزاهرة، ص ص٢٢، ٢٤.

٢٦٩- قاسم عبده قاسم: المرجع نفسه، ص ١٩٤.

٢٧٠**أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد:صاحب الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ، والمعروفة بـــ(رسالة ابن فضلان) مبتورة الآخر ، كان في أوليته من موالي محمد بن سليمان الحنفيالقائد فاتح مصر ، ثم أصبح من موالي المقتدر العباسي، وأوفده المقتدر إلى ملك الصقالبة على أطراف نهر الفولغا مع جمع من القادة والجند والتراجمة ، إجابة لطلب بلغار الفولغا، وقد بعثوا برسول منهم إلى عاصمة الخلافة يرجون العون على مقاومة ضغط الخزر عليهم من الجنوب، وأن ينفذ إليهم من يفقههم في الدين ويعرفهم بشعائر الإسلام ، وكانوا قد اعتنقوه قبل عهد غير بعيد ، وقامت البعثة من بغداد في ١١صفر٣٠٩هـ ، مارة بهمذان والري ونيسابور ومرو وبخارى ، ثم مع نهر جيحون إلى خوارزم إلى بلغار الفولغا في١٨محرم٣١٠هـ . ولم يعرف خط سير الرجعة لضياع القسم الأخير من الرسالة . انظر:رسالة ابن فضلان ،تحقيق:محفوظ أبو بكر ، القاهرة ،مكتبة الأسرة ٢٠٠٧م،ص٥

٢٧١- عبد الرحمن عبد الله الشيخ: مقدمة رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر، سلسلة الألف كتاب الثاني ٣١٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٨، ص ص٢٩-٣٠.

٢٧٢- شوقي ضيف: الرحلات، مرجع سابق، ص ٦٠.

٢٧٣- زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ١٠٨.

٢٧٤- ابن أبي أصيبة: طبقات الأطباء، نقلا عن مقدمة رحلة عبد اللطيف البغدادي فى مصر، تقديم: عبد الرحمن الشيخ، مرجع سابق، ص ص ٣٥، ٣٦.

٢٧٥- على إبراهيم حسن: استخدام المصادر، مرجع سابق، ص ١٠٢.

٢٧٦- على عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية فى الحضارة العربية والإسلامية، الطبعة الثانية، مكتبة التوبة، السعودية، ١٩٩٣، ص١٧٩ .

٢٧٧- نقولا زيادة:الرحالة العرب، سلسلة الألف كتاب رقم ٩٧، دار الهلال، القاهرة،١٩٥٦، ص١٠٢.

٢٧٨- شوقي ضيف: الرحلات، مرجع سابق، ص ٦٠.

٢٧٩- أغناطيوس كراتشكوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافي، مرجع سابق، ص٢١٢.

٢٨٠- حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، مرجع سابق، ص ٩٦.

٢٨١- المرجع السابق، ص٩٧.

٢٨٢- على عبد الله الدفاع: مرجع سابق، ص ١٧٩.

٢٨٣- المرجع السابق، ص ١٨٠.

٢٨٤- المرجع السابق، ص ١٨٠.

٢٨٥- شوقي ضيف: الرحلات، مرجع سابق، ص ٦١.

٢٨٦- المرجع السابق، ص ٦١.

٢٨٧- عبد اللطيف البغدادي: رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر، تقديم: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٦٠

٢٨٨- المصدر السابق، ص ٨٣.

٢٨٩- المصدر نفسه، ص ص ٩٢، ٩٦.

٢٩٠- شوقي ضيف، مرجع سابق، ص ٦٤.

٢٩١- De la Roncicre, Charles: La Decouvcrte de l' afrique au mayen age. Le Caire 1925, c.2 P. 96.

٢٩٢- شوقي ضيف: مرجع سابق، ص ٦٥ .

٢٩٣- حسين محمد فهيم: مرجع سابق، ص ٩٧.

٢٩٤- علي إبراهيم حسن: استخدام المصادر، مرجع سابق، ص ١٠٢ .

٢٩٥- أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر، الجزء الثاني، الشعب، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٦٤٤، وكذلك عبد اللطيف البغدادي، رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر، مصدر سابق، ص١٤١.

٢٩٦- حسين محمد فهيم: مرجع سابق، ص ١٥٨.

٢٩٧- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي): إغاثة الأمة بكشف الغمة، سلسلة مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٩، ص ٥٨.

٢٩٨- محمد الفاسي: مقال (الرحالة الشهير أبو عبد الله محمود العبدري)، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، المجلدان التاسع والعاشر، مدريد ١٩٦١، ١٩٦٢، ص٢.

٢٩٩- حسين مؤنس:تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، القاهرة،١٩٨٦م، ص٥١٨ .

٣٠٠- علي إبراهيم كردى:مقدمة رحلة العبدري،الطبعة الأولى، دار سعد الدين دمشق، ١٩٩٩، ص٧.

٣٠١- محمد الفاسي: مرجع سابق، ص٢ .

٣٠٢- نقولا زيادة: الرحالة العرب، مرجع سبق ذكره، ص١٠٥.

٣٠٣- زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص١٣٢.

٣٠٤- محمد الفاسي: مرجع سابق، ص ٣.

٣٠٥- حسين مؤنس: المرجع السابق، ص٥١٩.

٣٠٦- علي إبراهيم كردى: مرجع سابق، ص ٧.

٣٠٧- العبدري (أبي عبد الله محمد بن سعود) ت ٧٠٠هــ: رحلت العبدري، تحقيق: على إبراهيم كردى، الطبعة الأولى، دار سعد الدين، دمشق، ١٩٩٩، ص ١٦٤ .

٣٠٨- علي عبد الله الدفاع: مرجع سابق، ص١٩٢.

٣٠٩- علي إبراهيم كردى: مرجع سابق، ص ٨.
٣١٠- علي إبراهيم كردى: مرجع سابق، ص ٨.
٣١١- علي عبد الله الدفاع: مرجع سابق، ص ١٩٢.
٣١٢- علي إبراهيم كردى: مرجع سابق، ص ٨.
٣١٣- حسين مؤنس: مرجع سابق، ص ٦٢٣.
٣١٤- المرجع السابق، ص ٩.
٣١٥- العبدري: مصدر سابق، ص ١٣٧.
٣١٦- علي عبد الله الدفاع: المرجع السابق، ص ١٩٤.
٣١٧- علي عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص ١٩٢.
٣١٨- زكي محمد حسن: مرجع سابق، ص ١٣٢.
٣١٩- الدفاع: مرجع سابق، ص ١٩٣.
٣٢٠- علي إبراهيم كردى: مرجع سابق، ص ٦٠.
٣٢١- العبدري: مصدر سابق، ص ٣٩١.
٣٢٢- علي إبراهيم كردى: مرجع سابق، ص ١٠.
٣٢٣- العبدري: الرحلة، ص ص ١٠٨، ١٠٩.
٣٢٤- صلاح أحمد البهنسي: ليبيا في التراث الجغرافي الإسلامي (مقال)، مجلة المنهل، العدد ٥٣٨، المجلد ٥٨ العام ٦٢، السعودية ١١٩٧، ص١٩٢.
٣٢٥- العبدري: مصدر سابق، ص ١٨٤ .
٣٢٦- علي إبراهيم كردى: مرجع سابق، ص ١١.
٣٢٧- المرجع السابق، نفس الصفحة.
٣٢٨- محمد الفاسي: مرجع سابق، ص ص ٤، ٥ .
٣٢٩- محمد الفاسي: المرجع السابق، ص ٥.
٣٣٠- علي كردى: مرجع سابق، ص ١٢.
٣٣١- العبدري: الرحلة،، ص ٤٩.
٣٣٢- المصدر السابق، ص ص ٢٧٨، ٢٧٩.
٣٣٣- محمد الفاسي: مرجع سابق، ص ص ١٢، ١٣.

٣٣٤- حسين مؤنس: مرجع سابق، ص ص ٥٢٠، ٥٢١.

٣٣٥- علي إبراهيم كردى: مرجع سابق، ص١٣.

٣٣٦- المرجع السابق، ص ١٤.

٣٣٧- محمد الفاسي: المرجع السابق،ص١٣.

٣٣٨- محمد السعيد محمد الزيني: مقدمة رحلة ابن بطوطة ،(الطبعة الأولى ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، دون تاريخ)، ص٦.

٣٣٩- حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته ، تحقيق ودراسة وتحليل ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠م) . ص١٢.

٣٤٠- المرجع السابق ، ص١٤.

٣٤١- أحمد العوامرى ، محمد أحمد جاد: مقدمة مهذب رحلة ابن بطوطة ، (الجزء الأول ، المطبعة الأميرية ،القاهرة١٩٣٣م)،ص: ع- ف.

٣٤٢- ابن خلدون (عبد الحمن بن محمد بن خلدون): مقدمة ابن خلدون ، (تحقيق: علي عبد الواحد وافى ، الجزء الثاني ، سلسلة مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠٦م) ، ص٥٥٢.

٣٤٣- ابن بطوطة: الرحلة ، ص٤٥٣.

٣٤٤- ماركو بولو: ولد عام ١٢٥٤م .بمدينة البندقية ، وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره انضم إلى بعثة تجارية مسافرة إلى الصين وعين في منصب رسمي بمدينة بكين ، وأقام بالصين عشرين عاماً ، وعاد إلى البندقية عام ١٢٩٥م. وقد أسره الچنويون بعد ذلك حيث أملى رحلته في السجن على سجين مثله . ويتشابه هنا ماركو بولو مع ابن بطوطة في أنه ليس صاحب أسلوب الرحلة فهو صاحب الأحداث فقط ، وإنما الذي تولى صياغتها هو من كتبها . انظر:شوقي عبد القوي عثمان: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، (عالم المعرفة ، العدد ١٥١، الكويت ١٩٩٠م.)، ص٣٤.

٣٤٥- حسين مؤنس: المرجع السابق، ص٢٤٠، ٢٤٢.

الفصل الثاني

الصورة التاريخية لمصر

في القرنين السادس والسابع الهجريين

يلعب الزمن دورا أساسيا في التاريخ، ومع ذلك فلا تكون له صفة إلا بتحرك الإنسان فيه، وبالتالي فلا يتسنى لنا معرفة عصر من العصور إلا بمعرفة سيرته ورحلته، وقد بدأ تاريخ الرحلة مع تاريخ الإنسان نفسه ربما بقصد البحث عن مصادر الرزق التي جعلت حركة الأقوام وهجرات العصور القديمة مسألة ملحوظة في تلك الفترة السحيقة من تاريخ الإنسانية، وأثناء تلك الفترة اختلط الدافعان الاقتصادي والعسكري بحوافز الكشف والمعرفة على نحو يصعب تحديد مداهما.

وهذه الدراسة لا تهتم بالرحلة/الهجرة – التي كانت حركة على مستوى اجتماعي شامل تواترت أمثلة عديدة منها على مر التاريخ حتى الآن– بقدر اهتمامها بالعمران كأحد الموضوعات الجغرافية التي لا نستطيع تفسير الكثير من ظاهراته الحاضرة إلا من خلال دراسة عملية التطور التي مر بها في ضوء كتابات الرحالة التي أعانت على تقديم صورة هامة للطوبوغرافية التاريخية لمصر ومزجت بين الجغرافيا والتاريخ والأدب في تناسق حيوي وهام في إطار شامل من محاولات دراسة ومعرفة الآخر[1].

إضافة إلى مساعدة كتابات الرحالة على تقديم المادة الأولية الوافرة للجغرافية الاجتماعية لمصر في فترة خصبة من تاريخ مصر في العصور الإسلامية الخصيبة ويبدو أن اختيار الفترة الزمنية للدراسة ـــ القرنين السادس والسابع الهجريين ـــ يقوم على مشروعية علمية واضحة إذ أن تلك الفترة بمثابة واحدة من أهم النقاط الفارقة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ومتخمة بالمواقف الحاسمة في تاريخ العرب والإسلام وذاخرة بلحظات الانتصار والانكسار المصيرية فضلاً عن أنها تمثل أكثر المراحل سخونة في

تاريخ العلاقات بين الحضارة العربية الإسلامية والكيان الأوربي الغربي الكاثوليكي من ناحية أخرى.

ويساعدنا في هذا المضمار أن غالبية رحالة القرنين السادس والسابع الهجريين كانوا في وضع يسمح لهم بالتعرف على حضارتين في حال من التصادم والتفاعل وكان نفر منهم شاهد عيان على مشاهد كبيرة من فصول الأحداث الجارية ومنهم من كان مشاركاً وقريباً من دوائر صنع القرار في مصر ـ على سبيل المثال ـ كالرحالة أسامة بن منقذ في القرن السادس الهجري (ت٥٨٢هـ/١١٨٨م).

وقد اقتضت ضرورات الدراسة أن نعرض بعض من ملامح العصر في تلك الفترة التاريخية التي زار خلالها الرحالة مصر ؛ لنقف على مقياس دقيق لمصداقية أقلام هؤلاء الرحالة، ولنحاول الكشف عن مدى تفاعل الرحالة مع واقع الأمة من عدمه بتحدياها وإمكاناها وطاقتها وانعكاس ذلك كله على مذكراهم، وكتاباهم، وأثر هذا في المعترك العمراني والحضاري في مصر وكمدخل طبيعي للتأريخ الحضري كما يساعدنا على تفسير بعض ملامح الشخصية العمرانية والحضارية لمصر على ضوء كتابات هؤلاء الرحالة وتفاعلهم مع الأحداث التاريخية.

ولسوف نجد أن شواهد التاريخ في تلك الفترة كانت مليئة بانقسامات حادة بل متعارضة بين الشعوب على كل المستويات الإنسانية والثقافية والحضارية والدينية، هذه الانقسامات التي وصلت أحياناً إلى درجة من درجات الصدام أمام صراع القوى والمصالح، وأخذت هذه الانقسامات أشكالاً وألوانا كثيرة شملت الجوانب الثقافية والحضارية، وكان أشدها خطراً؛ الانقسامات العقائدية وما تركته من رواسب صليبية لا تزال قائمة على فكرة الصراع بين الإسلام والنصرانية عضدها سياسة الغرب بمحاولاته في تغيير واقعنا قبل أن يغير فكرنا وتصوراتنا ثم يتهم فكرنا وتصوراتنا بالتخلف والإرهاب والهمجية.

ولعل أقرب بداية لهذا التصور منذ القرن الحادي عشر عبر دولة العرب الأندلسية قبل وبعد سقوطها حيث كانت أسبانيا مركزاً هاماً عندما أخذ المسيحيون الكاثوليك يحاربون المسلمين بقوة وعنف فيما يسمى " بحروب الاسترداد"، فالحملة الصليبية الأولى التي دقت أبواب المشرق العربي عند أسوار أنطاكية عام ١٠٩٨م، لم تكن طفرة عارضة لذلك التاريخ في حياة أوربا. بل كانت بحد ذاتها استمراراً لحروب الاسترداد الصليبية التي سبق لأوربا أن بدأتها من الغرب باتجاه الأندلس، وكانت أيضا نتيجة عمل متواصل وإعداد مسبق منظم أعد له الغرب خلال سنوات طوال، وقامت به الدوائر الإقطاعية الحاكمة المتطلعة إلى الغزو والاستيلاء وذلك بالتنسيق والتعاون مع البابوية اليهودية الإيطالية التي سيطرت على عرش البابوية في روما والتي تمثلت بأسرة البابا أوربان الثاني اليهودية الأصل والمنشأ[٢].

حيث قام البابا بتطواف متواصل بين العواصم الأوربية من أجل الإعداد، لذلك فقد كان أبرز الداعين لهذا الصدام الدامي في خطبته التي ألقاها في مجمع كليرمون / فرنسا والتي نقلها لنا روبير الراهب الذي كان حاضراً في المجمع، والذي تميزت روايته بذلك النوع من المبالغة في تصوير المسلمين ووحشيتهم، وهى المبالغات التي كانت تميز كتابات رهبان العصور الوسطى عموما بما حملته من تعصب وجهل. وكانت خطبة البابا في كلير مون/ بفرنسا مثالاً رائعاً في البلاغة واستطاع أن يمس كل الدوافع التي كان يمكن أن توجد في وجدان سامعيه ويخاطبهم بـــ "جنس الفرنجة" ويذكرهم بجنس عقيدقم الكاثوليكية وشرف كنيستهم ثم يحدثهم عن صنوف مرعبة من التعذيب التي زعم بأن الأتراك المسلمين أنزلوها بالمسيحيين في الشرق مع ممارسة الإسقاطات الفجة على الإسلام والمسلمين وإلصاق التهم والرذائل والنقائص بهما. فجاءت خطبة البابا أوربان الثاني ذاخرة بهذه التصاوير بأنهم: " جنس أجنبي، جنس غريب على الرب تماما، جنس مرعب، يدنسون المدينة والضريح بوجودهم..إلخ". ونعت المسلمين بمسميات منها: "الكفار، المتوحشين، الأميين اللصوص...إلخ"[٣] واستطاع أوربان بلورة هذه

الصورة في شكل جديد هو الحملة الصليبية ضد أعداء الرب من المسلمين الكفار الهمج.

فأصبح الشرق لديهم هو " المسلم " والمسلم عكس المسيحي الكاثوليكي المؤمن الورع، فالأول كافر متبربر، بينما الثاني مؤمن شديد الإيمان، والأول"جنس غريب على الرب تماما "، بينما الثاني هو خادم الرب المحب المخلص الكاثوليكي المتمثل لما جاء في إنجيل متى (١٦: ٢٤): " إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني".

وهذا ما أكده قول المحارب الصليبي وحولياته حيث المسلم المتبربر الذي تجمعه مع إخوانه كلمة شيطانية: (..وشرع الأعداء – يقصد المسلمين – يصرون على أسنا نهم ويصرخون صرخات عالية مدوية وهم يرددون بلسانهم كلمة شيطانية لا أعرفها – يقصد كلمة " الله أكبر") (٤).

إذن كانت الحروب الصليبية فصل هام في تطور العصور الوسطى لكونها تعبيراً على نماذج أساسية من الفكر والسلوك(٥) امتدت آثارها لحقبة طويلة من تحامل الغرب على الإسلام والمسلمين في المشرق العربي والتي كانت لها آثارها الجسيمة على العالم العربي، تلك الحروب التي أرجعها البعض إلى أوائل القرن الثامن حينما عسكر الإسلام تحت أسوار القسطنطينية يهدد باقتحامها إلى الغرب (٦) مؤدية إلى تصدعات وانقسامات خطيرة في العالم آنذاك.

كل هذه الشواهد التاريخية كانت تؤكد أن هذه الانقسامات كانت عبئاً على المسيرة الحضارية للإنسانية وأن العالم دفع ثمنا غالياً لتلك الانقسامات خاصة بعد أن جنحت ودخلت في مناطق الصدام العسكري المسلح بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية فيما يسمى بـــ"الحروب الصليبية" التي تعد أخطر مناطق الانقسام في تاريخ الإنسانية خاصة أنها أخذت طابعاً دينياً هي أبعد ما تكون عنه استمرت عشرات من

السنين دفع فيها العالم بشرقه وغربه ثمناً فادحاً حينما استحل الغرب طاقات الشرق بكل إمكانياته وتاريخه وحضارته، وكان في مقدمة بلدان المشرق "مصر" التي ابتلعوها في غفلة من الزمن وظنوا أنهم قادرين على هضمها ولكن مصر كانت تمتلك القدرة الفريدة على تجديد شبابها عبر العصور بعد أن يظن أعداؤها أنها تحتضر وقاربت على الفناء.

وسجل لنا التاريخ كيف هان شأن مصر قبل صلاح الدين حتى دخلها الصليبيون أربع مرات ثم انتفضت فجأة بعد أن تولى أمرها صلاح الدين فإذا بها لا تكتفي بطرد الصليبيين بل تسترد منهم بيت المقدس في ٢ أكتوبر ١١٨٧م[٧] وأثخن صلاح الدين في جيوش الإفرنج وغدت قوة مصر مثاراً للإجلال والروع[٨]. مما دفع الرحالة الأندلسي ابن جبير أن يشد الرحال لبيت المقدس ومصر ؛ ليزور هذه الأماكن وعلم العرب والإسلام يرفرف عليها، ولم يلبث أن رحل رحلته الثانية في سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م وعاد إلى بلاده في سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م[٩] وتأكدت فكرة الاستيلاء على مصر بعد ذلك بوصفها مفتاح بيت المقدس، وظلت هذه الفكرة مسيطرة على عقول الصليبيين في الشرق والغرب جميعا[١٠]. وانعكس هذا على مسار الرحلات الصليبية أو الحروب الصليبية نحو المشرق العربي فيما بعد.

وقد أدى هذا العداء الشديد من جانب الصليبيين لمصر والمشرق العربي لاتخاذ إجراءات أمنية مشددة في موانئ وثغور مصر حتى لا تتسرب أفواج الدسائس والدساسون والجواسيس الذين يزودون الخصم بمواطن الضعف في جيش خصمه، ونواحي النقص في جنده وسلاحه وهم الذين يقدمون للقواد الوصف المسهب لإصلاح الطرق وأقربها وأوهنها لتسيير الجيوش عبرها[١١].

وقد انعكس ذلك على كتابات الكثير من الرحالة الذين زاروا مصر في القرنين السادس والسابع الهجريين، حيث وجهوا النقد واتخذوا موقفاً عدائياً من أمناء الثغور لمغالاتهم في إجراءات التفتيش في حين أرجع البعض من الباحثين أن هذه الإجراءات

الصارمة هي دليل يقظة إسلامية للمتربصين بديار الإسلام في ربوع هذا المشرق، وأنه لا لوم مطلقا على أمناء الثغور وغيرهم حيال هذا الصنيع.

ومن الرحالة الذين وجهوا سهام النقد العنيف إلى أمناء الإسكندرية الرحالة ابن جبير في قوله: ".. فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها وما جل واختلط بعضهم ببعض وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم.." (١٢).

كما عرض العبدري لما يلقاه القادمون إلى ثغر الإسكندرية من سوء في المعاملة وقسوة من مفتشي المكوس(١٣) ووصف هذا الموقف بكلمات مريرة، فقال: ".. ومن الأمر المستغرب والحال الذي أفصح عن قلة دينهم وأعرب أنهم يعترضون الحجاج ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج... وما رأيت هذه العادة الذميمة والشيمة اللئيمة في بلد من البلاد.. ولا رأيت في الناس أقسى قلوبا ولا أقل مرؤة وحياء ولا أكثر إعراضاً عن الله سبحانه وجفاء لأهل دينه من أهل هذا البلد.." (١٤).

إضافة لهذا نجد اثر الأحداث السياسية التي كانت سائدة في القرنين السادس والسابع الهجريين مؤثرة كذلك على عواطف الرحالة في هذين القرنين وظهر التلون العاطفي بشكل واضح في وصف بعض الرحالة للمدن التي استردها المسلمون من الصليبيين وتلك التي بقيت في حوزتهم، فالأولى عاطفة حب وإعجاب، أما الثانية فعاطفة بغض وكراهية. ومثال ذلك نجده عند الرحالة ابن جبير الذي نجده قبل البدء في وصف المدن التي في أيدي المسلمين ينعتها بعبارات تدل على حبه لها كقوله عن بعضها حرسها الله، أو كلأها الله.

أما تلك التي ظلت في حوزة الصليبيين فنجده ينعتها في البداية بمثل قوله، أعادها الله أو دمرها الله (١٥).وأثناء تلك الحقبة التاريخية الساخنة كانت مصر تستشعر أن لها مسئولية خاصة في الدفاع عن كل ديار العروبة والإسلام في فترات التحدي الحاسمة،

ونجد ذلك في تأملنا لموجتين استعماريتين من أخطر الموجات التي تعرض لها العالم العربي المسلم، وهما الموجة الصليبية، وموجة التتار[١٦].

وقد اتضحت الموجة الأولى في ٧ يونيه ١٠٩٩م حيث أربعين ألفاً من الصليبيين بقيادة جودفرى البويونىGOD FREY OF BOULLION يحاصرون بيت المقدس والحامية المصرية (الفاطمية) [١٧] وقوامها نحو ألف رجل والتي تصمد لمدة خمسة شهور، وفي ١٥ يوليو يتمكن الصليبيون من فتح ثغرة في السور الشمالي، وتم مد جسر على شرفات الحصن ودخل الجيش الصليبي المدينة من الحي اليهودي[١٨].

وأعقب سقوط مدينة القدس مذبحة إجرامية عدت واحدة من المذابح البشعة في سجل الجرائم التاريخية (في المسجد الأقصى وحده قتل ٧٠ ألف مدني) وذكر وليم الصوري أن بيت المقدس شهد عند دخول الصليبيين مذبحة رهيبة حتى أصبح البلد: " مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم... "[١٩].

كانت هذه البداية كفيلة بأن نكشف القناع المزيف للحملات الصليبية التي خرجت بالسيف من الإنجيل محتمية بالصليب فاستحق الصليبيون عداء العرب والمسلمين عموما عن جدارة بسبب فظائعهم التي تخالف تعاليم الإنجيل والذين ادعوا أنهم يحاربون باسمه بغرض تسويغ قتل العرب والسيطرة علي ذخائر أرضهم. رغم ذلك أن من يقرأ الإنجيل يكتشف دونما صعوبة أن المسيحي مأمور بعدم اللجوء إلى العنف: " لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون "، كما ورد بإنجيل متى على لسان المسيح عليه السلام [٢٠]. كما أنها انتهاكاً لرسالة الحب والسلام التي هي صلب الدعوة المسيحية: " أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضاً لأن المحبة هي من الله وكل من يحب فقد ولد من الله ويعرف الله " (١-يوحنا ٤-٧)، " سلاما أترك لكم. سلامى أعطيكم " (يوحنا ١٤: ٢٧)[٢١].

هذا الاتجاه السلمي يتأكد مرة أخرى حين يرد في إنجيل متى على لسان المسيح: " سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر.. ".

هكذا يتضح من هذه الأدلة وغيرها أن المسيحية تعارض العنف وتعاليمها، تمنع المسيحي من يكرس نفسه للحرب[٢٢] ومع هذا فإن الأمر ليس بهذه البساطة التي نظنها للوهلة الأولى فقد كان تأثير الحروب الصليبية على المنطقة العربية أعمق كثيراً من تأثيرها على أوربا وتعرضت مصر وشبه الجزيرة العربية وتونس وبلدان المغرب الإسلامي لهجمات الصليبيين وطوال القرنين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين/ السادس والسابع الهجريين) خاض العرب صراعاً طويلاً مرهقاً من أجل القضاء على الكيان الصليبي هذا الصراع الطويل المضني ترك آثاره السلبية على شتى جوانب الحياة في المنطقة العربية كان منها تأثيرها في ثقافة المجتمع بالمعنى الواسع للثقافة ؛ آدابه وفنونه فكره وفلسفته ورحلات أبنائه، ومثله وقيمه التي دارت حولها أشكال التعبير الفكري وألوان الإبداع الفني والأدبي التي تضمنتها الفنون والآداب الشعبية، ومنها حكايات " ألف ليلة وليلة"[٢٣] التي استوحت بعض بنيتها من الرحلات بالتصريح تارة وبالتلميح تارة أخرى، وحملت أصداء التأثيرات التي تركتها الحروب الصليبية على المجتمع العربي تمثلت في الكراهية والمرارة التي علقت بالوجدان الشعبي تجاه الفرنج من جراء الحروب الصليبية هذه الكراهية والمرارة وجدت متنفساً في الصفات التي خلعتها الحكايات على شخوصها من أبطال العدو وبإمعانها في النيل منهم سواء من حيث الكراهية والمرارة في السخرية من مقدسات الفرنج وزعمائهم الكنسيين واتهامهم بالكفر وتحريف الإنجيل بسبب فظائعهم وعدوانهم المستمر على الأرض العربية[٢٤].

وقد شعر غالبية الناس آنذاك بعدم الارتياح تجاه الحروب الصليبية التي يرون فيها أحد الملامح العابسة للتاريخ الوسيط، إذ أن الإنسانية قد خاضت حروباً كثيرة لا

سيما من ذلك النمط المسمى بالحروب الأيديولوجية، وقد كان الصليبيون متعصبين متعطشين للدماء والأسوأ من هذا أن بعضهم كان انتهازياً بحيث استغلوا الحروب المقدسة لتحقيق مآرب غير مقدسة ويجدر بنا أن نصل إليهم بخيالنا التاريخي لكي نتفهم عقلياهم، كما جردت الحملات الصليبية لأغراض أخرى ضد المسلمين إذ حولها الباباوات لتكون حروباً ضد الهراطقة أيضا، وقد حققت هذه الحملات جميعاً نتائج دائمة إذ أها كلها تركت بصماها على خريطة أوربا والعالم[٢٥].

ولم يكن المشهد التاريخي أحسن كثيرا عند مسلمي الأندلس حيث يدرك المتتبع لأحداث الصراع بين الإسلام والنصرانية في تلك الديار أن ميزان القوى كان منذ الفتح الإسلامي، وحتى أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي مائلاً لصالح المسلمين، ولكن هذا الوضع بدأ يتغير بتغير واقع المسلمين في مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. حينما ضعفت ثم سقطت دولتهم الموحدة وقام على أنقاضها العديد من الدويلات الإسلامية المتداعية التي ولد الضعف معها وأصبح الوهن هاجساً ملازماً لقادها ،ولا شك أن هذا التحول في واقع المسلمين تمخض عنه ضعف قوهم العسكرية بعد أن كانت هي القوة الضاربة في شبه جزيرة أيبيريا[٢٦]. مما ساعد على ازدياد حركة التنقل والرحلة والنزوح لمناطق أخرى.

وفي المشرق العربي تأسست مملكة أورشليم اللاتينية عام١١٠٠م لتصبح دولة صليبية إلى جانب إمارتي أنطاكية والرها[٢٧] وتسقط عكا (القاعدة البحرية لمصر الفاطمية في فلسطين) بأيدي الصليبيين ليتكرس بذلك تمركزهم في فلسطين سنة ١١٠٤م بعد دفاع مستميت من جانب حاكمها المصري الفاطمي[٢٨].

وباستهلال عام ١١٤٥م – الموحدون – القوة العظمى الجديدة التي أعقبت المرابطين في المغرب – يستولون على الجزيرة الخضراء بوابة الأندلس[٢٩]، وفي عام ١١٥٣م يقوم الرحالة والجغرافي الشريف الإدريسي برسم خريطة العالم الشهيرة بخريطة الإدريسي[٣٠] وفي عام ١١٦٣م يفشل عموري الأول (ملك بيت المقدس) في

غزو مصر عن طريق سيناء، وفي عام ١١٦٩م نجد الأسطول البيزنطي ينقل حملة صليبية هدفها مصر تنتهي بفشلها في حصار دمياط وتنسحب،وبعد تطورات سياسية عديدة في مصر يجد صلاح الدين الأيوبي نفسه ملكاً على مصر والشام بمباركة من الخلافة العباسية ببغداد سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م ويقضي صلاح الدين في مصر حوالي ست سنوات (٥٧٢هـ-٥٧٧هـ/١١٧٦-١١٨١م) لترتيب الأوضاع الداخلية في مصر والشام استعدادا للمواجهة مع الصليبيين[٣١].

وتتوالى انتصارات صلاح الدين على الصليبيين ويتوج انتصاراته بقضائه على زهرة جيوش الفرنج عند قرون حطين على أرض فلسطين يوم ٢٤ ربيع الثاني ٥٨٢هـ/٤ يوليو ١١٨٧م بعد توحيد الجبهة العربية الإسلامية[٣٢]. ويظهر صلاح الدين كبطل قومي طال انتظاره حتى أن العلماء وأئمة المساجد نعتوه بقولهم: ".. ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية والوقعات البدرية والعزمات الصديقية والفتوح العمرية.. جددتم للإسلام أيام القادسية والوقعات اليرموكية "[٣٣]. وانبرى صلاح الدين بما كان يملك من قدرة على التنظيم وصبر وعقيدة وصفات نادرة كقائد تاريخي عظيم في مرحلة صعبة من مراحل النضال العربي مع الغزاة الفرنج التف حوله الناس فتمكن ببراعة القائد الشجاع من قيادة الموقف على صعيد إسقاط المتآمرين في الداخل وقهر هجمات الغزاة من الخارج مع كسر تحالفهم جميعاً وبسط سلطانه على الموصل وبلاد الشام والحجاز واليمن ومصر والسودان وطرابلس حتى مشارف تونس قبل نهاية عام ١١٧٦م.

وبرهن صلاح الدين على فاعلية نتائج التوحد العربي الإسلامي بعد أن شاءت الأقدار أن تتكون في بلاد الشام والجزيرة إمارات صغيرة مفتتة إلى حد ما وأن يكون لكل مجتمع كيانه الخاص وطغت به عاطفته المحلية وحصرته في إطار ضعيف ضيق وساعد حكام المنطقة العربية بشكل كبير على فتح أبواب المنطقة العربية أمام

المشروعات الصليبية والاستيطانية بما لدى حكام العرب والمسلمين من ميراث طويل فحواه الشك والمرارة تجاه كل منهم للآخر، هذا التشرذم والتمزق السياسي الذي جعل المنطقة نهباً للنزاع بين السنة في بغداد والشيعة في القاهرة وأتباعهما في بلاد الشام وبين السلاجقة والعرب وبين زعماء البدو وأمراء العرب في المناطق الحضرية لتمضي قوات الصليبيين كما تمضي السكين في الزبد بسبب الفرقة السياسية، وبدت المعادلة واضحة من خلال الصراع العربي الصليبي ؛ أن الوحدة والعمل المشترك في الجانب العربي والإسلامي يقابلهما تدهور وهزيمة في الجانب الصليبي والعكس صحيح تماماً[٣٤].

أضف إلى ذلك قول موير: " أن بيت المقدس كان في قبضة ملك مسيحي نحو قرن من الزمان وأن سورية حكمها حكام مسيحيون نحو قرنين من الزمان من سنة ١٠٩٧/١٢٩١م" [٣٥]. وفرض موقع وتاريخ مصر عليها أن تكون مسئولة عن حقوق الدول العربية والإسلامية من حولها بصفة عامة وعن القدس بصفة خاصة وأدرك صلاح الدين الأيوبي أن القدس بالنسبة له وللعرب ليست محض موقع وعاصمة أو مسألة تحرير سياسي بحت بل هي موضوع دين أو أديان ، وطن وتاريخ وثقافة هي ماض وحاضر هي مستقبله ومستقبل العرب والإسلام أيضاً ، وأن القدس ليست مسئولية أهلها فقط ولكن الجميع يحمل تبعتها:مسلمين ، ومسيحيين ، وعرب. وأن فلسطين هي وعاء القدس وحاملتها ، بل إن القدس هي هوية فلسطين وهى من أعطاها الغالب الأعم من صبغتها وأهميتها.وأن القدس ليست مجرد مدينة في وطن هو فلسطين ، ولكن فلسطين وطن في مدينة هى القدس.

وبكل هذه الانتماءات لم يغب عن بال صلاح الدين إدراكه منذ أن ولِّى الحكم أهمية الأسطول في مصر فرفع راتب البحارة وجمع المواد اللازمة لبناء السفن وعقد معاهدات تجارية مع الجمهوريات الإيطالية حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع[٣٦]. لاسيما وأن صناعة السفن تعد من ضروريات العمران والحضارة[٣٧]. وأشار ابن بطوطة إلى استيراد مصر للأخشاب من بلاد الأناضول وذلك

في سياق حديثه عن مدينة العلايا الواقعة على ساحل بحر الروم فذكر أنها كانت كثيرة الأخشاب، ومنها يحمل إلى الإسكندرية ودمياط..."[٣٨] وقد دفعت الأحداث السياسية في مصر إلى الاهتمام بالأسطول وتقويته، وقد ظلت مظاهر الاهتمام بصناعة السفن باقية بدار خديجة بنت الفتح إلى أيام زيارة ابن سعيد الأندلسي في مصر (القرن السابع الهجري) [٣٩]. وظهر أثر ذلك الاهتمام عندما حاول رينالد دى شاتيون أمير الكرك (أرناط) أن يقتحم البحر الأحمر ويغزو مكة والمدينة ليعبث بضريح الرسول ﷺ وليتحكم في حركة التجارة الدولية المارة بهذا البحر وهاجم بعض موانئ مصر والحجاز[٤٠]. فبادرت البحرية المصرية بتدمير السفينتين المرابطتين تجاه أيلة وطاردت الأسطول الصليبي عند عيذاب حتى دمرته وحصلت على عدد كبير من الأسرى وقدر واسع من الغنيمة، وقد شاهد الرحالة الأندلسي ابن جبير أثناء زيارته لمدينة الإسكندرية جماعة من أسرى الحملة الصليبية ووصف ذلك بقوله: " ... لما حللنا الإسكندرية ... عاينا مجتمعاً من الناس عظيماً برزوا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق... وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب في أقرب المواضع التي لهم من بحر القلزم ....وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها في الإسلام ... ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والإسكندرية... وقتلوا وأسروا وفرق من الأسرى على البلاد ليقتلوا بها..."[٤١].

وقد عبر وليم الصوري عن مخاوفه من نفوذ بحرية مصر وسلطانها بقوله: "... إن نور الدين يستطيع أن يوقف نمو مملكتنا بما يرسله من سفن عديدة من مصر ".

وهذا عين ما كان زمن صلاح الدين، فبينما كان صلاح الدين يحاصر بيروت تلقى من الأنباء ما يشير إلى أن سفينة ضخمة قادمة من أيوليا تجاه دمياط فاستولى عليها ووقع في أيدي المصريين نحو ١٧٠٠ أسير منعوهم بذلك أن يكونوا مدداً للصليبيين[٤٢].

وبعد انتصار حطين رابطت قوة بحرية مؤلفة من عشر سفن في عكا وتوجهت ١٥ سفينة إلى الإسكندرية ثم إلى صور واستطاع المصريون في ٢٥ ديسمبر ١١٨٩م اختراق الحصار الصليبي حول عكا التي وصفها ابن جبير بالحصانة ونجحوا في الاستيلاء على سفينتين من سفن العدو[٤٣] وتوالى سقوط المدن الفلسطينية الكبرى واحدة تلو الأخرى ولكنه يخفق في إسقاط مدينة صور المعروفة بالحصانة المنيعة حتى وصفها الرحالة ابن جبير الذي زارها قبل ذلك بثلاث سنوات (١١٨٤م) بأنها مدينة يضرب بها المثل في الحصانة [٤٤]. ولم يتبق بأيدي الصليبيين سوى صور وأنطاكية وطرابلس وبعض القلاع والحصون المتناثرة على الأرض العربية في بلاد الشام[٤٥].

وكان رد الفعل الغربي قوياً أنطق على أثره الحملة الصليبية الكبرى في ١١ مايو ١١٨٩م لتتوالى الأحداث وتحاصر عكا التي ما تلبث أن تسلم للصليبيين بعد عامين من الحصار وتنتهي الحملة بعقد صلح الرملة (٥٨٨هـ/١١٩٢م) بعد جنوح الصليبيين للسلم[٤٦].

وفي السابع من يناير لعام ١١٩٣م/٥٨٩هـ يسجل فيضان النيل بمقياس الروضة (٨ قيراط و ١٨ ذراع) وكان صلاح الدين بدمشق آنذاك على أكمل ما يكون من الصحة وكأن الدنيا قد جمعت في يده والقدر يخدمه لبلوغ مرامه ولكن تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن فإذا بالعافية قد شمرت الذيل والمنية قد دنت وإذا حضر أمر الله فلا مرد لقضائه وعجز الطب عن شفائه بعد أن لحق به كسل عظيم في يوم ١٦ صفر من عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م الموافق ١٢ أمشير سنة ٩٠٩ قبطية وغشيه في نصف الليل حمى صفراوية وأعقبه رعشة شديدة وغاب ذهنه وامتنع من تناول العلاج لينتقل إلى جوار ربه في ٢٧ صفر ٥٨٩هـ/٤مارس ١١٩٣م وكان سنه عند وفاته ٥٧ سنة ومدة حكمه ٢٤ سنة في مصر و ١٩ سنة في سوريا وقيل أن عند تمام الصلح بين صلاح الدين والإفرنج أباح لهم أن يستوطنوا مصر فجاء منهم بعض الباعة وأقام في الجهة التي عليها القنطرة المسماة بقنطرة الموسكي[٤٧].

وبوفاة صلاح الدين الأيوبي توارت عن مسرح التاريخ شخصية قيادية واعية بدورها في التغيير من حال إلى حال أفضل ، دخل مصر ضابطاً صغيراً وخرج منها صانعاً من صناع التاريخ محتفظا بروح المتطلع إلى المعرفة الدائم البحث في الأشياء ومحاولة فهمها أو تغيير هيئتها إلى الأحسن سائراً بالأمة إلى الوجهة الصحيحة باحثاً عن الحى فيها؛ في عالم أفكارها وحياتها وفاعليتها، وعن ضرورات الإحياء ومساراه فيها فجعل الأمة قبلته وحمل همها في عقله وكيانه.. الأمة بواقعها وتحدياتها وإمكاناتها وطاقتها وذاكرتها التاريخية والحضارية الدافعة الناهضة، مؤدياً دوره من موقع الصفوة الذي وصفه أرنولد توينبى في تاريخه:" أنه لا بد لكل جماعة إنسانية من (صفوة / نخبة) ؛ فئة قائده لكى تتقدم وتتحسن أحوالها". ولكن إذا أصاب الصفوة تصدع أو تدهور وجدنا السقوط.

ولعلنا نلحظ في حالات الهيئات الحاكمة أنها لا تزال الأمة بخير من الناحية السياسية مادامت هذه الجماعة متحدة أو متآلفة على الأقل ولكن البلاء يأتي عندما تصاب هذه الصفوة أو يقع الشقاق بين أفرادها فتختلف كلمتها وتعجز عن القيادة وهنا تتهم شعبها كله بأنه متهم ومتآمر حتى تثبت براءته وتفرض حالة من الطوارئ تدين الشعوب قبل أن تدين النظام نفسه ؛لأن النظام لم يقو على فرض سطوته وطغيانه إلا بعد أن استخف بالإنسان على الخريطة العربية كلها وهنا يفقد النظام دوره القيادي نتيجة التنافس على المكاسب وهذه ظاهرة نعرفها جيداً في الهيئات الحاكمة التي تولت أمورنا فهي الغالب تبدأ بدايات طيبة ولا تزال على حالها من القوة مادامت متعاونة لصالح أمتها وشعبها فإذا دب الفساد والخلاف ضاعت هيبتها وسقطت قوتها وفقدت دورها القيادي(٤٨)ويبدو لنا بجلاء ضعف فاعلية السلطة وتراخيها في التصدي لمظاهر العنف والظلم الواقع على كاهل الناس والذي يهدد أمنهم وحياتهم في المجتمع ويساعد على اهتزاز ثقة الناس في رموز الحكم وخلق حالة من الخوف عانى منها الناس وعبر عنها الرحالة عبد اللطيف البغدادي بقوله: "ورأيت مع امرأة فطيماً لحيماً

فاستحسنته وأوصيتها بحفظه فحكت لي أنها بينما تمشى على الخليج انقض عليها رجل جاف ينازعها ولدها فترامت على الولد نحو الأرض حتى أدركها فارس وطرده عنها... وبقى الولد مدة مريضا لشدة تجاذبه"(٤٩).

.فالمؤكد أن هناك شرخاً في هذه العلاقة من الخوف والانعزالية وهو ليس وليد وقائع محددة أو فترة محددة ولكنه نتاج لتراكمات حدثت عبر فترة ممتدة من الزمن. وقد أخذت هذه التراكمات أشكالاً مختلفة تبلورت في معظمها حول قضية إهدار كرامة المصري على يد الحاكم ورموزه من رجال الإدارة والعسكر(٥٠) وتفريغ مبدأ (إقامة الدين وسياسة الدنيا بالدين) (٥١) وإخلال الحاكم بمبدأ الإمامة القائم على خلافة شخص من الأشخاص للرسول ﷺ في إقامة القوانين الشرعية وحفظ حوزة الملة على وجه يجب إتباعه على كافة الأمة(٥٢) وتفريغ ذلك كله من مضمونه الحقيقي فارتبط ذلك بعملية فساد وإفساد واسعة داخل حوزة الحاكم بكل قطاعاته وطوائفه تعددت معه وتكاثرت أشكال العنف وقسوة الحاكم ورموزه بل وارتبطت بها. فالإسحاقي المنوفي ينقل ما معناه: " ويقال أن... القسوة عشرة أجزاء تسعة في الترك وواحد في سائر الناس..." (٥٣) خاصة وأن الترك باختلاف مشاربهم استخدموا الكثير من أنواع التعذيب في مصر – والتي كانت سائدة آنذاك في أماكن أخرى – مثل الخازوق والترسيم والشنق والصلب والخنق والضرب بالكرباج والسلخ ولجأوا إلى التشهير والتجريس وغيرها... (٥٤).وقد غذى الوجدان الشعبي تلك العلاقة بمجموعة كبيرة من الأمثال الشعبية التي تولدت نتيجة الغيظ والنفور كان أبرزها: "افرحوا واهنوا بقدومه جاكم بشومه"، "سيف السلطة طويل"(٥٥)، "السلطة غول وقميصها كل حبتنا" " السلطة غول كلتنا لحم طب وإحنا عضم رمتنا"(٥٦).

وظلت شخصية صلاح الدين ملء العين والقلب وموضع الإعجاب والهيبة من جميع معاصريه ؛ أعداد كانوا أم حلفاء ولكن الظروف التي أنجبته لقيادة الناس كانت لا تزال قائمة، فالصليبيون مازالوا موجودين فوق أرض الشام كما أن خطر قدوم حملات

صليبية جديدة كان لا يزال قائما والإحياء الأيديولوجي والأخلاقي الذي كان بمثابة التعبئة المعنوية للعمليات العسكرية كان لا يزال في طور النمو ولا تزال قطوفه بعيدة المنال.

وفي ظل هذه الظروف جاء خلفاء صلاح الدين على غير شاكلته إذ أدت وفاته إلى تفسخ دولته في الحال إلى قطع يتنازع عليها الورثة من أبناء البيت الأيوبي(٥٧). أما في الجانب الغربي من العالم الإسلامي نجد أنه في شوال سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م يغزو ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الفرنج بالأندلس ويهزمهم ويستولى سيف الدين طغرلبك مملوك الخليفة على أصبهان(٥٨). وفي شعبان من عام ٥٩٤هـ/١١٩٧م وصل جمع عظيم من الفرنج واستولوا على قلعة بيروت فسار الملك العادل ونزل بتل العجول وأتته النجدات من مصر ووصل إليه سنقر الكبير وقد أنجد العزيز عمه العادل فصدوا الفرنج عن صور ورجع الملك العزيز إلى مصر(٥٩).

وبنهاية عام ٥٦هـ/١١٩٩م تعاني مصر من قحط شديد حيث وصل غاية فيضان النيل بمقياس الروضة ٢١ قيراط و ١٢ ذراع) فحصد الموت قرابة ١١١١ نفس مقيدة بدفاتر القاهرة(٦٠). وقد تصادف وجود الرحالة البغدادي في مصر آنذاك وقدم لنا صورة عن أحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية في ظل هذه الأزمة الطاحنة وما خلفه ذلك من أثر على الحضارة العمران في مصر من تدهور وأبرز لنا مدى معاناة بعض طبقات المجتمع المصري الفقيرة والمتوسطة الدخل من ندرة الطعام بسبب الأزمات(٦١). التي دفعت بالناس إلى أكل جيف الموتى كما يقول المقريزي: "حتى صار غذاء الكثير من الناس لحوم بني آدم بحيث ألفوه.."(٦٢)، " وأكثر قرى مصر لم يبق بها آدمي من الموت..."(٦٣).

ويستهل الملك العادل حكمه لمصر بهذه الأزمة الطاحنة في سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م بالإضافة إلى أن فكرة الاستيلاء على بيت المقدس وضرب مصر

كانت لا تزال تشغل بال الأوربيين وأدرك البابا في الغرب والصليبيون في الشرق أن الاستيلاء على مصر هو الخطوة المنطقية والضرورة لتأمين وجودهم في بلاد الشام وبات غزو مصر بكل مواردها أو تحييدها على الأقل قضية منطقية وضرورة حرب إستراتيجية لضمان الاستيلاء على ما استرده صلاح الدين من أراض مملكة بيت المقدس اللاتينية(٦٤).

وبدأت الاستعدادات لتجميع حملة صليبية جديدة هدفها مصر، ولكن أحداث هذه الحملة التي عرفت بالحملة الرابعة كانت مزيجا من المأساة والملهاة قد كان هدفها الأساسي مصر (التي كانت تنعم برخاء شامل نتيجة زيادة ماء النيل حيث سجل مقياس الروضة فيضان النيل بـــ ١٧ ذراع). في ٢٠ سبتمبر لعام١٢٠٢م(٦٥)" وبعدها بأشهر ليست بعيدة في ٢٤ يونيو ١٢٠٣م كان الأسطول الصليبي قد رسا في مياه خلقدونية قبالة القسطنطينية، وفي مارس ١٢٠٤ كان الصليبيون يرسون دعائم دولة جديدة تحل محل الإمبراطورية البيزنطية، وذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٦٠٠هـــ ما نصه: " ... إنما الفرنج هم الحكام في البلد فثقلوا الوطأة على أهله وطلبوا منهم أموالا عجزوا عنها وأخذوا أموال البيع وما فيها من ذهب ..." ثم يذكر أن الفرنج وضعوا السيف في القسطنطينية ثلاثة أيام(٦٦)... وهكذا انتهت الحملة الصليبية الرابعة.

ورغم فشل الحملة الصليبية الرابعة تشعر مصر بزلزلة عظيمة أحس بها أهل سوريا وقبرص وآسيا الصغرى حتى العراق وما بين النهرين، وهذه الزلزلة هي التي هدمت أسوار صور في جماد أول سنة ٦٠٠ هجرية السادس من يناير عام ١٢٠٤م(٦٧). والتي كان قد وصفها ابن جبير بأنها:" مدينة يضرب بها المثل في الحصانة..."(٦٨).

وفي يوم الجمعة من شوال سنة ٦٠٠هـــ/٥ مارس ١٢٠٤م تنجح قوات صليبية في اختراق السواحل المصرية حتى بلغت فوة واستولت عليها بعد أن نصبتها وذبحت أهلها(٦٩).

إضافةلمهاجمة رشيد(*) وقد ظلوا في غاراتهم خمسة أيام(٧٠). وفي ٢٨ سبتمبر ١٢٠٤/ صفر سنة ٦٠١هجرية عقد الملك أما لريك الثاني ملك عكا هدنة مع السلطان العادل الأيوبي الذي كان يعاني من متاعب داخلية في البيت الأيوبي ولرغبته في ازدهار العلاقات التجارية أثناء السلم وتم عقد هدنة مدتها ست سنوات(٧١).

وظلت مصر تمثل هاجسا للغرب الأوربي الذي تجهز لإعداد حملة صليبية جديدة ضد مصر تساندها الأطماع الاقتصادية للمدن التجارية الإيطالية في السيطرة على تجارة المتوسط بالسيطرة على ميناء دمياط، وبنهاية شهر مايو سنة ١٢١٨م وصلت القوات الصليبية قبالة دمياط، وفي محرم ٦١٦هجرية/١٩ مارس ١٢١٩م اشتد الغلاء بدمياط لشدة محاصرة الفرنج لها الذين هجموا عليها وسقطت بأيدي القوات الصليبية في ٢٧ شعبان سنة ٦١٦هـ/ ٥نوفمبر١٢١٩م فحينئذ بني الملك الكامل المنصورة عند مفرق النيل وسكنها بجيشه وحصنها(٧٢).

ومع بداية عام ١٢٢٠م يدخل المغاربة علمي الفلك والجغرافيا في أوربا ويتوج الإمبراطور فريدريك الثاني في روما(٧٣) وبوصول غاية فيضان النيل بمقياس الروضة إلى (٢ قيراط، ١٧ ذراع) تغرق أحلام الصليبيين بالاستيلاء على مصر في أوحال الدلتا ليساعد النيل في تحديد مصير الحملة الخامسة بشكل نهائي، وبمساعدة النجدات التي أتت للملك الكامل من الشام والشرق مع الملك الأشرف والملك المعظم عيسى وحاصرت قوات الجيش المصري الصليبيين قرب المنزلة برا وبحرا(٧٤). وفي التاسع من شهر رجب سنة ٦١٨هـ/ سبتمبر١٢٢١م تدخل القوات المصرية دمياط التي كان الصليبيون قد حصنوها جيدا(٧٥).

وقد كانت دمياط "... ثغر جليل له سوره وبه خمسة أبواب وعلى السور حصون تسمى المحارس، يسكنها الفقهاء والصالحون للمرابطة"(٧٦) " وكانت تقع على ساحل بحر الروم"(٧٧). وقد تعرضت دمياط لغارات متفرقة من قبل الروم، ولعل أعنف

ما أصابها كان سنة ٢٣٨هـ (حين كسبت المدينة من قتل الروم الذين أقبلوا في ثلاثمائة مركب فنزلوا المدينة وملكوها وقتلوا جمعا كبيرا من المسلمين وسبوا ستمائة امرأة" منهن ١٢٥ من المسلمات" والباقي من نساء القبط.. وقد خرج إليها وإلى مصر بجيشه إلا أنه لم يدركهم "(٧٨). وكان من جراء ذلك بناء حصن دمياط سنة ٢٣٩هـ ووقوع الاعتناء بالأسطول(٧٩).

وتفصح لنا الأحداث السياسية عن مدى تأثيرها في عمران المدن المصرية سلبا أو إيجابا وأن عمران أي مدينة كتاب مفتوح يروى تاريخ هذه المدينة وربما تاريخ الوطن كله وتؤكد أن مصر بعمرانها وحضارتها منذ فجر الضمير ليست بلد الموقع الفريد أو المساحة الجغرافية الممتدة أو الإمكانيات الاقتصادية الهائلة أو الكثافة السكانية الكبيرة، ولكنها بالقطع بلد الدور الكبير الذي يؤثر في كل من حولها على مر التاريخ إيجاباً أو سلباً(٨٠).

يعضد العوامل السابقة عامل البيئة ورفعة المكان وقدم العمران وذيوع الصيت ؛ يوضح ذلك ما جاء على لسان الملك العادل في مفرج الكروب: سار الملك العادل بالعسكر ونزل بركة الحب وسير إلى الملك الأفضل يقول له: " أنا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة ؛ لأنها أعظم معاقل الإسلام "(٨١).

كل هذا يساعدنا على إدراك الأثر الذي يمكن أن يحدثه إعجاب المسلمين والعرب الداخلين في دائرة الحروب الصليبية بدور مصر صاحبة النفوذ المبسوط الذي يلاحق العدو في البر والبحر لينزل به الهزائم فيشفي غلتهم ويترك ذلك كله يحدث صداه في المعترك العمراني والحضاري.

يوضح ذلك ويؤكده أن مؤرخي وقادة الغرب لم يروا لهم عدواً غير المصريين فحاول الإمبراطور الألماني فردريك الثاني (١٢١٥-١٢٥٠م) أن يحصل على مكاسب سياسية ودينية واقتصادية عن طريق الخداع والمراوغة باسم السلام المزعوم مستغلاً

الاستعداد النفسي لدى الملك الكامل صاحب مصر للتسليم مقابل الحصول على مكاسب سياسية هزيلة وبدأت المراسلات بين فردريك الثاني وبين السلطان الكامل الأيوبي ثم أسفرت المراسلات عن قدوم الإمبراطور إلى فلسطين ٦٢٥هــ/١٢٢٨م وكان تحت غمرته جيش صغير قوامه ستمائة فارس فقط وأسطول هزيل ليتوج فردريك الثاني ملكا على مملكة بيت المقدس[٨٢].

وكان رد الفعل الشعبي عنيفا ضد السلطان الذي بعث سفراءه إلى كل مكان لتبرير فعلته والترويج لسلام الاستسلام الذي عقده وإقناع شعوب المنطقة بأن السلام مع مغتصبي بيت المقدس والأرض العربية في فلسطين هو خياراً استراتيجياً لا بد منه ولكن الشعوب العربية لم تغفر للسلطان الكامل الأيوبي صاحب مصر فعلته، وقد علق ابن الأثير على ذلك بقوله: " واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه يسر الله فتحه وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه.." [٨٣]. كان ذلك هو موقف المؤرخ ابن الأثير من هذه الهدنة رغم أنه كان يعد من حاشية السلطان الكامل صاحب مصر. أما العيني فوصف الموقف بقوله: "... قامت القيامة في جميع بلاد الإسلام واشتدت العظايم بحيث أنه أقيمت المآتم..."[٨٤].

وأثارت اتفاقية السلام سنة ١٢٢٩م بين سلطان مصر وفردريك الثاني – التي تقرر فيها أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة فضلاً عن تبنين وصيدا بأكملها مقابل أن يمنحوا العرب السلام – غضب العرب والمسلمين ولعن الكامل من على منابر الجوامع والمساجد ووصفه الخطباء آنذاك بالخيانة والزندقة في الدين والتهاون في حقوق العرب والمسلمين وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار وثارت موجة عارمة من السخط والأسى في العالم الإسلامي[٨٥]. الذي اعتبر الاتفاقية وصمة عار في تاريخهم.

وباتفاقية يافا في ١٨ فبراير سنة ١٢٢٩ واجه الجهاد ضد الفرنج موقفاً صعباً من أحلك المواقف والأزمات الذي مر به في الوقت الذي حقق فيه الغزاة الصليبيون – مع ضعف إمكاناقم – نصراً سهلاً عجزت عنه جهود ريتشارد قلب الأسد بإمكاناته الضخمة مع ملاحظة أن فردريك الثاني حصل على بيت المقدس دون أن يدخل معركة أو يخسر رجلاً واحداً بسبب تنازل حاكم مصر عن حقوق لم يكن يملك تفويضا من أحد بالتنازل عنها ؛ لأن حقوق الوطن هي حقوقٌ ثابتة للأمة وهي مما لا يجوز التنازل عنها لأحد، كما لا يجوز بيعها أو شراؤها، وقد أحس السلطان الكامل الأيوبي فيما بعد بأنه " تورط مع ملك الفرنج " على حد قول المقريزي الذي بدوره فصل مدى الأسى الذي حل بالمسلمين لسماع خبر تفريط الكامل في بيت المقدس فيقول: " فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان ... فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء"[٨٦].

ولم يعترف العرب بتلك الاتفاقية واعتبروا هذا التنازل باطلاً مثله والعدم سواء، وتمكن المسلمون والعرب في عهد الصالح نجم الدين أيوب فيما بعد من تمزيق وإسقاط الاتفاقية من خلال استئناف الجهاد وإعادة تحرير بيت المقدس وجعل وجود الفرنج أنفسهم على الأرض العربية وفي ميزان التاريخ قابلاً للاستئناف وحال بينهم وبين وجودهم الطبيعي في بيت المقدس عقبات عديدة ؛ منها عقبات الموقع والتاريخ والبشر والمبادئ والأهداف والمثل العليا وفي مقدمتها العدل. واستطاع العرب أن يسطروا الفصل الأخير في هذه المواجهة الطويلة المضنية في عهد الأشرف خليل بن المنصور قلاوون حين قام بتصفية الجيوب الصليبية في أرض العرب، وكانت دماء الصليبيين في عكا هي التي كتبت نهاية قصتهم في المنطقة العربية[٨٧] بعد رحلتهم الصليبية الضخمة والطويلة في المشرق العربي واحتلالهم الاستيطاني في أرض العرب.

ويموت السلطان الكامل في سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٩م وعمره نحو ستين سنة ومدة حكمه نائبا على مصر عشرين سنة وسلطانا عليها عشرين أخرى وبوفاته بايع

المصريون ولده سيف الدين أبا بكر الملقب بالملك العادل، وكان قد استخلفه أبوه على مصر عندما سار إلى الشام[٨٨]. وبعد عدة تقلبات في الأحوال اعتلى عرش السلطنة في القاهرة السلطان الصالح نجم الدين أيوب[٨٩] سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م وشرع الملك الصالح أيوب في بناء قلعته – قلعة الجزيرة – وأخذها مسكناً له وقد ذكر الرحالة ابن سعيد الأندلسي أن بناء القلعة أدى إلى ضيق النيل: " لكون الجزيرة التي بني فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته قد توسطت الماء ومالت إلى جهة الفسطاط "، كما أدى ذلك التغير العمراني الجديد إلى أن: " لا يجوز أحد على الجسر الذي بين الفسطاط والجزيرة راكبا احتراما لموضع السلطان "[٩٠].

وقد تمكن الصالح نجم الدين أيوب من تحرير بيت المقدس بواسطة الخوارزمية ومساعدة الجيش المصري الذي كان معسكراً أمام غزة بقيادة ركن الدين بيبرس وعدده حوالي خمسة آلاف جندي[٩١] مع من انضم إليهم من القيمريين – نسبة إلى قلعة قيمر (بين الموصل وخلاط) – الذين قدموا معهم من الشرق[٩٢] وأحاط الخوارزميون بالصليبيين وأمضوا فيهم قتلاً وأسراً في نهار الاثنين تشرين الأول ١٢٤٤م/١٢ جمادى الأول ٦٤٢هـ [٩٣]، وكانت تلك الأستعادة الأخيرة لبيت المقدس التي ظلت بيد المسلمين والعرب حوالي سبعة قرون قبل أن يدخلها جيش أوروبي آخر وقبل أن يحتلها الكيان الصهيوني[٩٤].

وبعد الهزائم التي منى بها الصليبيون أدركوا أن بقاءهم في الشرق والاحتفاظ بالقدس يتوقف على احتلالهم لمصر[٩٥].وفي ٢٥ أغسطس ١٢٤٨م/٦٤٧هـ غادر لويس التاسع ميناء (أيج مورتز) متوجهاً نحو قبرص على متن أسطول مؤلف من مئة وعشرين مركباً كبيراً وألف وخمسمائة سفينة صغيرة وصحبه في رحلته زوجته مرغريت وأخوه روبرت كونت أرتوا ومثارل كونت أنجو[٩٦]، وفي مايو ١٢٤٩م/ صفر ٦٤٧هـ انطلقت الحملة بعد إقرار ضرورة غزو مصر من قبرص باتجاه مصر وتعرض

الأسطول لعاصفة بحرية في المورة أدت إلى تشتته[٩٧]، وفي يوم الجمعة ١٢ صفر ٦٤٧هـ/٤ يونيه ١٢٤٩م وصلت مراكب الصليبيين إلى مصر ورست قبالة مدينة دمياط[٩٨].

وتسقط دمياط دون قتال، ويذكر المقريزي ما نصه: " وأصبح الفرنج يوم الأحد لسبع يقين من صفر سائرين إلى مدينة دمياط، فعندما رأوا أبوابها مفتحة ولا أحد يحميها خشوا أن تكون مكيدة فتمهلوا حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا مؤنة حصار..." [٩٩]. وبعد عدة تطورات لا يتسع المجال لذكرها كانت القوات الصليبية تتقدم نحو مدينة المنصورة في سرعة، ولكن الأمير بيبرس البند قد رأى (الذي صار السلطان الظاهر بيبرس فيما بعد) كان قد نظم الدفاع عن المدينة بشكل جيد، وانقشع غبار المعركة عن عدد كبير من قتلى الصليبيين بينهم عدد كبير من النبلاء، كما دارت معركة رهيبة قرب فارسكور قضت على الجيش الصليبي تماما، ويُتم أسر لويس[١٠٠].

وخلفت حملة لويس التاسع تدهوراً في أحوال مدينة دمياط أدى لتخريبها وهدمها سنة ٦٤٨هـ إذ خرج سكان المدينة مع الجيش الأيوبي المرتد من الضفة الغربية لفرع دمياط سنة ٦٤٧هـ على نحو ما فعل المقريزي[١٠١]. وقد تركت المدينة خاوية فقد حمل السكان معهم في رحلة هروبهم أدواتهم وآلاتهم وأخشاب بيوتهم[١٠٢]. وتدهورت أحوال المدينة تدهورا كليا علله ابن خلدون بقوله:" إذا ضعفت أحوال المصر وأخذ في الهرم بانتقاص عمرانه وقلة ساكنيه تناقص فيه الترف ورجعوا إلى الاقتصار على الضروري..."[١٠٣].

وبعد زوال الخطر الصليبي اتفق على إزالة وتخريب أسوار مدينة دمياط ولم يترك بها سوى المسجد الجامع[١٠٤] ولم يقتصر التخريب العمراني بسبب الظروف السياسية والحربية على دمياط فقط، ولكنه امتد لتوابعها مثل شط وبورة التي تعرضت الأخيرة في مطلع القرن السابع الهجري لويلات الحروب الصليبية سنة ٦٠٦هـ حيث وصلت

مراكب الفرنج إلى بورة فنهبوها وأسروا من فيها فخرج إليهم الملك الكامل في الشوانى فلما بلغهم ذلك هربوا(١٠٥).

وقد أشار القلقشندى إلى ما قاله ابن سعيد عن أسوار دمياط والتي كانت قد أقامها الخليفة المتوكل بقوله: ".. فلما تسلطت عليها الفرنج وملكتها مرة بعد مرة خربت المسلمون أسوارها في سنة ثمان وأربعين وستمائة خوفا من استيلائهم عليها وهى على ذلك إلى الآن.." (١٠٦). وأكد ذلك الحريري بقوله:" ثم إن المسلمين هدموا سور دمياط وتركوها خاوية عرى عروشها.." (١٠٧).

وكانت أحداث الحملة الصليبية السابعة التي انتهت سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م بأسر الملك لويس التاسع نفسه وتبدد فرسان جيشه وجنوده ما بين قتيل وأسير عقب الهزيمة المخزية التي أوقعها به الجيش المصري في المنصورة بمثابة إرهاصات الميلاد لدولة سلاطين المماليك التي حكمت مصر في الفترة (٦٤٨هـ/٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) (١٠٨) لتدخل مصر حقبة جديدة من تاريخها تحت حكم هؤلاء الرقيق الأبيض الذين اعتمد عليهم حكام الشرق الأدنى الإسلامي لا سيما في مصر والشام ليؤسسوا دولة بدأت بأحداث تولت خلالها "شجر الدر" السلطنة وتلقبت بعصمة الدين أم خليل واستمرت حتى وصلت إلى طومان باى الذي يعتبر آخر السلاطين ؛ ماتت أول سلطنة لهم بالقباقيب وظلت ملقاة في خندق القلعة بملابسها الداخلية(١٠٩). ومات آخرهم حين اهتز جسده في مشنقة على باب زويلة فما أشبهه البداية بالنهاية.

فمن رحم النهاية التعسة للحملة الصليبية السابعة ولدت دولة سلاطين المماليك لكي تحكم المنطقة العربية وتدافع عنها طوال ما يزيد على مائتين وسبعين عاماً بيد أن الفترة التي امتدت من بداية سلطنة " شجر الدر" حتى نهاية سلطنة " السلطان سيف الدين قطز" كانت بمثابة الفترة الانتقالية في عمر هذه الدولة الوليدة، كما كانت إرهاصاً للأساس السياسي الذي قامت عليه الدولة الذي تبلور في مبدأ " الحكم لمن

غلب"[١١٠] وتخفياً وراء الواجهة الدينية التي كان لها أثر واضح في النمو العمراني ولا سيما المنشآت الدينية في مصر لتكون واجهة تغطى حكمهم الشرعي لمصر واستمالة لنفوس الشعب الجياشة بالعواطف الدينية.

ولاحظ العديد من رحالة القرنين السادس والسابع الهجريين اهتمام رجال الدولة والنظام بإنشاء الجوامع والمدارس والمنشآت الدينية الأخرى، فقد ذكر الرحالة ابن خلدون أن " أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيون على القدم منذ عهد مواليهم ملوك بنى أيوب بإنشاء المدارس لتدريس العلم والخوانق لإقامة رسوم الفقراء في التخلق بآداب الصوفية السنية في مطارحة الأذكار ونوافل الصلوات.." [١١١]. كما تحدث كذلك الرحالة العبدري عن عناية سلاطين المماليك بالمساجد وأهل العلم ووصفهم بأنهم: " ركن الإسلام نفعهم الله وأحسن عونهم.."[١١٢].

إلى جانب اهتمام سلاطين المماليك بالمنشآت الدينية كان حرصهم أيضا على تقريب أهل العمامة إليهم ضمن سياسية الاهتمام بالمظهر الدينى التي حرصوا عليها، والواقع أن أبناء هذه الطائفة قد لعبوا دوراً مهماً في مساندة سلاطين المماليك وحرصوا بشكل عام على تأكيد ولائهم للسلطان المملوكي الحاكم وتشهد تلك الطائفة الكبيرة من الفتاوى التي وصلتنا من عصر سلاطين المماليك على أن السلاطين اعتمدوا كثيراً على هذه الفتاوى في كافة تصرفاتهم السياسية والاقتصادية والمالية والإدارية[١١٣].

ولعل أفعل هذه الفتاوى في عصر سلاطين المماليك تلك الفتوى التي أصدرها الشيخ عز الدين بن عبد السلام في أخذ الأموال العامة لإنفاقها على الجيش[١١٤] واغتنم الأمير قطز هذه الفتوى وأخذ ينكر على الملك المنصور سوء تصرفه وكثرة مفاسده ويردد أنه لا بد من سلطان قاهر يقاتل العدو والملك المنصور صبى صغير لا يعرف تدبير الأمور[١١٥] وكان قد نادى الأمراء المعزية بتولية المنصور على ابن السلطان أيبك الذي لقب باسم المنصور نور الدين (٦٥٥- ٦٥٧هـ/ ١٢٥٧-١٢٥٨م) ولم يكن يتجاوز خمس عشرة سنة من عمره[١١٦]. فعين الأمير سيف الدين قطز أتابكا له

ممسكا بيده زمام السلطة الفعلية تاركا للسلطان الصبي شعائر السلطنة ولقبها ولا شئ أكثر من ذلك[١١٧].

على أية حال كانت بداية عصر سلاطين المماليك في مصر مصحوبة بأحداث تاريخية جعلت من مصر المعقل الأخير للحضارة العربية الإسلامية، فقد تعرض العالم الإسلامي لضربات موجعة من البتر على أيدى المغول الذين نجحوا في اجتياح عاصمة الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وبدوا في عين المعاصرين قوة لا تقهر[١١٨]. وظلت بغداد بفعل التخاذل والخيانة الداخلية جريحة نهباً لكل الرغبات الوحشية والتدميرية على مدى هذه الأيام وصارت بعدها أطلالاً تشهد على عنف المغول الذين أحرقوا مباني بغداد الجميلة ودمروا مكتبتها العامرة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تقع فيها عاصمة الخلافة أسيرة لغير المسلمين[١١٩]. وسقطت معها الخلافة العباسية التي دامت أكثر من خمسة قرون ١٣٢-٦٥٦هـ/ ٧٥٠ -١٢٥٨م[١٢٠]. وسر النصارى كثيرا بسقوطها واعتبروه سقوط بابل مرة ثانية واعتبروا هولاكو وطقز خاتون زوجته أدوات للانتقام من أعداء المسيح وأنهما قسطنطين وهيلانة[١٢١].

بينما كان وقع الصدمة على نفوس المسلمين مريرا وعنيفا لأنهم وجدوا أنفسهم بدون خليفة للمرة الأولى في تاريخهم، أما مصر فقد تحملت التبعات ففتحت أبوابها للاجئين إليها في إطار موجة كبيرة من رحلات الهروب من عاصفة المغول ومن ضربات الغرب الكاثوليكي في الأندلس هذه الهجرات كان لها تأثيرها بطبيعة الحال على معدل النمو السكاني والاقتصادي والعمراني والحضاري.

والواقع أن كتابات الرحالة الشرقيين والغربيين الذين زاروا مصر أثناء أو في أعقاب تلك الفترة تشير إلى هذه الحقيقة بشكل أو بآخر[١٢٢]. ويدل على ذلك أيضاً لجوء الشيخ ابن تيمية إلى مصر واجتماعه بالسلطان والوزير وأعيان الدولة بحثهم على الجهاد والخروج للعدو[١٢٣].

وبينما كان الخطر التترى يجتاح أقاليم العالم الإسلامي الشرقية كان نجم (سيف الدين قطز) يزداد سطوعاً وتزداد قامته السياسية طولاً وكأنه على موعد مع التاريخ لكي ينجز مهمته الكبرى في هزيمة الجحافل التترية الظالمة، لذلك لم يجد قطز صعوبة في القبض على المنصور على ــ ابن المعز أيبك ــ واعتقاله بقلعة الجبل، وكان ذلك بموافقة الأمراء والشعب وتبرير ذلك أن السلطان المنصور صغير، لا يستطيع تدبير الأمور والبلاد في حاجة إلى سلطان كبير ذي خبرات واسعة يستطيع صد هولاكو عن البلاد[١٢٤]. وهكذا تم عزل المنصور عليٍّ وأُعلن السلطان قطز سلطاناً على مصر في نوفمبر ١٢٥٩م[١٢٥].

وكانت أولى المشكلات التي واجهت قطز منذ بداية حكمه هي خطر التتار وتهديدهم لأمن مصر فأعلن الملك قطز النفير في مصر للجهاد في سبيل الله وخرج جيش مصر مع المتطوعين من كل فج عميق للقائهم في أواخر شعبان سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩م) وفتك المحارب المصري والعربي بالخطر المغولي في تلاحم عربي كان جسراً عبرت عليه آمال الإسلام والعرب في مواجهة الغزاة فلحقت بالعدو هزيمة ساحقة في عين جالوت مثلما كان الحال في حطين.

وبعد عين جالوت تابعت الجيوش بقيادة المظفر قطز مطاردة فلول المغول واقتضى الأمر أن يخوض المصريون معركتين عند عين جالوت وبيسان لكى يجهزوا على القوات المغولية وكانت تلك هي المرة الأولى التي يلقى فيها المغول هزيمة بتلك الفداحة وبهذا الحجم وتلاشت أسطورة الجيش الذي لا يقهر في فلسطين وظهرت دولة سلاطين المماليك وريثا شرعيا لكل من الأيوبيين والعباسيين على السواء[١٢٦].

ولم يغير من دور مصر في مسئوليتها في الجهاد والاسترداد انتقال السلطة من السلطان قطز إلى قائد جيوشه الظاهر بيبرس الذي نصب نفسه سلطاناً بعد أن اغتال قائده السلطان قطز في ذي القعدة (٦٥٨هــ- ١٢٥٩م) [١٢٧] ونوديَّ في القاهرة بعد

دخول بيبرس القلعة: " ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك ركن الدين بيبرس "(١٢٨).

وتابع المصريون بقيادة الظاهر بيبرس الجهاد في المشرق العربى ضد الصليبيين والمغول معاً وأثبت بيبرس بأعماله وإصلاحاته وحروبه أنه المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك في مصر والشام والحجاز وشغل كرسي السلطنة سبعة عشر عاماً وهى مدة طويلة لم يبلغها أحد من سلاطين دولة المماليك البحرية عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون(١٢٩).

وإذا كان البعد العسكري هو الذي أفرز هذه الدولة باعتبارها القوة القادرة على حماية العالم الإسلامي بيد أن هذا البعد لم يكن كافياً وحده بدليل تلك المصاعب التي واجهت المماليك منذ: " شجر الدر" وحتى "بيبرس" من جانب الرعايا والقوى السياسية الأخرى، ورأى بيبرس الحل السعيد في إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة كرمز لإقامة شرع الله على أرضه وجمع شمل المسلمين ليستمد السند الشرعي لحكمه بفضل التقليد الذي حصل عليه من الخليفة العباسي(١٣٠).

لتصبح القاهرة بمثابة المعقل الأخير للحضارة الإسلامية والعربية منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري (٦٥٩هـ/١٢٦٠م) ليقصدها الرحالة والفنانون والعلماء والفقهاء، كما جاء الصناع ورجال السياسة والباحثين عن فرصتهم للارتقاء والاستقرار من شتى أرجاء دنيا العرب والمسلمين ونتجت عن ذلك بالضرورة حركة عمرانية نشطة وزاد سكانها وانتعش اقتصادها وعمرت مدارسها.

وترتب على إحياء الخلافة بمصر أن فرض سلاطين المماليك بمصر لأنفسهم مقاما سامياً على ملوك العالم الإسلامي باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعته"(١٣١). وأشار لهذا السيوطي بقوله: " فلما كانت الدولة التركية – دولة المماليك– أحدثت عدة

جوامع... وكثرت في هذا القرن وما بعده إلى الآن فلعلها الآن في مصر والقاهرة أكثر من مائتي جامع "(١٣٢).

وفي سبيل تأكيد البعد الديني لشرعية دولتهم قاموا بالتقرب إلى العلماء والقضاة والفقهاء الذين كانوا في طليعة المثقفين وقادة الرأي العام آنذاك، وكان أهل العمامة في ذلك العصر يمثلون عقل الأمة ونبض وجدانها وأدى ذلك إلى انصراف سلاطين المماليك إلى إنشاء وإقامة المنشآت العمرانية التي تخدم مصالحهم وتؤدى مهامها تجاه هذه الطبقة فأدى هذا إلى ازدهار عمراني وحضاري واسع في مصر.

ويشير السيوطي لذلك بقوله: " ... اعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها وكثرت شعائر الإسلام فيها.. وصارت محل سكن العلماء ومحط رحل الفضلاء، وهذا سر من أسرار الله أودعه في الخلافة النبوية.."(١٣٣). وقال القلقشندى: " والقاهرة اليوم أم الممالك وحاضرة البلاد وهى في وقتنا دار الخلافة وكرسي الملك ومنبع الحكماء ومحط الرحال"(١٣٤). وأمدنا المقريزي بقوله: "... فلما خرب المشرق والعراق بهجوم عساكر التتر منذ كان جنكيز خان ... كثر قدوم المشارفة إلى مصر وعمرت حافتي الخليج الكبير وما دار على بركة الفيل وعظمت عمارة الحسينية فلما كانت سلطنة الملك الناصر قلاوون الثالثة.. تزايدت العمائر بالحسينية حتى صارت من الريدانية إلى باب الفتوح ... واتصلت عمائر مصر والقاهرة فصار بلداً واحداً يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور والرباع والقياصر والأسواق والفنادق والخانات والحمامات والشوارع والأزقة والدروب والخطط والحارات والأحكار والمساجد والجوامع والزوايا والربط والمشاهد والمدارس والترب والحوانيت والمطابخ والبرك والخلجان والجزائر والرياض والمنتزهات متصلا جميع ذلك بعضه ببعض"(١٣٥).

إضافة لهذا فقد كان سلاطين المماليك في حرص دائم على تعمير حاضرة ملكهم ودولتهم الواسعة بعد تعضيد مكانة مصر بإحياء الخلافة الإسلامية فيها فاندفع عمران المدن المصرية بعدما شكلت موطن جذب لسكانها خاصة في عهد الظاهر بيبرس. فقد

قال أبو المحاسن عن عمران مصر في عهده بأنه قد:"بني في أيامه بالديار المصرية ما لم يبن في أيام الخلفاء المصريين ولا ملوك بني أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات.."[١٣٦].

وقد اعتبر الرحالة الأندلسي ابن الأزرق أن اتساع العمران وكثرته هو دليل رفعة الدولة وعظم سلطانها وازدهارها الاقتصادي وقوتها، فقال: " الملك بالجند والجند بالمال والمال بالعمارة.. فتعدد الأعمال بالأقطار التي هي سبب الكسب مقتضى لحصول الثروة لما يفضل عنها بعد الضروريات من الفضلة الزائدة وينشأ عن ذلك شماخة الملك بنمو الجباية وصرف ما يفضل منها إلى اتخاذ المعاقل والحصون واختطاط المدن والأمصار وبرهان ذلك، قال ابن خلدون: " واعتبر ذلك بأقطار المشرق كمصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها وراء البحر الرومي لما كثر عمرانها كثر مالها وعظمت دولها وتعددت مدنها وحواضرها.. " [١٣٧].

وساعد مصر موقعها الجغرافي والسياسي والديني على أن تسيطر شرقاً وغرباً على مكة والمدينة كامتداد شرعي لتفويض الخليفة العباسي لسلطان مصر بحكم: "الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً.. وبهذا بسطت مصر سلطانها على البحر الأحمر والحجاز حيث يوجد الحرمان الشريفان في مكة والمدينة، ولم يكن سلاطين مصر يشذوا عن هذا المنطق الذي يفرضه التاريخ وتحتمه الجغرافيا[١٣٨]. وتعهدت مصر بكسوة الكعبة المشرفة وأول من كساها من ملوك مصر بعد بنى العباس الملك الظاهر بيبرس وأول سنة كسا فيها الكعبة سنة إحدى وستين وستمائة (القرن السابع الهجرى) [١٣٩]. وفي سنة ٧٥٠هـ من الهجرة أوقف الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الناصر ابن قلاوون ثلاث قرى من مصر على أن تصنع من ريعها كسوة الكعبة[١٤٠].

يقول وليم موير: " ... وصار الناصر صاحب السلطان على تلك الأماكن المقدسة وكان يمدها بالغلال عن سخاء عندما تصيبها السنون.." كما امتد سلطان مصر غرباً في شمال أفريقية، كما امتد في غيرها من الجهات الأخرى، وقد بقى حاكم طرابلس مدة طويلة يعين من قبله.." (١٤١).

وامتدت زعامة مصر الروحية والتي يلقى قول موير الآتي الضوء على وجهيها حيث يقول: " ... على الرغم من ضعف بعض المماليك كان صيت مصر ذائعاً في الممالك الأخرى حتى إن ملك الهند أرسل للمرة الثانية بعثة تحمل الهدايا والتحف لسلطان مصر كي يحصل منه على اعتراف بملك (ابن طغلوق) وتثبيته من الخليفة الذي كان عظيم الاحترام في الأقطار الإسلامية الأخرى مع أنه لم يكن له شأن ما في مصر.." (١٤٢).

وبهذا تتأكد لدينا فاعلية الأحداث السياسية والتاريخية واختلاف شكل الخريطة السياسية للعالم العربي والإسلامي على المدن في نشأتها أو تطور عمرانها وفي مصر أثرت الأحداث السياسية والتاريخية في شأن الشخصية العمرانية والمصرية التي صهرتها محنة الحروب الصليبية وخرجت منها ومن المحنة المغولية متأثرة بأفول نجم مدن وانحسار العمران فيها لفترة طالت أو قصرت في الوقت الذي نشأت فيه وازدهرت بعض المدن الأخرى التي حالفتها الظروف السياسية والاقتصادية والجغرافية ونظرة إلى القاهرة والفسطاط ودمياط وتنيس والإسكندرية وعيذاب وغيرهم من المدن المصرية تؤكد ما حاولنا الذهاب إليه سابقا.

فلا شك أن الأحداث السياسية الداخلية منها والخارجية من أبرز العوامل التي تؤدى إلى انصراف السلطة إلى الإصلاحات الاجتماعية والعناية بالمرافق العامة والعمرانية، كما أن الصراع السياسي غالباً ما يؤدى إلى صراع اجتماعي يفتت الوحدة الاجتماعية ويترك بصماته الغائرة على العمران(١٤٣). ففي العصر الوسيط حرقت الفسطاط وتدهور عمرانها نتيجة خلاف سياسي بين شاور وضرغام عام ٥٦٥هـ/

١١٦٩م بأمر من شاور حتى لا تقع في يد عمورى ملك بيت المقدس حين طمع في الاستيلاء على مصر(١٤٤).

بعد أن كان للفسطاط شأن كبير في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي فنالت عناية الرحالة الذين تركوا أوصافاً دقيقة خلفتها انطباعاتهم عن هذه المدينة ووصف مظاهر العمران بها مثل المقدسي(ت ٣٩٠هـــ) (١٤٥) والرحالة ناصر خسرو الذي قال: " بمصر بيوتا من أربع عشرة طبقة وبيوتا من سبع طبقات.. وبها جوامع كثيرة وحدائق غناء "(١٤٦) ولكن منذ أواخر القرن الخامس الهجري بدأ الاضمحلال يدب في المدينة نتيجة الأحداث والأزمات السياسية التي تمر بها البلاد بداية من الشدة المستنصرية ٤٤٦هـــ، وقدوم بدر الجمالي واستغلاله مبانى الفسطاط الخالية في تشييد مباني لجنده في القاهر(١٤٧).

كما وجدنا ازدهار المدن وعمرانها ينشط في فترات الاستقرار والأمن وارتبط ذلك ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الدول التي أنشأت أو حكمت هذه المدن ويعكس تبادل مراكز الصدارة بين المدن مراحل ازدهارها فبعد أن كانت بغداد في مركز الصدارة توارت بعد السقوط سنة ٦٥٦هـــ/١٢٥٨م وازدهرت القاهرة وظلت أزهى مدن العصور الوسطى حتى نهاية العصر المملوكي (١٤٨) خاصة بعدما نجحت سياسة المماليك في استغلال التجارة العابرة في أراضيهم بعد تحول التجارة عبر البحر الأحمر، ومصر بسبب حروب المغول فانعكس ذلك على ما عاشته القاهرة من مظاهر الثراء والترف في هذه الفترة تلك المظاهر التي سجلها تاريخ قاهرة المماليك وعكستها آثار العصر المملوكى (١٤٩) وحفظتها لنا كتابات رحالة العصور الوسطى سواء كانوا من الشرق أو الغرب على حد سواء، تلك الحقيقة التي قدمها لنا الرحالة الغربي بيلوتى الكريتي عندما وصف القاهرة بأنها أكبر مدينة في الدنيا وتحدث الرحالة طافور عن القاهرة بنغمة إعجاب مشابهة(١٥٠).

وكانت مصر بمدنها الكبرى من الإسكندرية شمالاً حتى قوص جنوباً محطا لكثير من علماء المغرب والأندلس والرحالة، وممن جاءها في تلك الفترة الخصيبة من تاريخ مصر، مثل ابن دحية المحدث الذي أقام بالقاهرة أيام فترة الكامل الأيوبي وتولى تدريس الحديث بالمدرسة الكاملية وتوفي سنة ٦٣٤هـ، وهو صاحب كتاب " المطرب من شعر أهل المغرب"، وابن سراقة الشاطبي الأندلسي الذي " قدم الديار المصرية وولى المشيخة لدار الحديث الكاملية إلى حين وفاته سنة ٦٦٢هـ/ وكان أحد الأئمة المشهورين بغزارة الفضل وكثرة العلم والجلالة وتفقه على مذهب مالك"[١٥١].

ومنهم ابن سعيد على بن موسى (توفي سنة ٦٧٣هـ) العالم الأديب الذي جاء من المغرب وجال الديار المصرية والشام والعراق، ومنهم ابن عصفور على بن مؤمن النحوي الحضرمي الأشبيلي حامل لواء العربية بالأندلس الذي أقام بالشام في حلب والشريشي محمد بن أحمد النحوى المالكى الأندلسى توفي سنة ٦٨٥هـ جاء من المغرب وطاف البلاد وسمع الحديث ببغداد ودمشق وإربل وحلب والقاهرة وجمع ودرس بمدارس تلك البلاد وألف شرحا جليلا لابن معطى وكتابا في الاشتقاق.

ومنهم ابن جابر الضرير صاحب البديعية المعروفة وكتاب في نقد الشعر وأثير الدين أبو حيان العالم النحوي الأديب المشهور وأبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسيني (توفي سنة ٧٦١هـ) إضافة لهذا كانت القاهرة عامرة بدور العلم والعلماء والمكتبات حافلة بمجالس العلم والأدب وكان اهتمام الناس بالكتب أمرا يسترعى الانتباه فبنى الظاهر بيبرس مدرسته الكبيرة سنة ٦٦١هـ وأنشأ بها خزانة كتب عظيمة وورثت قاهرة المماليك تراثا عامرا من دار الكتب في العصر الأيوبي.

أضف لما سبق الحديث عنه فرار جماعات كثيرة من العلماء تحمل علمها وكتبها عن وجه الزحف التترى المخرب إلى مصر ليلجأوا إليها بذلك التراث الذي تقدسه وتحافظ عليه وتعض عليه بالنواجذ، ولقي أولئك العلماء والرحالة بمصر كل تشجيع من أهلها وحكامها على السواء[١٥٢].

وكان الحال كذلك مع الراحلين عن الأندلس في وجه زحف الفرنجة أو مع الراغبين من علماء المغرب عامة في الحج والوافدين إليها في الطريق يمرون ويزورون وينفعون بعلمهم وكتبهم فيخلفون آثار تروى وتدون.

ثانياً: الصورة التاريخية للعمران المصري في القرنين السادس والسابع الهجريين.

يشير علماء الحضارة والاستقرار البشرى إلى مصر كواحدة من أقدم الجهات – وإن لم تكن أقدمها – التي عمرها الإنسان واستقر فيها الجنس البشرى وثابت على الأقل أنها من أولى الجهات التي عرفت الزراعة المستقرة [١٥٣].

حيث تدل على ذلك حفائر عصر ما قبل التاريخ على ضفاف نهر النيل في مصر حيث وجدت ظاهرة سكنى القرى الزراعية الطينية الكبيرة الحجم وحفائر البدارى ومرمدة بنى سلامة والعمرة والفيوم والمعادى وأبو رواش إنما تمثل مراحل متتابعة لحضارات عصور ما قبل التاريخ وما قبل الأسرات في مصر وكلها حضارات زراعية مستقرة تمثل العصر الحجري الأوسط والحديث[١٥٤].

ولما كان النهر هو واهب الحياة لمصر والمصريين، فقد تركز السكان خلال العصور، وحتى الآن على عموده وفروعه وما تفرع منها من قنوات وبعيدا عنه يقل الناس وتنخفض الكثافة وتتباعد المحلات، وقد يكون القرب من ماء النهر سبباً وجيها للتركز والاحتشاد في بيئة جافة. ولكن النيل لا يجلب الخصب فقد ولكنه [١٥٥].هو فوق كل ذلك طريق بل شارع مصر الرئيسي على جنبات هذا الشارع والشوارع الأخرى المتفرعة عنه أقام المصريون أغلب قراهم ومدنهم، ولكن فوق مستوى مياه الفيضان ترى خرائبها اليوم في شكل أكوام كثيرة تغير من رتابة السطح وتقف شاهدا على قدم العمران واستمراره في مصر[١٥٦].

وقد ساد هذا النوع من أنواع العمران في مصر لعصور طويلة، وفي الواقع فإن الحضارات المتقدمة لعصور ما قبل التاريخ هي التي أعطت الدفعات المتقدمة للحضارات التاريخية القديمة في مصر والسبب في سيادة هذا النوع المركز من العمران في ربوع وادي النيل الأدنى هو طبيعة نهر النيل وانتظام جريانه من الجنوب إلى الشمال وانتظام مواسم فيضانه بدرجة دقيقة جدا تكاد تكون فلكية إن لم تكن كذلك فعلاً، لذلك فإن الرحالة الذين زاروا مصر في العصور الوسطى - وما أكثرهم من الشرق والغرب بسواء - أدركوا أهمية ذلك النهر فكتبوا عنه الكثير يصفون حلاوة مائه وحركة ا لملاحة فيه واحتفال المصريين بوفائه[١٥٧]. وأثره على العمران البشرى، وأسهب الكثير منهم في وصف المعالم العمرانية الواقعة على طول النهر.

وذكر الرحالة " بيلوتى" PILOTIDE CRETE الذي زار مصر في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي:"والنهر واسع للغاية قرب القاهرة لدرجة أن الناس تسميه بحراً..."[١٥٨]. وقد وصفها أحد الرحالة بأنها ثلاثة أمثال باريس[١٥٩]. لذلك ظل نهر النيل على مر العصور الشريان الحيوي " للعمران البشرى في مصر وعصب الحياة فيها بصفة عامة وقد تتابعت على مر العصور صور العمران ومراكز العمران في مصر من قرى كبيرة ونجوع تقع على ضفاف النهر مباشرة وإلى قرى هامشية في أطراف الدلتا شرقاً وغرباً إلى جهات كانت على الضفاف ورحل عنها النهر في حركته التي لا تستقر حيث أحميت فروع رئيسية قديمة للنهر في الدلتا. وذكر البغدادي: ".. أن عمارة أرضهم إنما هي بنيلها.." [١٦٠].

وجميع هذه القرى في الماضي والحاضر ظلت تبنى من الطين ولكن الهندسة في الغالب الأعم واحدة: البيت يتكون من ثلاثة أقسام: الفناء وقسم السكن في ناحية وقسم الماشية في ناحية أخرى [١٦١]. ووجدت طبقات من العمران فوق بعضها ومراكز العمران الجديدة تبنى فوق أطلال وبقايا مراكز عمرانية قديمة (بوباسطة قرب الزقازيق)، (وكيمان فارس غرب مدينة الفيوم) كانت مراكز عمرانية نشيطة جداً

حالياً، هي أطلال وبنيت فوقها توسعات عمرانية جديدة، والأطلال القديمة معروفة في مصر بالكفور، وقد تحدث عنها باستفاضة الشيخ أبي صالح الأرمنى، في القرن السادس الهجري (أخبار نواحي مصر وإقطاعها): " ... ووصف الذي اشتمل عليه عدة النواحي والكفور بأعمال الدولة وغيره مال اقطاعها خارجا عن مدينة الإسكندرية، وثغر دمياط وتنيس وقفط.." (١٦٢). ويقول في موضع آخر متحدثا عن الكفور:" ... ونواحى الكفور ألفا ومائتى وستة وسبعين ناحية وكفور ثمنماية وتسعين كفرا...."(١٦٣).

وتتابع العمران البشرى في مصر فهيكل البناء العمراني في الوادي والدلتا يمكن أن نتصوره على أنه طبقات من بقايا العمران القديم الواحدة فوق الأخرى(١٦٤). وكل طبقة عمرانية تمثل مرحلة تاريخية وحضارية معروفة ولها دلالاتها الخاصة التي تدل عليها وما العمران الحالي الذي ينتشر على سطح الأرض المصرية إلا الطبقة الأخيرة أو الحلقة الأخيرة في هذه السلسلة الطويلة تقع تحتها رقائق لصور من العمران اندثرت تعبر عن مرحلة حضارية وطور من أطوار الحضارة المصرية.

وإذا قيل إن القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي يمثل قمة ازدهار الحضارة العربية فإن العمران كان لا يزال في تطور حتى القرنين السادس والسابع الهجريين مما دعا إلى ظهور مزيد من الكلمات القديمة بمدلولات جديدة لتلائم أشكالاً من العمران لم تكن لها تسميات من قبل كما أوجدت أنواع من العمارة لتلبية حاجات الناس وتواكب الأحداث السياسية والتغيرات الاجتماعية في مسيرة الحضارة العربية والإسلامية في مصر في القرنيين السادس والسابع الهجريين(١٦٥).

والعمران في اللغة منها عمر، والعمارة نقيض الخراب، وعمر بمكان أى أقام به، والمكان العامر مكان ذو عمارة(١٦٦).

وأورد الزمخشرى في أساس البلاغة بأن الله استعمر عباده في الأرض للتعمير، ومنه العمارة وكذلك نزل فلان في معمر صدق، أى في مسكن مرضى معمور[١٦٧]. كما عُرف العمران في كثير من معاجم اللغة العربية، ففي المنجد في اللغة والآداب والعلوم:عرف العمران بالبنيان، وهو اسم لما يعمر بها المكان[١٦٨]. ومعنى العمران كما أورده المعجم هو ما يعمر به البلد ويحسن حاله بواسطة الفلاحة والصناعة والتجارة وكثرة الأهالى[١٦٩]. وقد حدد القلقشندى كلمة العمران وربط بينها وبين العمارة ونشاط الإنسان وسعية[١٧٠]. كما قسمه ياقوت الحموى[١٧١]. في معجمه إلى قسمين:

أولاً: العمران، وهذا ما كتبت فيه كتب المسالك والمسالك في مؤلفات عدة.

ثانياً: المنازل البدوية، وهى ما استحوذ على كتابات الأصمعى والهمذانى.

وناقش ابن خلدون في مقدمته الشهيرة أحوال العمران وتقسيم الأراضي إلى أقاليم طبقا لأحوال المناخ، ويذكر في الفصل العاشر، أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها ويذكر أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم[١٧٢].

وذكر HOUSTON أن العمران هو الحقيقة الأولى في حياة الإنسان وهو مظهر حضارته[١٧٣]. بينما يقول MONKHOUSE: " أن العمران هو أى شكل لسكن الإنسان، وقد يكون ريفيا أو مدنيا[١٧٤] وأورد المسعودي العمران بمعنى "العامر" وهو مقابل " الغامر " أى غير المسكون وكذلك ابن حوقل في صورة الأرض[١٧٥].

ولكن يمكن القول أن مفهوم كلمة العمران أكبر بكثير من الاعتبارات لهيكل المسكن نفسه، وأصبح هذا اللفظ يمتد ليشمل البيئة السكنية والبيئة العامة المحيطة بها فيشمل المسكن وشبكة المرافق العامة والشوارع والحارات[١٧٦]. والعمران في شكله

وتكوينه من أوضح الثوابت الحضارية التي تتألف منها معالم الأرض والدول وهو في حد ذاته مظهر معقد متشابك العلاقات[١٧٧].

وقد عرفه يوسف التونى بأن العمران هو: " ... اصطلاح عام كثيراً ما يستخدمه الجغرافيون لمختلف أنواع ونماذج المساكن البشرية، فيقال عمران ريفي وعمران حضري. كما يقال: ".. عمران مبعثر، وعمران مركز.."[١٧٨]. غير أن كلمة العمران عرفها محمد صبرى بأنها: "... تعنى أكثر من السكن لأنها تمتد لتشمل البيئة السكنية والبيئة المحيطة بها.." [١٧٩]. فالعمران والسكن كلمتان لهما معنى واحد هو الاستقرار البشرى في المكان[١٨٠].

ونجد عبد المنعم ماجد يرى أن العمران اسم بمعان متعددة، منها البنيان والعمارة من العمران، ولكن ابن خلدون يقصد به اصطلاح علمي بمعنى الأحوال في الاجتماع البشرى أو الإنساني[١٨١]. وأن من سمات الاجتماع البشرى هو الحضارة أو التمدن أو المدنية أو التمدين وكلها معايير مترادفة ويصفها بأنها أحوال زائدة عن الضروري من العمران، وبمعنى آخر رفاهة العيش، لذلك لا تظهر في البادية وإنما تظهر في المدن والأمصار والبلدان والقرى، أى في الحضر(١٨٢). ويصل ابن خلدون إلى تحديد كلمة العمران في المقدمة بالشرح المباشر لمعنى الاصطلاح، فالعمران: "... هو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش.." [١٨٣].

إن العمران أحد الموضوعات الجغرافية التي لا نستطيع تفسير الكثير من ظاهراته الحاضرة إلا من خلال دراسة عملية التطور التي مر بها[١٨٤]. فالبحث في كيفية تطور العمران له أهمية بارزة، حيث أنه يقدم لنا تفسيرا واضحا للظواهر الجغرافية ذات المنشأ التاريخي التي لا يمكن تفسيرها في ضوء الظروف الجغرافية السائدة في الوقت الحاضر، ومما لا شك فيه أن إعادة رسم صورة دقيقة للمعالم العمرانية أمر بالغ الصعوبة لا سيما

إذا ما أخذنا التتابع الزمني العمراني في الاعتبار والمشكلة ليست فقط في أن بقايا المحلات العمرانية قد اندثرت أو طمرت، ولكن المشكلة تتمثل أيضاً في أنه على الرغم مما وصل إلينا من بعض الإشارات عن التراتبات العمرانية الكبرى، مثل: مدن العواصم والمراكز الحضرية الكبرى، فإن المراتب الدنيا من محلات العمران غائبة تقريبا[١٨٥].

والخلفية التاريخية للعمران هي المدخل الحقيقي لفهم وتحليل المعالم العمرانية وطبيعة جغرافيتها، وبالتالي تساعدنا على تفسير بعض ملامح من الشخصية الجغرافية الخاصة بمصر، هذا علاوة على أن البعد التاريخي للمحلات العمرانية يكشف عن مدى تلاؤم هذه المحلات العمرانية والظروف الجغرافية التي كانت سائدة في الماضي، وإلى أي مدى تلاءمت مع هذه الظروف واستفادت منها، وهل عاشت أم اندثرت ؟ وبأي الوظائف عملت ؟ وبأي الخصائص اتصفت ؟[١٨٦].

ومن هنا.. فالتاريخ عامل مساعد وأساسي في فهم ماهية العمران بمصر ومدن المشرق العربي والتعرف على شخصية تلك المدن، كما أن دراسة العمران من المنظور التاريخي في فترة من فترات مصر يدخل في إطار دراستنا للتاريخ الاجتماعي الذي يدرس أحوال المجتمع عبر التاريخ سواء من حيث دراسة التركيب الاجتماعي والبناء الطبقي وتاريخ الطبقات والعادات والتقاليد والحرف والصنائع والأسواق والبنيان السكاني والسكنى[١٨٧]. كما تكشف لنا الدراسة العمرانية عن مدى حجم الوضع الاقتصادي للدولة وقوتها السياسية والاقتصادية وتزيح الغبار عن أحوال الناس والمدن والشعوب ودور هؤلاء الناس في كتابة التاريخ،وتوضح لنا الكيفية التي فسر بها الناس الظواهر والكون من حولهم من خلال ما وضعوه من زخارف ونقوش على جدران وأبواب تلك المنشآت العمرانية، كما أن دراسة العمران في فترة من الفترات التاريخية يرجع أهميته أساساً إلى كونه تعبيراً عن نماذج أساسية من الفكر والفن للشعب المصري في مرحلة من مراحل تاريخه، كما أنها تكشف عن الناس – في الفترة موضوع الدراسة–

في أفضل أحوالهم وأسوئها في آن واحد من خلال التباين في المنشآت العمرانية الخاصة بكل فئة من فئات المجتمع المصري في ذلك الوقت.

والعمران هو المسرح الكبير الذي تجلت فوقه خصائص وخصال وأحوال هؤلاء الناس في فترة من أسخن فترات التاريخ الإسلامي بوجه عام والتاريخ المصري بوجه خاص، كما أن العمران يعتبر أحد أشكال الممارسة الثقافية للمجتمع، وهذه الممارسة لا بد أن تكون وليدة الظروف التاريخية لهذا المجتمع من ناحية، كما أنها تأتي استجابة لحاجات اجتماعية/ثقافية في المجتمع من ناحية أخرى، فالعمق والتطور التاريخي ليسا فقط للأنماط العمرانية ولكن لأصحاب هذه الأنماط وسكانها، وأن الأنماط التي نراها اليوم لا يمكن تعليلها أو تفسير اتجاهاتها والتغيرات التي طرأت عليها دون الإلمام بالخلفية التاريخية. والدراسة التاريخية للعمران تعد دراسة أساسية للتعرف على طريقة توزيع هذه الأنماط وانتشارها وأحجام السكان وطريقة البناء المتبعة ووظائف هذه المحلات[١٨٨].

ولأن الرحلة هي عين الجغرافيا المبصرة فقد ساعدت كتابات الرحالة الذين زاروا مصر بالإسهام في الكشف عن بعض مراحل تطور العمران المصري –في الفترة موضوع الدراسة– والخلفية التاريخية للعمران باعتبارهم شهود عيان مما يجعل من هذه الكتابات مصدر مأمون إلى حد كبير للمعلومات الجغرافية والتاريخية من كل نوع وراصدا متميز للحوادث التاريخية والمعالم العمرانية.

وعنى كثير من الرحالة بتحديد موقع الأماكن التي زاروها ومساحتها ومياهها وثرواتها ومناخها وسكانها، ويمكن إجمال ما عنوا بوصفه في المدن بخاصة – مثل ابن جبير – في ثلاث نواح: " المرافق والمشاهد و الأرباض وتضم المرافق في خلده: الأسوار والحصون والمساجد والمدارس والحمامات والمياه والأسواق والمارستانات والمنازل والشوارع والأبواب، وتضم المشاهد: المقابر والموالد وآثار الأنبياء والعلماء والأولياء

والمواقع الإسلامية والمعابد والكنائس والآثار غير الإسلامية، وتضم الأرباض: الأحياء والضواحي[١٨٩].

ويمكن القول إنه لا يوجد واحد من الرحالة – خاصة العرب – أهمل إهمالاً تاماً الحديث عن العمائر والمعالم العمرانية، فالرحالة عبد اللطيف البغدادي جعل الفصل الرابع من مقالته الأولى للآثار والخامس من المقالة نفسها للأبنية والسفن وقد رفع البغدادي من قيمة الآثار ودعا إلى الحرص عليها[١٩٠]. وأظهر البغدادي وغيره الكثير من الرحالة والمؤرخين اهتماما واضحا بوصف المكان والبيئة العمرانية باعتبار أنه بقدر ما تقدمه البيئة من معطيات وما تطرحه من تحديات أمام الإنسان يتحدد شكل الظاهرة التاريخية[١٩١].

بالإضافة إلى الخلفية التي قامت عليها ثقافة المؤرخين والرحالة العرب والمسلمين هي الخلفية الدينية بطبيعة النشأة والتكوين،لذا فإن تصور العرب والمسلمين لدور البيئة في العملية التاريخية لم يخرج بعيداً عما بيَّنه ابن خلدون من أنه:" كيف أن الله خلق الإنسان وقدراته الذاتية أقل كثيراً من قدرات الحيوانات وأن الإنسان كان عليه أن يستخدم عقله في البحث عن وسائل تضمن له القوت والمسكن والملبس والدفاع عن النفس وقد تعيَّن على الإنسان أن يعيش في مجتمع يتعاون أفراده في سبيل هذه المطالب هذا الاجتماع هو الذي يسر للإنسان أن يتفاعل مع بيئته ويصنع تاريخه بيده"[١٩٢]. ولقد لخص ابن خلدون هذا المعنى في قوله: "... فإن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من إعمار العالم لهم واستخلافه إياهم وهذا معنى العمران الذي جعلناه موضوعاً لهذا العلم.."[١٩٣].

وقد أدرك ابن خلدون أهمية العمران في صنع الفعل التاريخي بشكل واضح وأفرد حيزاً كبيرا في مقدمته للحديث عن جغرافية الأرض وأثرها في العمران، ففي حديثه عن الربع الشمالي من الأرض قال أن برودة الجو فيه جعل النشاط الإنساني أكثر: " ... فلذا كان العمران في الربع الشمالي أكثر وأوفر.." بل إن الأهم من ذلك

هو الفصل الذي عقده للحديث عن العمران تحت عنوان: "... في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وفي أخلاقهم.." (١٩٤) كما تحدث عن:"... إنما هو لما نعرفه من عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التي لديك فعظمت لذلك أحوالهم..."(١٩٥).

وعلى أية حال فإن علاقة التاريخ بالجغرافية تكشف عن مدى أهمية البيئة كمسرح للعملية التاريخية فبين التاريخ والجغرافيا من الروابط والصلات ما يفوق أية روابط أو صلات تربط التاريخ بغيره من العلوم الاجتماعية، وثمة مؤلفات تاريخية كثيرة في تاريخ كتابة التاريخ حازت شهرتها لأنها اعتمدت بشكل أساسي على خلفية من المعلومات الجغرافية عن الأماكن التي شهدت الأحداث التاريخية التي تعرضت لها هذه المؤلفات(١٩٦).

وخلاصة القول؛ العمران هو أحد الأنماط الجغرافية الذي نشأ نتيجة تطور الظروف التاريخية للمجتمع من ناحية، كما أنه يأتي استجابة لحاجات اجتماعية/ثقافية في المجتمع من ناحية أخرى.

وقد تضمنت كتب تاريخ الاجتماع السياسي عادة " أبواباً" خاصة بالعمران توضح الأسس والنظريات التي قام عليها العمران، ويدل على إدراك الفكر العربي لأسباب العمران وازدهاره وأسباب انحلاله وضعفه في إطار يربط ببراعة بين الشكل المادي والهيئة الاجتماعية ربطا عضويا يكشف عن نضج في الفكر وارتقاء في المستوى الحضاري.

وجسد القزويني في مقدمته لكتابه" آثار البلاد وأخبار العباد" مثل هذا المعنى بقوله: ".. خلق الله الإنسان على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده كسائر الحيوانات بل يضطر إلى الاجتماع بغيره حتى يحصل الهيئة الاجتماعية.. فألهمهم الله تعالى اتخاذ السور والخندق والفصيل فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار... واتخذوا للمدن سورا

حصينا مانعا وللسور أبواباً عدة حتى لا يتزاحم الناس.. وفي البلاد الإسلامية المساجد والجوامع والأسواق والخانات والحمامات.. وتركوا بقية مساكنها لدور السكان فأكثر ما بناها الملوك العظماء على هذه الهيئة ... وأحدث بها أهلها عمارات عجيبة ونشأ بها أناس فاقوا أمثالهم في العلوم والأخلاق والصناعات[١٩٧].

وأورد الرحالة ابن الأزرق الأندلسي ما قرره ابن خلدون: " أن الدولة والملك للعمران بمنزلة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ لنوعه ولوجودها وانفكاك أحدهما عن الأخرى غير ممكن، فالدولة دون العمران لا تتصور والعمران دونها متعذر واختلال احدهما مستلزم لاختلال الآخر، كما أن عدمه مؤثر في عدمه واعتبر الرحالة ابن الأزرق العمران وتكثير العمارة هو الركن الخامس من أركان الملك وقواعده وأورد ذلك في الكتاب الثاني تحت عنوان في الملك وقواعد مبناه ضرورة وكمالا وجعل العمارة والعمران في الأفعال التي تقام بها صورة الملك ووجوده[١٩٨].

ويلاحظ أن العلاقة بين تطور الإنسان وحركة العمران علاقة جدلية، فكلما حدث التغير الإنساني وتقدمه حدث تطور عمراني مماثل ومعبر عن هذا التغير، فالإنسان والعمران يتطوران معا، أو على حد قول راتزل فإن:"..كل مشكلة جغرافية يجب أن تدرس تاريخيا، كما أن كل مشكلة تاريخية يجب أن تدرس جغرافيا.." [١٩٩].

فلا شك أن البيئة الجغرافية التي ينشأ فيها شعب من الشعوب له أثر كبير في الشكل الحضاري الذي ينشئه لأن الإنسان يأخذ مادة حضارته مما حوله[٢٠٠].ويتأثر بها.

وقد كان للعامل الجغرافي أثر في دفع شعوب أوربا التي كانت ترزح تحت رحمة الطبيعة إلى حد بعيد في التوجه نحو المشرق العربي بعد أن أخذت أوربا توقن بأن طاقتها الحضارية النامية أكبر من أن تستوعبها أراضيها الضيقة فأخذت تسعى لإيجاد منافذ خارجية لها[٢٠١]. في الأرض التي وصفها الكتاب المقدس بأنها الأرض التي تفيض باللبن والعسل[٢٠٢]. وهنا تدخلت الكنيسة في حث النصارى على غزو أراضي المسلمين

وكان الشائع أنها أغنى بمراحل من بلاد أوربا فكانت هذه العوامل من أكبر الدوافع إلى حركة الرحلات الصليبية الكبرى أو ما يسمى حديثاً بالحروب الصليبية، وقد بعث هذا كله في الكيان الأوروبي الغربي نشاطا بدنيا وفكريا واسعا بعد وقوف الغرب على مناهل الحضارة العربية وهو التمهيد لما عرف بالنهضة الأوربية[٢٠٣]. وهكذا يتضح لنا أثر الجغرافية والعمران على التغيير والتطور الإنساني.

ومن ناحية أخرى يلاحظ المتتبع لتاريخ المدن سواء في مصر أو بلدان المشرق العربي أن التطور الإنساني والحضاري للعرب وظهور الإسلام في حياتهم وانطلاقهم كقوة سياسية جديدة على خريطة العالم كان له أثره الواضح في تطور العمران وظهور مدن عربية كانت بمثابة مراكز حضارية حملت لواء الحضارة، مثل بغداد والقاهرة، ودمشق وغيرهم الكثير مما يؤكد لنا بوضوح أثر التحرك الإنساني في إحداث تغير عمراني مماثل.

ويروى لنا أدب العمران المصري قصة الحضارة المصرية الإسلامية والعربية التي شهدتها مرحلة وضوح الشخصية المصرية في أدبها العربي في مختلف الآثار العمرانية بما فيها من إنشاء المدن وإقامة الأسوار وتشييد القصور ومرافق الحياة العامة وبناء دور العبادة والعلم.

وساهم الرحالة الوافدون والأدباء الذين استرعى انتباههم ما في مصر من أبنية مختلفة فيه تسجيل طرف من أخبارها ووصفوا هذه الآثار، وكانت القاهرة في مقدمة انتباه هؤلاء الأدباء والرحالة، فهي عامرة منذ ولادتها بالمباهج والمسرات مكتظة بسكانها مزدحمة بالمارة في طرقاتها الضيقة، وقد ألقى قول الرحالة ابن سعيد الأندلسي الآتي الضوء على هذه المعاني بقوله:

يقولون: سافر إلى القاهـــــرة ومالي بها راحة ظاهـــرة

زحام وضيق وكرب ومـــــــا تثير بها أرجل السائـــرة[٢٠٤].

رغم ذلك فقد انتقل الرحالة الأندلسي إلى وصف القاهرة بكلمات مديح معتدلة حين وقف أمام حاضرة الخلافة الإسلامية قائلاً: ".. القاهرة هي أكثر عمارة واحتراماً وأضخم خانات وأعظم دثار لسكنى الأمراء فيها لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر..."(٢٠٥).

وانطلق الرحالة والأدباء نحو مصر يتجولون في مختلف أرجائها ناقلين مشاهد من أقصى الشمال وأخرى من أقصى الجنوب مدللين على عمران المدن المصرية وضخامتها فيصور لنا أحدهم الإسكندرية بموقعها وآثارها وقصورها وأسوارها وما يعكسه في نفوسنا جمالها الساحر البديع:

أرى الإسكندرية ذات حسن — بديع ما عليه من مزيـــد
وكم قصر بها أضحى كحصن — منيع لا كزرب من جريد
لها سور إذا لاقى الأعادي — يقابلهم بوجه من حديد(٢٠٦).

وقد سجل كثير من الشعراء والأدباء الذين زاروا مصر في تلك الفترة بعض أسماء المدن ولاسيما التي مروا بها أو أقاموا فيها وفي آثار بني أمية بن عبد العزيز وابن سعيد الأندلسي وعمارة اليمني والعماد الأصفهاني نماذج كثيرة لهذه الظاهرة(٢٠٧).

هوامش الفصل الثاني

١- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ص ١٧٧، ١٧٨.

٢- عبد الوهاب زيتون: الحروب الصليبية هل انتهت، ط١، دار المعرفة، دمشق،١٩٩٢، ص١١٩، والمؤلف نفسه: العصر العباسي، دار المعرفة، دمشق، ١٩٨٢، ص١١٧.

٣- قاسم عبده قاسم: الحملة الصليبية الأولى " نصوص ووثائق " العربية للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٨٥، ص ص ٧٣ – ٩٣.

٤- البدراوى زهران: الصراع اللغوي في عصر الحروب الصليبية، س كتابك، ع ١٦٣، دار المعارف، ص١٢.

٥- نورمان ف. كانتور: التاريخ الوسيط، قصة حضارة البداية والنهاية، القسم الثاني، ترجمة: قاسم عبده قاسم، ط٢، دار المعارف، القاهرة،١٩٨٦، ص ٣٩٢.
٦- محمد عبد الله عثمان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، س مكتبة الأسرة، القاهرة،١٩٩٧، ص١١٩.
٧- محمد مصطفى زيادة وآخرون: كفاحنا ضد الغزاة، منشورات وزارة الأرشاد القومى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،١٩٥٧، ص ص٢٠٥، ٢٣٨.
٨- محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص١٢٦.
٩- شوقي ضعيف:الرحلات، ط٢، دار المعارف، القاهرة،١٩٧٩، ص٧١.
١٠- سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة،١٩٧٠، ص١٣٨.
١١- جمال الدين الشيال: دراسات في التاريخ الإسلامي الجاسوسية في حروب بنى أيوب-، دار الثقافة، بيروت، ص٧٣.
١٢- ابن جبير: أبي الحسن محمد بن أحمد -، رحلة ابن جبير، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة بمصر، القاهرة، ١٩٠٨، ص ٨.
١٣- زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ١٣٣.
١٤- العبدرى: رحلة العبدرى، مصدر سابق، ص ٢١٦.
١٥- عثمان موافى: لون من أدب الرحلات، مرجع سابق، ص ٢٥.
١٦- أمين بسيونى: مصر الدور، س مصر الحضارة، الهيئة المصرية، القاهرة،١٩٨٦، ص٢١.
١٧- محمد غريب جودة: موجز تاريخ العالم، س مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص١٠٢.
١٨- يوشع براور: عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده قاسم، محمد خليفة حسن، ط١، عين للدراسات، القاهرة ١٩٩٩، ص٤٧.
١٩- سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، الجزء الأول، ط أولى، الأنجلو المصرية، القاهرة،١٩٦٣، ص٢٤٣.
٢٠- قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، دراسة عن الحملة الأولى ١٠٩٥-١٠٩٩م، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص١٤.
٢١- ممدوح حليم:الكتاب المقدس ينبوع الخلاص، دار القديس يوحنا الحبيب، القاهرة ١٩٩٩م،ص١٢.

٢٢- قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية، مرجع سابق، ص ١٤.
٢٣- قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، مرجع سابق، ١٦٨.
٢٤- المرجع السابق، ص ١٩١.
٢٥- بيريل سمالى: المؤرخون في العصور الوسطى، ترجمة: قاسم عبده قاسم، ط٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤، ص ص ١٢٧، ١٢٩.
٢٦- حمد بن صالح السحيبانى: الضعف المعنوى وأثره في سقوط الأمم، عصر ملوك الطوائف في الأندلس، ط أولى، الرياض، ٢٠٠٢م، ص ٨.
٢٧- سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، مرجع سابق، ص ٢٨٥.
٢٨- المرجع السابق: ص ٣٠٣.
٢٩- حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد القاهرة، ١٩٩٢، ص ٤٣٧.
٣٠- زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون، مرجع سابق، ص٦٥.
٣١- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ١٤٦.
٣٢- على السيد على، قاسم عبده قاسم: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسى والعسكرى، ط٢، دار عين، القاهرة،١٩٩٦، ص ٦٤.
٣٣- سيد على الحريري: الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ط٢، مطبعة النيل، القاهرة، ١٩١١م، ص٢١٩ - ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص ص ٨٥٤، ٨٥٥.
٣٤- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، دار عين، القاهرة، ١٩٩٣، ص ص ١٠٢، ٢٢٦.
٣٥- البدراوى زهران: مرجع سابق، ص٥٤.
٣٦- المرجع السابق، ص ٥٥.
٣٧- ابن خلدون:(المقدمة) الفصل السادس والعشرون، ص ص ٤١٠، ٤١١.
٣٨- ابن بطوطة: الرحلة، مصدر سابق، ص ٢١٧.
٣٩- ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، مصدر سابق، جـ١، ص ص ١٨، ١٩.
٤٠- ابن كثير:البداية والنهاية، جـ١٢، ص ٨٣٩، انظر: قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب،ص١٤٦.
٤١- ابن جبير: الرحلة، طبعة بيروت، ص ٥٧.
٤٢- البدراوى زهران: مرجع سابق، ص ٥٥.

٤٣- المرجع السابق، ص ٥٦.

٤٤- سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية،جـ٢، ط١، الأنجلو، القاهرة، ١٩٦٣، ص٨٤٠.

٤٥-قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص١٤٨.

٤٦- سيد على الحريري: الأخبار السنية، ص ٢٩٢، وانظر: الحريري: أحمد بن على الحريري-: الأعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، دمشق ١٩٨١، ص ص ٨٢، ٨٣.

٤٧- محمد مختار باشا: التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية، تحقيق محمد عمارة، ط ١، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٦٢١.

٤٨- حسين مؤنس: الحضارة، مرجع سابق، ص ص ١١٧، ١١٩.

٤٩- البغدادى: الإفادة والاعتبار، ص١٣٣.

٥٠- حسنين توفيق إبراهيم: العنف السياسى في مصر دراسة ضمن كتاب ظاهرة العنف السياسي من منظور مقارن، تحرير نيفين عبد المنعم، الطبعة الأولى، مركز البحوث والدراسات السياسية، بجامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٩٥، ص٤١٤.

٥١- أبو عبد الفتاح على بن حاج: فصل الكلام في مواجهة ظلم الحكام، الطبعة الأولى، دار العقاب، بيروت، ١٩٩٤، ص١٢٧.

٥٢- على عبد الرازق: الإسلام وأصول الحكم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص٢. وانظر: عبد الرازق أحمد السنهورى: أصول الحكم في الإسلام، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٨، ص٤١.

٥٣- أخبار الأول فيمن تصرف في مصر: مصدر سابق، ص٧.

٥٤- سيد عشماوى: الجماعات الهامشية، ص٦٧.

٥٥- إبراهيم شعلان: الشعب المصري، ص٨١.

٥٦- فريد طه: القلوني واقفا، مطبوعات قصر ثقافة الشرقية، الزقازيق، ١٩٩٩، ص٤٢.

٥٧- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص١٥٠.

٥٨- التوقعات الإلهامية: مرجع سابق، ص ٦٢٤.

٥٩- المرجع السابق، ص ٦٢٧.

٦٠- نفس المرجع، ص ٦٢٩.

٦١- عبد اللطيف البغدادى: الرحلة، مصدر سابق، ص ص ١٤١، ١٤٢.

٦٢- المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة، مصدر سابق، ص ٥٨.

٦٣- الحريري (أحمد بن على): الاعلام والتبيين، مصدر سابق، ص ٩٣.

٦٤- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب، ص ١٥١.

٦٥- التوفيقات الإلهامية: ص ٦٣٢.

٦٦- ابن الأثير أبو الحسن على بن أبي الكرم- ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م-: الكامل في التاريخ، جـ٩، القاهرة، ١٩٧٣، ص ص ٢٦٣، ٢٦٤.

٦٧- التوفيقات الإلهامية: ص ٦٣٣، انظر: حسن المحاضرة للسيوطى، جـ٢، ص ٢٩٣.

٦٨- ابن جبير: الرحلة، طبعة بيروت، ص ص ٢٧٧، ٢٧٨.

٦٩- السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٢٩٣، التوفيقات الإلهامية، مرجع سابق،ص٦٣٤.

٧٠- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٩، ص ص ٢٦٥، ٢٦٦.

٧١- المصدر السابق، ص ٢٦٥.

٧٢- الحريري أحمد بن على الحريري-: الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق: سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، دمشق، ١٩٨١، ص ٩٢، وانظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٩، ص ص ٣١٥، ٣١٨.

٧٣- التوفيقات الإلهامية، جـ١، ص ٦٤٩.

٧٤- المرجع السابق، ٦٥٠.

٧٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٩، ص ص ٣١٧، ٣١٨.

٧٦- أبو عبيد البكرى: المسالك والممالك، ورقة ١٢.

٧٧- اليعقوبي: كتاب البلدان، ص ١٣٨، ابن خردابة:المسالك والممالك، ص٨٢.

٧٨- الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف) (ت٣٥٠هـ/٩٦١م)، كتاب الولاه وكتاب القضاه، بيروت ١٩٠٨، ص ص ٢٠١، ٢٠٢.

٧٩- المصدر السابق، ص ٢٠٢.

٨٠-جمال حمدان: شخصية مصر، مرجع سابق، ص ١٦٩.

٨١- البدراوى زهران: مرجع سابق، ص ٥٢.

٨٢- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ص ١٦٠، ١٦١، وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية،جـ٢، ص ١٠١٢.

٨٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٩، ص ٣٧٨.
٨٤- سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ص ١٠١٢، ١٠١٣.
٨٥- سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٨٠٠.
٨٦- المرجع السابق: نفس الصفحة.
٨٧- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ١٦٩.
٨٨- التوفيقات الإلهامية، جـ١، ص ٦٦٨.
٨٩- المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، تحقيق زيادة ص ٢٦٨ - ٣٠٠ - انظر: التوفيقات الإلهامية، جـ١، ص ص ٦٦٩، ٦٧١.
٩٠- ابن سعيد الأندلسى: المغرب في حلى المغرب، مصدر سابق، ص ص ٧، ٨، السيوطى: حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٣٨٣.
٩١- ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العرينى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩، جـ٣، ص٣٩٣.
٩٢- التقريزى: السلوك، جـ١، ق٢، ص ٣١٦.
٩٣- يوسف الياس الدبس: من تاريخ سوريا الدنيوى والدينى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥م/١٤١٦هـ، جـ٦، ص ٢٥٦.
٩٤- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب، ص ١٦٢.
٩٥- مفرج الكروب، جـ٥، ص ٣٥١، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٣٣٤.
٩٦- من تاريخ سوريا: جـ٥، ص ٢٥٩.
٩٧- رنسيمان : الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٤٤٩.
٩٨- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب، ص ١٦٣، انظر: جوزيف نسيم يوسف: لويس التاسع في الشرق الأوسط ١٢٥٠ - ١٢٥٤م، ط١، الأنجلو، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٦٤.
٩٩- المقريزى: السلوك، جـ١، ص ٣٣٥ - ٣٣٦.
١٠٠- ماهية الحروب الصليبية، ص ١٦٥.
١٠١- المقريزى: السلوك، جـ١، ص ٣٣٥ - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٣٤٠.
١٠٢- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ٢٠.
١٠٣- ابن خلدون: المقدمة - الباب الخامس من الكتاب الأول- الفصل العشرون، ص ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

١٠٤- ابن دقماق: الانتصار، جـ٥، ص ٨١.

١٠٥- ياقوت الحموى: معجم البلدان، م٤، ص ٨٦.

١٠٦- القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٠٢.

١٠٧- الحريري (أحمد بن على الحريري): الإعلام والتبيين، مصدر سابق، ص ١٥١.

١٠٨- قاسم عبده قاسم:دراسات في تاريخ مصر الاجتماعى، ط٢،دار المعارف، القاهرة،١٩٨٣، ص ١١١.

١٠٩- المقريزى: السلوك، جـ١، ص ٤٠٤.

١١٠- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ص ١٥ - ٢٧.

١١١- عبد الرحمن ابن خلدون: الرحلة، مصدر سابق، ص ٢٧٩.

١١٢- العبدرى: الرحلة، مصدر سابق، ص ٢٨٠.

١١٣- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٣٦، وانظر المقريزى: السلوك، جـ٤، ص ص١١٨٩-١١٩٠.

١١٤- النجوم الزاهرة ٧٢ - البداية والنهاية، ٢١٥ - بدائع الزهور ٣٠١.

١١٥- السلوك ٤١٧ - الصين ٢٢٠، بدائع الزهور ٣٠١.

١١٦- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٤.

١١٧- عصر سلاطين المماليك، ص٤٥.

١١٨- فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية بين المغول في الدولة المملوكية الأولى، دار المعارف، القاهرة،١٩٧٤، ص٥٤.

١١٩- عصر سلاطين المماليك، ص ٥٨.

١٢٠- اليافعى: أبو محمد عبد الله بن أسعد بن على بن أسعد بن على بن سليما - ت٧٦٨هـ-، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما تيسر من حوادث الزمان، جـ٤، منشورات مؤسسة الأعلمى، بيروت، ١٩٨١، ص ١٣٩.

١٢١- عصام محمد شبارو: السلاطين في المشرق العربى معالم دورهم السياسى والحضارى، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤، ص ٥٧.

١٢٢- عصر سلاطين المماليك، ص ٢٢٠.

١٢٣- خالد أبو صالح: في مواجهة التتار، الطبعة الأولى، دار الوطن، الرياض،١٤١٨هـ/، ص٢٤.

١٢٤- علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٥٤، ص ١٧٤.
١٢٥- سعيد عاشور: الحركة الصليبية،جـ٢، ص ٨٩٨.
١٢٦- قاسم عبده:عصر سلاطين المماليك، ص ص ٧٠، ٧١، سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ص٩٠٠، ٩٠٣.
١٢٧- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٧، ص ٨٦.
١٢٨- ابن إياس: البدائع، جـ١، قسم ١، ص ٣٠٩.
١٢٩- سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، س تاريخ المصريين، ع ٢٠٧، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٤١.
١٣٠- علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، ص ٧٠ - قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٩٠.
١٣١- سعيد عاشور: المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك، ط٢، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١١.
١٣٢- السيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن -، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ٢، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٢٣٧.
١٣٣- السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جـ٢، القاهرة، ١٩٠٨، ص ٦٥.
١٣٤- القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٦٧.
١٣٥- المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٢٢٨.
١٣٦- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ١٩٠.
١٣٧- ابن الأزرق أبو عبد الله محمد بن الأزرق الأندلسي- ت٨٩٦هـ/١٤٩١م-: بدائع السلك في طبائع الملك، الجزء الأول، دراسة وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، تونس،١٩٧٧، ص ص ٢٢٣: ٢٢٥.
١٣٨- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ص ٩٠، ٩٢.
١٣٩- ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٨٩ ؛ المقريزى: السلوك، جـ١، ص ٥١٢.
١٤٠- أحمد عبد الغفور عطار: الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم، بيروت، ١٩٧٧، ص ص ١٥٠، ١٥٢.
١٤١- نقلاً عن:البدراوى زهران: الصراع اللغوي، ص ص ٥١، ٥٢.
١٤٢- المرجع السابق، ص ٥٣.

١٤٣- محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ٣٢٣.

١٤٤- المقريزى: الخطط، جـ١، ص ص ٣٣٥، ٣٣٧ ؛ القلقشندى: صحيح الأعشى، جـ٣، ص ص ٣٣٧، ٣٣٨.

١٤٥- المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ص ٣٧، ١٩٨.

١٤٦- ناصر خسروا: سفر نامة، مصدر سابق، ص ص ٥٨، ٥٩.

١٤٧- المقريزى: الخطط، جـ١، ص ص ٣٣٥، ٣٣٧.

١٤٨- محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ٣٢٣.

١٤٩- المرجع السابق، ص ٣٢٥.

١٥٠- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ص ٢١٩، ٢٢٣.

١٥١- النجوم الزاهرة، جـ ٧، ص ٢١٦.

١٥٢- محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي، جـ١، مرجع سابق، ص ص ١٠٠٨،١٠٥.

١٥٣- عبد الفتاح محمد وهيبة: جغرافية العمران، سلسلة الكتب الجغرافية، منشأة المعارف، الإسكندرية، بدون تاريخ، ص ٢٥٧.

١٥٤- طلعت أحمد محمد عبده: الجغرافيا التاريخية في البلايستوسين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٥٤، وما بعدها.

١٥٥- عبد الفتاح محمد وهيبة: الجغرافية التاريخية بين النظرية والتطبيق، دار النهضة العربية، بيروت،١٩٨٠، ص ص ٢٢١، ٢٢٣.

١٥٦- Nolz, R. " Man – Modeland Forms is Thevile Delta. Geog. Rev. April, 1969 , p. 253.

١٥٧- قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٨٧٨، ص ١٢٧.

١٥٨- DoopP.H-:L'Egypt au Commencement du quanzieme siecle" Lec Caire 1950- , p.3.

١٥٩- Carre Jean –Marie-:Voyageurs et ecrivains Fracais en Egypte , Le Carie 156 , p. 4-6.

١٦٠- عبد اللطيف البغدادى: الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر: تقديم:عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٥٨.
١٦١- حسين مؤنس: الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٣٧، الطبعة الثانية، الكويت، ١٩٩٨، ص ٣٧٤.
١٦٢- أبي صالح الأرمنى: أخبار نواحى مصر وأقطاعها، مخطوط بمكتبة الإسكندرية، رقم الحفاظ ٩٥٢٩ ج تاريخ، تسلسل ١٣٣، ص ٧.
١٦٣- المصدر السابق: ص٨.
١٦٤- طلعت أحمد عبده، مرجع سابق، ص ٥٥.
١٦٥- آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة في الإسلام ؛ ترجمة: محمد عبد الهادى أبو ريدة: الجزء الثاني، سلسلة الألف كتاب الثاني، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣، صفحات متنوعة.
١٦٦- قواميس اللغة، تهذيب اللغة الأزهرى، القاموس المحيط للفيروز أبادى، لسان العرب لابن منظور.
١٦٧- الزمخشرى: جار الله أبي القاسم محمود بن عمر -:أساس البلاغة، الجزء الثاني، مركز تحقيق التراث، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٤١.
١٦٨- المنجد في اللغة والآداب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٦، ص ٥٢٩.
١٦٩- إبراهيم مصطفى وآخرون:المعجم الوسيط، الجزء الثاني، مجمع اللغة العربية، ١٩٦٦، ص ٦٢٣.
١٧٠- القلقشندى شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على - ت ٨٢١هـ/١٤١١م- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزءا، القاهرة، ١٩١٣، الجزء الثالث، ص ٤٠٤.
١٧١- ياقوت الحموى شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومنى- ت٦٢٦هـ- معجم البلدان، خمس مجلدات، طبعة بيروت، سنة ١٩٥٥، صفحات مختلفة.
١٧٢- ابن خلدون:المختار من المقدمة، سلسلة مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة، القاهرة،١٩٩٧، ص٦٣.
١٧٣- Houston, J.M.A. Social Geography of Europe, London 1953, p.80.

١٧٤- Monk House, E.J. A. Dictionary of Geography, London, 1940, p. 314.

١٧٥- ابن حوقل: صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٣٠.

١٧٦- أحمد البدوى محمد الشريعى: دراسات في جغرافية العمران، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٩٥، ص١٥.

١٧٧- المرجع السابق، ص١٩.

١٧٨- يوسف تونى: معجم المصطلحات الجغرافية، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٣٥١.

١٧٩- محمد صبرى عبد الحميد إسماعيل: مركز بنها دراسة في جغرافية العمران الريفى، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية البنات، عين شمس، ١٩٨٨،ص٢.

١٨٠- فتحى إبراهيم شلبى: مركز الباجور دراسة في جغرافية العمران الريفى، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الزقازيق، فرع بنها، ١٩٩٣، ص٥.

١٨١- عبد المنعم ماجد:العمران نظرية لابن خلدون في تفسير التاريخ بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ١٤١.

١٨٢- المرجع السابق، ص ١٤٣.

١٨٣- سفتيلانا باتسيفا: العمران البشرى في مقدمة ابن خلدون، ترجمة: رضوان إبراهيم، الطبعة الأولى، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٥٧.

١٨٤- فتحى إبراهيم شلبى، المرجع السابق، ص ٤.

١٨٥- أحمد البدوى محمد الشريعى: المحلات العمرانية على ترعة بحر مويس دراسة كرتوجرافية، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب الزقازيق، ١٩٨٧، ص ١٤.

١٨٦- المرجع السابق، ص ص ١٤، ١٥.

١٨٧- قاسم عبده قاسم:بين التاريخ والفولكلور، ط الثانية،عين للدراسات والبحوث، القاهرة،١٩٩٨، ص٧٧.

١٨٨- أحمد الشريعى، رسالة دكتوراه، مرجع سابق، ص ١٦.

١٨٩- حسين مؤنس:آدب الرحلات،المطبعة الأولى، مكتبة لبنان،القاهرة،١٩٩٩١م،ص ص ١١٧، ١١٨.

١٩٠- المرجع السابق، ص ١٢٤.

١٩١- قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ قراءة في التراث التاريخى العربى، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة،١٩٨٥، ص ٤١.

١٩٢- المرجع السابق، ص ٤٨.

١٩٣- ابن خلدون: مصدر سابق، ص ٢٦.

١٩٤- الرؤية الحضارية، المرجع السابق، ص ٤٩.

١٩٥- سفتيلانا باتسييفا: العمران البشرى، مرجع سابق، ص ١٨٨.

١٩٦- المرجع السابق، ص ٥٠.

١٩٧- القزوينى زكرياء بن محمد بن محمود القزوينى -: آثار البلاد وأخبار العباد، الجزء الأول، الطبعة الأولى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٨.

١٩٨- ابن الأزرق: بدائع السلك، مصدر سابق، ص ٢٢٣.

١٩٩- هارى إلمر بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة: محمد عبد الرحمن، جـ٢، القاهرة،١٩٨٧، ص ١٩٨.

٢٠٠- حسين مؤنس: الحضارة، ص ٣١.

٢٠١- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ٥٨.

٢٠٢- انظر: الحروب الصليبية – نصوص ووثائق، ص ص ٨٠ -٩١.

٢٠٣- حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٣٧.

٢٠٤- ابن سعيد الأندلسى: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ص ٢٥.

٢٠٥- المصدر السابق، ص ٢٧.

٢٠٦- ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، ص ٣١٣.

٢٠٧- أحمد سيد: الشخصية المصرية،مرجع سابق، ض ١٦٣.

الفصل الثالث

مدلولات العمران ومكونات المدن المصرية

أولاً: مدلولات العمران واتساع مفهوم المدنية في مصر في القرنين السادس والسابع الهجريين:

منذ صدر الإسلام رأينا العرب يخططون الأمصار والقصبات والمدن وينشئونها، وقد اندثر بعضها أو قلت أهميته، في حين ازدهر بعض آخر وتطور إلى مدن كبرى وأصبحت منائر إشعاع للحضارة الإسلامية والعربية.

وفى مصر كانت الفسطاط أولى المدن العربية الأفريقية، وقد أسسها عمرو بن العاص (٢١هـ/٦٤١م) بمعاونة بعض قادته الذين قاموا بتخطيطها ثم بنى صالح بن على العباسي على أيام السفاح " العسكر" في شمال الفسطاط (١٣٣هـ/٧٥٠م) وشيد أحمد بن طولون " القطائع " (٢٥٦هـ/٨٧٠م) ثم أنشأ جوهر القائد الفاطمي مدينة القاهرة(٣٥٨هـ/٩٦٩م) التي أصبحت منذ ذلك الحين قلب الديار الإسلامية وسور العرب العظيم الذي يزود عن الثقافة العربية والإسلامية[١].

واعتنى علماء المسلمين والعرب بتدوين المدينة العربية والتراتيب الإدارية والممالك الإسلامية ومسالكها وبينوا أحوالها وأشكالها، وتحدثوا عن المدن والحواضر ومراكز الاستقرار وقارنوا بينها وعرضوا أحجامها وطبقاتها وأشباهها ونظائرها وأظهروا في ذلك تفنناً في التفصيل والتوصيل، ولقد ساعدهم في ذلك أنهم كانوا بحارا في الشرعيات والعقليات والحسابيات والسياسيات فأسسوا فرائدهم وعرضوها بإيجاز وإعجاز وكان للرحالة المسلمين والعرب نصيب وافر في ذلك الأمر[٢].

والعمران وما يتعلق منه بالمدن والحواضر والقرى ودرجاتها ومواقعها وشروط إنشائها وخططها ومسمياتها ونحو ذلك قد لاقى اهتماماً كبيراً عندهم يدفعهم إلى ذلك

كون الاستقرار والتحضر ضرورة دينية ودنيوية تستدعى المعرفة بأحوال الحواضر وسماتها مما لا يتم الواجب إلا بها[٣].

كما أنها تأتى من ضرورات الفقه الإسلامي والمطلع على أبواب الفقه الإسلامي خاصة تلك التي تعنى بتحديد المدن وأبعادها العمرانية والحضرية يجد أنها تتعلق بأحكام شرعية، فعلى سبيل المثال في باب القضاء يتحدث الفقهاء عن سبيل تعيين القضاة فيحتاج ذلك الأمر إلى معرفة الأمصار والبلاد وعمرانها وحدودها بدقة فقال صاحب "منار السبيل": " في تعيين القضاة" وأن يعين له ما يوليه" فيه الحكم من عمل وهو ما يجمع بلادا وقرى متفرقة كمصر ونواحيها أو العراق ونواحيه وبلد كمكة والمدينة ليعلم محل ولايته فيحكم فيه دون غيره[٤]. وقال عن الأطعمة: "وتجب ضيافة المسلم على المسلم في القرى دون الأمصار يوما وليلة وتستحب ثلاثاً.. "[٥].

وقد اتضح أن لفظ مدينة ورد بالقرآن الكريم في أربعة عشر موضعاً، كما ورد لفظ المدائن في ثلاثة مواضع كما ورد لفظ القرية في ستة وخمسين موضعاً وقد وردت لفظ المدينة بمعنى يثرب " المدينة المنورة" في أربعة مواضع في الآيات ١٠١، ١٢٠ من سورة التوبة، والآية ٥٦ من سورة الأحزاب، والآية ٨ من سورة المنافقين، ووردت بموقع غير معلوم على وجه التحديد في ثلاثة مواضع[٦].

لقد سيطرت روح الإسلام علي ما انتجه الفكر وأبداعته اليد الماهرة:يد الفنان التي خدمت طبيعة المجتمع واستجابت لعنصري الزمان والمكان في الفكر العربي الإسلامي ، وفيما أبدع هذا الفكر من فنون العمارة ووضع الحلول العلمية لمشكلة الفراغ أو الفضاء في التصور الفني وإخضاع الإشكال المعمارية والعمرانية إلى الأبعاد المستوحاة من روح الإسلام وفلسفته وفهمه لمعنى التجاوز الأرضي نحو المطلق ، فجعل للفضاء اهمية بنائية باعتباره عنصراً من عناصر العمران يحمل رمزها في التعبير من خلال الاختلاف أو التطابق ، الفراغ والامتلاء ، رموز الحياة والموت والبعث ..تتم كل هذه

الأمور وتسقط في رؤى التاريخ الدائم الحضور ..وكان لانسحاب رؤى الزمن على شروط وطبيعة الشخصية العربية دليل قل أن نجد له شبيهاً في تاريخ فنون وحضارات العالم القديم ، لقد أوجد الفكر العربي حلولاً لتخطيط البيئة من قرى ومدن وحواضر بمساجدها وأسواقها ومنازلها ، ودرس الظروف المناخية والنفسية التي تتكيف مع الحاجة الاجتماعية ومتطلبات الحياة اليومية .[٧]

كما تحدث الرحالة العرب والعلماء المسلمون عن المراكز العمرانية من حيث أحجامها وهيئاتها وتعددت لديهم الكلمات المستخدمة للدلالة على العمران ومراكز الاستيطان البشرى في القرنين السادس والسابع الهجريين، وتغيرت مدلولات بعض الكلمات التي كانت مستخدمة من قبل، فذكروا على سبيل المثال البليدة والبلد والمدينة والقرية والمصر.

أما البليدة فهي دون البلدة حجماً وسكانا وأما البلدة فهى أصغر من البلد أيضاً[(٨)]، قال ابن منظور في اللسان:"... البلدة، البلد كل موضع أو قطعة مستحيزة عامرة أو غير عامرة، وقال بعضهم البلد جنس المكان كالعراق والشام والبلدة الجزء المخصص منه كالبصرة ودمشق.." [(٩)]أما المدينة فقد جاء في اللسان أنه إذا أضيفت إليها الألف واللام صارت علما على المدينة المنورة وتجمع على مدائن وهى مركز حضري أكبر من البليدة، وقد تضاهى البلد وفلان مدن المدن كما يقال مصر الأمصار والقرية بفتح القاف وكسرها لغتان تعنى "المصر الجامع" والقرية خلاف الريف وهى تعنى المساكن والأبنية وتطلق على المدن أيضاً، وقد تكون القرية مرادفة لبلد[(١٠)]. لقوله تعالى: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَـٰذَا الْبَلَدِ الأمين}/ البلد. وقوله تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ ..} وهى مكة ١٣/محمد.

وقد بين الرحالة والجغرافيون المسلمون تدرج المراكز الحضرية والعمرانية بالنظر إلى مقاييس إدارية وسياسية وفقهية ولغوية، يقول المقدسي: "اعلم أنا جعلنا الأمصار

كالملوك والقصبات والمدن كالجند والقرى كالرجالة". ويتضح من ذلك أن أكبرها المصر يليه القصبة يليه المدينة يليه القرية، ومن سمات المدينة عندهم فهي أن يكون بلداً جامعاً وتقام فيه الحدود وأن يحله أمير وأن يقوم بنفقته ويجمع رستاقه وهذه السمات هي ذاتها تنطبق على المصر(١١).

والأمصار فيها يقع مقر الحاكم وتتجمع دوائر السلطات وتضاف إليها مدن الأقاليم، مثل الفسطاط(١٢) وإن كان المصر من الناحية اللغوية يعنى الحد بين شيئين(١٣). ويقول ابن الأجدابي في القرن الخامس الهجري:" أن الأمصار: المدن الكبار وأحدها مصر" بكسر الميم وسكون الصاد المهملة وقال بن فارس في المجمل: المصر: كالكورة يقسم فيها الفيئ والصدقات(١٤). وعند الماوردى المصر نوعان: مصر مزارع وسواد، ومصر فرضة وتجارة، والأول أثبت المصرين لوجود مواده وأقواته فيه وقد آثر الماوردى " مصر المزارع والسواد" على " مصر الفرضة والتجارة "، لأنها تجمع محاسن الريف إلى محاسن المدينة(١٥).

وذكر المقريزي في فاتحة حديثه عن ذكر مدائن أرض مصر المعنى اللغوي لكلمة مدينة وذلك حين عرض لقول ابن سيدة – فقال: " مدن بالمكان أقام فيه والمدينة الحصن يبنى في أصطحه الأرض . مشتق من ذلك والجمع مدائن ومدن(١٦) وبمقارنة الكلمات الدالة على الاستيطان والتي استخدمها رحالة القرن السادس الهجري بتلك التي وردت في القرن الرابع الهجري عند الجغرافيين من أمثال المقدسي وابن حوقل نجد غنى في هذه الكلمات فبينما كانت كلمتا "القرية " و " المدينة " هما المستخدمتين حتى القرن الرابع الهجري للدلالة على مستويات الاستقرار، نجد الرحالة ابن جبير – في القرن السادس الهجري – يستخدم كلمات أخرى إلى جانب هاتين الكلمتين، مثل البلدة، والمحلة.

فالبلدة أصبحت تعني – إلى جانب معناها اللغوي المعروف – مرتبة من الاستيطان تقع بين القرية والمدينة، وهى المرتبة التي احتار كل من المقدسي وابن حوقل في تسميتها، فيقول عنها المقدسي: "... وهى مذكورة غير أنه لما لم يكن لها قوة المدن في الأثين ولا ضعف القرى في الخمول وتردد أمرها بين الرتبتين وجب أن تستظهر بذكرها ونبين مواضعها .. هي على ميل من الرملة بها جامع به خلق كثير من أهل القصبة وما حوله من القرى وبها كنيسة عجيبة على بابها يقتل عيسى الدجال..."(١٧).
ونجد قول ابن حوقل:" مدينة صغيرة كالقرية تعرف بمسجد إبراهيم"(١٨).

بينما نجد ابن جبير يسمى هذه المرتبة فيقول عن بلدة بزاغة:"..بقعة طيبة الثرى واسعة الذرى تصغر عن المدن وتكبر عن القرى .. تجمع بين المرافق السفرية والمتاجر الحضرية، وفى أعلاها قلعة كبيرة حصينة"(١٩). ويقول: " ... موضع يعرف بدمنهور وهو بلد مسور .." (٢٠).

وقد شاع هذا الاستخدام بعد ذلك فنجد كلا من ياقوت الحموي والقرويني في القرنين التاليين يستخدمان كلمتي بلدة وبليدة لمراكز الاستيطان غير الزراعية مثل محطات خدمة القوافل، وقد تعرض ياقوت الحموى (ت٦٠٦هـ/١٢٢٩م) للحديث عن المدن بصفة عامة، ومنها مصر ومدنها وكورها وقراها،ومن خلال ما كتبه نرى أنه يضع عدة صور للعمران، مثل المدينة الكبيرة أو العواصم، وهى أمهات المدن ذات الأرباض والحواضر ثم المدينة وأحيانا يسميها البلدة، وهذه يميزها عن القرية ويجعل بينها البليدة، وهناك القرية الجامعة أو الكبيرة التي كالمدينة ثم القرية، ومن الملاحظ أن ياقوت الحموي كان يجمع بين التقسيمات السابقة والمعاصرة لعصره، وبين مشاهداته الشخصية، ولذ نجده لا يلتزم بتعريف محدود للمكان الواحد(٢١) وذكر ياقوت كثيرا من الأرباض: " فيذكر أن أم دنين قرية كانت بين القاهرة والنيل اختلطت بمنازل ربض القاهرة.." (٢٢).

وقال ابن سعيد: عن بلبيس:" ... وكيف الإقامة في بلدة .. يسجن "(٢٣). وذكر القزويني لفظ بلدة وبليدة في مصر، فقال: " سمنود بلدة قديمة بنواحي مصر على ضفة النيل ... وقد اتخذه بعض العمال مخزن القت.. " (٢٤).

بينما يقول عن العباسة:"... بليدة بأرض مصر في غاية ا لحسن والطيب... ثم زيدت في عمارته حتى صارت بليدة طيبة كثيرة المياه والأشجار، من منتزهات مصر"(٢٥).

بينما لم يفطن الإدريسي في مصر إلى لفظ بلدة أو بليدة وأشار فقط إلى بعض الخصائص المميزة للمدن المصرية التي ذكرها في نزهة المشتاق، فيصف مدينة فقط: " بأنها مدينة جامعة متحضرة " ويضيف أن " دلاص مدينة صغيرة عامرة، جليلة وصناعة الحديد بها قائمة..."(٢٦). بينما نجد مصطلح المدينة القروية، فيقول: " ... ومنها إلى شابور وهى مدينة كالقرية الجامعة..."(٢٧). وفى موضع آخر يجمع بين القرية والمدينة فيذكر:"... قرية منف وبناحية شمالها المدينة المسماة عين شمس وهما كالقريتين .. " (٢٨). وفى المقابل نجده يشبه القرية بالمدينة قال:"... وهي قرية وضياع كالمدينة..."(٢٩).

وعلى جانب آخر ظهر لفظ بلد، بلدة، بليدة عند الهروي في القرن السادس الهجري، يقول:" سمنية بليدة بها قبر موسى بن شعيب.." (٣٠). وقد جعل الهروى البلد أكبر من البليدة وأوضح ذلك بأن البلد تحوى البليدة وفى ذلك: "طوخ الخيل بلد من الجانب الغربى به بليدة.." (٣١). وعن البلدة يقول:"..أسكر: بلدة بها ولد موسى بن عمران..", وكذلك:"... منية ابن خصيب بلدة قبليها مقام إبراهيم.. من الجانب الشرقى .." (٣٢). بينما نجد صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار يكتفى بنقل المعلومات القديمة عن مدن مصر دون تصرف(٣٣). غير أنه استبدل كلمة المدينة بلفظ جديد وهو " قطر" في حديثه عن الفيوم، فقال:" ... ذكر الفيوم: وهو قطر كبير فيه

قرى كثيرة .." وجعل الفيوم توازى مصر . قال:"...إن فيه من القرى عدة ما في قطر مصر كله من القرى.. " (٣٤).

وجمع ابن جبير بين المدينة والبلد الكبير(٣٥) فيقول: "... ومنها الموضع المعروف "بمنية ابن الخصيب وهو بلد على شط النيل..كبير فيه الأسواق والحمامات وسائر مرافق المدن..."(٣٦) وأورد عن "أبي تيج" قوله: "...ومنها موضع يعرف "بأبي تيج" وهو بلد فيه الأسواق وسائر مرافق المدن.."(٣٧).

واستعاض الرحالة عبد اللطيف البغدادي – القرن السابع الهجري– عن لفظ مدينة بلفظ البلد والجمع بلاد، فيقول: "... ما خلا البلاد الكبار كقوص و إخميم والمحلة ودمياط والإسكندرية .. فإن البلد الذي كان يحتوى على ألوف خال ..."(٣٨). وإن كان قد أطلق على بعض المدن التي عرفها بـــ " البلاد الكبار" في موضع آخر بلفظ " القرى الكبار " قال: "... والقرى الكبار كقوص والأشمونيين والمحلة ونحو ذلك.." (٣٩). وفى موضع آخر نجد أن البغدادي اشترك مع الحموي والقزوينى في استخدام كلمة " البلدة" لمراكز الاستيطان ومحطات خدمة القوافل فيقول:"... والمسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخ ضرمة.." ويستخدم كلمة بلد فيقول:" ثم انتقلنا إلى بلد آخر فوجدناه كالذي قبله.. واحتجنا إلى الإقامة به لأجل الزراعة "(٤٠).

كذلك ظهر في القرن السادس الهجري استخدام كلمة المحلة بمعنى القسم من المدينة حيث يقول ابن جبير: " وعمارة الجانب الشرقي محدثة، لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوى على سبع عشرة محلة كل محلة منها مدينة مستقلة.."(٤١) وأورد الإدريسي لفظ "محلة" في قوله: "... ومن محلة دمينة إلى قباب .. وهى قرية كبيرة .." (٤٢). وكذلك قوله:"... إلى محلة الداخل وهى قرية حسنة"(٤٣). علم على القرى.

وقد جاءت كلمة " محلة " بدل كلمة الخطة التي كان يعنى بها القسم من المدينة حسب نزول القبائل وإذا بحثنا عن كلمة المحلة لغويا وجدنا أنها تعنى "مائة بيبت"(٤٤) مما

يشير إلى أن أقسام المدينة لم يعد ينظر لها نظرة قبلية وإنما هي تقسم على أساس مجموعات من البيوت لا على أساس نزول القبائل مما يدل عن اختفاء النزعة القبلية أو تراجعها في المدن واندماج العرب مع السكان الأصليين وإن كان هذا الاستنتاج لا يعني اختفاء كلمة الخطة نفسها فقد استمر استخدامها لفترة طويلة بعد ذلك.

وقد ذكر المقريزي المحلة بأنها: "... والمحلة منزل القوم.." [٤٥]. ولعلنا نلحظ أن النزعة القبلية ظلت ذات شأن في تكريسها النسب لخدمة الأهداف السياسية، بل إن الاهتمام بالأنساب صار من مشاغل الحكومة التي استخدمت الأنساب في عدد من النواحي الإدارية، حيث تم تنظيم العمل في ديوان العطاء واختطاط المدن وسكناها على أساس النسب[٤٦]. إلى أن أسقط المعتصم ديوان العطاء وعرف المقريزي الخطط، فقال: " الخطط ما لا يطلق عليه اسم حارة ولا درب"[٤٧]. ويلاحظ أن كلمة المحلة جاءت بمعنى آخر عند ناصر خسرو علوي(القرن الخامس الهجري) فيقول: " ولمدينة القاهرة عشر محلات وهم يسمون المحلة حارة.." [٤٨]، بينما يتوارد ذكرها عند البغدادي(القرن السابع الهجري) قال: " ... ومس بعض البلاد محلة القسم.." [٤٩]. وجاء معنى لفظ المحلة عند ابن الأجدبي – القرن الخامس الهجري – بمعنى "المنزل"[٥٠].

ونجد ابن سعيد الأندلسي يورد لنا فقرات من كتاب صورة الأرض – القرن الرابع – فيقول: " وبالفسطاط قبائل وخطط للعرب.." [٥١]. وأورد العبدري – القرن السابع الهجري –: " أهل الخطط في مصر "[٥٢].

وقد فرق الفقهاء بين المحلة والقرى باعتبار أن المحلة مسكن للقبائل فجاء في منار السبيل صلاة الجمعة فلم يؤمر بها أهل الخيام وبيوت الشعر لأن ذلك لا ينصب للاستيطان وكانت قبائل العرب حول المدينة فلم يأمرهم النبي ﷺ بجمعه .. وتصح فيها قارب البنيان من الصحراء.."[٥٣].

وجاء في اللسان: التخطيط، التهذيب، التسطير، والخطة: الأرض تنزل من غير أن ينزلها نازل من قبل ذلك، وقد خطها لنفسه هو أن يعلمها بعلامة بالخط ليعلم أنه اختارها ليبنيها داراً(٥٤).

وقد أضافت كتب الرحلات الجغرافية تفصيلات قيّمة عن المدن، كما ساهمت في تحديد مسميات أجزاء المدينة بما يسهل فهم عناصرها وعلاقتها الداخلية فهناك " المربد "؛ وهو شارعها الأعظم " والأزقة" المتفرعة منه، وهناك "الرحاب" ؛ جمع رحبة وهى نهايات الأزقة الفسيحة فيما بين الأحياء، وهناك الربض (بضم الراء وشدها) ؛وهو ما حول المدينة وهو ما تسميه جغرافية الحضر في زماننا هذا المدينة و "ظهيرها"(٥٥). والأرباض: جمع ربض وهو نواحى الشئ وهو ما حول المدينة وقيل هو الفضاء حول المدينة أو هي الأبنية التي تكون حول المدينة وتحت القلاع، ومن الواضح أن الأرباض من خصائص أو سمات المدن الكبرى خاصة، مثل عواصم الدول (٥٦) وقد ذكر ابن جبير في رحلته الربض في مصر: "... وكان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمى بالمنية وهى ربض كبر خارج المدينة على باب الفندق المذكور.." (٥٧).

وقد علق حسين نصار على الربض في تحقيقه لرحلة ابن جبير:" والربض ما حول المدينة من بيوت ومساكن أو ما نسميه اليوم: الضاحية.. وذكر ياقوت الحموى في معجمه كثيرا من الأرباض فيذكر:" أن أم دنين قرية كانت بين القاهرة والنيل اختلطت بمنازل ربض القاهرة.." (٥٨).

وهناك الرَبع وهى الدار بعينها أو الموضع يرتبعون فيه في الربيع(٥٩) ويقول البغدادي: "... أن ربعا في أعمر مواضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتا.." (٦٠) أما العبدري فيقول: "... والربع هو الغالب.." (٦١).

وهناك الميدان وهو الساحات الفسيحة في قلب المدن التي يعرض فيها الجند أو المسيرات، قال ابن سعيد:"وقصر ابن طولون / في مدينة القطائع هو الآن ميدان تحت قلعة الجبل.." [٦٢].

وهناك "الفرضة" وهي الساحة الخالية من البناء و " الضاحية" وهي ما تنحى عن المساكن والأسواق، وكان بارزا، وهناك المربعات والطاقات وغير ذلك[٦٣].

كما تحدث الرحالة والجغرافيون المسلمون عن تدرج أحجام المدن ذاتها باستعمال مسميات، مثل مدينة وسط، ومدينة كبيرة، ومدينة عظيمة وولاية في آن واحد. فيقول ابن جبير: ".... وهي مدينة كبيرة والآثار القديمة حولها.."[٦٤] وقال القزويني:" هي المدينة المشهورة .... وهي اليوم المدينة العظمى..."[٦٥]. وأشار الإدريسي (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م) للمدينة من حيث الحجم، فيقول عن بلاد الصعيد: " أنها كلها بلاد متقاربة القدر وليس بها مدينة مشهورة كبيرة إلا قوص وبعدها مدينة إخميم وما خلا هذه فمدن صغار وحواضر قريات بها أسواق وإجماع البيع والشراء .." [٦٦] ويقول الإدريسي:".. ومنها إلى منية القائد.. وهي مدينة كبيرة عامرة .." [٦٧] ويقول: "... ومن طنت إلى شنوان وهي مدينة صغيرة.." [٦٨] وكذلك قوله: " ... إلى مدينة في الضفة الشرقية.. وهي مدينة جليلة لكنها ليست بالكبيرة.." [٦٩]

وأشار البغدادي للمدن المصرية من حيث الحجم فقال: "... الآثار التي بعين شمس وهي مدينة صغيرة ..."[٧٠] وقد عقد البغدادي في –القرن السابع الهجري – موازنة بين مدن المشرق العربي من حيث الأهمية والحجم والحال والوضع التاريخي فقال في جملة موجزة: "... ومنف نظير بابل .. والإسكندرية نظير المدائن والفسطاط نظير بغداد"[٧١] أما العبدري فيشير إلى ذلك بقوله: "... ثم وصلنا إلى قاعدة الديار المصرية ... وهي مدينة كبيرة القطر "[٧٢] بينما نجد ابن محشره الكاتب المراكشي المجهول صاحب الاستبصار يصنف المدن المصرية فيذكر عن قفط وغيرها: " مدينة قفط: هي

مدينة متوسطة المقدار .. فمدينة تنيس مدينة كبيرة"[٧٣]. ويقول: " مدينة الفرما وهى مدينة كبيرة قديمة ... ومدينة رشيد وهى مدينة كبيرة..."[٧٤]. أما الزهري فقال: ".... مدينة الإسكندرية عظيمة على ضفة البحر.."[٧٥].

أما عن اتساع مفهوم بعض كلمات العمران، فيظهر في مدلول كلمة "المدينة" نجد أن كلمتا المصر والقصبة تضاءل استخدامهما ؛ فكلمة مصر جاءت علماً على الفسطاط وحدها، حيث يقول ابن جبير:"... وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه..."[٧٦]. ويقول: " ... ثم منها – أي القاهرة – إلى "مصر" ...وكان نزولنا في مصر بفندق أبي الثناء في زقازق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص –رحمه الله–.."[٧٧].

وكذلك ظهرت كلمة مصر علما على الفسطاط في قول صاحب الاستبصار – القرن السادس الهجري –: " وهى مدينة مصر اليوم، وإنما سميت مدينة مصر بالفسطاط ..."[٧٨]، " ... بينما – أي القاهرة • وبين مصر – أي الفسطاط – نحو ٣ أميال ..."[٧٩]. وأيضا في تحفة الألباب قال أبو حامد الأندلسى: " ... وفى مقابله مصر الفسطاط ثلاثة أهرام..."[٨٠].

أما الهروي السائح فذكر: " وقبالة مصر المقياس ...الجيزة غربى مصر– يقصد الفسطاط – بها قبر ابن كعب"[٨١]. ولكنه حين يتحدث عن مصر كلها فيقول:"... ورأيت بديار مصر أهراما كثيرة"[٨٢]. بينما أشار الإدريسي إلى ذلك بقوله: " ومدينة الفسطاط هي مصر سميت بذلك لأن مصرام بن حام بن نوح .... بناها في الأول .. فلما نزل عمرو بن العاص ... والفتحها اختط المسلمون حول فسطاطه فعمروا مكان مصر الآن..."[٨٣]. أما القلقشندى فيقول عن الفسطاط: " ... وهى المدينة المعروفة بين العامة بمصر ..."[٨٤].

وقد حدد المقريزي موقع الفسطاط في خططه فقال: " اعلم أن موقع الفسطاط الذي يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقي الذي يعرف بجبل المقطم ..."[٨٥]. وتحدث المقريزي (١٣٦٤/١٤٤٤م) عن حريق الفسطاط عام ٥٦٥هـ/١١٦٩م فقال: "... ومن ثم تحولت مصر الفسطاط إلى الأطلال المعروفة الآن بكميات مصر ..."[٨٦]. أما ناصر خسرو فيقول: " ... أول مدينة يصل إليها المسافر من الشام إلى مصر هي القاهرة، وتقع مدينة مصر جنوبها وتسمى القاهرة " المغرية " ويقال المعسكر " الفسطاط ... "[٨٧]. أما ابن حوقل المتوفى ٩٨١م صاحب المسالك والممالك فقال: " ... والقاهرة مدينة بناها جوهر الفاطمي.. ولا يمكن أحد دخول الفسطاط إلا منها لأنهما بين الجبل والنهر"[٨٨].

وهذا أديب وشاعر ورحالة كبير رحل إلى مصر ؛ هو أبو الصلت أميه بن عبد العزيز وكان يأمل من وراء رحلته إلى مصر بسطة في العيش ؛ فقال: " ... وليس تشمل أرض مصر بعد الفسطاط الذي هو مقر الملك وكرسي الدولة على مدائن لها قدر..."[٨٩].

أما في القرن الرابع الهجري فنجد أن صاحب كتاب " حدود العالم من المشرق إلى المغرب " يقول: ".الفسطاط: قصبة مصر أغنى مدينة في العالم ..."[٩٠]. وأكد حديثه الأصطخرى في قوله: " ... فإن مدينتها العظمى تسمى الفسطاط ... والفسطاط مدينة كبيرة نحو الثلث من بغداد..."[٩١].

وقد استمرت كلمة " مصر " مستخدمة علماً على الفسطاط في القرون التالية للقرن السادس الهجري بخلاف ما كان موجودا في القرون السابقة عليه خاصة في القرن الرابع الهجري وبدايات الخامس الهجري – كما وضع لنا سابقا – فقد قال عبد اللطيف البغدادي – من رحالة القرن السابع الهجري –: "...فالقاهرة بالقياس إلى مصر – يقصد الفسطاط في غاية العمارة ..."[٩٢].

ولم تختف كلمة الفسطاط – كعلم – نهائيا فقد جاءت في آثار البلاد مجتمعة مع القاهرة بسور واحد: "...القاهرة هي المدينة المشهورة بجنب الفسطاط بمصر يجمعها سور واحد ..."[٩٣] وقال: " ... الفسطاط هي المدينة المشهورة بمصر ... و بالفسطاط محلة تسمى الجزيرة "[٩٤].

وأفرد ابن سعيد حديثا مطولا عن الفسطاط فقال في المغرب: "... ولما استقررت بالقاهرة تشوفت إلى معاينة الفسطاط ..."[٩٥]. وفى النجوم الزاهرة يقول: " والفسطاط أكثر أرزاقا وأرخص أسعارا من القاهرة..."[٩٦].

بيد أن الظاهري – القرن الثامن الهجري – جعل مصر علماً على الفسطاط فقال: " ... قيل أن بمصر – الفسطاط – والقاهرة داخل السور وخارجه ألف خطبة ..."[٩٧] وقد ذكرها الرحالة ابن بطوطة في عهد الناصر محمد بن قلاوون[٩٨] فقال: " ... ثم يطوفون بالمحمل (وجميع من ذكرنا معه بمدينتي القاهرة ومصر ..."[٩٩]. أما طافور فقد أورد قائلا: "... وهى مقسمة إلى ثلاثة أقسام يسمون أولها بحصن بابليون والثاني بالقاهرة والثالث بمصر."[١٠٠].

كذلك الشهاب أحمد الحجري حين زار مصر في القرن السابع عشر الميلادي فقد ذكر لفظ مصر علماً على الفسطاط مما يوحى بأن الكلمة صارت منذ القرن السادس الهجري وما تلاه من القرون خاصة بالفسطاط في أغلب الكتابات . فيسجل لنا الرحالة الحجري قوله: " ... فأما مصر المحروسة بالله فهى من أعظم مدن الدنيا هي مثل بريش بفريصة إذا أضفنا إليها مصر العتيق وبولق وهى تحتوى على اثنى عشرة ألف قرية...."[١٠١].

وهناك تغير آخر طرأ على مدلول كلمة المدنية، فهى لم تعد تعنى السكن الذي يحتوى على منبر[١٠٢]. وإنما كل سكن يقوم بنفس الدور والوظيفة الذي تقوم به المدينة في دار الإسلام وأصبحت الكلمة ترتبط بمدى توفر خدمات معينة.

ولقد ميز الرحالة والجغرافيون المسلمون بين عدد من المدن بالنظر إلى اختلاف الأدوار والوظائف التي تؤديها كل مدينة بفعل مؤشرات طبيعية وبيئية ووظيفية وإدارية وسياسية، فعلى سبيل المثال يميز البعض بين ثلاثة أنواع من المدن ؛ كالمدينة القصبة والمدينة الحصن والمدينة التجارية أو المدينة المرفأ وأضافوا بأن أهم خاصية تميز المدينة عن غيرها من المراكز وجود منبر "فالمكان الذي يحتوى على منبر هو المدينة فعلا وما عداه فهو قرية أو ما يشبه ذلك". وليس في هذا الأمر جزم لأن كثيرا من المراكز الحضرية بها منابر كالبليدة والبلدة بل شمل القرية الصغيرة والكبيرة والحضر والقصبة والكورة وغير ذلك وهو الصواب(١٠٣).

ويبدو إدراك ابن جبير لهذا المدلول واضحا من إضفائه صفة المدينة على عيذاب وصفة القرية على جدة مع أن كلاً منهما ميناء على ساحل البحر الأحمر ويتشابهان في المظهر والشكل العام ولكن اختلاف الدور الذي تقوم به كل من عيذاب وجدة هو الذي جعل أحد كبار رحالة القرن السادس الهجري يحس بهذا الاختلاف .

فيقول عن عيذاب: " ... دخلنا عيذاب وهى مدينة على ساحل (بحر جدة) غير مسورة أكثر بيوتها الأخصاص .. وهى من أحفل مراسي الدنيا.."(١٠٤) في حين يذكر جدة قائلاً: " ... وجدة هذه قرية على ساحل البحر المذكور أكثر بيوتها أخصاص... وفى أعلاها بيوت من الأخصاص ..."(١٠٥).

بينما يقول الإدريسي: " ... ومنها إلى شبرة خمسة أميال وهى قرية وضياع كالمدينة يعمل فيها شراب العسل المفوه ..."(١٠٦).

بجانب هذا اختلف الرحالة فيما بينهم واختلط عليهم الأمر في بعض الأحيان فيما يتعلق بتسمية المكان الذي به منبر ما بين قرية ومدينة فمثلا ابن جبير تحدث عن طنطا على أنها قرية رغم وجود المنبر، فقال: " ... فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف "بطنتدة" وهى من القرى الفسيحة الآهلة .... وخطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة

..."[١٠٧]. وفى نفس القرن نجد الأدريسى يقول: .. من مليج نازلا إلى طنطة ... وهى مدينة متحضرة صغيرة ..."[١٠٨].

في حين أن القرن الرابع الهجري لم يعرف تصنيفا للمدن سوى على أساس سياسي وكانت العلامة التي تعرف بها المدينة هي أن يكون بها منبر وكان قد شدد الحنفية بنوع خاص في أنه لا تقام الجمعة إلا في الأمصار الجامعة التي تقام فيها الحدود، لذلك كان ببلاد وراء النهر قرى كبار لا يعوزها من رسوم المدن وآلاتها إلا الجامع وكم تعب أهل بيكند حتى وضعوا بها المنبر[١٠٩] ففى القرن الرابع بدأ أولوا الأمر في جعل عدد المساجد ذات المنابر متمشيا مع حاجات الناس ومطالبهم، فيذكر المقدسي أنه كان بالفسطاط إلى جانب مسجد عمرو بن العاص ستة جوامع تقام فيها صلاة الجمعة وأن الزحام كان يشتد في جامع عمرو حتى تمتد الصفوف في الأسواق على أكثر من ألف ذراع من الجامع وحتى تكون القياسر والمساجد الصغيرة والدكاكين حوله من كل جانب مملوءة بالمصلين وقد أحصى ناصر خسرو في عام ٤٤٠هـ غير هذه المساجد السبعة أربعة أخرى في القاهرة[١١٠]. قائلاً: " ... وفى القاهرة أربعة جوامع "مسجد جمعة" الأزهر وجامع النور وجامع الحاكم وجامع المعز والأخير خارج القاهرة على شاطئ النيل..."[١١١].

وفى القرن السادس الهجري وجد ابن جبير أن المساجد التي يجمع فيها ببغداد – مثلا – أحد عشر مسجداً هذا مع أنها فقدت كثيرا مما كانت عليه حتى أصبحت – على حد تعبير ابن جبير – داخلة تحت قول حبيب: لا أنت أنتِ ولا الديار ديار[١١٢].

أيضاً تغير لفظ مدينة إلى بلدة أو قرية والعكس صحيح فيما بين القرنين السادس والسابع الهجريين تبعا لدرجات الهبوط أو الصعود العمراني والحضري للمدن إضافة إلى الكوارث والتراعات والمتغيرات الطارئة التي طرأت على المدن المصرية آنذاك، وقد سجل لنا الرحالة هذه المتغيرات بعين راصدة – فمثلا – مدينة سمنود ذكرها الإدريسي

في القرن السادس الهجري بأنها: "...مدينة حسنة كثيرة الداخل والخارج عامرة آهلة وبها مرافق وأسعار رخيصة.." (١١٣).

بينما قال عنها القزويني في القرن السابع الهجري بأنها: "... بلدة قديمة بنواحى مصر على ضفة النيل .."(١١٤) في حين أنها كانت في القرن الرابع الهجري مجرد كورة جليلة من كور مصر وذلك نقلا عن الكندي صاحب فضائل مصر: " ... أربع كور بمصر ليس على وجه الأرض أفضل منها ولا تحت السماء لها نظير ؛ كورة الفيوم وكورة أتريب وكورة سمنود وكورة صا ..."(١١٥) ويسجل لنا ابن جبير هذا التغير الذي يطرأ على المدن فيقول عن أنصنا: "...ومنها موضع يعرف " بأنصنا " مياسرا لنا وهى قرية فسيحة جميلة، بها آثار قديمة وكانت في السالف مدينة عتيقة ..."(١١٦) وفى موضع آخر يذكر: "...موضع يعرف " بمنشأة السودان " على الشط الغربي من النيل وهى قرية معمورة ويقال: إنها كانت في القدم مدينة ... "(١١٧).

وإلى جانب ذلك نلاحظ أن المدن المصرية اختلفت الأهداف التي أنشئت من أجلها، فمنها ما بدا على هيئة معسكرات حربية ثم تطور إلى هيئة مدينة مثل الفسطاط، ومنها ما اتخذ لأغراض إدارية، ومنها ما أنشئ كعواصم أو حواضر للدولة الحاكمة مثل القاهرة.

ورغم تأثر التخطيط بهذه العوامل المختلفة تأثراً واضحاً لاسيما في مرحلة النشأة الأولى: إلا أنه بصفة عامة كان هذا التخطيط العمراني يقوم على محاور أساسية توجهه توجيهاً إسلامياً واضحاً صاغ تخطيط المدن المصرية صياغة مميزة جعلها رغم اختلاف أقاليمها وعصورها والعوامل المؤثرة في تخطيطها – تتسم بسمات عامة واحدة (١١٨).

وظهر وصف آخر للمدينة في القرن السادس الهجري عند الإدريسى في قوله:".. ومنها إلى سابور وهى مدينة كالقرية الجامعة ..."(١١٩) ونجد من ناحية أخرى أن القرآن الكريم أطلق " قرية " على مدينة كما في قوله تعالى: {وقالوا لولا نزل هذا

القرآن على رجل من القريتين عظيم } الزخرف/٣١. والقريتان هما مكة والطائف، وعظم الله تعالى مكة فسماها " أم القرى"، وقال الخليل بن أحمد " كل شئ ضم غليه سائر ما يليه يسمى في لغة العرب أما"(١٢٠).

ثانياً: مكونات مدن مصر في القرنين السادس والسابع للهجرة .

من خلال عرض الرحالة للمدن التي توقفوا أو مروا بها في أقطار المشرق العربي في القرنين السادس والسابع الهجريين يتضح أن المؤسسات التي تمثل ركائز المدن الإسلامية والعربية بالذات ظلت موجودة مع ظهور مجموعة جديدة اختصت بها مدن المشرق العربي بالذات ومصر خاصة .

وأول هذه المكونات هو الســـور وهو معلم قديم قدم مدن هذا الجزء من العالم، ولكنه بداية من القرن السادس الهجري قد أصبح جزءاً هاماً في كثير من مدن الشرق العربي لتعرض العديد منها للهجمات سواء من الصليبيين أو من الأمراء المتناحرين . فقد ذكر لنا ابن جبير آثار الحريق الذي كان قد أحرق الفسطاط إبان الصراع بين شاور وضرغام سنة ٥٦٤هـــ(١٢١).فيقول: " ... وبمدينة مصر – يقصد الفسطاط – آثار من الخراب الذي أحدثه الإحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين(الدولة الفاطمية) وذلك سنة أربع وستين وخمس مئة ..."(١٢٢).

وتتبلور الدلالة الحضارية للسور الذي يعنى أمن وأمان سكانها وتأمين المدينة يكفله بناء الأسوار والأبراج والقلاع التي يزيد من كفاءتها وسهولة إنشائها والاقتصاد فيها ما يتوفر للموقع من ميزات تحصينية طبيعية(١٢٣). وإن كان حسين مؤنس يرى أن الأسوار دليل ضعف وخوف من البروليتاريا الخارجية التي تنظر بعين الحسد لازدهار المدن.وتتحين أي فرصة لضعف المدينة أو الدولة للانقضاض عليها إضافة لشعور أهلها بأنهم لم يعودوا قادرين على إيقاف الهجوم الذي يهدد بلادهم (١٢٤).

غير أن ابن خلدون يرى ضرورة من تحصين موقع المدينة كأن يكون على هضبة متوعرة من الجبل أو باستدارة بحر أو نهر حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف تحصينه[١٢٥].

لهذا فإنه لما أنشأ القائد جوهر مدينة القاهرة حرص على أن يقيم حولها سوراً سميكاً من اللبن وتتم فيه الأبواب الضخام وبعد مضى حوالي القرن من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمال وكان يومئذ وزيراً للخليفة الفاطمي المستنصر أبو تميم .أن الناس بنوا خارج السور بسبب اتساع العمران فأحاطها بسور وصله بسور جوهر القائد يمينا ويساراً وفتح فيه أبوابا أمام الأبواب القديمة لتكون عوضا عنها.

ولما زاد العمران بعد ذلك واتسعت حدود المدينة أخذ صلاح الدين من سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م وهو يومئذ وزيراً للعاضد عبد الله آخر الخلفاء الفاطميين في بناء سور جديد بالحجر بدلاً من أسوار المدينة القديمة التي كانت باللبن على أن يشمل السور الجديد جميع ما زاد على القاهرة في غربيها إلى النيل وفى جنوبها إلى مصر القديمة واستبقى أبواب بدر الجمالي لأنها مبنية بالحجر أمتن بناء وأروعه[١٢٦]. وهذه الأسوار قد مر بها كثير من أحداث تاريخ مصر خلال العصور الأيوبية والمملوكية والعثمانية حتى أيام محمد على أحداث تباهى أمثالها كثير من الشعوب الحية[١٢٧].



ورصد لنا الرحالة والجغرافيون في القرنين السادس والسابع الهجريين مكونات المدن المصرية وفى مقدمتها الأسوار التي أحاطت بالمدن والقرى المصرية، فيقول ابن جبير: "... وشاهدنا أيضا بنيان القلعة .. ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة ..."(١٢٨). وعن أسيوط يقول:"... ومنها مدينة أسيوط وهى من مدن الصعيد... وسورها سور عتيق..."(١٢٩).وأما الإدريسي فيذكر لنا السور في قوله: "... منها إلى مدينة البوهات.. وهى مدينة عامرة عليها سور ..."(١٣٠). ويرصد لنا صاحب الاستبصار المجهول فيقول: "... مدينة إخميم وهى مدينة كبيرة ... وفيها أسواق وحمامات ومساجد كثيرة وداخل سورها البربى المتقدم الذكر ..."(١٣١). ويقول الإدريسي عنها إنها مدينة صغيرة تسلط عليها البرابر من لؤاته وشرار العرب فأفنوا عمارتها ..."(١٣٢).وعن مدينة أسيوط يذكر صاحب الاستبصار: " ... مدينة قديمة أزلية مسورة ..."(١٣٣). وكذلك عن فقط يقول: " مدينة متوسطة المقدار أزلية لها سور..."(١٣٤).

أما العبدري – القرن السابع الهجري – فذكر لنا سور الإسكندرية فيقول: ".. ومن الإسكندرية إلى المنار بر متصل أحاط به البحر حتى اتصل بسور البلد.." [١٣٥]. وعن سور الإسكندرية يذكر الشيخ اسحق بن حسين المنجم في القرن الخامس الهجري: "... وحيطان المدينة رخام وسورها وفيها قبة كانت لفرعون ..."[١٣٦]. كما ذكره ابن بطوطة في رحلته فقال: "... يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بسور البلد..."[١٣٧]. وأورد بن شاهين الظاهرى قوله: " ... الإسكندرية وهو أجل ثغور الإسلام وأعظمه يشتمل على سورين محكمين بهما عدة أبراج يحيط بها خندق"[١٣٨]. وقد ظل سور الإسكندرية قائماً لفترة طويلة حتى أن الرحالة چوزيف بتس قال عنه: " وأعتقد أن كل أسوار الإسكندرية مازالت قائمة وكذلك بواباتها الحديدية باستثناء الأحجار العلوية من الأسوار التي سقطت..."[١٣٩].

أما عبد اللطيف البغدادي فقد أشار لوجود سور لمدينة منف القديمة بقوله:"... ووجدنا من سور المدينة قطعة صالحة مبنية بالحجارة.." كما أشار لسور القاهرة، فقال: "... وهو الذي بني السور من الحجارة محيطا بالفسطاط والقاهرة..."[١٤٠]. وقد أصبح السور معلماً أساسا من معالم كثير من مدن مصر وانتشر في داخل مصر ولم يقتصر على القاهرة والفسطاط فقط مما يناقض ما ذهب إليه ديز موند ستيورات في سياق حديثه عن سور القاهرة بأنه لم تعرفه مدينة أخرى في مصر ما عدا الثغور باعتبارها معرضة للخطر والصراع الداخلي والخارجي[١٤١].

ووصفه القزويني في القرن السابع الهجري بأن: " ... القاهرة هي المدينة المشهورة بجنب الفسطاط بمصر يجمعها سور واحد ..."[١٤٢]. وإلى جانب أهمية السور السياسية والحربية فقد أشار ابن دقماق بأن سور القاهرة الذي بناه جوهر الصقلى كان لمنع عامة الشعب من التسلل للقاهرة[١٤٣]. فيقول:"... عمر القائد جوهر سور القاهرة قال ابن جلب راغب في تاريخه أن السور الذي عمره جوهر القائد هو السور اللبن وقيل

لما استولى جوهر على الديار المصرية بنى لسيده القاهرة والقصور ليكون هو وأصحابه واجناده بمعزل عن العامة..."[١٤٤] ويبدو أن العناية بأسوار القاهرة قد تراجعت في القرن السابع الهجري وهو ما سجله لنا الرحالة ابن سعيد الأندلسي في رحلته بقوله: "... ولما أقبلت الفسطاط أدبرت عنى المسرة وتأملت أسوارا ملثمة سوداء وآفاقا مغبرة"[١٤٥].

ويلاحظ أن تطور النشاط الاقتصادي في أسواق بعض المدن المصرية قد أدى إلى التأثير على حياتها وعلى من يسكنها من الحكام وتحت هذا التأثير لزداد الاتجاه نحو إنشاء مدن للعامة تتسع لأنشطتهم التجارية منعزلة عن قصر الحكم لتحقيق أغراض أمنية وسياسية وبدأ هذا الاتجاه في مصر عندما أنشأ الفاطميون القاهرة كمدينة ملكية واعتبرت عواصم مصر السابقة الفسطاط والعسكر والقطائع بمثابة المدينة العامة التي تتسع للنشاطات التجارية والاجتماعية.

وسور القاهرة شرع في بنائه عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م بأمر من صلاح الدين الأيوبي ليحيط بالقاهرة والقلعة ومصر وكان الغرض من ذلك هو أن يربط بين القاهرة والفسطاط ويفتح ما بينهما من أبواب ويملأ الفضاء الذي يقسمها العمران[١٤٦] إضافة لما رآه صلاح الدين من ضرورة استراتيجية أوضحها الأصفهانى بقوله: " ....لما ملك السلطان مصر وآتاه الله على الأعداء بها النصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يمنعها ولا قوة لأهلها تحميها وتردها وقال: ولو أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد .. والرأي أن أدير عليهما سورا واحدا من الشاطئ إلى الشاطئ..."[١٤٧].

وحدثنا الشيخ المقريزي عن سور القاهرة بقوله: "... اعلم أن القاهرة منذ أسست عمل سورها ثلاث مرات .. السور الأول كان من لبن وضعه جوهر القائد... السور الثاني بناه أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ثمانين وأربعمائة... وجعله السور من لبن وأقام الأبواب من حجارة ... السور الثالث ابتدأ في عمارته السلطان صلاح الدين

... انتدب لعمل السور الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدى فبناه بالحجارة على ما هو عليه الآن وقصد أن يجعل على القاهرة ومصر والقلعة سورا واحدا فزاد في سور القاهرة القطفة التي من باب القنطرة إلى باب الشعرية..."[١٤٨]. وقد ذكر المقريزي أن طول السور المحيط في أيامه – القرن التاسع الهجري – بلغ ٢٩٣٠٢ ذراعا (بذراع العمل) وهو الذراع الهاشمي[١٤٩].

وتحدث البغدادي – القرن السابع الهجري – عن قيام صلاح الدين الأيوبي بهدم كثير من الأهرامات الصغيرة لبناء سور القاهرة على يدى قراقوش وأوضح هدفه من ذلك قائلاً: " وهو الذي بني السور من الحجارة محيطا بالفسطاط والقاهرة وما بينهما وبالقلعة التي على المقطم..."[١٥٠].

وقد صبغ السور عند بنائه القاهرة بالهيبة والعظمة جملة محط أنظار الرحالة عند قدومهم إلى القاهرة فتحدث عنه بن شاهين في القرن الثامن الهجري بقوله: " ... ومنها القاهرة المحروسة تشتمل على سور معظم ... وبه أبواب عديدة محكمة ...."[١٥١].

وعن ما أحدثه السور الجديد من آثار على مدينتي الفسطاط والقاهرة يقول صاحب نخبة الدهر: " وأخذت مصر في التناقص والقاهرة في التزايد.. ولما ملك صلاح الدين يوسف الملك بمصر .. بنى سورا جامعاً المصر و والقاهرة مبتداه من المقص ... ثم ينفصل من ناحيتها – القلعة – الأخرى فيمر بين الكيمان إلى أن يصل إلى البحر أيضا وطول هذا السور تسعة وعشرون في ألف ذراع وثلاث مئة وذراع بالهاشمي..."[١٥٢].

ونلحظ عن أسوار القاهرة الفاطمية القديمة والأبراج المستديرة في سور صلاح الدين بما تشتمل عليه من أبراج ومنافذ للمراقبة أن هذه المميزات العمرانية والمعمارية في السور الشرقي الذي يفصل مدينة القاهرة عن قرافة قايتباي ثم يظهر مرة أخرى طراز جديد عند باب الوزير إذ أن جانبا من السور عند الزاوية الشمالية الشرقية يتوغل في

الصحراء مما يدل على أن المدينة قد انكمشت في هذا المكان إلى حدودها التي كانت عليها في القرن السادس الهجري(١٥٣).

ومعظم أسوار مدن مصر كان غالبيتها من الطين وكان للقاهرة خمسة أبواب وقد أورد الرحالة الفارسي ناصر خسرو ذلك في رحلته: "...وللقاهرة خمسة أبواب: باب النصر وباب الفتوح والقنطرة وباب زويلة وباب الخليج وليس للمدينة قلعة ولكن أبنيتها أقوى وأكثر ارتفاعا من القلعة، وكل قصر حصن .." (١٥٤). وقد أورد الرحالة أسامة ابن منقذ أشارات في كتابه الاعتبار لهذه الأبواب وما لعتبه من أدوار في السياسة والأحداث والصراعات فيشير بقوله: " ... فلما خرج من داره متوجها إلى لقاء ابن م رزيك تآمر عليه الجند وغلقوا أبواب القاهرة.." (١٥٥). وقال: ".. فلما خرجنا من باب النصر وصلوا إلى الأبواب أغلقوها وعادوا إلى دورنا نهبوها..."(١٥٦).

ومن الطبيعي أن تكون الأسوار منيعة وضخمة ذات أبراج ولها بوابات ضخمة من الحديد غالبا فالقاهرة نفسها قد نشأت كحصن ملكي: " فكان قصر السلطان وسطها محصنة بأبواب محددة..."(١٥٧).

ولم تقتصر الأسوار على الثغور المصرية أو القاهرة فقط، ولكنها ارتبطت أيضا بالمدن المشهورة مثل قوص التي يقول عنها صاحب صبح الأعشى المتوفى ٨٢١هـ/ بأنها: " ... كان لها سور حصين دائر حولها.." (١٥٨).

أما الثغور المصرية فقد استدعت الظروف الأمنية من العرب بعد فتحهم لمصر النظر في أحوال المدن المصرية، ونظراً للدور الذي لعبته هذه المدن في العصور المختلفة قبل الفتح العربي سواء من الناحية الحربية أو البشرية، لذا فقد توافرت فيها أسباب الحماية بقدر كبير (١٥٩).

وكان من الطبيعي أن تكون الأسوار هي أحد أسباب ومتطلبات الحماية في القرنين السادس والسابع الهجريين في ظل الظروف السياسية والعسكرية التي تمر بها

مصر آنذاك، فيذكر المقدسي الذي زار مصر في القرن الرابع الهجري عند حديثه عن دمياط: " ... أن عليها حصناً من الحجارة، كثيرة الأبواب، وفيه رباطات كثيرة خربة "(١٦٠). ودلت كلمات بتلر أن دمياط كانت ذات أبواب وقلاع وأبراج متينة الأسوار لا يسهل اقتحامها من البر أو البحر(١٦١). وعنها يقول ابن دقماق: " ... دمياط مدينة كانت مسورة مبنية على ضفة البحر الشامي.."(١٦٢). أيضا كان للظروف السياسية والحربية يد في تخريب أسوار دمياط: "... وفى سنة تسع وأربعين وستمائة أمر الملك المعز أيبك التركمانى الجاشنكير الصالحي بتخريب مدينة دمياط فخربت أسوارها..."(١٦٣). وكانت دمياط: " ثغر جليل له سوره وبه خمسة أبواب وعلى السور حصون تسمى المحارس..."(١٦٤).

وكذلك كانت تنيس أحد أهم الثغور الإسلامية ذات أسوار قوية يرجع بداية تشييد سورها إلى سنة ٢٣٠هـ ويقول صاحب آكام المرجان عنها: "..ولا سبيل إليها إلا على المراكب وعليها سور من حجارة تضرب فيه أمواج البحر.."(١٦٥). وأشار القزويني بقوله عن دمياط: " وعلى سورها مدارس ورباطات كثيرة "(١٦٦). وقد تحدث ابن سعيد عن أسوار دمياط ودورها في حرب الفرنج(١٦٧).

وكان لعظم أهمية الإسكندرية أن تحاط بالأسوار وقد ذكرها الرحالة العبدرى(١٦٨). وكذلك ابن محشرة المجهول فقال:" .. وبنى أسوارها من أنواع الرخام الأبيض والملون ..."(١٦٩). وعنه يقول عبد اللطيف البغدادي: "... رأيت بشاطئ البحر مما يلي سور المدينة أكثر من أربعمائة عمود ..."(١٧٠). وقال الأديب أبو الحسين الجزار:

لها سور إذا لاقى الأعادي ... يقابلهم بوجه من حديد (١٧١).

وذكر القلصادي في رحلته لمصر عن الإسكندرية: " والمدينة من أحسن البلاد ترتيبا وبناء وسورها وجدرانها بالحجر الأبيض ... ومن العجائب التي فيها: السارية خارج باب السدرة .."(١٧٢).

وذكر ابن بطوطة أن لمدينة الإسكندرية أربعة أبواب: باب السدرة وإليه يشرع طريق المغرب وباب رشيد وباب البحر والباب الأخضر(١٧٣). ويقول: "يتصل البحر بسور البلد ..."(١٧٤).

وجدير بالذكر أن السور علاوة على ما اتسم به من أهمية في القرنين السادس والسابع الهجريين فإنه أيضاً يدخل في إطار شروط اختيار مواقع المدن وصفات مواضعها فبجانب ما سجله الرحالة بعين الآخر عن الأسوار التي استرعت انتباههم واستحقت أن تسجل في كتاباتهم ووضع أيضا العلماء وأئمة الفقه الإسلامي ضوابط من الواجب مراعاتها عند اتخاذ المدن والحواضر وإنشائها وفقا لشروط دقيقة . يوضحها ابن خلدون – القرن الثامن الهجري – بقوله عن شروط اختيار مواضع المدن ما يأتي: أن تحاط بسور يدفع المضار عنها، أن تحتل موضعاً متمنعا من الأمكنة على هضبة أو على نهر أو باستدارة بحر.. إلخ، مراعاة اتخاذ الموقع الذي يتمتع بطيب الهواء للسلامة من الأمراض، جلب الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائه عيون عذبة،طيب المراعي لسمائمتهم، مراعاة المزارع فإن الزروع هي الأقوات(١٧٥).

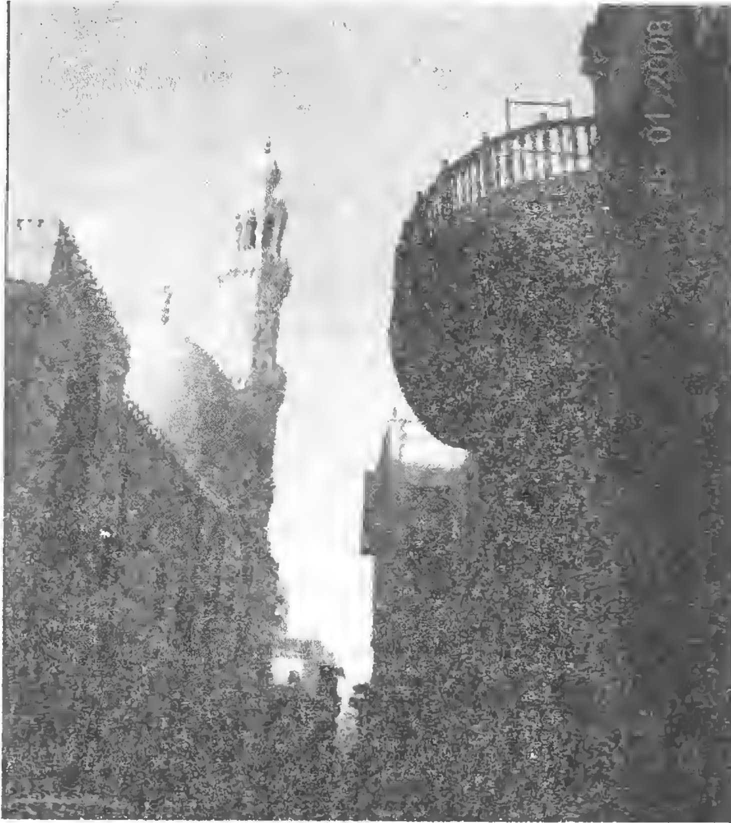
وكانت أسوار المدن المُعَرَّضة للهجمات منيعة ضخمة ذات أبراج ولها بوابات من الحديد ويحوطها الخنادق، فيقول بن شاهين الظاهري: "... ثغر الإسكندرية... هو أجل ثغور الإسلام وأعظمه يشتمل على سورين محكمين بصاعدة أبراج يحيط بها خندق ... وللثغر عدة أبواب محكمة حتى أن على كل الباب منها ثلاثة أبواب من حديد..."(١٧٦).

ويشير ابن جبير لخنادق قلعة صلاح الدين قائلاً: "... وشاهدنا أيضا بنيان القلعة ... وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور، وهو خندق ينقر بالمعادلة في الصخر..."[١٧٧].وكان للحروب الصليبية دور هام في تطور بناء الحصون ... مثل أبراج السور واخذ فرسان الحروب الصليبية عن الشرق عادته في تغطية الأبراج بخوذ من الصخور[١٧٨].

وذكر الرحالة الإنجليزي جوزيف بتس الذي زار مصر عام ١٦٨٠م أن: "... كل أسوار الإسكندرية مازالت قائمة وكذلك بواباها الحديدية باستثناء بعض الأحجار العلوية من الأسوار التي سقطت .."[١٧٩].

وقال ابن حوقل الذي ألف كتابه المسالك والممالك حوالي ٣٦٧هـ/٩٧٧م[١٨٠] عن تحصين مدينة القاهرة:"والقاهرة مدينة.. بها جامع بهى وقصر السلطان وسطها محصنة بأبواب محددة على جادة الشام..."[١٨١].

بينما يذكر الفرنسي ميليه في القرن الثامن عشر الميلادي أسوار وحصانة القاهرة بقوله: "... مدينة يحوطها الأسوار التي بها الكثير من البوابات وبوابة الفتوح من أجمل البوابات وأكثرها قدما وأجلها وبها برجان فوقها ولكن لا يوجد على جدرانها كتابات أو رسومات مثل غيرها من البوابات وبوابات القاهرة أحسن من بوابات مدن



أوربا..."[١٨٢].ولما كان كوبان الفرنسي مهتما بإرسال الحملات الصليبية ضد الدولة العثمانية والشرق فإنه قد حرص على ذكر مدى الاستحكامات في مدينة القاهرة فذكر: "... أن أسوارها قد تبدو قوية بها العديد من الأبواب ولكنها في الحقيقة ضعيفة التحصين"[١٨٣].

ونجد العبدري في القرن السابع الهجري يتحدث بإعجاب عن أسوار وأبواب مدينة الإسكندرية فيقول: " ومن جملة إبداعها وإغرابها ما رأيت من إتقان أبوابها وذلك أن عضائدها وعتبها – مع إفراط طول الأبواب – كلها من حجارة منحوتة ... وأما مصاريعها – يقصد الأبواب – فهي غاية في الإحكام ملبسة بالحديد ظهرا وبطنا بأدق ما يكون.."[١٨٤] وأشار الرحالة الألماني هارف إلى أن الإسكندرية لها عدة أبواب يفتح أحدها إلى الميناء حيث يوجد به مرسى البرج للسفن الوافدة من أوربا ومرسى السلسلة للسفن الواردة من شمال أفريقية[١٨٥].

وعند وصف ابن رسته للطريق من الفسطاط إلى الإسكندرية يشير لسور الإسكندرية بقوله: " ... يمنيك ويسارك النخيل والبساتين والضياع حتى تنتهي إلى سور الإسكندرية مقدار مائة خطوة مسناة من حجارة في البحر تسير عليها حتى تنتهي إلى منارة الإسكندرية..."[١٨٦].

ويرى البعض أن زيادة الحاجة إلى تحصين المدن ترجع لعهد قديم عندما نشأت المدن وزاد عمرانها وثراؤها وبدأت تتعرض لهجوم الأعداء الذين يطمعون في السيطرة عليها أو نهب ثرواتها مما أدى إلى بناء الأسوار عليها واتخاذ الجند والقادة الذين يتولون الدفاع عنها[١٨٧].ومن هنا كان اتخاذ السور حول المدينة أمر مهما. فتأمين المدينة يتطلب بناء الأسوار والقلاع والأبراج التي يزيد من كفاءتها سهولة إنشائها والاقتصاد في بنائها ما يتوفر للموقع من مميزات تحصينية طبيعية[١٨٨]. ومن هنا بدا السور في عيون الرحالة بمثابة مكون هام تميزت به المدن في المشرق العربي ومصر وزادت الحاجة إليه في خضم الأحداث السياسية في القرنين السادس والسابع الهجريين بل ذهب القزويني إلى اعتبار السور من المعايير الحضارية التي تميز المدن[١٨٩].

كما كان السور يعد بمثابة خطا دفاعيا هجوميا متكاملا وهو أمر استدعى أن يخطط السور بمواصفات وقياسات دقيقة تفي بهذه المتطلبات وقد انعكست هذه الأمور

على عمارة وطريقة هندسة وإنشاء الأسوار بما اشتملت عليه من عناصر معمارية متباينة[١٩٠].

على كل حال فإن الأسوار بداية من القرن السادس الهجري لم تعد تلعب دور الفصل بين المدينة والريف أو بين العامة والخاصة فقد زُحفت غالبية المدن خارج أسوارها وتجاوزتها بحيث أصبح للمدينة الربض أو الربضين[١٩١]. وقد أباح صلاح الدين سكنى القاهرة للخاص والعام فزادت في الاتساع والعمران[١٩٢].

أما عن الربض في مصر فيذكر ياقوت الحموي عن قرية أم دنين: "..كانت بين القاهرة والنيل اختلطت بمنازل ربض القاهرة.."[١٩٣]. ويشير ابن جبير عن ربض قوص: "... كان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمي بالمنية وهى ربض كبير خارج البلد على باب الفندق المذكور.."[١٩٤]. وكانت الأرباض في مصر تحتوى على المساجد والجوامع والخانات والأسواق والمدارس والرباطات والقصور وغيرها . يقول أبو صالح الأرمنى: "... مدينة قوص وهى ربض المدينة وهو كبير واسع فيه منازل التجار وأرباب الأموال ..."[١٩٥].

وفى تلك الفترة شمل العمران المدن ذاتها كما شمل أرباضها [١٩٦]. فيذكر ابن بسام التنيسى الذي عاش في القرن الثامن الهجري عن أرباض تنيس:"فكانت تقوم في الربض الغربي دار صناعة السفن ودار الإمارة وحمامات الرجال وكان يقوم في الربض الشرقي الديوان الكبير الذي كان يشتمل على عدة دواوين وعلى دواليب نقل الماء إلى المصانع في وقت زيادة وعلى الحمامات وكان به مطاحن للجبس ومواقـد جير واصطبل السلطان وفى الربض القبلى كانت تقوم دواليب أخرى لنقل الماء إلى المصانع والحمامات وبه أخصاص الصيادين وديوان السمك ومخازن المصايد وبه ملاحات جيدة، وفى الربض البحرى كانت تقوم مساجد وكنائس ومفارش وحجارة لتبييض الأمتعة وضرب الثياب..."[١٩٧].

وكان لضواحي وأرباض القاهرة والجهات القريبة الواقعة خارج أسوارها نصيب كبير من عناية الظاهر بيبرس فامتدت العمائر من مسجد التبر – كما يقول أبو المحاسن صاحب النجوم – " إلى أسوار القاهرة إلى الخليج وأرض الطبالة واتصلت العمائر إلى باب المقسم إلى اللوق إلى البورجي ومن الشارع إلى الكبش إلى تحت القلعة ومشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها"[١٩٨].

ويصف القلقشندى (٧٥٦هـ/٨٢١هـ – ١٣٥٥م /١٤١٨م) القاهرة في أيامه فيقول: " واعلم أن خطط القاهرة قد اتسعت وزادت العمارة حولها وصار ما هو خارج سورها أضعاف ما هو داخله..."[١٩٩].ويقول الرحالة ابن سعيد عندما زار القاهرة (٦٤٠هـ/١٢٤٣م)[٢٠٠]: "..وإذا احتاج الإنسان إلى فرجة في نيلها مشى في مسافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التي خارج سورها إلى موضع يعرف بالمقس.."[٢٠١].ويشير العبدري الذي زار مصر في طريق رحلته إلى الحجاز سنة٦٨٨هـ/١٢٨٩م[٢٠٢] إلى أرباض القاهرة فيقول: "... ومن المزارات بربضها الغربي روضة السيدة الشريفة الطاهرة .. نفيسة بنت علي... ﷺ"[٢٠٣]. ويذكر الهروي عن البهسنة أنها: "... مدينة بها مسجد الديوان ... وهذا المشهد ظاهر البلد من غربية ..."[٢٠٤]. أما ياقوت الحموي فيقول: "... منية قوص .. وهى ربض مدينة قوص كبير واسع فيه منازل التجار وأرباب الأموال.."[٢٠٥].

ومن الواضح أنه مع اتساع رقعة المدن المصرية وظهور الأرباض بها اتخذت هذه الأرباض هيئة مدن جديدة استدعى الأمر إنشاء مسجد جامع بها أو زوايا وخانقات تحولت البعض منها فيما بعد إلى مساجد جامعة وقد انتشر ذلك في القاهرة عهد سلاطين المماليك[٢٠٦].

وكان لانتشار الأرباض في المدن المصرية دليل واضح على نمو عمرانها وتأثره بعوامل مختلفة مثل الزيادة الناتجة من المواليد أو الزيادة المضطردة المتأثرة بعوامل الهجرة

إليها وزيادة رحلات الهروب إلى مصر بحثا عن الملاذ الآمن والرخاء والتطور الذي أغرى بالهجرة إليها وارتبط كل هذا بالأحداث السياسية والاقتصادية في العالم شرقه وغربه آنذاك. وقد قدر بعض الباحثين المحدثين عدد سكان مصر في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي بحوالي ثلاثة ملايين نسمة وقدر باحث آخر عدد سكان القاهرة في الفترة نفسها بحوالي ستمائة ألف نسمة وكان عدد قرى مصر يقترب من ألفين وخمسمائة قرية والواقع أن كتابات الرحالة الشرقيين والغربيين الذين زاروا مصر في تلك الفترة وتشير إلى صحة هذه الحقيقة بشكل أو بآخر(٢٠٧).

أيضا جاءت الأرباض في مصر – خاصة القاهرة– لحرض سلاطين المماليك على تعمير القاهرة وتجميلها بوصفها حاضرة الملك ومركز الدولة الواسعة وبالتالي كان لضواحي القاهرة والجهات القريبة الواقعة خارج أسوارها نصيب كبير من عنايتهم وبدا ذلك واضحا في عهد الظاهر بيبرس حيث امتدت العمائر في عهده من مسجد التبر " إلى أسوار القاهرة إلى الخليج وأرض الطبالة واتصلت العمائر إلى باب المقسم إلى اللوق إلى البورجى ومن الشارع إلى الكبش إلى تحت القلعة ومشهد السيدة نفيسة ..."(٢٠٨).

وجدير بالذكر أن بيبرس أنشأ كثيرا من الدور لأمرائه وحرص أن يجعل هذه الدور بظاهر القاهرة – أي خارج أسوارها – " فإنه كان يكره سكنى الأمير بالقاهرة مخافة من حواشيه على الرعية"(٢٠٩).

أما الجامع فقد ظل من مكونات المدينة المصرية بوجه عام ولكنه لم يعد جامعاً وحيداً تميز به المدينة وإنما زاد عدد الجوامع مع اتساع المدن وزيادة عدد المسلمين فقامت في أجزاء المدينة البعيدة وحتى خارجا عنها .

والجامع – كما تذكر المصادر العربية – هو الذي يقام فيه صلاة الجمعة وذلك بعكس المسجد. يقول المقريزي:"إن صلاة الجمعة كانت تقام في جامع عمرو بن العاص إلى أن بنى جامع العسكر بالعسكر فصارت الجمعة تقام في جامع عمرو بن العاص

وجامع العسكر واستمر ذلك الوضع حتى بنى جامع أحمد بن طولون فصارت الجمعة تقام في جامع عمرو وجامع ابن طولون وتلاشى أمر جامع العسكر إلى أن قامت الدولة الطولونية (٢١٠).

ثم يقول في موضع آخر: " لما افتتح عمر البلدان كتب إلى أبي موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ويتخذ للقبائل مساجد فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك " كما يقول في موضع آخر نقلاً عن القضاعى:" ولم تكن الجمعة تقام في زمن عمرو بن العاص بشئ من أرض مصر إلا في هذا الجامع، قال أبو سعيد عبد الرحمن بن يونس: جاء نفر من غافق إلى عمرو بن العاص فقالوا: إنا نكون في الريف فنجمع في العيدين الفطر والأضحى ويؤمنا رجل منا ؟ قال: نعم .قالوا: فالجمعة ؟ قال: لا ولا يصلى بالناس الجمعة بالناس إلا من أقام الحدود وأخذ بالذنوب وأعطى الحقوق"(٢١١).

ومن خلال ما أقره رحالة القرن السادس الهجري وما رواه الرحالة الذين جاءوا للمشرق العربي ولمصر من كل فج عميق ؛ نجد أن المدن الإسلامية في غالبيتها سواء في المشرق أو في المغرب تتفق في مظهرها العمراني العام ولا يمكن أن نفسر ذلك إلا بوجود المسجد الجامع كأساس للعمران في المدن الإسلامية الطابع أو حتى في المدن المفتوحة التي يراد طبعها بالطابع الإسلامي البحت فقد جرت العادة أن يقام المسجد في وسط المدينة، وكانت الأسواق والحوانيت تقام في ساحة المسجد المحيطة به، ومن هذه الساحة كانت تتفرع الطرق الرئيسية المفضية إلى أبواب المدينة ومازالت هذه المدن تحتفظ حتى يومنا هذا بذلك التخطيط (٢١٢).

فيذكر الكرخي – القرن الرابع الهجري – عن الفسطاط بأنها: "مدينة كبيرة نحو الثلث من بغداد ... على غاية العمارة والخصب ... وبها مسجدان للجمعة "(٢١٣)

ويقول ابن جبير: "... وبالقاهرة أربعة جوامع حفيلة البنيان أنيقة الصنعة إلى مساجد عدة ..."[٢١٤]. ويشير بقوله: " ... وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس أحمد بن طولون "[٢١٥]. ويقول: " وما منها جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعم.."[٢١٦]. ويقول: " وبمدينة مصر المسجد الجامع المنسوب لعمرو بن العاص .. وله أيضا بالإسكندرية جامع آخر وهو مصلى الجمعة للمالكيين.."[٢١٧]. وذكر الإدريسي عن الفسطاط: " لها مسجدان جامعان للجمعة والخطبة فيهما .."[٢١٨]. وذكر المسعودي عن تنيس أنه كان بها نحو مائة وستين مسجد بكل مسجد منها منارة[٢١٩] وكان من بين هذه المساجد مسجدان جامعان [٢٢٠] وكل مسجد فيها يوقد في شهر رمضان بثلاثة آلاف ومائة مصباح ومائتين وخمسين شمعة[٢٢١].

وفي دمياط لم يترك سوى المسجد الجامع بعد تخريبها بعد تفاقم خطر الصليبيين[٢٢٢] ويصف المقريزي القاهرة وعمرانها أيام الناصر بقوله: "..والقاهرة أكثر عمارة .. وقد اتسع عمران القاهرة أيام الناصر وأمتد العمران بين القاهرة والفسطاط فصار بلدا واحد يشتمل على.. المساجد والجوامع والزوايا والربط والمشاهد ..."[٢٢٣].

وفي القرن السابع الهجري ازدادت الجوامع في المدن تماشياً مع حاجات الناس ومطالبهم اليومية والحياتية نتيجة التزايد السكاني والعمراني واتساع حركة الهجرة إلى القاهرة سواء كانت هجرة داخلية أو خارجية، وقد وصف الرحالة العبدري مساجد وجوامع القاهرة بقوله: "... ومن الغرائب عندهم تضييع المساجد والجوامع وإهمالها.. وقد صليت الجمعة في بعض جوامعها .."[٢٢٤]. كما عدد الرحالة عبد اللطيف البغدادي مساجد وجوامع مصر وخاصة الجوامع الكبيرة مثل جامع ابن طولون وابن العاص في مصر[٢٢٥].

ونجد أنه منذ القرن السادس الهجري لم تعد الجوامع قاصرة على المدن فحسب بل ظهرت في القرى الهامة مثل طنطا وهو ما نجده في سياق رحلة ابن جبير بقوله: "..فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف بطنتدة – طنطا – وهى من القرى الفسيحة الأهلة فأبصرنا بها مجمعا حفيلاً وخطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة"(٢٢٦).

ومن المتعارف عليه أن شرط وجود الجامع هو أن تقام فيه خطبة الجمعة لذلك حرص المعاصرون اشتراط وجود الجوامع في القرى وأن على كل جامع من هذه الجوامع: " .. تقام فيه الجمعة "(٢٢٧)وأشار الرحالة الهروي صاحب الإشارات إلى وجود مسجد بقرية سيلة والتي هي من أعمال الفيوم(٢٢٨) ويشير ابن جبير إلى أن: "أحسن بلد مررنا عليه موضع يعرف بقليوب فيه .. مسجد جامع كبير حفيل البنيان.. "(٢٢٩).

لم يمنع وجود جامع بالقرية من وجود المسجد الذي لا تقام فيه صلاة الجمعة، لذلك فقد كان الجامع هو الأساس ومع ذلك وجدت بعض القرى لا يوجد بها سوى مسجد واقتصر هذا الوضع على القرى الغير مأهولة بعدد سكاني كبير إضافة للقرى التي تنتج عن الزحف العمراني والتي أطلق عليها المناشى(٢٣٠).

وبحلول القرن السابع الهجري زاد انتشار الجوامع في أغلب قرى مصر بحيث أن الرحالة اعتادوا على ذكر وجود الجامع في بداية حديثهم عن أية قرية إضافة إلى أن الجامع كان أول شئ يشيد عند اختطاط القرى الجديدة وكان طبيعيا أن تستثنى الجوامع من بيع القرية أو وقفها كما كان يحدث مع مساكن الفلاحين وطرقاتهم ومقابرهم(٢٣١) وأشار القلقشندى إلى أنه: " في سنة اثنتين وثلاثين ومائة أمر موسى بن نصير اللخمى وهو أمير مصر باتخاذ المنابر في جميع جوامع قرى مصر "(٢٣٢) كما تحدث ابن دقماق في الانتصار عن مساجد في بلدة كوم الأفراد معروفة باجابة الدعاء وأن بأسفلها على شاطئ النيل مسجد يعرف بمسجد النبي(٢٣٣).

وقد أرجع بعض الباحثين ازدياد أعداد المساجد في الأمصار والقرى إلى عدة أسباب كان أهمها ازدياد أعداد الداخلين في الديانة الإسلامية حيث لم يعد يكفي مسجد واحد في المدينة الواحدة وإنما كثرت المساجد الجامعة وتقاربت في المدينة الواحدة منها ينطلق الآذان وفيها تؤدى الصلوات وتلقى خطبة الجمعة، وقد أدى ذلك التقارب لتداخل أصوات المؤذنين والمصلين فيها مما أثار استياء بعض أهل العلم والمعرفة وسجلت لنا مذكرات الرحالة ظاهرة ازدياد وكثرة المساجد بالمدينة الواحدة والقرى وأشار المقريزي لموضعين بالقاهرة كانت تقام فيهما الصلاة بحيث: " يسمع كل من صلى بالموضعين تكبير الآخر وهذا وأنظاره من شنيع ما حدث في غير موضع ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.."(٢٣٤).

ونجد الرحالة الفارسي خسرو يحدد عناصر مدينة عيذاب ومكوناها كمدينة فيذكر الجامع كمعْلم أساسي لها فيقول: " .. ومدينة عيذاب هذه تقع على شاطئ البحر وبها مسجد جمعة وسكانها خمسمائة وهي تابعة لسلطان مصر.."(٢٣٥).وشاهد ابن بطوطة منبر عظيم محكم الصنعة برسم منبر المسجد الحرام بجامع مدينة منفلوط(٢٣٦).

واهتم الرحالة الفرنسيون كذلك بوصف المساجد وذكر THENAUD (جان تينو) الذي يعتبر هو أول من زار مصر من الرحالة الفرنسيين في مطلع القرن السادس عشر الميلادي / العاشر الهجري: " ... أن المماليك كانوا أحرص من الأتراك على بناء المساجد .. كل مملوك يتولى الحكم لا بد وأن يعمل على بناء مسجد يحمل اسمه.."(٢٣٧).

وقد علل شمس الدين أبي عبد الله الأنصاري كثرة المساجد والجوامع في مصر بسبب الهجرات المتتالية التي وفدت على مصر بعد الزحف التتارى على بلدان المشرق العربي مما استدعى مواجهة هذه الزيادة بعمائر عمرانية تخدم هذه الزيادة المطردة . فقال: " ... وانتهى الحال في اتصال عمارها – يقصد القاهرة – إلى أن صار في ضواحيها عشرة جوامع يصلون فيها الخطبة فيهم ما بين ألف ألف وإلى ما فوقها وذلك

لكثرة من ضوى إليها من أهل الأمصار عند هجوم التتار واستيلائهم على العراق والجزيرة والشام .."(٢٣٨).

وبالنسبة للهجرات وأثرها على النمو العمراني فيمكن القول أن الهجرات المغربية كان لها أكثر من سبب في عصر المماليك على الرغم من أن الوجود المغربي كان منذ العصر الفاطمي إذ شجعت الدولة الفاطمية قدوم التجار المغاربة إلى مصر إذ كان عامل رحلات التجارة ورحلات الحج اللذين شجعا قدوم المغاربة موجود منذ أقدم العصور .

إلا أن هناك عاملين آخرين ظهرا في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية وهو الاشتراك في الحرب ضد الصليبيين والتي قام المغاربة فيها بدور فعّال، كما كانت لحركة الزهد والتصوف التي شجعها الأيوبيين والمماليك أثر في قدوم الكثير منهم أيضاً إلى مصر.

أما بالنسبة للهجرات المغولية فكان أكثرها عوامل طرد من موطنها وهو سوء الأحوال المعيشية لها وكثرة المجاعات من سوء الأحوال المناخية مثل سقوط الجليد وجفاف الأنهار وقلة المراعي.وقد تشجع المغول علي القيام برحلات هجراتهم إلى القاهرة ومصر هو ترحيب المماليك هم الذين كانوا يعودون بأصولهم إلى المغول .إلا أننا نلاحظ نهاية هذه الهجرات بنهاية الدولة الأولى. وذلك راجع إلى نهاية حروب المغول وهدوء الأحوال في دولتي مغول فارس ومغول القفجاق .

أما الهجرات العربية ، فكان أكثرها في بداية سلطنة المماليك ويرجع ذلك إلى سقوط بغداد في أيدي المغول ثم هروب أهلها إلى مصر تبعهم أهل بلاد الشام خوفاً من المغول ، إلا أن تصدي المماليك لهذه الجحافل المغولية قد أوقف هذه الهجرات في الأوقات التي كان يخشى أهل الشام من قدوم المغول ثانية .

وبعد ذلك كان لازدهار العلم وكثرة الوظائف العلمية في مدارس القاهرة وجوامعها سبباً في ارتحال الكثير من علماء العرب والمسلمين أملاً في الحصول على إحدى هذه الوظائف ورغد العيش في كنف سلاطين المماليك الذين اهتموا بالعلماء والعلم والإغداق عليهم بالإنعامات . أضف لذلك رحلات هجرة الأرمن والعجم لمصر التي كان معظمها بسبب التجارة أو بسبب عوامل طرد من تلك البلاد.

أما الهجرات الداخلية فعلى العكس من الهجرات السابقة التي كانت معظمها في عصر الدولة الأولى كانت الهجرات الريفية في عصر الدولة الثانية وذلك بسبب الأوبئة والمجاعات وكثرة الضرائب التي أدت إلى خراب الريف وهجرة أهله للقاهرة التي كان أمراء سلاطين المماليك يقومون بتوزيع الأطعمة على الفقراء والمعدومين ،وهو ما شجع الفلاحين بالهجرة إلى القاهرة هروباً من أعباء الضرائب وما يتبعه من أذى من قبل جامعي الضرائب .

وقد أثر ذلك في عمران الريف وبور الأراضي الزراعية التي لم تجد من يزرعها وكثرة المعدومين والحرافيش والغجر في شوارع القاهرة. وهو ما أثر في تدهور أحوال البلاد والعباد وكثرة الفقراء وكساد التجارة ، وقد تبع هذا الكثير من الأمراض والأوبئة التي قضت على الكثير من السكان والتي أدت بدورها إلى خراب العمران في القاهرة وغيرها من مدن مصر .

وجاء اكتشاف رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة إلى هذا الطريق إلى انهيار الاقتصاد في مصر والخراب الذي أكمل تخلخل دولة المماليك واستيلاء العثمانيين على البلاد بل لم يكتفوا بذلك بل قاموا بترحيل العلماء والتجار وأصحاب الحرف والصناعات إلى اسطنبول ، وبذلك شاركوا في الاضمحلال الذي ظلت منه القاهرة مدة من الزمان امتد ظلاله على وقتنا هذا . (٢٣٩)

إضافة إلى هذا فإنه مع امتداد عمران المدن المصرية وكثافة سكانها بمرور الزمن باتت الحاجة ملحة إلى عدد أكبر من المساجد الجامعة وبدأت ظاهرة تعدد المساجد الجامعة بالمدن المصرية داخلها وخارجها في الانتشار منذ بدايات القرن السابع وأواخر القرن السادس الهجري، فيذكر السبكي أن هذا "حصل في الشام ومصر منذ مدة قريبة ولم يكن في القاهرة إلا خطبة واحدة حتى حصلت الثانية من زمن الملك الظاهر مع امتناع قاضي القضاة تاج الدين من إحداثها.."[٢٤٠].

كذلك توزعت المساجد في أرجاء المدينة وخارجها وزادت أعدادها حتى أن بن شاهين الظاهري صاحب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك قال: "... بمصر والقاهرة داخل السور وخارجه ألف خطبة ونيف عن ذلك وبكل مكان فيه خطبة أيضا منارة وثم منارات كثيرة في مدارس ومساجد ومزارات وترب بغير خطب لا يحصى عددهم..."[٢٤١] وعن إخميم يذكر ابن محشرة: "...وهي مدينة كبيرة .. وفيها .. مساجد كثيرة ..."[٢٤٢].

حتى أن السائح الهروي – القرن السادس الهجري – قد أوصل المساجد إلى أعداد كبيرة في الإسكندرية، فيقول: ".... وبها من المساجد والمعابد ما لا رأيته بغيرها، وذكر لى ابن منقذ أن فيها اثني عشر ألف مسجد..."[٢٤٣] وعندما سأل الهروي القاضي الكاتب بالإسكندرية آنذاك عن صحة المعلومات فقال له: "إن الملك العزيز عثمان كشف ذلك فوجدوا بها عشرين ألف مسجد"[٢٤٤].

وذكر الظاهري – القرن الثامن الهجري– نقلا عن الهروي: "... أنه أطلع على تأريخ الهروي فرأى فيه أن بالثغر المذكور اثني عشر ألف قبلة وبه من الجوامع الحسنة والمدارس المرخمة والمنقوشة ما يطول شرح..."[٢٤٥]. كما تحدث ابن جبير – القرن السادس الهجري – عن مساجد وجوامع الإسكندرية، فقال: "... وهو أكثر بلاد الله مساجد حتى إن تقدير الناس لها يطفف... فالمكثر ينتهي في تقديره إلى اثني عشر ألف

مسجد... فمنهم من يقول ثمانية آلاف..."(٢٤٦) أما جوزيف بتس فقد أوصل عددهم عام ١٦٨٠ م. إلى:" خمسة آلاف أو ستة آلاف مسجد بناها الأفراد والسلطات..."(٢٤٧).

ويشير ابن بطوطة لكثرة المساجد في مدينة أبيار قائلاً: "... ورحلت منها إلى مدينة أبيار وهي قديمة البناء أرجة الأرجاء كثيرة المساجد..."(٢٤٨).ويذكر القلقشندى: " محلة الدقلا وهي مدينة عظيمة الشأن جليلة المقدار... ذات جوامع .."(٢٤٩). ويقول: " مدينة منوف ... أضيف إليها عمل أبيار.. وهي مدينة حسنة ذات أسواق ومساجد ومسجد جليل للخطبة.."(٢٥٠). وفي القاهرة عمرت أيام الناصر محمد بالقاهرة عدة جوامع تقام فيها الخطب زيادة على ثلاثين جامعا(٢٥١).

وقد رأى الرحالة ابن بطوطة الذي زار القاهرة في عام ١٣٣٦م كيف كان يتنافس أمراء مصر على تخليد أسمائهم فشيدوا الخوانق والتكايا العظيمة وبلغ عدد المساجد والمدارس التي شيدت بين عامي (١٣٢٠م – ١٣٦٠م) أربعين(٢٥٢).بينما شاهد الرحالة الفارسي خسرو أن بجزيرة تنيس جامعان فيقول: " تنيس جزيرة ومدينة .. وبها أسواق فخمة وجامعان ..."(٢٥٣).

بينما شاهدها المسعودي قبل ناصر خسرو فقال:" وكان بها عدة مساجد نحو مائة وستين مسجدا وبكل مسجد منارة.."(٢٥٤).وقال ناصر خسرو عن الفسطاط: " وفي مصر – الفسطاط – سبعة جوامع غير جوامع القاهرة والمدينتان متصلتان وفيهما معا خمسة عشر جامعا وذلك لتلقي خطبة الجمعة والصلاة في كل حي منهما ..."(٢٥٥).

العبدري في القرن السابع الهجري عن القاهرة إلى كثرة المساجد والجوامع فقال: " ... ومن الغرائب عندهم تضييع المساجد والجوامع ... وهم يعتقدون نجاسة مساجدهم وجوامعهم ... وصلينا معهم صلاة العيد وهم يصلونها في المساجد ..."(٢٥٦).

وقد صارت المـــدارس من معالم المدن المصرية في القرنين السادس والسابع الهجريين، ويمكن ملاحظة ذلك من مقارنة وصف المدن عند المقدسي في القرن الرابع الهجري وعند ابن جبير في القرن السادس الهجري والعبدري في القرن السابع الهجري، وقد ارتبط بعض هذه المدارس بالجوامع والمساجد وقام البعض الآخر منفرداً.

والمدرسة بمعنى الكلمة تدل على أنها المكان الذي يتخذ لتلقى علم واحد على أيدي شيوخ موقوفين عليه وذلك لتمييزه عن حلقة المساجد وأن يكون ملحقا به مكان لسكن المدرسين والطلاب مع وجود معاليم أي مرتبات وجرايات جارية عليهم ولمن يقوم بالتدريس فيها وبذلك تكون وظيفتها الرئيسية مستمدة من كونها أعدت لسكنى الطلاب والشيوخ والفقهاء لا من قاعات التدريس والمدرسين[٢٥٧].

وبرغم ما أحاط بمصر في القرنين السادس والسابع الهجريين من ظروف سياسية وعسكرية جعلتها توجه طاقتها الكبرى نحو الدفاع عن الوطن العربي والإسلامي في المشرق العربي وحمايته من الخطر والزحف الصليبي إلا أنه يلاحظ ازدهار العمران والفنون الإسلامية خاصة في العصر الأيوبي الذي دام قرابة القرن من الزمان نحو ثمانين عاما (١١٧١ – ١٢٥٠م) فقد ظهرت المدارس الإسلامية[٢٥٨].

وارتبطت التطورات العمرانية بالتغيرات السياسية التي تمثلت في زوال المذهب الشيعي وإحلال المذهب السني محله في القرن السادس الهجري[٢٥٩]. واتضح ذلك في إنشاء العديد من المدارس بغرض تدريس المذهب السني والدعاية له[٢٦٠]. وجدير بالذكر أنه لم تكن هناك مدارس خاصة يتلقى فيها التلاميذ العلوم الدينية بانتظام، بل كانوا يختلفون إلى المسجد ولم تنشأ المدرسة قبل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وفى القرن السادس الهجري تم بناء عدة مدارس للشافعية والحنفية لنشر المذهب الحنفي في دمشق وحلب وغيرهما[٢٦١].

وهذا ما أكده الرحالة المسلمون الذين زاروا مصر والمشرق العربي في تلك الفترة وقرروه في مدوناتهم ومذكراتهم وهذا كله صحيح متواتر في المراجع المعاصرة وهو دليل على دقة الكثير من الرحالة وصحة استقصائهم فقد رأى الرحالة الأندلسي بن جبير المدرسة الناصرية عند قدومه إلى مصر بعد البدء في إنشائها وذلك في زمن صلاح الدين نفسه(٢٦٢) فيذكر ابن جبير: " مشهد الإمام الشافعي محمد بن إدريس رضي الله عنه وهو من المشاهد العظيمة احتفالا واتساعا وبنى بإزائه مدرسة لم يعهد بهذه البلاد مثلها ولا أوسع مساحة ولا أحفل بناء يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته... "(٢٦٣).

وعن الإسكندرية وما بها من مدارس يذكر ابن جبير: "... ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه..."(٢٦٤).وسجل لنا ابن جبير وغيره من الرحالة حرص الدولة للسيطرة على


المدرسة الكاملية التي نزل بها الرحالة الصيني
بشارع المعز لدين الله

المدارس وجعلها تحت إشرافها لسبب أو لآخرِ ونلحظ ذلك من سياق حديث ابن جبير في القرن السادس الهجري من خلال قول صلاح الدين الأيوبي للشيخ الحبنو شبانى المشرف على عمارة المدرسة الناصرية:".... زاد احتفالا وتأنقا وعليا القيام بمئونة ذلك كله ..."(٢٦٥). ويقول:"والإجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطات في كل شهر والمدارس التي بمصر والقاهرة كذلك..."(٢٦٦).

ويشير عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) (٨٠٨هـ/١٤٠٦م) إلى ازدياد أعداد المدارس ووضوح معاليمها منذ القرن السادس الهجري وما تلاه من قرون على يد بنى أيوب فيقول: "... أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيون على القدم منذ عهد مواليهم ملوك بنى أيوب بإنشاء المدارس لتدريس العلم... واقتدى بسنتهم في ذلك من تحت أيديهم من أهل الرياسة والثروة وكثرت لذلك المدارس..."(٢٦٧).

ويقول في موضع آخر: " ... وكنت لأول قدومي على القاهرة وحصولي في كفالة السلطان شغرت مدرسة بمصر من إنشاء صلاح الدين بن أيوب..."(٢٦٨). ويذكر الرحالة القزويني عن دمياط قوله: " وهى من ثغور الإسلام.. وعلى سورها مدارس ورباطات كثيرة ..."(٢٦٩) وعن القاهرة فقد ذكر أن بها مدرسة الإمام الشافعي: قائلا: " ... وبها مدرسة الشافعي وفيها قبره.."(٢٧٠).

وفى نفس الوقت أشار العبدري إلى بعض المدارس الموجودة آنذاك والتي شاهدها بأم عينه فقال: "... وكنت نزلت بالمدرسة الكاملية (٢٧١) منها في علو مشرف على السوق..."(٢٧٢) ويقول: " ... ولم أر بهذه المدينة – على كثرة الخلق بها– أمثل وأقرب إلى الإنسانية... من الشيخ الفقيه.... شرف الدين الدمياطي ... المحدث بالمدرسة الظاهرية (٢٧٣) حفظه الله وهو شيخ وسيم أبيض ذو صورة مقبولة..."(٢٧٤). ويذكر: "... كا فقهيا حنفيا قاضيا بآمد مدرسا بالمدرسة الديلمية(٢٧٥) من المغربة..."(٢٧٦) وفى موضع آخر يشير بقوله: " ثم وصلنا إلى مدينة الإسكندرية فأنزلنا شيخنا الفقيه زين الدين بمدرسة إقرائه وأولانا من بره وتأنيسه..."(٢٧٧).

ويتحدث بن شاهين الظاهري في كتابه " زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك " – والذى يعتبر بمثابة عرض للوظائف السياسية والإدارية في إمبراطورية المماليك في القرنين السابع والثامن بعد الهجرة – عن المدارس الكبار في مصر(٢٧٨) فيقول: " ... والجوامع والمدارس الكبار ... مما يطول ذكرهم ومن المدارس المؤيدية

والظاهرية والصالحية والمنصورية والاشرفية والشيخونية والضرغتمشية وغير ذلك مما يطول شرحه ... وأما مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة المنصورة فليس لها نظير في الدنيا..."[٢٧٩].

وعن مدارس ثغر الإسكندرية يقول: "... وبه من الجوامع الحسنة والمدارس المرخمة والمنقوشة ما يطول شرح وصفهم ..."[٢٨٠] وأشار بن شاهين إلى اهتمام الأثرياء بإقامة المدارس في مصر فقال:"... كان بالثغر تاجر يقال له الكويك عمر به مدرسة مشهورة الآن ..."[٢٨١]. وتحدث ابن بطوطة أيضا عن أحد الأثرياء قام ببناء مدرسة بدمياط فقال: "... وكان بدمياط أيام إقامتي بها وال يعرف بالمحسن من ذوى الإحسان والفضل بنى مدرسة على شاطئ النيل بها كان نزولي في تلك الأيام..."[٢٨٢].

كذلك وصف الرحالة الطنجي ابن بطوطة مدارس مصر آنذاك بالكثرة مما يدل على ازدياد بناء المدارس بداية من القرن السادس الهجري وما بعده من القرون وأن بناء المدارس سار في خط تصاعدي منذ القرن السادس الهجري فقال: " ... وأما المدارس بمصر فلا يحيط بحصرها لكثرتها ..."[٢٨٣]كما أشار لنا ابن بطوطة إلى ارتباط المدرسة مع منشآت أخرى فيقول: "ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة..."[٢٨٤].

ولم تقتصر المدارس على القاهرة والإسكندرية فقط بل انتشرت في ربوع مصر بوجهيها القبلي والبحرى، فقد شاهد ابن بطوطة أثناء رحلته في مصر الكثير من المدارس منتشرة في أرجاء مصر، فقال عن بلاد الصعّيد: "...وحق لها – يقصد منية ابن الخصيب وهي مدينة المنيا حاليا– على بلاد الصعيد التفضيل بها المدارس والمشاهد"[٢٨٥]. وايضاً: " ... وسافرت من إخميم إلى مدينة (هو) مدينة كبيرة بساحل النيل نزلت منها بمدرسة تقى الدين بن السراج..."[٢٨٦] ويتابع حديثه عن المدارس فيقول: " ... ثم سافرت إلى مدينة قنا.. ورأيت بالمدرسة السيفية منها ... وسافرت من هذا البلد إلى مدينة قوص.. ولها المساجد الكثيرة والمدارس الأثيرة... ومنها الفقيه بهاء الدين بن

عبد العزيز المدرس بمدرسة المالكية..."[٢٨٧] ويتابع ابن بطوطة حديثه عن مدارس الصعيد وما شاهده منها بقوله: " ... ثم سافرت إلى مدينة أسنا مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع، كثيرة الزوايا والمدارس ..."[٢٨٨]. أما عن إخميم فيقول: "... وكان بإخميم رجل يعرف بالخطيب أمر يهدم هذه البرابي وابتنى بحجارتها مدرسة وهو رجل موسر..."[٢٨٩].

ومن الملاحظ أن التوزيع الجغرافي للمدارس التي أنشئت في مصر بداية من القرن السادس الهجري وخاصة خلال حقبة الحكم الأيوبي لم يأت وليد الصدفة وإنما كان أمرا مقصودا ومدروسا حتى تقوم بدورها في محاربة الفكر الشيعي الإسماعيلي[٢٩٠] في هذه المناطق وقد لاحظنا من خلال رؤية الرحالة لهذه المدارس وأماكن تواجدها أنها تمركزت في المناطق التي تتواجد بها الفئات الشعبية بكثافة مثل الجوامع والأسواق والمشاهد والزوايا.

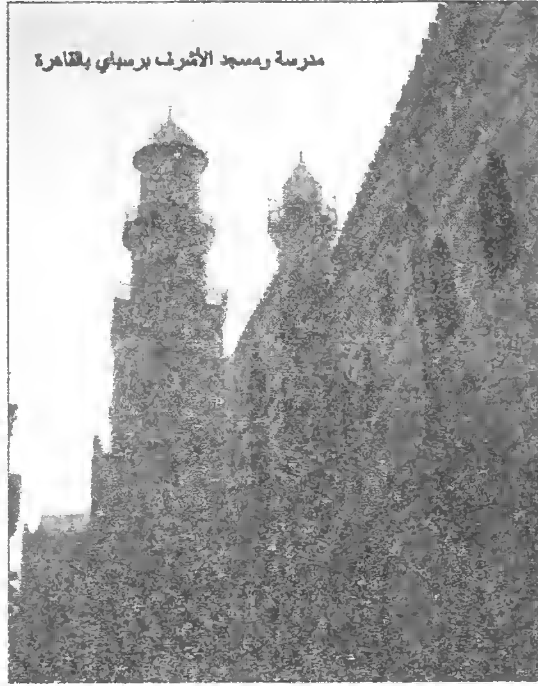
فقد أنشأ صلاح الدين المدرسة الصلاحية بجوار قبة الإمام الشافعي[٢٩١] والمدرسة الكاملية التي نزل بها الرحالة العبدري كانت بوسط السوق وتشرف عليه[٢٩٢] وأخبرنا ابن بطوطة بوجود بعض المدارس متلازمة مع الزوايا والقرافات[٢٩٣] ومغزى ذلك أن القرافة والزاوية كانت مهوى أفئدة قلوب كثير من الطبقات الشعبية في ذلك الوقت وإن كنا لا نزال نرى بعض رواسب هذه الممارسات موجودة في مجتمعنا إلى اليوم، ونجد القزويني في القرن السابع الهجري يتحدث عن وجود مدرسة بجوار قبر الإمام الشافعي فيقول: ".. وبها مدرسة الشافعي وفيها قبره وبالقرافة باب المحلة التي بها مدرسة الشافعي..."[٢٩٤].

وقد اختار سلاطين الأيوبيين والمماليك وأمراؤهم مواقع مميزة لمدارسهم بالشارع الرئيسي لمدينة القاهرة الذي تمر منه مواكب السلاطين[٢٩٥]. وقال المقريزي: " وعبر السلطان (الناصر فرج بن برقوق) إلى القاهرة من باب النصر .. حتى مر بالمدرسة التي نشأها الأمير جمال الدين يوسف الاستدادار برحبة باب العيد ... ولما سار السلطان من

هذه المدرسة مر بمدرسة أبيه في بين القصرين فترل إليها أيضا وزار جده ثم ركب وخرج من باب زويلة إلى القلعة..."[٢٩٦] وربما كان الهدف من دقة اختيار مواقع المدارس بقلب المدن حتى يسهل التعرف عليها والوصول إليها.

كما أن المدارس لعبت دوراً مهماً بجانب مقاومة التيار الشيعى في مصر منذ القرن السادس الهجري وهو تغذية الجهاز الإداري للدولة بما يحتاج إليه من موظفين في دواوينها المختلفة واهتم الأيوبيون بإنشاء هذه المدارس ووقف الأوقاف عليها وتبعهم المماليك الذين أكثروا بصفة عامة من إنشاء المنشآت الدينية ومن بينها المدارس التي وصلت إلى أرقى مستوى من التنظيم والإدارة والمستوى السلمي الذي ينعكس في الموسوعات العلمية والتاريخية والمخطوطات التي تزخر بها المتاحف والمكتبات العالمية وأرست هذه المدارس نظام وتقاليد علمية راسخة[٢٩٧].

ويؤكد القلقشندى في حديثه عن مدارس القاهرة بأنها لم تنتعش إلا في بدايات القرن السادس الهجري وما تلاه من حقب فيقول: " وأما مدارسها–القاهرة– فكانت في الدولة الفاطمية وما قبلها قليلة الوجود بل تكاد أن تكون معدومة ... ثم جاءت الدولة الأيوبية فكانت الفاتحة لباب الخير والغارسة لشجرة الفضل فابتنى الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر " دار الحديث الكاملية " بين القصرين في سنة اثنتين وعشرين وستمائة – ٦٢٢هـــ– ... ثم جاءت الدولة التركية فأربت على ذلك وزادت عليه فابتنى الظاهر بيبرس (المدرسة الظاهرية) بين القصرين بجوار المدرسة الصالحية ثم ابتنى المنصور قلاوون (المدرسة المنصورية) من داخل بيمارستانه .. ثم ابتنى الناصر حسن محمد بن قلاوون (مدرسته العظمى) تحت القلعة ... "[٢٩٨].



لقد كان إنشاء المدارس في مصر بداية عهد جديد في تطور العمران الإسلامي وبخاصة العمائر الدينية وإذا كانت المدارس قد وجدت طريقها إلى مصر – على استحياء – في أواخر العصر الأيوبي حيث بلغ عدد المدارس المعروفة حتى الآن التي شيدت خلال ذلك العصر نحو ست وعشرين مدرسة منها ثلاث وعشرون مدرسة بالقاهرة – لم يتبق من كل المدارس الأيوبية سوى ثلاث مدارس بالقاهرة وهي كل من: مدرسة السادات الثعالبة والمدرسة الكاملية والمدرسة الصالحية [٢٩٩] ومدرستان بالفيوم [٣٠٠] ومدرسة واحدة بالإسكندرية [٣٠١].

والمدرسة كمؤسسة سيئة رسمية لم تعرف على مستوى واسع في مصر إلا مع تولى صلاح الدين للوزارة للعاضد آخر خلفاء الفاطميين وبدأ صلاح الدين خطواته في عام ٥٦٦هـ/١١٧١م حيث أمر بهدم دار المعونة بمصر وعمرها (مدرسة الشافعية) وكانت بجوار جامع عمرو بن العاص [٣٠٢]. وجعل الشيخ نجم الدين الخبوشاني مدرسها وناظرها [٣٠٣].

وقد توافرت للمدارس في القرنين السادس والسابع الهجريين عدة عوامل داخلية وخارجية ساعدت مجتمعة على ازدهار المدارس كنمط عمرانى فريد له دلالاته المتعددة جعلت مصر "منبع العلم" (٣٠٤) و "عز الإسلام " (٣٠٥).

لما حوته مصر بين أركانها من مدارس حتى دفع ذلك بالقلقشندى أن يقول: " ... وفى خلال ذلك ابتنى أكابر الأمراء وغيرهم من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها..."(٣٠٦).

وكان إدخال نظام المدارس في مصر بمثابة انقلاب في الثقافة والفكر(٣٠٧). إضافة إلى أنه كان بداية لانطلاق المدرسة في مصر على أوسع مدى كنموذج عمراني فريد إلى جانب تطور التخطيط المعماري للمدارس في أواخر عصر الدولة الأيوبية وتمثل ذلك في المدرسة الصالحية فأصبحت تتكون من مدخل يؤدى إلى دهليز مستقيم في كل جانب بجانبه باب يؤدى إلى فناء مستطيل ينتهى من كل جانب إيوان وملحق بالمدرسة ضريح بجوار الإيوان الغربى(٣٠٨).

وقد أشار ابن جبير إلى وجود المدرسة أو المسجد بجانب مرفق عمراني آخر وأطلق عليه لفظ "مركبة" فقال:"وبالجملة فهى كثيرة جدا .. وربما كانت مركبة ..."(٣٠٩). وبذلك نجد نظام الجاميع العمرانية وجدت طريقها في خريطة العمران المصري والتى تطورت بعد ذلك طوال العصر المملوكى وأطلق ابن جبير لفظ محاضر على المدارس في القرن السادس الهجري في إشارة لاعتناء الدولة والسلاطين ببناء المدارس قال: " ... ومن مآثره الكريمة – يقصد صلاح الدين – المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة أنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله ..."(٣١٠).

ويصف ابن خزيمة (محمد بن عبد الوهاب) الذي قدم الإسكندرية في سنة ٥٦٠ هـــ وأقام بها أربعين سنة أن الإسكندرية كان بها ٨٠٠ مسجد منها ١٩٠ مسجدا للخطبة وكان بها ١٨٠ مدرسة لطلب العلم(٣١١). ونستشف من هذه الأرقام التي

ذكرها ابن خزيمة والهروى وابن جبير وغيرهم من الرحالة رغم تفاوت المبالغات أن كثرة المساجد والمدارس في تلك الفترة يعبر عن غلبة النزعة الدينية في مصر في عصر سيطرت فيه الرغبة في الجهاد والرباط(٣١٢).

كما أنها تعكس تأثر المدن المصرية تأثراً واضحاً بالسياسة المدينية للحكام في كل عصورها وكان لها أثرها الواضح على العمران الديني والفكري والاجتماعي في مصر في القرنين السادس والسابع الهجريين وانجلى هذا واضحا عندما نهض العالم السنى في الشرق للتصدى للمد الشيعى واتخذ أسلحة مختلفة لتحقيق ذلك كان من ضمنها المنشآت الدينية كالمدارس والجوامع والخانقات كمؤسسات دينية تعليمية لنشر المذهب السنى والتى أدخلها صلاح الدين إلى مصر بعد أن قضى على الفاطميين .

واستمر إنشاء هذه المنشآت العمرانية في عصر سلاطين المماليك لأهداف ارتبطت بمحاولة الظهور بمظهر حامى الدين لإقناع الشعب بأحقيتهم في الحكم الذي استولوا عليه دون سند شرعى(٣١٣). احتكاماً لمبدأ الحكم لمن غلب من هنا بدأ الاهتمام بالعمائر الدينية والاجتماعية كمظهر لإضفاء الصفة الشرعية على حكم المماليك حتى أن المقريزي يشير إلى ملوك وسلاطين هذا العصر بقوله:

وهم الملوك إذا أرادوا ذكرهم　　من بعدهم فبألسن البنيان

إن البناء إذا تعاظم شـــــأنه　　أضحى يدل على عظيم الشان[٣١٤]

وحفلت القاهرة مثلاً في العصر المملوكي بعمائر قل أن تتجمع في وطن واحد وأخذت تتطور عبر العصور والسنين في سلسلة مرتبطة مكونة حلقة فريدة من التنوع والتشكيل وكما كانوا يتفاخرون بالرتب والمناصب وعدد المماليك الذين في حوزتهم كانوا أيضاً يتفاخرون بعظم مبانيهم وأثارهم التي كانت تخلد أسمائهم [٣١٥].

وكان بيبرس هو رائد حركة البناء التي تمت بالقاهرة ، وقد أقتفى أثره باقي سلاطين المماليك ، فمنذ عهده انتاهم حماس البناء والتعمير الذي بلغ ذروته في عهد الناصر محمد بن قلاوون خاصة في سلطنته الثالثة .

ويجدر بنا ملاحظة أن أكثر منشآت المماليك كانت متمركزة في حدود القاهرة وظواهرها ، وهي منطقة محدودة بالنسبة لطول الفترة التي مرت بها هذه المنطقة ، فمنذ الفتح العربي (٢٢هـ/٦٤٢م) حتى نهاية عصر المماليك (٩٢٢هـ/١٥١٧م) ، والمنشآت متمركزة في هذه المنطقة لذلك سوف نرى أنه في بعض الحالات كانت تهدم عمائر ويقام بدلاً منها عمائر أخرى .

وكان أول شئ فعله الظاهر بيبرس سنة ٦٦٠ هـ أن أشهد الفقهاء والعلماء على من بقى من الفاطميين وتنازلهم عن القصور والمناطق التي بالقاهرة باعتبارها ملكاً لبيت المال وملكاً لخزانة الدولة [٣١٦] فقد عمل على تغيير هذه القصور إلى عمائر مدنية ، وعلى الرغم من أنه من الصعب حصر جميع منشآت المماليك وأمرائهم ، ولكن يمكننا أن نرصد التطور العمراني الذي شهدته القاهرة خلال تلك الفترة والمناطق التي ظهرت خلال عهدهم أو عمرت ، خاصة وأن إقامة إحدى المدارس أو الجوامع دليل على كثرة عدد الناس في هذه المنطقة بحيث يجب التوسيع في المسجد ليصبح جامعاً أو أن إقامة أحد الجوامع في منطقة ما فيكون هذا دليلاً على كثرة عدد السكان في هذه المنطقة بحيث أنه تحتم إنشاء جامع بها. وعندما قام بيبرس ببناء جامعاً في شمال القاهرة في منطقة الحسينية وبناء زاوية هناك للشيخ خضر سنة ٦٣٣هـ كان ذلك إيذاناً للناس بالتعمير في هذه المنطقة بحيث أصبحت هذه المنطقة أعمر مناطق القاهرة على الإطلاق [٣١٧]

وغير ذلك من العوامل التي أدت إلى كثرة إنشاء المساجد والمساجد الجامعة والمدارس التي أتاحت فرصة كبيرة لرفع المستوى التعليمي والفكر بالمدن المصرية فضلا عما كانت تنعم به مصر من ثراء فكرى تحدث عنه الرحالة أسامة بن منقذ في كتاب

العصا حيث كانت خزانة الكتب الفاطمية مقصد لكثير من علماء المشرق والمغرب حيث أشار الرحالة ابن منقذ بأن: "القاضي الإمام الصدر العالم أبا يوسف القزويني رحمه الله ... سافر إلى مصر في أيام الحاكم صاحب مصر فأحسن إليه وأكرمه ووصله بصلات سنية ما ستعفى منها وسأله أن يجعل صلبته كتبا يقترحها من خزانة الكتب فأجابه إلى ذلك فدخل الخزانة واختبار منها ما أراده من الكتب ثم ركب في مركب وتلك الكتب معه يريد بلاد الإسلام التي في الساحل..."[٣١٨].

ارتبطت السوق كذلك بالجامع الرئيسي، وقد اتخذت كما يتضح من وصف الرحالة في القرنين السادس والسابع الهجريين لها في عديد من المدن المصرية أشكالا متعددة كما كانت القيصاريات أحد معالمها البارزة وكان بعضها يرتفع عدة طبقات وتحتل الحوانيت الطابق الأرضي والمخازن، وأماكن المبيت الأدوار الأخرى.وقد وجدنا ما يقرب من ٢٥٠ سوقاً في القاهرة والفسطاط ، وكان ذلك قبل سنة ٨٠٦م ، حيث خرب الكثير منهم ، وقد ذكر المقريزي في خططه ٥٢ سوقاً ، وهي الأسواق التي على ساحل النيل غرب القاهرة قد خرب معظمها وقد سرد ٥٠ سوقاً من هذه الأسواق ٣١٩

وقد كانت الأسواق من أهم ما يلفت نظر الرحالة بحكم نزولهم إليها واحتكاكهم فيها بالعنصر البشرى والواقع أن كتابات الرحالة الشرقيين والغربيين الذين زاروا مصر في تلك الفترة تشير إلى كثرة أسواق مصر من الجنوب إلى الشمال وكتابات هؤلاء الرحالة تشير بشكل أو بآخر إلى العدد الكبير للأسواق من ناحية، كما كانت تموج بالحركة والنشاط، وتكتظ بأصناف البضائع من ناحية أخرى كما أننا نستنتج أنه كانت لكل مدينة من المدن المصرية أسواقها الخاصة بها وكان لبعض تلك المدن عدة أسواق قد تزيد أو تقل حسب مساحة المدينة وعدد السكان[٣٢٠].

ونجد ذلك في كتابات بيرو تافور عن المدن المصرية التي زارها وما ذكره ابن بطوطة من أن المسافر على صفحة نهر النيل لا يحتاج إلى أن يحمل معه زاداً: "... لأنه

مهما أراد النزول للشاطئ سيجد سوقا يشترى منه ما يريد.. والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر ومن مدينة مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد ..."[٣٢١].

والسوق في اللغة مشتقة من سوق الناس بضائعهم وهى تذكر وتؤنث وجمعها أسواق ونفقت السوق تنفق إنفاقاً ونفوقا غلت ورغب فيها وكذلك السلعة وانفقتها ونفقتها، أنفق القوم نفقت سوقهم[٣٢٢]، والسوق كذلك موضع المباعات[٣٢٣]. ووجدنا السوق يرتبط بالجامع غالبا فتنشأ الأسواق بجوار الجامع وحوله. فيقول الكرخى: " ... وبها مسجدان للجمعة: بنى أحدهما عمرو بن العاص في وسط الأسواق ..."[٣٢٤]، ويؤكد ذلك الإدريسي في القرن السادس الهجري: "... ولها مسجدان جامعان للجمعة والخطبة فيها أحدهما بناه عمرو بن العاص في وسط أسواق تحيط به من كل جهة ..."[٣٢٥].

ونستدل على اجتماع السوق والجامع في مكان واحد من سياق حديث الكثير الرحالة عن السوق والجامع والربط بينهما بحرف العطف "الواو" حيث يفيد الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه في حكم واحد . فيقول ابن جبير:" ... فيه الأسواق – القاهرة – الجميلة ومسجد جامع كبير حفيل البنيان ..."[٣٢٦].

وقد وجدت بعض الأسواق المقنطرة خاصة في الثغور المصرية فيقول صاحب الاستبصار عن أسواق الإسكندرية أنها: "... أسواقها مقنطرة فلا يصيب أهلها المطر ..."[٣٢٧]. وعن إخميم يشير إلى ارتباط السوق بالجامع فيقول: " وفيها أسواق ومساجد كثيرة..."[٣٢٨]ولاحظ ذلك الرحالة الفارسى حسرو فيقول: " ... تنيس جزيرة ومدينة جميلة ... وبها أسواق فخمة وجامعان، وقد يبلغ عدد الدكاكين بها عشرة آلاف دكان..."[٣٢٩]. ويقول: " ... وفى وسط سوق مصر جامع يسمى باب الجوامع..."[٣٣٠]. ويذكر إحاطة الأسواق للمسجد فيقول: "... ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع الأسواق وعليها تفتح أبوابه ..."[٣٣١].

مما يعد إشارة على اتساع مساحة الأسواق وتمييزها.بتخصص كل جزء منها بحرفة من الحرف أو تجارة معينة، فسوق جامع عمرو بن العاص –مثلا– تميز جانبه الشمالى بصناعة خاصة، فيقول صاحب سفر نامة: "... وعلى الجانب الشمالي للمسجد سوق يسمى (سوق القناديل) لا يعرف سوق مثله في أي بلد وفيه كل ما في العالم من طرائف..."(٣٣٢).

ويلاحظ تشابه أغلب الأسواق في كافة المدن المصرية من حيث نظمها، كما يتضح ذلك من المقارنة بين وصف المقريزي لأسواق القاهرة والوصف الذي ورد في قصص ألف ليلة لأسواق الإسكندرية، والوصف الذي ذكره بعض الرحالة الغربيين لأسواق رشيد ذلك أن كل سوق انفرد بنوع معين من البضائع، فسوق الشماعين اختص ببيع الشمع وسوق الدجاجين ببيع الدجاج والطيور الداجنة وسوق السلاح ببيع القسي والنشاب... وهكذا ..."(٣٣٣).

ونلاحظ أن الرحالة الغربي بيرو طافور أثناء تواجده بالقاهرة لم يتمكن من الوصول إلى المسجد الجامع إلا بعد مروره بالأسواق وسط العديد من الباعة فيصف ذلك بقوله: "... ونحن في الطريق إذ يخرج الباعة حاملين الموائد وعليها الطعام المطبوخ وآخرون يبيعون الفاكهة وسواهم الماء إلى غير ذلك من الأشياء الكثيرة ووصلنا إلى المسجد الجامع ..."(٣٣٤).

كما عانى الرحالة الأندلسي ابن سعيد أثناء مروره بالأسواق المحيطة بجامع الفسطاط فيقول: " فقاسيت من ازدحام الناس فيها بحوائج السوق .. إلى أنْ انتهيت إلى المسجد الجامع ..."(٣٣٥) ويشير إلى إحاطة السوق بالجامع وارتباطهما بقوله: " .... فعانيت من ضيق الأسواق التي حوله – يقصد المسجد الجامع – ..."(٣٣٦).

بل وجدنا أن السوق قد تصل إلى حرم الجامع كما في سوق الفسطاط في القرن السابع الهجري طبقا لرواية ابن سعيد الأندلسي حيث يقول: "... ثم دخلت إليه

فعاينت جامعا كبيرا قديم البنية .. فيه أبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبراً بأوطئه اقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما جرى مجرى ذلك ... وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على من يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم منهم رزقا"(٣٣٧).

وكان لامتداد الأسواق إلى المساجد والجوامع أثر في عدم ظهورها بمظهر غير حسن مما كان ذلك بمثابة موضع نقد في أعين الرحالة يثير لديهم الدهشة والغرابة: " ومن الغرائب عندهم تضييع المساجد والجوامع وإهمالها.."(٣٣٨). مما يدفعهم إلى وصف هذه المساجد والجوامع "مثل المزابل"(٣٣٩).

وقد جعل ذلك ابن الحاج(٣٤٠). في كتابه "المدخل" أن يدعو الناس إلى ضرورة الامتناع من الشراء من أصحاب الطلبليات والدكك المستديمة في الطريق لأن ذلك تعديا على الطرق وخاصة الملاصقة لأبواب الجوامع والمدارس(٣٤١).وجدير بالإشارة أن الأسواق والمصانع في جميع مدن المشرق العربي تقع غالباً بالقرب من منطقة الجامع الكبير للمدينة(٣٤٢).

ويلاحظ أن امتداد الأسواق إلى المساجد والجوامع وتداخلها أحيانا في الحرم أصبح ذلك صفة غالبة على غالبية الأسواق والمساجد، ونلاحظ ذلك فيما أورده ابن دقماق (المتوفى ٨٠٩هـ) في الانتصار من حصر للمساجد الممتدة إلى الأسواق والمقامة في وسط الأسواق والفنادق(٣٤٣) ونلحظه كذلك من خلال دعوة ابن الأخوة إلى غلق أبواب الجوامع والمساجد عقب الصلوات وصيانتها ممن يعمل صناعة أو يبيع فيها سلعة(٣٤٤).

وذكر اليعقوبي أن: " الأسواق كانت محيطة بالمسجد الجامع بالفسطاط في الجانب الشرقي من النيل "(٣٤٥).

وترجع ظاهرة امتداد الأسواق إلى المساجد ؛ مرجع أن هذه الأسواق في الغالب تكون مزدهرة مما يكشف لنا عن العلاقة التي تربط بين الجامع والسوق وأثر الأول في الثاني اقتصاديا، ويؤكد ذلك ابن عبد الحكم أن أكثر ا لأسواق ازدهارا، القريبة من المسجد الجامع [(٣٤٦)] وشاهد الرحالة جوزيف بتس عام ١٦٨٠م. وجود المساجد الصغيرة في الخانات ومرجع ذلك لدواعي أمنية آنذاك، فقال: "... وفى القاهرة بضع مئات من هذه الخانات يوجد في أحواشها مساجد صغيرة حتى يؤدى فيها الراغبون صلاتي المغرب والعشاء لأنه من الخطورة بمكان السير في الشوارع بعد إيقاد الشموع... "[(٣٤٧)].

ويلاحظ أن أسواق المدن المصرية كانت تمثل قطاعا رئيسيا من النشاطين الاجتماعي والاقتصادي في المدن وتركزت في المنطقة المحيطة بالمسجد الجامع كما شاهدها الرحالة على جانبي الشوارع الرئيسية النافذة دون الطرق الخاصة وقصد من هذا التخطيط لأنه من جهة يحصر النشاط والحركة التجارية في شوارع عامة متسعة لحركة المرور والحركة التجارية على جانبيها وفى الوقت ذاته فإن تراص الحوانيت في الأسواق على جانبي الشوارع العامة المتسعة كان هو المسموح به لأن بناء الأسواق على جوانبها لا يتسبب في أذى الوحدات السكنية بكشف حرماتها ولتيسير السيولة المرورية[(٣٤٨)].

ويبدو أن التدهور العمراني كان يزحف رويداً رويداً على بعض المدن المصرية خاصة في القرن السابع الهجري حيث عانى الرحالة ابن سعيد من ضيق أسواق الفسطاط، فقال: " سرت في أسواقها الضيقة فقاسيت من ازدحام الناس فيها بحوائج السوق والروايا التي على الجمال ... إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع فعانيت من ضيق الأسواق التي حوله ..."[(٣٤٩)] أما الرحالة العبدري فوصف حالة أحد الأسواق بقوله: " ... الزحام متصل والطرق غاصة بالخلق "[(٣٥٠)].

وكان لضيق الأسواق والطرقات في مصر أحد الأسباب التي دعت ابن الأخوة إلى الدعوة إلى أن: " الطرقات الضيقة فلا يجوز لأحد من السوقة الجلوس فيها ولا إخراج مصطبة دكان عن سمت أركان السقائف إلى الممر الأصلى لأنه عدوان ويضيق على المارة فيجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله.."(٣٥١).

كما تحدث ابن سعيد عن أسواق وشوارع القاهرة بقوله: " القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر ... ولكن ذلك أمر قليل ثم يسير منه أمد ضيق في ممر كدر حرج بين الدكاكين إذ ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة ... وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة والمباني عليها من قصب وحلين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها..."(٣٥٢).

وقد شارك كثيرون من الرحالة الذين زاروا القاهرة " ابن سعيد " والعبدري في رأيهما في زحام القاهرة وضيق أسواقها ودروبها بجانب الصورة التي قدمها لنا الرحالة السابقين عن ابن سعيد والعبدرى مثل المقدسى (ت٣٩٠) الذي وصف الفسطاط بقوله: " أجل من مدينة السلام (بغداد) ... عجيبة المتاجر والخصائص حسن الأسواق "(٣٥٣). وناصر خسرو الذي وصف الفسطاط بأنها " "بها أسواق وشوارع توقد فيها القناديل لأن ضوء الشمس لا يصل إلى أرضها وبها جوامع كثيرة وحدائق غناء ..."(٣٥٤). وذكر خسرو عن القاهرة بأنها: "ضمت من المحال والأسواق ما لا يقل عن عشرين ألف دكان وكان بها أربطة وحمامات وأبنية ..."(٣٥٥).

ويبدو أن التكثيف العمراني في المدن المصرية خاصة القاهرة والفسطاط ارتبط ارتباطا وثيقا بظروفها السياسية والاقتصادية التي دعت إلى نموها وازدياد الهجرة إليها وتكثيف الكثافة السكانية بها تلك الكثافة التي زادت نسبتها إلى حد بدت معه أحيانا بوادر أزمة المساكن كما حدث في القاهرة في عهد السلطان برسباى وكان ذلك من

دواعى توجيه الاستثمار نحو إنشاء الرباع والمساكن للفئات التي لا تستطيع بناء المساكن [٣٥٦].

ودلل المقريزى على ازدياد عدد سكان القاهرة في العصر المملوكى بطريقة غير مباشرة في سياق حديثه عن درب السفافير فقال: " .. درب السفافير بنى فيه زقاق بنى بالرصاص وكان فيه جماعة إذا عقد عندهم عقد لا يحتاجون إلى غريب وكانوا هم وأولادهم نحوا من أربعين نفسا ..."[٣٥٧].

وعندما زار الرحالة برايد نباخ القاهرة عام ١٤٨٣هـ ذكر أنها: "مدينة كبيرة مزدحمة بالسكان وبها ما يقرب من خمسة عشر ألف تاجر ولهم أحياء وشوارع خاصة بهم حيث اشترينا منها الأسلحة والعطور والتوابل ..."[٣٥٨].

إذاً كانت الأسواق مكون هام من مكونات العمران في المدن المصرية في القرنيين السادس والسابع الهجريين، وقد كان للنشاط التجاري في مصر في هذه الحقبة التاريخية المهمة أن اقتضى ذلك إنشاء الأسواق وبناء العمائر التجارية وكانت هذه الأسواق تطور طبيعي للنمو السكاني والازدهار العمراني الذي شهدته مصر في تلك الفترة التي بدأت مع بواكير القرن السادس الهجري وزادت حدتها في القرن السابع الهجري .

فقد شهدت مصر مع أواخر القرن السادس الهجري وخمسينيات القرن السابع الهجري نمواً سكانيا كبيراً صارت فيه مصر هي معقل الدفاع الأخير عن الثقافة الإسلامية والعربية [٣٥٩] وسور الثقافة العظيم بصورة تؤكد فيها ملكة الحد الأوسط وتجعل سيدة الحلول الوسطى أمة وسطا بكل معنى الكلمة بالموقع والدور الحضاري والتاريخي في الموارد والطاقة في السياسة والحرب في النظرة والتفكير [٣٦٠] مما يؤكد على أن الثقافة هي جوهر مصر وعروبتها وخلاصتها الصافية النقية حتى وإن ذهب كل شئ إلا أن الثقافة هي التي تبقي. فإن قل في أيدينا المال بعد أن كان وفيراً فلسنا نأسى على المال لأن الثقافة ثروتنا الباقية وإن كثر في أيدي غيرنا فنحن نغبطهم على الوفرة

وتظل يد مصر وانتمائها العربي والإسلامي هي العليا التي سبقت ، ولن يستطيع أحد أن يغير ما سبق.

حيث كان العالم الإسلامي في الشرق والغرب يتعرض لضربات موجعة من التتر ومسيحيي غرب أوربا فقد دفعت الغزوات التترية بالكثير من سكان العراق والشام إلى مصر، كما أن حروب الاسترداد المسيحية في الأندلس دفعت بعدد ضخم من مسلمي الأندلس والمغرب إلى مصر إضافة لبعض الهجرات المغولية والكردية والتركمانية إلى مصر بجانب وفود بقايا الجيش العباسي وبعض المحاربين الأكراد الذين تجاوز عددهم بضعة آلاف [٣٦١].هذه الهجرات أثرت بشكل مباشر في معدل النمو السكاني وأدى لزيادة طارئة في أعداد السكان [٣٦٢].

وأدى هذا النمو السكاني إلى توسيع القاهرة والمدن وإقامة المشروعات الزراعية والصناعية التي أدت بدورها إلى انتشار الأسواق الزاهرة واتضح ذلك في عصر بيبرس وقلاوون[٣٦٣].ولا شك أن الازدهار السكاني يؤدى إلى ازدهار العمران وتعضيد مكونات المدن ونموها العمراني، ولاسيما الأسواق التي تعتبر المؤشر المباشر في معرفة مدى ازدهار الدولة من عدمه على اعتبار أنها مركز النشاط الاقتصادي بالمدن واستقرارها .

فإذا حدثت أزمة اجتماعية أو اقتصادية نتيجة ظروف ما سرعان ما ينعكس ذلك على الأسواق مما يحدو بأصحاب رؤوس الأموال إلى سحب استثماراتهم من الأسواق، وكما يقول أبو المحاسن: " ومع اشتداد الأزمة في شهر ذي القعدة سافر غالب من كان بمصر من الغرباء إلى بلادهم خوفاً من هجوم الغلاء[٣٦٤].

إضافة إلى أن الأسواق كانت مؤشراً مهماً لإحكام قبضة الدولة على مختلف مظاهر النشاط الاقتصادي آنذاك، وكلما حظيت الطبقات الشعبية باهتمام الدولة انعكس ذلك في صورة رقابة صارمة على الأسعار في هذه الأسواق أو إقامة بعض

الإنشاءات أو التوسعات أو الحرص على استكمال وسائل الإضاءة والنظافة فيها[٣٦٥]. كما أثرت العلاقات السياسية فيما بين المماليك أنفسهم بالسلب أو الإيجاب وصراعاهم الداخلية في جميع النشاطات التجارية بالأسواق[٣٦٦].

فالأسواق هي المرآة التي انعكست عليها الأحوال السياسية والاقتصادية ومظاهر الحياة الاجتماعية في الدولة، فقد كانت الأسواق جزءا حيويا مهما في المدن، فسوق المدينة هو مرآة حياها الاقتصادية وعنوان نشاطها الصناعي والاجتماعي أيضا... وكان صاحب كل صنعة أو سلعة معينة يلزم موقعه في السوق وقد أثر عن عمر بن الخطاب قوله: " الأسواق على سنة المساجد من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته ويفرغ من بيعه..."[٣٦٧].

وقد رصد لنا الرحالة أسواق مصر منتشرة في كافة المدن المصرية في الوجه القبلي والبحري حيث كان لكل مدينة أسواقها الخاصة بها [٣٦٨] وقال القزويني من الفسطاط: " ... وبها أسواق وجامع ... "[٣٦٩]. وأعجب ابن جبير بأسواق الإسكندرية فقال: " ... وأسواقه في نهاية من الاحتفال أيضا..."[٣٧٠] وقال عن مدينة قليوب أن: " فيها الأسواق الجميلة ومسجد جامع كبير حفيل البنيان.."[٣٧١]حتى أن الرحالة العبدري شاهد في أقصى جنوب مصر في موضع يعرف بالبركة على طريق الحج: " سوق عظيمة يستتم بها الحجاج جهازهم.."[٣٧٢]وساعدت الأسواق التي كانت مقامة في الصعيد الأعلى على رواج حركة التجارة الداخلية إذ تتم فيها عملية البيع والشراء في السلع التي يحتاج إليها الناس[٣٧٣].وانتشرت الأسواق على ضفتي النيل من القاهرة إلى أسوان، وقد شاهد ابن بطوطة هذا النشاط التجارى لتلك الأسواق [٣٧٤].

فاشتهرت مدينة إسنا – مثلاً – بالأسواق يقول أبو الفداء: " إسنا بلدة بها حمامات وأسواق "[٣٧٥]أما ابن بطوطة: " كان بمدينة إسنا أسواق حسان"[٣٧٦]. وكان فيها سوق أسبوعى يكتظ بالمنسوجات الكتانية والأواني الفخارية وبعض

الملابس(٣٧٧).وأشار العبدرى إلى التصاق الأسواق بالمدارس أيضا بقوله: " ...وكنت نزلت بالمدرسة الكاملية منها في علو مشرف على السوق ..."(٣٧٨). كما وجدت الأسواق الزاهرة في كثير من مدن الصعيد مثل قوص حيث كانت أسواقها منسقة المرافق لكثرة الوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنود وتجار الحبشة (٣٧٩). وأشار الإدريسي لذلك بقوله: " ... وكانت قوص تحفل بأسواق جامعة وتجارات ..."(٣٨٠). ويقولِ ابن بطوطة: " وأسواقها مونقة ..."(٣٨١).

كما نالت الفسطاط عناية الرحالة الذين تركوا أوصافا دقيقة خلفتها انطباعاقم عن أسواق هذه المدينة . ووصف مظاهر العمران بها . فقد ذكر المقدسي الذي زار الفسطاط في أواخر القرن الرابع الهجري: " أن ساحلها كثيرا المراكب وهو متجر الأنام وأجل من مدينة السلام خزانة المغرب ومطرح المشرق وعامر الموسم، عجيب المتاجر والخصائص حسن الأسواق والمعايش.."(٣٨٢) وقد ذكر ناصر خسرو في أثناء وصفه للمدينة وأسواقها: "أن دكاكين البزازين والصوافين وغيرهم مملوءة بالذهب والجواهر والأمتعة المختلفة والملابس المذهبة والمقصبة بحيث لا يوجد منها متسع لمن يريد أن يجلس.."(٣٨٣).

ولهذا ذكر بن سعيد المغربي الذي زار مصر في القرن السابع الهجري: "أن الفسطاط أكثر رزقا وأرخص أسعارا من القاهرة .." وأن أسواق القاهرة هي: " أسواق ضخمة إلا أنها ضيقة .."(٣٨٤).وعن أسواق القرن السابع الهجري يصف الرحالة عبد اللطيف البغدادي حالة الأسواق في ا لقاهرة بقوله: " دخلنا مصر فرأينا منها دروبا وأسواقا عظيمة كانت مكتظة بالزحام .."(٣٨٥).وقد أشار ابن جبير الذي مر بمصر وهو في طريقه للحج في النصف الثاني من القرن السادس الهجري إلى أسواق المدن التي مر بها فذكر: " ..أنه في منتصف الطريق من مصر إلى قوص موضع يعرف بمنفلوط عامر بالأسواق..."(٣٨٦).

كما اشتهرت قوص واسنا وأسوان بأسواقها العامرة[٣٨٧]. واشتهرت أسوان على الأخص بسوقها التي كانت تتميز بنشاط حركة البيع والشراء طوال أيام السنة باعتبارها أهم ثغور مصر على النوبة[٣٨٨].كما كان للأسواق دور في شهرة بعض المدن برغم تراجع وانحصار الدور السياسي أو الثقافي والحضاري لهذه المدن فقد ظلت مدينة الفسطاط–مثلا– تستأثر بالشهرة الفائقة لأسواقها بعد قيام مدينة القاهرة، وهذا ما أكده وأشار إليه الكثير من الرحالة الذين زاروا مصر وكتبوا عنها [٣٨٩]. وفاضل ابن سعيد بين القاهرة والفسطاط في مجال المنسوجات: " أن جميع زى الجند هو بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط ..."[٣٩٠].وتحدث صاحب الاستبصار المجهول عن بعض العوامل البيئية التي كانت تهدد بعض عمران أسواق بعض المدن وتؤثر في عمران المدينة فيقول عن مدينة رشيد –مثلا –: " ... وهي مدينة كبيرة على كثيب رمل عظيم إذا هبت الرياح الغربية وهي تشتد عندهم ملأت عليهم سككهم وبيوتهم رملا فلا يقدرون على التصرف في أسواقهم .."[٣٩١].

إضافة للعوامل البيئية فقد كانت الصراعات السياسية الداخلية تؤدى إلى أن تجعل من الأسواق مسرح لهذه الصراعات، وقد أشار إلى ذلك بن منقذ في سياق حديثه عن ثورة بعض فرق الجيش المصري في القاهرة واقتتالهم بالأسواق، فقال [٣٩٢]: " ... فاستظهرت الجيوشية وأصحابها على الريحانية فقتلت منهم في سويقة أمير الجيوش ألف رجل حتى سدوا السويقة [٣٩٣]"

ووجدت بعض الأسواق التي أقيمت على مناطق أثرية في القرن السادس الهجري فيقول الهروى: " ... ومنارة في سوق استبرين من الرخام .. والأصنام التي بسوق الصرف والطلسمات ..."[٣٩٤].

وذكر صاحب الاستبصار عن سوق مدينة أسيوط: "... وفى وسط سوقها بربى تهدم بعضه.."[٣٩٥].

كما اقتربت بعض الأسواق من القصور الفخمة بالمدن الكبيرة مثل القاهرة، فقال القزويني في القرن السابع الهجري: " ... بها قصران – القاهرة– يقصر الوصف دونهما عن يمين السوق وشماله وليس في شيء من البلاد مثلهما.. "(٣٩٦).

وإلى جانب الأسواق العامة كانت القيساريات والوكالات والخانات والفنادق وغيرها من المنشآت، وارتبطت كثرة هذه المنشآت في مصر والتي شاهدها بكثرة الكثير من الرحالة الذين زاروا مصر في العصر الإسلامي ارتباطاً وثيقاً بالأوضاع الاقتصادية والسياسية لمصر حيث كانت هذه المنشآت محور اهتمام في عصر سلاطين المماليك كانعكاس للدور الذي لعبه المماليك في تاريخ التجارة الدولية في ذلك العصر نتيجة انقطاع طرق التجارة البرية من الشرق إلى أوربا بسبب حروب العصر نتيجة انقطاع طرق البحرية مرورا بالبحر الأحمر ثم عبر أراضى مصر إلى البحر الأبيض المتوسط وما تبع ذلك من سياسات اقتصادية مختلفة كسياسة احتكار تجارة التوابل وغيرها وهو ما يتطلب إنشاء هذه المنشآت جانبا استثمارا هاما في حياة مصر لما تدره من دخل وفير .وقد أشار المقريزي إلى وجود ٣١ قيسارية وفندق وخان في القاهرة ومصر ، وكانت كلها تقوم بدور واحد تقريباً وهو إقامة التجار والغرباء ببضائعهم ، كما كان بها حوانيت تؤجر لبيع البضائع ومخازن لهذه السلع ٣٩٧

ويمكن القول أن ازدهار نظام الوقف في عصر المماليك كان من العوامل التي أدت إلى كثرة هذه المنشآت كانت من بين المنشآت الموقوفة وتمثل جانبا مهما من الجوانب الايستثمارية التي اتجهت إليها عيون الواقفين أو المباشرين لهذه الأوقاف رغبة في استثمارها وتنميتها(٣٩٨).

وقد لعبت الأوقاف دورا خطيراً في حياة المدن وانتشرت انتشاراً ملحوظاً حتى خصص لها ديوان يعرف بديوان الأحباس أو الأوقاف وأثر ذلك في عمران المدن المصرية وأصبح واضحاً بصفة خاصة مع بداية القرن السادس الهجري واستمر بعد

ذلك مؤثراً واضحاً من المؤثرات التي دفعت إلى تطور عمران المدن المصرية وأثرت تأثيراً واضحا في تشكيل حياتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية (٣٩٩).

والحقيقة التي تجب الإشارة إليها هي أن المماليك أكثروا من وقف الأوقاف والوقف عليها وكان لهم من وراء ذلك هدف سعوا إليه وهو تأمين مستقبلهم ومستقبل ذريتهم من خلال هذه الأوقاف فقد كان لنظام الإدارة والإقطاع المتبع في هذا العصر وكثرة الفتن التي شاعت أثر واضح في خوف المماليك على مستقبلهم ومستقبل ذريتهم المهدد بضياع الإقطاع المرتبط بشغل الوظيفة والذي يمثل مصدر دخلهم ووجدوا الحل في إنشاء المساجد والربط والزوايا والخانقات والبيمارستانات ووقف الأوقاف عليها من عقار وأرض بما يزيد كثيرا على حاجة مصارف المنشآت الموقوفة ووقف الزيادة على الذرية فكثرت المنشآت الموقوفة والموقوف عليها كثرة بالغة فازداد عمران المدن في الأقاليم التي حكمها المماليك بسبب العمران المرتبط بهذا الاتجاه في استغلال الأوقاف(٤٠٠).

كما كانت القيساريات أحد المعالم البارزة للأسواق، وكان بعضها يرتفع عدة طبقات وتحتل الحوانيت الطابق الأرضي والمخازن وأماكن المبيت الأدوار الأخرى، وكانت تتكون عادة من مجموعة من المباني العامة بها حوانيت ومصانع ومخازن، وأحيانا مساكن، وبها كذلك أروقة والكلمة مشتقة من لفظ يوناني معناه السوق الإمبراطورية مما يدل بوضوح على أنها كانت من إنشاء الدولة، أما في مصر في العصور الإسلامية فيبدو أنها كانت من إنشاء التجار وكبار رجال الدولة (٤٠١).

وذكر دوزى(٤٠٢) أن القياصر/ القياسر بمعنى: " السوق " ولكنها تختلف عنها " فقد كانت عبارة عن مجموعة من المباني العامة وبها حوانيت ومصانع ومخازن وأحيانا مساكن وبها كذلك أروقة بخلاف السوق، التي ليس بها سوى رواق فاخر والكلمة مشتقة من لفظ يوناني معناه السوق الامبراطورى GAESARIA .

وكان في بعض القياسر جوامع ومساجد لتجار المسلمين، يعلوها رباع ذات مساكن، يقيم فيها الصناع والتجار بأجر [٤٠٣]. ويشير ابن عبد الحكم ت ٢٥٧هـ: " أن قيسارية العسل الواقعة بجوار المسجد الجامع، كانت تشغل موقع منبره الذي هدمه قرة بن شريك وكان الناس يصلون فيه الصلوات ويجمعون فيها الجمع ..."[٤٠٤].

والقيسارية كانت سوقا مخصصا لبيع سلعة معينة، وغالبا ما كانت هذه السلعة تصنع بنفس القيسارية التي يقطن بأعلاها صناع هذه السلعة مثل قيسارية البزازين[٤٠٥] THENAUD الذي زار القاهرة عام ١٥١٢م مع السفير الفرنسي أندريه لورى أن بالقاهرة أسواقا متخصصة فهذا سوق العطارين وهذا سوق النحاسين وخلافه وبالأسواق وكالات لبيع السجاد والذهب والفضة والحرير والأحجار الكريمة ولكل طائفة وكالة كما للأجانب من التجار وكالات منها: وكالات الأتراك والي منيين والفرس والمغاربة والهنود..."[٤٠٦]. وشاهد الرحالة العديد من القياسر المنتشرة في ربوع مصر ومدنها.

فيقول العمرى عن قوص: " ... وهى ذات ديار جليلة وفنادق وحمامات ومدارس يسكنها جلة من التجار.."[٤٠٧]. كما يمتدح ابن بطوطة مدينة قوص بقوله:" مدينة قوص مدينة عظيمة لها خيرات عميقة بساتينها مورقة وأسواقها مونقة.."[٤٠٨].

كما وجد بجانب السوق ويؤدى نفس المهمة والوظيفة ؛ الوكالات والفنادق والخانات والرباع [٤٠٩] والفنادق فيقصد بها العمائر التي أنشئت لإقامة التجار الأجانب تسهيلا لإقامتهم في البلاد وقيامهم بالصفقات التجارية وكانت إدارة الجمارك بالموانئ هي الهيئة التي تشرف على هذه الفنادق[٤١٠].

وقد اشتق الفندق اسمه من كلمة يونانية هي بندوكيون PANDOKEION التي كانت تستخدم للدلالة على مثل هذا النمط من المنشآت التجارية / الاجتماعية وقد كان الجزء الأسفل من الفندق يخصص لعرض البضائع على حين كان الطابق العلوي

منه يخصص للنوم وكانت الفنادق المخصصة للتجار الأوربيين تضم كنيسة صغيرة وطاحونا ومعصرة للنبيذ وكان بالقاهرة أيام المقريزي (منتصف القرن التاسع الهجري /١٥م) تسعة عشر فندقا[٤١١].

الرحالة المغربي بن بطوطة في القرن الثامن الهجري يشير إليها بقوله: "... ثم وصلت الى الصالحية، ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها وبكل منزل منها فندق وهم يسمونه الخان، ينزل المسافرون بدوابهم وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشترى منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ودابته .."[٤١٢]. وقد جرت العادة أن يبنى فوق هذه المنشآت العمرانية رباع تؤجر لطوائف معينة من التجار اقتصرت على المسلمين فقط [٤١٣].

كما انتشرت الوكالات في مصر وعلى طول شواطئ البحر الأحمر، إذ يعد الفندق بمثابة منشأة تجارية لخدمة التجار في مصر والشام[٤١٤] أما الوكالة فقد كانت أشبه ما تكون بالأسواق التجارية التي تعرف بالبورصة[٤١٥] والوكالة جاءت من الكلمة العربية التوكيل واستخدم المصريون هذه الكلمة للدلالة على المحل الذي يبيت فيه التجار بامتعتهم[٤١٦].

أما الخانات فقد تخصص كل منها في نوع محدد من التجارة وقد سميت بالخانات ومفردها خان تأثراً بالفرس الذين كانوا يطلقون على الحانوت أو المكان الذي ينزل فيه التجار كلمة خان[٤١٧]. وقد استخدمت كلمة خان منذ أقدم العصور الإسلامية للدلالة على ذلك البناء الهندسي الذي يتكون من العديد من الحجرات التي تحيط ببناء مكشوف يضم غالبا طابقين[٤١٨].

ويبدو أن الفنادق لم تكن منتشرة في الموانئ فحسب بل كانت منتشرة أيضاً داخل البلاد، فقد ذكر ابن حوقل أنه كانت هناك فنادق بمحلة صردو البجوم

والكريون[٤١٩].وقد عرف ابن جبير القياصر (القياسر/القياصر) بقوله: " كالخان العظيم عليها أبواب حديد وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض... " [٤٢٠].

وأمدنا المقريزي بوصف مسهب عن القياسر/ القياصر في مصر (فكان من هذه القياسر: قيسارية بيبرس، قيسارية الشرب، ابن أبي إمامة، العصفر، العنبر، بكتمر، ابن يحي، قيسارية الفقراء، المحسن، وقيسارية عبد الباسط ... وكان بها مارمتان ووكالة في الدولة الفاطمية وأدركنا بها حوانيت ..."[٤٢١].

والغريب أن الرحالة العبدري (القرن السابع الهجري) لم يبد إعجابه بأسواق مصر وشوارعها في حين نجد الرحالة عبد اللطيف البغدادي ــ الذي أنهى كتابه رحلته في أواخر القرن السادس الهجري ــ، وكان شاهد عيان على الشدة العظمى التي ألمت بوادي النيل في عامي ٥٩٥هـ - ٥٩٨هـ (١١٩٨ -١٢٠١م)[٤٢٢]ــ نراه يبدى إعجابه بما شاهده من أسواق وشوارع وقيساريات في القاهرة ووسائل الراحة التي قرنها أحد الباحثين المحدثين بما نعرفه في الفنادق الحديثة من أرقى المخترعات وأساليب الترف[٤٢٣]. فيذكر: " وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة ... وإذا أرادوا بناء ربع أو دار ملكية أو قيسارية استحضر المهندس وفوض إليه العمل..."[٤٢٤].

وأشار الرحالة ناصر خسرو (صاحب سفر نامة) إلى رباط: " يسمى دار الوزير لا يباع فيه سوى القصب وفى الدور الأسفل منه يجلس الخياطون وفى الأعلى الرفاءون..."[٤٢٥] وأورد الهروي السائح إشارة لوجود سوق بالإسكندرية به منارة أثرية: "... ومنارة في سوق استبرين .."[٤٢٦].

ونعرف من الرحلات أن معظم البلاد كانت تضم الفنادق والأكثر لنزول المسافرين بالأجر فنجد ابن حوقل مثلا لا يتحدث عن أية مدينة إلا ذكر فنادقها ضمن مرافقها ونجد ابن جبير يستهل حديثه عن البلد الذي ينزل فيه بالمقر الذي حل به [٤٢٧].

ويعد الفندق كمنشأة تجارية ومؤسسة لخدمة التجارة هو قمة ما وصلت إليه طاقة المشروعات الخدمية في مصر والشام في العصور الإسلامية حتى نهايتها وفترة كبيرة من العصر العثماني، كما أنه ذروة ما وصل إليه اجتهاد القائمين على التجارة حكومة وتجاراً وطنيين وأجانب والفنادق في مصر والشام المماليكية هبة من الحكومة للتجار والأجانب وينص على ذلك في المعاهدات وتستطيع الدولة أن تستردها وقتما تشاء [٤٢٨].

كذلك اقترب من الجامع بعض الفنادق وقد لاحظنا في مدونات ابن جبير إشارته: " ... وكان نزولنا في مصر بفندق أبي الثناء في زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص رحمه الله في حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور... "[٤٢٩].

ونجد في عبارة ابن جبير التي تبدو عادية مألوفة أشارة إلى اقتراب الفندق من الجامع في القرن السادس الهجري إضافة لإشارة أخرى في غاية من الأهمية عن تطور العاصمة المصرية آنذاك فقد سكن رحالتنا في الفسطاط ولم يكن في القاهرة كما أنه نزل بمنشأة عمرانية هامة من المنشآت التي انتشرت في أنحاء عالم البحر المتوسط آنذاك ونعنى بها الفندق، ويمكن تفسير ذلك في ضوء الحقيقة القائلة بأن القاهرة كانت حتى ذلك الحين ما تزال عاصمة سياسية وإدارية على الرغم من أن صلاح الدين الأيوبي بنى القلعة لتكون مقرا للحكم ومن الطبيعي أن تخلو من المنشآت ذات الوظيفة الاقتصادية والاجتماعية ؛ إذ كانت الفسطاط ما تزال هي العاصمة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ومن مجموع (مصر والقاهرة) أي الفسطاط والقاهرة تكونت العاصمة المصرية مثلما كان الحال زمن الفاطميين[٤٣٠].

ونجد صاحب الاستبصار يقدم إلينا وصفاً للقاهرة في القرن السادس الهجري بقوله: " مدينة القاهرة ... هي مدينة كبيرة فيها من القصور والمباني ما يعجز الوصف عنه .. "[٤٣١] ويقدم لنا الرحالة چوزيف بتس صورة قاتمة لما وصل إليه حال الفنادق في مصر عام ١٦٨٩م فيقول: " ... وكل ما أعدته القاهرة لاستقبال ضيوفها هو غرف

عارية ليس بها أقل أنواع الأثاث أو بها أدنى أنواعه ..."[٤٣٢]. وحدثنا ابن دقماق عن وجود مساجد بالفنادق وذكر منها مسجد بفندق الكارم وآخر بفندق بنى الرصاص[٤٣٣].

إضافة لظهور بعض الفنادق قرب البوابات الهامة وخارجها مرتبطة بمحطات المسافرين، فيقول ابن جبير:"وكان نزولنا فيها- قوص- بفندق ينسب لابن العجمي بالمنية وهى ربض كبير خارج المدينة على باب الفندق المذكور...."[٤٣٤]وأشار عبد اللطيف البغدادي إلى بعض مفردات الأسواق في عصره فيقول:" ... فبقوا في الأسواق بين البيوت والدكاكين ..."[٤٣٥] وفى موضع آخر يتحدث عن ما حدث للأسواق في حوادث سنة ٥٩٥هـ/، فيقول: "...حتى أن الرباع والمساكن والدكاكين التي في سرة القاهرة وخيارها أكثرها حال خراب وأن ربعاً في أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتا كلها خالية.... وفى حوادث سنة ٥٩٨هـ... قل خطف الأطعمة من الأسواق ..."[٤٣٦].

ويصف أسواق الفسطاط بقوله: " ... ثم أننا دخلنا مصر – الفسطاط – فرأينا منها دروبا وأسواقا عظيمة كانت مغتصبة بالزحام ..."[٤٣٧]. بينما قدر الرحالة الفارسي خسرو أن " بالقاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف دكان..."[٤٣٨]. وأن كل الحاجيات تجلب لمدينة مصر من جميع البلاد ويباع بعضها في الأسواق[٤٣٩].

ويقول الإدريسي عن الفسطاط: " ... وهى الآن مدينة كبيرة على غاية من العمارة .... فسيحة الطرقات متقنة البناءات قائمة الأسواق نافقة التجارات متصلة العمارات..."[٤٤٠].

وأشار الإدريسي إلى وجود الأسواق في كافة المدن ذات الأحجام المختلفة ما بين كبيرة وصغيرة ومتوسطة الحجم، فيقول: " المحلة وهى مدينة كبيرة ذات أسواق عامرة وتجارات قائمة وخيرات شاملة ..."[٤٤١]. ويقول:"ترنوط وهى مدينة صغيرة متحضرة

لها سوق وتجار مياسر.."(٤٤٢). ويصف نوع آخر من المدن فيقول: " فوة .. مدينة حسنة كثيرة الفواكه والخصب وبها أسواق وتجارات .. إلى رشيد وهى مدينة متحضرة بها سوق وتجار ونفقة .."(٤٤٣).

أما المقريزي فيدلى بدلوه: " والقاهرة أكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط لأنها أجل مدارس وأضخم خانات ... وامتد العمران بين القاهرة والفسطاط فصار بلدا واحدا يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور والرباع والقياسر والأسواق والفنادق والخانات والحمامات والشوارع والأزقة والدروب والخطط والحارات والأحكار والمساجد والجوامع والزوايا والربط والمشاهد والمدارس ... متصلا جميع ذلك بعضه ببعض ..."(٤٤٤).

وشاهد الرحالة الأندلسي ابن سعيد في القرن السابع الهجري بالفسطاط؛ القياسر والأسواق والفنادق، فقال: "... عظمت عمارة الفسطاط وانتقل اليها كثير من الأمراء وضخمت أسواقها، وبنى فيها للسلطان أمام الجسر الذي للجزيرة قيسارية عظيمة ..."(٤٤٥).وفى عام ١٦٨٠م أشار جوزيف بتس أن الخانات: " يبلغ ارتفاع بعضها ثلاثة طوابق وقد شيدت الخانات على نسق المساكن: أربعة أروقة يتوسطها حوش..." وأشار أن القاهرة بها: " بضع مئات من هذه الخانات يوجد في أحواشها مساجد صغيرة ..."(٤٤٦).

وقد سبقه الرحالة الألماني أرنولد فون هارف في عهد الناصر محمد بن قايتباى إلى مصر سنة (١٤٩٦- ١٤٩٨) في الإشارة لوجود فنادق خاصة للأجانب والجاليات



فقد نزل إلى الإسكندرية وأقام في فنادق خاصة بتجار البندقية يحرسها المماليك"(٤٤٧) غير أنه لم يكن لهم في عهد الأيوبيين والمماليك أي مقر ثابت شبيه بفنادق الإسكندرية(٤٤٨).

ووصف لنا ابن دقماق:القياسر والرباع بالفسطاط وقدم لنا صورة لمكونات وأسماء القياسر/القياصر الموجودة آنذاك مثل قيسارية المحلى وذكر أنها تشتمل على: "... ستة أبواب منها ثلاثة في قبليها وباب في شرقيها بزقاق درب اللوازين وباب في غربيها إلى الزقاق الشارع أوله بسوق الصرف والباب السادس في بحريها يسلك منه إلى المطابخ وهذه القيسارية مسكونة جميعا وليس بها حانوت خال..."(٤٤٩).

كما أمدنا ابن دقماق بقائمة بأسماء وأوصاف ومواقع القياسر في زمنه وبلغت في الفسطاط ما يقرب من ١٤ قيسارية منها قيسارية الصبانة وشبل الدولة وابن الأرسوفى الكبرى وابن ميسر الصغرى والأنماط القديمة... إلخ(٤٥٠).

ويلاحظ أن أغلب هذه المنشآت التجارية والتي شكلت في مجملها صورة عمرانية للأسواق في مصر؛قد تراصت على جانبى الشوارع الرئيسية، ومن أوضح الأمثلة على ذلك مدينة القاهرة بعد العصر الفاطمي حيث بدأت تتحول إلى مدينة للعامة أنشئت على جانبي شارعها الأعظم" شارع المعز لدين الله الفاطمي " وشوارعها الجانبية المتفرعة منه أسواق في هيئة حوانيت متراصة على جانبى الشارع [٤٥١]. ويتضح ذلك حيث أخذت المناطق التجارية امتدادا محدودا على الشارع الأعظم وعمقا في الشوارع المتفرعة منه كما في الخراطين والفحامين والنحاسين والخيامين والحريريين[٤٥٢]. إلى غير ذلك من المناطق التي امتدت أسواقها على الشارع الأعظم والشوارع المتفرعة منه، وما نطالعه في خطط المقريزي وكتابات الرحالة وما ورد بالوثائق من أوصاف للمنشآت التجارية والأسواق في مصر والقاهرة يعجز عنه الحصر.

أما الحمامات فقد كانت مفردة هامة في منظومة التراث العمراني المصري الثرى ولبنة في صرحه الشامخ، كما أنها كانت أيضا دلالة على حياة التحضر والرقى المصري التي نعمت بها مصر والتي تعتبر من أكثر بلدان العالم الإسلامي والعربي اهتماما بإنشاء الحمامات، وقد ذكر المؤرخ ابن دقماق في كتابه " الانتصار بواسطة عقد الامصار "أن أول من أنشأ الحمامات في مصر الإسلامية هو عمرو بن العاص الذي فتح مصر سنة ٢٢هـ/٦٤١م وأنشأ بالفسطاط حماما أطلق عليه الناس في مصر اسم " حمام الفأر" وذلك لصغر مساحته قياسا بما كانت عليه الحمامات في مصر في العصر الرومانى[٤٥٣].

بينما يرى المقريزي في الجزء الثانى من خططه أن أول من بنى الحمامات بمصر هو الخليفة الفاطمي العزيز بالله الذي تولى حكم مصر خلفا لأبيه المعز لدين الله الفاطمي، ومن أشهر الحمامات الفاطمية التي ورد الحديث عنها بكثرة حمام الذهب.

وقد استمر الحرص على إنشاء الحمامات متبعاً خلال العصور التالية فقد ذكر الرحالة التركي " أوليا جلبى " أن عدد الحمامات بالقاهرة سنة ١٦٦٠م كان حوالي



خمسة وخمسين حماماً وذكر الرحالة فورمان الذي زار القاهرة سنة ١٧٧٥م أن عدد الحمامات بها ثمانين حماما، بينما ذكر المؤرخ الفرنسى " جومار" في كتاب وصف مصر أن عدد الحمامات بالقاهرة أثناء الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م كان يتجاوز المائة (٤٥٤). ويعطينا هارف صورة صادقة عن مدينة القاهرة بقوله: " .... مدينة ضخمة تغلق شوارعها وحواريها بوابات كبيرة ليلا ولكل حارة قرن ومطبخ وحمام مياه"(٤٥٥).

وهكذا حفلت المدن المصرية بالحمامات وشاركتها في ذلك أغلب مدن المشرق العربي وكانت الحمامات تنافس المساجد في كثرة عددها وكانت مثار إعجاب الرحالة والوافدين على مصر طوال التاريخ العربي وسائر بلدان الشرق العربي – وحسبنا هنا – ما أورده أسامه بن منقذ (٤٨٨- ٥٨٤هـ/ ١٠٩٥-١١٨٨م) – عن الملاحظات الطريفة التي سجلها من داخل حمامات المشرق العربي والتي دلت عن انبهار الصليبيين الغربيين بالحمامات الشرقية في شرقنا العربي والتي تؤكد أن بلدان المشرق العربي تفردت بهذه المعالم العمرانية ذات الأصول الدينية التي تحمل دلالات هامة ذات صبغة ثقافية واجتماعية وحضارية تكشف لنا عن مدى التأخر الحضاري الأوربي مقارنة بما وصلت إليه الحضارة العربية الإسلامية آنذاك من تقدم ورقي.

والحمام في اللغة – الحمام والحميم والحميمة حميما يعنى الماء الحار والجمع حمامات .والاستحمام هو الاغتسال بالماء المار والحميم العرق .وأما قولهم لداخل الحمام إذا خرج طاب حميمك يعنى به العرق أي طاب عرقك(٤٥٦).

ويذكر لنا المقريزي أنه كان بالفسطاط ألف ومائة وسبعون حماما وكانت حمامات القاهرة في عام ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م ثمانين حماما فقط وكان يقوم بخدمة الحمام خمسة نفر على الأقل: حمامي وقيم وزبال – لأن الوقود في الحمامات كان في الغالب من الزبل اليابس – ووقاد وسقاء(٤٥٧).

ولم تقتصر أهمية الحمام في العصور الوسطى على نواحي الاستحمام والنظافة والتطهر فقط وإنما تعددت منافعها وأغراضها وتداخلت حتى أصبحت من أهم المنشآت الضرورية للمجتمع(٤٥٨) فضلا عن دخوله ضمن نظام الإسلام منذ عهد مبكر لارتباطه على الخصوص بفريضة الوضوء بحيث أن الفقهاء اعتبروه من الأماكن الدينية وأكد الإسلام على النظافة واعتبرها من جوهر العقيدة(٤٥٩).

وقد زخرت المدن المصرية في العصور الإسلامية بهذا النوع من الحمامات العامة التي قصدها الناس من مختلف الطبقات – للاستحمام، ومرجع ذلك أن الناس في ذلك الوقت لم يألفوا الاستحمام في منازلهم ولم توجد الحمامات إلا في قصور الأمراء[٤٦٠]. وقد علل سافارى وجود أعداد كبيرة من الحمامات العامة بسبب ارتفاع حرارة الجو في مصر، كذلك لان ديانة المصريين تحث على النظافة[٤٦١].

فكانت المدن المصرية بها أعداد من الحمامات العامة تقل وتكثر تبعا للكثافة السكانية في تلك المدن وتبعاً لأهميتها التجارية أو الثقافية [٤٦٢]. وقد أشار الرحالة ابن خلدون إلى أن كثرة الحمامات بالمدن ينم عن الترف والغنى وما يتبع ذلك من رغبة في التنعم[٤٦٣].

وعرض المقريزي لكثرة عدد الحمامات بمصر فقال: "... وذكر الشريف أسعد الجوانى عن القاضى القضاعي أنه كان في مصر (الفسطاط) ألف ومائة وسبعون حماما وذكر ابن عبد الظاهر أن عدة حمامات القاهرة إلى أخر سنة خمس وثمانين وستمائة تقرب من ثمانين حماما وأقل ما كانت الحمامات ببغداد ف أيام الخليفة الناصر أحمد بن المستنصر نحو الألفي حمام ..."[٤٦٤].وقد وجدنا أن بالقاهرة ومصر (الفسطاط) ١٤١ حماماً وعرض المقريزي تفصيلاً لــ ٤١ حماماً ، والباقي ذكرهم عدداً عن ابن المتوج.[٤٦٥].

وترجع أهمية الحمامات ودورها الصحي للعامة إلى أن مساكنهم كانت خالية من الحمامات إما لافتقادهم المصدر الدائم للمياه[٤٦٦] أو غالبا لعدم مقدرتهم على إنشائها، ولذا اقتصرت هذه الحمامات على مساكن الأمراء وعلية القوم[٤٦٧]. وما يشير لقلة الحمامات الخاصة في هذا القرن قيام زين الدين أبو الحسن على ابن نجاء الواعظ ببناء حمام في داره من الأمور التي استحقت أن يسجلها الاصفهانى فنظم فيها شعرا، وإفراد ابن دقماق للحمامات الخاصة التي بالدور عنوانا في كتابة دليل آخر على ندرتها [٤٦٨].

فيقول ابن دقماق: "... حمام الصاحب فخر الدين بن الخليلي بداره وحمام ولده الصاحب عماد الدين التي بداره .."(٤٦٩). ووصلت الحمامات في زمن المقريزي (١٣٦٤ - ١٤٤١م) بالقاهرة أربعة وأربعين وقال ابن المتوج أن عدد حمامات مصر في زمنه بلغ أكثر من سبعين حماما(٤٧٠).

وقد كثر إنشاء الحمامات العامة في المدن المصرية لخدمة العامة من سكان المدن المصرية ولحاجات وظيفة مرتبطة بدعوة الإسلام للنظافة والتطهر وبعدم قدرة العامة جميعا على تضمين منازلهم حمامات خاصة وبرغبة القادرين على إنشاء هذه الحمامات في استثمار أموالهم في إنشائها لما تدره من ريع وفير لشدة الطلب عليها، ومن هنا كثرت الحمامات العامة في مصر كثرة واضحة وتكشف أقلام الرحالة إلى ازدياد أعدادها في مصر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، وبالتالي يعد ذلك انعكاساً لزيادة المدن المصرية حجماً وعمراناً، وبالرغم من ذلك تدل على أن الحمامات العامة كانت من المنشآت البارزة بين المكونات العمرانية المعمارية للمدن المصرية(٤٧١).

ومما ورد من أوصاف الرحالة للحمامات وأعدادها في مصر يتضح أن هناك تنوعا في أحجام الحمامات وتنوع استخداماتها وخصوصيتها ومن طريق ما يذكر أنه كان بالفسطاط حمام صغير جدا يدعى " حمام الفأر"(٤٧٢). كناية عن صغر حجمه وذكر ابن جبير أن الدولة خصصت حمامات للغرباء من طلاب العلم ليستحموا فيها متى يحتاجوا إلى ذلك(٤٧٣). فيقول: " ... واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمرَ بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك"(٤٧٤).

لهذا لم يكن غريباً أن ترتبط بعض مواضع الحمامات بالمدارس والمساجد في مصر لخدمة طلاب العلم فيذكر الرحالة ابن جبير قوله: "...مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء.. يزائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها..."(٤٧٥).

وارتبطت معظم إشارات الرحالة للمدن بوجود الحمامات بها كأحد العناصر العمرانية أثناء وصفهم للمدن الإسلامية وقد ألقت أقلام الرحالة الضوء على مثل هذا المعنى ومنهم ابن جبير في قوله: " .. منية ابن الخصيب وهو بلد على شط النيل ... كبير فيه الأسواق والحمامات وسائر مرافق المدن ..."[٤٧٦] ونجد في الربع الأخير من القرن السابع الهجري بداية عصر المجموعات العمرانية في مجموعة السلطان قلاوون حيث بنى مجموعة معمارية مكونة من مدرسة ذات إيوانين على صحن مكشوف وقبة لدفنه وبيمارستان لعلاج المرضى وحوض لسقى الدواب حوله ابنه الناصر محمد بعد ذلك إلى سبيل السقى المارة على واجهة المدرسة وضم إليها حمامين لخدمة البيمارستان[٤٧٧].

وأشار صاحب آكام المرجان لوجود زخارف وتماثيل ببعض الحمامات بقوله: " ... وفى بعض حماماتها – مصر – جارية من رخام يجرى الماء على قلبها يقال أنها جارية من جوار فرعون .."[٤٧٨].ويبدو أن صاحب كتاب آكام المرجان يشير إلى التصوير الذي ظل شائعاً على حيطان الحمامات منذ عهد الرومان إلى الفتح العربي ، فلم يلبث أن تحول تدريجياً . إزاء المعارضة التي كان يلقاها ــ إلى نوع من الرسوم الشعبية ، وقل طابعه الرسمي ، وازداد أسلوبه قرباً من الأسلوب الشعبي الفطري الساذج ، وازداد أسلوبه قرباً من الأسلوب الشعبي الفطري الساذج ، بل صار الذين يقومون بنقشه من عامة الشعب. وكان من أسباب تلاشي الصور من الحمامات حملة علماء الدين ضدها ، وحثهم الناس على إزالتها ،فقد قال الإمام أحمد ابن حنبل:"إذا دخل الإنسان الحمام ، ورأى فيه صورة ، فينبغي أن يحكمها ، فإن لم يقدر خرج ".

وفي كتاب العزيزي المحلى لابن المخلطة عن المهتدي بالله العباسي وزهده وتعلله من الدنيا ومخالفة من قبله من الخلفاء فمحاها:"أنه عمد إلى الصور التي كانت في مجالس الخلفاء فمحاها و وأزال تلك الشخوص المشوهة في الحيطان وغيرها "

وقال الغزالي في هذا الشأن في كتاب إحياء علوم الدين ،عند ذكر منكرات الحمام ما نصه:"منها الصور على باب الحمام أو داخل الحمام فذلك منكر يجب إزالته على كل من يدخله إن قدر عليها ، فإن كان الموضوع مرتفعاً لاتصل يده إليه فلا يجوز





له الدخول إلا للضرورة ، وليعدل إلى حمام آخر ، فإن مشاهدة المنكر غير جائزة ، ويكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورها.ولا يمنع من تصوير الأشجار وسائر النقوش سوى صور الحيوان."(٤٧٩).

وكان لوجود حمام بمنطقة ما أن يؤدى إلى تسمية الشارع باسم (شارع الحمام) أو باسم الحمام نفسه ومن خلال هذه الشوارع وأسمائها نستطيع أن نستدل على الملامح العمرانية التي كانت سائدة في فترة ما من فترات التاريخ، فالشوارع خير شاهد

حي على أحداث التاريخ (٤٨٠). وأشار لهذا المعنى الرحالة الإدريسي بقوله: " ... ومن قصر الشماس إلى سكة الحمام .. ومن سكة الحمام إلى جب العوسج .."(٤٨١).

كما اقتربت الحمامات من الجامع لحاجة الناس للتطهر فيه قبل وقت الصلاة وقد ذكر الإدريسى أن الفسطاط فيها: " خمسة مساجد وحمامان.."(٤٨٢). وقد دعى ابن الأخوة المحتسب بأن يأمر بفتح الحمامات العامة وقت السحر: "لحاجة الناس إليها للتطهر فيها وقت الصلاة ..."(٤٨٣).

ووصف الرحالة ابن سعيد قوص بأنها: " مدينة جليلة .. ذات ديار فائقة ورباع أنيقة ومدارس وربط وحمامات يسكنها العلماء والتجار وذوو الأموال.."(٤٨٤). وأشار العمري أن بها: " ... حمامات ومدارس يسكنها جلة من التجار..."(٤٨٥). وعن أسنا قال الإدفوي أن بها:" مدرستين وحمامين وأسواق.."(٤٨٦). وذكرها أبو الفداء بقوله: " ... وأسنا بلدة بها حمامات وأسواق ..."(٤٨٧). وأرجع بعض الباحثين سبب وجود المرافق والحمامات في أسنا لدورها في التجارة الداخلية ولموقعها الفريد على الجانب الغربي من النيل(٤٨٨).

ونعت القلقشندى إخميم بأنها: " مدينة حسنة ... بها مساجد ومدارس وأسواق وقياسر وحمامات ..."(٤٨٩). ووصفها صاحب الاستبصار بأن: " فيها أسواق وحمامات ومساجد كثيرة"(٤٩٠).

ويبدو أن طبيعة الحياة في المدن المصرية عصر ذاك قد أثرت في الهيكل العام للمدينة ومرافقها حيث اقتربت معظم المرافق العامة في المدن بعضها ببعض لتقوم بتسلسل سلسل في واجباتها تجاه السكان ، فنجد الجامع كنقطة تمركز ومحور تناظر يلتف حوله الأسواق وبمقربة منه الحمام للتطهر وقد يلحق بالجامع مدرسة أو تقع بالقرب منه، وكذلك الفنادق والقياسر المهيأة لنزول التجار لتتيح لهم إقامة صلواتهم ومباشرة تجارتهم.

ونجد أحيانا أن المسجد أو المصلى يلحق بأحد المرافق العامة، حيث أشار صاحب الانتصار لوجود:"...مسجد بحمام أبي فروه "(٤٩١).وجدير بالإشارة أن المحتسب ابن الأخوة قدم لنا عرضا لمواصفات الحمامات الجيدة، فقال: " خير الحمامات ما قدم بناؤه واتسع هواؤه وعذب ماؤه.."(٤٩٢). ويبدو من سياق حديث ابن الإخوة عن الحمامات في " معالم القربة " أن حمامات مصر تفاوتت فيما بينها من حيث الاهتمام بنظافتها من قبل القائمين عليها، حيث نجده يشدد على المحتسب بضرورة: " أن يأمرهم المحتسب بغسل الحمام وكنسه وتنظيفه بالماء الطاهر غير ماء الغسالة يفعلون ذلك مرارا في اليوم ويدلكون البلاد بالأشياء الخشنة.. ولا يدع الأساكفة وأصحاب اللبد يغسلون شيئا من اللبد ولا من الاديم في الحمام فإن الناس يتضررون برائحته ..."(٤٩٣).

وأمدنا الرحالة العربي عبد اللطيف البغدادي الذي انطلق في رحلته من قلب العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري بملاحظات طريفة عن حمامات مصر مسهباً في الوصف بقوله: " ... وأما حماماتهم فلم أشاهد في البلاد أتقن منها وصفا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرا ومخبراً أما أولا فإن أحواضها يسع الواحد منها ما بين روايتين إلى أربع روايا وأكثر من ذلك يصب فيه ميزابان ثجاجان حار وبارد وقبل ذلك يصبان في حوض صغير جدا مرتفع ..."(٤٩٤).

وقدم إلينا صورة رائعة تصف الحمامات وتقسيماتها فقال: "... وداخل الحمام مقاصير بأبواب وفى المسلخ أيضا مقاصر لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم وهذا المسلخ بمقاصيره حسن القسمة مليح البنية وفى وسطه بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة وجميع ذلك مزوق السقوف مفوف الجدران مبيضها مرخم الأرض بأصناف الرخام مجزع باختلاف ألوانه..."(٤٩٥).

ووصل بولعه بالحمامات في مصر إلى قوله: " ... لأنه إذا بلغ بعض الرؤساء في أن يتخذ دار لجلوسه وتناهى في ذلك لم تكن أحسن منه ..."(٤٩٦). كما لم يغفل ذكر



موقد الحمامات وطريقة تشغيلها وطريقة تسخين المياه والقدور وطرق حفظ حرارة المياه في الحمامات باستخدام الملح(٤٩٧).

ورغم قلة حديث أسامة بن منقذ – الذي زار مصر فيما بين (١١٤٤م-١١٥٤م) – في الحديث عن المعالم العمرانية وانشغاله بالحديث عن الأحداث السياسية، فقد كان الحمام في مصر من أولى المعالم العمرانية التي دخلها أسامة ساعة وصوله إلى مصر فقال: "... فأقرني الحافظ لدين الله (٤٩٨) ساعة وصولي فخلع على بين يديه ودفع لي تخت ثياب ومائة دينا وخولني دخول الحمام.."(٤٩٩).

وأشار ابن بطوطة في رحلته أن الصوفية في مصر قد خصص لهم راتب شهرى لغسل أثوابهم ودخول الحمام(٥٠٠). واستنكر ابن بطوطة عدم تستر الناس بالحمامات فقال عن الحمام الذي دخله في المنيا:"... دخلت يوما الحمام بهذه البلدة فرأيت الناس بها لا يستترون فعظم ذلك على ..."(٥٠١).

ويلاحظ حرص السلطة الحاكمة على عدم اختلاط العوام بغيرهم من طبقات المجتمع في الحمامات فقد خصصت حمامات للعوام دون غيرهم أو على أقل تقدير يقسم الحمام الواحد إلى قسمين يختص العامة بقسم منه حتى لا يظهرون على عورات غيرهم(٥٠٢).

ولم تكن حمامات القاهرة حكرا على أحد فيما عدا حمامات الصوفية فكان لا يدخلها إلا الصوفية (٥٠٣). وقد وصلت الحمامات إلى أعداد كثيرة في القاهرة وكانت للرجال والنساء وكانت أرضية هذه الحمامات وجدرانها مكسوة بالرخام ويسخن الماء في غلايات كبيرة ثم ينتقل بواسطة الأنابيب إلى أحواض رخامية وقد أعجب الرحالة الألماني هارف بكل ما شاهده بهذه الحمامات، وكان ذلك فيما بين عامي (١٤٩٦ – ١٤٩٨)(٥٠٤).

وعنى رحالة فرنسا في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي بوصف الحمامات فذكروا أنها كانت من الرخام يتوسط الحمام نافورة وتمتاز أرضيه الحمامات بالجمال وهى مغطاة بالسجاجيد وتوجد موائد من الرخام يستلقى عليها المستحم للتدليك والحمامات مزودة بالماء البارد والساخن ويقصد الحمامات المغاربة والأتراك والمصريون(٥٠٥).

وتعتبر الحمامات من أهم المنشآت العمرانية المدنية العربية والإسلامية وأكد لنا الرحالة أن كثرة الحمامات وتعددها هي الظاهرة البارزة في مدن مصر وقد وجد العرب عندما افتتحوا الإسكندرية نحو ١٢ ديماسا أصغرها كان يسع ألف مجلس وكل مجلس

منها كان يسع جماعة نفر(٥٠٦) وكثر بناء الحمامات في العصرين الأيوبي والمملوكي في الإسكندرية على نحون ما حدث في الفسطاط.

وإذا كان المقريزي قد ذكر أن الفسطاط كانت تضم ١١٧٠ حماما ورغم المبالغة في الرقم فإن ذلك يدلنا على كثرة الحمامات في الفسطاط وحدها(٥٠٧). وأشاد ابن ظهيرة بحمامات القاهرة بقوله: " حماماتها فهي غاية الحسن في بنائها من كثرة الرخام والزخرفة واعتدال حراراتها..."(٥٠٨). وكانت حمامات القاهرة في عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ثمانين حماما فقط وكان يقوم بخدمة الحمام خمسة نفر على الأقل حمامي وقيم وزبال لأن الوقود في الحمامات كان في الغالب من الزبل اليابس ووقاد وسقاء (٥٠٩). وأشار صاحب الرسالة المصرية بتعجب إلى حرص العمالة في الحمامات على النظافة العامة لأجسادهم فيقول: " .. لقد شهدت يوما رجلا من الوقادين في أتون الحمام يسأل رزق الله المذكور عن ساعة حميدة لقص أظفاره فتعجبت من سمو همته على خساسة قدرة ووضاعة مهنته..."(٥١٠).

وإجمالاً للقول: فإن مكانة الحمام في العمران الإسلامي تتبع مباشرة مكانة الدار فإن عادة الاستحمام كانت من العادات المتأصلة في الإسلام بغرض التطهر مما أوجد لنا الحمام كعنصر عمراني هام من مكونات المدن المصرية أضف لهذا أن الحمام في مصر لم يكن مجرد مكاناً للاستحمام والنظافة والتطهير بل أخذ بعداً اجتماعيًا آخر حيث كان منتدى ومكانا ترفيهياً للرجال يلتقون فيه فيقضون وقتا من المرح وتدخين النارجيلة ويتجاذبون أطراف الحديث كل حسب اتجاهاته وميوله فالتجار يتحدثون في شئون تجارتهم ويعقدون الصفقات التجارية فيما بينهم كما كان المناوئون لنظام الحكم يجدون في الحمام مكاناً مناسبا للاتفاق على الانقلابات السياسية وحياكة الدسائس والمؤامرات(٥١١).

أما المارستانات فقد حفلت بها المدن المصرية وشاركتها مدن المشرق العربي آنذاك، وقد كانت هذه المنشآت من أبرز مكونات مدن مصر والمشرق العربي.وقد أحصى لنا المقريزي ما يقرب من ستة حمامات بالقاهرة والفسطاط لعلاج المرضي كان أحدهم الذي أنشأه صلاح الدين الأيوبي في ٥٧٧هـ ، وهو المارستان العتيق ، كما أنشأ ابن طولون واحداً بجوار جامعه وبنى آخر في عهد الإخشيدي ، وأثناء عصر المماليك كذلك هما المؤيدي والمنصوري [٥١٢]

وكانت مارستانات مصر طوال القرنين السادس والسابع الهجريين مثار إعجاب الرحالة والوافدين على مصر.والمارستان في اللغة هو بيت المرضى وقد اعتنى الحكام بداية من القرن السادس الهجري ببناء المارستان خاصة في ظل الحكم الأيوبي لمصر، فقد استولى صلاح الدين الأيوبي على قصر الفاطميين وكان في القصر قاعة بناها العزيز بالله في سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م فجعلها السلطان صلاح الدين بيمارستان وهو البيمارستان العتيق داخل القصر[٥١٣].

وتميزت المدن في مصر ببناء المارستان فلم تكن موجودة قبل الفتح العربي وإنما استحدث بناؤها بعد الفتح وهذا يدل على عناية الدولة الإسلامية بصحة رعاياها[٥١٤]. وقد اهتمت الدولة الأيوبية ببناء المارستانات والمرافق العامة بالمدن المصرية رغم الظروف الحربية والسياسية الحرجة التي كانت تمر بها لمنطقة العربية في ذلك الوقت لاستمالة رعاياها ومحو آثار العهد الفاطمي من أذهان الناس . إضافة لأن تكون هذه المارستانات في خدمة المجهود الحربي في ذلك الوقت إضافة لما تؤديه من خدمات الناس في مصر.

وتعتبر البيمارستانات/المارستانات عموماً من المنشآت التي أنشئت لتوفر الخدمات العلاجية والطبية للناس وواكب إنشاء البيمارستانات النمو العمراني للمدن في مصر، وتولى غالبا إنشاؤها السلاطين والأمراء وأشرفوا على بنائها ووقف الأوقاف عليها لتستمر في أداء وظائفها.وقد عكست لنا كتابات الرحالة أسامة بن منقذ الفارق

الحضاري الطبي بين العرب والصليبيين في المشرق العربي والذي يدل على ما وصلت إليه الحضارة العربية الإسلامية، بينما كانت الغرب الأوربي في طور الهمجية والتوحش والجهل والرغبة في سفك الدماء والذي لا يزال يعاوده الحنين إلى شريعة الغاب ليمارسها في مناطق متفرقة من العالم العربي والإسلامي.

ومن البيمارستانات التي تعكس هذا المستوى الحضاري المتقدم لمصر والعرب بيمارستان (أحمد بن طولون في القطائع "٢٥٩هـ/ ٨٧٣م") الذي اشترط فيه ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك لإتاحة الفرصة للناس غير القادرين على نفقات العلاج وكان يركب بنفسه في كل يوم جمعه يتفقد البيمارستان والمرضى(٥١٥). ومنها البيمارستان القلاووني الذي أنشأه السلطان قلاوون وكان سبب إنشائه هو زيارته وهو أمير لبيمارستان نور الدين بدمشق لما أصابه من مرض فأعجب به ونذر إن أتاه الله الملك ليبين بيمارستان فلما تولى السلطة في مصر بنى هذا البيمارستان ويشير نص الوقف على أن البيمارستان وقف لخدمة جميع فئات المجتمع وأصبح بعد وقفه مرفقا عاما وبلغ التكامل ذروته عندما قرر بة مكانا لتدريس الطب(٥١٦).

ورصد لنا رحالة القرنين السادس والسابع الهجريين المارستانات الجليلة والرعاية الطبية الفائقة التي تو فرت في مدن مصر الشاهدة على التقدم الحضاري والعمراني لمصر آنذاك.فقد وجد الرحالة في القرن السادس الهجري مارستانات جليلة القدر للغرباء فقط أعدها الدولة لهم وأشار إليها ابن جبير في رحلته بقوله: "...واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين .. ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم.."(٥١٧).

ووجد نوع آخر من الرعاية الطبية وهو ما يسمى الآن بالطبيب الزائر، فيقول ابن جبير: " ... وقد رتب أيضاً فيه – يقصد المارستان – أقوام برسم الزيارة للمرضى

الذين يتزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة.. ليتكفلوا بمعالجتهم..."[٥١٨].

وبرغم عبارات الرحالة العبدري كانت تقطر سخطاً على مصر وأهلها فإن لم يملك سوى الإشادة بالرعاية الطبية التي لاقاها من أطباء مصر عند عودته من الحج ماراً بمصر في القرن السابع الهجري فذكر: "... وكنت إذ وردها مريضا .. وأنزلنا شيخنا ... بمدرسة الظاهرية في علو منها مليح وكان يبعث إلى بشخص من فضلاء الأطباء يتفقدني ويعالجني وهو الحكيم الفاضل أبو الطاهر إسماعيل المقدسي فتى حدث السن رصين العقل نافذ الفهم وما رأيت أحفظ منه للطب .. ومازال يتفقدني مدة سبعة أيام حتى تماثلت واشتهيت الطعام..."[٥١٩] كما أشار صاحب الرسالة المصرية لمدى الرعاية النفسية التي كان يتلقاها المرضى حيث يوجد: " رجل ملازم للمارستان يستدعى للمرضى كما تستدعى الأطباء فيدخل على المريض فيحكى له حكايات مضحكة وخرافات مسلية ويخرج له وجوها مضحكة .. فإذا انشرح صدر المريض وعادت إليه قوته تركه وانصرف فإن احتاج إلى معاودة المريض عاده إلى أن يبرأ..."[٥٢٠].

وشاهد ابن جبير مارستاناً أمر به صلاح الدين الأيوبي واعتبره من مفاخر هذا السلطان فقال: " ... ومما شاهدناه أيضا من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا.. وعين قيما من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير .. ووضعت في مقاصد ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى..."[٥٢١].

وبرغم أن الرحالة الأندلسي اعتبر هذا المارستان من مفاخر صلاح الدين غير أن هذا البيمارستان كان قاعة بناها العزيز بالله الفاطمي سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م، وقيل أن القرآن مكتوب على حيطانها ومن خواصها أن لا يدخل نمل لطلسم بها ولما قيل ذلك لصلاح يوسف بن أيوب قال هذا يصلح أن يكون بيمارستان[٥٢٢] وقد قسمت البيمارستانات لأقسام متخصصة للرجال وأخرى للنساء وثالثة لذوى الاحتياجات

الخاصة والعلاج النفسي. يقول ابن جبير: " ... موضع مقتطع للنساء المرضى ... وموضع آخر متسع الغناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت مجالس للمجانين"[٥٢٣].

وقد تحدث الرحالة الفرنسي MAILLET عن مستشفى المجانين ونسب ميليه بناءها إلى ابنه أحمد ابن طولون وكان سبب انشاؤها إصابة إحدى اميرات البيت الحاكم بالجنون فتم تخصيص قصر لها للبقاء فيه وحراستها وبعد اكتمال شفائها تم تخصيص القصر لمعالجة المجانين وكان حول المستشفى عدة مبان للمجانين وكان بها كميات كبيرة من الأدوية والأطباء ويوجد مكان للفقراء من العامة وكل مريض له طبيب معين . وكانت توجد شروط لاختيار الأطباء في القاهرة[٥٢٤].

وقد ذكر ابن جبير أن المجانين كان لهم من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها[٥٢٥]. فقد توافرت في مستشفيات الخلفاء والسلاطين كل أسباب الرفاهية التي كانت تتوافر في قصورهم[٥٢٦].وذكر لنا ابن جبير – أيضا– أن الفسطاط وجد بها مارستان على شاكلة المارستان الموجود بالقاهرة فقال: "... وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه.."[٥٢٧]. كما أمر صلاح الدين بإعادة فتح بيمارستان الفسطاط القديم[٥٢٨].

وقد شاهد الهروي السائح بيمارستانات عديدة في الإسكندرية البعض منها قريب من المعالم الأثرية: " ومنارة قريبة من البيمارستان قد ألبست النحاس جميعها ... والبيمارستانات التي بها ..."[٥٢٩].وشاهد الرحالة بن شاهين الظاهرى في القاهرة بيمارستان جليل: "...وبها بيمارستان أمر بعمارته الملك المنصور وقرر وقفه في كل سنة أربعين ألف مثقال ذهب أفرد من ذلك لعمارته وخدامه أربعة آلاف وقرر مصروفه في كل يوم مائة مثقال...."[٥٣٠]. مما يوضح لنا مدى اهتمام الدولة بإنشاء المارستانات

ومدى عمارتها وعظمة عمرانها وهذه المارستانات على غناها ورفاهيتها كانت تفتح أبوابها للفقراء ولكل أبناء الشعب بدون تمييز (٥٣١).

وشاهد ابن بطوطة البيمارستان المنصوري الذي شيده المنصور قلاوون سنة ٦٨٢هـ (٥٣٢) وأعجب به أعجاب شديداً فقال: "... وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ..."(٥٣٣). ووصف البلوى الرحالة المغربي (خالد بن عيسى البلوى الذي زار مصر في أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون في رحلته المعروفة باسم " تاج المفرق في تحلية أهل المشرق": "..ولو لم يكن للقاهرة ما تذكر به إلا المارستان وحده لكفاها وهو قصر عظيم من القصور الرائعة حسنا وجمالا واتساعا لم يعهد مثله بقطر من الأقطار أحسن بناء ولا أبدع إنشاء ولا أكمل انتهاء في الحسن والجمال..."(٥٣٤).

وعموماً نجد أن البيمارستانات كانت لخدمة فئات الشعب بما يحتاجون من خدماتها ولا شك في أن هذه الخدمات التحى تؤديها هذه المنشآت كان لها تأثيرها الذي هدف إليه من إنشائها كاكتساب رضى الشعب واستمالة أهل الدين والعلم لتعضيد السلطة خاصة في عصري بني أيوب والمماليك وتمثل اهتمام الأيوبيين بهذه الطائفة من الناس خاصة أهل الدين والتصوف في اعتماد صلاح الدين الأيوبي عليهم في إذكاء حماسة الجنود من جهة وإنشاء المؤسسات اللازمة لخدمتهم ووقف الأوقاف السخية عليها من جهة أخرى (٥٣٥). وورث المماليك عن سادتهم الأيوبيين الاهتمام بهذه المنشآت العامة لرغبتهم في تدعيم سلطتهم ومكانتهم عند جماهير الناس . وذكر ابن كثير ان صلاح الدين: " أمر ببناء المارستان بالقاهرة ووقف عليه وقوفا كثيرة..."(٥٣٦).

كذلك كان من أبرز مكونات المدن المصرية المشاهد والزوايا والرباطات والخوانق .لقد لفتت المشاهد والقرافات انتباه كافة الرحالة الذين زاروا مصر على مدار العصور للعديد من الأسباب، أهمها:

أولاً: أن عددا من قبور الأولياء والصالحين والصحابة والتابعين موجود بالقرافة.

ثانياً: شيوع بعض الأخبار والحكايات عن معجزات وكرامات تنسب إلى عدد من المدفونين بمصر .

ثالثاً: أن القرافة وهذه المشاهد لم تكن مجرد جبانة يلفها الصمت وإنما كانت مسرحا للنشاط اليومى للسكان [٥٣٧] ومكانا للهو والترويح اعتاد الناس الخروج إليها لاسيما في الليالي المقمرة[٥٣٨]. وقد اهتم الرحالة بوصف المشاهد والقرفات في القرنين السادس والسابع الهجريين ، ويرجع ذلك لكون غالبية الرحالة الذين زاروا مصر في ذلك الوقت من الحجاج والمدفوعين في رحلاقم بنوازع مختلفة في مقدمتها الحس الدينى.

كما أن غالبية الرحالة في زيارقم لمصر كانوا يرون مصر بعينى مسلم جياش العاطفة يزور أهم عواصم دار الإسلام أو كما قال الفيلسوف الرحالة ابن خلدون " من لم يرها لم يعرف عز الإسلام ... وإيوان الإسلام وكرس الملك.. وتزهر الخوانك والمدارس بإفاقة وتضئ البدور والكواكب من علمائه..."[٥٣٩].

واستغرب الكثير من الرحالة ما شاهدوه من حياة الناس في القرافة وما بها من متناقضات ترجع أساسا للموروث الثقافى والاجتماعى للمصريين وأفكار الخلود التي تولدت منذ فجر الضمير المصري فلم يدرك هؤلاء الحجاج والرحالة ثنائية الحزن والمرح في الشخصية المصرية[٥٤٠]. التي تجلت خصائصها في مجتمع القرافة والتى وصفها الرحالة ابن سعيد بقوله:

إن القرافة قد حوت ضدين من دنيا وأخرى فهي نعم المنزل [٥٤١].

ولم يدرك هؤلاء الرحالة أن مصر جغرافياً وثقافياً وتاريخياً تطبيق يجمع بين التقرير والنقيض في تركيب متزن أصيل وإذا كان لهذا كله من مغزى فليس هذا المغزى أنها تجمع بين الأضداد والمتناقضات بقدر ما أنها تجمع بين أطراف متعددة فنية وجوانب

كثيرة خصبة وأن ثمة حقيقة مؤكدة في شخصية الشعب المصري وتراثه جعلت نيوبي B.HNEWBY يكتب مثلاً: " أن شعب مصر شعب خاص وقد جعلهم تاريخهم وجغرافيتهم يختلفون عن سكان أية أمة من الأمم..."[٥٤٢].

وقد أثرت هذه الموروثات الثقافية والاجتماعية على عمارة القرافة فجاءت غير متفقة غالباً مع شروط الفقه الإسلامي وكان الضريح يقام غالباً في الشارع الأساسي الذي يربط مجموعة من الأبنية بعضها ببعض ذلك أن الضريح كان يعد بمثابة رمز له مكانته ويستلزم من ثم مكانا بارزاً وكان الوضع الأمثل للضريح في داخل المدينة هو أن يقام في الجانب المواجه للكعبة المشرفة ونادراً ما كان يحدث ذلك بسبب صعوبة إيجاد قطعة أرض مناسبة للبناء داخل المدينة تتوفر لها وأدى ذلك بالسلاطين والعامة إلى تشييد مبانيهم على الجانب الغربي من القصبة[٥٤٣].

وحفلت كتابات الرحالة بالإسهاب والإجمال عن المشاهد والمزارات المباركة بمصر.فقد كان من احد أهم الاهتمامات عند ابن جبير هو وصف المشاهد التي مثلت في ذهنه المقابر والموالد وآثار الأنبياء والعلماء والأولياء والمواقع الإسلامية والمعابد والكنائس والآثار غير الإسلامية[٥٤٤].

وقد استهل " ابن جبير " وصفه للقاهرة بالحديث عن المشاهد فقال: "..فأول ما نبدأ بذكر منها الآثار والمشاهد المباركة التي ببركتها يمسكها الله عز وجل .."[٥٤٥]. واسترسل الرحالة الأندلسي في حديثه عن المشاهد فقدم وصفا عاطفيا لمشهد الإمام الحسين "رضي الله عنه " وسجل انبهاره بفخامة المشهد الذي جمع بين الذهب والفضة والديباج[٥٤٦]: " ولا يحيط الإدراك به مجلل بأنواع الديباج محفوف بأمثال العمد الكبار.. وعلقت عليه قناديل فضة وحف أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهبا ... البديع الترصيع ما لا يتخيله المتخيلون ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون ..."[٥٤٧].

ومن الملاحظ وجود المشهد بجوار مسجد أو بداخله في ذلك الوقت ويتم الاهتمام غالبا بالمسجد المقام على المشاهد فيقول ابن جبير: "... والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها في التأنق والغرابة حيطانه كلها رخام..."[٥٤٨]. كما وصف " ابن جبير " القرافة التي بمصر فقال: " أحدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء وأهل البيت والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ..."[٥٤٩]. وكما انبهر الرحالة ابن جبير بالمشاهد الخاصة بأهل البيت والصحابة والتابعين بمصر ومس شغاف قلبه ما شاهده من تمسح الناس بهذه المشاهد والقبور[٥٥٠].

فقد أولع الرحالة أبو الحسن على بن أبي بكر بن على الهروي بهذه المشاهد بل إنها كانت من أحد أهداف رحلاته في الشرق والغرب فقد اتجه الهروي بكل اهتمامه لرؤية آثار مصر ومزاراتها ومشاهدها الزاخرة بدلالات التاريخ وعبق الدين فلم يترك مدينة سمع أن بها مشهد أو قبر من القبور خاصة بالأولياء والصالحين إلا وزارها وسجل ذلك في كتاب يشبه الخريطة أو الدليل سماه: " الإشارات إلى معرفة الزيارات " .. فتحدث عن المشاهد التي وجدها على طول خط الرحلة بداية من أوائل المدن والقرى التي مر عليها، مثل: "الفرما وبلبيس وبحطيط والمطرية وعين شمس وصولا إلى القاهرة.."[٥٥١].

وعرض لنا المشاهد الموجودة بالقاهرة وبدأ بمشهد رأس الحسين وذرك المشاهد الموجودة عند جامع ابن طولون وفصل حديثه عن القرافة وما بها من مزارات ومشاهد جليلة وكان من أهمها مشهد الإمام الشافعي فقال: "وبها مشهد به قبر الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضن الله عنه .. ورأيت في مشهده مكتوبا على الحائط شعرا..."[٥٥٢]. وقال عنه ابن جبير: " مشهد الإمام الشافعي رضي الله عنه وهو من المشاهد العظيمة احتفالا واتساعا "[٥٥٣]. كذلك قدم ابن جبير للمشاهد التي رآها لأهل البيت وأخرى للشريفات العلويات وثالثة لمشاهد الأئمة والعلماء الزهاد[٥٥٤].

وما يهمنا في هذه المشاهد كمعالم عمرانية وجدت في مصر في القرنيين السادس والسابع الهجريين هو انتشار بناء المساجد بها: " ... ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد ومشاهد معمورة .."(٥٥٥) " وبين الجبانتين مسجد من سلف وله حكاية..."(٥٥٦). ويقول القزويني: " موضع يسمى القرافة و بها أبنية جليلة ومواضع واسعة وسوق قائم ومشاهد للصالحين وهى من متنزهات أهل القاهرة والفسطاط ... وبها مدرسة الشافعى وفيها قبره .."(٥٥٧).

مما يشير لوجود أكثر من مرفق ومعلم عمراني مصاحب للمشاهد والقرافات في ذلك الوقت، وقد وجدنا الرحالة ابن بطوطة يتحدث في رحلته المشهورة عن الزوايا والمدارس التي في القرافة وعن البيوت التي بنيت هناك لإقامة أهل الموتى عند الزيارة التي كانت تتم كل ليلة جمعة وتعجب من أن الناس كانوا يبيتون في القرافة بنسائهم وأولادهم: " ويطوفون على المزارات الشهيرة... ويخرج أهل الأسواق بصفوف المآكل .. ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين.."(٥٥٨).

وأخبرنا الرحالة العبدري عن المزارات والمشاهد والقبور الموجودة بثغر الإسكندرية فقال: " ... وفى هذا البر مقابر الإسكندرية وفيها من المزارات وقبور العلماء والصالحين ما لا يعده كثرة ..."(٥٥٩). وحدثنا عن مزارات القاهرة ومصر: " ... وفى مصر من المزارات الشريفة عدة وافرة ومن أعظمها تربة رأس الحسين .."(٥٦٠). وهكذا وجدنا من خلال كتابات الرحالة أن القرافة كثيرا ما أقيمت فيها البيوت والمساجد والمدارس والزوايا وغيرها من مكونات المدن بل وصل الأمر بأن يصفها أحد الرحالة بأنها مدينة قائمة بذاتها داخل المدينة (٥٦١): " ... بلدة كبيرة قائمة بنفسها مستقلة بأسواقها ومساجدها..."(٥٦٢).

ورأينا بن شاهين الظاهري يصف القرافة الصغرى بمصر بأنها: "..تضاهى مدينة حمص .."(٥٦٣). ويشبه عمران القرافة الكبرى بأنها: "عمائر كثيرة قيل أنها في العمائر قدر ثغر الإسكندرية ..."(٥٦٤). وبذلك لم تكن القرافة مدينة للأموات فحسب ولكنها

كانت "مدينة الأموات الحية" ومسرحا تجلت فوقه نماذج من السلوك المصري للشخصية المصرية فضلاً عما كان للسنة النبوية من أثر في إيجاز زيارة القبور لأخذ العبرة والتذكرة بالآخرة والاعتبار بالموت وتذكرها ذم اللذات الدنيوية والتدبر في أحوال الدنيا وتقلباتها .

كما أن زيارة القبور والبكاء عند المصريين لم يكن خروجا عن الشريعة، فقد ذكر صاحب منار السبيل بأنه لا بأس بالبكاء على الميت لقوله ﷺ : " إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب "(٥٦٥). كما تسن زيارة القبور للرجال لقوله ﷺ : " كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم بالموت " رواه مسلم وللترمذى: " فإنها تذكر بالآخرة" وهذا التعليل يرجح أن الأمر للاستحباب(٥٦٦).

ولم تكن ثنائية الحزن والمرح في طبيعة المصريين وحدها هي التي جعلت من القرافة مقصداً للناس في مصر بشكل أثار انتباه معظم الرحالة الذين زاروا مصر وتجولوا في أرجائها وأثار دهشة بعض الزوار واستفز مشاعر الحنق والغضب لدى البعض الآخر وإنما كان ذلك مبعثه دينيا أيضاً إلى جانب الموروث الثقافي والديني للمصريين عامة من حيث اهتمامهم بالموتى واحتفالهم بالمقابر واهتمامهم برونقها ونظافتها فقد كان موت الأحياء في نظرهم انتقالا إلى حياة ثانية زاخرة بالسعادة والخلود.

وقد تحدث ابن بطوطة في رحلته الشهيرة عن خروج أهل الميت في كل ليلة جمعة للقرافة(٥٦٧). وقد اعتبر أهل مصر أن ذلك لا يخالف الشريعة والفقه الإسلامي حيث قال ابن القيم: الأحاديث والآثار تدل على أن الزائر متى جاء علم به المزور وسمع كلامه وأنس به وأن هذا عام في حقا الشهداء وغيرهم ولأنه لا توقيت في ذلك كما ورد بأن الميت يعرف زائره يوم الجمعة قبل طلوع الشمس(٥٦٨).

ورغم انتقاد ابن الحاج لتصرفات المصريين في خروج النساء بصحبة أزواجهن إلى القرافة (٥٦٩). فقد كان للمصريين نظرة أخرى في ذلك مستمدة من الفقه الإسلامي

حيث لا يكره زيارة القبور للعموم لقول الرسول ﷺ " فزوروها " ولأن عائشة " زارت قبر أخيها عبد الرحمن رضي الله عنهما " وأنه من الحسن إن اجتازت المرأة بقبر في طريقها فسلمت عليه ودعت له [٥٧٠].

ويمكن القول أن تصرفات وعادات الكثير من المصريين في زياراتهم للقبور وجدت في الفقه الإسلامي والسنة النبوية ما يبررها كما تنم عن الجوانب الدينية في الشخصية المصرية منذ عهد قدماء المصريين وحتى تاريخنا الحاضر حيث أمدهم الدين باليقين من خلال إيمانهم بالخلود والحياة الآخرة والحساب والجنة التي تعوض الفقراء أو المظلوم عما قد يكون لاقاه من معاناة في الحياة الدنيا.

أما الخوانق والربط والزوايا فقد وجدت طريقها مزدهرا في القرنين السادس والسابع الهجريين وانتشر في ربوع مصر وقد عددها المقريزي في القاهرة والفسطاط بما يقرب من ٥٣ خانقاة ورباط وزاوية وقد كانت تقوم بإيواء الصوفية والمعتكفين على العبادة [٥٧١].

وقد كانت هذه النماذج العمرانية وليدة لروح العصر الذي ساد في تلك الفترة وأخطار هذه المرحلة ومتطلباتها.وتمثلت هذه الظروف في كثرة الحروب الصليبية والفتن الداخلية وما تعرضت إليه الأمة من انتكاسات وصدمات أتت شرذمة منها على يد بعض حكام المنطقة العربية إضافة للصراعات السياسية والعسكرية بين أفراد الجيش الواحد – وقد كان الرحالة ابن منقذ شاهدا على بعض هذه الصراعات والفتن الداخلية حتى أنه ذاق بعض مرارتها في مصر[٥٧٢]

إضافة إلى المجاعات والأوبئة التي لحقت بمصر في القرنين السادس والسابع الهجريين والتي أدت بدورها لتدني مستوى المعيشة بين الناس وأدت لعادات وحوادث دخيلة على الشعب المصري وعصفت بمنظومة القيم والعادات والأخلاق واهتزت أركان الأسرة المصرية مما دفع ببعض الآباء لبيع أبنائهم وبناتهم خوفاً عليهم أو طمعاً في

لقمة أو لبابة وشيوع نبش القبور وأكل الموتى وبيع لحمهم والتخلخل الأمني المصاحب لهذه الكوارث التي كان البعض من رحالة القرنيين السادس والسابع الهجريين في موضع المشاهدة الذاتية ومعايشة الواقع[٥٧٣].

هذه الحوادث وغيرها الكثير دفعت العديد من الناس في مصر للهروب إلى أبواب الزهد في الدنيا والتطلع إلى لون من ألوان الحياة الروحية والهروب الروحي عسى أن يخفف عنه هذه الآلام والمحن والأشجان التي حاقت به من كل اتجاه[٥٧٤]. فلجأوا إلى الزهد والصوفية يلتمسون فيه سكينة الروح وينسون في رحاب الله ما يكتنفهم من عوامل الفزع والقلق والاضطراب[٥٧٥]. إضافة لما وجده أبناء الشعب من معاملة المتصوفة معاملة حسنة[٥٧٦]. جعلتهم لا يتعرضون لعسف موظفى السلطة[٥٧٧]. وما اتصفوا به من قسوة القلوب وقلة المروءة والحياء . وأن لهم في هذه الفضائح سلفا غير صالح [٥٧٨]. كما رآهم الرحالة في القرنيين السادس والسابع الهجري[٥٧٩].

يضاف إلى أسباب نزوح الناس إلى حركة الزهد أنهم يميلون بطبعهم إلى التدين ويستجيبون لكل دعوة تقوم على أساسه أو تمت إليه بصلة[٥٨٠]. وما يرتبط بشخصية المصري من قيم دينية ذات طابع شعبي داخلية لم تتغير تبعا لروح العصر [٥٨١].

فضلاً عن اضطرار طوائف الشعب الفقيرة أثناء وقوع الأزمات إلى اللجوء لهذه الأماكن وانخراطهم في تيار التصوف طمعا في رزق ثابت مما كان يوقف ويجرى على أهل الزهد من عطايا[٥٨٢]. إضافة لإمتزاج الهدف السياسي للسلطة الحاكمة مع ظروف العصر وأخطاره في تحويل نزعة التدين الشعبي في مصر من حالات فردية إلى ظاهرة دينية واجتماعية يشترك فيها أعداد كبيرة من الناس في إطار تعبئة شعبية لفكرة الجهاد المقدس[٥٨٣]. أو للدعاية للحاكم نفسه أو للترويج لفكر معين لاستئصال فكر آخر مثلما فعل صلاح الدين في مقابلة الفكر الشيعي بعدم الاضطهاد الصريح بل بدعاية مقابلة كانت فيه الربط والزوايا والخوانق والمدارس أحد أهم أدواته في ذلك[٥٨٤].

ويلاحظ من جملة كتابات الرحالة ومما عاينوه أنها وجدت وانتشرت في وقت معين تلبية لحاجات اقتصادية واجتماعية وسياسية آنذاك حيث ساد في القرنين السادس والسابع الهجريين حروب داخلية وخارجية نتج عنها إيجاد حالات من البطالة الحادة دفعت الكثيرين من فئات الشعب للإقبال على هذه المنشآت العمرانية إضافة لما وجدته هذه المنشآت من تشجيع من قبل السلطات الحاكمة لخدمة أهدافها السياسية واتجاهاتها الفكرية واستمرارا لاستغلال السلطة للدين كأداة لخدمة أهدافها. فمصر لم تعرف بها الخوانق والربط قبل الدولة الأيوبية(٥٨٥). وقد ذكر ابن بطوطة والنابلسي في رحلتيهما العديد من الزوايا في مناطق متفرقة وربما تعددت الزوايا لشخص واحد فقد ذكر أن السلطان بيبرس أنشأ خمس زوايا لشخص واحد هو الشيخ خضر منها ما كان في بلاد الشام ومنها ما كان في مصر(٥٨٦).

فقد كانت هذه المنشآت الدينية مرتبطة بالسياسية الدينية للحكام في مصر، ولم تتخذ هذه المنشآت العمرانية شكل الظاهرة السائدة في الحياة العمرانية والاجتماعية لمصر قبل العصر الأيوبي وبدايات القرن السادس الهجري، فقد اعتمد صلاح الدين الأيوبي على رواد هذه المنشآت في إذكاء حماسة الجنود والشعب للتوجه نحو الجهاد في سبيل الله فقام بإنشاء المؤسسات اللازمة لخدمتهم ووقف الأوقاف السخية عليها والتي أثارت انتباه الرحالة ابن جبير وظلت حركة عمران الزوايا الخوانق والربط في تزايد مستمر جنبا إلى جنب مع زيادة أعداد الدراويش والصوفية ذوو الأنماط الغريبة لاسيما في عصر سلاطين المماليك حتى وجد منها حوالي ست وثلاثين فرقة في ذلك العصر، وكان التفاف الناس وعامتهم حول هذا النمط من المتصوفة /الدراويش(٥٨٧). عاملا على زيادة إنشاء مثل هذه الأماكن التي يقيم فيها هؤلاء الدراويش طقوسهم الخاصة بهم.

وفى القرنين السادس والسابع الهجريين وجدت منشآت التصوف طريقها مزدهرا في المدن المصرية وأصبحت من المكونات المعمارية الدينية في المدن المصرية

وزادت أعدادها زيادة واضحة في تلك الفترة ولاسيما أنها كانت بالإضافة إلى وظائفها الأساسية تستخدم كمساجد أو مساجد جامعة، وقد كثر الاتجاه إلى إنشاء هذه المنشآت الدينية خصوصا لأن الدين يدعو إلى الاهتمام بعمارتها وإنشائها، كما أن هناك من العوامل الأخرى السياسية والاجتماعية والاقتصادية ما دفع إلى الإكثار من إنشائها ووقف الأوقاف عليه(٥٨٨).

وشكلت نصيباً كبيراً من المكونات العمرانية والمعمارية للمدينة المصرية تدل عليها كتابات الرحالة الذين زاروا مصر طوال فترة العصور الوسطى وخصوصاً بداية من القرن السادس الهجري وما بعده فشارع المعز لدين الله الفاطمي بالقاهرة وما يصطف على جانبيه من منشآت دينية مثال جيد على هذه الكثافة في القاهرة (٥٨٩). وتعبر عن طبيعة الأمة المصرية من تسامح وانفتاح حيث التعليم على المذاهب الإسلامية الأربعة والذى وقف أمامه كل من زار مصر مشدودا مشدوها أما الشارع الأعظم كل الرحالة والمؤرخون العرب.

ومن خلال المشاهدة الذاتية ومعايشة الواقع حفلت كتابات الرحالة بالعديد من الإشارات بوجود الزوايا والربط(٥٩٠). والخانقاوات(٥٩١) ومنشآت التصوف الإسلامي .

وشاهد الرحالة هذه المنشآت العمرانية منتشرة في كافة المدن المصرية فرأى القزويني في دمياط: " ... على سورها مدارس ورباطات (٥٩٢). كثيرة..".(٥٩٣) وأطلق ابن جبير على هذه المنشآت اسم المحارس فقال: " ... ومن مناقب هذا البلد – يقصد الإسكندرية– ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ..."(٥٩٤). وأضاف بقوله: "... وما منها جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ... إلا وفضل السلطان يعم ..."(٥٩٥).

أما الفيلسوف ابن خلدون فذكر الخوانق بالقاهرة بقوله: " .. وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه ..."[٥٩٦]. ونوه إلى اهتمام الدولة بهذه المنشآت العمرانية في قوله: " ... أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيون على القدم منذ عهد مواليهم ملوك بنى أيوب بإنشاء ... . الخوانق لإقامة رسوم الفقراء في التخلق بآداب الصوفية السنية في مطارحة الأذكار ونوافل الصلوات وأخذوا ذلك عمن قبلهم من الدول الخلافية فيختطون مبانيها... فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة القاهرة وأصبحت معاشا للفقراء من الفقهاء والصوفية ..."[٥٩٧].

كما كانت الخوانق من أبرز المنشآت العمرانية وهى دور فخمة يقوم على إنشائها الملوك والأمراء المتحمسون للدين من أجل إيواء الغرباء من المسلمين والسماح لهم ولأسرهم بالإقامة والقيام على معيشتهم وعلى تثقيفهم فكانت الخوانق ملتقى الجنسيات واللغات[٥٩٨].

أما ابن بطوطة فقد رصد لنا أكثر من زاوية مقامة في أنحاء مصر، فقال عن الإسكندرية: " وكنت سمعت أيام إقامتي بالإسكندرية ... أنه منقطع بمنية بنى مرشد له هنالك زاوية هو منفرد فيها .."[٥٩٩] وذكر أن في مدينة فوا: " بها زاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدى ... بلاد البرلس ونسترو ... ونزلت بزاوية الشيخ .. ثم سافرت إلى مدينة دمياط .. بها مسجد وزاوية..."[٦٠٠] ويخلط بين الزوايا والخوانق في مصر بقوله: " ... وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدها خانقة والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم .. ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب أمورهم عجيب .. ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبة داخل الزاوية ..."[٦٠١].

وتطلق تسمية الزاوية على (المبنى) بصفة عامة ثم خصصت للدلالة على المسجد محدود المساحة[٦٠٢]. والزاوية تنشأ برسم شخص معين يتروي فيها للعبادة فتصبح مقرا له ينقطع فيها وملجأ لبعض مريديه[٦٠٣] وقد اشتركت الزاوية مع الخانقاة والرابط في

كونهم مأوى وملجأ للفقراء والمحتاجين وأصحاب العاهات والمطلقات وكبار السن والعميان[٦٠٤].

وذكر الشيخ اسحق بن حسين المنجم أن بالإسكندرية يوجد: "...رباطات على ساحل البحر يترلها العباد والغرباء..."[٦٠٥]. وقال ابن بطوطة أنه يود رباط على مشهد الحسين: " وعليه رباط ضخم عجيب البناء .."[٦٠٦]. بل أن الرحالة الطنجي قد بات ليلة في طريق الحج بعصر بأحد الرباطات بالصعيد فقال: "...كان سفرى من مصر على طريق الصعيد .. فبت ليلة خروجي بالرباط ... وهو رباط عظيم بناه على مفاخر عظيمة وأثار كريمة ... وجعل فيه الطعام للوارد والصادر ..."[٦٠٧].

كما أشار ابن بطوطة لكثرة الزوايا في مدينة أسنا بالصعيد فقال:"..منها إلى مدينة أسنا.. كثيرة الزوايا "[٦٠٨].

وفى القرن السابع الهجري شاهد العبدري: " ... في مصر من المزارات الشريفة عدة وافرة ... عليها رباط في غاية الإبداع ..."[٦٠٩].وتحدث عن رباط السيدة نفيسة والإمام الشافعي قائلا: "... روضة السيدة الشريفة الطاهرة .. نفيسة بنت على بن أبي طالب ... عليها رباط مقصود ... وتربة الإمام الشافعي ... عليها رباط كبير ومحل أثير وفيها جراية تزيدهما اشتهارا وعناية تلحقها مبرة وإيثارا..."[٦١٠]. ويقول المقريزي: كان بالقرافة الكبيرة عدة دور يقال للدار منها رباط على هيئة ما كانت عليه بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يكون فيها العجائز والأرامل العابدات وكانت لها الجاريات والفتوحات وكان لها المقامات المشهورة من مجالس الوعظ...."[٦١١]. وقيل أن الرباطات هي بيوت المسنين في العصر الحاضر وهي خاصة بالسيدات المسنات[٦١٢].

ويلاحظ أن المدافن ارتبطت بالمدينة من زاوية معينة فكان موقعها مرتبطا بالوظيفة الصحية للمدينة فقرافة الإمام الشافعي رغم وقوعها في جنوب القاهرة التزامها بالموقع الصحي في منصرف الرياح بعيدا عن الطين في الرمل الجاف منفصلا عن

جسم المدينة فإن مدينة الأحياء تداخلت مع مدينة الموتى بصورة غريبة[٦١٣] يمكن تفهم بواعثها إلى رواسب فكرية في طبيعة وأذهان الشعب المصري جعلتهم يتزاحمون عليها من كل مكان يشكل جذب انتباه العديد من الرحالة والمؤرخين.يقول ابن ظهيرة: " .... في خانقاه سعيد السعداء وحدها إن أهلها يعمرون مدينة وقد بلغت عدة الصوفية بها في هذا الوقت سبع منه نفر وأكثر..."[٦١٤].

أما القـــــلاع فرغم تواتر ذكرها في كتابات رحالة القرنين فترة الدراسة في مصر إلا أنها كانت أكثر وجودا في الشام وشمال العراق أما في مصر فقد ركز رحالة القرنين السادس والسابع على الحديث عن قلعة صلاح الدين في القاهرة والتي بناها متأثرا بالقلاع في موطنه الأول، كذلك لا يأتي زهرها إلا نادراً في الجزيرة العربية وإنما هناك حصون متناثرة منفردة في مواقع مختلفة من طريق الحج .

ولقد كان لبناء القلعة ومد السور حول المدينة أثر كبير على امتداد العمران في القاهرة الأيوبية ذلك لأن تركيز الإدارة الحكومية ومصالح الجيش في القلعة جعل القاهرة تنمو نموا جديدا من ناحيتها الجنوبية حتى تم الاتصال بينها وبين الفسطاط والعسكر والقطائع وبخاصة بعد إنشاء المدارس الجديدة بالقرب من قبة الإمام الشافعي وجامع عمرو بن العاص كما أن امتداد السور الجديد إلى النيل من ناحية القاهرة الشمالية. جعل من اليسير أن تنمو القاهرة كذلك في هذا الاتجاه ولكل هذا ازدهر العمران بالقاهرة الأيوبية (القرن السادس الهجري) وأنشئت في الأحياء الجديدة الدور العالية والحمامات الشعبية والأسواق العامة وخانقاوت الصوفية[٦١٥] التي كانت ماثلة أمام أعين الرحالة آنذاك.

لقد امتاز القرن السادس الهجري في مصر بانطلاقة العمران الحربي لتخلل هذا العهد سلسلة من الحروب المستمرة فاهتم حكام هذه الحقبة ببناء القلاع والحصون والمعسكرات، ومن العمائر الدفاعية التي أنشأها صلاح الدين بمصر القلعة وسور يحيط القاهرة ومصر (القطائع والعسكر والفسطاط)[٦١٦]. وخضعت القلعة لموازين ثابتة

ولهندسة دقيقة فكان لكل عنصر من عناصرها الدفاعية وظيفة[٦١٧] وهى نموذج نادر للعمران الحربي في مصر الإسلامية بأسوارها وأبوابها[٦١٨].

واستناداً إلى مذكرات الرحالة إضافة للمصادر التاريخية يمكن القول بأن الجزء الأكبر من القلعة الأيوبية قد تم في عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م وكان حول السور الشرقي من القلعة خندق ولا يزال أثره ظاهرا ويؤيد ذلك ابن جبير الرحالة الأندلسي الذي قدم إلى القاهرة في أخريات عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م[٦١٩].

وكان الغرض من إنشاء القلعة هو تحصين القاهرة من احتمال الهجوم عليها ولحماية صلاح الدين في حالة قيام ثورات ضده أو العصيان عليه وقد استخدم في بناء القلعة أحجار البناء من منطقة أهرام الجيزة وسخر في نقلها وفى عملية البناء آلاف الأسرى من الصليبيين وهدم ما حولها من المساجد والقبور[٦٢٠].

ونجد أنه منذ العصور الوسطى وطوال تاريخ القلعة في مصر وللدفاع مدينته الكاملة المطلقة (بشكناها ومخازنها بل ومصانع سلاحها التي تقع كليةً خارج المدينة وعلى ضلوعها الشرقية مصدر الخطر الخارجي الأساسي[٦٢١] وقد أشار كل من ابن خلدون وابن الأزرق في القرن ٩هـ/١٥م إلى هذه الشروط الدفاعية في أي مدينة فذكرا أن الذي تجب مراعاته في أوضاع المدن أصلان مهمان: دفع المضار وجلب المنافع[٦٢٢].

ورغم أهمية القلاع والأسوار للمدن الهامة خاصة الثغور فنجد أن بعض المدن والثغور المصرية تتحدي هذا الارتباط بشكل آثار حفيظة الرحالة الغربي بيرو طافور أثناء تواجده في دمياط مما دفعه بالقول: " ... وبلغنا دمياط .. وهى تماثل "سلامنكا " في ضخامتها .. وهذه المدينة منبسطة جدا غير مسورة وليست بها قلعة ... "[٦٢٣]. والتي كانت قد خربها المسلمون لأسباب عسكرية وسياسية.

وتحدث طافور عن وسائل أهل المدينة في كيفية الدفاع عن أنفسهم رغم عدم وجود القلعة والسور لديهم، وذكر أنهم يستعدون لذلك عن طريق استخدام الحمام

الزاجل: " فيكونون بمنجاة من الأخذ على غرة ولاسيما وهم يعيشون بلا وسائل دفاع منهم وليس لديهم أسوار ولا قلاع ..."[٦٢٤].

والقلعة في اللغة الحصن على الجبل[٦٢٥] وكانت نشأة القلاع الأولى كقصر للملك أوت أصلا مشيدة عليه لتكون بمثابة الخندق وقد فصلت هذه الهوة بين قلعة الجبل وبين جبل المقطم [٦٢٦]. وعنه قال ابن جبير: " ... وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور وهو خندق ينقر بالمعاول في الصخر فيأتي عجبا من العجائب الباقية الآثار..."[٦٢٧]. وحين رآها ابن شاهين في القرن الثامن الهجري كانت أصبحت مركز الحكم وصارت: "... دار الملك الشريف التي بها تحت المملكة المعروفة الآن بقلعة الجبل ليس لها نظير في الاتساع والزخرفة والأبهة والعلو تشتمل على سور وخندق وأبراج وعدة أبواب من حديد وهي حصينة جدا ..."[٦٢٨]. كما أصبحت القلعة آنذاك أحد أهم مراكز البريد المحورية وقد أفرد لها القلقشندى الحديث في قوله: " مركز قلعة الجبل المحروسة بالديار المصرية التي هي قاعدة الملك وما يتفرع عنه من المراكز وما تنتهى إليه مراكز كل جهة .. اعلم أن الذي يتفرع عن مركز القلعة ويتشعب منه أربع جهات..."[٦٢٩].

وخلعت القلعة على القاهرة هيبة واحتراما لقول ابن سعيد: "... القاهرة هي أكثر عمارة واحتراما وحشمة .. لسكنى الأمراء فيها لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها ...."[٦٣٠].

وكانت القلعة في داخلها تمثل لما بها من هندسة عمرانية مدينة كاملة مستقلة بذاتها فيها جميع مكونات المدن العمرانية بما تشمله من مستلزمات الحياة من أسواق وقصور حمامات وصهاريج وآبار ومساجد وسجون وما شابه ذلك[٦٣١].

وهذا ما أشار إليه الرحالة ابن شاهين الظاهري في قوله عن قلعة الجبل: "... وهي حصينة جدا وبها من القصور والميادين والمجالس والغرف والطباق والأحواش

والميادين والاصطبلات والجوامع والمدارس والأسواق والحمامات ما يطول شرح ذكره ولكن نأتي بملخصه مما فيه من العظمة والأبهة والناموس الشريف أيوب (٦٣٧/٦٤٧هـ - ١٢٤٠/ ١٢٤٩م) كان يبنى في ذلك الوقت قلعة بجزيرة الروضة بحيث ازدهرت مدينة الفسطاط نتيجة لذلك وانتقل إليها كثير من الأجناد وتم بناء قيسارية جليلة القدر وبهذا أشار الرحالة ابن سعيد إلى انتقال مقر الحكم بشكل مؤقت إلى الحصن الذي أقامه الصالح أيوب سنة ٦٣٨هـ/١٢٤١م وأحاطه بسور به ستون برجا للحراسة وقد استخدم عددا كبيرا من أسرى الصليبين في بناء القلعة[٦٣٢].

ويقول ابن سعيد: "... اعتنى السلطان الآن ببناء قلعة الجزيرة التي أمام الفسطاط وصيرها سرير السلطنة وعظمت عمارة الفسطاط وانتقل إليها كثير من الأمراء وضخمت أسواقها وبنى فيها للسلطان أمام الجسر الذي للجزيرة قيسارية عظيمة..."[٦٣٣].وقد أسكن الصالح نجم الدين أيوب مماليكه في قلعته الجديدة بالروضة ولهذا عرفوا باسم " البحرية " نسبة إلى "بحر النيل " وهو الاسم الذي اعتاد أهل مصر أن يطلقوه على نهرهم العظيم[٦٣٤].

ويبدو أن كثرة البناء وازدياد العمران بالجزيرة أدى لزحف العمران على النيل والتعدي عليه وذلك لما شاهده الرحالة ابن سعيد من أن: "... النيل هنالك ضيق لكون الجزيرة التي بني فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته قد توسطت الماء ومالت إلى جهة الفسطاط ... وكثير من الجند قد انتقل إليها .. وبني على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر..."[٦٣٥].

ولعل المقارنة بين وصف القاهرة في رحلة ابن جبير الذي زار العاصمة المصرية في بواكير الدولة الأيوبية ورحلة ابن سعيد الذي زارها في سنوات الأفول والغروب التي عانتها دولة بني أيوب تكشف عن أن حظ المدينة قد سار في اتجاه معاكس لحظ الدولة التي تصادفت الرحلتان مع بدايتها ونهايتها ففي الرحلة الأولى كانت القاهرة تبدأ

تاريخها الحقيقي في القرن السادس الهجري عاصمة لمصر والعالم العربي الإسلامي على استحياء وفى الرحلة الثانية كانت القاهرة قد استكملت كل المقومات التي تجعلها عاصمة عالمية وانعكست هذه الحقيقة فيما أشارت إليه كلمات ابن سعيد[٦٣٦]. وغيره من رحالة القرن السابع الهجري وما شاهدوه من حياة يومية في شوارعها وضواحيها وما زخرت به من معالم عمرانية ضخمة أثارت انتباه الكثير منهم إضافة لما شهدته الفسطاط من صحوة عمرانية في أواخر العهد الأيوبي، وقد أشار لذلك ابن سعيد بقوله:"...وقد نفخ روح الاعتناء والنمو في مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية..."[٦٣٧].

وأورد ابن سعيد في النجوم الزاهرة حديث عن كتاب رشف القبل في حلى قلعة الجبل وذكر ان قلعة الجبل صارت مقرا للحكم في عهد السلطان الكامل حيث اختارها: " أن تكون سريرا لسلطنته لأنها أمنع ما أبصره في تلك الجهة وهى مطلة على ظاهر القاهرة وظاهر الفسطاط وسط بينهما..."[٦٣٨] وقد شبه الرحالة الفرنسي بيلون الذي زار مصر في القرن العاشر الهجري بأن القلعة تشبه قصر سانت بيير[٦٣٩].

ووصف الرحالة الفرنسيون القلعة وما بها من السجون واصطبلات الخيل ومبانيها المزينة بالرخام وأبوابها التي بها العديد من التذهيبات والنوافذ المزخرفة والتي تطل على القاهرة وفناء القلعة العظيم الاتساع وما به من سلالم صغيرة تسمح بصعود الدواب إليه[٦٤٠]. وأشار البغدادي إلى استخدام أحجار الأهرام الصغيرة بالجيزة في عملية بناء القلعة بمساعدة آلاف الأسرى الصليبيين وهدم ما حولها من المساجد والقبور[٦٤١].ونستطيع القول بأن مؤلفات الرحلة تضمنت إشارات هامة من العمران الحربي والمدني ودوره التاريخي في مصر – عصر الصليبيات – إضافة لإشاراتهم الهامة للمدن المصرية ومكوناتها وأسوارها وقلاعها مع ملاحظة أن أغلب إشاراتهم تركزت على وصف مظهرها الخارجي وحصانتها ومناعتها، أما دورها الحربي فكانت إشارتهم

نادرة بشأنه وإن قدمت مؤلفات الحوليات والخطط – في المقابل – البديل عن ذلك النقص في صورة وفرة التفصيلات المتعلقة بالجانبين الحربي والسياسي.

وبرغم من احتمال الاعتناء بأنواع خاصة من العمائر مثل الدينية والدفاعية في مختلف أنحاء البلاد فإنه لم يصلنا الشئ الكثير حتى الآن في الوجه البحري كله وذلك على الرغم من وجود بقاع فيه تردد ذكرها كثيرا لارتباطها بوقائع تاريخية وحضارية حدثت في البلاد منذ أيام الفتح العربي وطول التاريخ الإسلامي وبخاصة لما تعرضت له تلك الأيام وما تبعها في أثناء المعارك التي دارت فيها أو حولها وعندما كانت تمر بها الحملات والجماعات من الناس، وينطبق هذا القول أيضا على الوجه القبلي من جنوب العاصمة حتى مدينة قوص ومن أهم ما وصلنا عن بقاع الديار المصرية ذكر الحصون والقلاع التي كانت منتشرة على حدودها في الشمال والجنوب، وتأتى حصون الإسكندرية في مقدمتها حيث كانت القاعدة الأولى لأسطول الروم ولم يطمئن العرب المسلمون على فتحهم لمصر إلا بعد أن استولوا عليها واستمرت طوال التاريخ الوسيط موضع عناية الولاة والخلفاء والسلاطين .

ويأتي حصن دمياط في المرتبة التالية للإسكندرية والتى استمرت عرضة لهجمات الروم أيام الفاطميين وإلى نهاية العصر الأيوبي وذكر المؤرخون حصن تنيس [٦٤٢]. وذكر ناصر خسرو أنه: " شاهد بتنيس جيشا كاملا بالسلاح مقيما بالمدينة حتى لا يستطيع أحد من الفرنج أو الروم أن يغير عليها.."[٦٤٣]. كما كانت مدينة بلبيس حصينة مسورة يقيم بها (والى الحرب) وكان يتردد ذكر هذه المدينة مع الحروب والفتوح الغارات التي كانت تتعرض لها الديار المصرية منذ فتح العرب لها على أيدي عمرو بن العاص، وذكر ابن زولاق عددا من الحصون وسماها " رباطات " وقصد بها النقاط الحصينة على شواطئ البحر أو داخل البلاد في المواضع الهامة منها أو تقوم بوظيفة نقط مراقبة غير أن لفظ الرباط قد استخدم فيما بعد لنوع من العمائر الدينية ومما قاله ابن

زولاق: " ذكر ما بمصر من الرباطات والثغور من ذلك رباط البرلس ورباط رشيد ورباط الإسكندرية ورباط ذات الحمام ورباط البحيرة ورباط أخنا ورباط دمياط ورباط الفرما ورباط الواردة ورباط العريش ورباط بئر إسحاق... ورباط الحرس من جهة الحبش والبجة وما يقرب منهم ورباط أسوان على النوبة ورباط الواحات على البربر والسودان"(٦٤٤).

أما الجسور فهي تلك الجسور التي يعم نفعها كل الأرض الزراعية المصرية في أنحاء البلاد، ولذا كانت تشيد وتتم صيانتها من الدولة وله رسوم مقررة على البلاد المصرية في شكل جراريف ومحاريث وأبقار مرتبة على غالب البلاد المصرية وكانت الدولة مسئولة عن إقامة وصيانة هذا النوع من العمران لما كان لها من صفة جامعة وأهميتها في رى البلاد وقد وصفت الجسور بأنها السور المحيط بالمدينة (هكذا كان شكل مدن العصور الوسطى في الغالب) وعلى السلطان أن يهتم بهذا السور ويكفى الرعية أمر التفكير فيه "(٦٤٥).

والجسور عبارة عن سد ترابى يقام على حافة النهر أو التربة يحفظ لنا الماء من أن يفيض على الجانبين ويفرق البلاد المحيطة وبهذه الجسور كانت تتم عملية حجز المياه الفيضانية كى يستفاد منها في عملية رى البلاد وتأمين البلاد من خطر الفيضانات العالية(٦٤٦). ويعرف القلقشندى الجسور بقوله: " هي الحابسة لمياه النيل على أرض بلادها إلى حين استحقاق موعد الزراعة"(٦٤٧).

وأورد الرحالة أشارات عن الجسور المصرية فبجانب دورها في ضبط المياه وتخزينها كان لها دور هام في القرن السادس والسابع الهجري في أمور الدفاع والعمليات العسكرية وأصبحت معلم عمراني هام للمدن المصرية ذات طبيعة اجتماعية واقتصادية وسياسية.وقد أدرك صلاح الدين الأيوبي هذه الحقيقة في القرن السادس الهجري فظل الاهتمام بحفر الترع وإقامة الجسور طوال تاريخ مصر الأيوبي والمملوكي اللهم إلا فترات قليلة أهمل فيها هذا الأمر مما أثر بالسلب على اقتصاد مصر(٦٤٨). ونجد

صلاح الدين في القرن السادس الهجري يحرص على حماية بلاده ببناء المراصد والمحارس وبناء القناطر الحاجزة التي تحول بين بلاده وأعدائه ولعله كان يعتبر في أعماقه أن الموحدين هم من أعدائه السياسيين ومن منافسيه الأقوياء ولهاذ نراه قد بنى بمصر قنطرة كبيرة جدا تصل إلى نحو أربعين قوسا من أكبر ما يكون من قسي القناطر وجعلها متصلة بالصحراء المفضية إلى الإسكندرية(٦٤٩).

قال بن جبير: " ... له في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة إعداد الحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الإسكندرية عند فيض النيل وانغمار الأرض به وامتناع سلوك العساكر بسببه فأعد ذلك مسلكا في كل وقت إن احتيج إلى ذلك والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومحذور بمنه ..."(٦٥٠) وليس من قبيل الصدفة أن نرى ابن جبير بعد زكر هذه القنطرة يقول: "... ولأهل مصر في شأن هذه القنطرة إنذار من الإنذارات الحدثانية يرون أن حدوثها إيذان باستيلاء الموحدين (٦٥١) عليها وعلى الجهات المشرقية والله أعلم بغيبة لا إله سواه ...."(٦٥٢).

وفى أواخر القرن السادس الهجري نجد الرحالة البغدادي يصف في مصر حال القناطر وكيفية بناءها بقوله: "...وأخذ حجارة هذه الأهرام الصغر وبنى بها القناطر الموجودة اليوم بالجيزة، وهذه القناطر من الأبنية العجيبة أيضا ومن أعمال الجبارين وتكون نيفا وأربعين قنطره "(٦٥٣).

ويكشف لنا البغدادي عن مسئولية السلطة الحاكمة في تدهور أحوال هذه الجسور في بعض الفترات فيذكر: " وفى هذه السنة وهى سنة سبع وتسعين وخمسمائة تولى أمرها من لا بصيرة عنده فسدها رجاء أن يحتبس الماء فيروى الجيزة فقويت عليها جريه الماء فزلزلت منها ثلاث قناطر وانشقت..."(٦٥٤).

ويبدو أن الجسور كان لها دور اجتماعي آخر في القرنين السادس والسابع الهجريين وهو التيسير على القوافل للحجاج بجانب اعتبارها جزءا هام من شبكة

المواصلات في هذا الوقت وقد اهتمت من قبل الدولة الفاطمية بتمهيد الطرق البرية وإقامة الجسور لأهميتها الاجتماعية والاقتصادية فتحدث ناصر خسرو عن جسر أنشأه الفاطميين على شاطئ النيل ليسير عليه الناس وهذا الجسر يمتد من القاهرة إلى أسوان وبلغ من حرص الفاطميين عليه أن عينوا له موظفا يشرف على صيانته(٦٥٥).

وأشار ابن سعيد في القرن السابع الهجري لتراجع دور أحد الجسور بسبب التقاليد آنذاك فيذكر: " الجسر الذي يكون ممتدا من الفسطاط إلى الجزيرة وهو غير طويل، ومن الجانب الآخر إلى البر الغربي المعروف ببر الجيزة جسر آخر من الجزيرة إليه وأكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم في المرّاكب لأن هذين الجسرين قد احترما بحصولهما في حيز قلعة السلطان"(٦٥٦)وقد وصف الإدريسي حال هذه الجسور في عهده: "... وهذه الجزيرة يجاز إليها على جسر فيه نحو ثلاثين سفينة ويجاز القسم الثاني وهو أوسع من الأول على جسر آخر وسفنه أكثر من الأول أضعافاً مضاعفة وطرف هذا الجسر يتصل بالشط المعروف بالجيزة..."(٦٥٧).وتناول المقريزي قناطر الجيزة بقوله: " إن القناطر الموجودة اليوم في الجيزة من الأبنية العجيبة ومن أعمال الجبارين، وهى نيف وأربعون قنطرة عمرها الأمير قراقوش الأسدى وكان على العمائر في أيام السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب بما هدمه من الأهرام التي كانت بالجيزة وأخذ حجرها فبنى منه هذه القناطر وبنى سور القاهرة ومصر وما بينها وبنى قلعة الجبل ..."(٦٥٨).

وجاء الاهتمام بالقناطر والجسور كاستجابة طبيعية لضرورات الاقتصاد والجهاد والأمن واستجابة للأحكام الفقهية حيث جاء في فصل أحكام الفيئ من كتاب منار السبيل: أن مصارف الفيئ يبدأ بالأهم فالأهم من سد ثغر وكفاية أهله لأن أهم الأمور حفظ بلاد المسلمين وأمنهم من عدوهم وحاجة من يدفع عن المسلمين وعمارة القناطر ورزق القضاة والفقهاء وغير ذلك كعمارة المساجد وغيرها مما يعود نفعه على المسلمين(٦٥٩).

كما كانت الجسور أيضا من أهم الطرق للتوصيل بين المدن والقرى المختلفة في مصر وبالرغم من أن الغرض الأساسي من تلك الجسور كان تسهيل الري وحفظ البلاد الواقعة على جانبي النيل، فإن أهميتها للنقل لا تنكر وقد كان هناك نوعان من الجسور ؛ جسور رئيسية تهم البلاد كلها وتسمى الجسور السلطانية وجسور محلية تهم أهل الجهة دون الأخرى وكان يطلق عليها الجسور البلدية[٦٦٠].

وقد بلغ اهتمام السلطة الحاكمة بالجسور في العهد الفاطمي بأن أقاموا جسر على شاطئ النيل ليسير عليه الناس وكان يمتد من القاهرة حتى أسوان وبلغ من اهتمامهم به أن عينوا له موظفا يشرف على صيانته وتجديد عمارته ورصدوا لهذا الغرض مبلغ قدره عشرة آلاف دينار[٦٦١].

أما المعديات والكباري فكانت عند المدن التجارية الكبرى كالفسطاط والبلاد ذات الأسواق الأسبوعية مثل الجيزة، فيذكر الرحالة ابن حوقل: "أنه كان يعدى من الفسطاط إلى عدوة أولى فيها أبنية حسنة ومساكن جليلة تعرف بالجيزة ويعبر إليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة ويعبر من هذه الجزيرة ويعبر إلها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة ويعبر من هذه الجزيرة على جسر آخر إلى القسم الثاني كالجسر الأول إلى أبنية ومساكن على الشط الثالث تعرف بالجيزة[٦٦٢].

وقد استمرت سياسة الاعتناء بمبناء القناطر والجسور والمعديات، الأسر الحاكمة في القرنين السادس والسابع الهجريين قد لاحظنا ذلك في عناية السلطان الظاهر بيبرس بالزراعة، الأمر الذي دفعه إلى بناء كثير من القناطر والجسور: " لكثرة ما كان يشرق من الأراضي في كل سنة فانتفعت البلاد بهذه القناطر"[٦٦٣]. ومن أهم القناطر والجسور التي أنشأها بيبرس تلك القائمة على بحر أبي المنجا والتي وصفها المقريزي: " بأنها أجل قناطر أرض مصر " وثمة قنطرة مشهورة أنشأها السلطان بيبرس على الخليج المصري نسبت إليه فسماها ابن دقماق " القنطرة الظاهرية " وإن كان اسمها الشائع في المراجع

هو قنطرة السباع لأنه وضع عليها سباعاً من الحجارة تشير إلى شعار السلطان بيبرس نفسه [٦٦٤]. واستمر المنصور قلاوون على نهج الظاهر بيبرس في الاهتمام بالجسور والترع والقناطر مما أدى لزيادة الإنتاج الزراعي فلم تحدث أية أزمة اقتصادية في عصره سوى مجاعة واحدة فقط واستطاع الناصر التغلب عليها [٦٦٥].

وكانت القناطر والجسور بمثابة عناصر ربط بين الطرق البرية في أرياض المدينة المتصلة بمتجاوراتها ومكنت من الاستمتاع بالمشاهدة الجمالية للقناة أو النهر أثناء المرور عليها كما أنها كانت أحيانا في حد ذاتها تحفة معمارية يتوق المرء إلى رؤيتها والعبور عليها خاصة في مصر والقاهرة وعادة ما كانت أماكن للتنزه واللهو والطرب لدى العامة من الناس [٦٦٦]. وقد أشار لذلك الرحالة ابن سعيد في غير موضع(٦٦٧).

أما الـــــدور والبيوت التي يسكنها فئات الناس فنفهم من كلام رحالة القرن السادس الهجري أنها كانت في غالبيتها من الآجر في العراق ومن الطين والقصب في مدن الشام ومصر وكانت هذه الدور ترتفع إلى عدة طوابق في الإسكندرية والفسطاط وهو ما يؤيد وصف كل من ابن حوقل في القرن الرابع الهجري وناصر خسرو في القرن الخامس الهجري للفسطاط [٦٦٨].

وقد شقت المدن المصرية طريقها لأن تكون مدن ذات حضارة بانتشار بناء الدور: " لأن البناء واختطاط المنازل انما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة وذلك متأخر عن البداوة – ومنازعها ..." [٦٦٩]. وكانت الدور غالبا في المدن تتكون من عدة أدوار احتلت الحوانيت الأدوار السفلى منها وخصصت باقى الأدوار للسكن والإقامة [٦٧٠].

والدار يذكرها ابن منقذ في المنازل والديار فيقول: " قال المجد: الدار: المحل يجمع البناء والعرصة كالدارة والجمع أدؤر وديارات وأدوار، أدورة، والدار أيضا البلد وفى

اللسان عن الأزهري: وأما الدار فاسم جامع للعرصة والبناء والمحلة وكل موضع به قوم فهو دارهم والدنيا دار فناء والآخرة دار قرار[٦٧١].

وقد خلت بيوت المصريين من الحمامات والمرافق الصحية التي كانت قاصرة على بيوت السلاطين والأمراء وكبار الأثرياء فقط [٦٧٢]. ووجد هذا النوع من الحمامات في مدينة تنيس وقد أشار ابن بسام التنيسى إلى أن تنيس كان بها من الحمامات العامة ستة وثلاثون حماما سوى حمامات الأهلين الخاصة الملحقة بدورهم[٦٧٣].

ووجدت بعض المنازل الملحقة بالمساجد وغالبا ما تكون لإمام المسجد فقال ابن جبير: " ... فألفيناه في مسجده بالقاهرة وفى البيت الذي يسكنه داخل المسجد المذكور وهو بيت ضيق الفناء .."[٦٧٤].

ورأى الرحالة بيوت بعض المدن من الأخصاص خاصة في المدن الساحلية مثل عيذاب التي شبهها ابن دقماق بالضيعة[٦٧٥]. ويصفها الحميري بأن مساكنها أكثرها أخصاص وفى موضع آخر يذكر أن بعضها من حجارة[٦٧٦]. وأكد ذلك ابن جبير في القرن السادس الهجري بقوله: " ... وهي مدينة على ساحل بحر مستحدث بالجص.."[٦٧٧]. وكذلك الحال في أجزاء من دمياط وتنيس: "... وبقى الناس يتزلون في أخصاص وكذلك كانت تنيس"[٦٧٨]. والأغلب أن بيوت المدن المصرية كانت شاهقة الارتفاع يوجد بالبيت العديد من الطوابق ويسكنون في الأدوار العليا من البيت مرتبة بها العديد من الحجرات والنوافذ الجيدة التهوية، وفى ذلك يقول ابن حوقل: " والدار تكون بها طبقات سبعا وستا وخمس طبقات وربما سكن في الدار الواحد المائتان من الناس..."[٦٧٩].

والواقع أن أهل مصر بوجه عام اهتموا اهتماماً بالغاً بتشييد المنازل وتأثيثها وتزويدها بكل وسائل الراحة وقد بدت منازلهم في مظهرها الخارجي صغيرة وبسيطة ولكنها في الداخل مرتبة غاية الترتيب ومقسمة إلى حجرات مختلفة ومزينة على خير

صورة[٦٨٠] تحتوى على اصطبلات ودهاليز وأفنية واسعة وفى ذلك يقول الرحالة أسامة بن منقذ: "... وأنزلني في دار من دور الأفضل بن أمير الجيوش في غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ورمتبة كبيرة وآلتها من النحاس..."[٦٨١].

وفى موضع آخر يذكر بن منقذ أن لبعض الدور أكثر من باب ودهاليز فيقول: "... وكانت الدار لما أراده الله من سلامة بعضهم لها بابان .. وجلست في صفة في دهليز دارى.."[٦٨٢].

وقد وصف JEHAN THENAUD الدار التي أقام بها في مصر في القرن العاشر الهجري فذكر ردهاتها الفسيحة وجدرانها المزينة بالألوان الجميلة وأبوابها ذات المقابض المصنوعة من العاج إضافة للفسقية التي توجد بفناء الدار والتى تحيط بها الأشجار الباسقة [٦٨٣]. ووصف ابن منقذ بعض ملامح داره بالقاهرة فقال: "... وعادوا إلى دورنا نهبوها فأخذوا من قاعة دارى أربعين غرارة جمالية – الجمالية من التوق العظيمة – مخاطة فيها من الفضة والذهب والكسوات شئ كثير وأخذوا من اصطبلى ستة وثلاثين حصانا وبغلة سروجية بسروجها وعدتها كاملة وخمسة وعشرين جملاً..."[٦٨٤].

وقد لاحظ بيرو تافور أنه رغم حرارة الجو في الشارع بدمياط إلا أن: "... بيوتها قاسية البرودة ... "[٦٨٥].

وقد عمد المصريون إلى جعل الدور باردة من الداخل عن طريق مراعاة اتجاه الرياح وتقصي الشروط البيئية وفى ذلك يقول عبد اللطيف البغدادي عندما زار مصر في عصر الملك العادل سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م: " أما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية حتى أنهم قلما يتركون غفلا خاليا من مصلحة ودورهم أفيح وغالب سكناهم في الأعالى ويجعلون منافذ منازهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة وقلما تجد منزلا إلا وتجد فيه باذا هيج وبإزاء هيجاهم – يقصد البلكون أو الشرفة المطلة – كبار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الإحكام..."[٦٨٦].

وكانت القاهرة في أول وضعها مدينة حدائق فيذكر ناصر خسرو أن: ".. البيوت ... بعيدة عن بعضها فلا تنمو أشجار ببيت على سور بيت آخر ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغى لبيته في كل وقت من هدم أو إصلاح دون أن يضايق جاره ....."[٦٨٧].وقد أصاب القاهرة فيما بعد ما أصاب غيرها من المدن في القرن السابع الهجري حتى نجد ابن سعيد يشكو ضيق دروبها وكثرة التراب والأزبال فيها وارتفاع مبانيها حتى ضيقت مسلك الهواء والضوء . فقال: " ... وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها...."[٦٨٨].وهذا يدل على التزايد السكانى بالقاهرة آنذاك حيث تلاصقت المبانى وامتدت رأسيا.والعديد من هذه الدور كانت تبنى: " ... بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الأجر وشكل طوبهم على نصف طوب العراق .."[٦٨٩]. بينما أشار ابن سعيد أن: " معظم بنيانهم بالطوب ... والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة.."[٦٩٠].

وكذلك الحال في صعيد مصر حيث كانت الدور تبنى من الحجر وتباعدت الحواجز والمسافات بين كل منزل وآخر رغم كثرة أعدادها[٦٩١]. وكان البناة يراعون أن تكون الدار متينة وقوية من خلال بنائها بالأحجار أو الطوب الأجر وأحيانا كانت تبنى الدور بالطوب اللبن مثل الجيزة والتى قال عنها الرحالة البغدادي: " ... قد أووا إلى الجيزة وتستروا ببيوت طين "[٦٩٢].

وذكر الكرخى في القرن الرابع الهجري أن البناء في الفسطاط يكون: " معظم بنائهم بالطوب ..."[٦٩٣]. وأشار القلقشندى أن القاهرة: " غالب مبانيها بالأجر وجوامعها ومدارسها وبيوت رؤسائها مبنية بالحجر المنحوت مفروشة الأرض بالرخام مؤزرة الحيطان وغالب أعاليها من أخشاب النخل والقصب المحكم الصفة وكلها أو أكثرها مبيضة الجدر بالكلس الناصع البياض..."[٦٩٤]. غير أن العمرى في مسالك

الأبصار أشار إلى تأثر مباني مصر بسبب رطوبة أرضها وطبيعتها فيقول: " ... إلا أن أرضها سبخة ولذلك يعجل الفساد إلى مبانيها..."(٦٩٥). ويلتقط أحد شعراء مصر في العصور الوسطى صورة لبيت من بيوت الناس كونها من البق والبراغيث والعنكبوت، فقال:

وللبق فيها والبراغيث خلطـــة كبزر قطعونا ذر في حب سماق
إذا ما أر انين البعوض تجاوبت لنا وقعوا بالرقص إيقاع حذاق(٦٩٦).

ويدل ذلك على اختلاف أحوال دور الناس في مصر تبعا لاختلاف أحوالهم الاقتصادية ويختلف الحال في مدن الصعيد مثل أسنا حيث اشتهرت بأنها: ".. . بلدة كبيرة حسنة العمارة مرتفعة الأبنية تشمل على ما يقارب من ثلاثة عشر ألف منزل"(٦٩٧). كما اتصفت مدينة فقط في كتابات الرحالة بالمباني الجميلة الأنيقة وكذلك مدينة قنا بأناقة المنظر ذات مباني حفيلة(٦٩٨). أما الإسكندرية فقد رآها العبدري: "مدينة فسيحة الميدان صحيحة الأركان مليحة البنيان ..."(٦٩٩).

وقد شاهد الرحالة في القرنين السادس والسابع الهجريين دور مصر مزودة بالمرافق الصحية كالحمام والبئر وغيرها، أما الأغنياء فتكون لم مرافق صحية خاصة لا يستعملها العامة وفى ذلك يقول البغدادي: " ... ويحكمون قنوات المراحيض حتى أنه تخرب الدار والقناة قائمة ويحفرون الكنف - دورات المياه – إلى المعين فتغير عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر إلى كسح...".(٧٠٠)وأشار القلقشندى بإعجاب لمباني مصر والقاهرة المتعددة الطوابق فقال في صبح الأعشى: " ولأهلها القوة العظيمة في تعلية بعض المساكن على بعض حتى أن الدار تكون من طبقتين إلى أربع طبقات بعضها على بعض في كل طبقة مساكن كاملة بمنافعها ومرافقها وأسطحه مقطعة بأعلاها بهندسة محكمة وصناعة عجيبة ..."(٧٠١).

إلى جانب دور العامة المعروفة فقد اعتبر بعض الباحثين المساجد والخانقاوات والزوايا والرباط نوع آخر من المساكن والدور لشريحة معينة من الشعب وهم الزهاد والمتصوفة والدراويش نظراً لما اتسمت حياتهم من التقشف والزهد (٧٠٢) وقد لاحظ بعض الرحالة وجود أماكن بهذه الأماكن لسكن العزاب وأخرى للمتزوجين فيصفها ابن بطوطة بقوله: " ... وهم أعزاب وللمتزوجين زوايا على حده ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية.."(٧٠٣).

ويلاحظ في كتابات الرحالة أن دور العامة لم تنل نفس عنايتهم بقصور الخلفاء والأمراء في مصر ويبدو أنه كما سرق أغلب حكام مصر التاريخ فإن قصورهم أيضاً شدت عيون الرحالة وانتباههم .ولم تقتصر القصور والمساكن الجميلة على القاهرة فقط بل شملت أيضاً المدن مثل الإسكندرية التي عرفت بجمال واتساع مبانيها (٧٠٤) وفى ذلك يقول ابن جبير: "...فأول ذلك حسن وضع البلد واتساع أزقته حتى أنا ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه ..."(٧٠٥) كما شاهد القصور القاهرية وقد تم تحويل البعض منها إلى مرافق عامة فقال: " وهو قصر من القصور الرائقة حسنا واتساعا"(٧٠٦).

وقد أوجدت القصور في القرن السادس الهجري في عهد أسامة بمن منقذ وظيفة تعرف بوظيفة زمام القصور والتي قال عنها أسامة: " ونفذ إلينا زمام القصور..."(٧٠٧). وقال عنها القلقشندى: " وظيفة زمام القصور وهو بمثابة زمام الدور في زماننا..."(٧٠٨).وعادة ما كانت القصور خاصة الملكية في مصر بها ما يشبه الترسانة العسكرية ليكون بمثابة الحصن في أوقات الاضطرابات الداخلية فذكر أسامة بن منقذ أن بقصر الخليفة: " ألف سيف مجردة ..."(٧٠٩) وقال الظاهرى (القرن الثامن الهجري): "...وبالثغر قصر السلاح مملوء بالعدد المتنوعة حتى أن لو جاء إليه أهل الديار المصرية لكفاهم "(٧١٠).

ولنترك أحد أهم رحالة القرن السادس الهجري يحدثنا عن قصور ودور مصر في ذلك الوقت فيقول: " ... وأرض مصر سبخة غير خالصة التراب وبنيان دورها كلها وقصورها طبقات بعضها فوق بعض والأعم من ذلك تكون طباقها في العلو خمسة وستة وسبعة وربما سكن في الدار المائة من الناس وأكثر .. وأشار لقول ابن حوقل: معظم بنيان مصر بالطوب وأكثر سفل ديارهم غير مسكون..."(٧١١).

وقد سبقه الرحالة الكرخي بقوله في القرن الرابع الهجري: " ... والفسطاط مدينة كبيرة ..وأكثر السفل بها غير مسكونة وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثماني طبقات إلا في طرف منها يسمى الموقف فإنه أصلب قليلا وبها بناء مفترش وذلك بالحمراء على شط النيل ..."(٧١٢) ويضيف قائلا: " ومن حد الفسطاط في جنوبي النيل أبنية عظيمة يكثر عددها مفترشة على سائر الصعيد ..."(٧١٣).

أما رحالة القرن السابع الهجري فقد وجدوا من كثرة وشموخ القصور منطقة سميت بمنطقة "بين القصرين "(٧١٤). وذكر ابن سعيد بعض القصور المندثرة في عهده مثل: "... قصر ابن طولون في مدينة القطائع هو الآن ميدان تحت قلعة الجبل..."(٧١٥). وأبدى ملاحظاته على ترتيب المباني في القاهرة وكاد ينعتها بالعشوائية فقال: " ... كان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته ..."(٧١٦). غير أنه أشار وأشاد باهتمام السلاطين بالعمران وبالقصور الملكية فقال: " ... لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة وهي ناطقة إلى الآن ... وهمم من بعد الخلفاء المصريون بالزيادة في تلك القصور ... وأبصرت في قصورهم حيطانا عليها طاقات عديدة من الكلس والجبس ..."(٧١٧). وفي القرن التاسع الهجري شاهد الرحالة الغربي بيرو طافور بالقاهرة على شاطئ نهر النيل بيوت الأثرياء وقد احتلته فيقول: " أبصرنا حدائق وبيوت الأثرياء الفخمة ..."(٧١٨).

وقد ارتبطت القصور عادة في مصر بالحدائق والبساتين الرائعة وهذا ما أكده الرحالة ابن شاهين في القرن الثامن الهجري حيث شاهد بالقاهرة: "القصور والمناظر

والبساتين ..."[٧١٩] وذكر أن: " تجاه بولاق قصر الملك المؤيد بأرض الوراق من أحسن القصور ..."[٧٢٠]. وأشار القزويني لوجود قصر في منطقة العباسة منذ عهد ابن طولون[٧٢١].

ولفتت منطقة بين القصرين انتباه الرحالة القزويني وأثارت إعجابه بقوله: " لها قصران عظيمان يقصر الوصف دونهما عن يمين السوق وشماله وليس من شيء من البلاد مثلهما ..."[٧٢٢].

وتمثل القصور وعاء الحياة الاجتماعية للطبقة الأولى في مصر بما يتبع فيها من تقاليد اختلفت من دولة إلى آخري وأحيانا من حاكم إلى آخر وكان بهذه القصور مجالس للعلماء والشعراء الذين يستأنس بهم كما أن جنباتها عاشت أحيانا ألوانا من الترف واللهو تسجله المصادر وأقلام الرحالة والمخطوطات المصورة [٧٢٣] التي تزخر بها مكتبات العالم وتعكس ثراءها المعماري والزخرفى ما تخلف من أوصاف جاء بعضها وصفا شائقا للرحالة وشعرا للأدباء.

وتفتح لنا دواوين الشعر وفنون الأدب العربي أبواب ودهاليز هذه القصور لنرى فيها حدائق وعمد وتماثيل وبسط فيقول الرحالة الأديب أبو الصلت أميه يصف قصرا بناه على بن تميم بن المعز بمصر:

لله مجلسك المنيف قبابـــه ... بموطد فوق سماك مؤسس
موف على حبك المجرة تلتقـى ... فيه الجوارى بالجوارى الخنس
وأستشرفت عمد الرخام وطوهـرت ... بأجل من زهر الربيع وأنفس
فبدا للحظ العين أحســن منظرا ... وغدا لطيب العيش خير معرس[٧٢٤].

وهكذا تنوعت أغراض المنشآت العامة في المدن المصرية وقدم لنا الرحالة صورة هامة عن مكونات المدن المصرية وأشاروا إلى أغراضها فمنها ما حقق أغراض الحياة

الدينية في مصر ومنها ما حقق أغراضا مدنية واختلفت وتنوعت هذه المكونات العمرانية من عصر إلى آخر لتفي بحاجات الناس الجماعية .

فالمساجد الجامعة والمساجد والمدارس والأسواق والحمامات ومصادر الماء والأسوار وغير ذلك من المكونات العمرانية في المدينة المصرية من خلال كتابات الرحالة تعكس رؤية الآخر لنا وللعمران والحضارة المصرية في العصور الإسلامية كما أنها تعكس جانباً مهما من جوانب الحياة فيها وتيسر دراسة هذه المكونات بهذا المنظور من الناحية الأثرية والمعمارية باعتبارها جزءا هاماً من التراث العمراني للمدينة العربية .

إضافة إلى أن هؤلاء الرحالة والجغرافيين المسلمين الذين زاروا مصر وغيرها من بلاد المشرق العربي – مثل ابن حوقل والمقدسي وناصر خسرو والإدريسي وابن جبير والهروي وعبد اللطيف البغدادي والعبدري وغيرهم الكثير – غالباً ما عقد هؤلاء الرحالة المقارنات بين مصر وبعض مدن الشرق التي زاروها أو بين مصر وبلدانهم التي أنجبتهم، وقد تراءت لنا الكثير من أوصاف المدن من ملحوظات هؤلاء الرحالة وأشاروا إلى كثير من المكونات العمرانية التي تميزت بها المدينة المصرية والتي اتفقت في كثير من مفرداتها مع المدينة العربية بوجه عام بحكم موقعها الجغرافي العربي والإسلامي، وهذا ما أكدته مصنفات الرحالة في العصور الإسلامية .

هوامش الفصل الثالث

(١) عبد الرحمن ذكي: القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦، ص٣.

(٢) وليد عبد الله عبد العزيز المنيس: جغرافية الحضر دراسة منهجية في جهود المسلمين في تطويرها (مقال)، مجلة المنهل، العدد (٥٣٨)، المجلد ٥٨ للعام ٦٢، مارس ١٩٩٧، ص٢١٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٢١٧.

(٤) إبراهيم بن ضويان ؛ منار السبيل في شرح الدليل، الجزء الثاني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض ١٤٢٠هـ، ص ٤٥٥.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٢٠.

(٦) أحمد البدوى الشريعى، رسالة الدكتوراة، مرجع سابق، صـ ١١.

(٧) شوكت الربيعي: الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي ، سلسلة مكتبة الأسرة ٢٠٠٥م،ص١٢

(٨) وليد عبد الله المنيس: مرجع سابق، ص ٢٢٢.

(٩) ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى) (٦٣٠-٧٧١هـ): لسان العرب، الجزء الثالث، دار لسان العرب، بيروت، ص٨٠.

(١٠) وليد عبد الله: مرجع سابق، ص٢٢٢.

(١١) وليد عبد الله: المرجع السابق، ص ٢٢٣.

(١٢) يوسف يحيى طعماس: الموقع والموضع بين الأصالة العربية والمعاصرة، مجلة المنهل، السعودية، مارس ١٩٩٧، ص ١٠٢.

(١٣) وليد عبد الله:مرجع سابق، ص ٢٢٤.

(١٤) محمد بن الطيب الفاسي: شرح كفاية المتحفظ، تحقيق: على حسين البواب، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٩٨٣، ص ٤٤١.

(١٥) يوسف طعماس: مرجع سابق، ص ١٠٦.

(١٦) المقريزى: الخطط، مصدر سابق، جـ١، ص ٢٣٨.

(١٧) المقدسى (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط الثانية، ١٩٠٩م، مطبعة ليدن / بريل ص ١٧٦.

(١٨) ابن حوقل (أبو القاسم النصيبى): صورة الأرض، بيروت، بدون تاريخ، ص١٥٨.

(١٩) ابن جبير: الرحلة، تحقيق: حسين نصار، مصدر سابق، ص ٣١٢.

(٢٠) المصدر السابق، ص ٣٥.

(٢١) صفى على محمد عبد الله: مدن مصر الصناعية في العصر الإسلامي إلى نهاية عصر الفاطميين، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ص ٤٢، ٤٣.

(٢٢) ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله)، البلدان، جـ٤، بيروت، ١٩٥٧م، ص١١٣.

(٢٣) ابن سعيد: النجوم الزاهرة، ص٣٠.

(٢٤) القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، الجزء الأول، مصدر سابق، ص ٢٠٣.

(٢٥) المصدر السابق، ص ٢٢٠.

(٢٦) صفى على: المرجع السابق، ص ٤٢.

(٢٧) الإدريسى (أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الشريف)(ت٥٦٠هـ/١١٦٥م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،١٩٩٩، ص ٣٤١.

(٢٨) المصدر السابق، ص ٣٢٦.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٣٣٠.

(٣٠) الهروى السائح: (أبي الحسن على بن أبي بكر الهروى) (ت٦١١هـ): الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط أولى، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٤٧.

(٣١) المصدر السابق، ص ٤٥.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٤٢.

(٣٣) سعد زغلول عبد الحميد: حواشى كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لابن محشرة المراكشي المجهول، الإسكندرية، ١٩٥٨، ص ٨٢.

(٣٤) ابن محشرة (كاتب مراكشى مجهول) ت٥٩٨هـ/١٢٠١م: الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية،١٩٥٨، ص ٩٠.

(٣٥) صفى على محمد عبد الله: مرجع سابق، ص ٤٣.

(٣٦) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٥٦.

(٣٧) المصدر السابق، ص ٦١.

(٣٨) عبد اللطيف البغدادى: الإفادة والاعتبار، مصدر سابق، ص ١٤٤.

(٣٩) المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ١٣٩.

(٤١) ابن جبير: الرحلة، مصدر سابق، ص ٢٧٧.

(٤٢) الإدريس: مصدر سالف، ص ٣٣٧.

(٤٣) المصدر السابق، ص ٣٤٠.

(٤٤) الفيروز آبادى (مجد الدين بن يعقوب) القاموس المحيط، الطبعة الثانية، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ص٣٧١.

(٤٥) المقريزى: الخطط، جـ٣، مرجع سابق، ص ٢.

(٤٦) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، ط الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٦٨.

(٤٧) المقريزى: المصدر السابق، ص ٣٧ .

(٤٨) ناصر خسرو علوى: سفر نامة، ترجمة: يحيى الخشاب، تقديم:عبد الوهاب عزام، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١١٤.

(٤٩) البغدادى: مصدر سابق، ص ١٤٢.

(٥٠) محمد بن الطيب الفاسي: شرح كفاية المتحفظ، مصدر سابق، ص٤٣٤.

(٥١) ابن سعيد الأندلسي:المغرب في حلى المغرب، تحقيق ذكى محمد حسن وآخرون، مصدر سابق،ص٢.

(٥٢) العبدرى: (أبي عبد الله محمد بن محمد بن سعود) ت ٧٠٠هـ/١٣٠٠م): رحلة العبدرى، تحقيق: على إبراهيم كردى، ط الاولى، دمشق، ١٩٩٩م، ص ٣٠٣.

(٥٣) منار السنبيل، الجزء الأول، مصدر سابق، ص ١٣٤.

(٥٤) اللسان: مصدر سابق، ص ٨٥٨.

(٥٥) وليد عبد الله المنيس: مرجع سابق، ص ٢٣١.

(٥٦) صفى على عبد الله: مرجع سابق، ص ٤٦.

(٥٧) رحلة ابن جبير: مصدر سابق، ص ٦٨.

(٥٨) معجم البلدان: مصدر سابق، جـ ٤، ص ١١٣.

(٥٩) الطاهر أحمد الزاوى:ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، الجزء الرابع، ط الثانية، مطبعة عيسى الحلبى، ص ٢٩٠ .

(٦٠) عبد اللطيف البغدادى: الرحلة، مصدر سابق، ص ١٤١.

(٦١) العبدرى: مصدر سابق، ص ٣٣٠.

(٦٢) ابن سعيد الأندلسي: النجوم الزاهدة، تحقيق: حسين نصار، مصدر سابق، ص ٢١.

(٦٣) وليد عبد الله: مرجع سابق، ص ٢٣١.

(٦٤) رحلة ابن جبير: مصدر سابق، ص ٥٢.

(٦٥) القزويني:مصدر سابق، ص ٢٤٠.

(٦٦) صفي عبد الله: مدن مصر الصناعية، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٦٧) الإدريسي: مصدر سابق، ص ٣٢٩.

(٦٨) المصدر السابق، ص ٣٣١.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ٣٣٩.

(٧٠) عبد اللطيف البغدادى: مصدر سابق، ص ٩٦.

(٧١) المصدر السابق، ص ١١٢.

(٧٢) العبدرى: مصدر سابق، ص ٢٧٤.

(٧٣) ابن محشرة (ت ٥٩٨ هـ/١٢٠١م): مصدر سابق، ص ٨٧.

(٧٤) المصدر السابق، ص٨٩.

(٧٥) الزهرى: أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهرى (ت أواسط القرن السادس الهجرى): كتاب الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٤٦.

(٧٦) رحلة ابن جبير: مصدر سابق، ص ٤٨.

(٧٧) المصدر السابق، ص ص ٣٦، ٣٧.

(٧٨) ابن محشرة المراكشي الجهور: مصدر سابق، ص ٨١.

(٧٩) المصدر السابق، ص ٨٣.

(٨٠) الغرناطي: (أبي حامد محمد بن عبد الرحيم الأندلسى) (ت ٥٦٥هـ): تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق: على عمر، ط الأولى، مكتبة الثقافة الدينثة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٥٨.

(٨١) الهروى السائح: مصدر سابق، ص ٤٠.

(٨٢) المصدر السابق، ص ٤١.

(٨٣) الإدريسى: نزهة المشتاق، مرجع سابق، ص ٣٢٢.

(٨٤) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٢٥.

(٨٥) المقريزى: الخطط، جـ٢، مصدر سابق، ص ١٠١.

(٨٦) المصدر السابق، ص ١٠٥.

(٨٧) سفر نامة: مصدر سابق، ص ١٠٢ .

(٨٨) عبد الرحمن ذكى: القاهرة تاريخها وآثارها، مرجع سابق، ص ٣٣.

(٨٩) المرجع السابق، ص ٤٤.

(٩٠) مؤلف مجهول: حدود العالم من المشرق إلى المغرب، كتبه عام ٣٧٢هـ، تحقيق: يوسف الهادى، ط أولى، الدار الثقافية للنشر، القاهرة،١٩٩٩، ص ١٣١.

(٩١) الكرخى (أبي اسق إبراهيم بن محمد الأصطخرى): المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر، سلسلة تراثنا، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٣٩.

(٩٢) عبد اللطيف البغدادى: مصدر سابق، ص ١٤٤ .

(٩٣) القزوينى: مصدر سابق، ص ٢٤٠ .

(٩٤) المصدر نفسه، ص ص ٢٣٦، ٢٣٧ .

(٩٥) ابن سعيد الأندلسى: المغرب في حلى المغرب، مصدر سابق، ص ٥.

(٩٦) النجوم الزاهرة: مصدر سبق ذكره، ص ٢٧.

(٩٧) الظاهرى: " غرس الدين خليل بن شاهين ": كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٥م، ص ٣١.

(٩٨) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ٢٠٢.

(٩٩) ابن بطوطة (عبد الله بن محمد اللواتى): مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار، تهذيب: أحمد العوامرى وآخرون، الجزء الأول، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٣م، ص ٣٦ .

(١٠٠) طافور: رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة حسن حبشى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٧٣.

(١٠١) كليليا سار نللى تشيركوا: زيارة الرحالة العربي الأندلسى الشهاب أحمد الحجرى لمدينة القاهرة في القرن السابع عشر (مقال) أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، الجزء الثانى، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧١، ص ٨٧٦ .

(١٠٢) القاموس المحيط: مصدر سابق، ص ٤٠٢ .

(١٠٣) وليد عبد الله المنيس: جغرافية الحضر، مرجع سابق، ص ٢٢٣ .

(١٠٤) رحلة ابن جبير: مصدر سابق، ص ٧٤ .

(١٠٥) المصدر السابق، ص ٨٣.

(١٠٦) الإدريسي: مصدر سابق، ص ٣٣٠.

(١٠٧) ابن جبير:مصدر سابق، ص٣٦.

(١٠٨)الإدريسي: مصدر سابق، ص ٣٣٥.

(١٠٩) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى، مرجع سابق، ص ١٩٥.

(١١٠) المرجع السابق، ص ص ١٩٦، ١٩٧ .

(١١١) سفر نامة: مصدر سابق، ص ١٠٨ .

(١١٢) آدم متز: مرجع سابق، ص ١٩٧.

(١١٣) الإدريسي: مصدر سابق، ص ٣٣٧.

(١١٤) القزويني:مصدر سابق، ص ٢٠٣.

(١١٥) الكندى (عمر بن محمد بن يوسف): فضائل مصر، تحقيق: إبراهيم العدوى، على عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧١، ص ٥٤ .

(١١٦) ابن جبير، مصدر سابق، ص ٥٧.

(١١٧) المصدر السابق، ص ٦٦.

(١١٨) محمد عبد الستار عثمان: المفهوم الإسلامي لتخطيط المدينة " مقال "، مجلة المنهل، العدد ٤٥٤، السنة ٥٣، المجلد ٤٨، السعودية،١٩٨٧، ص ٢٢٢.

(١١٩) الإدريسي: مصدر سابق، ص ٣٤١.

(١٢٠) عبد الجبار ناجى: مفهوم العرب للمدينة الإسلامية، مجلة المدن العربية، عدد ١٤ سنة ١٩٨٤، ص ٥١.

(١٢١) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ١٨٩.

(١٢٢) رحلة ابن جبير: مصدر سابق، ص ٥١.

(١٢٣) يوسف يحيى طعماس: مرجع سابق، ص ١٠٧ .

(١٢٤) حسين مؤنس: الحضارة، مرجع سابق، ص ص ٢٦٨، ٢٧٠ .

(١٢٥) ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد بن خلدون): مقدمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ، ص٣٨٧.

(١٢٦) عبد الرحمن زكى: القاهرة تاريخها وآثارها، مرجع سابق، ص ص ١٢، ١٣.

(١٢٧) عبد الرحمن زكي: قلعة صلاح الدين الأيوبي وما حولها من الآثار، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١، ص ٣١.

(١٢٨) ابن جبير: مصدر سابق، ص ٤٧.

(١٢٩) المصدر السابق، ص ٦١.

(١٣٠) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٣٣٥.

(١٣١) الاستبصار في عجائب الأمصار : مصدر سابق ، ص ٨٤.

(١٣٢) الإدريسي، ص ٣٢٩.

(١٣٣) ابن محشرة (كاتب مراكشي مجهول)، ص٨٤.

(١٣٤) المصدر السابق، ص ٨٧.

(١٣٥) العبدرى: مصدر سابق، ص ٢١٤.

(١٣٦) اسحق بن حسين المنجم: آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان (لأحد علماء القرن الخامس الهجرى)، تونس ١٩٧٨، ص٢٢.

(١٣٧) ابن بطوطة: مصدر سابق، ص ١٣.

(١٣٨) ابن شاهين الظاهرى: مصدر سابق، ص ٣٩.

(١٣٩) جوزيف يتس: رحلة الحاج يوسف إلى مصر ومكة والمدينة عام ١٦٨٠م، سلسلة الالف كتاب الثاني ع ١٨٩، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة، القاهرة،١٩٩٥، ص٢٥.

(١٤٠) عبد اللطيف البغدادى: مصدر سابق، ص ص ١٠٣، ٩٠ .

(١٤١) ديز موند ستيورات: القاهرة ، ترجمة: يحيى حقى، تقديم: جمال حمدان، ص ص ٢٢، ٢٣.

(١٤٢) القزويني: مصدر سابق، ص ٢٤٠.

(١٤٣) أحمد عبد الرازق:الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٣، ص١٢٠.

(١٤٤) ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر) ت ٨٠٩هـ: الانتصار بواسطة عقد الأمصار، القسم الثاني منشورات المكتب التجارى، بيروت، بدون تاريخ، ص ٣٧.

(١٤٥) المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، مصدر سابق، ص ٦.

(١٤٦) عصمت عبد الله مجاهد: الحياة الاجتماعية والثقافية في مصر عصر الدولة الأيوبية (٥٦٧هـ/ - ٦٤٨هـ) ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ص١٣٤.

(١٤٧) البندارى (الفتح بن على): سنا البرق الشامى إختصار البندارى من كتاب البرق الشامى للعماد الكاتب الأصفهانى، تحقيق: فتحية النبراوى، مكتبة الخانكى، القاهرة، ١٩٧٩، ص١١٩ .

(١٤٨) المقريزى: الخطط،الجزء الثانى، مصدر سابق، ص ص ٢٠٤، ٢٠٥ .

(١٤٩) عبد الرحمن زكى: القاهرة، مرجع سابق، ص ٦٦.

(١٥٠) الإفادة والاعتبار: مصدر سابق،ص ٩٠.

(١٥١) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص٢٩.

(١٥٢)نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مصدر سابق، ص٢٣٠.

(١٥٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، الجزء الرابع، ط الأولى، القاهرة ١٩٦٨، ص ٦١١ .

(١٥٤) سفر نامة، ص ١٠٦.

(١٥٥) أسامة بن منقذ: الاعتبار، ط دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠٢، ٤٣.

(١٥٦) المصدر السابق، ص ٤٥.

(١٥٧) أحسن التقاسيم، مصدر سابق، ص ٢٠٠، وانظر ابن حوقل صورة الأرض، جـ١، ص١٣٨.

(١٥٨) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤١.

(١٥٩) صفى على عبد الله: مدن مصر الصناعية، ص ٦٥.

(١٦٠) المقدسى: حسن التقاسيم، ص ٢٠١ .

(١٦١) ألفرد . ج. بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، ط الثانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦، ص ص ٣٨١، ٣٨٢.

(١٦٢) ابن دقماق، مصدر سابق، ص ٨٠.

(١٦٣) المصدر السابق، ص ٨١.

(١٦٤) اليعقوبى: كتاب البلدان، ص ١٨٣ .

(١٦٥) آكام المرجان: مصدر سابق، ص ٢٣.

(١٦٦) القزويني: مصدر سابق، ص ١٩٣.

(١٦٧) ابن سعيد: النجوم الزاهرة، ص ٣٩١.

(١٦٨) العبدرى: مصدر سابق، ص ٢١٤.

(١٦٩) الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص ٩٣.

(١٧٠) عبد اللطيف البغدادى: مصدر سابق، ص ٩٨.

(١٧١) ابن دقماق: مصدر سابق، ص ١٢٦.

(١٧٢) القلصادى (أبي الحسن على لاقلصادى الأندلسى) ت ٨٩١هـــ: رحلة القلصادى، تحقيق: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٨، ص ١٢٥.

(١٧٣) ابن بطوطة: ص١٢.

(١٧٤) المصدر السابق، ص ١٣.

(١٧٥) وليد عبد الله المنيس: التفسير الشرعى للتمدن، رسائل جغرافية، رقم ٦٢، قسم الجغرافية، والجمعية الجغرافية الكويتية، جامعة الكويت، ١٩٨٤، ص١٤ .

(١٧٦) زبدة كشف الممالك: مصدر سابق، ص ٣٩.

(١٧٧) ابن جبير، ص ٤٧.

(١٧٨) زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقى، منشورات المكتب التجارى، بيروت، ط الثانية، ١٩٦٩، ص ٤٨٥.

(١٧٩) جوزيف بتس: رحلة الحاج يوسف إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، مرجع سابق، ص٢٥.

(١٨٠) عبد الرحمن زكى: القاهرة وتاريخها وآثارها، ص٣٣.

(١٨١) ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ٤٣.

(١٨٢) Maillet: Description de L'Egypte. L'abbe Le Mas Crier Composee sur les memoires de M.Maillet ancien consul de France au Caire . Paris 1735. P. 210.

(١٨٣) إلهام محمد على ذهنى: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، سلسلة مصر النهضة، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٠٢.

(١٨٤) العبدرى: رحلة العبدرى، مصدر سابق، ص ٢١٢.

(١٨٥) نعيم زكى: طرق التجارة، مرجع سابق، ص ١٣١.

(١٨٦) ابن رسته (أبي على أحمد بن عمر بن رسته): الأعلاق النفسية، المجلد السابع، طبقة ليدن، ١٨٩١م، ص ١١٨.

(١٨٧) بيترفارب: بنو الإنسان، ترجمة:زهير الكرمى، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٠، ص ١٣٩.

(١٨٨) محمد عبد الستار: المفهوم الإسلامي، ص ٢٣١.

(١٨٩) القزويني: آثار البلاد، جـ١، ص ص ٧، ٨ .

(١٩٠) محمد عبد الستار عثمان: العمارة الحربية الإسلامية بين النظرية والتطبيق، مجلة كلية الملك خالد العسكرية، عدد ٧، سنة ١٤٠٥هـ، ص ١٦٩.

(١٩١) الربض: مفرد أرباض وهو نواحى الشئ وهو ما حول المدينة وقيل هو الفضاء حول المدينة أو هى الأبنية التى تكون حول المدينة وتحت القلاع، ومن الواضح أن الأرباض كانت فى الغالب من خصائص أو سمة من سمات ا لمدن الكبرى خاصة مثل العواصم والقصبات (ابن منظور: لسان العرب، ج٤ ص١٠٤ تاج العروس جـ٥ ص ٢٩).

(١٩٢) على مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، ج١، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩، ص٦٩.

(١٩٣) ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤، ص ١١٣ .

(١٩٤) ابن جبير: مصدر سابق، ص ٦٨.

(١٩٥) أبو صالح الأرمنى (أبو المكارم جرجس بن مسعود) ت ٦٠٥هـ/ ١٢٠٩م: كنائس مصر وأديرة مصر، اكسفورد ١٨٩٥م، ص ١٠٣.

(١٩٦) صفى على عبد الله: مرجع سابق، ص ٧٣.

(١٩٧) ابن بسام (شمس الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين): كتاب أنيس الجليس فى أخبار تنيس والجزائر – مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٠٠ بلدان تيمور.

(١٩٨) سعيد عبد الفتاح عاشور: الظاهر بيبرس، سلسلة تاريخ المصريين، ع ٢٠٧، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ١٦٣.

(١٩٩) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٥١ .

(٢٠٠) عبد الرحمن زكى: القاهرة تاريخها وآثارها، ص ٩٢.

(٢٠١) ابن سعيد: النجوم الزاهرة، ص ٢٥.

(٢٠٢) زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٢٠٣) العبدرى: مصدر سابق، ص ٣٢٦.

(٢٠٤) الهروى: الإشارات، ص ٤٣.

(٢٠٥) البغدادى (صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى) ت ٧٣٩هـ: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (مختصر معجم البلدان لياقوت) تحقيق: على محمد البجاوى، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، عيسى البابى الحلبى، القاهرة،١٩٥٥، ص ١٣٢٨.

(٢٠٦) محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ٢٣٨.

(٢٠٧) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٢٢٠.

(٢٠٨) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧ ، ص ١٩٦ – ١٩٧ .

(٢٠٩) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ١٦٣.

(٢١٠) هويدا عبد العظيم رمضان: المجتمع المصرى فى مصر الاسلامية من الفتح العربى إلى العصر الفاطمى، الجزء الثانى، الهيئة المصرية، القاهرة،١٩٩٤، ص ٢٧٣.

(٢١١) المرجع السابق، ص ٢٧٤.

(٢١٢) أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص٣٩.

(٢١٣) الكرخى: مصدر سابق، ص ٤٢.

(٢١٤) ابن جبير: مصدر سابق، ص ٤٦.

(٢١٥) المصدر نفسه، ص٤٨.

(٢١٦) المصدر نفسه، ص ٤٩.

(٢١٧) المصدر السابق، ص ٥١.

(٢١٨) الإدريسى: مصدر سابق، ص ٣٢٤ .

(٢١٩) المسعودى (أبو الحسن على الحسين) ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ١، المطبعة الأزهرية،القاهرة ١٣٠٣هـ، ص ص ٣٨٥، ٣٨٦.

(٢٢٠) المصدر السابق، ص ٣٨٦.

(٢٢١) ابن بسام: أنيس الجليس، مصدر سابق، ص ٣.

(٢٢٢) صفى على محمد عبد الله: مرجع سابق، ص ٧٨ .

(٢٢٣) المقريزى:الخطط، جـ١، ص ص ٣٦٨، ٣٦٩.

(٢٢٤) العبدرى: رحلة العبدرى، ص ٢٨٠.

(٢٢٥) عبد اللطيف البغدادى:مصدر سابق، ص ١٣٧.

(٢٢٦) ابن جبير:الرحلة، ص ٣٦.

(٢٢٧) النابلسى: أبو عثمان النابلسى الصفدى الشافعى، ٦٦٠هـ، تاريخ الفيوم وبلاده، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م، ص٢١.

(٢٢٨) الهروى السائح: مصدر سابق، ص ٤٤.

(٢٢٩) ابن جبير، ص ٣٦.

(٢٣٠) مجدى عبد الرشيد بحر: القرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك، س تاريخ المصريين، ع ١٧٠، القاهرة ، ١٩٩٩، ص ٢٧٨ .

(٢٣١) المرجع السابق، ص ٢٧٩.

(٢٣٢) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٣٨.

(٢٣٣) ابن دقماق: الانتصار، مصدر سابق، ص ١١٤.

(٢٣٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: العلم بين المسجد والمدرسة، دراسة ضمن كتاب تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية، س تاريخ المصريين ع ٥١، القاهرة ١٩٩٢، ص ١٧.

(٢٣٥) ناصر خسرو: سفرة نامة، ص ١٣٣.

(٢٣٦) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٣٩.

(٢٣٧) The naud, Jean: Le Voyage d'outremer (Egypte – Mont sinay – palestine) Paris 1884. P.51.

(٢٣٨) الدمشقى (شمس الدين أبى عبد الله محمد أبى طالب): نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ط١،بطر بورغ، مطبعة الأكاديمية الأمبراطورية، ١٨٦٥م، ص ٢٣٠. (((

(٢٣٩) سحر السيد إبراهيم: الهجرات وتطور مدينة القاهرة في عصر سلاطين المماليك (رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب الزقازيق ٢٠٠١م)، ص٢٢٦،٢٢٥.

(٢٤٠) محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ٢٣٨.

(٢٤١) ابن شاهين الظاهرى: مصدر سابق، ص ٣١.

(٢٤٢) ابن مخشر المجهول: مصدر سابق، ص ٨٤.

(٢٤٣) السائح الهروى: مصدر سابق، ص ٤٧. (ونلاحظ هنا أن الهروى قد نقل حديثه عن ابن منقذ باعتباره مصدر موثوق فى معلوماته لكونه كان قريب من دوائر صنع القرار فى مصر آنذاك).

(٢٤٤) المصدر السابق، نفس الصفحة .

(٢٤٥) ابن شاهين الظاهرى: مصدر سابق، ص ١٥٠.

(٢٤٦) ابن جبير: مصدر سابق، ص ٣٥.

(٢٤٧) رحلة الحاج يوسف إلى مصر: مصدر سابق، ص ٣٣.

(٢٤٨) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٢١.

(٢٤٩) القلقشندى: جـ٣، ص ٤٠٦.

(٢٥٠) المصدر السابق، ص ٤٠٥.

(٢٥١) عبد الرحمن زكى: القاهرة تاريخها وآثارها، مرجع سابق، ص١٢٠.

(٢٥٢) المرجع السابق، ص ١١٠.

(٢٥٣) سفر نامة، مصدر سابق، ص ٩١.

(٢٥٤) يحيى الخشاب: حواشى، ترجمة سفر نامة، المصدر السابق، ص ٩٢.

(٢٥٥) ناصر خسرو، سفر نامة، ص١١٧.

(٢٥٦) العبدرى: مصدر سبق ذكر، ص ٢٨٠.

(٢٥٧) أيمن فؤاد سيد: المدارس فى مصر قبل العصر الأيوبى (بحث) تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية، س تاريخ المصريين ع ٥١، القاهرة ١٩٩٢، ص٩٩.

(٢٥٨) كمال الدين سامح:العمارة الإسلام فى مصر، سلسلة كتابك ع ٣٠، دار المعارف، ١٩٧٧، ص٢٣.

(٢٥٩) عصمت مجاهد: رسالة الماجستير، مرجع سابق، ص ٢٤٥.

(٢٦٠) عبد الغنى عبد العاطى: التعليم فى مصر زمن الأيوبيين، رسالة ماجستير، آداب القاهرة،١٩٧٥،ص١٠٤.

(٢٦١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، الجزء الثانى، ط السابعة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٤، ص ٣٧٩ .

(٢٦٢) عفاف سيد صبرة: المدارس فى العصر الأيوبى (دراسة) فى تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية س تاريخ المصريين ع ٥١، القاهرة ١٩٩٢، ص١٥٢.

(٢٦٣) رحلة ابن جبير: مصدر سابق، ص ٤٣.

(٢٦٤) المصدر السابق، ص ٣٢.

(٢٦٥) ابن جبير، ص ٤٣.

(٢٦٦) المصدر نفسه، ص٤٥.

(٢٦٧) عبد الرحمن بن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تحقيق محمد بن تأويت الطنجي، تقديم عبادة: كحيلة، س الذخائر ع ١٠٠، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٢٧٩.

(٢٦٨) المصدر السابق، نفس الصفحة، والمدرسة هى المسماة بالمدرسة القمحية.

(٢٦٩) القزوينى: آثار البلاد وأخبار البلاد، ص ١٩٣.

(٢٧٠) المصدر السابق، ص ٢٤٠.

(٢٧١) المدرسة الكاملية بناها الملك الكامل وتم الانتهاء من عمارتها سنة ٦٢١ هـ. انظر المقريزى – الخطط ٣٧٥/٢ .

(٢٧٢) العبدرى: مصدر سابق، ص ٢٨١.

(٢٧٣) المدرسة الظاهرية: أمر ببنائها بيبرس سنة ٦٦٠هـ، وانتهت عمارتها ٦٦٢هـ وجعل لها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم، خطط المقريزى ٣٨٧/٢– ٣٧٩.

(٢٧٤) العبدرى: ص ٢٨٩.

(٢٧٥) تقع المدرسة الديلمية فى حى الديلم.، انظر خطط المقريزى ٢/ ٣٧٨.

(٢٧٦) العبدرى: مصدر سابق، ص ٣٠٤.

(٢٧٧) العبدرى: رحلة العبدرى، مصدر سابق، ص ٤٨١.

(٢٧٨) زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون، مرجع سابق، ص ١٧٢.

(٢٧٩) زبدة كشف الممالك، مصدر سابق، ص ص ٣٠، ٣١.

(٢٨٠) المصدر السابق، ص ٤٠.

(٢٨١) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٢٨٢) ابن بطوطة، مصدر سابق، ص ٢٤.

(٢٨٣) المصدر السابق، ص ٢٧.

(٢٨٤) المصدر السابق، ص ٢٨.

(٢٨٥) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٢٨٦) نفس المصدر، ص ٤٠.

(٢٨٧) ابن بطوطة: مصدر سابق، ص٤١.

(٢٨٨) المصدر السابق، ص ٤٢.

(٢٨٩) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٢٩٠) شلبى إبراهيم الجعيدى، طبقة العامة، ص ١٨١.

(٢٩١) ابن جبير: الرحلة، ص ٤٣، ابن كثير: البداية والنياية، جـ١٢، ص ٨٢٠ .

(٢٩٢) العبدرى: الرحلة، ص٢٨١.

(٢٩٣) ابن بطوطة: ص ٢٨.

(٢٩٤) القزوينى: آثار البلاد، ص٢٤٠.

(٢٩٥) محمد حسام الدين إسماعيل: مدارس القاهرة فى العصر المملوكى، المنهل، عدد فبراير ٢٠٠١م، ص١٣٢.

(٢٩٦) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ص ٣٧٩، ٣٨٠.

(٢٩٧) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية بالقاهرة، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب أسيوط، ١٩٨٠، جـ١، ص ص ٣٣، ٥٦.

(٢٩٨) القلقشندى: جـ٣، مصدر سابق، ص ٣٦٣.

(٢٩٩) محمد حمزة إسماعيل الحداد: العلاقة بين النص التأسيسى والوظيفة والتخطيط المعمارى للمدرسة فى العصر المملوكى (بحث) س تاريخ المصريين ع ٥١، القاهرة، ١٩٩٢، ص ص ٢٧١، ٣١٢.

(٣٠٠) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد) ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م وفيات الأعيان وأنباء، أنباء الزمان، جـ٣، تحقيق: محمد محى الدين، ط١، القاهرة، ١٩٤٨، ص١٢٨.

(٣٠١) محمد حمزة الحداد، مرجع سابق، ص ٢٧١، وانظر: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامي، الإسكندرية،١٩٨٢، ص ص ٢٤٦، ٢٤٩.

(٣٠٢) أيمن فؤاد سيد: المدارس فى مصر قبل العصر الأيوبى، مرجع سابق، ص ص ١٢٠، ١٢١.

(٣٠٣) ابن كثير (أبي الفداء إسماعيل القرشى) ت ٧٧٤هـ: البداية والنهاية، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠١م، جـ١٢، ص ٨٢٠.

(٣٠٤) البلوى (خالد بن عيسى البلوى): تاج المفرق فى تحلية علماء أهل المشرق (مخطوط – دار الكتب المصرية) – جغرافيا رقم ٤٠٠ ميكروفيلم رقم ٤٥٧٧٣ – ورقة ٥٤ .

(٣٠٥) ابن خلدون: رحلته شرقا وغربا، مصدر سابق، ص ٢٤٦.

(٣٠٦) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٦٤.

(٣٠٧) محمد زغلول سلام: الأدب فى العصر الأيوبى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٤٢.

(٣٠٨) عصمت عبد الله مجاهد: الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٢٥٢.

(٣٠٩) ابن جبير: الرحلة، محققة، ص ٣٥.

(٣١٠) المصدر السابق، ص ٤٩.

(٣١١) حسن عبد الوهاب:الإسكندرية فى العصر الإسلامي ن مجلة الكتاب، عدد يناير ١٩٤٧، ص ٣٨٧.

(٣١٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها، مرجع سابق، ص ٢٥٦.

(٣١٣) محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ٣٢٧.

(٣١٤) المقريزي: الخطط ،ج٢ ،ص١٨٧.

(٣١٥) stanylone poole:The history of egypt in middle age , london, 1936. p:94

(٣١٦) المقريزي: الخطط ، ج ٢ ، ص٣٩٦ . كان الفاطميون موجودين منذ عهد صلاح الدين الأيوبي في دار المظفر بحارة برجوان ، وكان عددهم في عهد بيبرس ٣٧٢ نفساً .المقريزي: الخطط ، ج٢ ، ص٣٩٥.

(٣١٧) المقريزي: الخطط ، ج٤ ، ص٩٢، ٩٣

(٣١٨) أسامة بن منقذ. كتاب العصا، تحقيق: عبد السلام هارون، نوادر المخطوطات، الطبعة الثانية، القاهرة،١٩٧٢، ص ١٨١.

(٣١٩) المقريزي: الخطط ، ج٣ ، ص٣٥-٦٥.

(٣٢٠) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٢٢١.

(٣٢١) رحلة طاقور، ص ص ٦٣، ٦٤، رحلة ابن بطوطة، ص ٣١. نقلا عن قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣٢٢) ابن سيدة (أبو الحسن على بن سيدة): المخصص،القاهرة ١٣١٩هـ، جـ٢، ص ٢٥٥.

(٣٢٣) ابن منظور: اللسان، بيروت ١٩٢٦، جـ٤، ص ١٦٧.

(٣٢٤) المسالك والممالك، ص ٤٢.

(٣٢٥) الأدريسي: نزهة المشتاق، ص ٣٢٤.

(٣٢٦) ابن جبير، ص ٣٦.

(٣٢٧) ابن محشرة (كاتب مراكشي مجهول)، مصدر سابق، ص ٩٣.

(٣٢٨) المصدر السابق، ص ٨٤.

(٣٢٩) سفر نامة، ص٩١.

(٣٣٠) المصدر السابق، ص ١١٧.

(٣٣١) نفس المصدر، ص ١١٧.

(٣٣٢) سفر نامة، ص ١١٨.

(٣٣٣) سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص ٩٧.

(٣٣٤) بيرو طافور: مصدر سابق، ص ٦٦.

(٣٣٥) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص ٦.

(٣٣٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣٣٧) ابن سعيد: المصدر السابق، ص ٧.

(٣٣٨) العبدرى: رحلة العبدرى، ص ٥٨٠.

(٣٣٩) المصدر السابق، ص ٢٨١.

(٣٤٠) ابن الحاج: هو محمد بن محمد بن على بن أحمد أبو عبد الله الحاجى العبدرى (نسبة إلى بنى عبد الدار) بعد عام ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م، صاحب الرحلة المعروفة باسمه وأصله من بلنسيه سكن بلدة (الحامة) وهى قرية فيها مياه معدنية حارة فى الطريق بين بسكرة وتوزر فى المغرب وتوجه حاجا فى عام ٦٨٨هـ/ ١٢٧٩م فدخل باجه وتونس والقيروان ومر بالإسكندرية فى ذهابه وغيابه ثم عاد إلى بلدة / الزركلى: الاعلام، جـ٧ طبقة ثانية بدون تاريخ، ص ٢٦٠.

(٣٤١) ابن الحاج:المدخل إلى الشرع الشريف، المطبعة المصرية بالأزهر، ط١، ١٩٢٩، ج٢، ص٧٩.

(٣٤٢) حسن حسن عبد الوهاب: ورقات من الحضارة الإسلامية، القسم الثانى، القاهرة، ١٩٨٩، ص ١٠.

(٣٤٣) ابن دقماق: الانتصار، القسم الأول، طبعة بيروت ، ص ٧٩ إلى ٩٢.

(٣٤٤) ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي) ت ٦٤٨هـ-١٢٥٠م/ ٧٢٩هـ-١٣٢٩م: كتاب معالم القرية فى أحكام الحسبة، تحقيق: محمد محمود شعبان، صديق أحمد المطيعى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٢٦٣.

(٣٤٥) اليعقوبى (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م: كتاب البلدان – ليدن، ١٧٩٢م، ص ٢٣١.

(٣٤٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص ١٠٩، ١١٩.

(٣٤٧) جوزيف بتس: مصدر سابق، ص ٣٤.

(٣٤٨) محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ٣٣٣.

(٣٤٩) المغرب فى حلى المغرب:ص ٦.

(٣٥٠) العبدرى: الرحلة، ص ٢٨١.

(٣٥١) ابن الأخوة: معالم القرية، مصدر سابق، ص ١٣٥.

(٣٥٢) ابن سعيد: النجوم الزاهرة،ص ٢٤.

(٣٥٣) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ص ٣٧، ١٩٨ .

(٣٥٤) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ص ٥٨، ٥٩ .

(٣٥٥) المصدر السابق، ص ٤٨.

(٣٥٦) محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ٣٥١.

(٣٥٧) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٣٣٠ .

(٣٥٨) نعيم زكى فهمى: طرق التجارة الدولية ومحطاتها، مرجع سابق، ص ١٢٨.

(٣٥٩) عثمان على محمد عطا: الأزمات الاقتصادية فى مصر فى العصر المملوكى وأثرها السياسى والاقتصادى والاجتماعى، سلسلة تاريخ المصريين ع ٢١٣، الهيئة المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٢٤٥.

(٣٦٠) جمال حمدان: مصر فلتة جغرافية (مقال أعيد نشره)، مجلة المعرفة، العدد ٩٦، مايو٢٠٠٣م، ص١٦٠ .

(٣٦١) قاسم عبده قاسم: دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، ط الثانية، ١٩٨٣، ص ص ٣٠، ٣١.

(٣٦٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ٢٢٠.

(٣٦٣) عثمان عطا: الأزمات، مرجع سابق، ص ٢٤٥.

(٣٦٤) أبو المحاسن: منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، جـ٣، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، طـ المجلس الأعلى للفنون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٤٣١.

(٣٦٥) علاء طه رزق: عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، الزقازيق، ١٩٨٩، ص ١٠٢.

(٣٦٦) محاسن محمد الوقاد: الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية من تاريخ المصريين ع ١٥٢، الهيئة المصرية، القاهرة،١٩٩٩، ص ٧٠.

(٣٦٧) الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م: تاريخ الأمم والملوك، الطبعة الأولى، المطبعة الحسينية بمصر، ١٩٣٩م، الجزء الثالث، ص١٤٩.

(٣٦٨) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، سابق، صفحات ٢٥-٢٦، ٣٠، ٤٧-٤٨، ٧١، ٨١-٨٣، ٩٢، ٩٩، ١٠١ .

(٣٦٩) القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٣٧.

(٣٧٠) ابن جبير: رحلة ابن جبير، تقديم: محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب المصرى، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٤٥ .

(٣٧١) المصدر السابق، ص ٤٧ .

(٣٧٢) العبدرى: رحلة العبدرى، مصدر سابق، ص ٣٣٠.

(٣٧٣) عبد الحميد حسين محمود حمودة: الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى الصعيد الأعلى فى العصر الفاطمى، رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب الزقازيق، ١٩٨٨، ص ١٣٦.

(٣٧٤) ابن بطوطة، مصدر سابق، ص ٢٥.

(٣٧٥) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، جـ٣، القاهرة، المطبعة الحسينية بمصر، بدون تاريخ، ص١٢٥.

(٣٧٦) ابن بطوطة، ص ٤٢.

(٣٧٧) صلاح هريدى: دور الصعيد فى مصر العثمانية، القاهرة،١٩٨٢ ، ص ٢٨٧.

(٣٧٨) العبدرى: مصدر سابق، ص ١٨٢.

(٣٧٩) ابن جبير، مصدر سابق، ص ٦١ .

(٣٨٠) الأدريسى، ص ١٢٨.

(٣٨١) ابن بطوطة، ص ٤١.

(٣٨٢) المقدسى: احسن التقاسيم، جـ٣، ص ص ١٩٧، ١٩٨.

(٣٨٣) ناصر خسرو، سفر نامة، ص ص ٥٩، ٦١ .

(٣٨٤) ابن سعيد: المغرب فى حل المغرب، قسم ١ من الجزء الخاص بمصر، ص ص ٢٦، ٢ .

(٣٨٥) عبد اللطيف البغدادى (٥٥٧هـ/ ١١٦٢م)، الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة، مصدر سابق، ص ٧٤.

(٣٨٦) ابن جبير: الرحلة، ص ٣١، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٩٥.

(٣٨٧) ابن جبير: المصدر السابق، ص ص ٣٥، ٥٩، ٦٣ .

(٣٨٨) المصدر السابق نفسه.

(٣٨٩) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٩٧، ناصر خسرو: سفر نامة، ص ص ٥٩، ٦٣، ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، جـ١، ص ٢٦، ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص ٢٠، المقريزى:الخطط، جـ١، ص ٣٣٩.

(٣٩٠) النجوم الزاهرة، ص ٢٩.

(٣٩١) الاستبصار: مصدر سابق، ص ٨٩ .

(٣٩٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار، مصدر سابق، ص ٣٣.

(٣٩٣) السويقة اصغر حجما من السوق، وقد اختصت بتلبية الحاجات اليومية لقطاع صغير فى المدينة فصغر حجمها وتحددت وظيفتها فسميت " بالسويقات " نظرا لصغرها نوعا عن تلك التى تخدم المدينة كلها، محمد عبد الستار عثمان:المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، العدد١٢٨، الكويت،١٩٨٨، ص٢٥٣.

(٣٩٤) الهروى: الاشارات، مصدر سابق، ص ص ٤٨، ٤٩.

(٣٩٥) ابن محشرة: الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص ٨٤.

(٣٩٦) القزويني:آثار البلاد، ص ٢٤٠.

(٣٩٧) المقريزي: الخطط ، ج٣ ، ص١٤٠وما بعدها .

(٣٩٨) محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ص ٢٥٩، ٢٦٠.

(٣٩٩) المرجع السابق، ص ٧٩.

(٤٠٠) نفس المرجع، ص ٨٢.

(٤٠١) هويدا عبد العظيم: المجتمع فى مصر الإسلامية، مرجع سابق، جـ٢، ص ٢٩٩.

(٤٠٢) Doyzy: Suplement aux Dictonnaire Arabes, Vol., Leyden 1881 P. 432.

(٤٠٣) المقريزى: الخطط ، جـ٢، ص ص ٨٧، ٨٩ .

(٤٠٤) ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) ت ٢٥٧هـ/ ٨٧١م: فتوح مصر وأخبارها، طبع تورى – ليدن، ١٩٢٠، ص١٣١.

(٤٠٥) أحمد مختار العبادى، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، دار النهضة العربية، ١٩٨١، ص ٣١٤.

(٤٠٦) نعيم زكى: طرق التجارة، مرجع سابق، ص ١٢٩.

(٤٠٧) العمرى (شهاب الدين أحمد بن فضل الله) ت ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار،جـ١، تحقيق: أحمد زكى، القاهرة، ١٣٤٢هـ، ص ٨٦.

(٤٠٨) ابن بطوطة، ص ٤١.

(٤٠٩) يذكر الطاهر أحمد الزاوى:ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، الجزء الرابع، الطبعة الثانية، ط عيسى البابى الحلبى، ص ٢٩٠.

أن الربع: هو الدار بعنيها حيث كانت جمع رباع وربوع وأربع وأرباع، ويقول ابن الأجدبى فى كفاية المتحفظ: " الربعة والربع: المنزل الذى يربع به الإنسان ويتوطن، وقد جعله ابن الأجدبى فى باب المحال والأبنية العمرانية، مصدر سابق، ص ٤٣٣، وهى أيضا المساكن المشتركة التى يقطنها أكثر من أسرة فى وقت واحد بعكس الدور مفردها دار وهى المساكن التى تسكنها أسرة واحدة من بابها، صالح لمعى مصطفى:التراث المعمارى الإسلامي فى مصر، بيروت، ١٩٨٤، ص ص ٨٦، ٨٧.

(٤١٠) هويدا عبد الظيم: المجتمع فى مصر الإسلامية، ص ٣٠٠.

(٤١١) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ص ١٨٣، ١٨٤.

(٤١٢) ابن بطوطة:الرحلة، ص ٤٣.

(٤١٣) المقريزى:الخطط، جـ٢، ص ١٥٥.

(٤١٤) محمد الأشقر: تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي،(سلسلة تاريخ المصريين ، القاهرة ١٩٩٩م)، ص ٢٠٦.

(٤١٥) محاسن الوقاد: الطبقات الشعبية، مرجع سابق، ص ٧١.

(٤١٦) حلمى محمد سالم: حرف وصناعات الأطعمة والأشربة فى عصر المماليك، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، الإسكندرية، ١٩٧٠، ص ١٨٣.

(٤١٧) حلمى سالم: رسالة الدكتوراه، ص ١٨٣.

(٤١٨) محاسن الوقاد:الطبقات الشعبية، ص ١٠٩ .

(٤١٩) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ص ٨٩، ٩٠، ٩١ .

(٤٢٠) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٤١.

(٤٢١) المقريزى: الخطط ٢، ص ص ٨٦، ٩١.

(٤٢٢) زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون، ص ١٠٨.

(٤٢٣) المرجع السابق، ص ١١٧.

(٤٢٤) عبد اللطيف البغدادى: مرجع سابق، ص ١١٤.

(٤٢٥) سفر نامة: مصدر سابق، ص ١٢٢.

(٤٢٦) السائح الهروى: الإشارات، ص ٤٨.

(٤٢٧) حسين نصار: أدب الرحلات، ص٨.

(٤٢٨) نعيم زكى: طرق التجارة، مرجع سابق، ص ٢٨٨.

(٤٢٩) ابن جبير: الرحلة، نشر مصر، ص ٣٧.

(٤٣٠) قاسم عبده: عصر سلاطين المماليك، ص ١٨٣!

(٤٣١) صاحب الاستبصار فى عجائب الأمصار، ت ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م)، ص٨٣ .

(٤٣٢) رحلة الحاج يوسف: مصدر سابق، ص ٣٤.

(٤٣٣) ابن دقماق: الانتصار، ق أول، ص ٩٠.

(٤٣٤) ابن جبير: الرحلة، تقديم: محمد مصطفى زيادة، ص ٦١.

(٤٣٥) عبد اللطيف البغدادى: مصدر سابق، ص ١٣٨.

(٤٣٦) المصدر السابق، ص ص ١٤١، ١٤٤.

(٤٣٧) المصدر نفسه، ص ١٥٠.

(٤٣٨) سفر نامة، ص ١٠٤.

(٤٣٩) المصدر السابق، ص ١١٩.

(٤٤٠) الإدريسى: مصدر سابق، ص ٣٢٣.

(٤٤١) نزهة المشتاق: مصدر سابق، ص ٣٤٠.

(٤٤٢) المصدر السابق، ص ٣٤١.

(٤٤٣) المصدر نفسه، ص ص ٣٤٢، ٣٤٣.

(٤٤٤) المقريزى: الخطط ١ / ص ص ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩.

(٤٤٥) ابن سعيد: النجوم الزاهرة، ص ٢٧.

(٤٤٦) جوزيف بتس: رحلة الحاج يوسف، ص ٣٤.

(٤٤٧) محمد مصطفى: السلطان قايتباى كما رآه الرحالة الألمانى أرنولد فون هارف،.مجلة الهلال، جـ٤، المجلد ٦٣. أبريل ١٩٥٥، ص ص ٣٢، ٣٧.

(٤٤٨) كلود كاهن: تجار القاهرة الأجانب فى عهد الفاطميين والأيوبيين، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، الجزء الثانى، مطبعة دار الكتب، ١٩٧١، ص ٨٧١.

(٤٤٩) ابن دقماق: الانتصار، ق الأول، ص ٣٧.

(٤٥٠) ابن دقماق، المصدر السابق ، صفحات ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠.

(٤٥١) محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ٢٥٨.

(٤٥٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٩٦.

(٤٥٣) ابن دقماق: الانتصار، ص ١٠٥، السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص ١٣٥.

(٤٥٤) صلاح أحمد البهنسى: الحمامات العامة فى العالم الإسلامي، المنهل، العدد ٥٧١، المجلد ٦١، العام ٦٦، عدد يناير ٢٠٠١م، ص ١٩٨ .

(٤٥٥) نعيم زكى فهمى: طرق التجارة، مرجع سابق، ص ١٢٨.

(٤٥٦) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٧٩ .

(٤٥٧) آدم متز: الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، جـ٢، ص ١٦٣.

(٤٥٨) سعاد محمد حسن: الحمامات فى مصر الإسلامية دراسة أثرية معمارية، رسالة دكتوراه، غير منشورة، آثار القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٥.

(٤٥٩) هويدا عبد العظيم رمضان: المجتمع فى مصر الإسلامية، جـ٢، مرجع سابق، ص ٢٦١.

(٤٦٠) سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص ١٠٥.

(٤٦١) الهام محمد على ذهنى: مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر، س تاريخ المصريين ع ٥٢، الهيئة المصرية، القاهرة ١٩٩٢، ص٣٣١.

(٤٦٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٣٢٧.

(٤٦٣) ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ص ٤٢٢.

(٤٦٤) المقريزى: الخطط ، الجزء الثالث، ص ١٣٧.

(٤٦٥) نفسه ، ج٣ ، ص١٢٩وما بعدها .

(٤٦٦) ابن الحاج:المدخل جـ٢ ص ١٧٠، سعاد محمد حسن: الحمامات فى مصر الإسلامية، ص٢.

(٤٦٧) شلبى إبراهيم الجعيدى: طبقة العامة فى مصر فى العصر الأيوبى ٥٦٧ – ٦٤٨هـ/١١٧١–١٢٥٠م، س تاريخ المصريين ع ٢١٢،القاهرة، ٢٠٠٣، ص ١٦٠.

(٤٦٨) المرجع السابق، ص ١٦٠ حواشى .

(٤٦٩) الانتصار: ق ٢، ص ١٠٧ .

(٤٧٠) عبد الرحمن زكى: القاهرة تاريخها وآثارها، ص ١٦٦.

(٤٧١) محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ص ٢٤٦، ٢٤٩.

(٤٧٢) ابن دقماق: الانتصار، ص ١٠٥.

(٤٧٣) سعاد محمد حسن: الحمامات، رسالة دكتوراه، ص ٥٢.

(٤٧٤) ابن جبير: الرحلة، طبعة بيروت، ص ٤٦.

(٤٧٥) المصدر السابق، ص ٥٠.

(٤٧٦) نفس المصدر،ص ٥٦.

(٤٧٧) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ص ٣٧٩، ٣٨٠.

(٤٧٨) آكام المرجان: مصدر سابق، ص ٢٤.

(٤٧٩) سعد الخادم تصويرنا الشعبي خلال العصور (المكتبة الثقافية ، القاهرة ١٩٦٣م) ، ص٤٣.

(٤٨٠) عباس الطرابيلى: شوارع لها تاريخ سياحة فى عقل الأمة، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٠،ص٩.

(٤٨١) الإدريسى: نزهة المشتاق، ص ٣١٨.

(٤٨٢) المصدر السابق، ص ص ٣٢٣، ٣٢٤ .

(٤٨٣) ابن الأخوة: معالم القربة، ص ١٥٦.

(٤٨٤) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٩٧.

(٤٨٥) مسالك الأبصار: مصدر سابق، ص ٨٦.

(٤٨٦) الأدفوى (كمال الدين أبو الفضل جعفر) ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م: الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، مصر ١٩١٤، ص ٣٧، وابن دقماق: الانتصار، ص ٣٠.

(٤٨٧) أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ١١٣.

(٤٨٨) عبد الحميد حسين حمودة: رسالة الماجستير، ص ١٢٩.

(٤٨٩) القلقشندى: صبح الأعشى،

(٤٩٠) الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص٨٤.

(٤٩١) ابن دقماق: الانتصار، ق أول، مصدر سابق ، ص ٩٠.

(٤٩٢) ابن الأخوة: معالم القرية، مصدر سابق، ص ٢٤٠.

(٤٩٣) المصدر السابق، ص ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٤٩٤) الإفادة والاعتبار: مصدر سابق، ص ١١٤.

(٤٩٥) المصدر السابق، ص ١١٥.

(٤٩٦) نفس المصدر، ص ص ١١٥، ١١٦.

(٤٩٧) نفسه، ص ص ١١٦، ١١٧.

(٤٩٨) الحافظ لدين الله الفاطمة: أحد خلفاء الدولة الفاطمية توفى فى سنة ١١٤٩م.

(٤٩٩) الاعتبار: مصدر سابق، ص ٣٣.

(٥٠٠) ابن بطوطة: مصدر سابق، ص ٢٧.

(٥٠١) المصدر السابق، ص ٣٨.

(٥٠٢) شلبي إبراهيم الجعيرى: طبقة العامة فى مصر، ص ١٦٢.

(٥٠٣) سعاد محمد: الحمامات فى مصر الإسلامية – رسالة دكتوراه، ص ٥٤.

(٥٠٤) محمد مصطفي: السلطان قايتباى كما رآه الرحالة، مرجع سابق، ص ٣٤.

(٥٠٥) إلهام محمد ذهني: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنيين السادس عشر السابع عشر، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٥٠٦) ابن عبد الحكم، ص ١٢١، نقلا عن السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، مرجع سابق، ص ٤٩٧.

(٥٠٧) المرجع السابق، ص ٤٩٨.

(٥٠٨) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص١٩٠.

(٥٠٩) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص ١٦١.

(٥١٠) الرسالة المصرية، مصدر سابق، ص ٣٩.

(٥١١) صلاح البهنسي: الحمامات العامة، مرجع سابق، ص ١٩٩.

(٥١٢) المقريزي: الخطط ، ج ٢ ، ص٢٥١، ج٤ ، ص٢٥٩.

(٥١٣) عصمت مجاهد: الحياة الاجتماعية، رسالة ماجستير، ص ٢٥١.

(٥١٤) هويدا عبد العظيم: المجتمع فى مصر الإسلامية، ص ٢٥٨.

(٥١٥) المقريزى:الخطط،جـ٢،ص ٤٠٥– آدم متز:الحضارة الإسلامية،مرجع سابق، ص ص١٤٨،١٤٧.

(٥١٦) محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ص ٢٤٩، ٢٥٠.

(٥١٧) رحلة ابن جبير: تقديم: مصطفى زيادة، ص ٤٦.

(٥١٨) المصدر السابق، نفس الصفحة .

(٥١٩) العبدرى: مصدر سابق، ص ٤٧٩.

(٥٢٠) أبي الصلت: الرسالة المصرية، مصدر سابق، ص ٣٤.

(٥٢١) ابن جبير: الرحلة، ص ٥٢.

(٥٢٢) أحمد عيسي إبراهيم: تاريخ البيمارستات فى الإسلام، ط٢، بيروت، دار الرائد العربى، ١٩٨١، ص ٧٨.

(٥٢٣)رحلة ابن جبير، ص ٥٢.

(٥٢٤)Maillet: Op. Cit , P. 202.

(٥٢٥)عصمت مجاهد: الحياة الاجتماعية، رسالة ماجستير، ص ٢٤١.

(٥٢٦) زيغريد هونكة: شمس العرب، ص ٢٢٩.

(٥٢٧)رحلة ابن جبير، تقديم زيادة، ص ٥٢.

(٥٢٨) Mackenzie: Ayyubid Cairo, Cairo the American University, 1992, p. 143.

(٥٢٩) السائح الهروى: الاشارات، ص ص ٤٨، ٤٩.

(٥٣٠) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ٢٩.

(٥٣١) زيغريد هونكة: شمس العرب، مرجع سابق، ص ٢٢٩.

(٥٣٢) سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ١٠٣.

(٥٣٣) ابن بطوطة، ص ٢٧.

(٥٣٤) رحلة البلوى المغربى، مصدر سابق، ص ٥٦.

(٥٣٥) عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية، ص ص ٩٥، ١٠٤ .

(٥٣٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص ٨٢٠

(٥٣٧) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٢١٤.

(٥٣٨) محاسن محمد الوقاد: الطبقات الشعبية، ص ٢٥٥.

(٥٣٩) ابن خلدون: رحلته شرقا وغربا، مصدر سابق، ص ٢٤٧.

(٥٤٠) عصر سلاطين المماليك، المرجع السابق، ص ١٨٧.

(٥٤١) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص١٠.

(٥٤٢) جمال حمدان: شخصية مصر، كتاب الهلال ١٩٩٤، ص ١٦٨ .

(٥٤٣) كريستل كسلر : عمارة الأضرحة فى داخل مدينة القاهرة، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، الجزء الثانى، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٨٦٧.

(٥٤٤) حسين نصار: مقدمة لرحلة ابن جبير، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٢.

(٥٤٥) رحلة ابن جبير: تحقيق حسين نصار، ص ٣٧.

(٥٤٦) قاسم عبده قاسم: رحلتان أنديستان إلى القاهرة (مقال) مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، المجلد السادس والعشرون، مدريد ١٩٩٤، ص ١٠٧ .

(٥٤٧) رحلة ابن جبير، ص ٣٨.

(٥٤٨) رحلة ابن جبير، تقديم زيادة، ص ٤٨.

(٥٤٩) المصدر السابق، ص ٤٩.

(٥٥٠) قاسم عبده: عصر سلاطين المماليك، ص ١٨٥.

(٥٥١) الهروى: الإشارات، ص ص ٣٧، ٣٨ .

(٥٥٢) المصدر السابق، ص ٣٨.

(٥٥٣) ابن جبير، ص ٥٠.

(٥٥٤) المصدر السابق، ص ص ٤٨، ٤٩، ٥٠.

(٥٥٥) ابن جبير، ص ٥١.

(٥٥٦) الهروى، ص ٤٢.

(٥٥٧) القزوينى: آثار البلاد، ص ٢٤٠، ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص ١٠.

(٥٥٨) ابن بطوطة، ص ص ٢٨، ٢٩ .

(٥٥٩) رحلة العبدرى، ص ٢١٤.

(٥٦٠) المصدر نفسه، ص ص ٣١٩، ٣٢٠.

(٥٦١) سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ١٢٣.

(٥٦٢)رحلة البلوى المغربي، ص ص ٥٩، ٦٠ .

(٥٦٣) زبدة كشف الممالك، ص ٢٧.

(٥٦٤) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٥٦٥) إبراهيم محمد سالم ضويان: منار السبيل فى شرح الدليل على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، جـ١، تحقيق زهير الشاويش، ط٤، بيروت ١٩٧٩، ص ١٧٨ .

(٥٦٦) المرجع السابق، ص ١٨٠ .

(٥٦٧) رحلة ابن بطوطة، جـ١، مصدر سابق، ص ٢٨.

(٥٦٨) منار السبيل: مرجع سابق، ص ١٨١.

(٥٦٩) ابن الحاج: المدخل، جـ١، ص ص ٢٦٩، ٢٧٠.

(٥٧٠) منار السبيل: المرجع السابق، ص ١٨٠.

(٥٧١) المقريزي: الخطط ، ج٤ ، ص٢٨٠ وما بعدها .

(٥٧٢) الاعتبار: مصدر سابق، ص ص ٣٣، ٤٦.

(٥٧٣) عبد اللطيف البغدادى: الإفادة والاعتبار، ص ص ١٣٢ – ١٥٢ .

(٥٧٤) عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، ط٨، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٦٨، ص ٩٥.

(٥٧٥) شلبى الجعيدى: طبقة العامة، ص ١٨٧.

(٥٧٦) عثمان محم عطا: الأزمات الاقتصادية، ص ٢٦٥.

(٥٧٧) محمد زغلول سلام: الأدب فى العصر الأيوبى، دار المعارف،القاهرة،١٩٦٧، ص ٦٩.

(٥٧٨) العبدرى: رحلة العبدرى، ص ص ٢١٦، ٢١٧ .

(٥٧٩) ابن جبير: الرحلة، ص ص ٢٩، ٣٠ .

(٥٨٠) شلبى الجعيدى: طبقة العامة، ص ١٨٧، وكذلك عبد اللطيف حمزة:الحركة الفكرية، ص ٢٦.

(٥٨١) أندريا نيترشايدت: الشخصية المصرية مش مالك كبر دماغك ، مقال، المعرفة، العدد ٩٦، مايو ٢٠٠٣م، ص ص ٨٠–٨٦ .

(٥٨٢) عثمان عطا: الأزمات الاقتصادية، ص ٢٦٧ .

(٥٨٣) شلبى الجعيدى: مرجع سابق، ص ١٨٦ .

(٥٨٤) محمد زغلول سلام: الآدب فى العصر الآيوبى، ص ١٤٢.

(٥٨٥) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـــ٢، ص ٢٩٩.

(٥٨٦) نادر محمود عبد الدايم: التكايا فى العمارة الإسلامية، المنهل ، عدد فبراير ٢٠٠١م، ص ٢١٦.

(٥٨٧) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ٢٠٣ .

(٥٨٨) محمد عبد الستار: نظرية الوظيفية، سالة دكتوراه، جـــ١، ص ص ١٨٠ – ١٨٧.

(٥٨٩) محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ص ٢٤٤، ٢٤٥.

(٥٩٠) الربط: مفردها رباط كانت تطلق على بيت الصوفية حيث يرابطون للزهد والعبادة (سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، دار النهضة العربية، ١٩٨٧، ص ٤١٨)

.ويسن الرباط وهو لزوم لثغر للجهاد سمى بذلك لأن هؤلاء يربطون خيولهم ورباط ليلة فى سبيل الله خير من صيام شهر (منار السبيل، مصدر سابق، ص ٢٨٦).

(٥٩١) الخانقاوات: مفردها خانقاة وهو بيت ينقطع فيه الصوفية للعبادة والذكر (سعيد عاشور:العصر المماليكى، ص ٤١١).

(٥٩٢) أصل الرباط ما يربط فيه الخيول ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباطا، كما قيل أن الرباط والمرابطة انتظار الصلاة بعد الصلاة والمحافظة عليها، والرباط هو بيت الصوفية: الخطط، جـ٤، ص ص ٢٩٢، ٢٩٣، وعقب الفتوح الإسلامية الأولى جرت العادة بتشييد مؤسسات عسكرية فى الثغور التى هى موضع المخافة من العدو وعرفت تلك المؤسسات باسم الربط، وكانت تلك الربط أشبه بالقلاع الحصينة ترابط فيها حامية لدفع عادية الأعداء ولما أقيمت المدارس النظامية فى مصر تحولت بعض الربط إلى مدارس وكان لها صفة تعليمية: نقلاً عن محاسن الوقاد، ص١١١.

(٥٩٣) القزوينى: آثار البلاد، ص ١٩٣ .

(٥٩٤)ابن جبير: الرحلة تحقيق حسين نصار، ص ٣٢ .

(٥٩٥)المصدر السابق، ص ٤٩.

(٥٩٦)ابن خلدون: رحلته غربا وشرقا، ص ٢٤٧.

(٥٩٧) المصدر السابق، ص ٢٧٩.

(٥٩٨) البدراوى زهران: الصراع اللغوى، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٥٩٩) ابن بطوطة: ص ١٩ .

(٦٠٠) المصدر السابق، ص ص ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٤.

(٦٠١) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٦٠٢) ليفى بروفنساك: دائرة المعارف الإسلامية، م (١٠)، مادة زاوية، ص ٣٣١.

(٦٠٣) أحمد رمضان أحمد: المجتمع الإسلامي فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، القاهرة، الجهاز المركزى للكتب الجامعية، ١٩٧٧، ص ١٥٥.

(٦٠٤) محاسن الوقاد: الطبقات الشعبية، ص ٨٣ .

(٦٠٥) آكام المرجان فى ذكر المدائن، ص ٢٢

(٦٠٦) ابن بطوطة، ص ٢٩.

(٦٠٧) المصدر السابق، ص ٣٦.

(٦٠٨) المصدر السابق، ص ٤٢.

(٦٠٩) العبدرى: ص ٣١٩ .

(٦١٠) العبدرى: المصدر السابق، ص ص ٣٢٦، ٣٢٧.

(٦١١) المقريزى: الخطط، ١١٧/٢.

(٦١٢) هويدا عبد العظيم: المجتمع فى مصر الاسلامية، ص ٢٩٥.

(٦١٣) جمال حمدان: القاهرة، ص ٦١.

(٦١٤) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٨٨.

(٦١٥) عبد الرحمن زكى: القاهرة تاريخها وآثارها، ص ٦٦.

(٦١٦) نعمت إسماعيل علام: فنون الشرق الأوسط فى العصور الإسلامية، طـ الثانية، دار المعارف، القاهرة،١٩٧٧، ص ١٣٨ .

(٦١٧) حجاجى إبراهيم محمد: القلاع وتطور الفكرة الهندسية، مجلة المنهل، العدد ٤٥٤ السنة ٥٣، المجلد ٤٨، السعودية، ١٩٨٧، ص ٢٩٠.

(٦١٨) كمال الدين سامح: أصالة العمارة والفنون الإسلامية بمصر، المنهل، العدد ٤٥٤ السنة ٥٣، المجلد ٤٨، السعودية، ١٩٨٧، ص ٣٠٦.

(٦١٩) عبد الرحمن زكى: قلعة صلاح الدين الأيوبي وما حولها من الآثار، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٧١، ص ٣٤.

(٦٢٠) عصمت مجاهد:رسالة ماجستير، ص ١٣٥.

(٦٢١) جمال حمدان: القاهرة، كتاب الهلال، العدد٥١٠، ص ٦٣.

(٦٢٢) محمد عبد الستار: المفهوم الإسلامي، مرجع سابق، ص ٢٢٨.

(٦٢٣) رحلة طافور، ص ص ٩٥ – ٦٠.

(٦٢٤) المصدر السابق، ص ٦٠.

(٦٢٥)الرازى: مختار الصحاح، مادة قلع، ص ٥٤٨.

(٦٢٦) حجاجى إبراهيم محمد: القلاع، مرجع سابق، ص ٢٩٣.

(٦٢٧) رحلة ابن جبير، ص ٤٧.

(٦٢٨) زبدة كشف الممالك، ص ٢٧.

(٦٢٩) القلقشندى: صبح الأعشى، الجزء الرابع عشر، ص ٣٧٣.

(٦٣٠) ابن سعيد: النجوم ا لزاهرة، ص ٢٧.

(٦٣١) فريد شافعي: قاهرة المعز كانت حصنا لا مدينة، مجلة منبر الإسلام، مجلد ٢٢، ١٩٦٥، ص١٥.

(٦٣٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ١٩٤. وانظر للمؤلف نفسه: رحلتان أندلسيتان إلى القاهرة، مقال بمجلة المعهد المصرى للدراسات بمدريد ١٩٩٤، ص ص ١٠٥ - ١٢٦.

(٦٣٣) النجوم الزاهرة، ص ٢٧.

(٦٣٤) عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ١٩٥.

(٦٣٥) ابن سعيد الأندلسي: المغرب فى حلى المغرب، ص ص ٨، ١١.

(٦٣٦) عصر سلاطين المماليك، ص ص ١٩٩، ٢٠٠.

(٦٣٧) المغرب فى حلى المغرب، ص ١١.

(٦٣٨) النجوم الزاهرة، ص ٣٩٠.

(٦٣٩) إلهام ذهني: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، مرجع سابق، ص ١٠٣.

(٦٤٠) المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٦٤١) الإفادة والاعتبار، مصدر سابق، ص ٩٠.

(٦٤٢) فريد شافعي: العمارة العربية فى مصر الإسلامية عصر الولاة، مجلد أول، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة،١٩٧٠، ص ص ٥٢٣، ٥٢٩ .

(٦٤٣) ناصر خسرو: الرحلة، ص ٤٠.

(٦٤٤) فريد شافعي: المرجع السابق، ص ص ٥٢٩، ٥٣١.

(٦٤٥) قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصرى، ص ص ٢٣، ٢٤، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ص ٤٤٨ -٤٥٢.

(٦٤٦) مجدى عبد الرشيد بحر: القرية المصرية، ص ١٧٨.

(٦٤٧) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٤٤.

(٦٤٨) عثمان على محمد عطا: الأزمات الاقتصادية، ص ١٤٧.

(٦٤٩) محمد عبد العزيز الدباغ: رحلة ابن جبير، مرجع سابق، ص ٣٣٨.

(٦٥٠) رحلة ابن جبير: نشر مصر، ص ٥٠.

(٦٥١) الموحدون: الأسرة التى حكمت المغرب من ٥١٥ - ٦٦٨هـ واستولت على الأندلس أيضاً.

(٦٥٢) رحلة ابن جبير، ص ٥٠.

(٦٥٣) عبد اللطيف البغدادى: رحلته، ص ٩٠.

(٦٥٤) المصدر السابق، نفس الصفحة .

(٦٥٥) ناصر خسرو: سفر نامة، ص٤٣.

(٦٥٦) ابن سعيد الأندلسى: المغرب فى حلى المغرب، ص ٨.

(٦٥٧) الإدريسى: نزهة المشتاق، ص ٣٢٣.

(٦٥٨) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ١٥١.

(٦٥٩) منار السبيل: مرجع سابق، جـ١، ص ص ٢٩٥، ٢٩٦.

(٦٦٠) المقريزى:الخطط، جـ١، ص ص ٣٢٢، ٣٢٣.

(٦٦١) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ٦٢.

(٦٦٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٤٥، ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص ٨.

(٦٦٣) المقريزى: السلوك، جـ١، ص ٤٤٦.

(٦٦٤) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، مرجع سابق، ص ص ١٥٨، ١٥٩.

(٦٦٥) أحمد عبد الكريم سليمان: الحياة الزراعية فى مصر فى العصر المملوكى، رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب القاهرة، ص ٥٠.

(٦٦٦) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، ص ص ١٩٥، ١٩٧.

(٦٦٧) ابن سعيد: النجوم الزاهرة، ص٣٢، المغرب فى حلى المغرب، ص ص ٧، ٨ .

(٦٦٨) ابن حوقل: مصدر سابق، ص ١٦٤، ناصر خسرو: سفر نامة، ص ص ١٠٦، ١١٦ .

(٦٦٩) ابن خلدون: المقدمة الباب الرابع من الكتاب الأول ، الفصل الأول، ص ٣٤٢.

(٦٧٠) E.Ashtor: Lecout de lavie dans L'Egypte Medlevale , Journal of the Economic and Social History of the Orient, (JESHO) vol. III part 1 , le iden 1960 , p. 67.

(٦٧١) أسامة بن منقذ: المنازل والديار، تحقيق مصطفى حجازى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م، ص ص ٢٧١، ٣٠٩.

(٦٧٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٣٢٦.

(٦٧٣) ابن بسام: أنيس الجليس، ص ٤.

(٦٧٤) رحلة ابن جبير، ص ٤٤.

(٦٧٥) ابن دقماق: الانتصار،القسم الأول، ص ٣٥.

(٦٧٦) الحميرى: الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، بيروت، ١٩٧٩، ص ٤٢٣.

(٦٧٧) رحلة ابن جبير، ص ٧٤.

(٦٧٨) الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، مصدر سابق، ص ٢٢٩.

(٦٧٩) ابن حوقل: مصدر سابق، ص ١٤٥.

(٦٨٠) سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ١٢٥.

(٦٨١) الاعتبار، مصدر سابق، ص ٣٣.

(٦٨٢) المصدر السابق، ص ص ٣٤، ٣٥.

(٦٨٣) Carre(Jean– Marie):Vayageurs et Ecrivains Francais en Egypte Le Caire, (1932) p.p. 3-5 .

(٦٨٤) الاعتبار، ص٤٥.

(٦٨٥) رحلة طافور، ص ٦٠.

(٦٨٦) عبد اللطيف البغدادى: الافادة، ص ١١٣.

(٦٨٧) ناصر خسرو: سفر نامة،ص ص ١٠٦، ١٠٧.

(٦٨٨) النجوم الزاهرة، ص ٢٤.

(٦٨٩) عبد اللطيف البغدادى: الإفادة والاعتبار، ص ١١٣.

(٦٩٠) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب،ص ص ٣، ٦ .

(٦٩١) محمد أحمد محمد أحمد: مظاهر الحضارة فى الوجه القبلى منذ قيام الدولة الأيوبية حتى نهاية العصر المملوكى، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة أسيوط، سوهاج، ١٩٨٣، ص ص ٢٢١، ٢٢٢.

(٦٩٢) الإفادة والاعتبار، ص ١٣٥.

(٦٩٣) الاصطخرى: المسالك والممالك، ص ٤٢.

(٦٩٤) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٦٦.

(٦٩٥) المصدر السابق، ص ٣٦٧.

(٦٩٦)أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية، ص ٢٣٧.

(٦٩٧) الأدفوى (أبو الفضل كما الدين جعفر بن ثعلب) ت ٧٤٨: الطابع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق : سعد محمد، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة،١٩٦٦،ص ٣٧.

(٦٩٨) رحلة ابن جبير، تقديم زيادة، ص ٦٠ .

(٦٩٩) العبدرى، ص ٢١١.

(٧٠٠) الإفادة والاعتبار، ص ١١٣.

(٧٠١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٦٧.

(٧٠٢) عصام عبد الرؤف: تاريخ الفكر الإسلامي، ص ١٦٢.

(٧٠٣) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٢٧.

(٧٠٤) عصمت مجاهد، رسالة الماجستير، ص ١٣٧.

(٧٠٥) رحلة ابن جبير، ص ٣٠.

(٧٠٦) المصدر السابق، ص ٤٨ ، نزهة المشتاق، ص ٣١٩.

(٧٠٧) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٣٣.

(٧٠٨) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨١ .

(٧٠٩) الاعتبار: المصدر السابق، ص ٤٣.

(٧١٠) زبدة كشف الممالك، ص ٤١.

(٧١١) الإدريسى: نزهة المشتاق، ص ٣٢٤.

(٧١٢) الاصطخرى: المسالك والممالك، ص ٣٩.

(٧١٣) المصدر السابق، ص ٤٠.

(٧١٤) ابن سعيد : النجوم الزاهرة، ص ٢٤.

(٧١٥) المصدر السابق، ص ٢١.

(٧١٦) نفس المصدر، ص ٢٢.

(٧١٧) نفسه، ص ص ٢٣، ٢٤.

(٧١٨) رحلة طافور، ص ٧١.

(٧١٩) زبدة كشف الممالك، ص ٢٩.

(٧٢٠) المصدر السابق، ص ٢٨.

(٧٢١) القزويني: آثار البلاد، ص ٢٢٠.

(٧٢٢) آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٤٠.

(٧٢٣) محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ٣٢٩.

(٧٢٤) أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية، ص ص ١٥٩، ١٦٠.

الفصل الرابع

أساطير العمران المصري في كتابات الرحالة

أعمال الرحالة والمؤرخين وكتاباهم تُعد أحد المصادر المهمة لإلقاء الضوء على الحضارة العربية في عصورها المختلفة، وهذه الأعمال وما قدمت من مادة ثرية، دليلٌ بارزٌ على قيمة كتاباهم، والتي أمدتنا بمعلومات وأخبار مستقاة من الملاحظة المباشرة والمعاينة الشخصية أو النقل عن التراث العربي بشطريه ـــ المدون والشفاهي ـــ المتداول عن العمران والذي يعد من أحد أهم دلائل الحضارة، ولكون العمران دليلاً بارزاً على وجود الحضارة فارتبطت به وارتبط بها، صنوان متلازمان يسيران جنباً إلى جنب تؤثر الحضارة في العمران فتطبعه بطابعها، ويعكس العمران ملامح الحضارة فتنطبع عليه ملامحها فيرى الناظر إليه كيف كانت الحضارة، وإلام انتهت، ومن ثمَّ فقد أضحى العمران وما يماثله من آثار قائمة في مقدمة ما يحرص علماء تاريخ الحضارات على استنطاقه والاستماع إلى ما يبوح به، وعلى الوقوف على ما يخفي وما يعلن عند تدوينهم تاريخ الأقدمين.

ومصر بحكم تاريخها وموقعها، كانت خبرتها طويلة؛ لأنها خبرة تاريخ وحضارة تنوع بيئي وسكاني وديني، وبالتالي كان لهذا كله دور كبير، وفعال في تشكيل، وتلوين الموروث الشعبي المصري في تعامله مع غير الإنسان من آثار عمرانية أو طير أو حيوان أو نبات أو جماد، نرى رؤيته الخاصة التي تجعل منها عوالم أسطورية تتعانق بحميمية مع حقائق التاريخ، فما من بناء في مصر القديمة إلا وتُروَى حوله الحكايات، في بعضها عناصر حقيقية من التاريخ، ومعظمها نسجته المخيلة الشعبية الثرية، وهذا شأن المكان الذي تتراكم فيه طبقات التاريخ، فالأسطورة بقيت في الضمير الجمعي، وعبرت عن نفسها في مفردات التراث العمراني المصري الثري، الذي لا يستطيع تفسير الكثير من

ظاهراته الحاضرة إلا من خلال دراسة عملية التطور التي مر بها ورؤية الناس له إذ هو المسرح الكبير الذي تجلت فوقه خصائصهم وخصالهم بشكل غير عادي فهو يكشف عن الناس ــ في العصور الإسلامية ــ في أفضل أحوالهم وأسوئها في آن واحد.

كان أول مفردة في منظومة التراث العمراني المصري هو السور إذ كان معلماً قديماً قَدَم مدن هذا الجزء من العالم، وما برح الرحالة والمؤرخون من الإشارة إلى وجود سور يحيط بمصر من العريش إلى أسوان. ولتتبلور لدينا الدلالة الحضارية للسور بما يعنيه من أمن وأمان من ناحية كما أنه في الوقت نفسه يعكس دلائل ضعف وخوف من الجماعات الخارجية التي تنظر بعين الحسد، وتتحين أي فرصة لضعف الدولة للانقضاض عليها، إضافة لشعور أهلها بأنهم لم يعودوا قادرين علي إيقاف الهجوم الذي يهدد بلادهم ، وهذا ما نلمسه في طيات الأسطورة التي روج لها المؤرخون في كتاباتهم في سياق حديثهم عن ما يسمي "بحائط العجوز" في قولهم:" من المباني العجيبة بمصر أيضا، حائط العجوز، وأسمها دلوكا، ملكت مصر، وهذا الحائط من العريش إلي أسوان، شامل بكور مصر من الجانب الشرقي، تزعم الضبط أن سبب بنائها له ؛ خوفها علي مصر وأهلها بعد غرق فرعون وقومه، وأن تطمع فيها الملوك فبنته لذلك"[١]. وجعلت فيه محارس ومسالح علي كل ثلاثة أميال محرس[٢] ومسلحة، وفيما بين ذلك محارس صغار علي كل ميل، وجعلت في كل محرس رجالاً، وأجرت عليهم الأرزاق، وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس، فإذا أتاهم أحد يخافونه ضرب بعضهم إلي بعض بأجراس، فأتاهم الخبر من كل وجه وكان في ساعة واحدة، فنظروا في ذلك، فمنعت مصر مَنْ أرادها، وفرغت من بنائة في ستة أشهر، وهو الجدار الذي يقال له جدار العجوز، وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة"[٣].

الموروث الشعبي الدائر حول سور الملكة دلوكة يكشف عن حقيقة تاريخية في غاية الأهمية، وهي أن الحدود الشرقية كانت وما زالت مصدر الخطر الدائم عبر

التاريخ، ومن هنا كان اهتمام مصر الاستراتيجي الأول متعلقا بحدودها الشرقية علي مر العصور وقد تعين علي حكام مصر الفرعونية ابتداء من عصر بداية الأسرات (منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد) أن يتيقظوا للحدود الصحراوية الشرقية، وبدأت سياسة السلام المسلح في عهد امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة (١٩٦١-١٧٧٨ ق. م) بإقامة المشاريع الدفاعية التي امتدت علي الحدود الشرقية والشمالية الشرقية وسميت في مجملها " أسوار الوالي"(٤). فهذه الروايات أيضا تحمل ظلا تاريخا يشير إلي ما أثبتته أحداث التاريخ أن حدود مصر الشرقية الطبيعية تبدأ من خارجها عند فلسطين(٥).

ولعلنا نتساءل من هي الملكة دلوكة التي تردد اسمها في مدونات المؤرخين أكثر من مرة؟. فليست هي حتشبسوت وليست هي أيضا كليوباترا، وليس لنا إلا أن نفترض أن الضمير الشعبي المصري قد أخرج اسم هذه الملكة، ليلحق بها من الأعمال ما يعجز عنه الرجال،استمراراً للحس المصري بتفوق المرأة في أعمال السحر ومكانتها في مجتمع الحكم والسلطة. كما أن المرأة العجوز قد اشتهرت في الأدب الشعبي بأنها رمز للدهاء والمكيدة، فقد عزا الراوي الشعبي حماية مصر – ولو جزئياً – إلي مكائد ودهاء المرأة العجوز، وصور هذه العجوز كثيرة متعددة في الأدب الشعبي كما هي كذلك في ألف ليلة وليلة(٦).

أما الجامع فقد كان أحد أعمدة مكونات المدن المصرية بوجه عام، ولكنه لم يعد جامعاً وحيداً تميزت به المدينة، وإنما زاد عدد الجوامع مع اتساع العمران في مصر الإسلامية، وزيادة عدد المسلمين، ومعهم زادت الأساطير والحكايات الخرافية عن المباني العظمي والجوامع العريقة التي شيَّدها حكامُ مصر، وفي مقدمتها جامع عمرو بن العاص، الذي اكتسب شهرة واسعة، وكان سلاطين مصر وملوكها يفضلون صلاة الجمعة اليتيمة به في رمضان، وكان المشايخ والقساوسة والأحبار يصلون فيه صلاة

الاستسقاء ليفيض النيل، حاملين القرآن والإنجيل والتوراة، وكان القاضي بجامع عمرو يسمح للقبط واليهود بدخول الجامع لعرض قضاياهم، لأن محاكمهم الخاصة هم لم تنصفهم، ويعد حُكمة نهائيا وملزماً لجميع الأطراف.

جامعٌ له تلك المكانة والتبجيل لدي جميع فئات المجتمع المصري، كان بالضرورة أن يضفي عليه الوجدان الشعبي أخباراً، وحكايات تكرس تلك المكانة الدينية، وهنا تنبعث الأسطورة القائلة:".. في جامع عمرو بن العاص موضع جد عجيب، جدير بالمشاهدة، وذلك أنه يوجد أمام المدخل القبلي عمودان من الرخام، منصوبان جنبا إلي جنب، ويزعم الناس أن من كان نجسا، أو عاصيا لا يستطيع المرور بينهما، وإن كان طاهراً أو بريئاً مر. فمن الناس من هو بدين ضخم، ويمر كالبرق، ومنهم من هو ضعيف نحيل، ولا يقدر علي المرور فيخل، ويحكي أن شاطراً (لص) ممتازاً من شطار أحد الأمراء دخل بينهما بقصد المرور فعجز عنه، فأجتمع الحاضرون، وأمسكوه من يديه بصخب، وحلبه وأرجعوه القهقري وما أن خرج من المسجد حتى أسلم روحه لسبب مجهول، أهو الخجل أم أمر آخر، وغُسَّل الرجل في غمضة عين، وحضر علي جنازته ألوف من الناس. إنها لحكمه عجيبة فقد دفن فيه سبعة ألاف من الصحابة الكرام"[٧] ويبدو أن اعتقاد العوام في أعمدة مسجد (عمرو بن العاص) استمر ردحا من الزمن فيذكر بعض الباحثين المحدثين أنه قد اعتقد عوام المصريين في عمودين في جامع عمرو بن العاص الفسطاط، وان من كان صالحا وصادقا أن يمر بينهما حتى ولو كان سميناً أما من كان فاسقا وكاذبا فلا يستطيع ذلك حتي لو كان نحيفا وقد اضطرت الحكومة إلي تسويرهما بعد أن حدثت منهما مضار عديدة فلا بد أن كثيراً قد انحصروا بين العمودين في محاولتهم لإثبات صلاحهم وصدقهم[٨].

أما الجامع الأزهر[٩]. فقد حيكت حوله الخرافات والأخبار. فيقول المؤرخون:" يُقال أن بهذا الجامع طلسما، فلا يسكنه عصفور ولا يفرخ به، وكذا سائر الطيور من

الحمام واليمام وغيره، وهو صورة ثلاثة طيور منقوشة كل صورة علي رأس عمود، فمنهما صورتان في مقدم الجامع بالرواق الخامس، منها صورة في الجهة الغربية في العمود، وصورة في أحد العمودين اللذين علي يسار من استقبل سدة المؤذنين،والصورة الأخرى في الصحن في الأعمدة القبلية مما يلي الشرقية"(١٠) ويعلق أحد المؤرخين بقوله:" الطريف وجود من يصدق هذا وينقله علي الرغم من رؤيته للعصافير تنتقل في أنحائه، وهذا القول وإن كان من قبيل الخرافة، إلا أنه أمكنني حل هذا الطلسم الذي زعموه، إذا هو نسر وعصفور ناشر جناحيه علي بعض التيجان في الرواق الكبير، وفي الصحن وقد أمكن إحصاء الثلاثة التي ذكرت، وثلاثة أخرى غيرها، وعدا هذا تم العثور علي تيجان بها صلبان كسرت بعض أضلاعها، ولما كان الكثير من عمد المساجد وتيجانها منقولة من البِّيع والكنائس المتخربة، وهما العنصر الوحيد الدخيل فيها فيكون العصفور والنسر من الرموز الدينية عند المسحيين ومنها الكثير في جامع عمرو وغيره من المساجد"(١١).

وألهبت مدرسة وجامع السلطان حسن[١٢] المخيلة الشعبية بشموخ وروعة البناء الذي يدل على العظمة والجبروت وعلى القدرة الفنية، كما يوضح كثرة النفقات فشاع بين الناس أن: "السلطان لما حفر أساس هذه المدرسة، وجد في الأرض مالاً مدفونا فصرفه على عمارة هذه المدرسة فعمرت،.. وقيل لما حفروا أساس هذه المدرسة وجدوا هناك مرساة مركب[١٣] قيل كان البحر هناك.."[١٤]، ولكن قيل مثل هذا عن ابن طولون أيضا. كقول القلقشندي:"وعلى نظير العشارى الذي على رأسها عُمِل العشارى الذي على رأس قبة الإمام الشافعي ﷺ"[١٥].


مسجد السلطان حسن



ومسجد ابن طولون[١٦] يمتد في قلب حي الخليفة (نسبة إلى الخليفة العباسي الذي انتقل مقره إلى القاهرة زمن الظاهر بيبرس وكانت إقامته قرب القلعة مقر

الحكم)،وكان قد "شكا أهل مصر إلى أحمد ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بجنده وسودانه. فأمر بابتناء المسجد الجامع بجبل يشكر "[١٧] وهذا المسجد هو كل ما تبقى من القطائع عاصمة الدولة الطولونية، وقد اشتهر بتصميمه الفريد المحاط بالبيوت العتيقة، القديمة التي تلاصق جدرانه، وهنا تنبعث في الذهنية الشعبية الأسطورة، إذ يُروى أن أحمد بن طولون رأى حلماً أفاق منه مترعجا، إذ رأى صاعقة من السماء تنزل فتبيد كل ما يحيط بمسجده، أما المسجد فلم يتأثر بشئ، وقدم له المفسرون تحليلاً مطمئناً لحلمه، فكل ما يحيطه سوف يبيد عدا المسجد الذي سيبقى، ويؤكد المقريزي على صحة الرؤيا بقوله: "وقد صح تعبير هذه الرؤيا، فإن جميع ما حول الجامع خرب دهراً طويلا كما تقدم في موضعه من هذا الكتاب وبقي الجامع عامراً". [١٨]

ولأن المسجد بقى عرضه للنقد وإعراض الناس عنه فأوجدت الأسطورة تعويضاً عن مواطن الضعف التي رآها العامة في عمارة المسجد وتعرج هم إلى الأبواب الروحانية، فتقدم الروَّاية الشعبية تبريراً لشكل وعمارة المسجد ومحرابه فتحكي أن: " أحمد بن طولون لما سمع بما يقوله الناس في المسجد من عيوب: "جمع الناس وقال: أما المحراب فإني رأيت رسول الله ﷺ وقد خطه لي، فأصبحت فرأيت النمل قد طافت بالمكان الذي خطه لي، وأما العمد فإني بنيت هذا الجامع من مال حلال وهو الكتر".[١٩] ويضيف ابن إياس أنه: " وضع أساس هذا الجامع على مكان يسمى جبل يشكر، وكان هذا الجبل يشرف على بحر النيل.. وقيل أن جبل يشكر هذا مشهور بإجابة الدعاء؛ وسبب ذلك أن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بعض الأوقات. وهو مكان مبارك قيل أن النمل دار على محراب هذا الجامع لما وضعوا أساسه فبنوا على ذلك الخط الذي وضعه النمل المحراب، ويسمى محراب النمل إلى الآن ورؤى النبي ﷺ في المنام مراراً يصلي في ذلك المحراب ".[٢٠]

ونسجت المخيَّلة الشعبية حول مئذنة جامع أحمد بن طولون حكايات في بعضها عناصر حقيقية من التاريخ فالمئذنة الملوَّية المصممة على طراز ملوية سامراء، يُقال: أن ابن طولون كان رجلاً صارماً جاداً، لا يعرف المزاح، وكان لا يعبس بشئ قط: "فاتفق أنه يوماً أخذ درجاً أبيض بيده وأخرجه ومده كالحلزون واستيقظ لنفسه فوجد غلمانه قد فطنوا به وأخذ عليه لأنه لم تكن تلك عادته، فطلب المعمار على الجامع وقال: نبني المنارة هكذا، فبنيت على تلك الصورة".(٢١)

إنها الرواية الشعبية التي تبرر شكل المئذنة الفريدة بين مآذن القاهرة، ولكن التبرير الأقرب إلى العقل، هو نشأة أحمد بن طولون في مدينة سامراء، وانطباع شكل المئذنة الملوية الشهيرة في عقله حتى أخرج تصوره إلى الواقع، فضلاً عن استقدامه عدداً كبيراً من الصناع والبنائين من سامراء للعمل في بناء مدينة القطائع ومسجدها الجامع، فكان من الطبيعي نقلهم العديد من التأثير والعناصر المعمارية لمصر.

إذن، كانت الأحلام وما فيها من رؤى مصدر غامض تلعب دورا هاما في الموروث الشعبي المرتبط بعمران مصر، إذ كان يتقدم لينبه إلى الأحداث، ويؤثر إلى مكان الخطر أو مكان الانتصار، أو هو كذلك سبب لبناء وتشييد المساجد والقباب وإضفاء صبغة الكرامات عليها حيث تعتمد في ذلك على الرؤيا أو الأمر القدري الذي يرد أثناء النوم وهو ما أكدته الروايات الشعبية التي دارت حول محراب وجامع أحمد بن طولون، كما كان لظهور الخضر عليه السلام في القصص الشعبي المتعلق بآثار مصر. يحمل من الدلالات والرموز التي تكرس لفكرة خلود تلك الآثار والتي تكشف عن الرؤية الأولية للإنسان العربي نحو الخلود،وربما كان في تخليد الجامع وسيلة كشف روحي يعينه على تحقيق أدوات وجوده الإنساني ولا سيما وأن الجامع قد بُني بمال الفراعنة أصحاب الآثار الخالدة.

وأورد (الإسحاقي المنوفي) في تاريخه حكايات عديدة مصدرها الخيال الشعبي الذي كان متداولا بين الناس عن آثار مصر الإسلامية والتي ما تزال قائمة حتى الآن في القاهرة القديمة يقول عن مسجد الفاكهاني[٢٢]:-

"... وفي أيامه ـــ أيام الخليفة الفاطمي الظافر بأعداء الله ـــ عُمِّر الجامع المعروف بالفكهاني داخل باب زويلة، الموجود الآن، وهو عامر مقام الشعائر الإسلامية، قيل أن السبب في بنائه؛ أن محله كان مجزرة يذبح فيها الأغنام وبوسط المجزرة حفرة يجتمع فيها ماء من غسالة الذبايح، وكان لأمير من أمراء الظافر، بيت مجاور للمجزرة المذكورة، وبه محل مشرف على تلك المجزرة، فجاء جزار بخروفين، فذبح الأول وشرع يذبح الثاني، فطرق باب المجزرة، فوضع الجزار سكينه عند الخروف الذي لم يذبح، وتوجه للباب ينظر طارقه، فأخذ الخروف السكين بفمه وألقاها في بركة الماء، فاتفق أن رب البيت المذكور كان جالساً بالمكان المشرف على المجزرة، وهو ينظر أخذ الخروف السكين وألقاها في الماء، فلما جاء الجزار لم يجد سكينه فأراد أن يذبح الخروف بسكين كان معه، فقال له الأمير: أمسك يدك ولا تذبح الخروف، فتوجه الأمير إلى الظافر وأخبره بذلك، فتعجب ثم استأذنه في عمارة المجزرة جامعاً فأذن له فعمره"[٢٣].

ولما كان المنبر من أهم ما يميز المسجد الجامع في المدينة الإسلامية فقد دار حول بعض المنابر العديد من الحكايات والخرافات مثل تلك التي يرويها لنا الرحالة ابن بطوطة بقوله: "وقد أخبرني أهل هذه المدينة (منفلوط)[٢٤] أن الملك الناصر (رحمه الله)، أمر بعمل منبر عظيم، محكم الصنعة بديع الإنشاء، برسم المسجد الحرام، زاده الله شرفاً وتعظيماً. فلما تم عمله، أمر أن يصعد به في النيل ليجاز إلى بحر جدة، ثم إلى مكة شرفها الله، فلما وصل المركب الذي احتمله إلى منفلوط، وحاذى مسجدها الجامع وقف، وامتنع من الجري مع مساعدة الريح. فعجب الناس من شأنه أشد

العجب، وأقاموا أياماً لا ينهض بهم المركب. فكتبوا بخبره إلى الملك الناصر (رحمه الله)، فأمر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط، ففعل ذلك[٢٥]." ولكن التفسير الأقرب للعقل هو أن أهل منفلوط قد رغبوا في المنبر فأشاعوا تلك الرواية ليستقر المنبر في مسجد مدينتهم بفضل سلطان الأسطورة وسحرها.

أما المدارس فقد ارتبط بعضها بالجوامع والمساجد وقام البعض الآخر منفرداً وقد توافر للمدارس في مصر الإسلامية عدة عوامل داخلية وخارجية ساعدت مجتمعة على ازدهار المدارس كنمط عمراني فريد له دلالته المتعددة، جعلت من مصر: "منبع العلم" و "عز الإسلام"[٢٦]، وقد كان لبعض المدارس المصرية نصيباً كبيراً في المخيلة الشعبية إذ تقول إحدى الروايات أن: " بالمحلة التي بها مدرسة الشافعي في عتبته حجر كبير إذا احتبس بول الدابة تمشي على ذلك الحجر مرارا، فينفتح بولها"[٢٧]، وربما كان مرجع تلك الخرافة؛ أن هناك العديد من الخرافات الغريبة قد نشأت حول موضوع عتبات الأبواب في كل العصور القديمة والحديثة، والتي نلمح لها أثرا في مدونات التوراة على لسان (يهوه): "وفي ذلك اليوم أعاقب كل الذين يقفزون فوق العتبة، الذين يملأون بيت سيدهم ظلماً وغشاء"[سفر صفينا، الإصحاح الأول، آية٩]، ويبدو من هذا التصريح، أن من يتخطى العتبة واثباً يرتكب إثما يستحق عليه غضب الربْ، شأنه شأن إثم الخداع والغش[٢٨]. ومن المحتمل أن تلك المعارضة الشديدة للمس الأعتاب ــ فيما يبدو ــ أنها ترتكز على اعتقاد ديني أو خرافي في أن هناك خطراً يستكن في الأعتاب، وربما كان هذا الاعتقاد في حد ذاته كافياً لتفسير الإحجام عن وطء العتبة بالأقدام أو الجلوس فوقها[٢٩]، وربما نلمح أثر ذلك في الأغاني الشعبية المصرية التي تؤديها الأمهات للطفل عند محاولته الأولى ممارسة الأنشطة الإنسانية الهامة لأول مرة في حياته كالمشي والكلام فتقول: "تاتا خَطّي العتبة**تاتا حابه حابه". وتمسك الأم بيدي طفلها تحاول أن تجعله واقفاً ليخطو

خطواته الأولى ممسكاً بها ومعتمداً عليها كي يتخطى العتبة دون أن يطأ أو [يدوس] عليها[٣٠].

وتعد الحمامات مفردة هامة في منظومة التراث العمراني المصري الثري ولبنة في صرحه الشامخ، كما أنها كانت دلالة هامة على حياة التحضر والرقي والعمران المصري التي نعمت بها مصر، والتي عدها الكثيرون من أكثر بلدان العالم الإسلامي اهتماماً بإنشاء الحمامات، وقد ألمح (ابن دقماق) إلى أن أول من أنشأ الحمامات في مصر بعد الفتح الإسلامي هو (عمرو بن العاص) وقد أنشأ بالفسطاط حماماً أطلق عليه الناس بعفويتهم وبروح المداعبة اسم "حمام الفار" وذلك لصغر مساحته، قياساً بما كانت عليه الحمامات في مصر في العصر الروماني[٣١]. وفي سياق تلمسنا للجذور الأسطورية لبناء الآثار والعمائر الإسلامية نجد شغف الناس بتتبع أصول الأشياء وأسباب مسمياتها، والتأصيل لها. فنجد رواية شعبية دارت حول (حمام الكلب بالقاهرة) تقول: "لما شرعوا في حفر أساسه للبناء في الزمن القديم، ظهر تمثال نحاسي لكلبين متعاركين، تبين بعد ذلك أنه طلسم الكلب، فغير صاحب الخيرات أساس الحمام حفظاً للتمثال سليما، ولوجوده سليما ليس بالقاهرة مرض الكلب، ولا يصيب أحد ضرر منه، وهذا هو سبب تسمية الحمام بهذا الاسم"[٣٢].

هذه القصة الخيالية ربما كانت تحمل ظلا من الحقيقة مثل العثور على دفائن وكنوز المصريين القدماء بالمصادفة أثناء الحفر، والذاكرة الشعبية لم تنس بعد الحكايات الكثيرة عن القدور التي يعثر عليها فجاءة وفيها العديد من الذهب والفضة.

واعتبرت زيادة النيل في كل العصور بمثابة "مؤشر" الثروة القومية، ومن ثم كان طبيعيا أن يهتم المصريون منذ فجر تاريخهم بمقاييس النيل[٣٣] التي بنيت على النهر من أسوان حتى القاهرة وبالنسبة للمقاييس التي وجدت قبل الإسلام فلا نجد في

المصادر العربية سوى صورة مضطربة عنها يغلب عليها الجو الأسطوري وتشوبها الخرافات[٣٤].

تقول الروايات العربية أن أول من قاس النيل بمصر هو خصليم السابع (من أبطال الأساطير العربية التي حيكت حول تاريخ مصر قبل الإسلام). ويقال أنه: "صنع بركة لطبقة وركب عليها صورتي عقاب من نحاس: ذكر وأنثى، يجتمع عندها كهنتهم وعلماؤهم في يوم مخصوص من السنة، ويتكلمون بكلام فيصفر أحد العقابيين، فإن صفر الذكر استبشروا بزيارة النيل وأن صفرت الأنثى استشعروا عدم زيادته فهيئوا ما يحتاجون إليه من الطعام لتلك السنة"[٣٥]. وينسب المؤرخون مقياس منف إلى يوسف عليه السلام، كذلك ينسبون إلى دلوكة العجوز بناء مقياسين بأنصنا و إخميم من بلاد الصعيد[٣٦].

ولكننا نقفز إلى سماعيات المسعودي والتي تشابهت مع الكثير من المؤرخين فيقول: "وأما المقاييس الموضوعة بمصر لمعرفة زيادة النيل ونقصانه، فإني سمعت جماعة من أهل الخبرة، يخبرون أن يوسف النبي (عليه السلام) حين بنى الأهرام، اتخذ مقياساً لمعرفة زيادة النيل ونقصانه، وأن ذلك كان بمنف... وأن دلوكة الملكة العجوز ووضعت مقياساً آخر ببلاد إخميم[من محافظة سوهاج بالصعيد]" [٣٧]،"كما وضعت العجوز دلوكة صاحبة حائط العجوز مقياساً بأنصنا وهو صغير الذرع"[٣٨] ولكن الأسعد بن مماتي ينسب هذين المقياسين إلى ملوك العجم دون تحديد الأسماء، ويضيف إليهما مقياساً بناه القبط بقصر الشمع[٣٩].



منظر عام لمقياس النيل بجزيرة الروضة



مقياس النيل بالروضة

القناطر الخيريه

ما يهمنا في الرواية السابقة: أن الفكرة القائلة بأن يوسف الصديق عليه السلام هو باني الأهرام تمر كأنها حقيقة لا تحتاج إلى نقاش، كما أن حديثة عن الملكة الفرعونية دلوكة (من ملوك مصر بعد الطوفان وفقاً لروايات الأساطير العربية) يمر أيضنا بلا نقاش، وإن كنا لا ندري من أين جاء بهذا الاسم الذي يكثر في الكتابات التاريخية، إلا أنه لا شك تأثر بما سمعه ممن عايشهم في مصر عن ما توصلت إليه معلوماتهم عن تاريخها القديم، وهو يأخذ كلامهم أخذ المسلّم غير المدقق وغير المتشكك؛ إذ يبدو أنه كان يكفيه أنه كلام صادر عن قوم يزعمون المعرفة (جماعة من أهل الخبرة)، وهم بعد من أهل البلاد، ومن هنا دخلت الكتابات التاريخية الكثير من الأساطير ومتبقياتها من الحكايات الشعبية المتعلقة بعادات مصر، وموروثها القديم مما بقي في ذاكرة

العامة. والتي نجد وقع حوافرها علي العقول ماثلة في إشارات عند الرحالة جون أنتيس في القرن الثامن عشر الميلادي بقوله:"والتماسيح شائعة جداً في مصر.. لكنها قلما تصل شمالاً أبعد من القاهرة ولا تتعداها، ويدعى الأهالي أنه بفضل مقياس النيل لا يمكن لها أن تتوغل شمالاً لأنه مزود بتعويذة تمنع تسللها أبعد من هذا الحد !!"(٤٠)

وفي سماعيات (أولياچلبي)، عن مقياس الروضة نجده يسلك مسلكا مختلفا فيقول: ".. في أفواه الناس أقوال كثيرة عن سبب تسمية (أم القياس)[يقصد مقياس الروضة]، ومنها أن ملكاً كانت له ابنة حسناء تدعى "مقياس" فبلغ الملك أن تمساحا خطفها، وهي تستحم في النيل فجعل يصيح، ويولول، ومن حكمة الله أنه كان معه في ذلك الوقت الشيخ أبو بكر البطريني من كبار أولياء الله، فدعا للفتاة، فما لبث أن أعادها التمساح بأمر الله إلى ذلك المكان سالمة معافاة(٤١)، فابتهج الملك، وبنى ذلك القصر في ذلك الموضع وسماه " أم القياس" ذكرى لنجاة ابنته، ثم أمر الشيخ البطريني بصنع تمثال تمساح من الرخام، وعقد عليه وقفا أعظم، ودفنه تحت حوض أم القياس من النيل، وإن تجاوزه التمساح، فلا يلبث أن ينقلب على ظهره، ويرتمي إلى الساحل فيقتل، فلذا ليس في القاهرة تمساح قط..."(٤٢).

أما القلاع المطلسمة والقصور المرصودة، فقد كانت من العناصر التي امتلأت بها الأساطير والحكايات العربية التي رواها الناس، وحفظها لنا المؤرخون والرحالة فيما كتبوا عن مصر، وعجائبها الخلابة. فقلعة الجبل كان الغرض من إنشائها هو تحصين القاهرة من احتمال تعرضها للهجوم، ولحماية الحاكم في حالة قيام ثورات ضده أو العصيان عليه. وقد استخدم في بناء القلعة أحجار من منطقة أهرام الجيزة، وسخر في نقلها وفي عملية البناء مئات الأسرى من الصليبيين، وهدم ما حولها من المساجد والقبور(٤٣). فلبست أبهى حلة تليق: "بدار الملك الشريف،التي بها تخت

المملكة المعروفة الآن بقلعة الجبل، ليس لها نظير في الاتساع، والزخرفة، والأبهة العلو، تشتمل على سور وخندق وأبراج وعدة أبواب من حديد وهي حصينة جداً"(٤٤).

وإن كانت أحجار الأهرام أحد أسباب حصانة القلعة، فلقد تحصنت أيضاً بقوى أخرى مصدرها الخيال الشعبي الخصب الذي رأى أن القلعة محفوظة بطلسمات سحرية غامضة إذ أن: " بالقلعة عقارب ولكنها لا تلسع الإنسان، وإن لسعته فليس للسعتها تأثير، ويزول الوجع بعد بضع ساعات؛ لأن هناك طلسما، وذلك لأن الديوان العتيق للسلطان قلاوون مبني على أربعة وأربعين عمودا، لا نظير لها في الربع المسكون إلا في أسوان، وطلسم العقرب؛ صورة عقرب من النحاس الأصفر، معلق من ذنبها على حلقه من الحديد فوق العمود الأيمن في العقد العظيم الذي يجانب منزل التتر، وهي لا تزال واضحة"(٤٥). لم يكتف الخيال الشعبي في تحصينه للقلعة بطلسم العقرب فحسب، ولكنه حصنها بطلسمات أخرى؛:" كطلسم للثعابين، ولأم أربع وأربعين، وآخر للحمى والقولنج، وثالث للطاعون والكلاب المسعورة.. فالحمد لله ليست في هذه القلعة من حمى الربع، والحمى المحرقة، وإذا قدم مريض بالحمى من سائر البلاد، فأقام بهذه القلعة ثلاثة أيام، شفى منها بأمر الله؛ وذلك لأن العمود الذي بجانب باب وفيق محمد أغا الحلواني مكتوب عليه ثلاثة أسطر من الوقف هو طلسم الحمى!!.."(٤٦).

أما القصور فقد حفلت بها المدن المصرية حيث كانت من أبرز مكونات العاصمة المصرية منذ نعومة أظافرها، ولم تقتصر القصور والمساكن البديعة على القاهرة وحدها، بل شملت مدناً أخرى، كالإسكندرية التي عرفت بجمال واتساع مبانيها، وكما استأثر حكام مصر بتاريخ هذا البلد الأمين فإن قصورهم أيضاً، جذبت عيون وانتباه الرحالة والمؤرخين والأدباء، وفتحت لنا كتاباتهم وأقلامهم أبواب ودهاليز وقاعات تلك القصور الشاهقة. لنرى فيها حدائق وعمد وزخارف وتماثيل

وفرش وبسط، تعكس لنا ثراءها المعماري والزخرفي لدرجة أوحت للخيال الشعبي أن تلك القصور قد تحصنت بعدد لا بأس به من الطلاسم، والتي منحتها هذا القدر الكبير من الأبهة، والنظافة والرقي، جعلت من القصور وعاء الحياة الاجتماعية للطبقات الارستقراطية في مصر بما يتبع فيها من تقاليد.

ومن تلك القصور التي جذبت انتباه أقلام الرحالة والمؤرخين: قصر العزيز بالله الفاطمي، والذي بناه سنة (٣٨٤ هـ / ٩٩٤م) وقيل أن القرآن مكتوب على جدرانه، من خواصه أن لا يدخل النمل إليه لطلسم به، ولما ذكر هذا لصلاح الدين الأيوبي قال هذا يصلح أن يكون بيمارستان(٤٧) لعلاج المرض في هذا المكان النظيف(٤٨). وقد وصف ابن جبير هذا القصر بعد أن صار بيمارستاناً بقوله: "وما شاهدناه أيضا من مفاخر هذا السلطان ـــ صلاح الدين ـــ المارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً..."(٤٩).

وفي تلمسنا للجذور الأسطورية فيما يتعلق بالطلاسم الحافظة لعمران مصر فسنرى شواهد ودلائل تشير إلى استمرار وقع حوافرها على العقول كمارد جبار نتلمس خطاها في بعض أسوارنا وأبوابنا وقصورنا التاريخية حتى في العهد الإسلامي، حين نجد منقوشا عليه ذلك الرصد السحري لإرهاب العدو، ومنع دخوله، وما نزال إلى اليوم نجد بعض الناس يتحصنون ضد قوى الشر أو المرض بالحجابات والخرزة الزرقاء المثقوبة.

أما"عجائب مصر" فقد كان الاهتمام بـــها قاسماً مشتركاً بين كتب الجغرافيين والمؤرخين والأدباء في العصور الإسلامية، حيث حرص الرحالة والمؤرخون العرب والمسلمون على إلزام أنفسهم بما توحي إليه مشاعرهم وأحلامهم بالتنقيب عن "العجائب" في أرض الفراعنة والرؤى والماضي العريق، حتى إذا ما رووا ظمأ نفوسهم

وخلوا إلى أقلامهم جرت انطباعاتهم خببا على أفراس الرواية والوصف والملاحظة فتزيد الحكايات الشعبية ثراء.

وفي مقدمة عجائب مصر؛ الجبال: التي طالما كان لها سحرها، ورهبتها في النفوس على مر العصور، بما حظيت به من شهرة تاريخية ودينية أضفى عليها سحرا من الجلال، جعلها تتسم ببعد أسطوري ولتظهر لنا في كتابات المؤرخين المسلين، مزجاً بين القياس على الأماكن المحسوسة المألوفة، وبين التصوير الذي اصطنعه الخيال الأسطوري، ومن هنا تأتي "عجائبيتها وغرابتها". مثل: جبل الطاهرة، وهو: "بأرض مصر وبهذا الجبل كنيسة، فيها حوض يجري فيه من الجبل ماء عذب، يجتمع في ذلك الحوض، فإذا امتلأ من جميع جوانبه ترده الناس، فإذا ورد الحوض جُنبٌ أو امرأة حائض، وقف الماء وانقطع جريانه، ولا يجري حتى يترح جميع ما فيه من الماء، ويغسل الحوض غسلاً بالغاً فيجري"[٥٠]. وجبل آخر نسجت حوله الأساطير وهو: "جبل طور سيناء"وهذا الجبل إذا كسرت حجارته يخرج من وسطها صورة شجرة العوسج على الدوام، وتعظم اليهود شجرة العوسج"[٥١].

أما جبل الطير فهو يسمى: "جبل بوقير وفيه طلسم الطير"[٥٢]، وقد سُمي بذلك لأن صنفاً من الطير الأبيض يقال له البوقير يأتي: "فيعكف على هذا الجبل، وفيه كوة يأتي كل واحد من هذه الطيور ويدخل رأسه، ثم يخرجه ويلقي نفسه في النيل فيعوم"[٥٣]. "أو يقبض الثقب على طير منها فيبقى معلقا"[٥٤]. ويتحدث السيوطي في "كوكبه" بإسناد مبهم عن "جبال بفسطاط مصر" فيقول عنها: "معمول بها طلسم وكان التمساح لا يستطيع المرور حوله بل كان إذا بلغ حدوده انقلب واستلقى على ظهره، فتعبث به الصبيان إلى أن يجاوز المدينة، ثم يعود فيستوي، ويرد إلى طباعه ثم أن هذا الطلسم كسر وبطل عمله"[٥٥].

وأسهب المؤرخون وكتاب الفضائل الجغرافيون في وصف عجائب جبال مصر وما شاع عنها من حكايات خرافية ظلت تقوم بدورها في المعتقد الشعبي مثل جبل بمصر يشرف على النيل وهو: "جبل هامد يراه أهل تلك الجهة، من انتضى سيفه ثم أولجه فيه وقبض على مقبضه بيده جميعا، اضطرب السيف في يده، فارتعد ولا يقدر على إمساكه، ولو كان أشد الناس، وإذا أحد بحجارة هذا الجبل سكين أو سيف لا يؤثر فيه حديداً أبداً، وجذب الإبر والمسال أشد جذبا من المغناطيس، ولا يبطل الثوم عمله، كما يبطل المغناطيس، وحجر الجبل نفسه لايجذب الحديد، فإن حد عليه الحديد جذب ذلك الحديد وهذا من العجائب..."[٥٦].

جبالٌ أخرى تحدث عنها الرحالة والمؤرخون وعن خصائصها مثل أن: "بمصر جبل يُكتب بحجارته كما يكتب بالمداد، وجبل يؤخذ منه الحجر فيترك في الزيت، فيقد كما يقد السراج.."[٥٧]، ومن عجائب مصر أيضا: الجبال التي هي بصعيدها على نيلها وهي ثلاثة أجبل: منها جبل الكهف، ويقال (الكف)، ومنها الطيلمون، ومنها جبل زماجير الساحرة، يقال أنه فيه حلقة من الجبل ظاهرة، مشرقة على النيل، لا يصل إليها أحد، يلوح فيها خط مخلوق باسمك اللهم"[٥٨]. كما أوجد الخيال الشعبي جبل يسمى "جبل الهرة" قبل الطوفان في مدينة أمسوس الأسطورية: "حيث لم يكن هناك شئ ظاهر سوى جبل الهرة الذي كان قد أقيم بإشارة من النبي إدريس عليه السلام تجاه النيل ليأووا إليه"[٥٩].

ولقد استثمر الوجدان الشعبي ملكة الابتكار، وأطلق لخياله العنان كي يبرز مدى التبجيل والتقديس الذي أحاط بجبل المقطم، وقد كان الدافع الروحي هو المحرك لخيال الضمير الشعبي الابتكاري فيما يخص المقطم إذ إن في سفحه عدداً لا بأس به من قبور الأولياء والصالحين والصحابة والتابعين، أضف لذلك شيوع العديد من الأخبار عن معجزات وكرامات تنسب إلى عدد من المدفونين بسفحه[٦٠]، مما سمح

للخيال أن يشكل تاريخ هذا الجبل كما يشاء له فيغير الحقائق، ويقيم بناءه الفني كما يحلو له، مبالغاً في محاولته الوصول إلى قلب المتلقي والتأثير فيه. خاصة وأن المقطم لم يكن مجرد جبل يلفه الصمت والمهابة، وإنما كان مسرحا للنشاط اليومي للناس بفضل قرافته التي كانت مكاناً للهو والترويح اعتاد الناس الخروج إليه لا سيما في الليالي المقمرة[٦١].

وفي أصله يقول (موفق الدين بن عثمان): "هذا الجبل معروف بالمقطم، مأخوذ من القطم وهو القطع، وهو أنه لما كان منقطع الشجر والنبات سمى بذلك مقطماً، وقيل: إن المقطم بن بيصر بن مصر بن حام بن نوح عليه السلام كان عبداً صالحا، فتعبد في هذا الجبل، فسمي باسمه، وقيل: لم يكن في ولد نوح عليه السلام من اسمه "مقطم" والله أعلم"[٦٢].

وقد احتاج البحث عن أصل تسمية جبل المقطم بهذا الاسم، لدى المقريزي إلى جهد شيق وشاق معاً، لجأ في بحثه إلى أسلوب النسابة الذي اعتاد عليه المؤرخون في نسبة كل شئ في مصر إلى جد أعلى متكأً على الفكر الأسطوري كمرجعية فكرية.

وتحت باب "ذكر جبل المقطم"[٦٣]. عرض المقريزي أخبار الجبل الممتلئة بالعديد من السمات الأسطورية الموغلة في القدم والتي ربما كانت متداولة بين الناس ثم خلق الرواة منها، ومن التاريخ ما جمع شتاتها، وشكل بناءها، فاختلط الواقع بالخيال، وما غمض أو نقص في تاريخ الجبل أكملوه بخيالهم، ومن هنا وصل الواقع إلينا يحمل مبالغات تصل إلى حد الإغراب والدهشة، مما يحق لنا أن نطلق عليه الأخبار الأسطورية، فيعرض المقريزي للحدود المكانية للمقطم بقوله: "أوله من الشرق من الصين،... ويمر على بلاد "الططر".. ويتصل بجبل الجودي موقف سفينة نوح عليه السلام، في الطوفان، ولا يزال هذا الجبل مستمراً من أعمال آمد.. حتى يمر بثغور حلب،

فيسمى هناك جبل للكام.. حتى ينتهي إلى بحر القلزم من جهة، ويتصل من الجهة الأخرى ويسمى المقطم، ثم يتشعب ويتصل أواخر شعبه بنهاية الغرب، ويمضي مغرباً إلى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر..."(٦٤).

فحدود جبل المقطم في الرواية تتسم ببعد أسطوري واضح جعل من هذه الأبعاد الجغرافية تتسم بـــ "اللامعقولية" وهي أحدى سمات الأسطورة، والتي امتدت آثارها على التأصيل للجبل عند المقريزي وغيره من المؤرخين فيقول بإسناد مبهم: "يقال: أنه عُرِفَ بمقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح ﷺ". وقال إبراهيم بن وصيف شاه: وذكر مجئ مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح ﷺ إلى أرض مصر، وكشف أصحاب أقليمون الكاهن عن كنوز مصر.. فجعل مصرايم أمرها إلى رجل من أهل بيته يقال له مقيطام الحكيم، فكان يعمل الكيمياء في الجبل الشرقي، فسمي به المقطم من أجل أن مقيطام الحكيم كان يعمل فيه الكيمياء، واختصر من اسمه، وبقي ما يدل عليه، فقيل له جبل المقطم، وقال القضاعي: ذكر أبو عبد الله اليمني أن هذا الجبل نسب إلى المقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح ﷺ، وكان عبداً صالحا، فانفرد بعبادة الله عز وجل فيه، فسمي الجبل باسمه، وليس هذا بصحيح، لأنه لا يعرف لمصر ولد اسمه المقطم "والذي ذكره العلماء: أن المقطم: مأخوذ من القطم؛ وهو القطع، فكأنه لما كان منقطع الشجر والنبات سمي مقطماً..." (٦٥). يعلق ابن الوردي أن جبل المقطم:"فيه كنوز عظيمة لمقطم الكاهن الذي نسب إليه هذا الجبل وللملوك مصر القديمة أيضاً فيه من الجواهر والذهب والفضة والأواني والآلات النفيسة والتماثيل الهائلة والتبر والأكسير وتراب الصنعة ما لايعلمه إلا الله تعالى"(٦٦).

ويبدو أن أسطورية جبل المقطم تأثرت بتلك المفاهيم التي سادت العالم حول أسطورية الجبال، وكذلك ربما تأثرت من معطيات عبادة العرب للأصنام التي كانوا يزعمون بشأنها:" أن الشياطين تدخل فيها وتخاطبهم منها وتخبرهم ببعض

المغيبات"[٦٧]. وإيمانهم بحلول هذه القوى الخفية في كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة، ولعل بعض الجبال كان لها النصيب الأوفر من ذلك، حتى غدت ذات أثر في حياة الإنسان، وحسبنا معرفة أن الجبال عدت من الأمكنة الأسطورية في ملحمة "جلجامش" كجبل "الأرز" بوصفه موطن الآلهة، وكان جلجامش وأنكيدو يقدمان له قربانا، طالبين أن يواتيهما الجبل بحلم مطمئن كما جاء في نص الملحمة :وأمام الإله شماس (أي الشمس) حفر بئراً..وصعد جلجامش إلى الجبل[٦٨] وقدم وجهته إلى البئر..وقال أيها الجبل أرسل حلماً[٦٩].

وحرص رواة أخبار جبل المقطم، على إثارة ملكه التخيل لدى المتلقي، واستمرارية عنصر التشويق لديهم في السرد، والوصف والحوار وتطور الأحداث، بأسماء رواة في نسق متسلسل لغرس الإيحاء بمصداقية ما يروى، إلباسه ثوب الحقيقة ــ على الرغم من اختلاقه، واتجاهه الأسطوري الواضح ــ فألصقوا بالأنبياء والصحابة أحاديث تحتاج إلى التيقن من صحتها، لتغير المخيلة الشعبية ما تراه من حقائق، وتقرأ تاريخ جبل المقطم كيفما تريد لا كما أراد الواقع ــ فتقول: "مثّل الله لآدم الدنيا شرقها وغربها وسهلها وجبلها أنهارها.. ورأى جبلاً من جبالها مكسوا نوراً لا يخلو من نظر الرب إليه بالرحمة، في سفحه أشجار مثمرة فروعها في الجنة، تسقى بماء الرحمة، فدعا آدم.. وقال: يأيُّها الجبلُ المرحوم سفحك جنة، وتربتك مسك، يدفن فيها غراس الجنة، أرض حافظة، مطيعة رحيمة، لا خلتك يا مصر بركة." [٧٠]. ونسب الرواة إلى عيسىﷺ قوله في إشارة لجبل المقطم، "هذه مقبرة أمة محمد ﷺ"[٧١]، وبالجبل "قبور الأنبياء كيوسف ويعقوب والأسباط"[٧٢].

وتحت باب "في فضل المقطم ومساجده" ينقل لنا ابن الزيات في "كواكبه" رواية استخدم الضمير الشعبي فيها الأسلوب القصصي، القائم على تطور الحدث، وتفاصيله، معتمداً على الحوار بين الشخصيات، مستوحياً بنيتها من القصص الديني

والإشارات القرآنية التي تناولت حادثة تكليم الله لموسى ﷺ بصفة إجمالية بهدف العبرة، لا المتعة الفنية فقط، إضافة إلى الغاية لاستخلاص الحكمة والموعظة لتقوية الإيمان وتعميقه في قلوب المسلمين، ولكن الرواة تزيَّدوا، وأضافوا، ولجأوا إلى تفاصيل لم تشر إليها الآيات الكريمة فقال: "لما كانت الليلة التي كلم الله فيها موسى ﷺ، أوحي إلى الجبال: أني مكلم نبياً من أنبيائي على جبل منكم،... فأوحى الله تعالى إلى الجبال؛ أن يجود للطور كل جبل بشيء مما عليه، فجاد له كل جبل بشيء مما عليه، إلا المقطم، فإنه جاد له بجميع ما كان عليه من الشجر والنبات والمياه، فصار كما ترونه أقرع، قال: فلما علم الله تعالى ذلك منه أوحى إليه: لأعوضنّك عما كان على ظهرك، لأجعلنَّ في سفحك غراس الجنة"(٧٣).

وتحدث الرحالةُ والمؤرخون عن استسرارية جبل المقطم،وعرضوا لنا المعتقدات الشعبية التي دارت حوله واتسمت بالمبالغة، لدرجة تثير العجب والدهشة حول الجبل، وما نمقه الناس من روايات وخرافات، دون إبداء رأيهم الخاص إلا فيما ندر، وإنما كان الكثيرون يؤيدون ما ورد بشأن الجبل من أخبار وحكايات، انطلاقاً من خلفيتهم الثقافية والفكرية وموقعهم الزمني، مثل قول (ابن ظهيرة): "وفيه من الخاصية العجيبة التي لا توجد في غيره؛ وهي حفظ أجساد الموتى بحيث لا تكاد تُبْلى إلا بعد دهر طويل.." (٧٤)، فالميت هناك لا يُبلى، وبه موتى كثيرون بحالهم، ما بلي منهم شيء، وبه قبر روبيل بن يعقوب وقبر اليسع ﷺ، وقبر عمران بن الحصين صاحب رسول اللهﷺ..." (٧٥). وجنح الخيال الشعبي في قوله: "أن الذين يدفنون تحت جبل المقطم يدخلون الجنة بلا عذاب ولا حساب يوم البعث والنشر، وتدل على ذلك أحاديث الأنبياء؛ إدريس ودانيال وعزيز".،ثمة رواية أخرى تقول: "إلى اليوم إذا مرض أحد بمصر مرضاً شديداً، ونام سبعة أيام في ظل جبل المقطم شفي بإذن الله..."(٧٦).

ويحسب لابن حوقل، أنه نقد المعتقدات الخرافية التي استقرت في عصره، وشاعت حول جبل المقطم بقوله "وعلى رأس جبل المقطم في قُلّته مكان يعرف بتنور فرعون يسع خمس مائة كُرّ حنطة وهذا من نوع الخرافة، ويقال أن فرعون كان إذا خرج من أحد المتنزهين أصعد في المكان الآخر من يعادله ليعاين شخصه بالوهم ولا تفقد هيئته"[٧٧].

ولأحجار الجبال أساطيرها الخاصة، وهي متعددة في كتابات الرحالة والمؤرخين، أشهرها حجر مطلسم بجامع مدينة سخا: "عليه طلسم بقلم الطير، إذا أُخرِجَ ذلك الحجر من الجامع، دخله العصافير، إذا دخل إليه خرجت العصافير.."[٧٨]، ومن الأحجار ذات الخصائص العجيبة، حجر على باب مدينة (أبسوج) به صورة فأرة: "الناس يأخذون طين النيل ويطبعونه على صورة الفأرة التي في الحجر ويحملونه إلى بيوتهم، فتهرب الفأر عن بيوتهم"[٧٩]، وحكى المؤرخون عن أسطوانة حجرية توجد في مسجد ملحق بكنيسة على ساحل البحر الأحمر بمدينة القلزم: "يأخذ الرقاصون منها زنة الحبة ونحوها، ويحرز في جلد فلا يؤذيه دابة من دواب البحر، والرقاصون يراعون ذلك مراعاة شديدة ولا يشكون فيه ولا يخلون منه، ويزعمون أن القرش إذا قابل في البحر تلك الاسطوانة انقلب على ظهره وربما هلك فرماه في البحر ميتاً..."[٨٠]، كما يوجد في مصر: "حجر يوضع على حرف التنور، فيساقط خبزه، وكان يوجد بصعيدها حجارة رخوة فتتقد كالمصابيح"[٨١].

ثمة روايات عديدة دارت حول القوة السحرية لأحجار مصر منها حجر القيء "وهو حجر بأرض مصر، إذا أمسكه الإنسان غلب عليه الغثيان، حتى يلقى ما ببطنه، فإن لم يرمه هلك من القيء.."[٨٢]، والأعجب ما تواتر في الكتابات التاريخية عن أسطورية أحجار في مصر تشبه: "الحصوات مثل الخرز الأبلق، في صحراء سبيل علام الفسيحة الأرجاء، هذه إذا حملت امرأة الواحدة منها أثناء الوقاع، لا تحمل

قط،.."،"تجعلها المرأة على حقوها فلا تحبل"(٨٣)، وتحدث المقريزي عن:"الحجر المعروف بحجر الخل، يطفو على الخل ويسبح فيه كأنه سمكة"(٨٤)، ويشير (الزهري) إلى أنه يوجد: "في الجبال التي على أسوان أحجار من الزمرد الغالي، وهو أغلى الزمرد، وأطيبه، وقد أجمعت الفلاسفة على أن من لبس منها حجراً أمن من اللسع والصرع واختبال العقل..."(٨٥).

إذن؛ حضور العجائبي في الكتابات التاريخية ليس حضوراً استثنائياً، وإنما هو عنصر عضوي في نسيج السرد التاريخي، على جانب آخر نجد أن أحدى دعامات العجائبي ــ فيما يتعلق بمصر ــ وجود فكرة المسخ(٨٦) التي تطال الإنسان أو الطبيعة بقصد تبيان التغير الذي يدهش ويحيِّر من حاله لأخرى، وذلك من أجل هدف معين هو استدعاء مسوخ وقعت في الماضي، وما زالت رؤيتها واستحضارها يؤديان نفس الهدف ــ العبرة الذي وجدت له أول مرة ــ فالمقريزي يكتب تحت باب: "ذكر هلاك أموال أهل مصر" أنه رأى مجموعة من الحجارة على صورة الآدميين في أحدى مدن مصر، أكثر أهلها من الفراعنة الفساد فمسخوا حجارة.فيقول: "صارت أموال أهل مصر ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأثلاثا وأنصافا، فلم يبق مدن إلا طمس الله عليه.. ولقد رأيت أناساً كثيراً قياما وقعوداً في أعمالهم لو رأيتهم ما شككت فيهم قبل أن تدنو منهم أنهم أناس وأنهم حجارة.. وقال محمد بن كعب وكان الرجل منهم يكون مع أهله وفراشه وقد صارا حجرين..."(٨٧) ، والهروي يأتي بخبر ذلك فيقول: "في جبال مصر والصعيد حجارة كأنها الدنانير المصرية المضروبة والرباعيات وعليها شبه السكة، وحجارة كأنها العدس ما لا حد عليه يزعمون أنها أموال فرعون وقومه مسخت." (٨٨)، وأرجع الخيال الشعبي هذا المسخ الذي حدث لأموال وكنوز مصر إلى دعوة النبي موسى ﷺ على أهل مصر: " قال موسى:﴿ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينه وأموالا في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك، ربنا

اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم﴾ [يونس / ٨٧]، ولهذا صارت أموال أهل مصر ودراهمهم حجارة.. وقيل أن بالوجه القبلي.. مقاتات كثيرة ما بين بطيخ وقثاء وتفاح وكلها حجارة، وكان قد أخبرني قديما بعض الأعيان أنه شاهد في سفره إلى البلاد من أرض مصر بطيخاً كثيراً كله حجارة وكذلك البطيخ من الصنف الذي يقال له العبدلي"(٨٩).

ولعل تلك الفكرة التي تسربت إلى الكتابات التاريخية عن مصر تعتبر من أبرز الأفكار الأسطورية الشائعة في ميثولوجيات الشرق الأدنى القديم، وتلك الفكرة تقوم أساساً على انسلاخ كائن أو شئ ما من طبيعته والتحول إلى طبيعة أخرى مغايرة، هذا التحول قد يكون تحولا كاملا للكائن إلى كائن آخر، أو تحولاً جزئياً يمزج بين طبيعتين مختلفتين تبرزان في ذلك الشيئ، أو الكائن الجديد المخلق من عملية المسخ، أما أسباب ذلك المسخ فكان في الغالب ــ يرجع إلى غضبة الرب على الشئ الممسوخ(٩٠)، ومن هنا فتنوع. المسوخ كما وردت في الكتابات التاريخية غذت العجائبي في مصر بدم جديد، وملأت شجرة الغيبي وفوق الطبيعي بعناصر غريبة تُحيّر وتُقلق أحياناً.

تخطى البُعد العجائبي لمصر في مخيلة المؤرخين ليصل إلى عالم النباتات العجيبة والأشجار الغريبة الأطوار. ذات القوى السحرية والتي تعتبر من أبرز الأفكار التي انتشرت في العديد من الحكايات الشعبية وغيرها من أنواع القصص الشعبي، التي جمعها لنا المؤرخون عن أشجار مصر التي تحتوي على قدرات غرائبية كالشجرة "التي تعرف بأهليجة في جامع محمود بسطح الجبل المقطم، تقبل النذور من النساء، من يأخذ منها سبع ورقات، وينذر لها يفعل ذلك من الناس من تريد الزواج"(٩١)، ويطال استحضار العجائبي في الأشجار ما يعرف منها بشجرة العباس وهي "شجرة إذا وضع أحد يديه عليها أو قال ياشجرةَ العباسِ جاءك الناس، تجمع أوراقها وتشرع في

الذبول، إذا قال لها: عفونا عنك ترجع إلى ما كانت عليه من الحسن والنضارة، وهذه الشجرة تشبه شجرة السنط"(٩٢). وأشار المنوفي إلي:"شجرة بمصر لها أغصان من حديد بخطاطيف إذا قرب منها الظالم خطفته وتعلقت به فلا تفارقه حتى يقر بظلمه"(٩٣).

فالانتقال المتخيّل الذي قام به الضمير الشعبي إلى عالم الأشجار العجائبي بعيداً عن عالمه الواقعي، ربما ليطرح في هذا العالم رؤاه وآلامه وأحلامه التي لم تتحقّق في دنيا الواقع. خرج الضمير الشعبي بتطلعاته الخياليّة بعيداً عن أرضه بحثاً عن الحياة المثالية التي يئس من وجودها عليها، فبرزت لديه الدعوة إلى القيم المثالية التي يمكنه تحقيق الخلاص للبشر مما ألّم بهم من مفاسد وظلم. و لا يزال الوجدان الشعبي واحداً من أهم الأصوات الداعية للقيم الإنسانية الفاضلة فهو سبيل الرقي وسلم المعالي.

العالم العجائبي المرتبط بعنصر الأشجار. ارتبط كذلك (بالاختفاء) بصفته عنصراً يؤجج العجائبي ويعمق مساربه خالقاً نفقاً أخر في جسم الكتابات التاريخية المتعلقة بمصر فيتحدث القزويني عن: ".. شجرة تسمى باليونانية موقيقوس، تراها بالليل ذات شعاع متوهج يغتر برؤيتها كثير من الناس، يحسبها نار الرعاة فإذا قصدها، كلما زاد قربا زادت خفاء، حتى إذا وصل إليها انقطع ضوؤها.."(٩٤).

ويوظف الخيال الشعبي الشخصيات التاريخية الحقيقية ليضفي المصداقية على عجائب الأشجار في مصر إذ يذكر المقريزي:" يُحكىَ عن رجل أنه أتى عبد العزيز بن مروان وهو أمير مصر فعرّفه أنه تاه في صحراء الشرق فوقع على مدينة خراب فيها شجرة تحمل كل صنف من الفاكهة وأنه أكل منها وتزود، فقال له رجل من القبط:هذه إحدى مدينتي هرمس،وفيها كنوز كثيرة فوجه عبد العزيز معه جماعة معهم ماء وزاد فأقاموا يطوفون تلك الصحارى شهراً فلم يقفوا لها على أثر "(٩٥).

ويتمثل العجيب عند ابن إياس بين النبات العادي المتصل بالطبيعة والمألوف، وبين الخارق المتجاوز للحدود والمواصفات المعلومة، وذلك من أجل بناء عجائبيته وإضفاء طابع المبالغة عليها، من زاوية الضخامة والقدرة على الإدهاش؛ فهو يورد حكاية تقول: "كان في زمن مصرام الذي سميت مصر به، إذا زرعت أرضها وشملها ماء النيل، تصير حبة القمح قدر كليَّة البقر، وكان طول القثاء أربعة عشر شبراً كل واحدة، وكان طول البلحة شبراً ووزنها نحو عشرين درهما، وكان طول الظرف ثلاثين شبراً وكان العرجون الموز يطرح ثلاثمائة موزة، وكل موزة منها رطلاً، وكان العنقود العنب إذا قطف من البستان يحمل على بعير من كبره، وكانت الأترجة تشق نصفين من عظم خلقتها، ويحمل كل نصف منها على بعير، وكانت الكمثرى زنة واحدة سبعمائة درهم، وكانت الرمانة الواحدة إذا قشرت يقعد في قشرتها ثلاثة نفر من كبرها، وكانت البطيخة الواحدة ثمانين رطلاً، وعلى هذا فقس بقية الأصناف من الفواكه والحبوب وغير ذلك، وكان ذلك بدعوة نوح عليه السلام حين دعا لمصر بالبركة والخصب..." (٩٦).

الرواية هنا تعتمد في عجائبيتها على السند التاريخي والديني كأساس لبناء مسارها وترسيم خطابها، والتضخيم هنا عنصر يولد عناصر أخرى يحركها، كما في قصة البطيخ التي رآها القزويني وتحدث عنها فيقول: "وبمصر نوع من البطيخ الهندي تحمل اثنتان منه على جمل قوي وهي حلوة طيبة..." (٩٧). وكذلك كان العجائبي عند (أولياچلبي) فيما يتعلق بنباتات مصر في سياق حديثه عن (الشمام) الـ "عبد اللاوي" فيقول:"هو على شكل ثعبان، فإذا المرء يفر منه، فقد ورد في كتب الطب أنه خلق بمعجزة محمد ﷺ.. وقد أتى جماعة من كفار قريش وقدموا هدية للرسول ﷺ بها عقارب، أتوا بها من مصر.على أمل أن تقضي على النبي الكريم ﷺ حين يفتحها.. فسألهم الرسولﷺ عنها فقالوا أنها شمامة من صنف جديد مجهول الاسم فقال

الرسولﷺ فليكن اسم هذا المخلوق "عبد اللاوي" وكان الرسولﷺ يحب الشمام، ثم قال: بسم الله ورفع الغطاء في حضور جماعة كبيرة من القريشيين فإذا بالعقارب قد استحالت شماماً من نوع العبد اللاوي الذي يزرع بمصر اليوم.. هذا هو السر في أن هذه الفاكهة تشبه الثعابين والعقارب وهي خاصة بمصر ولا توجد في غيرها"(٩٨).

وحرصت الحكايات الشعبية المتعلقة بمصر في كتابات الرحالة والمؤرخين على تضمين نصوصها حيوانات من نوع الكائنات ناقصي الخلقة؛ لتخرجهم من دائرة المألوف ويأتي ذلك في إطار حرص الخيال الشعبي على تأكيد قيمة معينة أو رمزية خاصة. فيلجأ إلى تصوير ذلك الشخص أو الكائن في إطار المبالغة والتضخيم، ويتمظهر ذلك عند "أولياچلبي" في إطار حديثه عن حيوانات مصر، والذي كان بدوره يعكس بدقة وإخلاص العصر والوسط اللذين عاش فيهما، وذلك على ضوء الظروف الحضارية والفكرية السائدة آنذاك، فيتحدث عن فئران مصر بقوله:"فهذه حيوانات تنشأ من الأرض بأمر الله وحكمته ؛ حيث يتكوم التراب على وجه الأرض فيستدل به الصيادون على وجودها، ويعمدون إلى حفر تلك الأكوام ونبشها، ويخرجونها منها، وقد ترى بعضها تامة الخلقة كاملة، والبعض الآخر ناقصة أعني أن الواحدة منها؛ نصفها فأر حتى وسطها ونصفها الثاني لا يزال تراباً، وهذه حكمة بالغة من حكم الله القدير. إذ ترى الدم لا يزال ممزوجاً بالتراب الذي تشكل بهيئته الفأر ولم يتحول بعد إلى اللحم. حتى ينفخ فيه الروح، ومثل هذه الفئران الناقصة التكوين والخلقة إذا خرجت من الأرض تموت حالاً من أثر الهواء والجو لعدم اكتمال خلقها..."(٩٩).

وحاول الرحالة أولياچلبي أن يلح على تأكيد هذا الخبر متوهماً أن العلم والفهم ينفيان الارتياب فيه بل فيهما الدليل على تصديقه مدعما كلامه بالسند الديني بقوله: "ولكن المعتزلي الذي يقصر عقله عن إدراك صنع الله البديع، ينكر هذا الذي

ذكرناه ويستبعد وقوعه، بيد أن كاتب هذه السطور قد شاهد هذا بعينه، إذا أعطى العربان الذين أخرجوها بضع بارات(عملة) ليحضروا له شيئا منها، كي يشاهدها بنفسه عن قرب فكانت الواحدة منها؛ نصفها ذا روح ودم، ونصفها الآخر لا يزال طيناً وتراباً، وليس به روح ولا دم أليس الدليل الكافي والبرهان الظاهر على هذه العجيبة خلق بني آدم من الطين والعدم كما في الآية الكريمة: ﴿ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما...﴾(١٠٠).

ويبدو أن الكاتب هنا قد وقع ضحية روايات شعبية، أعتاد المصريون على اختلاقها للسائحين في بلادهم، بهدف التربح منها. وما قصه دفع الكاتب لبضع بارات لهم ليحضروا له شيئا من تلك الفئران غير مكتملة النمو سوى أنه تعامل مع بعض أهل القاهرة:"البارعون في الاحتيال، والغش خاصة مع الغرباء الذين لا يعرفون عملتهم ولا يعرفون أساليبهم في البيع والشراء.. فهم ــ أي المصريون ــ مولعون بغش الغرباء وخداعهم.."(١٠١).وبالتالي كان من الطبيعي أن يكون مصير الفأر الذي أحضروه (للخواجة أولياچلبي) هو الموت. وإلا كان مصيرهم أن تنكشف خدعتهم له، وتبور بضاعتهم من الحكايات والخرافات التي روجوها للتكسب من بيع الوهم والخرافة لمن أراد.

وإن كنا نلمح أثراً لذلك عند "القزويني" في إطار حديثه عن فئران مصر بــقوله: " ومن عجائب مصر عين ينبع الماء منها ويتقاطر على الطين فيصير ذلك الطين فأراً ؛ قال صاحب تحفة الغرائب: حكى لي رجل أنه رأى من ذلك الطين قطعة انقلبت بعضها فأراً والبعض الآخر طين بعد"."رأيت من ذلك الطين قطعة نصها فأر، والباقي طين"(١٠٢) ويبدو أن التفكير في خواص الحيوان قد شغل أذهان المؤرخين في العصور الإسلامية وأن النظرة العجائبية لم ترتبط بجمادات الأرض وحسب وإنما تجاوزتها إلى الحيوان نتلمس ذلك عند (الزهري) في سياق حديثه عن أبقار مصر

بقوله: "وهي دواب لهم وعليها يتصرفون،ومن عجائب هذا البقر من دخل منه شئ في بيت من البيوت فر منه الذباب، ومن عجائبها أنها من حيوان البر وتدخل في الماء وتلبث فيه اليومين والستة أيام وتخرج..."[١٠٣]. ويشير المقريزي إلي بقرة عجيبة في مصر القديمة يقول عنها: " بها بقرة لها ضرعان كبيران إذا انعقد لبن امرأة أتتها ومسحتها بيديها فإنه يدر لبنها "[١٠٤].

بيد أن هذه الحكايات، وغيرها من الحكايات التي دارت عن عجائب أرض مصر تشي بمدى سلطان مصر على قلوب الرواة، خاصة مع تعدد صيغ تقديم هذه العجائب بشكل يوازي غناها، وإن كان (الراوي / المؤرخ) هو المحور والرؤية التي ترى أو تنقل، ذلك أن العجائبي يرد من طرف (الراوي / المؤرخ) بصفته مشاركا فاعلاً أو وسيطاً، وفاعلاً أو بصفته شاهدا مستمعا أحياناً، ويجئ هذا الغنى من انفتاح العجائبي على السجلات الشعبية، والمتخيل بكافة مراجعه التاريخية والدينية والثقافية، حيث ارتباطات العجائبي كثيرة، خاصة في مصر، ويمكن الجزم بخصوص الكتابات التاريخية المتعلقة بمصر وفضائلها أنها تجميع لعجائب وغرائب مصر، اتساعاً وعمراناً وتاريخا، لاعتبارات يلتقطها (الراوي / المؤرخ) أو ينسجها؛ فهي شئ — ربما — غير مألوف يوضع دائما في المقارنة مع المألوف، فلا غرو إذن أن يبدأ العديد من المؤرخين حديثهم من عجائب مصر بقولهم: عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة: عشرة منها بسائر البلاد والعشرون الباقية بمصر..."[١٠٥].

وكان للعيون المائية والآبار في مصر سحرها وعجائبيتها بل ورهبتها في النفوس على مر العصور، وقد حظيت بعض الآبار شهرة تاريخية ودينية (كبئر المطرية) الذي اعتقد الناس في قدسيته والتي اكتسبها: "لأن المسيح عليه السلام اغتسل فيها"[١٠٦]، وهي: "عذبة وفيها أنواع دهنية لطيفة وليس في جميع الدنيا موضع ينبت شجر البيلسان، وينجع دهنه إلا هناك"[١٠٧]، وإذا حاولنا الوصول إلى الجذور

الأسطورية لبئر المطرية وما به من مياه، فسنرى شواهده ودلائل تشير إلى أي حد يقدسه شريحة كبيرة من الناس أشاعوا حوله أنه: "يدخله المرضى ويرتادونه، للاستشفاء فينالون ما يبتغون وقد ورد في جميع التواريخ، ولا سيما تواريخ اليونان، أن سيدنا عيسى ﷺ هاجر مع أمه مريم من مدينة نابلس إلى هذه البقعة، وسكن بها، وتزعم النصارى أن بئر المطرية هذه قد حضرها سيدنا عيسى وأمه اغتسلا بمائها، كما أن الحوض الراهن من آثارهما".. ومن خاصية هذا الماء أن المرء إذا تجرع السم ثم تناول منه قيراطاً، واحدا فإنه ينجو من فعل ذلك السم وأثره الفتاك، كما أن العقرب أو الثعبان أو أية دابة سامة إذا لسعت الإنسان ولدغته فإن وضع شئ من البيلسان في مكان اللدغ أو أكل الملدوغ شيئا منه فلا شك أنه ينجو من فعل السم وأثره وخواص هذا البئر معتبرة ومشهورة بين الناس ولا سيما بين قرى النصارى، إذ يعتقد النصراني أنه إذا لم يأكل البيلسان ولم يدهن به ولو مرة في العمر لا يكون نصرانياً صحيحا"[١٠٨]. ولا يمكن أن نخطئ الروابط بين هذا الحطام الرمزي في المعتقدات الشعبية وبين ما شاع بين الناس عن وجود نبات سحري مجدد للشباب وتجديد للحياة، والذي يساعد على تأجيل وقوع الموت للإنسان، أو للبطل في الملاحم والحكايات والقصص الشعبي، وقد أتت فكرة نبات الشفاء تحولاً عن فكرة أسطورية أقدم، وهي فكرة نبات الحياة أو الخلود أو تجديد الشباب، وهو ما نلمحه في بعض نصوص التوراة وبعض الملاحم الشعبية التي تضمنت أفكاراً أقدم ترتبط بالعبادات الطوطمية[١٠٩].

ويعرج بنا الزهري إلى الحديث عن أحد الآبار العجائبية الموجودة بمصر والتي تسمى (البئر المعطلة):"ومن عجائب هذه البئر إذا وصل إليها أحد من البعد رأى ماءها قد خرج،وفاض على فم البئر نحو عشرين زراعاً من كل ناحية، فإذا قرب من البئر بنحو عشرين ذراعاً انقبض الماء حتى يصير إلى فم البئر فإذا بلغ الماشي إليها

هبط الماء فإن أدلى فيها دلواً هبط الماء إلى قعر البئر، ولو كان الحبل ألفى ذراع لم يبلغ إلى الماء، وكلما طلع الدلو طلع الماء حتى يصل الدلو إلى فم البئر، وكلما تباعد خرج الماء على أثره حتى يصير إلى حده الأول، فإن كان الرجل راكباً على حصان من عتاق الخيل وهم ليسرع إلى الماء انقبض الماء في أسرع من لمح البصر لأن الله تعالى ذكرها بالعطلة في كتابه العزيز فقال جل وتعالى:﴿وبئر معطلة وقصر مشيد﴾ وإذا زال الرجل عن فم البئر طلع الماء بقدر العشرين ذراعاً، وهذه البئر إحدى عجائب الأرض"(١١٠).

ويتحدث ابن الوردي عن بئر تسمى "بئر المعظمة" وهي تسمى بئر العظائم، وهي بالقاهرة، عند الركن المخلق، يقال أنها من آبار موسى ﷺ، وحكى أنه طاسه لفقير وقعت في بئر زمزم وعليها منقوش اسم ذلك الفقير، فرجع الفقير مع الركب المصري إلى القاهرة، فجاء إلى البئر المعظمة ليتوضأ منها للتبرك، فطلعت الطاسة بعينها في المستقى، وشهد له جماعة من الحجاج أنهم شاهدوا وقوعها في بئر زمزم"(١١١). وهكذا حاول الخيال الشعبي أن يجعل له نصيبا في معجزات (بئر زمزم) وقدسيته في محاولة لإثبات أن مياه بئر زمزم المباركة متصلة بآبار مصر، ولم يكن ينقصه سوى الشهود على ذلك فلم يجد سوى الفقراء ليكونوا أداته في تلك الخرافة، لأنهم هم الشريحة المعنية الأولى بها.

ويشير القزويني إلى:"حوض لعين ماء منقور في حجر عظيم يسيل الماء إلى الحوض من تلك العين بجنب كنيسة، فإذا مس ذلك الماء جنب أو حائض انقطع الماء السائل من ساعته، وينتن الماء الذي في الحوض، فيعرف الناس سببه، فيترفون الماء الذي في الحوض وينظفونه، فيعود إليه الماء على حالته الأولى وهذا الحوض يسمى الطاهر"(١١٢). ويقول (الزهري) عن أحد آبار مدينة (قوص): "بها بئر تسمى بئر

الجيش، وماء هذه البئر من أعجب المياه وذلك أنه إذا شرب منه الشارب سال على فخذيه في الحين"[١١٣].

وتحدث المقريزي عن حوض ماء بمصر: " من صوّان أسود مملوء ماء لا ينقص طول الدهر، ولا يتغير ماؤه، وعمل ذلك لبعدهم عن النيل، وذكر بعض كهنة القبط أن ذلك الماء ثم لقربه من البحر الملح فإن الشمس ترفع بحرّها بخار البحر فينحصر من ذلك البخار جزأ بالهندسة أو بالسحر، وتجعله ينحط ذلك الموضع بالجوهر مثل الظل وتمده بالهواء فلا ينقص بذلك ماؤه على الدهر ولو شرب منه العالم"[١١٤].

وتحت باب "في وصف الأعين والمنابع وذكر بقاعها العجيبة وخواصها وما فيها من العجائب"، يسرد لنا "الدمشقي" ما شاع حول عجائب مياه وادي النطرون حيث يقول: "أن بركة نطرون بمصر ما ألقى فيها شئ إلا صار نطروناً حتى العظام والحجارة تصير نطروناً"[١١٥].

إن موارد المياه عند الإنسان الديني مكان مقدس، فالمكان في مفهومه غير متجانس دنيوي وديني. وإن شعائر دينية معينة تستمر في الحياة، وتقع موارد المياه من ضمنها، تحافظ على قدسية هذه الموارد، كنبع زمزم، وأفضل هدية مباركة يحملها الحاج شيء من ماء هذا النبع، والسبلان في المساجد، وحتى القساطل والأواني تنسج حولها الخرافات إذ يتحدث المقريزي عن آنية بمصر:" إذا جُعِلَ فيها الماء صار خمراً في لونه ورائحته وفعله، وقد وجد من هذه الآنية بأطفيح في إمارة هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، شربة جزع بعروة زرقاء ببياض، وكان الذي وجدها أبو الحسن الصائغ الخراساني، هو ونفر معه، فأكلوا على شاطئ النيل وشربوا بها الماء فوجدوه خمراً سكروا منه وقاموا ليرقصوا فوقعت الشربة فانكسرت عدة قطع، فاغتم الرجل وجاء بها إلى هارون، فأسف عليها وقال لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض ملكي"[١١٦].

ويعلق المقريزي على ذلك بعبارة تكشف مدى الارتباك الناجم عن وصول إشارات من تاريخ البطالمة في ثنايا الرواية الأخيرة فهو يذكر:"وأما الآنية النحاسية التي تجعل الماء خمراً فإنها منسوبة إلى قلوبطرة [كليوباترا] بنت بطلميوس ملكة الإسكندرية"[١١٧] لنجد اختلاطاً بين العناصر الأسطرية والعناصر التاريخية بشكل مثير.وإن كانت تتحدث دائماً عن أعمال السحر والعجائب التي كانت تلازم ملوك مصر القديمة، والتي من شأنها أيضاً أن تعكس قدراً كبيراً من الانبهار والإعجاب الممزوجين بالنقص الفادح في المعلومات التاريخية.

وكان سحر مصر يكمن في أمور أخرى عند بعض الرحالة والمؤرخين والكتّاب، وأن لم تكن مصر جذابة في حد ذاتها، فجاذبيتها بالنسبة لهم كانت تنبع من ارتباطها بأشياء أخرى؛ فمثلا اهتم التلمساني (المتوفي سنة ٧٧٦ هـــ) بعجائب مصر من منظور آخر في كتابه "سكردان السلطان"[١١٨]، وهو كتاب أدبي تاريخي، يشتمل على أنواع الجد والهزل، ألفه للسلطان الملك الناصر بن أبي المحاسن في سنة ٧٥٧ هـــ. في خواص السبعة التي هي أشرف الأعداد طبع وحاول أن يشعرنا فيه بأن هناك رابطاً سحريا غامضاً بين عجائب أرض مصر وبين العدد سبعة حتى أنه خصص باباً كاملاً في هذا الشأن تحت عنوان: "في ذكر نبذة مما وقع في إقليم مصر من هذا العدد على طريق الإجمال"[١١٩]. ومن أطرف الحكايات التي تنسب إلى قدماء المصريين قدرات خارقة مرتبطة بأسرار العدد سبعة؛ أن أحد ملوك مصر القدامى: "عمل مرآة من المعادن السبعة[١٢٠]، فينظر فيها إلى الأقاليم السبعة، فيعرف ما أخصب منها وما أجدب، وما حدث فيها من الحوادث، عمل في وسط المدينة صورة امرأة جالسة في حجرها صبي كأنها ترضعه، فأي امرأة أصابها وجع في جسمها مسحت ذلك الموضع من جسد تلك المرأة فتبرأ من ساعتها، وهذا من العجائب"[١٢١].

فأسطورية الرقم (سبعة) وظهوراته ــ في الكتابات التاريخية المتعلقة بمصر يكاد لا ينتهي، إذ أنها رمزية تندرج في نطاق الرمزية (الكوزمولوجية) ظلت محافظة على قدسيتها واستسراريتها عبر العصور، ولدى أغلب الشعوب، رغم تغير المعتقدات والأديان، شأنها كشأن المكان المقدس الذي يكون معبداً وثنيا ثم يصير كنيسة فجامعاً فمدرسة دينية، فقد مثل الرقم (سبعة) دائماً رقما ملغزاً، سحرياً، يجسد المعرفة المكثفة، والتنوير، والروحانية، وفي مصر يبرز الرقم (سبعة) دائما فيما يتعلق بالعجائب والأساطير، والمعبودات، والفراعنة، والكيانات الروحية، والفلك[١٢٢]. كما كان لأرقام معينة في ميثولوجيات الشرق الأدنى القديم "قيَمُ سحرية" اعتبرت بالغة الفعالية إلا أن الأعداد عند اليهود ــ الذين لم يعرفوا الأرقام ــ أصبحت حواذاً غلاباً افترش صفحات (العهد القديم) كله وسرى في أوصال الديانة وربما انتقل هذا التأثير إلى كتابات المؤرخين الذين لم يجدوا بين أيديهم تفاصيل يشرحون بها الكثير مما ورد في القرآن الكريم من أخبار مصر القديمة، فالتمسوا المادة فيما وصل إليهم من تفاصيل ما روي من هذه الأحداث في الكتب الدينية المتداولة بين اليهود والنصارى[١٢٣]. والقصص التي تدور حول هذا الموضوع كثيرة ومتناثرة في بطون الكتب التاريخية، ولكنها تشترك جميعاً في صفة واحدة هي المبالغة التي تعكس الانبهار بمصر؛ الإنسان، والأرض، والحضارة. والتي تنسب الكثير من منجزات هذه الحضارة إلى أعمال السحر والخوارق في خروج من دائرة ما هو مألوف إلى انفتاح على اللامألوف وتجلياته، مما يعطي القناعة بأن العجيب متجذر في الكتابة التاريخية المتعلقة بمصر تجذراً، يجعل منه سمة بارزة وشكلاً يحضر مرة بهذه الصفة، ومرة أخرى يحضر باعتباره عنصراً تحفيزياً تاريخياً حقيقياً وفاعلاً في الواقع والوقائع.

هوامش الفصل الرابع

(١)الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ٣٤.

(٢)المحارس : ذكرها الرحالة ابن جبير في رحلته في (القرن السادس الهجري) وهى جمع محرس، وتعني عنده ؛ مأوى مخصص للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء . أو هي النقطة الحصينة في المدينة. انظر : رحلة ابن جبير، ص ٣٢.

(٣)السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ٤٧؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٢٧، ص ٢٨؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٢٠٤؛ ابن زولاق: فضائل مصر، ص ٧٠؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٥١؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص ١٩٩.

(٤)عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم (الجزء الأول، الهيئة العامة، القاهرة، ١٩٦٧م)، ص ٣.

(٥)وردَ في بردية (لينتجراد) التي يرجع عهدها إلي عصر تحتمس الثالث (١٤٧٨-١٤٤٧ ق.م) في التعاليم الموجهة للملك"مرى كارع" إشارة إلي أهمية الحدود الشرقية لمصر بقوله: " الحد الشرقي للمملكة قد أصبح أمنا الآن ضد البدو" الآسيويين" انظر: محرم كمال: الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء(مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٨م)، ص٧٨.

(٦)صورة العجوز (دلوكة) نجد لها رديفاً في حكايات ألف ليلة وليلة حيث تحتل شخصية العجوز المكانة الممتازة في الليالي والتي دارت بسببها، وبسبب حيَلها خاصة، حوادث احتلت نحو خمس الليالي، فهي شواهي بطلة قصة عمر النعمان وولديه، هذه العجوز استعملت دهاءها ومكرها في الكيد السياسي، فقادت جيوشاً هزت ممالك عصف بالملوك في سبيل الانتقام السياسي، وفي الحروب تكون العجوز حركة دالمة بين الجيوش؛ فهي عند المسلمين الناسك الذي يدبر لهم خطة السير، وهي عند النصارى العجوز التي توصلهم إلى عدوهم بما عندها من معلومات وبما دبرت من حيَل، وهي ربما كانت العجوز (دلوكة) في الكتابات التاريخية قد استمدها الراوي من خياله ولكنه صبغها بواقعة كثيرا. ارجع إليها فكرة بناء سور حول مصر للخلاص من الأعداء والمنافسين، انظر: سهير القلماوي: ألف ليلة وليلة، ص ٣١٤، ص ٣١٥؛ قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ١٦٧، ص ١٩١.

(٧)أوليا چلبي : سياحتنا مه مصر،ص٢٧٠،٢٦٩.

(٨)إبراهيم كامل أحمد: النبش في ركام الخرافة (مجلة الفنون الشعبية، عدد٦٢/٦٣، القاهرة ٢٠٠٢م.)، ص ١٥٣.

(٩)بناه القائد جوهر بعد دخول مولاه المعز إلى القاهرة، وإقامته بها و فرغ منه سنة إحدى وستين وثلثمائة .

(١٠)الخطط المقريزية : جـ٤، ص٢٧٣؛ ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة، ص ١٨٢ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى،ج٣، ص٣٦٠؛ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص٨٥.

(١١)المفضل بن أبي الفضائل : تاريخ سلاطين المماليك، ص٥٠، نقلاً عن حسن إبراهيم حسن وآخرون : الأزهر تاريخه وتطوره (وزارة الأوقاف، القاهرة ١٩٦٤م)، ص١٥٩.

(١٢)السلطان حسن : هو الملك الناصر حسن بن سلطان الناصر محمد بن السلطان المنصور قلاوون ، ولد(سنة ٧٣٥ هـ – ١٣٣٤م) ، وسمي أولا قمارى، ولما ولّي مصر اختار اسم "حسن " فعرف به، مدرسة / مسجد السلطان حسن من مفاخر العمارة الإسلامية ،وكان محلها قبل إنشائها قصرين للأمير الطنبغا المارداني ، والأمير يلبغا اليحياوي ، فأمر بهدمهما وإنشاء هذه المدرسة / الجامع ، وشرع في بنائها (سنة ٧٥٧ هـ – ١٣٥٦ م). حسن عبد الوهاب: جامع السلطان حسن وما حوله(المكتبة الثقافية، العدد ٥٦، القاهرة ١٩٦٢)، ص ٨، ٩

(١٣)فكرة وجود المركب نجدها أيضاً موجودة عند الحديث عن قبة تربة الإمام الشافعي بمصر حيث دفن الإمام الشافعي في القرافة الصغرى في تربة بني زهرة، وهم أولاد عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، وعرفت بتربة أولاد بن عبد الحكم، وفيها دفن الإمام الشافعي ﷺ، وعرفت بعد دفنه بتربة الشافعي إلى وقتنا هذا، وفي سنة ٦٠٨هـ ماتت أم الملك الكامل ابن الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي، فأمر بدفنها بجوار تربة الشافعي، وبنى القبة التي على الشافعي، وكلفها خمسين ألف دينار، وكان يصعد إليها بسلسلة من الحديد لوضع الحبوب فيها طعاماً للطيور ورفقاً بها، وعنها أنشد ابن ملهم قائلاً :

مررت على قبة الشافعي ** فعاين طرفي عليها العشارى

فقلت لصاحبي لا تعجبوا ** فإن المراكب فوق البـــحارِ.

(١٤)ابن إياس : بدائع الزهور،ج١، ص ٢٠٤؛ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص٨٠.

(١٥)ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص٨١؛ القلقشندى : صبح الأعشى، ج٣،ص٣٤٠.

(١٦) ق الجامع الطولوني : ابتدأ بناءه الأمير (أحمد بن طولون) سنة ثلاث وستين ومائتين، وفرغ منه سنة خمس وستين ومائتين، وقد بلغت النفقة فيه مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار، وجددت

فيه أماكن في الدولة المملوكية . راجع : المقريزي .الخطط ج٢،ص٢٦٥-٢٦٩؛السيوطي.حسن المحاضرة ج٢،ص٢٤٦-٢٥٠.

(١٧)الكندي (أبوعمرمحمد بن يوسف التجيبي)(ت٣٥٠هـ):ولاة مصر (تحقيق:حسين نصار، سلسلة الذخائر، العدد ٦٦، القاهرة ٢٠٠١م)، ص٢٤٥.

(١٨)المقريزي : الخطط، ج٤، ص ٢٦٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٣٨.

(١٩)المقريزي: الخطط، ج٤، ص ٢٦٧؛ابن سعيد الأندلسي: المُغرب في حُلى المغرب،(القسم الخاص بمصر)،ص٩٨.

(٢٠)ابن إياس : بدائع الزهور، ج١،ص٣٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٣٤٠؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص٨١.

(٢١)ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص ٨٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٤٠.

(٢٢)هذا الجامع يسمى بالجامع الظافري تم بنائه سنة (ثلاث وأربعين وخمسمائة). انظر المقريزي: الخطط، ج٢،ص٢٩٠.ويسمى عند المقريزي "جامع الفاكهيين" وعند القلقشندي "الفَاكّاهين". انظر :القلقشندي : صبح الأعشى، ج٣،ص٣٦١. ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص٧٤.

(٢٣)الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر، ص ١٢٣؛المقريزي : الخطط، ج٢،ص٢٩٠؛ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة، ص٧٤؛ القلقشندى : صبح الأعشى، ج٣، ص٣٦١.

(٢٤) منفلوط : يقول عنها الرحالة ابن جبير في القرن السادس الهجري :"بمقربة من الشط الغربي ميامنا للصاعد في النيل، فيه الأسواق وسائر ما يحتاج إليه من المرافق، ومَدَرته[المدينة والحاضرة]في نهاية من الطيب، وليس في الصعيد مثلها، وقمحه يجلب إلى مصر، لطيبه ورزانة حبته، قد اشتهر عندهم بذلك.انظر رحلة ابن جبير، ص٦١.

(٢٥)ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ص ٤٦.

(٢٦)ابن خلدون:رحلته شرقا وغرباً، ص ٢٤٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٦٤.

(٢٧)القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد،ج١، ص ٢٤٠.

(٢٨) جيمس فريزر: الفولكلور في العهد القديم، ج٢، ص ٦١٧.

(٢٩)تعتقد بعض الشعوب أن الأعتاب تسكنها الأرواح، وربما كان هذا الاعتقاد في حد ذاته كافياً لتفسير الإحجام عن وطء العتبة وأن الأرواح التي تستقر عند الأعتاب هى أرواح الموتى وبناء على ذلك فإن الجو السحري الذي أحاط بالأعتاب في الخيال الشعبي جعله يخلق عادة حمل العروس فوق العتبة يوم الزفاف أو ان تخطى العروس العتبة دون أن تمسسها قدماها وهو حذر ينتشر بين كثير من الشعوب . جيمس فريزر: الفولكلور في العهد القديم (التوراة)، ص٦٢٥.

(٣٠)فتحي الصنفاوي: مدخل إلى دراسة المأثورات الشعبية (الطبعة ١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠١م)، ص٧٩، ٨٠.

(٣١)ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر) (ت ٨٠٩ هـ): الانتصار لواسطة عقد الأمصار(منشورات المكتب التجاري، بيروت، د.ت)، ص ١٠٥، السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ١٣٥.

(٣٢)أولياچلبي: سياحتنامه مصر، ص ٣٤١.

(٣٣)المقاييس : الغرض منها قياس مستوى النهر في كل مكان هام و بغية العلم بمقدار ما يجري في النهر من ماء في كل جزء من أجزائه، وهو ما اصطلح على تسميته تصرف أو تصريف النهر . لذلك كان وجود مقياس ثابت يسجل مستوى النهر في كل وقت أمراً لازماً لقياس تصرف النهر بانتظام . ولابد أن يكون المقياس مثبتاً إلى جانب النهر تثبيتاً متيناً بحيث لا يتزحزح لأي ظروف طارئة . أيضاً على كل مقياس بيان بالارتفاعات المختلفة، وهذه الارتفاعات تقاس بالنسبة إلى نقطة الصفر المصطلح عليها . ونقطة الصفر في المقاييس الواقعة في مصر من أسوان إلى الدلتا هي مستوى سطح البحر المتوسط . لمزيد من التفاصيل انظر : محمد عوض محمد : نهر النيل، ص٢٥٣-٢٥٦، الأقفهسي :كتاب أخبار نيل مصر،ص٦٧.

(٣٤)قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (الطبعة ١، دار المعارف،القاهرة ١٩٧٨م)،ص ٤٠.

(٣٥)السيوطي: كوكب الروضة من تاريخ النيل وجزيرة الروضة،(تحقيق: محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، القاهرة ٢٠٠٢م)، ص ١٤٦، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٢٩٣؛ التلمساني: سكردان السلطان، ص ٤٣٣؛الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول،ص٧.

(٣٦)القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٢٩٤؛ابن سعيد الأندلسي:النجوم الزاهرة في حُلى حَضْرة القاهرة،القسم الخاص بالقاهرة(تحقيق:حسين نصار، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٠م)،ص٣٨١.

(٣٧)المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ٣٤٤؛القلقشندى : صبح الأعشى، ج٣، ص٢٩٤.

(٣٨)ابن سعيد الأندلسي : النجوم الزاهرة في حُلى حضرة القاهرة، ص٣٨١.

(٣٩)الأسعد بن مماتي: قوانين الدواوين(تحقيق: عزيز سوريال، القاهرة ١٩٤٣م)، ص ٧٥، ص ٧٦.

(٤٠)جون أنتيس: مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر(١٧٧٠-١٧٨٢)،(ترجمة سيد الناصري،سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد٢٢، القاهرة ١٩٩٧م)،ص١١٠.

(٤١) من الأساطير التي تتردد إلى يومنا هذا عن أحد الأولياء وهو (الشيخ إبراهيم الدسوقي) ملخصها: "أن تمساحاً ضخما ابتلع طفلاً صغيرا، وقد لجأت أم الطفل إلى ولي الله إبراهيم الدسوقي، وطلبت منه أن يحضر لها طفلا، فما كان من الوليّ إلا أن خرج إلى البحر (فرع رشيد الذي تحول فيما بعد عن المسجد، وطلب من التماسيح أن تخرج له التمساح الذي ابتلع الطفل فحضر هذا التمساح، وطلب منه الولي إخراج الطفل، فخرج الطفل من بطن التمساح حياً وقد عاقب الولي التمساح، فقتله، حتى يريح الناس من شروره للمزيد حول هذا الموضوع انظر: فاروق أحمد مصطفى، الموالد دارسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر(سلسلة الدراسات الشعبية، العدد ٩٦، القاهرة ٢٠٠٤م)، ص ١٨٠-١٨١.

(٤٢) أولياچلبي: سياحتنا مه مصر، ص ٣٤١

(٤٣)ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٤٧.

(٤٤)الظاهري (غرس الدين خليل بن شاهين): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. (تحقيق : بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس ١٨٩٥م)، ص ٢٧.

(٤٥) أوليا چلبي:المصدر السابق،ص٢٤٥.

(٤٦)نفسه، ص ٢٤٦.

(٤٧) البيمارستان أو المارستان وهى المستشفى، وهى كلمة فارسية الأصل.

(٤٨)المقريزي: الخطط، ج٢، ص ٤٠٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٦٥.

(٤٩)ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٥٢.

(٥٠)ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ١٦٠.

(٥١)المصدر السابق، ص ١٦٠.

(٥٢)السيوطي:كتاب التحدث بنعمة الله (سلسلة الذخائر، العدد ١٠٦، القاهرة، ٢٠٠٣م)،ص١٢.

(٥٣)القزويني: عجائب المخلوقات، ص ١١٨؛ آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٧١.

(٥٤)الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٤٣.

(٥٥)السيوطي: كوكب الروضة، ص ١٤٠، المقريزي: الخطط، ج١، ص ٦٧.

(٥٦)ابن محشرة: الاستبصار، ص ٤٦، ص ٤٧، القزويني: عجائب المخلوقات، ص ١٧٢، المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ص ٤٠٧.

(٥٧)السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٧٧.

(٥٨)الخطط المقريزية، ج١، ص ٣١.

(٥٩)أوليلچلبي: سياحتنا مه مصر، ص ٣٥.

(٦٠)قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي(الطبعة الأولى، دار عين، القاهرة ١٩٩٨م)، ص ٢١٤.

(٦١)المقريزي: الخطط، ج١، ص ٤٥٢، ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلي المغرب(تحقيق: زكي حسن ، سلسلة الذخائر، العدد ٨٩، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص ١٠.

(٦٢)ابن عفان (موفق الدين أبو محمد) (ت ٦١٥ هـ): مرشد الزوار إلى قبور الأبرار المسمى الدر المنظم في زيارة الجبل المقطم(تحقيق : محمد فتحي أبو بكر، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٥م)، ص ٥؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ص ١٠٩،١٠٨.

(٦٣)المقريزي: الخطط، ج١، ص ١٢٣: ص ١٢٤.

(٦٤)المقريزي: الخطط، ج١، ص ١٢٤؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٥٠؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٥٥٧.

(٦٥)المصدر السابق، ص ١٢٤؛ ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ٣٢.

(٦٦)ابن الوردي : خريدة العجائب وفريدة الغرائب،ص٣٢،٣٣.

(٦٧)أحمد النعيمي: الأسطورة في الشعر العربي، ص ١٦٥؛ لطفي حسين سليم: الأسطورة والإسرائيليات (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد ٥٢، القاهرة ٢٠٠٠م)، ص ١٣٤.

(٦٨)وتتضمن هذه الملحمة رحلتين، الأولى رحلة جلجامش مع أنكيدو إلى جبال الأرز وقتلهما إله الشرّ، ثمّ رحلة جلجامش وحده بعد موت صديقه أنكيدو إلى عالم الموتى وركوبه البحار والمحيطات وعودته بزهرة الخلود ثمّ نزوله إلى البئر والتهام الأفعى تلك الزهرة.وتمثّل الرحلة الأولى صراع الإنسان مع قوى الشرّ كما تمثّل الرحلة الثانية بحث الإنسان عن سرّ الحياة وصراعه مع الموت ذلك المجهول.لقد كانت رحلة جلجامش تعبيراً عن توق الإنسان إلى المعرفة وكشف المجهول ومحاولته معرفة سرّ الحياة والخلود. والقضاء على قوة الموت والفناء

(٦٩)محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص ٩٠، ص ٩١.

(٧٠)السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ٨؛المقريزي: الخطط، ج١، ص١٢٤؛ابن الزيات: الكواكب السيارة، ص ١٢.

(٧١)ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلي المغرب، ص ١٢؛ ابن زولاق: الفضائل الباهرة، ص ١٣؛ المقريزي: الخطط، ج١،ص ٢٧؛القلقشندي : صبح الأعشى، ج٣،ص٣٧٥؛الحميري: الروض المعطار، ص ٥٥٧.

(٧٢)الحميري: الروض المعطار، ص ٥٥٨؛القلقشندي : صبح الأعشى، ج٣،ص٣٧٥ .

(٧٣) ابن الزيات:الكواكب السيارة، ص ١٢؛ الكندي: فضائل مصر، ص ٦٤؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص ١٢٥؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص ٣٥؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٠٨.

(٧٤)ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٩١.

(٧٥) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ٢٧٠.

(٧٦)أولياچلبي: سياحتنامه مصر، ص ٦٦؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٠٩.

(٧٧)ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٦٠؛ الإدريسي:نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،ج١، ص٣٢٦.

(٧٨) ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ٣٦؛ القزويني: آثار البلاد، ج١، ص٢٠٢.

(٧٩) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ١٣٨.

(٨٠) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٤٦٦.

(٨١)المقريزي: الخطط، ج١، ص ٣٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٧٧.

(٨٢)القزويني: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات(تحقيق: محمد القاضي، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٦م)، ص ١٤٧، ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ١٦٤.

(٨٣)المقريزي : الخطط ج١، ص٣٢ ؛ أولياچلبي: سياحتنامه مصر، ص٦١٢.

(٨٤) نفسه، ص ٣٦.

(٨٥)الزهري: كتاب الجغرافية، ص ٤٤.

(٨٦) تُعرف فكرة المسخ :بأنها التغيرات التي تطرأ على طبيعة المخلوقات، مما ينتج عنه تحول في هيئة المخلوق من إنسان إلى حيوان، أو إلى مخلوق يجمع بين الهيئتين الإنسانية والحيوانية، أو التحول إلى طير، أو إلى غير ذلك من الهيئات وفقاً للظروف المحيطة بالعمل أو النص الأسطوري وبحسب طبيعة العوامل التي أدت إلى وقوع المسخ، كالانتقام أو غيره من الأسباب . محمد خليفة حسن:الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص ١٣٦.

(٨٧)المقريزي: المصدر السابق، ج١، ص ٤٢.

(٨٨)الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٤٣؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٤٠٨.

(٨٩) المقريزي: المصدر السابق، ص ٤٢.

(٩٠)مجدي محمد: القص بن الحقيقة والخيال (الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦م)، ص ١٨٢؛ كارم محمود: الأسطورة، ص ٤١٤.

(٩١) التلمساني: سكردان السلطان، ص ٤٥٦.

(٩٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ص ٣٢؛ ابن الزيات: الكواكب السيارة، ص ١٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ١٧٩؛ المقريزي، الخطط،ج١،ص٣٢.

(٩٣) الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول،ص ٧.

(٩٤) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٦٦.

(٩٥) المقريزي: الخطط،ج١،ص٣٤.

(٩٦) ابن إياس: بدائع الزهور،ج١، ص ٤.

(٩٧) القزويني: آثار البلاد، ج١، ص ٢٦٦.

(٩٨) أولياجلبي: سياحتنامه مصر، ص ٦٣٤؛ البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ٧٧.

(٩٩) أولياجلبي: سياحتنامه مصر، ص ٦١٢.

(١٠٠) نفسه، ص ٦١٣؛انظر:القزويني: آثار البلاد، ج١، ص ٢٧١.

(١٠١) جوزيف بتس: رحلة الحاج يوسف إلى مصر، ص ٣٨.

(١٠٢) القزويني : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات،ص١٧٤؛آثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٧٠-٢٧١.

(١٠٣) الزهري: كتاب الجُغْرافية ، ص ٤٦.

(١٠٤) المقريزي : الخطط، ج١،ص٣٣.

(١٠٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ٦٥؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص ٣٠.

(١٠٦) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ٢٧١؛ عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ٦٦.

(١٠٧) نفسه، ص ٢٧٢؛ القزويني: عجائب المخلوقات، ص ١٨٠؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ١٥٠.

(١٠٨) المقريزي : الخطط ج١، ص٣٢ ؛ أولياجلبي: سياحتنامه مصر، ص ٦٠١-٦٠٢.

(١٠٩) راجع سفر التكوين ــ الإصحاح الثاني والثالث؛ محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص١٣٨؛ كارم محمود عزيز: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص٤٢١

(١١٠)الزهري :كتاب الجعرافية، ص٤٠.

(١١١) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ١٥٠.

(١١٢)القزويني: آثار البلاد، ج٢، ص ٢٧١.

(١١٣) الزهري: كتاب الجعرافية، ص ٤٤؛ الحميري : الروض المعطار، ص ٥٥٧.

(١١٤) المقريزي : الخطط ج١، ص٣٢.

(١١٥) الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ١١٦.

(١١٦) المقريزي : الخطط، ج١، ص٣٤.

(١١٧) نفسه،ج١،ص٣٥.

(١١٨) السكردان في الأصل: خوان يوضع فيه الشراب.

(١١٩)التلمساني: سكردان السلطان، ص ٣٥١.

(١٢٠) كان المصريون أول الكيميائيين، وفي عملياتهم التحويلية اشتغلوا بالمعادن السبعة: الذهب، الفضة، الزئبق، النحاس، والحديد، الزنك، الرصاص، ويتحكم في كل منها الكواكب السبعة على التوالي التي كانت تُعْبَد : الشمس والقمر، عطارد، الزهرة، المريخ والمشتري، وزحل. للمزيد انظر : آنا رويز: روح مصر القديمة، ص ١٨٤.

(١٢١) التلمساني: المصدر السابق، ص ٤٣٣؛ المقريزي، الخطط، ج١،ص٣٣.

(١٢٢) آنا رويز: روح مصر القديمة، ص ١٨٤.

(١٢٣) شفيق مقار: السحر في التوراة والعهد القديم (الطبعة الأولى، مكتبة رياض الريس، بيروت ١٩٩٠م)، ص ٤٦٣، ص ٥٠٤؛ حسين مؤنس: الحضارة، ص ٧٠ .

الفصل الخامس

رؤية الرحالة لحياة وأحوال المدن المصرية

أولاً:حياة المدينة المصرية في عيون الرحالة

تفاوت اهتمام الرحالة في القرنين السادس والسابع الهجريين بسكان المدن المصرية وبينما لم يبد ابن جبير اهتماما كبيرا بالسكان في القرن السادس الهجري ولم يذكرهم إلا في مواضع متفرقة نجد في المقابل رحالة القرن السابع الهجري يتحدثون عن السكان نشئ من الاستفاضة، مثل عبد اللطيف البغدادي والعبدري .

ونجد أكثر من يهتم بذكرهم الرحالة ابن جبير من سكان المدن بخاصة جماعات المغاربة وربما كان ذلك راجعا لرغبته في تقصي أماكن تجمع بني جلدته، ونخلص من كلام رحالة القرنين السادس والسابع الهجريين أن مصرَ كانت تعج بأعداد مختلفة من البشر وخاصة مراكز العلم المشهورة أو الواقعة منها على طرق الانتقال البرية والبحرية.

فمثلاً يصف ابن جبير قوص في القرن السادس الهجري بقوله: " ... كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة لأنها مخطر للجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق وملتقى الحجاج: المغاربة، والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم ..."(١).

وكان ميناء القصير كما ذكر ابن سعيد في القرن السابع الهجري: " هو فرضة قوص المشهورة على بحر القلزم حيث تسافر منها مراكب الحجاج والتجار إلى الحجاز واليمن..."(٢). وذكر ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) بأنها: " مدينة كبيرة بها محط التجار القادمين من عدن ...."(٣).ويذكر الإدريسي عن البهنسا: " البهنسا مدينة عامرة بالناس، جامعة لأمم شتى.."(٤).

ولاحظ ياقوت الحموي وجود القبط بكثرة في مدينة دمياط إضافة لوجود عناصر متباينة من السكان، ويرجع هذا إلى طبيعة موقعها الجغرافى ووجد بها نسبة ليست قليلة من القبط [٥]. وقد نعتهم ياقوت الحموي ما نصه: " ... أن الحاكة بها – يقصد دمياط – قبط من سفلة الناس وأوضعهم وأخسهم مطعماً ومشرباً ..."[٦] وقد أشارت يوميات يحي الأنطاكي إلى أن الغربيين كانوا يترددون بكثرة على مصر في القرن السادس الهجري قبل وبعد الحرب الصليبية الأولى وبدأ اتجاه في القرن السادس الهجري/ الثانى عشر الميلادي نحو السماح بفنادق خاصة لكل أمة من الأمم[٧].

وعندما اشتدت الحرب بين الصليبيين ومصر اتخذت تدابير لتقييد حرية تنقل التجار في داخل البلاد، وعليه لاحظ ابن جبير (القرن السادس الهجري) والرحالة العبدري (القرن السابع الهجري) هذه التدابير الأمنية الصارمة التي اتسمت بالخشونة من جانب السلطات الأمنية وانتقد الرحالة مثل هذه التصرفات العدوانية المتسمة بالفظاظة والخشونة وعدم الحياء من أى شئ والتي تميز عسكر مصر على الدوام[٨]. وتمتعهم بالخسة وقلة المروءة واعتراض النساء وتفتيشهم وجفائهم لأهل الدين من الحجاج والعلماء وإذاقتهم بألوان الهوان[٩]. وقد لمس الرحالة طافور بعض من هذه الممارسات الشئ اليسير كادت أن تؤدى به للقتل في الحال لولا ظهور براءته[١٠].

وقد حملت كلمات ابن جبير المرارة في وصف ما تعرض له من لحظة وصوله إلى أرض مصر من الإسكندرية مرورا على مراكز التفتيش التي انتشرت على طول خط الحجاج والتجار آنذاك فيصف هذه الممارسات بقوله: " ... فمن أول ما شاهدناه فيها يوم نزولنا أن طلع إلى المركب أمناء من قبل السلطان بها... فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها وما جل واختلط بعضها ببعض وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثا


حياة وأحوال المدن المصرية

عما عسى أن يكون فيها .. وفى أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وتكاثر الزحام ثم أطلقوا بعد موقف من الخزي والذل عظيم "(١١).

وقد تجرع الرحالة العبدري نفس الكأس الذي ذاق مراراته ابن جبير من ذي قبل رغم العقود الطويلة التي فصلت بين الرحلتين فيصف العبدري هذا الموقف

بقوله:"..ومن الأمر المستغرب .. جاءت شرذمة من الحرس – لا حرس الله مهجتهم الخسيسة ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة – فمدوا في الحجاج أيديهم وفتشوا الرجال والنساء وألزموهم أنواعا من المظالم وأذاقوهم ألوانا من الهوان ثم استحلفوهم وراء ذلك كله.."(١٢) وأشار الرحالة العبدري (القرن السابع الهجري) إلى السلف الغير صالح لرجال العسكر وما فعلوه بأحد أبناء جلدته في القرن السادس الهجري وهو الرحالة ابن جبير وذكر حكايته بالتفصيل: " ... حكاية اقتضت أن لهم في هذه الفضائح سلفا غير صالح.."(١٣).

ومن الملاحظ أن كلاً من ابن جبير والعبدري حاولا تبرئة النظام الحاكم آنذاك من هذه الأفعال التي يقوم بها رجال حكومته التنفيذية ولكن لو صح هذا في بعض جوانبه فإن ذلك يعد عذراً أقبح من ذنب ويدل على عدم إلمام الحاكم بمعلومات صحيحة عن أحوال الرعية فضلا عن سوء استخدام السلطة المخولة لأعضاء حكومته فما هم سوى أدوات يحركها نظام بأكمله يجب أن يحافظ هذا النظام على كرامة المواطن التي هي مصدر لكرامة الوطن نفسه ولعل محاولات بعض الرحالة في تبرئة الحاكم من جريرة أفعال رجال النظام ؛ربما يرجع ذلك لمحاولة ابتغاء مرضاته أو اتقاء لشره في أغلب الأحوال وقد أدت مثل هذه المداهنات لبروز النفاق السياسي على سطح الحياة السياسية في المنطقة العربية – وهى ظاهرة مازلنا نعانى آثارها الوبيلة حتى اليوم – إضافة إلى أن هذه الممارسات المخزية التي عانى منها الرحالة والحجيج في مراكز التفتيش على طول خط الرحلة يوحى في غالب الأمر والإسلامي وقد انعكس الوضع السياسي بطبيعة الحال على أحوال وحياة المدن المصرية في ذلك العصر والذي يؤثر بدورة في تقدم أو تراجع المساحات والألوان الزاهية على خريطة حياة المجتمع المصري لصالح مساحات الظل والألوان القاتمة مما يساعد على تفسير اللون الذي من خلاله شاهد الرحالة مصر وأحوالها عصر ذاك.

وقد ذهب البعض من الباحثين إلى أن السلطة كانت محقة في هذا الأجراء الأمني الوقائي في التفتيش بسبب التخوف من الصليبيين والاحتراس من جواسيسهم[١٤]. في فترة الحرب مع العدو وقد علل البعض الآخر أن مرجع ذلك في عهد الحكم الأيوبي لمصر هو التخوف من الموحدين في المغرب حيث كانت لهم أطماع في حكم مصر وحكم بعض البلدان في المشرق العربي[١٥].

وإن هذه الإجراءات الوقائية هو دليل يقظة عربية إسلامية للمتربصين بديار العروبة والإسلام . ولكن هذه الآراء إذا كان يخالفها جانب من الصحة فإن ذلك لا يعنى استبعاد إمكانية استغلال بعض عمال الحاكم بالموانئ تلك الظروف العرفية والطارئة في حالات العداء بين الفرنج ومصر لممارسة أسلوبهم الصلف المعتاد على مدى فترات زمنية طويلة وبدون تفرقة بين من هو غريب وبين من هو من أبناء مصر حتى أن المؤرخ المصري المقريزي يصف طريقة تعاملهم بأنها طريقة قبيحة وشنيعة حيث يقول: "يصعد عمال الجمرك السفن ويفتشون الركاب وسلعهم حتى النساء بطريقة قبيحة وشنيعة كما يجسون بمـــالهم جميع ما يحملون من غرائر ويحل بالمسافرين والتجار والحجاج من العنف وسوء المعاملة ما لا يوصف ..."[١٦].

أما الرحالة فقد وصفوا هذه الممارسات الخارجة من واقع المشاهدة الذاتية ومعايشة الواقع بكلمات مريرة دفعت بالرحالة ابن جبير (القرن السادس الهجري) بأن ينظم قصيدة احتجاجية على هذه المعاملة لحجاج بيت الله الحرام وكذلك نجد الرحالة العبدري (القرن السابع الهجري) يستشهد بما حدث لأبن موطنه ابن جبير من قبله لسوء المعاملة فضلا عما لهذه الأحداث من أثر سيئ على مصر لسرعة تناقل مثل تلك الممارسات المؤسفة فقد ذكر الرحالة العبدري أنه عرف بما حدث لأبن جبير عن طريق رواة تناقلوا هذه الممارسات[١٧].

وكذلك أشار لهذه الممارسات الرحالة هارف كما أن ما كان يتم في ميناء الإسكندرية هو ذاته ما كان يتم في موانئ النيل النهرية مثل ميناء بولاق من حيث

التفتيش وتحصيل الرسوم على التجار ورسوم الحجاج وفى جمرك ميناء منية بن خصيب كانوا يقسمون الأيمان الحرجة على ما بأيديهم بما عندهم وهى بديل " الإقرارات الجمركية" الحالية وأن اتبعوا معهم وسائل قاسية أحيانا[١٨].

وأكد ذلك قول ابن جبير حيث أنه لم يتعرض لهذه الممارسات التعسفية في ثغر الإسكندرية فحسب ولكن تكرر في الصعيد أيضا مثل: " إخميم وقوص ومنية ابن الخصيب من التعرض لمواكب المسافرين وتكشيفها والبحث عنها وإدخال الأيدي لأوساط المسافرين التجار فحصا عما تأبطوه واحتضنوه من درهم أو دنانير .."[١٩].

ويصف ما كان يحدث على المراكب في الموانئ النيلية فيقول: " ومن أشنع ما شاهدناه من ذلك خروج شرذمة من مردة أعوان الزكاة في أيديهم المسال الطوال ذوات الأنصبة فيصعدون إلى المراكب استكشافا لما فيها .."[٢٠]. وبهذا قدم لنا ابن جبير عرض هام لما يتعرض له الأجانب والوطنيين الوافدين للتجارة الخارجية والحج وكذلك من المغاربة المسلمين من مضايقات على طول خط الرحلة في مصر من قبل عمال السلطان ورجال حكومته تركت اثر سيئ في نفوس الرحالة والحجاج ومنهم الرحالة الغربي فريسكو بالدى (القرن الثامن الهجري) حيث عانى مما لاقاه على أيدي حرس الديوان والمفتشين وعبر عن هذا بقوله: " ... فاستلمنا بعض الضباط وأخذوا في عدنا كالبهائم ثم أثبتوا العدد في دفاترهم ولم يلبثوا أن فتشونا تفتيشا دقيقا..."[٢١].

وحرص بعض الرحالة على الإشارة لبنى جلدتهم مثل ابن جبير والعبدرى فيقول ابن جبير: " ... أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم، بالغا ما بلغوا ..."[٢٢]. وفى موضع آخر يذكر أن جامع ابن طولون أصبح: "مأوى للغرباء من المغاربة يسكنوه ويحلقون فيه ... ويقول: " دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد من المغاربة البحريين.."[٢٣].

وكان لكثرة امتلاء المدن المصرية من الوافدين عليها من أجناس مختلفة أن انتشرت الفنادق والخانات في هذه المدن كما كانت هناك جماعات أخرى تقيم إقامة

طويلة أو دائمة في كثير من المدن المصرية لطلب العلم والتعبد ولهؤلاء كثرت أماكن الإيواء المجانية في المدارس والمساجد والخوانق والزوايا والرباطات وأقيمت لهم الحمامات والمارستانات والخوانق وخصص لبعضهم مساجد لإيوائهم كما كان الحال في الإسكندرية في القرنين السادس والسابع الهجريين: "... ومن مناقب هذا البلد – الإسكندرية– ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه المدارس والحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعليمه وإجراء يقوم به جميع أحواله واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانا للعلاج من مرض منهم ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ..."(٢٤).

وأشار ابن بطوطة لكثرة تواجد الأعاجم والغرباء بمصر في زمنه فقال: "...وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم ... ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهرى من ثلاثين درهما للواحد في الشهر إلى عشرين ..."(٢٥). وممن زاروا القاهرة آواخر القرن ١٥م " بايفا وكوفلهام" مبعوثا ملك البرتغال حيث وصفا القاهرة بأنها: " مدينة كبيرة تبهر العيون ومزدحمة فقطارات الإبل لا تنتهي وتموج بالعديد من الأجانب "(٢٦).

قدم الرحالة في القرنين السادس والسابع الهجريين وصفاً للخدمات التعليمية والصحية والثقافية والاجتماعية التي قدمتها المدن المصرية لسكانها من خلال مؤسساتها التي سبق الإشارة إليها كالمساجد والمدارس والحمامات والمارستانات وغيرها من المنشآت العمرانية والتي كانت توقف عليها الجرايات والأوقاف من أراض أو عقارات

ودفع ذلك بابن جبير أن يقول: "... ولا فائدة للسلطان بهذا البلد سوى الأوقاف المحبسة المعينة من قبله بهذه الوجوه ... وما منها جامع من الجوامع ولا مسجد

من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوي إليها ويلزم السكنى فيها تهون عليه في ذلك نفقات بيوت الأموال ..."(٢٧). وأشار العبدرى في شأن هذه الجرايات قوله: " .... تربة رأس الحسين رضي الله عنه عليها رباط في غاية الإبداع والتنويه ... وإلى الآن يوفى واجب القيام بها والإشادة بذكرها حفظ الله أمراء الترك بمصر ..."(٢٨). أما ابن بطوطة فيقول: " ومنها تربة الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه وعليها رباط كبير ولها جراية ضخمة ..."(٢٩). وذكر ناصر خسرو أن: " بتنيس مصانع –خزانات مياه – كثيرة موقوفه يعطى ماؤها للغرباء..."(٣٠). وأشار ابن شاهين إلى: " بيمارستان أمر بعمارته الملك المنصور وقرر وقفه في كل سنة أربعين ألف مثقال ذهب ..."(٣١).

وشارك بعض التجار والأثرياء في تقديم الخدمات المتنوعة وأقاموا لذلك الأوقاف عليها، ويذكر ابن شاهين: " أن التاجر عبد اللطيف بن رشيد التكريتى عمر بالإسكندرية أيضا مدرسة وجعلها مسجدا ودارا للحديث، أنفق عليها من ماله حرصا على دراسة العلوم الدينية وخاصة علم الحديث(٣٢). وروت المصادر التي ترجمت لتجار الكارم أن بعضهم قام بإنشاء المدارس التي اندثرت جميعها مثل تاج الدين الرهايلى الذي أوقف مدرسة بمصر لتدريس الحديث(٣٣).

وبين سطور الوصف الطبوغرافى العمراني في كتابات الرحالة يجد القارئ لفتات وإشارات حاول الرحالة أن يشكلوا منها صورة حية لسكان المدن التي زاروها وهذه اللفتات والإشارات – رغم أهميتها العظمى – لم يعن بتسجيلها أغلب مؤلفوا كتب الخطط الآخرون فهم في العادة يعنون بوصف الجماد ولا يعنون بوصف الأحياء .

وتفاوتت انطباعات ورؤية رحالة القرنين السادس والسابع الهجري للناس في مصر، فمنهم من وجه النقد بالسلب أو بالإيجاب للمصريين دون تمييز وترك البعض الآخر انطباعه عن الناس في كل مدينة على حده .

فنجد ابن بسام أنه قد ضمن كتابه تاريخ تنيس فقرات متناثرة لوصف سكان تنيس ومزاجهم وطبائعهم فقال إن المدينة كانت تمتاز بـــ " صحة هوائها ورقة طبائع أهلها وصنائعهم وأن الميت بها لا تفسد جثته سريعا ولا يتساقط شعره عن جسمه"(٣٤). وأشار إلى أن سكان المدينة فهم أهل فن: " ولذلك كثر طرب نفوس أهلها وفرحهم ورغبتهم في مداومة اللذات واستماع الأغانئ ومواصلة المسرات والرغبة في الراحة واطرح ما يوجب التعب والمشقة والحب للنقش والصورة والرقم والتلوين بالأصباغ وعلى قلة الضجر في السفر وترك المخالفة لمن يصاحبون وكثرة المبالغة لمن يألفون وحسن المؤازرة لمن يستخدمهم ومحبتهم للغرباء والمسافرين والمواظبة على مسرقم وسرورهم ومنفعتهم وتركهم للحسد لمن يحبونه والعتب على زلته ويمدحونه ويفضلونه ويلومون أنفسهم في التقصير عن إخائه وما يستحقه والقيام بذلك..."(٣٥).

ويبدو أن الخلفية الثقافية والفكرية لكثير من الرحالة قد خرجت بهم عن نطاق الحيدة والأمانة في سياق حديثهم عن الناس في مصر فمثلاً نجد الرحالة الإدريسي لم يتحدث عن القاهرة ولم يشر إليها وقد أرجع البعض ذلك إلى أن القاهرة خلال هذه الفترة لم تكن قد حازت أمام عينيه تلك الروعة التي تطفئ بريق الفسطاط وأنها لم تكن قد استطاعت بعد أن تنحى جانبا نشاطها الاقتصادي ونستطيع أيضا عرض افتراضي آخر وهو أن هناك بواعث دينية وسياسية قد أدت إلى عدم تعرض الإدريسي لمدينة الفاطميين فهو أندلسي سنى(٣٦).

وربما لنفس البواعث السياسية والدينية انتقد العبدري أهل القاهرة ونعتهم بألفاظ نابية وأظهر تعصبه الدينى والسياسى منهم فقال: "... وحق لمدينة وضع أساسها عبد الزنادقة غلام بني عبيد – لعنهم الله – أن تجمع أخلاق العبيد وأحوال الزنادقة ناهيك من قوم جعلوا الخنا شعارهم والحسد المورث للصنا دثارهم ... وأما العقوق بينهم فمتعارف.."(٣٧).

واستنكر العبدرى على أهل القاهرة أن: "من المألوف عندهم الأكل في الأسواق والطرقات والمحافل والعرض عندهم ساقط .. ونعوذ بالله من وضاعة الأخلاق..."[٣٨]. وأيد استنكاره ببعض الآراء والأحاديث الدينية في ذلك فأورد حديثه عن الرسول صلى الله عليه وسلم: " الأكل في السوق دناءة ..."[٣٩].

والكثير من رحالة القرنيين السادس والسابع الهجريين شاركوا العبدري في الشكوى من مصر وأهلها ولاحظنا شيئا من ذلك عند ابن جبير وابن سعيد ونلاحظه أيضا عند أبي الحجاج الأشبيلي وعند أثير الدين أبي حيان وأحمد بن محمد المقري وتفسير هذه الظاهرة عند حسين مؤنس: " أن أولئك المهاجرين والرحالة جميعا كانوا يدخلون مصر وآمالهم واسعة في أن يجدوا فيها أكبر قدر من الاحترام والإكرام وتوسعة العيش لأنها كانت كعبة العلم وأهله في ذلك الحين، ولكن الواحد منهم كان إذا وصل إلى القاهرة وجد نفسه في بحر مضطرب من العلماء من المصريين والوافدين عليهم من كل حدب وصوب وكلما قصد بابا من أبواب الدولة وجد عنده العشرات من أمثاله يتزاحمون للدخول وقد يجد بعد ذلك أن ما عنده من زاد العلم قليل بالنسبة إلى الفيض الذي يحيط في القاهرة فتتجهم نفسه ويتعزى بالحملة على البلد وأهله وأضف لذلك أن أهل مصر لكثرة الوافدين عليهم في تلك العصور من الشرق والغرب أصحى في نفوسهم الشور بالغريب[٤٠].

فنجد العبدرى يتعامل على أهل الإسكندرية: " الغريب بينهم نكرة لا تتعرف إن رأوه زادوا الوجوه جهامة ونكروا..."[٤١] وحين أنصف أهل الصعيد والريف قال: " ... أن أهلها لا بأس بهم "[٤٢].

ورأى الرحالة أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الذي جاء لمصر (٤٨٩هـ-١٠٩٥/١٠٩٦م) سكان مصر بأنهم: "أخلاط من الناس مختلفة الأصناف: من قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم وحبشان وأرمن وغير ذلك من الأصناف والأجناس على حسب اختلافاتهم[٤٣] وسجل انطباعه عن أهل مصر فقال: "... وأما أخلاقهم

فالغالب عليهم اتباع الشهوات والانهماك في اللذات والانشغال بالترهات والتصديق المحالات وضعف المرائر والغرمات ..."(٤٤).

وتحدث ابن جبير عن نساء بعض مدن الصعيد فقال: " ... مدينة قنا ... ذات مبان حفيلة ومن مآثرها المأثورة صون نساء أهلها والتزامهن البيوت فلا تظهر في زقاق من أزقتها امرأة البتة، صحت بذلك الأخبار عنهن وكذلك نساء دشنه المذكورة قبيل هذا ..."(٤٥) وذكر كل من ابن حوقل والإدريسي: " أن المرأة العظيمة من نساء القبط ربما ولدت الاثنين والثلاثة في بطن واحد وبحمل واحد"(٤٦).

وفى القرن السادس الهجري ناقض أسامة ابن منقذ نفسه في الحديث عن مصر وأهلها تبعا لتبدل الحال في مصر – فمثلا – كانت سنوات إقامة الرحالة أسامة في مصر منعمة غمرته بالجاه والخيرات بدرجة لا عهد له بها من قبل (٤٧) يقول في الاعتبار: "..أقمت بها مدة إقامة في إكرام واحترام وإنعام متواصل وإقطاع زاج ..."(٤٨). وعندما انتهت إقامة أسامة في مصر بفتن واضطرابات سلبته ثروته الطائلة التي جمعها في مصر وأودت بحكم حلفائه فيأخذ من مصر وأهلها موقف معاد (٤٩). فيقول:

يامصر ما درت في وهمى ولا خلدى ولا أجالتك خلواتى بأفكـــــارى
ما أنت أول أرض مس تربتهـــــا جسمي ولا فيك أوطانى وأوطارى (٥٠).

وقال عن مصر وأهلها في المنازل والديار(٥١) سنة ٥٤١هـ:

ما فيك لى سلوة يامصر عن بلـــد فى أهله الفضل والإقدام والجـــود

وقال في الاعتبار عن أهل مصر أنهم: " ... تقاسم أهل مصر لحمه يأكلونه ليكونوا شجعانا ..."(٥٢). ناعتا أهل مصر بأنهم لا يكونوا شجعانا إلا بأكل لحوم البشر

أما الإدريسى فرغم أنه تحاشى الحديث عن القاهرة وأهلها فإنه تحدث عن أهل مدينة الصالحية ووصف الناس فيها فقال: " .... مدينة متحضرة وفيها عمارات وزراعات وأهلها لصوص لهم أذية غاشية وهم بالشر موسومون..."(٥٣).

وشاركه الرأي العبدري ق ٧ هـ: " ... لضيق أرزاقها وشكاسة أخلاقها"(٥٤). ورأى الإدريسي الناس في مدينة الفسطاط بأنهم: " ... لأهلها همم سامية ونفوس نقية عالية وأموال مبسوطة نامية ..."(٥٥). وشاركه في الشعور نفسه الرحالة ابن سعيد في القرن السابع الهجري، فقال: " ... ولم أر في أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط، حتى إنهم ألفط من أهل القاهرة، وبينهما نحو ميلين ...وجملة الحال أن أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام وتحت ذلك من الملف وقلة المبالاة برعاية قدم الصحبة وكثرة الممازجة والأنفة ما يطول ذكره ..."(٥٦).

وأجمل الإدريسي رأيه في الناس بمصر فقال: " ... ومصر بالجملة عامرة بالناس نافقة بضروب المطاعم والمشارب وحسن الملابس وفى أهلها رفاهة وظرف شامل وحلاوة ...."(٥٧). وفى نفس القرن شارك الإدريسي الرحالة أبي بكر الزهري صاحب كتاب الجغرافية والمتوفى أواسط القرن السادس الهجري بقوله: " ... وأهل مصر وذواتها أرق نفوسا وأشح الناس على أموالهم وأكثرهم خيرات ..."(٥٨).

أما ابن بطوطة فقد وصف الناس في مصر، وقال: " ... وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو ..."(٥٩). ونجد صاحب الاستبصار يورد عن الجاحظ قوله: "... أهل مصر أعقل الناس صغارا وأحمقهم كبارا..."(٦٠). واشاد ابن بطوطة بأخلاق أهل قرية تروجة وهى على مسيرة نصف يوم من الإسكندرية بقوله: " ولأهلها مكارم أخلاق ومرؤة...."(٦١).

وقدم لنا الرحالة عبد اللطيف البغدادى وصفا لحياة الناس في ظل أزمة اقتصادية حادة كان لها أثرها السياسى والاقتصادي والاجتماعي على حياة الناس فشاهدهم في حالات من التدهور الأخلاقي والتخلخل الاجتماعي والفوضى الداخلية وانعدام الأمن وانتشار حوادث السرقة والنهب والقتل وانحصار لقيم المجتمع المصرى وتخلخل منظومة هذه القيم وتدهور في أعداد السكان وخراب الحارات ومدن وقرى كثيرة لعدم وجود من يسكنها وتحول جذرى في حياة المصريين التي تتميز بالمرح واللهو

كما وصفها رحالة القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري إلى حالة من البؤس والشقاء في فترة زيارة البغدادي لمصر [٦٢].وعندما زار أبي الصلت مصر قبيل الحكم الأيوبي في عصر الفاطميين ووصف لنا سكانها وأحوالهم فقال: " ... وكان المصريون أكثر الناس استعمالا لأحكام النجوم وتصديقا لها وتعويلا عليها وشغفا بها ..."[٦٣] وفى القرن السابع قال العبدرى: " وعالمهم أجهل من فراش ..."[٦٤].

ومع ذلك فإن ابن جبير ومعظم رحالة القرنين السادس والسابع الهجريين عندما زاروا مصر أعجبوا بها إعجابا كبيرا ووصفوا حال الناس فيها والعلم والعلماء والمدارس وصفا يناقض وصف ابن أبي الصلت.وعجب أن يصف العبدرى المصريين بالجهل ويسخر من علمائهم ثم يناقض نفسه ويصفهم في الرحلة نفسها: " ... رأيت بها أفرادا من أهل الفضل علما ودينا وددت لو منحت في ذكر فضلهم قلبا حافظا ولسانا مبينا..."[٦٥].

وجدير بالذكر أن إشارات الرحالة الذين زاروا مصر في القرنين السادس والسابع الهجريين إلى الكثير من العلماء والصوفية إشارات في غاية الأهمية توضح مصر في أوج عزها وازدهارها ودورها المنوط بها إذ أن الظروف التاريخية التي أحاطت بالعالم الإسلامي آنذاك جعلت مصر مقصدا للعلماء والفقهاء والطلاب والرحالة من شتى أرجاء العالم الإسلامي [٦٦] وما خلفته هذه الحقبة التاريخية من تراث ضخم في الرحلات وشتى نواحي المعرفة الإنسانية خير دليل على النشاط العلمي والثقافي آنذاك[٦٧].

ونجد النويرى (٦٧٧ – ٧٣٣هـ) ينصف الناس في مصر نقلا عن لسان عبد الله بن عمر بقوله: " ... وأهل مصر أكرم الأعاجم كلها وأسمحهم يدا وأفضلهم عنصرا وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقريش خاصة...."[٦٨]. وأن من عجائبها "...أن أهلها مستغنون عن كل بلد حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور.."[٦٩].

غير أن الرحالة المسعودي المتوفى ٣٤٦هـ وصف أهلها بأن فيهم: "مكر ورياء، وخبث ودهاء وخديعة، إلا أنها بلد مكسب لا بلد مسكن، لترادف فتنها واتصال شرورها ..." وأشار إلى مصر بأنها قد: " ذمها أكثر من حمدها "(٧٠). وأوجز ابن بطوطة الرحالة وصفه لمصر وأهلها بوصف جمع فيه بين الأضداد والمتناقضات وعبر عن ذلك كما يعبر عنه كل كاتب أو زائر بطريقته الخاصة ومن وجهة نظره بأنها: "... مجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر وبها ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل وحليم وسفيه ووضيع ونبيه وشريف ومشروف ومنكر ومعروف تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها، شبابها يجد على طول العهد "(٧١).



مما يوضح ما ردده بعض الكثير ممن جاءوا قبل وبعد ابن بطوطة عن مصر فوجدوا أنها: " أرض المتناقضات " أو بتعبير ملنر: "... أرض الأضداد "(٧٢). أو كما قالت المستشرقة وينفريد بلا كمان أثناء رحلتها إلى مصر أن: " ... مصر هى أرض المتناقضات ... وأعتقد أن هذه الملامح الطبيعية انعكست على شخصية الفلاحين فمن

الملاحظ أن معظم الصفات المتناقضة يمكن أن تجدها في إنسان واحد وبرغم كثرة الفقر والمرض وقلة وسائل التسلية التي تقضي على رتابة حياة الفلاح المصري نجد أنه إنسان مستبشر وراض بصورة تدعو للدهشة "(٧٣).

وقد ساق القاضي الفاضل صورة أخرى لأهل مصر فقال: " أهل مصر على كثرة عددهم وما ينسب من وفور المال إلى بلدهم مساكين يعملون في البحر ومعاهيد يدأبون في البر .." وأورد السيوطي في حسن المحاضرة أن: " أهل مصر عبيد لمن غلب أكيس الناس صغارا وأجهلهم كبارا...."(٧٤).

ولكننا نجد أن المصريين على طول تاريخهم الضارب بجذوره في فجر التاريخ الإنساني كانوا بالمرصاد لكل الطغاة الذين فرضوا سطوتهم عليهم وكانت السخرية والتهكم والهجاء من أهم الأسلحة التي استخدموها بمهارة فائقة في هذا المجال خاصة إذا كانت شخصية الحاكم نفسه وكان مظهر هذا جليا في العصور الإسلامية.ففي عصر سلاطين المماليك نبغ الشعراء الساخرون في تسديد سهامهم الحادة اللاذعة سواء إلى الرفقاء والأصدقاء أو إلى الساسة والحكام المماليك فقد انتهزت العامة فرصة تأخر فيضان النيل عن موعده وغنت في الحدائق عام (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م).

سلطاننا ركين ونائبنا دقين يجينا الماء من أين

يجيبوا لنا الأعراج يجي الماء ويدحرج (٧٥).

وعلى الرغم مما شهدته الشخصية المصرية من محن وشدائد عديدة صهرتها محنة الحروب الصليبية فقد خرجت منها ومن المحنة المغولية غير فاقدة لقدرتها على المسرح والتفاؤل وعشق الحياة والتي أثارت انتباه الرحالة ابن بطوطة الذي قال عن أهل مصر إنهم: " ذوو طرب وسرور ولهو " (٧٦) ولكن هذا لا ينفي أن مظاهر الحزن غلفت حياتهم ذلك أن التعبير الحقيقي عن الوجدان هو البكاء وليس الضحك وقد أحس الرحالة ابن جبير بروح الحزن التي مست شغاف قلبه لما شاهده من تمسح الناس بقبر رأس الحسين: " ... وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه

ببركة التربة المقدسة ومتضرعين ما يذيب الأكباد ويصدع الجماد..."[٧٧]. كما وصف لنا ابن جبير ومن بعده ابن بطوطة ورحالة آخرون حياة الناس في القرافة والتي أثارت دهشة بعض الزوار واستفزت مشاعر الحنق والغضب لدى البعض الآخر لعدم وقوف أغلب الرحالة الذين زاروا مصر على ثنائية الحزن والمرح في الشخصية المصرية[٧٨].

هذا التناقض أو يبدو تناقضا نراه يجد متنفسا في الفنون الأدبية فكان متنفسا للشعب عندما ضاق ذرعا بظلم الحكام واستبدادهم وتعسفهم فعبر عن آرائه وأفكاره وعرض قضاياه وقضايا وطنه في فنونه الشعبية، فنجد أحد شعراء مصر يصف دار سكناه ساخرا بقوله:

دار سكنت بها أقل صفاتهـــــــا أن تكثر الحشرات في جنباتهـــــا
وتبيـــت تسعدها براغيث مـــــتى غنت لها رقصت على نغماتهـــا
وبها ذباب كالضباب يسد عـــــين الشمس ما طربـــى سو غناتهـــا
ولها عقارب كالأقارب رتــــــــع فينـــا حمانا الله لـــدغ حماتها[٧٩].

وما هذا الشاعر إلا نفر من الناس الذين عانوا من الفقر المدقع والحرمان إما بسبب الحروب الطاحنة التي كانت تخوضها البلاد والتي يقترن بها دائما انتشار الأمراض والأوبئة أو العوز والحاجة تحت وطأة الجباية التي كان تطبق عل أنفاس كل الطبقات ناهيك عن أن الفساد والقهر الذي كان – منتشراً أفقيا في النسيج الاجتماعي ورأسيا من قمة السلطة لأدناها – فيه مقتل للشخصية المصرية حيث يتمثل دعوة مبكرة للتخلي عن كل القيم والمثل والتحول للنفعية الفردية بالطرق غير الشرعية إلى حدة سيادة السخرية من قيم المروؤة والشهامة والكرم والنبل والإيثار ورد الجميل التي أنتجتها ثقافتنا الإسلامية العربية وظلت لصيقة بمجتمعنا بدرجة أو أخرى إلى أن لاحقها التفسخ والتشويه تحت وطأة الظلم والقهر والفقر والإحساس الحاد بهم وعجز المصري عن التوصل إلى نصيب عادل من وسائل العيش فلجأ بعض

أهل مصر إلى العنف والتمرد والغش الذي انعكس ذلك كله في وصف الكثير من المؤرخين والرحالة لأحوال أهل مصر وظهر لديهم التلون العاطفي بشكل واضح في سياق حديثهم عن أخلاق المصريين.

وقد انعكس التناقض في الشخصية المصرية على الإنتاج الأدبي والفني الشعبي للناس في مصر واتخذ الطابع التهكمى الساخر الفكه وهذا الطابع يغلب على معظم إنتاج الأدباء في مصر لأنه طابع يغلب على المصري بصفة عامة فمن الطبيعي أن يغلب على أدبه كذلك فهو يأسي ويتفكه في نفس الوقت ويجعلنا نأسى لمأساته ونمرح لفكاهته أو دعابته الساخرة المتهكمة[٨٠]. ولكن لم يتطرف في سخريته ولهوه ومرحه كما صوره الرحالة ابن أبي الصلت بأن " لهم ميلا للترهات واشتغالا باللذات " .. فلم يفوق في الاشتغال باللذات – مثلا – بغداد في أوج ازدهارها ولم تنحرف لدى أهل مصر انحرافها عند البغداديين وغيرهم من سكان الحواضر الإسلامية الأخرى[٨١]. وإنما كان المصري في مرحه وسخريته يؤكد على وجوب تغيير وثورة ضد اللامألوف واللإنساني وضد الهيمنة والانحراف والذل والسخرة والصمت والموت قبل الموت متخذاً من إنتاجه الأدبي وموروثه الشعبي سلاحاً ضد حكامه الطغاة والشاذين منهم يقوم به اعوجاجهم ويتخذه مادة للتسلية والمرح في أوقات أنسه وسروره وقد شاهد ذلك نفر كثير من الأدباء والرحالة الذين وفدوا على مصر ومارسوا أخلاق المصريين وطبائعهم فأعجبوا ببعضها ولم يعجبهم بعضها الآخر[٨٢]. وتفاوتت نظرتهم للحياة في المدن المصرية.

كذلك تعرض رحالة القرنين السادس والسابع الهجريين في سياق حديثهم عن المدن المصرية لطريقة الحصول على مياه الشرب ومنها نتبين الدور النبيل والمهم الذي لعبه نهر النيل في حياة المدن المصرية رغم ذلك فإن حتمية وجود المراكز السكنية قرب الماء لم تتحقق في هذه العصور ببعض المدن. فرغم أن الأغلبية العظمى في المدن كانت

تقع على مجرى المياه فقد كان هناك قلة قليلة من المدن تحدت قانون ارتباط المدينة بمورد الماء فكانت تجلب الماء من مناطق تبعد عنها كما هو الحال في عيذاب.

وعنها يقول ابن جبير: " وحسبك من بلد كل شئ فيه مجلوب حتى الماء والعطش أشهى إلى النفس منه ... "(٨٣).وقد لاحظ آدم متز أن طريقة إمداد الناس بالماء في قصبة القطر المصري طريقة لا أثر فيها للرقى قط، فكان أهل مصر يشربون ماء النيل الذي يحمله الحمالون في الروايا ويصعدون الدور كل طبقة بنصف دانق، ويحكى ناصر خسرو في عام ٤٤٠هـ أنه كان بمصر والقاهرة اثنان وخمسون ألف جمل لحمل قرب ماء الشرب في هاتين المدينتين، وفى سنة ٣٨٢هـ نودي بالسقائين في مصر أن يغطوا الروايا التي تحملها الجمال والبغال مملوءة بالماء لئلا يصيب الماء الذي يتساقط منها ثياب الناس(٨٤).

واعتمد المصريون على مياه النيل في الشرب لعدم وجود دورات المياه والحمامات في المنازل وكان السقاءون هم الذين يقومون بأداء هذه الخدمة في المدن المصرية لقاء أجر معلوم وكان السقاءون يحملون قرب المياه على ظهور جمالهم وحميرهم



أو على أكتافهم ويسيرون في طرقات المدينة وهم يصيحون بالصلاة على النبي حتى يفسح الناس لهم الطريق ولفت نظر الرحالة الذين زاروا مصر آنذاك كثرة عدد السقائين الذين قدر البلوى المغربي (زار مصر في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) أنهم يمتلكون مائتي ألف جمل(٨٥).

واسترعى انتباه الرحالة ابن سعيد بُعْد القاهرة عن مجرى النيل وجعله من عيوب القاهرة، فقال: " ... ومن عيوب القاهرة أنها في أرض النيل الأعظم ويموت الإنسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها..."(٨٦).

وكان لقرب الفسطاط من مجرى النيل سبب في إعجاب الرحالة ابن سعيد بها وتفضيلها على القاهرة، فقال:"والفسطاط أكثر أرزاقا وأرخص أسعارا من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط ... وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه بعيد عن المدينة.."(٨٧).ورغم قرب الفسطاط من مجرى النيل إلا أنها كانت تعتمد في مياه الشرب على ما يحمله الحمالون من مياه حتى أن ابن سعيد قد سجل حنقه من كثرة الجمال التي تحمل المياه في السوق فقال: "... فقاسيت من ازدحام الناس فيها – الفسطاط – بحوائج السوق والروايا التي على الجمال ما لا يعنى به إلا مشاهدته ومقاساته ... وفى الفسطاط دار تعرف بدار عبد العزيز يصب فيها لمن بها في كل يوم أربعمائة رواية ماء.."(٨٨).

واسترعى نظر الرحالة بيروطافور كثرة عدد السائقين في شوارع القاهرة، فقال: "... وعددا كبيرا من السقائين يروحون ويجيئون لبيع المياه التي يحملونها على ظهور الجمال والحمير أو في القرب على ظهورهم وذلك لكثرة عدد الناس ولا سبيل إلى الماء إلا من النهر ..."(٨٩). وكذلك ذكر الرحالة الغربي بالرن الذي زار مصر سنة ١٦٠٦م أنه لما كان سكان القاهرة يعتمدون على النيل في الشرب فإن المياه تصل إلى المنازل بواسطة السقائين(٩٠).

وذكر ابن بطوطة أن: " بمصر من السقائين على الجمال أثنى عشر ألف سقاء وأن بها ثلاثين ألف مكار..."(٩١) وتؤكد مصادر أدب الرحلات والمصادر التاريخية أن



عددا كبيرا من السقائين كانوا ينقلون مياه نهر النيل إلى سكان القاهرة في قرب المياه يحملونها على ظهور الجمال والحمير أو على أكتافهم [٩٢]. فقد شاهد جوزيف بتس بالقاهرة أن: "هناك كثيرون يتكسبون بحمل الماء في قرب من جلود الماعز ..." [٩٣].

وتغلبت مدينة الإسكندرية على مشكلة مياه الشرب بإقامة خزانات أشار إليها الزهري بقوله: " .. . أنها ما فيها دار ولا شارع إلا وفيها ماجن والماجن بلغة القبط هو الجب فإذا كان خروج النيل وبلغ إليهم جلبوا إلى تلك المواجن من تلك المياه ما يكفيهم إلى العام الثانى ...." [٩٤]. وذكر ابن جبيران " الماء من النيل يخترق ديارها وأزقتها تحت الأرض فتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضا..." [٩٥].

وأشار البغدادى أن: " دمياط والإسكندرية وما داناهما فهي غزيرة المطر ومنه يشربون ..." [٩٦]. وقد شاهد الرحالة الغربى(باليرن) أن مبانى الإسكندرية قد أقيمت فوق صهاريج ماء ذات قناطر ويصل ماء النيل إلى هذه الصهاريج" [٩٧].

أما الحال في مدينة تنيس فقد أحصى ابن بسام التنيسى مصانع المياه في مدينة تنيس ووصفها بقوله: " ... وبتنيس مصنعتان عظيمتان تنسبان إلى عمر بن حفص مكشوفتى السقوف والغربي منها أحد وعشرون بيتا والشرق ثمانية عشر بيتا ومصنع مسقف وسط المدينة بناه عبد العزيز الجروى ينقل إليه الماء على دولاب يشتمل عليه ستون قادوسا مدة شهرين كاملين بلياليهما يسع كل قادوس في تفريغه في يوم وليلة ألف جرة ملء كل جرة أقساط من ماء فيكون هذا المصنع ثلاثة ألف ألف ألف جرة وستمائة جرة ... ولأبن طولون ثلاث مصانع أحدها بالقرب من السوق والآخر في زيادة الجامع" ثم أردف ابن بسام أنه كان له مصنع خاص به في المدينة، قال: " ولكاتب هذا مصنع آخر دون هذا ..."(٩٨). وأشار لهذا القزويني بقوله:"تخزن أهل تنيس المياه في صهاريجهم ومصانعهم لشرب سنتهم .."(٩٩). ومن هذه الصهاريج ما كان خاصا بالأفراد ومنها ما كان عاماً موقوفاً ويعطي ماؤها للغرباء(١٠٠).

وفى دمياط تحدث ابن بطوطة عن طريقة حصولهم على الماء قائلا: " وأهل الدور الموالية له – النيل – يستقون منه الماء بالدلاء وكثير من دورها بها دركات يترل فيها إلى النيل ..."(١٠١).

ووجدت قلة من المدن ذات الظهير الصحراوي في مصر تعتمد على مياه الآبار في الشرب وقد شاهدها ابن جبير على طول طريق رحلته في الصحراء الشرقية: "... فترلنا ضحوة على ماء الخبيب وهو بموضع بمرأى العين من عيذاب وعلى نحو ميلين منها وماؤها في بئر معينة يستقى منها القوافل وأهل البلد ويعم الجميع وهى بئر كبيرة كأنها الجب الكبير..."(١٠٢).

ووصفها الرحالة العبدرى بقوله: " ... صحراء لا أنيس بها وعادة الركب الترول بها ليتلاحق الناس وربما أقاموا بها يومين أو ثلاثة وفيها آبار طيبة وتقوم بها سوق عظيمة ..."(١٠٣).وقد وصف هذه الآبار الرحالة ابن عبد السلام الدرعى في رحلته

الكبرى فقال: "...ثم ارتحلنا من البركة وقد مضى من النهار ... بعد أن نودى بحمل ماء يومين تامين جادين ..."(١٠٤).

وقد تشابهت كل من عيذاب والسويس في طريقة الحصول على مياه الشرب فكانت السويس تجلب الماء من مناطق تبعد عنها كما هو الحال في عيذاب فيذكر العبدرى: " ماء السويس ملح لا يكاد يساغ لملوحته ... ولكن بالقرب منه على نحو عشرة أميال أو أزيد قليلا ماء يقال له مغبوق وهو ماء عذب..."(١٠٥).

وقال صاحب الروض المعطار في أخبار الأقطار: " القلزم مدينة من أعمال مصر على ساحل البحر ... وشرب أهل مدينة القلزم من جزيرة هناك ومن السويس يجلب على الظهر وهي يمين طريق مصر على ثلاثة أميال من مدينة القلزم.."(١٠٦). وقد اشترى الرحالة بتس الماء في السويس ودفع: " حوالي ستة بنسات "جروت" لقاء الماء العذب..."(١٠٧).

ومما سبق تتضح أهمية سعة الماء المستعذب كشرط أساسي في اختيار مواقع المدن فعلية تقوم الحياة واشترط السعة يعنى النظرة المستقبلية لازدياد متوقع في عمران المدينة ويسهل أيضاً عملية التخطيط لتوصيلها إلى مرافقها وتكويناها العمرانية المختلفة وتضمن الشروط أيضا عذوبة الماء " أي صلاحيته للشرب بالإضافة إلى الأغراض الأخرى المختلفة(١٠٨) ويكفى أن نشير من خلال دراسة كتابات الرحالة في القرنين السادس والسابع الهجريين إلى أثر ملوحة الماء وندرته في الحد من عمران عيذاب ومنطقة الطريق من قوص إلى عيذاب حتى أنها في أوج فترات ازدهارها لم يكن عمرانها على مستوى مكانتها وإضافة إلى شكوى أهلها والرحالة والوافدين عليها من ذلك، فكما ذكر الرحالة ابن جبير أنها: " بلد كل شئ فيه مجلوب حتى الماء .."(١٠٩) برغم كونها على حد وصفه: "أحفل مراسي الدنيا "(١١٠).

ثانياً: المدينة المصرية وأحوالها في عيون الرحالة .

لعل أهم مساهمات الرحلة في القرنين السادس والسابع الهجريين جاءت من خلال الكشف عن أحوال المدن المصرية آنذاك وكشفت لنا خط التصاعد والتنازل في أحوال هذه المدن التي زارها أو مر بها هؤلاء الرحالة في هذه الحقبة العصيبة والتي صارت فيها مصر بؤرة ومحور ارتكاز في المنطقة العربية والعالم الإسلامي في مواجهة موجة اشتداد الصدام مع الصليبيين في المنطقة العربية وظهيرهم المساند في أوربا وأهدافهم الاستعمارية، وفى وقت احتدام الأحداث العالمية التي أدت إلى اجتياح عاصمة الخلافة العباسية في خمسينيات القرن السابع الهجري (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) وما أحدثته من اهتزاز لمشاعر الأمة الإسلامية من انهيار لرمز إقامة شرع الله على أرضه ثم إحياؤه مرة أخرى في مصر علي يد الظاهر بيبرس مما جعلها مهوى أفئدة كثير من الرحالة والمهاجرين من الشرق والغرب الذين قدموا لنا ــ دون قصد ــ وصفاً لأحوال المدن المصرية والذي انعكس ذلك على كتاباتهم وأساطيرهم آنذاك.

فمدينة القاهرة من خلال المقارنة بين وصف ابن جبير الذي زار العاصمة المصرية في بواكير عصر الدولة الأيوبية ورحلة ابن سعيد الذي زارها في سنوات الأفول والغروب التي عانتها دولة بني أيوب تكشف عن أن حال المدينة قد سار في اتجاه معاكس لحال الدولة التي تصادفت الرحلتان مع بدايتها ونهايتها على مدار القرنين السادس والسابع الهجريين [١١١]. ففي الرحلة الأولى كانت القاهرة تبدأ تاريخها الحقيقي عاصمة لمصر والعالم الإسلامي على استحياء حتى أن الرحالة الإدريسي (القرن السادس الهجري) قد أغفل ذكرها وبواعث ذلك أنها لم تستطيع أن تطفئ بريق الفسطاط[١١٢].

وفى الرحلة الثانية (القرن السابع الهجري) كانت القاهرة قد استكملت كل المقومات التي تجعلها عاصمة عالمية وانعكست هذه الحقيقة فيما أشارت إليه كلمات ابن سعيد وغيره من رحالة القرن السابع الهجري عن سكانها وأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية عاداتهم، وقد تكرست هذه المكانة في القرن السابع الهجري . وقد صارت: " ... القاهرة بالقياس إلى مصر في غاية العمارة وأهلها في غاية الكثرة ...

وجعلها مقر الملك إلى اليوم .."[١١٣]. وصارت القاهرة عاصمة العالم الإسلامي كله ووفد إليها العلماء والفنانون مع المهاجرين من شرق وغرب العالم الإسلامي على حد سواء: "... حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسى الملك ... وبعد مداها في العمران واتساع الأحوال"[١١٤]. وأصبحت مركز للتجارة العالمية والنشاط السياسي والدبلوماسي في العالم المعروف آنذاك[١١٥] رغم بعدها عن النيل عند تشييدها وقد ظلت كذلك حتى القرن السابع الهجري فقد ذكر أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ): " أن القاهرة ليست على شط النيل بل هى في شرقيه"[١١٦].

وازدادت أحوال القاهرة ازدهارا في القرن السابع الهجري فيذكر الرحالة ابن سعيد الأندلسي الذي زار المدينة في القرن السابع الهجري: " أن بها الطراز والأسواق الضخمة والخانات ..." [١١٧]. وحوت القاهرة كثيرا من أهل الفضائل والصناعات والتجارة والمترددين عليها[١١٨].

وأشار ابن ظهيرة إلى أن: " الدليل على شرفها وعظمها اتخاذ الملوك لها دارا وبيت المال بها قرار وجيوش الإسلام لها استقرار ورحل إليها ونشأ بها واستوطنها العلماء الأعلام ... والتجار وسائر أصناف الخلق على اختلاف أجناسهم وأنواعهم قاطنون بها لا يبرحونها وأما المترددون للتجارة وغيرها فأكثر من أن يحصروا في عصر وزمان..."[١١٩]

كما يمكن القول أن خط نمو القاهرة والمدن المصرية منذ بداية عصر المماليك كان موازياً لخط نمو الدولة المملوكية نفسها بحيث أن تدهورها كان مؤشراً لتدهور الدولة وسقوطها. وعلى العكس من ذلك فقد كانت القاهرة في عصر الدولة الأيوبية في خط نمو مضاد لخط نمو الدولة بحيث وصلت في نهاية الدولة إلى أن أصبحت في مصاف العواصم العالمية.

وجدير بالإشارة أنه خلال القرنين السادس والسابع الهجريين اختلفت الأهداف التي أنشئت من أجلها بعض المدن المصرية في العصر الإسلامي فمنها ما بدا على هيئة معسكرات حربية ثم تطور إلى هيئة مدينة مثل الفسطاط ومنها ما انشئ كعواصم أو حواضر للدولة الحاكمة كالقاهرة التي أنشئت في أول أمرها كحاضرة للدولة الفاطمية على يد جوهر الصقلي مولى المعز لدين الله الفاطمي (٦٤٢ هـــ / ٣٦٥هـــ) وذلك بعد دخوله بعساكر الفاطميين إلى الفسطاط سنة ٣٥٨هـــ وقد أنشأها جوهر الصقلي لتكون مقراً للحكومة الفاطمية ومركز الدولة الإداري والسياسي ومعقلاً لنشر الدعوة الإسماعيلية ، ولم يقصد بإنشائها أن تصبح عاصمة للبلاد عوضاً عن الفسطاط التي أصبحت في ذلك الوقت تضم إليها العسكر والقطائع مؤلفة عاصمة البلاد وقد جعلت القاهرة سكناً للخليفة الفاطمي وحرمه وجنده وخواصه ، ومعقل قتال يتحصن بها ويلجأ إليها إذا استولى المتربصون على الفسطاط ولم يعرف الشعب المصري له نصيباً من عمارتها ، ولكن ظلت العمارة والاتساع من نصيب الفسطاط والعسكر والقطائع ، واتصلت هذه المدن الثلاث مكونة مدينة واحدة متصلة العمارة إلى حدود القاهرة ، ويطلق عليها جميعاً اسم مصر أو الفسطاط (١٢٠) ثم ما لبثت في القرن السادس الهجري أن أصبحت عاصمة شعبية لمصر كلها ثم تحولت إلى عاصمة للخلافة الإسلامية.

ومن ناحية أخرى نجد القاهرة العاصمة كانت دائما تسود الحياة المصرية بصورة طاغية غير عادية، وكما تذهب القاهرة تذهب مصر(١٢١). فقد وجدها ابن سعيد في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي: " عظيمة آهلة يجبى إليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال ما لا يحيط بجملته وتفصيله إلا خالق الكل جلا وعلا ..."(١٢٢). أو كما قال WHITTLESEY : " إن مصر جميعا من البحر حتى الشلال كانت ترقص على أنغام القاهرة .."(١٢٣). فقد كانت ملجأ للفقير: " الذي لا يخاف على طلب الزكاة ولا ترسيما وعذابا عليها ... وقلة الاعتراض عليه في ما ذهب

إليه نفسه.." (١٢٤). فقد رآها الرحالة البندقي بيلوتي PILOU في القرن التاسع الهجري: " مدينة القاهرة هى أكبر مدينة في العالم من بين المدن والواقعة في حدود علمنا ..." (١٢٥). بينما يقول فريسكو بالدى من قبله في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي: إن سكان القاهرة حين مر بها كانوا أكثر من سكان مقاطعة توسكانا الإيطالية جميعا وإن عدد السفن الراسية في مينائها كان يفوق ما في موانئ البندقية وجنوا وأنكونا معا(١٢٦). ووصفها الرحالة البريطاني جوزيف بتس بأنها: " ... تعد مستودعا للغرباء والتجار مما أعطى لهذه المدينة (القاهرة) شهرتها التاريخية ..." (١٢٧) ووجدها ابن ظهيرة أنها: " ليست بمدينة واحدة بل مدن مجتمعة إذ في كل شارع وخط ومحلة منها بيوت ودروب وأسواق وجوامع ومدارس تصلح أن تفرد بمدينة واحدة بها في كل ربع من ربوعها ما يعمر بهم قرية..." (١٢٨).

ويبدو أن القاهرة قد حازت شهرة واسعة في العصور الإسلامية /الأوربية الوسيطة جعلتها تثير الدهشة لدى الرحالة وكل من تمتلكه الرغبة في مشاهدة البلدان الشهيرة وجعلتها تجتذب فيما بعد باقة من رحالة الغرب فأقبلوا بأقلامهم ليقفوا على منابع الروايات الجذابة التي سمعوا بها من سابقيهم ومن هؤلاء كان الرحالة لودوفيكودى فارتيما الذي قال: "...عند وصولي للقاهرة وجدتها ليست كبيرة يساوى تقريبا محيط روما ..." (١٢٩). وفى مسالك الأبصار: " أخبرني غير واحد ممن رأى المدن الكبار أنه لم ير مدينة اجتمع فيها من الخلق ما اجتمع في القاهرة ..." (١٣٠).

وتمثل العاصمة المصرية عادة أهم نوعية من المدن الأخرى باعتبار أهميتها السياسية المنعكسة في ازدياد عمرانها فهى تنال من الحظوة والرعاية ما لا يناله غيرها من المدن، وقد لاحظ الرحالة في العصور الوسطى تأثر عمران القاهرة بالمستجدات السياسية على مسرح الأحداث .

فنجد أن القاهرة قد استمرت في عمرانها متأثرة بالوضع السياسي الجديد فحينما كانت القاهرة عاصمة ملكية في العصر الفاطمي اتخذها بعد ذلك الأيوبيون

والمماليك مقراً لحكمهم وعاصمة لدولتهم وحولوها من مدينة ملكية إلى مدينة عامة بعدما أنشأوا القلعة مركزا للإدارة والحكم.

وأشار صاحب صبح الأعشى إلى أن: " القاهرة لم تزل في كل وقت تتزايد عمارتها وتتجدد معالمها خصوصا بعد خراب الفسطاط وانتقال أهله إليها على ما تقدم ذكره حتى صارت على ما هى عليه في زماننا – يقصد الفترة التي عاش فيها القلقشندى– من القصور العلية والدور الضخمة والمنازل الرحيبة والأسواق الممتدة والمناظر ا لنزهة والجوامع البهجة والمدارس الرائعة والخوانق الفاخرة مما لم يسمح بمثله في قطر من الأقطار ولا عهد نظيره في مصر من الأمصار وغالب مبانيها بالأجر ..."[١٣١].

وفى إطار الاهتمام بإدارة ومتابعة حركة الإنشاء وزيادة العمران أنشئ ديوان للعمارة في العصر المملوكي على يد الناصر محمد بن قلاوون(٦٩٣ ــ ٧٤١هـ/١٢٩٣م ــ ١٣٤١م) الذي عرف بحبه للعمارة والإنشاء ويكفى أنه قد تم تشييد أكثر من أربعة وخمسين جامعا ومدرسة في عهد الناصر محمد وكانت هذه المباني متفرقة في عدة مناطق بالقاهرة بحيث تبدو وكأنها قد دفعت بحدود المدينة الأيوبية إلى التوسع في جميع الاتجاهات والدليل على ذلك أن سور القاهرة الغربي كان يحاذى الخليج ثم لما اتسعت المدينة وامتدت جهة الشمال والجنوب والغرب أصبح الخليج يخترق وسطها[١٣٢]. ويشير المقريزي إلى أن الناصر كان ذا همة عالية وسياسة جيدة جعلته يعمل على مهادنة الملوك وكانت أهم أعماله على الإطلاق والتي أدت إلى زيادة العمران في القاهرة كان حفر الخليج الناصري ٧٢٥هـ/١٣٢٤م وقد عمر الناس ما حوله وأدي ذلك إلى عمارة العديد من الأراضي الواقعة بين الخليجين وبين الخليج الناصري والنيل فقد استجد في عهده بضع وستون حكراً اتصلت العمائر في مصر والقاهرة وصارت بلداً واحداً ، وعمرت أنحاء القاهرة الأربعة ، وتنافس رجال وأمراء دولته في إنشاء العمائر الجليلة والبساتين الفاخرة والدور العظيمة وأكثروا من زخرفة المساجد ، وترك لنا الأمراء مثل آل ملك الجو كندار ٧١٩هـ/١٣١٩م ، وحسين

قوصون ٧٣٠هـ /١٣٣٠م ، وبشتاك ٧٣٥هـ /١٣٣٥م ، وألطنبغا الماردايي ، وغيرهم من علية القوم قائمة بالصروح المصنعة حوالي ١٨ جامعاً ومدرسة أقيمت خلال هذا العصر[١٣٣]

ونجد أنه حتى نهاية العصور الإسلامية /الوسطى كان التنافس شديداً بين القاهرة والإسكندرية في بيع وتوزيع سلع العربية وغربا للسلع الشرقية والمحلية نظراً لتوسط مركزها، كما كانت أقصى ما يصل إليه التجار الأجانب الوافدين لمصر ونص على ذلك في المعاهدات التجارية بين مصر الدول الأوربية وبالمدينة أحياء معينة خصصت لتجارة التوابل والعطور والسلع الشرقية والغربية وللتجار فيها مخازن وقياسر ووكالات وفنادق خاصة وأماكن خاصة لدوابهم لا سيما الوافدين من الشام أو بلاد العرب أو السودان وفارس[١٣٤].

ونخلص من مذكرات رحالة القرن السادس الهجري أن المدن في مصر تفاوتت أحوالها وأوضاعها لسبب أو لآخر فظهرت الإسكندرية في القرن السادس الهجري مدينة بها الحركة والنشاط وبدت وقد استعادت جزءا من حيويتها القديمة التي فقدتها بعد الفتح العربي وظهرت كمدينة ذات أسواق رائجة ومزدهرة لوفود السفن إليها من كل صوب وحدب . وقد ذهل بعض الرحالة الأوربيون أمثال بنيامين التطيلي وبرخارد الذي قدم إلى مصر في سنة ١١٧٥م (السادس الهجري) سفيراً للإمبراطور فردريك برباروسة، بكميات الكارم الهائلة التي كانت تحملها السفن في النيل إلى ثغر الإسكندرية[١٣٥]. وصفها العبدري بأنها: " ... مدينة الحصانة والوثاقة وبلد الإشراق اللامع والطلاقة وطلاوة المنظر .. مليحة البنيان ... كلها عجب"[١٣٦].

ولعل أبلغ عبارة وصفها بها ابن جبير تبين نشاطها كميناء هام قوله: " ...ومن الغريب أيضا في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع أحوالهم ..."[١٣٧]. وهذه الصورة التي رصدت حال الإسكندرية هي نفسها الموجودة

حتى الوقت الحالي في موانئ مصر عامة حيث ينشط الناس وتفتح المتاجر بمجرد وصول السفن.

وذكر ابن سعيد أن ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندراني والبحر الحجازي يفوق الوصف[١٣٨]. كما كانت مقصدا لكثير من المغاربة منذ القرن السادس الهجري من البر وقد نوه ابن جبير إلى ذلك في أكثر من موضع في رحلته: "لأبناء السبيل من هؤلاء المغاربة خبزتين لكل واحد في كل يوم ... ذكر له أن أكثر هؤلاء المغاربة البربريين ..."[١٣٩]. وكان للفاطميين أثر لا ينكر في هجرة كثير من قبائل البربر المتعربة إلى مصر حيث إنهم اعتمدوا على هذه القبائل في تكوين جيوشهم ، وكان من الطبيعي أن تنتقل جماعات منهم إلى مصر بانتقال الفاطميين إليها حيث انتقلت موجات كبيرة من المغرب واستقرت في الجانب الغربي في البحيرة والفيوم والواحات وسائر الجهات العربية من صعيد مصر ، كما بلغت العلاقات بين الحفصيين والمماليك في مصر درجة من حسن الجوار حتى إن الإسكندرية اعتبرت منفى للأمراء الحفصيين المغضوب عليهم والأمثلة كثيرة على عدد الحكام المنفيين إلى مصر في العصر المملوكي فقد لجأ إليها سنة ٧٦٦هـ حلى عبد الحكيم سلطان المغرب فاراً من بلاده فأجرى له سلطان مصر الرواتب ، كما كانت مصر طريق حج المغاربة لذلك كان ملوكهم يرسلون الهدايا مع قوافل الحج الآتية إلى مصر في طريقها إلى مكة والحجاز[١٤٠]

كما كانت تزخر بكثير من الأوربيين الذين أشار لوجودهم الرحالة بنيامين التطيلي في قوله: ".. وهذا البلد تجارى يؤمه الناس من جميع الشعوب والأمم المسيحية، فمن بلاد الغرب: البندقية ولمبارديا وتسكانه وأبولية و أمالفى وصقلية وكالابريا ورومانيا وكازاريا وباتزيناكيا وهنغاريا وبلغاريا وراكوفيا وكرواتيا واسكلافونيا وروسيا وألمانيا وسكسونية ودنمركة وكرلانديا وآيسلندا والنرويج واسكتلندا وفرنسا وانجلترا وفلا ندرز ونورمانديا وأنجو وبواتو وبورجونية وبروفنس وجنوة وبيزة وغسقونية وأرغون وزبنارة، ومن بلاد الشرق الإسلامي: الأندلس والمغرب وإفريقية

وبلاد العرب والهند والحبشة وليبيا واليمن وبابل وسوريا واليونان وتركيا وتأتيها السلع الهندية وجميع أنواع التوابل التي يشتريها التجار المسيحيون وهى مدينة بالمتاجر ولكل بلد فندق..."[١٤١]. ويذكر صاحب المسالك والممالك أنه كان بها سوى أهلها ستمائة ألف يهودى خولا لأهلها[١٤٢].

ونوه الرحالة بكثرة حماماتها ووجود المارستانات بها وأيدهم في هذا القول الوزير الأيوبي المعاصر لهم في القرن السادس الهجري الأسعد بن مماتى بقوله: " ... الثغور المحروسة إسكندرية، دمياط، تنيس، رشيد، عيذاب، والإسكندرية أعظمها قدرا وأفهمها أمرا وأكثرها ارتفاعا.."[١٤٣].

ويذكر ابن مماتى أن المراكب كانت تسير بخليج الإسكندرية وتحمل إليها الأخشاب والغلال والكتان والبهار والسكر وغير ذلك من الأصناف، كما تحمل من الإسكندرية الأخشاب والحديد برسم عمارة المراكب وذلك في شهر مسرى الموافق لشهر آب (أغسطس) حيث ترتفع مياه النيل ويمتلئ خليج الإسكندرية بمياه النيل[١٤٤]. كما أشار لذلك الرحالة جيوم التورى GUILLAUME DE TURE: " أن سوق الإسكندرية يحوى شتى الأحجار الكريمة والعطوز وجميع الأشياء الثمينة التي تفتقر إليها أوربا وهى تحمل إلى الإسكندرية من الهند واليمن والجزيرة العربية وأثيوبيا وفارس وغيرها من الأقطار.."[١٤٥]. وفيها قال ابن بطوطة: " ... الثغر المحروس .. الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب .. ولها المرسى العظيم الشأن ولم أر في مراسي الدنيا مثله. ..."[١٤٦].

غير أنه يلاحظ أن الإسكندرية تميزت خلال جزء كبير من العصور الإسلامية بالسلبية التجارية فكانت تعمل في نقل تجارة الأجانب أكثر من اشتغالها بتبادل التجارة لحسابها الخاص مع العالم الخارجي وليس أدل على ذلك من تحول المدينة إلى مخزن كبير لمتاجر حوض البحر المتوسط والشرق الأقصى وازدحامها بكثير من تجار البندقية والقسطنطينية والمغرب ويؤيد ذلك أيضاً وصف رحالة العصور الوسطى في القرنين

السادس والسابع الهجريين ومنهم وصف بنيامين التطلي للمدينة في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي الذي أحصى ٢٩ مدينة ومملكة أوربية بخلاف البلدان الإسلامية والهند والصين واليابان ، وأن لكل طائفة منهم فندقا خاصا بالمدينة(١٤٧). وقد ذكر الرحالة فارتيما: " وسرعان ما غادرت الإسكندرية فهى معروفة للجميع "(١٤٨).

وكانت الإسكندرية بحكم موقعها على البحر المتوسط تفوق القاهرة في اتصالها بأوربا مباشرة والمدينة تزدحم طول العام بالأجانب الوافدين إليها للتجارة أو للعبور للحج للأماكن المقدسة في سيناء وفلسطين ولدول أوربا والبحر المتوسط بالمدينة قناصل وسفراء ووكالات وأحياء كاملة وفنادق يمارسون فيها حياتهم الخاصة في حرية(١٤٩).

أما مدينة الفسطاط – التي كانت قد سلبت الإسكندرية مركزها في القرون الثلاثة الأولى للهجرة بعد أن اتخذها المسلمون حاضرة لمصر بدلا من الإسكندرية ومقرا للولاة ومركزا رئيسيا لإشعاع الحضارة العربية الإسلامية(١٥٠)– فقد كانت تعانى من منافسة القاهرة من ناحية، فيذكر ابن سعيد المغربي: " أن من فضائل القاهرة الطراز وسائل الأشياء التي يتزين بها الرجال والنساء ... وأن جميع زى الجند هو بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط وكذلك ما ينسج ويصاغ وسائر ما يعمل من الأشياء الرقيقة السلطانية.."(١٥١).

إضافة إلى معاناة الفسطاط من آثار الخراب الذي أحدثه بها الحريق في سنة ٥٦٤هـــ في عهد الخليفة الفاطمى العاضد حين أمر الوزير شاور باحراقها(١٥٢). وبرغم أن مظاهر العمران كانت تجرى بها إلا أن الرحالة ابن جبير قال عنها:"... وهى مدينة كبيرة والآثار القديمة حولها وعلى مقربة منها ظاهرة تدل على عظم اختطاطها فيما سلف"(١٥٣).كما نوه إلى أثار الحريق المدمر لها في قوله: "... وبمدينة مصر آثار من الخراب الذي أحدث الإحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين.."(١٥٤). وقد استمر حال الفسطاط في خط تنازلى منذ (القرن السادس

الهجري إلى القرن السابع الهجري) حتى أن عبد اللطيف البغدادي أشار لهذا الوضع في قوله: "... فالقاهرة بالقياس إلى مصر في غاية العمارة وأهلها في غاية الكثرة .."(١٥٥).

ومن خلال ما أورده الرحالة عن الفسطاط نجد أنها بلغت أوج عزها في القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر ولكنها ما لبثت أن تدهورت في أواخره بسبب ضعف الدولة الفاطمية وما صحبه من تمرد الجند وانتشار الفوضى والخراب وبسبب الشدة العظمى التي حلت بمصر سنة ١٠٥٠م وظلت سبع سنوات ثم الحريق الذي استمر بها مدة أربعة وخمسين يوما وبالرغم من محاولات الأيوبيين لإرجاع المدينة إلى سابق عمرانها وازدهارها إلا أنها كانت تسير في الظل بينما كان نجم القاهرة آخذ في الصعود .وفي الحقيقة انتعشت الفسطاط قليلاً أيام الأيوبيين وآية ذلك ما لمسه ابن جبير وابن سعيد من وفرة نشاطها التجاري والصناعي خاصة بعد أن ترك الملك الصالح قلعة الجبل ونزل قلعة الروضة ولكن لم تكن الفسطاط التي رآها ابن سعيد على أية حال هى الفسطاط العظيمة الباهرة التي حدثنا عنها المقدسي أو ناصر خسرو ورأى ابن سعيد مدينة حزينة كئيبة غير متينة البنيان ينم مظهرها الخارجى عن قرب تلاشيها(١٥٦).

ورغم ارتفاع عدد مدن مصر منذ القرن الرابع الهجري الذي بلغت فيه الحضارة والعلوم الفنون الإسلامية ذروتها (١٥٧). فإن منطقة الدلتا المصرية قد خلت من المدن الهامة ورآها الرحالة وقد انتشرت القرى وسط أراضيها الزراعية بعد أن انحدرت مدنها القديمة.وقد ظلت على نفس الحال تقريبا عندما زارها الرحالة الفرنسيون وتجولوا في عدد من المدن والقرى بالدلتا واكتفوا بذكر أسمائها في القرنين السابع عشر الميلادي والثامن عشر الميلادي، فقد زار الرحالة سافارى زفتى ووجد أنها: " ... مدينة صغيرة لا تستحق الزيارة، منازلها على الأرض يبدو البؤس واضحا على سكانها..."(١٥٨).

ولعل الإحساس الطاغي لدى الرحالة بإيجابية العاصمة وسلبية الأقاليم أدى لتوارى الدلتا في منطقة الظل، وكذلك كان حال معظم مدن الدلتا في القرن السادس الهجري فلم تلفت أى مدينة من مدن الدلتا التي مر بها الرحالة ابن جبير نظره بشئ

ذات قيمة استحقت أن يقف عندها طويلا سوى إشارات قليلة لمواضع الصلاة ووسائل المواصلات (١٥٩). وكذلك الحال عند القزويني في معرض حديثه عن الإقليم الثالث فلم يشير لمدن بالدلتا ذات أهمية وتحدث عن بعض مدن الوجه البحري ذات الطبيعة البحرية مثل دمياط وجزيرة تنيس والعباسة (١٦٠). ولم تنشط غير المدن الواقعة على طرق الحج والتجارة المرتبطة بالخلجان ونهر النيل والتي أشار إليها باستفاضة الرحالة الإدريسي بقوله: " ... وعلى هذه الخلجان كلها مدن كثيرة متحضرة وقرى عامرة متصلة ... "(١٦١).

وبرزت المحلة الكبيرة في ميدان التجارة الداخلية لتوسط موقعها في التجارة وقد شبهها المقدسي بمدينة واسط ببلاد العراق (١٦٢). وقد سميت بالمحلة الكبرى لأنها أكبر البلاد المسماة باسم المحلة في مصر حيث يوجد مائة قرية يقال لها المحلة(١٦٣).وقد عمرت بالأسواق والقياسر وحوانيت البزازين (الحرير) كما قامت بها الفنادق(١٦٤). وقد ذكر ابن دقماق أن مدينة المحلة كانت " قصبة إقليم الغربية من الديار المصرية " وهو ما انعكس على أسواقها المنتعشة إضافة لمدنية قليوب التي كانت تمد أسواق القاهرة باحتياجاتها من الفواكه والألبان ومنتجاتها(١٦٥).

والغالب أن من أهم أسباب عدم بروز مدن هامة في منطقة الدلتا في مصر أن باعث ذلك عدم ارتباط الدلتا غالبا بطرق التجارة والحج خاصة بعد تحول طرق التجارة إلى الصعيد في ذلك الوقت ويتضح مما سبق أن أحوال المدن ترتبط غالبا بطرق التجارة الهامة التي يمكنها من توفير احتياجاتها وتصدر إنتاجها لا سما أن المدينة لا يمكن أن تعيش على الوظائف المحلية فقط فلو كانت المدينة تعيش بلا وظائف إقليمية لوجب أن تكفى نفسها بنفسها من حيث الخام والإنسان ولكانت بذلك مجرد وحدة سكنية بحته أو خلية اكتفائية(١٦٦).

وقد ازدهرت كثير من المدن المصرية معتمدة على إقليمها كقوص والقاهرة والإسكندرية و إخميم وغيرها . وأي مدينة هي حزمة من الوظائف في التحليل الأخير

وليست المؤسسات والمباني العمرانية إلا أوعية مادية لتلك الوظائف المركزية، والوظائف مجوعتان عريضتان: وظائف عمل وإنتاج كالتجارة والإدارة والصناعة ووظائف خدمات كالتعليم والدين والصحة والترفيه وبين المجموعتين حلقة وصل هامة هي السكن والسكان وتبلورت كل هذه الوظائف في القاهرة التي لعبت التجارة دورا حيويا في كيانها(١٦٧). منذ قيامها حتى الآن وقد رصدت لنا عدسات الرحالة في كل الحقب هذه الوظائف والحالة ودرجات الصعود والهبوط فيها واتسم أغلب وصفهم بالدقة والشمول والتصوير الواقعي الحيّ لما شاهدوه ورآه في طريقهم من مواضع المدن.

حتى أننا نجد صاحب الرسالة المصرية يقول بأنه: " ليس تشتمل أرض مصر بعد الفسطاط الذي هو مقر الملك وكرسي الدولة على مدائن لها قدر في كثرتها ولا فخامتها لكن أجل مدائنها وأفخرها أما في الجهة الشمالية من الفسطاط فالإسكندرية وتنيس ودمياط وأما في الجهة الجنوبية إلى أقصى الصعيد فقوص وقفط فهذه صفة أرض مصر على الجملة.."(١٦٨). وكان من الطبيعي أن تتركز الأضواء والأقلام على عاصمة البلاد بوصفها الرأس المخطط والقلب النابض من الديار المصرية فهي البقعة التي تركزت فيها مقومات الحضارة والعمران وبالتالي فإنها تضم أكثر وأهم آثار العمارة التي قامت على أرض مصر وهي البقعة التي كانت تجتذب من داخل البلاد وخارجها الأنظار وأقدر الكفاءات في النواحي الحضارية والفنية المختلفة بوصفها الخلافة والسلاطين القائمين علي أمر الخلافة وما يتبعهم من أجهزة إدارية كل ذلك جعل باقى أنحاء البلاد تتوارى أهميتها وتقل فيها الثروات ويندر فيها وجود الشخصيات الهامة ومن ثم فإن النشاط العمراني لم يكن يحظى بالعناية التي تساعد على حفظ آثاره(١٦٩).

ولم يجذب انتباه الرحالة في منطقة الدلتا سوى بعض المدن الشهيرة على ساحل الدلتا مثل: تنيس ودمياط وشطا وديبق التي اشتهرت بصناعة أنواع من الملابس الملكية الفاخرة تجهز في دور الطراز خصيصا للخليفة وأهله ورجاله الماشية(١٧٠).وبلغت مدينة تنيس قمة ازدهارها في القرنين (الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر

الميلاديين) ويتضح ذلك من خلال كتابات الرحالة المسلمين الذين زاروا مصر في تلك الفترة .

وقد وقامت تنيس أساساً كمدينة متخصصة بصناعة النسيج والحياكة والاتجار في المنسوجات والصيد ومنها اكتسبت شهرتها(١٧١).وكانت مرافق هذه التجارات والمهن من أبرز مكونات المدينة وتركيبها، فيذكر المقدسي: " أنها مدينة ذات أسواق ظريفة "(١٧٢). وأنه: " .... لا سبيل إليها إلا المراكب.."(١٧٣). وحينما زارها ناصر خسرو سنة ٤٣٩هـ وجد: " أن عدد الدكاكين بهذه الأسواق قد بلغ عشرة آلاف من بينها مائة دكان عطار .."(١٧٤). ووجدت " مصانع كثيرة موقوفة يعطى ماؤها للغرباء وسكانها خمسون ألفا..."(١٧٥). كما كان بها ألفان وخمسمائة حانوت برسم البضائع (١٧٦). ووصفها الإدريسي بأنها: " جزيرة حصن الماء.."(١٧٧). فقد ظلت تقوم بدورها الحربي كأحد الثغور الهامة إلى جانب دورها الاقتصادي كمدينة شهيرة بصناعة النسيج حتى قبيل منتصف القرن السادس الهجري(١٧٨).

وقال صاحب الرحالة السبتي أنه: " في شوال سنة ٦٢٤هـ بعث السلطان الكامل حجارين وفعله لهدم مدينة تنيس فنقضت وأخليت حتى لم يبق بها مساكن ثم ركب البحر المالح ما بقي من أثرها فلم يبق لها أثر..."(١٧٩). وهكذا كانت بداية النهاية لمدينة تنيس وانحصارها ورغم أن القزويني تحدث عنها في القرن السابع الهجري فإنه لم يراها كما رآها رحالة القرنين الخامس والسادس الهجريين واكتفى بقوله أنه كانت: " تجلب منها الثياب النفسية الملونة والفرش الحسن والثياب إلا بوقلمون.."(١٨٠). ووصف الدمشقي بيوتها بعد الخراب بقوله: " ... خيف عليها من الفرنج فهدمت وبقى الناس يترلون في أخصاص وكذلك تنيس.."(١٨١).

ومن ناحية أخرى انتعشت أكثر مدن الصعيد مثل أسيوط و إخميم وقنا وقفط وقوص لعوامل عدة أهمها انتقال طريق التجارة والحج إلى الجنوب وقد تبع ذلك نمو موانئ الصعيد لفترة طويلة على مدى عقود كثيرة في القرنين السادس والسابع الهجريين

وارتبطت هذه الموانئ بهذه الأنشطة المؤقتة سرعان ما تراجعت أحوالها بتوقف بعض أو كل هذه الأنشطة في أواخر القرن السابع الهجري وبداية القرن الثامن الهجري، وقد ظهر ذلك واضحا في كتابات معظم رحالة القرنين السادس والسابع الهجريين.

فكانت قوص كما شاهدها الرحالة من " أعظم مدن الصعيد يرد إليها التجار من البلاد الجنوبية "(١٨٢). ولم يكن " بأرض مصر بعد الفسطاط والإسكندرية أعمر ولا أعظم منها .."(١٨٣). وكانت كما وصفها ياقوت الحموي: " عاصمة الأقاليم ومقر الوالي"(١٨٤). وكانت: " ذات ديار جليلة وفنادق وحمامات ومدارس يسكنها جلة من التجار .."(١٨٥). ويذكر ابن مماتي (ت٦٠٦هـ): "أن قوص صارت قصبة الصعيد ودار الوالي فهي عاصمة عمل القوصية.."(١٨٦).

وكانت محطة رئيسية نزل بها ابن جبير وبات فيها وقال: " ... وكان نزولنا بفندق ينتسب لابن العجمي بالمنية – يقصد منية قوص – وهو ربض كبير خارج المدينة ... حيث يخرج المسافرون والتجار جميع أمتعتهم إليه .. وهذا الموضع فسيح الساحة محدق بالنخيل وعلى رأس الطريق إلى عيذاب .."(١٨٧). ووصفها بقوله: "... مدينة حفيلة الأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة لأنها مخطر للجميع .. وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم ..."(١٨٨).

وقد صنفها الرحالة البغدادي من كبار البلاد في مصر في أكثر من موضع فقال:"... ما خلا البلاد الكبار كقوص و إخميم والمحلة ودمياط والإسكندرية.."(١٨٩). وامتدحها ابن بطوطة بقوله: " ... مدينة قوص مدينة عظيمة لها خيرات عميقة بساتينها مورقة وأسواقها مونقة.."(١٩٠).

وظلت قوص مزدهرة حتى أوائل القرن السابع الهجري فوصفها ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) بأنها: " مدينة كبيرة بها محط التجار القادمين من عدن وأكثرهم من هذه المدينة.."(١٩١). ووصفها ابن سعيد في سياق حديثه عن ميناء القصير فقال:"...

هو فرضة قوص المشهورة على بحر القلزم حيث تسافر منها مراكب الحجاج والتجار إلى الحجاز واليمن..."[١٩٢].

وقد ظلت قوص مزدهرة على مدى القرن السادس الهجري وأوائل القرن السابع الهجري وأخذت في التدهور والانحصار في أواخر القرن الثامن الهجري نتيجة تدهور ميناء عيذاب وتحول طريق التجارة والحج إلى الطريق الشامي منذ عهد الظاهر بيبرس الذي زار مكة وسار بطريق آيلة سنة (٦٦٦هـ – ١٢٦٧م) عن طريق سيناء وصارت آيلة طريقا للحج منذ تلك الفترة حتى سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٨٥م[١٩٣].

حتى أن الرحالة العبدري في القرن السابع الهجري قد سلك طريق سيناء وقال: "وأمامنا هل هذه البرية فمن البركة إلى السويس ثلاثة أيام وهى بئر غزيرة واسعة.."[١٩٤]. ونفس الطريق سلكه الرحالة الذين جاءوا إلى مصر بعد العبدري أمثال القلصادي وابن عبد السلام الدرعي المغربي[١٩٥]. إضافة للرحالة الأشهر ابن بطوطة .وتحدث ناصر خسرو عن ازدهار أسيوط: " ... بالصوف الدقيق الذي يصدر إلى بلاد العجم والمسمى الصوف المصري.."[١٩٦]وقد اشتهرت مدن الصعيد عموما بتربية الماشية والأغنام مما كان له الأثر على أحوال هذه المدن في شهرتها بصناعة الصوف والمضنوعات الجلدية التي كانت تسوق في مدنها[١٩٧].

وقد نوه الرحالة ابن جبير وهو في طريقه للحج في النصف الثاني من القرن السادس الهجري إلى أحوال مدن الصعيد التي مر بها وجاءت في مجملها نشطة ومزدهرة بالأسواق العامرة وكذلك أشار الإدريسي في نزهة المشتاق إلى أكثر من موضع فيذكر ابن جبير: " ... منية ابن الخصيب وهو بلد ... كبير فيه الأسواق والحمامات وسائر مرافق المدن ... منفلوط .. فيه الأسواق وسائر ما يحتاج إليه من المرافق .. ومنها مدينة أسيوط وهى من مدن الصعيد الشهيرة... ومنها موضع يعرف بأبي تيج وهو بلد فيه الأسواق وسائر مرافق المدن ... ومنها مدينة إخميم وهى أيضا من مدن الصعيد الشهيرة المذكورة بشرقى النيل ع لى شطه..."[١٩٨]. وتحدث البغدادي عن المدن والقرى

الكباري في الوجهين البحري والقبلي فقال:"الأمهات والقرى الكبار كقوص والأشمونين والمحلة ونحو ذلك ... ما خلا البلاد الكبار كقوص و إخميم والمحلة ودمياط والإسكندرية.."(١٩٩).

وأشار صاحب الاستبصار لأحوال بعض مدن الصعيد مثل إخميم وأسيوط قائلاً: "... مدينة إخميم وهى مدينة كبيرة وفيها أسواق وحمامات ومساجد كثيرة .. مدينة أسيوط .. جميلة القصبة كثيرة الفوائد وهى أكثر بلاد الله قصب السكر وأطيب.."(٢٠٠). وقال صاحب كتاب الجغرافية أن: " مدينة قوس أكثر بلاد الله قصب السكر ومنها يجلب السكر إلى بلاد مصر والحجاز والحبشة ويدخل منها أيضا إلى صحراء عيذاب ..."(٢٠١).

وبلغت عيذاب في نهاية القرن الخامس الهجري وبداية القرن السادس الهجري درجة عظيمة من الأزهار وغدت من أعظم الموانئ التي ترسو بها مراكب كثير من البلاد ولكن هذا الحال لم يستمر طويلا لتحول طريق قوافل الحجاج إلى سيناء فضلا عن الاضطرابات وانعدام الأمن الذي ساد في الإقليم نظرا لاستيلاء الملك داود ملك النوبة على عيذاب سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م(٢٠٢) ورآها ابن جبير في القرن السادس الهجري: "من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائدا إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة..."(٢٠٣). وتميزت آنذاك باستقرار الحالة الأمنية حتى تعجب ابن جبير فقال: "... ومن أعجب ما شاهدناه من أمن هذه الصحراء أنك تلقى بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها .. فتبقى في مكانها إلى أن يتسلمها صاحبها مصونة"(٢٠٤).

وازدادت أهمية ميناء عيذاب نتيجة للتطورات السياسية التي ألمت بمصر والشام منذ قدوم الحملات الصليبية إليها وتعرض البحر الأحمر لهذا الخطر الصليبي وتحول الحجاج والتجار إلى الإبحار في نهر النيل من القاهرة حتى قوص أو أسوان، ومنها إلى عيذاب(٢٠٥) وأشار الرحالة ابن بطوطة لتدهور عيذاب حيث: " وصلت عيذاب

فلم يمكن السفر فعدت راجعا إلى مصر ثم إلى الشام وكان طريقي في أول حجاتي على الدرب الشامي..."[٢٠٦]. وقد زارها ابن بطوطة عدة مرات في عام ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م، ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م، ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م .

وتحدث عن الوضع السياسي لعيذاب فقال أنها مدينة كبيرة تحت وال معين من قبل الناصر محمد بن قلاوون يسمى العتريس[٢٠٧]. ويقول أنه لما وصل إلى عيذاب وجد الحدربي سلطان البجة يحارب الأتراك الذين هربوا أمامه وأنه خرق السفن ولذلك تعذر سفر ابن بطوطة في البحر وعاد مع العرب الذين كان قد اعترض جمالهم والى قوص[٢٠٨].

وهكذا كان نمو ميناء عيذاب مرتبطاً بنشاط مؤقت وكان لهذا النمو المصطنع في منطقة تفتقد الظهير الملائم والمساند لها أثر في اختفاء هذا الميناء فيما بعد واندثاره .

فعيذاب لم يكن لها من الموارد المالية الذاتية إلا ما أشار إليه الرحالة من حصولها على مكوس التجارة والحج إذ لم يوجد بها زراعة أو حرف تعين أهلها على العيش المريح ولذلك يصفها ناصر خسرو في عام ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م بأنها:"وليس في مدينة عيذاب الصغيرة غير ماء المر فلا بئر فيها ولا عين فإذا لم تمطر السماء احضر البجة الماء وباعوه.."[٢٠٩] كما وصفها ابن جبير بأنها مدينة في: " صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها إلا كل شئ مجلوب " وأنها " بلدة لا رطب فيها ولا يابس " وأن "ماءها زعاق وجوها كله لهب " ولذلك " فالحلول بها أعظم المكاره التي حف بها السبيل إلى البيت العتيق .."[٢١٠] وقال ابن بطوطة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري: "ويحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر..."[٢١١].

وبالمقارنة بين كتابات الرحالة في القرنين السادس والسابع الهجريين نجد التشابه بين المنطقة الواقعة بين قوص وعيذاب بما تحويه من تجمعات سكانية والمنطقة الواقعة بين البركة والسويس من حيث اقتصارهما على الآبار وقلة العمران وحالة المياه، وقد حرص الرحالة على وصف الطريق وتعيين الآبار التي تمر بها القوافل وذكر

الأسواق النائية التي يستتم بها الحجاج جهازهم ووصف الطبيعة الجغرافية والحالة الأمنية المستقرة بكل منهما من عدمها ووصف سكان هاتان المنطقتان وطرق حصولهم على مياه الشرب والأنشطة الاقتصادية لسكان هذه المناطق(٢١٢). حتى أن الزهري حرص على تعيين مواضع المياه في المنطقة بين قوص وعيذاب فيقول: " ... وطول هذه الصحراء ثمانية عشر يوما لا يوجد فيها الماء إلا في ثلاثة آبار البئر الأول تسمى بئر بقش والبئر الثانية تسمى بئر الحبيش ... والثالثة تسمى الجبيب وهي آخر آبار هذه الصحراء(٢١٣).

هوامش الفصل الخامس

(١) رحلة ابن جبير : ص٦٨ .

(٢) ابن سعيد : كتاب الجغرافيا – طبعة بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ١٣٠ .

(٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج٤، ص ٢٠١.

(٤) نزهة المشتاق ، ص ٧٤.

(٥) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٢ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان ، م٤، ص ص٨٥، ٨٦.

(٦) ياقوت الحموى : المصدر السابق ، م٤ ، ص ص ٨٥ ، ٨٦.

(٧) كلود كاهن : تجار القاهرة الأجانب ، مرجع سابق ، ص ٨٧٢. (يحيى الأنطاكى : هو يحى بن سعيد الأنطاكى ت٤٥٨هـ/١٠٦٦م) وله كتاب تاريخ أوصلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق – تم طبعه فى مطبعة الآباء اليسوعين ، بيروت ، ١٩٠٥م.

(٨) رحلة ابن جبير ، ص ص ٢٩ ، ٣٠ ، رحلة العبدرى ، ص ص ٢١٦ ، ٢١٨.

(٩) العبدرى : المصدر السابق ، ص ٢٢٠.

(١٠) رحلة بيرو طافور : مصدر سابق ، ص ص ٦٠ ، ٦١.

(١١) ابن جبير : الرحلة ، ص ص ٢٩ ، ٣٠ .

(١٢) رحلة العبدرى ، ص ٢١٦.

(١٣) المصدر السابق ، ص ٢١٧.

(١٤) عبد القدوس الأنصارى : مع ابن جبير فى رحلته ، مجلة المنهل ، العدد ٣٥ لعام ١٩٨٦، ص ٥٥.

(١٥) محمد عبد العزيز الدباغ : رحلة ابن جبير ، مرجع سابق ، ص ٣٣٧.

(١٦) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(١٧) العبدرى : الرحلة ، مصدر سابق ، ص ص ٢١٦ ، ٢١٧.

(١٨) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ، مرجع سابق ، ص ص ٣١٣ ، ٣١٨.

(١٩) ابن جبير : الرحلة ، ط مصر ، ص ٦٥.

(٢٠) المصدر السابق ، ص ٦٦.

(٢١) جاستون فييت : المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ، (مقال) ترجمة : محمد وهبى ضمن كتاب : فى مصر الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٣٧، ص٤٠.

(٢٢) ابن جبير : المصدر السابق، ص ٣٣ ، العبدرى : الرحلة ، ص ٢٩١.

(٢٣) رحلة ابن جبير ، ص ص ٥٣ ، ٥٧ .

(٢٤) المصدر السابق ، ص ٤٦.

(٢٥) رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٧.

(٢٦) نعيم زكى : طرق التجارة ، مرجع سابق ، ص ١٢٩.

(٢٧) ابن جبير ، مصدر سابق ، ص ص ٤٦ ، ٥٣.

(٢٨) العبدرى : الرحلة، ص ٣١٩.

(٢٩) ابن بطوطة :الرحلة ، جـ١ ، ص ٢٩.

(٣٠) سفر نامة : ص ٩٤.

(٣١) ابن شاهين :زبدة كشف الممالك ، ص ٢٩.

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٤١.

(٣٣) محمد عبد الغنى الأشقر : تجار التوابل ، مرجع سابق ، ص ٣٨٦.

(٣٤) ابن بسام : (محمد بن أحمد بن بسام المحتسب التنيسى) : أنيس الجليس فى أخبار تنيس ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، الطبعة الأولى ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ٢٠٠٠م، ص ٣٥.

(٣٥) المصدر السابق ، ص ص ٤٠ ، ٤١.

(٣٦) روبيرتو روبنياتشى : مدينة القاهرة كما وصفها العالم الجغرافى الإدريسى ، أبحاث الندوة الدولية ، الجزء الأول ، ص ٥٠٠.

(٣٧) العبدرى : الرحلة ، مصدر سابق ، ص ٢٧٩.

(٣٨) المصدر السابق ، ص ٢٨٢.

(٣٩) أخرجه ابن عدى فى الكامل ٥١٢/٢ والبغدادى فى تاريخ بغداد ١٦٣/٣ وفى فيض القدير ١٨١/٣ ، وكنز العمال ٢٦٠/١٥ نقلاً عن على إبراهيم كردى ، حاشية ، ص ٢٨٢.

(٤٠) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، مرجع سابق ، ص ٥٢٧ .

(٤١) العبدرى : الرحلة ، المصدر السابق ، ص ٢١٤.

(٤٢) المصدر السابق ، ص ٣١٩.

(٤٣) أبو الصلت : الرسالة المصرية ، ص ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٢٤.

(٤٥) رحلة ابن جبير : مصدر سابق ، ص ٦١.

(٤٦) الإدريسى : نزهة المشتاق ، ص ٣٤٤.

(٤٧) راتب سكر : مؤثرات الزمان والمكان فى آدب أسامة بن منقذ ، مجلة العرب ، السعودية ، أبريل ٢٠٠٣، ص٣٨٦.

(٤٨) أسامة بن منقذ :الاعتبار ، ص ٣٣.

(٤٩) راتب سكر : المرجع السابق ، ص ٣٨٧.

(٥٠) أسامة بن منقذ : ديوان أسامة بن منقذ ، تحقيق : أحمد أحمد بدوى ، حامد عبد المجيد ، وزارة المعارف ، القاهرة، ١٩٥٣، ص ٢٢٠.

(٥١) المنازل والدبار ، ص ٢٥٣.

(٥٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٥٠.

(٥٣) نزهة المشتاق ، ص ٣٣٢ .

(٥٤) رحلة العبدرى ، ص ٤٧٨ .

(٥٥) الأدريسى : ص ٣٢٣.

(٥٦) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ص ٩ .

(٥٧) الإدريسى : مصدر سابق، ص ٣٢٤.

(٥٨) كتاب الجغرافية : مصدر سابق ، ص ٥٠.

(٥٩) رحلة ابن بطوطة ، جـ١ ، ص ٢٦.

(٦٠) الاستبصار فى عجائب الأمصار ، ص ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٦١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٩ .

(٦٢) رحلة عبد اللطيف البغدادى ، صفحات متنوعة.

(٦٣) الرسالة المصرية ، ص٢٥.

(٦٤) رحلة العبدرى، ص ٢٧٦ .

(٦٥) المصدر السابق ، ٢٢٨ .

(٦٦) قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك، ص ٢٠٥.

(٦٧) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ ، مرجع سابق ، ص ١١٥ وما بعدها.

(٦٨) النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى) ٦٧٧هـ-٧٣٣هـ: نهاية الأرب فى فنون الأدب ، السفر الأول ، سلسلة تراثنا ، وزارة الثقافة ، مصر ، ١٩٧٩ ، ص ٣٤٧.

(٦٩) المصدر السابق ، ص ٣٥٥.

(٧٠) المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ٣٥.

(٧١) رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٥.

(٧٢) جمال حمدان : مصر فلتة جغرافية ، مقال سابق ، ص ١٦٠.

(٧٣) وينفريد بلاكمان :الناس فى صعيد مصر العادات والتقاليد ، ترجمة : أحمد محمود ، ط الأولى، دار عين للدراسات ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص ١٠.

(٧٤) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ص ٣٣٧ ، ٣٣٩ .

(٧٥) المصدر السابق ، ص ٣٠٠ ، المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ق١ ، ص ٥٥.

(٧٦) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٢٦.

(٧٧) ابن جبير : الرحلة ، طبعة بيروت ، ص ٤٨.

(٧٨) قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ،ص ص ١٨٦ ، ١٨٧.

(٧٩) محمد عبد المنعم خفاجة : قصة الآدب فى مصر ، جـ٢ ، ط١، القاهرة ، ١٩٥٦، ص ص١٧٤،١٧٣

(٨٠) مجدى محمد شمس الدين : فنون أندلسية فى الأدب العامى المملوكى ، جـ١ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، مايو ٢٠٠٤ ، ص ص ١٦٦ ، ١٦٧.

(٨١) محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر الأيوبى ، مرجع سابق ، ص ١٤١.

(٨٢) المرجع السابق ، ص ص ٣١٠ ، ٣١٢.

(٨٣) رحلة ابن جبير ، ط بيروت ، ص ٦٦.

(٨٤) آدم متز :الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ، ص ٢٠١.

(٨٥) عصر سلاطين المماليك : مرجع سابق ، ص ٣٢٩.

(٨٦) ابن سعيد : النجوم الزاهرة ، ص ٢٥.

(٨٧) المصدر السابق ، ص ٢٧.

(٨٨) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب : ص ص ٣ ، ٦ .

(٨٩) رحلة طافور ، ص ٩٨ .

(٩٠) Palerne, Jean : Le Voyage en Egypt 1581 . Le Caire. 1970 . p. 42.

(٩١) رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٦.

(٩٢) رحلة البلوى المغربي ، ص ٥٥ ؛ قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، مصر سلاطين المماليك ، دار المعارف ، ١٩٨٣ م ، ط٢ ، ص ص ١٣٠ ، ١٣١.

(٩٣) جوزيف بتس : رحلة الحاج يوسف ، مصدر سابق ، ص ٣٥.

(٩٤) الزهرى : كتاب الجغرافية ، مصدر سابق ، ص ٤٧.

(٩٥) ابن جبير : الرحلة ، نشر بيروت ، ص ٣١.

(٩٦) عبد اللطيف البغدادى : الإفادة ، مصدر سابق ، ص ٥٦.

(٩٧) Palerre : Op . Ciit ., p. 19.

(٩٨) ابن بسام : أنيس الجليس ، مصدر سابق ، محقق ، ص ٣١.

(٩٩) القزوينى : آثار البلاد ، الجزء الأول ، مصدر سابق ، ص ١٧٦ .

(١٠٠) ناصر خسرو : سفر نامة ، مصدر سابق ، ص ٣٩.

(١٠١) ابن بطوطة : الرحلة ، مصدر سابق ، ص ٢٣.

(١٠٢) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ص ٦٩ — ٧٤.

(١٠٣) العبدرى : الرحلة ، ص ٣٣٠ .

(١٠٤) حمد الجاسر : ملخخص رحلتى ابن عبد السلام الدرعى ، ص ٥٢.

(١٠٥) العبدرى : الرحلة ، مصدر سابق ، ص ٣٣٥.

(١٠٦) حمد الجاسر : مصدر سابق ، ص ٥٣.

(١٠٧)جوزيف بتس : رحلة الحاج يوسف ، ص ٤١.

(١٠٨) محمد عبد الستار عثمان : المفهوم الإسلامى لتخطيط المدينة ، مقال سابق ، ص ٢٢٨.

(١٠٩) رحلة ابن جبير ، بيروت ، ص ٦٦.

(١١٠) المصدر السابق ، ص ٦٣.

(١١١) قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، ص ١٩٩.

(١١٢) روبيرتو روبناتشى : مرجع سابق ، ص ٥٠٠.

(١١٣) عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار ، ص ص ١٠٠ ، ١٤٤ .

(١١٤) عبد الرحمن بن خلدون : رحلته غربا وشرقا ، ص ٢٤٦.

(١١٥) قاسم عبده قاسم : رحلتان أندلسيتان إلى القاهرة، ص ١٢٥.

(١١٦) أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص ٨٠٨.

(١١٧) ابن سعيد : النجوم الزاهرة ، ص ٣٧.

(١١٨) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، ص ١٨٨.

(١١٩) المصدر السابق ، ص ١٨٥.

(١٢٠) جورجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٠م ، ج٥ ، ص٩٠.

(١٢١) جمال حمدان ، القاهرة ، ص ١٣٨ .

(١٢٢) ابن سعيد : النجوم الزاهرة ، ص ٢٩.

(١٢٣) جمال حمدان : مرجع سابق ، ص ١٣٦.

(١٢٤) ابن سعيد :النجوم الزاهرة، ص ٢٩.

(١٢٥) P.H DOPP. Le Caire vu paries voyageurs Occidentaux du Moyen Age. B.S..G.E. 1951 , p.131.

(١٢٦) جمال حمدان : المرجع السابق ، ص ١٤٠.

(١٢٧) جوزيف بتس : رحلة الحاج يوسف ، مصدر سابق ، ص ٣٣.

(١٢٨) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ١٨٨.

(١٢٩) لودو فيكو دى فارتيما : رحلات فارتيما – الحاج يونس المصرى ، ترجمة وتعليق : عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، ص الألف كتاب الثانى ع ١٣٤ ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٢٣.

(١٣٠) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٣٦٧.

(١٣١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ، مصدر سابق ، ص ٣٦٦.

(١٣٢) عثمان على محمد : الأزمات الاقتصادية فى مصر ، مرجع سابق ، ص ٢٤٨.

(١٣٣) المقريزي : الخطط ، ج٣ ، ص٣٨٩؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٢٢٠ ؛ ريمون أندريه : القاهرة تاريخ حاضرة ، ترجمة :لطيف فرج ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٤م، ص١١٢.

(١٣٤) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب آواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ١٢٧.

(١٣٥) Heyd : Histoire du commerce du levant, au moyen – age , t.I, leipsig, 1923, p. 384.

(١٣٦) رحلة العبدرى ، ص ص ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢.

(١٣٧) رحلة ابن جبير ، مصر ، ص ٣٥.

(١٣٨) المقرى : نفخ الطيب ، جـ٣ ، ص ١٠٦.

(١٣٩) رحلة ابن جبير : مصدر سابق ، ص ص ٣٣ ، ٣٤.

(١٤٠) للمزيد أنظر : الهجرات وتطور مدينة القاهرة ،ص ٦٠.

(١٤١) رحلة بنيامين التطلى : مصدر سابق ، ص ١١٥.

(١٤٢) المسالك والممالك : مصدر سابق ، ص ٩٠.

(١٤٣) أسعد بن مماتى : قوانين الدواوين ، مصدر سابق ، ص ٢٢٦.

(١٤٤) المصدر السابق ، ص ٢٥٧.

(١٤٥) **Heyd : Histoire du commerce du levant au Mayen Age, Tom., 1. P, 383 .**

(١٤٦) رحلة ابن بطوطة ، ص ١٢.

(١٤٧) عبد الفتاح وهيبة : الجغرافية التاريخية ،مرجع سابق ، ص ٣٢٣.

(١٤٨) لود وفيكودى فارتيما : رحلات فارتيما ، مصدر سابق ، ص ٢٣.

(١٤٩) نعيم زكى : طرق التجارة ، مرجع سابق ، ص ١٣٠.

(١٥٠) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية ، ص ص ٧٥ -٨٧.

(١٥١) ابن سعيد : النجوم الزاهرة، ص ٢٩.

(١٥٢) المقريزى (تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد) ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) : إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، الجزء الثالث ، تحقيق : محمد حلمى أحمد ، القاهرة، ١٩٧٣ ، ص ٣١١ ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٣٩.

(١٥٣) رحلة ابن جبير ، ص ٥٢.

(١٥٤) المصدر السابق ، ص٥١.

(١٥٥) الإفادة والاعتبار، ص١٤٤.

(١٥٦) عبد الفتاح وهيبة : الجغرافية التاريخية ، مرجع سابق ، ص ص ٤٢٠ ، ٤٢١.

(١٥٧)آدم متز : الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ، ص ١٩٥ - ٢٠٥.

(١٥٨) إلهام ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة فى القرن الثامن عشر ، مرجع سابق، ص٢٢٩.

(١٥٩) ابن جبير : الرحلة ، ص ص ٣٥ ، ٣٦.

(١٦٠) القزوينى : آثار البلاد ، صفحات متنوعة .

(١٦١) الإدريسى : نزهة المشتاق ، ص ٣٣١.

(١٦٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٩٦.

(١٦٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ١٧ ، ص ٦٣.

(١٦٤) الإدريسى : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) ليدن ١٨٦٤– ١٨٦٦ ، ص ١٧٥ ، وانظر : الإدريسى : نزهة المشتاق ، ص ٣٤٠ – وانظر : رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٢.

(١٦٥) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ٥، ص ص ٩٩ – ١٠١.

(١٦٦) جمال حمدان : جغرافية المدن ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٣٢٤.

(١٦٧) جمال حمدان : القاهرة ، كتاب الهلال ، ١٩٩٣ ، ص ٤٢.

(١٦٨) أبى الصلت (أبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى) ٤٧٠ – ٥٢٨ : الرسالة المصرية ، تحقيق: عبد السلام هارون ، ط٢ ، القاهرة ،١٩٧٢ ، ص ١٧.

(١٦٩) فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الإسلامية عصر الولاة ، مرجع سابق ، ص ٥٢٣.

(١٧٠) **Webeba , A.F. The Agriculture of Egypt During the Arab period Unpublished M.A. thesis, London 1952 . pp. 176, 187.**

(١٧١) صفى على عبد الله : مدن مصر الصناعية ، مرجع سابق ، ص ٧٢٠.

(١٧٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص٧٠.

(١٧٣) آكام المرجان : مصدر سابق ، ص ٢٣.

(١٧٤) سفر نامة ، ص ٩١.

(١٧٥)المصدر السابق ، ص ٩٤.

(١٧٦) المسعودى : مروج الذهب ،جـ١ ، ص ص ٣٨٥ ، ٣٨٦.

(١٧٧) الإدريسى : مصدر سابق ، ص ٣٣٦.

(١٧٨) مدن مصر الصناعية ، مرجع سابق ، ص ٧٤.

(١٧٩) التجيبى : المستفاد من الرحلة والاغتراب ، مصدر سابق ، ص ٨٠.

(١٨٠) القزوينى : آثار البلاد ، ص ١٧٧.

(١٨١) نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص ٢٢٩.

(١٨٢) زبدة كشف الممالك ، ص ٣٣.

(١٨٣) أبو الفداء : مصدر سابق ، ص ١١١.

(١٨٤) ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) : المشترك وصفا والمفترق صقعا ، جوانتجن ١٨٤٦م، ص ٣١٢.

(١٨٥) مسالك الأبصار : مصدر سابق ، ص ٨٦.

(١٨٦) ابن مماتى : قوانين البلدان ، ص ١٠٤.

(١٨٧) رحلة ابن جبير : بيروت ، ص ٦١.

(١٨٨) ابن جبير : الرحلة ، مصر ، ص ص ٦٧ ، ٦٨،

(١٨٩) الإفادة والاعتبار ، ص ص ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٤.

(١٩٠) مهذب رحلة ابن بطوطة ، ص ٤١.

(١٩١) معجم البلدان : م ٦ ، ص ١٨٤.

(١٩٢) ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، مصدر سابق ، ص ١٣٠.

(١٩٣) محمد عبد القادر موافى : المنشآت المعمارية المملوكية فى شرق الدلتا ، رسالة ماجستير ، آداب الزقازيق ، ١٩٨٥ ، ص ٧٦.

(١٩٤) رحلة العبدرى ، ص ٣٣٥.

(١٩٥) حمد الجاسر : ملخص رحلتى ابن عبد السلام الدرعى المغربى ، مرجع سابق ، ص ٥٣.

(١٩٦) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١٣١.

(١٩٧) الإدريسى : صفة المغرب ، مصدر سابق ، ص ٤١.

(١٩٨) رحلة ابن جبير ، مصر ، ص ص ٥٦ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٢ .

(١٩٩) عبد اللطيف البغدادى : الإفادة ، ص ص ١٣٨ ، ١٤٤.

(٢٠٠) الاستبصار فى عجائب الأمصار ، ص ٨٤.

(٢٠١) أبي بكر الزهرى : كتاب الجغرافية ، ص ٤٤.

(٢٠٢) يوسف فضل حسن : المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية إلى السودان ، مجلة الجمعية المصرية ، المجلد الثالث عشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١١٩.

(٢٠٣) رحلة ابن جبير ، ص ٧٤.

(٢٠٤) المصدر السابق ، ص ٧٢.

(٢٠٥) رجب محمد عبد الحليم : ميناء عيذاب ووادى العلاقى وأثرهما فى علاقة مصر بالسودان حتى نهاية القرن ٩هـ/١٥م ، ضمن أبحاث ندوة الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ ، س تاريخ المصريين ع ١٦٤ ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص ٢٧٣.

(٢٠٦) رحلة ابن بطوطة : ص ٤١.

(٢٠٧) المصدر السابق ، ص ٧١.

(٢٠٨) رجب محمد عبد الحليم : مرجع سابق ، ص ٢٦٥ ، الرحلة ٤٣ .

(٢٠٩) ناصر خسرو ، ص ١٣٤.

(٢١٠) رحلة ابن جبير ، ص ص ٧٤ ، ٧٨.

(٢١١) رحلة ابن بطوطة ، ص ٤٢.

(٢١٢) ابن جبير ، الرحلة، مصر ، ص ص ٦٨ – ٧٨ ، العبدرى ، الرحلة ، ص ص ٣٢٩ –٣٣٥.

(٢١٣) الزهرى : كتاب الجغرافية ، ص ص ٤٣ ، ٤٤.

الفصل السادس

الأساطير المتعلقة بأصول المدن المصرية

اختلفت آراء العلماء بشأن ظاهرة التعليل باعتبارها سمة للأسطورة، حيث ذهب فريق إلى أن التعليل ليس هو الخاصية المميزة للأسطورة، بينما ذهب فريق آخر ــ يتزعمه "كاسيرر" ــ إلى أن التفكير الأسطوري يتميز عن العالم النظري بفكرته عن السببية. وأياً ما كان الأمر، فإنه مما لا شك فيه أن هناك نوعاً من الأساطير يرتكز في أساسه على فكرة التعليل، وهو ما يتمثل في نوع أساطير الأصل، وإن كانت تنتمي إلى نوع آخر من القصص الشعبي يسمى بالحكايات التعليلية أكثر من انتمائها إلى نوع الأسطورة[١].

وتبرز فكرة التعليل في العديد من الحكايات التعليلية أو أساطير الأصل والتي تؤصل لمدن مصر القديمة التي شُيد بعضها زمن الفراعنة وشُيد بعضها الآخر على امتداد تاريخ مصر الطويل، وحول هذه المدن القديمة دارت موضوعات الموروث الشعبي في إطار خيالي يعكس مدى الانبهار والإعجاب بهذه المدن ــ وإن احتوت على أخطاء معرفية واضحة ــ وقد جمع الرحالة والمؤرخون المسلمون والعرب عدداً من الأساطير والروايات الخيالية حول هذه المدن في إطار يجمع بين الأسطورة والتاريخ ، والاقتراب من الخيال الشعبي في وصفهم التفصيلي لمدن مصر؛ التي قد يكون لها وجود فعلي ملموس أو مدن لا وجود لها في عالم الواقع مثل مدينة أمسوس المصرية ــ التي اعتقد الناس والمؤرخون بوجودها قبل الطوفان ــ وكان ذلك وحده كافياً لإطلاق خيال الرواة والقصاصين فنسجوا من وحي خيالهم أسطورة أمسوس المفقودة[٢] بفعل الطوفان، مما يفصح لنا عن أفكار كثيرة تبادلت التأثير والتأثر مع حكايات ألف ليلة وليلة.

يقول ابن إياس: "مدينة أمسوس وهي مصر القديمة، وكانت من أعظم المدائن، وبها من العجائب ما لم يسمع بغيرها، ولكن محا الطوفان رسمها ونسى اسمها..". [٣] فهي عند المقريزي: "أول مدينة عُرِفَ اسمها في أر ض مصر (مدينة أمسوس). وقد محا الطوفـــان رسمها ولها أخبار معروفة، وبها كان ملك مصر قبل الطوفان، ثم صارت مدينة مصر بعد الطوفان مدينة منف، وكان بها ملك القبط والفراعنة إلى أن خربها بخت نصر، فلما قدم الاسكندر بن(فيليبش) المقدوني من مملكة الروم، عمَّر مدينـــة الإســـكندرية عمـــارة جديدة، وصارت دار المملكة بمصر. إلى أن قَدِمَ عمرو بن العاص بجيـــوش المـــسلمين، وفتح أرض مصر فاختط الفسطاط، وصارت مدينة مصر إلى أن قدم جـــوهر القائـــد بعساكر المعز لدين الله أبي تميم معه وملك مصر واختط القاهرة .. وصـــارت القـــاهرة مدينة مصر إلى يومنا هذا." [٤].

وبعد أن يُورد المقريزي أسماء عدد من المدن المصرية يُورد حكاية خياليـــة عـــن أن "مصر بن بيصر" قسم الأرض بين أولاده، فأعطى ولده أشمون من حد بلـــده إلى رأس البحر إلى دمياط، وأعطى ولده أنصنا من حد أنصنا إلى الجنادل، وأعطى لولده صا من صا، أسفل الأرض إلى الإسكندرية، وأعطى لولده منوف وسط الأرض السفلى منـــف وما حولها، وأعطى لولده قفط غربي الصعيد إلى الجنادل، وأعطى بناته الثلاث شـــرقي الأرض إلى البرية (يقصد صحراء الشرق)، وأعطى بناته الثلاث وهن الفرما وســـريام وبدورة. بقاعاً من أرض مصر محددة فيما بين أخوهّن .." [٥]. وتكمل الروايات التاريخية المتأخرة شجرة النسب لباقي المدن المصرية فتقول: "قد خلفه ابنه مـــصرايم المولـــود بالعريش فصار ملكاً مستقلا عظيما ينفذ حكمه في إسنا "أسن"، وأســـوان (إشـــوان) والسودان (سودان)، حتى بلاد الفونج (فوبحستار)، وعمد إلى أقاليم مصر، فوزعهـــا على الأخوة الثلاثين (وهو منهم) ثم بنى كل واحد منهم في البلاد التي يحكمها مدينـــة عظيمة ، لا تزال تسمى بأسماء أولاد بيطر بفضل دعاء سيدنا نوح عليه السلام مثال ذلـــك أن

أحد أبناء بيطر كان يدعي (رشيد) فبنى المدينة التي هي الآن بهذا الاسم والآخر كان يدعى (دمياط) وثالث كان (اسكندر) وآخر تينبر (تينه)، وكذا (سيفه) الذي بنى مدينة بني سويف وآخر يدعي (مينه) وكذا أشمون وأسيوط وجرجه وتنا (قنا) وقوس (قوص) واسنه وأسوان (أثوان) وابريم وصياني وحلفا (حلفه) وسنارة وسودان وغيره من أمثال هذه الأسماء التي كان يتسمى بها الأمراء الذين بنى كل واحد منهم مدينة لا تزال باقية على الدهر عامرة آهلة بالسكان في شواطئ النيل حتى الآن.."[٦]، وعن نسب مدينة أتريب يقول القلقشندي: " بناها أتريب بن قبطيم بن مصر ابن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام"[٧].

يتضح من هذه الروايات الخيالية مدى تأثر الرواة بالأنساب العربية؛ ذلك أن عدم القدرة على معرفة أسباب تسميات المدن المصرية القديمة جعل الخيال يجنح إلى حد تصور أن هذه المدن قد اكتسبت أسماءها من أبناء "مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ـــ الذي ينسب إليه اسم مصر ـــ الذين قسمت بينهم أرض مصر، بل أنه ينسب بعض الأسماء إلى بنات تلك الشخصية مثل "الفرما" والتي تنازع في نسبها ـــ الفرما ـــ الاتجاه المصري القبطي مع الاتجاه الإغريقي في المجتمع المصري إذ تقول أحدى الروايات: "كان للإسكندر أخ يسمى الفرما، فلما بنى الاسكندر الإسكندرية ، بنى الفرما ، الفرما على نعت الإسكندرية ولم تزل الفرما مُذ بنيت رثة..."[٨] وفي هذا السياق يشير ابن إياس لنسب مدينة تنيس المندثرة بقوله :"قال المسعودي :إن الذي بنى مدينة تنيس كانت امرأة تسمى تنيس وهى بنت صا بن تدارس أحد ملوك القبط فسميت تلك المدينة بها"[٩].

وتكشف الأساطير التي تدور حول المدن المصرية القديمة، بما تحويه من أخبار العجائب والغرائب، عن مدى إعجاب الرواة وانبهارهم بإنجازات الحضارة المصرية القديمة وهو الأمر الذي يبدو واضحاً من خلال تلك القصص الخيالية من الأعمال

الإعجازية لملوك مصر القديمة، يقول المقريزي تحت عنوان "ذكـــر مدينـــة أمـــسوس وعجائبها وملوكها".

"... وأول من ملك مصر نقراوش الجبار بن مصرايم. ومعنى نقراوش ملك قومـــه ونقراوش هو الذي بنى مدينة أمسوس وعمل بها عجائب كثيرة؛ منها طائر يصفر كـــل يوم عند طلوع الشمس مرتين، وعند غروبها مرتين، فيستدلون بصفيره على ما يكون من الحوادث حتى يتهيأون لها، ومنها صنم من حجر أسود في وسط المدينة تجاهه صـــنم مثله إذا دخل سارق المدينة لا يقدر أن يزول حتى يسلك بينهما؛ فإذا دخل بينهما أطبقا عليه فيؤخذ .. وعمل صورة من نحاس على منار عال لا يزال عليها سحاب يطلع فكل من استمطرها أمطرت عليه ما شاء. وعمل على حد البلاد أصناماً من نحـــاس مجوفـــة وملأها كبريتاً، ووكل بها روحانية النار. فكانت إذا قصدهم قاصـــد أرســـلت تلـــك الأصنام من أفواهها ناراً أحرقته، وعمل فوق جبل بطرس مناراً يفور بالماء ويسقى مـــا حوله من المزارع، ولم تزل هذه الآثار حتى أزالها الطوفان ..."(١٠).

رواية ابن إياس عن مدينة أمسوس "جاءت على نحو مشابه لرواية المقريزي مع بسط في التفاصيل عن دور ملوك مصر القديمة في تطوير "أمسوس" بقوله: "... مصرايم وهو الذي بنى مدينة مصر، وإليه تنسب وكان عالماً بعلم الكهانة والطلسمات .. كتب على أبواب مصر، أنا مصرام بن تبليل قد بنيت هذه المدينة، وأودعـــت بهـــا الطلـــسمات الصادقة والصور الناطقة، أما ابنه عرياق كان عالماً بعلم الطلسمات وله أعمال عجيبة، وكان قد عمل قبة عظيمة في وسط مدينة أمسوس وعمل فوقها كالسحابة تمطر مطـــراً خفيفاً شتاء وصيفاً، وعمل تحت تلك القبة مطهرة فيها ماء أخضر يتحصل من ذلـــك المطر، فإذا استعمله من به عاهة برئ من وقته ولما هلك تولى من بعده ابنه لوجيم، وكان عالما بعلوم الطلسمات والسحر وله أعمال عجيبة؛ منها كانت الغربان قد كثـــرت في أيامه، وصارت تفسد الزروع والغلال، فعمل أربع منارات في جوانب مدينة أمسوس،

وجعل على كل منارة صورة غراب[١١]، وعليه صورة حيَّة قد التـوت، فلمـا عـاين الغربان ذلك نفروا عن المدينة ولم يدخلوها بعد ذلك في مدة أيامه، ومنها أنـه عمـل طلسماً للريح، فكانت المراكب المقلعة إذا وصلت إليه تقف ولا تسير حتى يجعلوا لـه على كل مركب ضريبة معلومة، حتى يطلق لهم الريح من الجو، واستمر في الملك حـتى هلك ..."[١٢].

وعن ملوك أمسوس المزعومين يتحدث أولياچلبي عن أحدهم بقوله: "خلفه أخـوه مصرايم بن نقراوش في الملك وكان هذا حاكماً ماهراً وكاهناً ساحراً؛ إذ سـخر بقـوة علمه جميع السباع والحيوانات المفترسة والمرعبة لأمره، بـل أنـه جعـل الـشياطين والعفاريت تخضع له وتحمل له عرشه"[١٣]. ويقول ابن إياس عن إنجازات ملوك أمسوس المزعومة: "بنى أحدهم قلعة وكانت الجن والشياطين تحمـل سـريره علـى أعنـاقهم ويطوفون به في سائر أقاليم الدنيا، ثم يرجعون إلى قلعته التي بناها وسط البحر، فاستمر على ذلك حتى هلك"[١٤].

ويلاحظ في تلك الراويات الحضور الطاغي للأشكال الحيوانية المصاحبة لأعمـال الملوك القدامى الذين كانوا جميعاً علي علم بالسحر والطلـسمات .وظـاهرة هـذه الأشكال الحيوانية تكاد تنتشر في روايات المؤرخين والرحالة في سياق حـديثهم عـن الأعمال الإعجازية لملوك مصر القدامى ــ كطلاسم سحرية ــ بزعم قـدرتها علـى تحقيق أغراض متنوعة، ولعل من أكثر الجوانب سحراً في الثقافة المصرية القديمة، تعـدد الحيوانات التي تعبر وتجسد ضمن مجموعة الآلهة.فكل حيوان معروف تقريباً نال قداسة، ورؤى أنه يحمل روح أحد الأسلاف، وخصائص الإله الذي يجسده.وكان كل إله تقريباً يمثله ويجسده حيوان معين .ومثلها مثل الفراعنة، اعتبرت حيوانات معينة وسيطة بـين الإنسان والآلهة.وقدمت الهدايا للحيوانات باعتبارها تجسيداً للآلهة ، في مقابل الحصول

على خدمة من الإله المطلوب.من هنا اكتسبت الأشكال الحيوانية قواها السحرية والعقائدية.وجمعت في خلقها بين الغرض الديني والغرض النفعي.

وقد أشار أحمد أمين إلى هذا المعتقد الذي يقوم على تلاوة عزائم سحرية خاصة على المادة المعدة لذلك لتحقيق المراد منها، ويذكر (الطلسم) الموجود في الأزهر الذي يقال أنه يمنع العصافير من الدخول إلى المسجد من أنه مكان مناسب لذلك، كما يشير إلى الاعتقاد بوجود (طلسم) بالإسكندرية لمنع الحدأة، ولهذا يزعمون أنه السبب في عدم وجود الحدأة في جو الإسكندرية، ومن طرائف الأمور أن الجاحظ في كتابه الحيوان ذكر عند زيارته حمص بسوريا، أنه لم يجد بها عقارب، فلما سال عن ذلك قالوا له :"إن بها طلسماً يمنعها من البقاء، فلم يرض عن ذلك وعلله بأنه ربما كان جو حمص لا يناسب العقارب، أو أن فيها من الحيوانات التي تهاجمها فهربت منها(١٥).

وفي مصنفات السحر الشعبي نجد الكثير منها يورد وصفات مفصلة لأنواع من الطلاسم السحرية بزعم أنها تحقق أغراضاً معينة. والتي تقوم جميعها على الرسوم الحيوانية والرموز السحرية المرتبطة بها، منها ما يعتقد أنه لنفي العقرب، ويكون بصنع صورة عقرب من ذهب في ساعة معينة وطالع معين يفضل أن يكون الأسد لمخالفة طبعه لطبع العقرب، وتصنع الصورة مجزأة (الذنب، الرجلين، اليدين، والرأس) ويهدف هذا الوضع المعكوس إلى النفي(١٦).

كما نجد تقليد مشابه يقوم به أصحاب الخيول العربية حيث يقومون بطقس مشابه لطرد الهوام والحشرات من مرابط الخيل فمنها:"العقارب: إذا أخذت عقرباً وقتلتها فاحرقها بالنار، فإن جميع العقارب التي في المكان إذا شمّت ريح تلك العقربة هربت من المكان ... ومنها ما يعمل لطرد النمل عن مواضع الخيل ومرابطها والدواب ... وهو أن تحرق نملتين أو ثلاثاً أو أربعاً، وبَخّرها في مواضع أحجار النمل واطْلِ رأس الجُحر بقطرات، أو قَطّرهُ فيه وليكن ذلك قبل خروج النمل من الجُحر .. "(١٧)

أما الثعبان أو الحيَّة التي طالما ظهرت مع طلسمات فراعنة مصر القديمة لحماية المدن المصرية فهي دون سائر الحيوانات الأخرى لها تاريخ طويل تحفه الأساطير من جوانبه كافة. وتكاد لا تخلوا أمة من أساطير دارت حولها وخلاصة ما قيل عنها ؛ أنها تمتلك العشب ذا القوة السحرية، كما نظر إليها كجن أو شيطان له قوة خارقة تلحق الأذى أو الجنون في كل من يحاول إيذائها، وارتبطت حياة الناس بالحية ارتباطاً وثيقاً لانتمائها إلى عالم آخر، ويفوق طاقة الإنسان.أحمد النعيمي :الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام ، ص١٨٠؛كما أن الأفعى أو الحيَّة لعبت دوراً هاماً في الموروث الشعبي حيث قامت بدور الحارسة أو الحامية للإنسان كما تقوم بمطاردة من يمثلون الدنس في الجماعة، وتروي الحكايات الشعبية الحكايات عن الحية التي تحرس مسجد البيومي بالحسينية وأفعى الشيخ هريدي في صعيد مصر، وهو أحد الأولياء في أقاصي الصعيد ويستمد هذا الولي شهرته من امتلاكه أفعى عظيمة تقيم خلف مسجده، شاع عنه أنه يستطيع شفاء الناس من الأمراض والعلل عن طريق تسليط الأفعى على الجزء المريض في جسد الشخص، فتمتص الأفعى ذلك المرض ويبرأ المريض، ولعل أشهر الأولياء الذين ارتبط اسمهم بالحيات هو الشيخ أحمد الرفاعي الذي يقوم مسجده الكبير بمنطقة القلعة في القاهرة[١٨].

ولعل الخوف والرعب أيضاً هما اللذان دفعا المصريين إلى تقديس كائنات مرعبة أخرى مثل العقرب والحشرة السامة الكبيرة ذات الألف قدم، ثم أخطر الثعابين السامة المعروفة باسم (الناشر) فالعقرب هى الإلهة الكبيرة (سلكت).أما الحشرة ذات الألف قدم فقد عبدث في هليوبوليس تحت اسم الإله (سبا).أما الثعبان السام فقد عبد في شكلين مختلفين: أولهما هي الإلهة (بوتو) حامية ملك مصر، والثاني هو (الصلّ) حامي إله الشمس وزميله.وانتشرت الثعابين المقدسة في مصر إلى درجة أنه في العصور القديمة أصبح اسم كل إله يخص برسم ثعبان مثل الصقر الذي اعتبر مخصصاً لكلمة الإله (في

الكتابة المصرية القديمة) بل أكثر من ذلك صّورت الإلهة الصغيرة الطيبة (رنن أوتت) إلهة الحصاد على شكل ثعبان [١٩].

ثم بعد ذلك أصبحت العادة تحتم أن يحوي كل معبد نموذجاً حياً من هذه الثعابين.وعلى كل حال فقد كانت كل مديرية تحتفظ بعدد كبير من الحيوانات والأشياء التي لم تعتبر آلهة، ولكنها كانت ذات صفة إلهية . ولعل صور هذه الآلهة التي ظهرت على جدران المعابد المصرية والآثار القديمة والتي قدسها الناس في شكل أسماك وطيور وفئران وأشجار وثعابين وعقارب وغير ذلك والتي لا نشك أن الجماعة الشعبية وقفت أمامها طويلاً تحاول إيجاد تفسيرات منطقية لوجودها تتفق مع قريحتها الشعبية المشبعة آنذاك بتأثيرات السحر الشعبي الذي كان متغلغلاً بين شرائح عديدة للناس في مصر آنذاك هي السبب في وصول تلك الحكايات التي تتحدث عن طلاسم الثعابين والغربان والصقور وغيرها والتي نقلها لنا الرحالة والمؤرخون نقلاً عن رواة التاريخ الشفاهي في عصرهم.

والمتتبع لتاريخ وسيرة "مدينة أمسوس" سيجد أنها كانت مرتعاً لخيالات الرواة وأخبارهم. إذ حملت تلك الأخبار ثمة رائحة من التاريخ في الوقت الذي يصطبغ فيه بصبغة أسطورية، فقد حرصت أخبار أمسوس على تضمين نصوصها بشراً من نوع الملوك المحيطين بعلوم الطلسمات والسحر والأعمال العجيبة والخارقة، التي ساعدت على عمران مدينة أمسوس بعجائب وغرائب تحّير في وصفها الإنسان إذا رآها بالعيان على حد قول المؤرخين رغم عدم رؤيتهم لها.

كما أن الزعم القائل بمحو الطوفان للمدينة شكّلَ خلفية تتحرك عليها (موتيفات) وأفكار أسطورية مثل؛ الطلسمات الصادقة، الصور الناطقة، والكنوز المرصودة، وانفتاح العوالم المرئية واللامرئية على بعضها، ومن ثم فلا بد من اصطباغ تاريخ وأخبار المدينة بنفس الصبغة الأسطورية بالتبعية، أضف لذلك؛ أن تلك الروايات والأخبار

الخاصة بمدينة أمسوس وغيرها من مدن مصر، في جانب هام منها تؤصل لنشأة مصر أرضاً وشعباً وعمراناً، وذلك الحدث في ذاته إن شئنا التأريخ له فإنه ــ بلا أدنى شك ــ سيصبح خارج إطار العصور التاريخية وينتمي بشدة إلى عصور الأسطورة، مما يجعله يتخطى حدود الزمن الذي انتمت إليه بدايات نشأة وعمران مدن مصر، هذا علاوة على أن فكرة النشأة والتكوين تعد أحدى الموتيفات الأسطورية البارزة والتي يلزمها إطار زمني أسطوري خالص أوجده الرواة في زمن ما قبل الطوفان.

جدير بالذكر أن أخبار مدينة أمسوس وبعض المدن المصرية أضفت على جزء من تاريخها سمات خاصة بها ، عند ارتباطها بكائنات لعبت دوراً في حياتها ونشأتها مثل: الجن والعفاريت والشياطين الذين كانوا القاسم المشترك مع ملوك أمسوس في بناء وتشييد المدينة.

ويسلك الرحالة والمؤرخون المسلك نفسه في سياق حديثهم عن مدينة "منف" وملوكها فيذكر الرحالة التركي أولياچلبي أحداث ما جرى في مصر بعد الطوفان فيقول: "لم يكن هناك شئ ظاهر سوى جبل الهرة الذي كان قد أقيم بإشارة من النبي إدريس ﷺ تجاه النيل ليأووا إليه، ومع ذلك فإن الذين لجأوا إليه عند الطوفان قد غرقوا بأموالهم وكنوزهم في مياه الطوفان، هذا وقد قام قليمون وصهره بيطر بن حام بجولة في أرض مصر للبحث عن موطن يقيمان به، فلما وصلا أرض (منف / منوف) وجداها طيبة الهواء لطيفة الجو والمناخ ويحيط بها النهر من كل الجوانب وكأنها جزيرة لطيفة ... ثم تراءى لهم أن يبنوا بها ويستقروا لما رأوا من كثرة خيرات الأرض وبركات تربتها، فبنوا بلدة مختصرة أطلقوا عليها اسم (منف / منوف) ومعناه باللسان العبري محل الصفاء والانتعاش، ولا يخفي أن أول مدينة بنيت على وجه الأرض بعد الطوفان هي قرية جودة (الجودي) التي استوت عليها سفينة نوح ﷺ وثاني المدن هي بلدة

(منف / منوف) وقد أنشأ بها بيطر كثيراً من المدن والآثار وعمرها وحول مدينة (منف / منوف) إلى قصبة عظيمة .. واتخذها عاصمة لملكه..."[٢٠].

يضيف المقريزي أن هذه المدينة ـ منف ـ كانت في غربي النيل على مسافة اثنى عشر ميلا من مدينة الفسطاط ثم يقول: ".. وهي أول مدينة عمرت بمصر بعد الطوفان، وصارت دار المملكة بعد مدينة أمسوس التي تقدم ذكرها إلى أن أخربها بخت نصر"[٢١]. ويضيف (ابن محشرة) أنه كان بمنف: "فرعون موسى عليه السلام وكان اتخذ لها سبعين باباً من حديد وفصل حيطان المدينة بالحديد والصفر، وفيها كانت الأنهار تجري من تحت سريره وكانت أربعة أنهار ... رأيت بمنف دار فرعون، وكنت أمشي في شوارعها ومجالسها وغرفها وجميع سقائفها وحجورها فإذا ذلك كله حجر واحد منقور، فإن كان بناء قد أحكم حتى صار في الاستواء كحجر واحد لا يستبان فيه جمع حجرين ولا ملتقى صخرتين فلذلك عجب، وإن كان جبلا واحدا فنقر الرجال فيه بالمناقير حتى خرقت فيه تلك المخارق فهو أعجب وأعجب"[٢٢].

يصفها ابن زولاق بقوله: "أبنيتها ـ منف ـ وعجائبها وأصنامها، ودفائنها وكنوزها التي لا تحصى .. وفيها بيت فرعون قطعة واحدة، سقفة وفرشه وخيطانه حجراً أخضر .. وبها آثار الأنبياء والحكماء، وهي منزل يوسف عليه السلام، ومن كان قبله، ومنزل فرعون موسى .. وكان بمنف قبة فيها صور ملوك الأرض متى تحرك منهم ملك يريد مصر بعج الموكل بالقبة بطنه بحربة فيتلف ذلك الملك في موضعه..."[٢٣].

ويسرد (ابن زولاق) رواية تكشف عن ظلال حقيقية تاريخية عن وجود علاقات بين مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين[٢٤] في سياق حديثة عن عجائب مدينة منف بقوله: " لما أراد بخت نصر، مصر أرسل رجلا يثق به، أعطاه مائة ألف درهم صلة فاحتال حتى صاهر امرأة من الموكلات بحفظ القبة .. داخل القبة وسأل عن الصور ورأى صورة بخت نصر، فقال للمرأة التي تزوجها: ما هذه الصورة؟ فعرَّفته، فقال لها في خلوة: فمتى

ينجو صاحب هذه الصورة؟ قالت: يُدهن صدره بدم خنزير، فأخذ دم خنزير وطلا صورة بخت نصر، وهرب وعاد إلى بخت نصر، فأخبره. فسار إلى مصر وكان من أمره ما كان..." (٢٥).

ولعل فكرة النجاة بواسطة دم الخنزير ترجع إلى تقليد شعبي يقوم على عقيدة ذات طابع سحري وينبئنا هيرودوت أن بعض العرب القدامى في العصر الجاهلي اعتادوا سكب دمائهم على بعض الأحجار التي كانوا يقدسونها وتدعى الأنصاب، مبتهلين في الوقت نفسه إلى الآلهة التي كانوا يقدسونها وقتذاك.وكان من عادات العرب في الجاهلية أيضاً عندما يريد أحدهم الاحتماء في آخر أن يجرح يده، وعندما تغطيها دماؤه يختم بها علي باب من يريد الاحتماء به. وكان حلف الدماء عند بعض الشعوب الإفريقية يقتضي أن يشرب الفريقان المتحالفان من الدماء النازفة من صبي أو فتاة تختن في هذه المناسبة.وهناك نوع آخر من التحالف كان منتشراً أيضاً عند الشعوب الإفريقية، ولكنه كام مقصوراً على الملوك حيث يبصق كل من المتحالفين في فم الآخر وربما ذكرنا هذا التحالف بالمثل الشعبي الدارج الذي يقول :"تافين في بق بعض"، ويضرب هذا المثل لمن يردد نفس الكلام الذي يردده زميله(٢٦).

وعند المقريزي تستمر الحكايات لتستعرض ملوك منف حتى تصل إلى من تسميه الرواية "شدات بن عديم" فيقول: "وهو الذي تسميه العامة شداد بن عاد، وكان عالماً كاهناً ساحرا، يقال أنه هو الذي بنى الأهرام الدهشورية، وعمل أعمالاً عظيمة و طلسمات عجيبة، وبنى في الجانب الشرقي مدائن وفي أيامه بنيت قوص .. وغزا الحبشة وسباهم (٢٧)، وأقام ملكاً تسعين سنة، وهو أول من اتخذ الجوارح، وصاد بها، وولد الكلاب السلوقية، وعمل في بركة أسيوط تماسيح منصوبة تنصب إليها التماسيح من النيل انصبابا فيقتلها، ويعلق جلودها في السفن..." (٢٨).

بيد أن أهم ما يسترعي الانتباه في الروايات الخاصة بـ (منف) أنها أقل إغرابا وخيالاً من الحكايات الخاصة بـ "أمسوس" ، كما أنها من ناحية أخرى تتحدث عن أولئك الملوك الذين استحدثوا ممارسات حضارية جديدة، فالملك شداد بن عديم "أول من اتخذ الجوارح في الصيد وصاد بها، وولّد الكلاب السلوقية" والملك أشمون بن قبطيم أول من لعب بالكرة والصولجان، وأول من عمل النيروز في مصر "عيد شم النسيم ــ أو عيد الربيع[٢٩]، والملك "مرقورة أول من ذلل السباع وركبها"[٣٠].وكذلك نجد أن الملك خصليم الذي كان عالماً فاضلاً في السحر والطلسمات هو :"أول من عمل مقياساً بمصر لزيادة النيل "[٣١]

كذلك نجد أن بعض الحكايات عن ملوك منف تحمل نواة من الحقيقة التاريخية؛ ففي أخبار من تسمية الروايات "الملك تدارس" وجدنا أنه حارب بعض عماليق الشام ودخل فلسطين، وغزا السودان من الزنج والحبش، ومن المعلوم تاريخياً أن حروباً قد نشأت بين مصر القديمة والحيثيين في بلاد الشام، كما كان يوجد حروب بين مصر ضد القادمين من الجنوب[٣٢]، كما أشار المقريزي إلى أن الملك قاليقي بن تدراس: "كان موحداً خالف أهل مصر في عبادة الكواكب والبقر"[٣٣]. وهو ما قد يشير إلى أخناتون محاولات التوحيد في عبادة آتون، أو ربما كانت امتدادا لتوحيد إدريس عليه السلام ، وعلى أية حال فإن حجم الخيال في روايات منف التي بنيت بعد الطوفان على حد زعمهم، كان أقل كثيراً من حجم الخيال في الأساطير المتعلقة بمدينة أمسوس التي كانت قائمة حتى دمرها الطوفان، والتي تبدو أن وجودها نفسه كان ضرباً من الخيال.

والحكايات الخيالية حول مدينة منف كثيرة ومتنوعة ولكنها تدور حول سلسلة أخبار الملوك الذين تصورت هذه الحكايات أنهم حكموا مصر حتى الاسكندر[٣٤].ويعلق المقريزي على ذلك بعبارة تكشف عن مدى الارتباك الناجم عن وصول إشارات من تاريخ البطالمة في ثنايا الروايات كالتي ذكرها المقريزي في ذكره

اسم "نافاطانيوش" وهو اسم يبدو محرفا عن اسم بطليموس في لفظه اليوناني "يتوليمايوس" وقد عبَّر المقريزي عن هذه الحيرة بعبارة نصها: "..وهذه أسماء رومية "أي يونانية" ولعل بعضها متداخل فيما تقدم ..."(٣٥).

وقد يحسن بنا الوقوف مع الكم الهائل من الأساطير التي ساقها المؤرخون عن منف وأمسوس وغيرهما .. فنلاحظ أنها لم تتكون دفعة واحدة؛ إنما استمر كل جيل يضيف إليها من خياله ما يوائم تصورات عهده، وما يزيد من تأثيرها في أذهان محبيها، لذلك فإن الروايات والأفكار التي راجت وتكونت عن منف والمدن المصرية، قد تباينت فيما بين الكتابات التاريخية، ووفقا للزمان ووفقا للمكان أحياناً، في تناول للأساطير جملة واحدة دون تفاصيل محددة متتابعة، فكأنهم بدأوا بالنهاية فاختلط الأول بالأخر دون اعتبار للمراحل التطورية ، التي يمكن أن تكون المدن المصرية قد مرت بها ودون حساب للعوامل والظروف الموضوعية التي كان محتملاً وجودها وراء كل خطوة انتقالية.

أما الفيوم، فجاذبيتها بالنسبة للكثير من المؤرخين والرحالة كانت تنبع من ارتباطها بأشياء أخرى؛ فالخيال الشعبي يربط الفيوم بيوسف ﷺ، وبشخصيات من التوراة والإنجيل والقرآن، ونبض الحديث عنها بالحياة في كتابات المؤرخين المسلمين والتي كانت تلبي حاجة عند جمهرة القراء، الذين ظلوا على شغفهم بكشف مناطق الظل فيما يتعلق بتاريخ مصر القديم الذي ظل محل جدال فيما بينهم.

يقدم (أولياچلبي) صورة واضحة عما أورده الموروث الشعبي المتخم بالأساطير حول الفيوم فيقول: "لما كانت مصر أرض الجبارين، فقد غادرها إلى وادي الفيوم حيث الهواء المنعش والجو اللطيف ، فسر بها واعتزم الإقامة فيها ــ يقصد يوسف ﷺ ــ لذلك بنى مدينة الفيوم في ألف يوم "فسميت المدينة "الفيوم" تصحيفا من عبارة "ألف يوم" .. وبينما كان يوسف ﷺ ينقل التراب المتخلف من حفر الخليج بذيل ثوبه الشريف، أمر سبحانه وتعالى جبريل الأمين ﷺ أن يترل ويقدم المساعدة والمدد لحبيبه يوسف، فترل

جبريل كالبرق الخاطف، وضرب بجناحيه بحيرة الفيوم ضربة قوية، فأطار ترابها، وأنقاضها إلى السماء وأنزلها إلى أسفل الغبراء، وضرب جناحاً آخر جهة الصعيد الأعلى، حيث فتح ترعة من النيل جرى فيها الماء حتى بحيرة الفيوم التي لا تزال بحيرة واسعة عميقة تعيش فيها مئات الألوف من الكائنات والخلائق العجيبة والحشرات البحرية .. في حين أن الترعة اليوسفية هذه نظراً لكونها من آثار جبريل الأمين لا يحدث بها جرف أو شق قط. إلى انقراض الدوران بل يجري فيها النيل دائماً .. والنيل إذا دخل البحيرة ينقلب ماؤها مراً أجاجاً وفي جوانب هذه البحيرة؛ تقوم ثلاثمائة وست وستون قرية كل واحدة منها تشبه إرم ذات العماد." (٣٦).ويذكر ابن إياس أن يوسف عليه السلام قد بنى: "مدينة الفيوم وقيل أنها بنيت بالوحي إلى يوسف عليه السلام على لسان جبريل عليه السلام.. ثم عمّرها في مدة يسيرة فلما فرغت وتم بناؤها، ركب ونظر إليها الملك الريان وصار يتعجب.. فقال ليوسف هذا كان يعمل في ألف يوم، فسميت من ذلك اليوم: الفيوم"(٣٧).

أما (الصفدي) فيحسب له أنه ناقش المعتقدات الخرافية التي كانت مستقرة في عصره حول مدينة الفيوم، وانتهى إلى نقدها بقوله: "إن كثيراً من الناس سطروا في كتبهم أن فرعون الذي كان يوسف عليه السلام وزيره لما كبر يوسف ... قال له أمض إلى هذه الجوبة (يعني الفيوم) فصل ماؤها وعمرها وكانت إذ ذاك بركة مملوءة ماء، وأن يوسف عليه السلام وصل إليها وسأل الله عز وجل أن يعينه على تنصيل مائها وعمارتها، وأن الحق تعالى أعانه على ذلك بملائكته، وهداه على إجراء مائة وعمارته، والمسافة من عهد يوسف عليه السلام إلى الآن بعيدة، وشروط الموثوق بروايته عزيزة شديدة، ولعمري لو كان هذا الأمر جرى لضرب قصصه الواردة في القرآن بحصة بل بحصص، فإن الله عز وجل قص في كتابه العزيز جملاً من أحواله، سماها أحسن القصص، ومع هذا فتصديق الكذب، وتكذيب الصدق كلٌ غيب والله سبحانه وتعالى أعلم بالغيب..." (٣٨).

تكشف لنا الروايات السابقة إلى أي مدى شغل الوجدان الشعبي العربي بقصص الأنبياء، حيث لم تشبع روايات المؤرخين والإخباريين حاجات هذا الوجدان الروحية، فراح يضيف من تصوراته وموروثاته إلى هذه الروايات، يستهدف منها الاستمتاع بسماعها أو قراءتها، وربما لتأكيد المعجزات النبوية، والاستجابة لدوافع أخلاقية واجتماعية من ناحية والترويج لفضائل المدن والبلدان والتعزيز من مكانتها ورفعتها على باقي المدن والأمصار من ناحية أخرى.

وقد كان حظ مدينة الإسكندرية من الموروث الشعبي كبيراً في كتابات المؤرخين،حيث كانت عاصمة لمصر حين فتحها العرب المسلمون، وكانت من الروعة والبهاء والفخامة بحيث أثارت دهشتهم وعجبهم، وأغرت الكتاب والمؤرخين بالبحث عن أصولها، وبالطبع عن نسبها وعن سحرها الخلاب، وغرائب وعجائب البنيان، وتزامن هذا مع حكايات إرم ذات العماد الخرافية والروايات الخيالية الرائجة على نطاق واسع عن الاسكندر، والتي تركت أصداءها في الكتابات التاريخية.

ابن الوردي يشير إليها بقوله: "بها من الآبار العجيبة، والرسوم الهائلة التي تشهد لبانيها بالملك والقدرة والحكمة، وهي حصينة الأسوار عامرة الديار.." (٣٩). ورآها ابن بطوطة أنها: "الثغر المحروس والقطر المأنوس العجيبة الشأن الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين.. فكل بديعة بها اجتلاؤها، وكل طرفه فإليها انتهاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا، وصنفوا في عجائبها فأغربوا.." (٤٠).

بدأ المقريزي حديثه عنها فقال: "... هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا، وأقدمها وضعا وقد بنيت غير مرة، فأول ما بُنيت بعد كون الطوفان في زمان مصرايم بن بيصر بن نوح عليه السلام، وكان يُقال لها إذ ذاك مدينة راقودة، ثم بُنيت بعد ذلك مرتين، فلما كان في أيام اليونانيين جددها الاسكندر بن فيلبش المقدوني الذي قهر داراً وملك ممالك الفرس بعد تخريب بخت نصر مدينة منف بمائة وعشرين سنة شمسية فعرفت به، ومنذ

جددها الاسكندر المذكور انتقل تخت المملكة من مدينة منف إلى الإسكندرية فصارت دار المملكة بديار مصر ولم تزل حتى ظهر دين الإسلام"[٤١].

هنا نجد اختلاطا بين العناصر الأسطورية والعناصر التاريخية في مزيج حيوي، فقد بنى الاسكندر مدينة الإسكندرية فوق بقايا راقودة حقا[٤٢]، كما أنه قهر الفرس[٤٣]، ولكن بقية القصة تحمل بصمات الخيال[٤٤]، وأورد ابن محشرة عدداً من الروايات الخيالية حول بناء راقودة منها أنه: "قيل أنه كان سكان البحر يؤذون الناس ويختطفوهم بالليل فاتخذ الاسكندر الطلسمات مصورة على أعمدة رخام على هيئة شجرة السرو، طول العمود منها ٨٠ ذراعاً وهي باقية إلى هذه الغاية، يقال أنها كانت على أعمدة نحاس قد خرقت الأرض فصورت فيها أشكال وصور تمنع وتدفع"[٤٥]. ويضيف العمري أن: "الاسكندر زاد في بنائها، وأطال في منارتها، وجعل فيها مرآة كان يرى منها مراكب العدو عن بعد، فإذا صارت بإزائها، وصدمت شعاعها أحرقها كما تحرق المهاة في الشمس ما قابلها من الخرق، وإن لم تتصل بها، فسميت الإسكندرية من حينئذ، وكان اسمها قبل ذلك (وقودة) وبذلك يعرفها القبط في كتبهم القديمة"[٤٦].

ويعلق السيوطي على المنارة بقوله: "في أعلاها تماثيل من نحاس منها تمثال قد أشار بسبابة يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك يدور منها حينما دارت، ومنها تمثال وجهه إلى البحر إذا صار العدو منهم على نحو من ليلة سمع له صوت هائل يعلم به أهل المدينة طروق العدو، ومنها تمثال كلما مضت من الليل ساعة صوت صوتا مطرباً، وكان بأعلاها مرآة ترى منها قسطنطينية، وبينهما عرض البحر، فكلما جهز الروم جيشاً رؤى في المرآة.."[٤٧]، "وفي كتاب الطلسمات أنها بنيت طلسماً لئلا يغلب ماء البحر على أرض مصر"[٤٨]، فهي "أول عجائب الدنيا الأربع" على حد قول الرازي[٤٩].

تلك الحكايات الخيالية مثال على القصص الدائر في التراث الشعبي حول مدينة الإسكندرية والقصص التي تدور حول هذه المدينة كثيرة ومتنوعة الاتجاهات والنزعات، سواء إغريقية أو مصرية أو عربية يحاول كل اتجاه منهم انتزاع تاريخ المدينة وربطه به.

على جانب آخر؛ نجد أن الإحساس الأسطوري بالزمن ـ في تلك الروايات التي قيلت في شأن الإسكندرية ـ يأتي في تناسق كامل مع بقية العناصر الأسطورية، كالشخصيات والأماكن الأسطورية، والمخلوقات حبيسة الفولكلور، إلى غير ذلك من عناصر أدت إلى طمس المعالم التاريخية للأحداث والشخصيات والأماكن. وكان من الضروري بعد أن تمت عملية تجريد الشخصيات والأماكن من شكلها التاريخي الواقعي أن يوضع هذا كله داخل إحساس أو إدراك خاص بالزمن يبتعد عن الإحساس التاريخي بالزمن وينقلنا إلى عالم لا مكان فيه للزمن المحدود، ولا اعتراف فيه بالتطور الزمني ولا بالتقسيمات الزمنية الإنسانية، ويعطينا وحدات زمنية مختلفة عما عهدناه من فهم وإدراك للزمن عند الإنسان(٥٠)، من تلك الأماكن والمدن التي ألهبت خيالات الناس وأقلام المؤرخين "إرم ذات العماد(٥١)" وهي المدينة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم(٥٢)، وقد كان ذلك كافياً لإطلاق عنان الخيال الذي ربط بين مدينة الإسكندرية وبين مدينة (إرم ذات العماد) إذ يقول المؤرخون: "إن إرم ذات العماد هي الإسكندرية، وقال الناظرون في الأعمار في جميع الأقاليم والأمصار: لم تطل أعمار الناس في بلد من البلدان كطولها بمريوط ووادي فرغانة، ومريوط قرية من قرى الإسكندرية بالقرب منها وهي كبيرة ولها بساتين كثيرة"(٥٣). ويقول الرحالة البلوي: "ذكر المفسرون عن ابن كعب قوله: إرم ذات العماد: أنها الإسكندرية، فهي أعجب البلدان وفيها بنيان عجيب ذكر صاحب الجغرافيا أنها بنيت في ثلاثمائة سنة، وأن أهلها مكثوا سبعين سنة لا يمشون فيها بالنهار إلا معصبين"(٥٤).

ثمة رواية أخرى تقول: "ذكر جماعة من أهل العلم أن الاسكندر المقدوني .. انتهى إلى موضع الإسكندرية، فأصاب في موضعها آثار بنيان عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند ــ وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد ــ: "أنا شداد بن عاد بن شداد بن عاد، شيدت بساعدي البلاد، وقطعت عظيم العماد من الجبال والأطواد، وأنا بنيت إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وأردت أن أبني هنا كإرم، وأنقل إليها كل ذي إقدام، وكرم مع جميع العشائر والأمم" (٥٥).

وهكذا، لم تخل الروايات التي تناولت أصل الإسكندرية من تأثير الاتجاهات الثقافية السائدة ومحاولات نسبة أصلها إلى الإغريق أو العرب والمتعربين أو المصريين تماما مثلما حاولت تلك الاتجاهات نسبة مصر إلى أصولهم. كما نكشف لنا الروايات كيف أنها كانت تستمد نواتها من القصص الديني، ثم تأخذ في البناء عليها من الأحداث والشخصيات والأخبار والأزمان التي تلائمها، وتلائم رؤيتها للتاريخ، والأحداث وتحقق الغرض التي ترمي إليه. كما نلحظ في بعض الروايات تبادل التأثر والتأثير بين كتب التراث القديم وألف ليلة.

كما لم تخل سيرة مدينة الإسكندرية وأخبارها وبعض المدن الأخرى من فكرة الشخصيات الحارسة والطلسمات التي كانت تلازم بناء المدن المصرية القديمة سواء قبل الطوفان أو بعده. فنجد الروحانيات والجن والشياطين وحكاياتهم المستمدة من الأساطير لها دور في الروايات الخاصة ببناء المدن المصرية القديمة تخلق نوعاً من الغموض على المستوى الزمني والمكاني للمدن المصرية، تحاول فيه مثل تلك الأخبار خلق صيغة زمنية ومكانية قد يكون لأحداث الرواية فيها نوع من المعقولية بالمعنى العادي، مثال ذلك ما أورده الغرناطي بقوله: "الجن قد عملت لسليمان عليه السلام في الإسكندرية مجلساً من أعمدة الرخام الأحمر الملون، بأنواع الألوان الصافي، كالجزع اليماني المصقول كالمرآة إذا نظر الإنسان فيها يرى من يمشي خلفه لصفائها. وعدد الأعمدة ثلاثمائة أو نحوها،

كل عمود ثلاثون ذراعاً على قاعدة من رخام، وعلى رأسه قاعدة أخرى من رخام في غاية الأحكام .... وكان قد قطعت الجن سقف ذلك البيت الذي هو مجلس سليمان عليه السلام من حجر واحد أخضر مربعاً" (٥٦).

الإسكندرية إذن، أضفت على تاريخها خصوصية شديدة عند ارتباط نشأتها بكائنات غيبية وظروف غامضة، فالجن يبني ويعمر، والسحر والطلسم يحمي ويقهر وبنيان الأعمدة يبهر: "ومن عجائبها أن بالإسكندرية أسطوانة متحركة والناس يقولون أنها تتحرك بحركة الشمس، وإنما قالوا ذلك؛ لأنها إذا مالت يوضع تحتها شيء، فإذا استوت لا يمكن أخذها، وإن كان خزفاً أو زجاجاً يسمع تقريعه" (٥٧).، فهذه "الاسطوانة من أحدى أعاجيب الدنيا ويقال أن الجن صنعتها لسليمان بن داود" (٥٨).

والراجح أن حكايات السحر والطلسمات والكائنات الغيبية هذه شأنها شأن أخبار الخوارق والمعجزات تعكس قدراً كبيراً من الانبهار والإعجاب الممزوجين بالنقص الحاد في المعلومات التاريخية، ولا غرابة في أن تحظى مدينة الإسكندرية بهذا القدر الكبير من اهتمام المورث الشعبي فقد كانت عاصمة مصر منذ أسسها الاسكندر الأكبر وطوال عصر البطالمة، وظلت هي العاصمة حتى بعد ولاية رومانية في النصف الأخير من القرن الأول ق.م. وبقيت الإسكندرية عاصمة لمصر طوال ما يقرب من سبعة قرون عندما فتح عمرو بن العاص مصر تحت راية الإسلام في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، ولذلك انعكست أهمية العاصمة المصرية في الحكايات الدائرة حول مدينة الإسكندرية، وهي لا تختلف كثيراً سواء من حيث بنائها الفني، أو من حيث هدفها، من الحكايات الخيالية حول المدن المصرية الأخرى (٥٩).

أما القاهرة فقد كانت في زمن سلاطين المماليك بمثابة ستارة المسرح الخلفية التي جرت عليها حكايات ألف ليلة وليلة الخيالية (٦٠)، هذه الخيالات الرومانسية التي كانت تمسك بأيدي السامعين، وتجوب بهم الأسواق والمنازل، ليشاهدوا الحياة المتواضعة

والراقية في الشوارع والميادين وساحات الإنشاد الديني، وكل ما يمس نسيج الحياة بين الناس [٦١]. كما كان للقاهرة ظلالها الواضحة في سيرة بني هلال. وهى ظلال لا تقل عن مثيلاتها في قصص ألف ليلة وليلة. فالقاهرة تبدو في السيرة الهلالية واضحة كل الوضوح بخططها وأسواقها وحماماتها ودكاكينها ومساكنها ونحو ذلك. وكـــان خـــط الـــسماء اللامتناهي في تنوعه ما بين المآذن والقباب التي نراها في العاصمة يستلفت نظـــر جميـــع الزوار الذين كانوا يسارعون إلى المقارنة بين القاهرة وبقية المدن المصرية القديمة، برغم حداثة وجودها نسبيا إلا أنها سرعان ما سادت الحياة المصرية بصورة طاغية غير عادية، وحازت شهرة واسعة جعلت منها: "مدينة عظيمة، آهلة يجبى إليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال، ما لا يحيط بجملته وتفصيله إلا خالق الكـــل جـــل وعـــلا" [٦٢]. فأضحت "حضرة الدنيا ، وبستان العالم، محشر الأمم، مدرج الكثير من البشر". [٦٣]

وكان من الضرورة بمكان؛ أن تحظى القاهرة بقدر أوفر من الأساطير والحكايـــات الشعبية خاصة فيما يتعلق بنشأتها وتأسيسها، الأمر الذي جعل من أســـاطير تأســـيس القاهرة تطغى على أسطورة تأسيس الإسكندرية ذات القـــدم في الزمـــان والمكـــان، وتتشابه معها في المضمون، الأمر الذي يفسر أن هذه القصص بأبعادها الأسطورية لم تبد ناتئة أو شاذة عن نسيج ورو القصص الوارد عن تأسيس المدن وفكرة الطالع الـــسعيد هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قد يرجع تقارب روايات تأسيس القاهرة مع روايات تأسيس الإسكندرية إلى تشابه ولزوجة تركيب الوجدان الشعبي نفسه، أو ربمـــا كـــان تلك الاستعارة من باب خلع صفات على القاهرة شـــبيهة بـــصفات عراقـــة تـــاريخ الإسكندرية، ورغبة الوجدان الشعبي في أن يجعل القاهرة مؤثرة لا متـــأثرة، معـــيرة لا مستعيرة، ناحلة لا منتحلة.

يقول ابن ظهيرة(في محاسنه): "لما قصد (جوهر الصقلي) في بنـــاء الـــسور، جمـــع المنجمين وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس، وطالعا لرمي حجارته، فجعلوا خشب

بين كل قائمتين حبل فيه أجراس، وأعلموا البنائين أن ساعة تحريك هـــذه الأجـــراس ترمون ما بأيديكم من الطين والحجارة في الأساس فوقف المنجمون لتحرير هذه الساعة، فاتفق من مشيئة الله سبحانه وتعالى أن وقع غراب على خشبة من تلـــك الأخـــشاب، فتحركت الأجراس، فظن الموكلون بالبناء أن المنجمين قد حركوها، فألقوا ما بأيـــديهم من الطين و الحجارة في الأساس" (٦٤)، "لذلك السبب لا تنقطع الدماء والقتال والنزاع والفتن والفساد عن القاهرة المعزية التي سميت بهذا الاسم لوضـــع أساســـها في طـــالع المريخ..." (٦٥).

ومع اتفاق في المعنى واختلاف في الألفاظ يحكي الرحالة المؤرخون عن بناء وتأسيس الإسكندرية :" حكى المسعودي أن الإسكندر وقع له مثل ذلك في بناء الإسكندرية، أنه أحب أن يرمي أساسها دفعة واحدة في سائر أقطارها، في وقت محمود يختاره، وطـــالع سعيد، فخفق رأس الاسكندر، وكان قد احترز في نفسه في حال ارتقابه الوقت المحمود، فنام فجلس على حبل الجرس الكبير غراب، فحركه فصوت وتحركت الحبال، وخفقـــا ما عليها من الأجراس الصغار .. فلما سمع الصناع تلك الأصوات وضعوا الأساس دفعة واحدة، وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس، فاستيقظ الاسكندر من رقدته، وســـأل عن الخبر، فأخبر، فتعجب وقال: "أردت أمراً وأراد الله غيره، ويأبى الله إلا مـــا يريـــد، أردت طول بقائها، وأراد الله سرعة فنائها وخرابها.." (٦٦)، وهذا تلعب خرافة "الطالع" (٦٧)، دورها في بقاء أو بناء المدن ولعل للسبب نفسه أرجع السيوطي سبب بقاء الأهرام إلى "الطالع السعيد" حيث: "كان ابتداء بنائها في طالع سعيد"(٦٨). ونتبين مـــن هـــذه القصة أنها لا تخلو هي الأخرى من زجر الطير والتنجيم عند بناء المدن، على الرغم من أن الرواية ترجع استقرار الغراب على الحبال إلى محض المصادفة، ولكن يحتمل أن يكون المغزى الحقيقي للقصة نوعاً من الزجر للتنبؤ بالفأل الحسن عند إقامة المدينة .

وإذا كان لم يذكر هنا شيء عن إقامة محراب للتنجيم على النحو الذي كان شـائعاً قبل الإسلام أو في الحضارات القديمة، فإننا لاشك ندرك صلته بتلك التقاليد الوثنية التي اختفت في صدر الإسلام، ولاسيما في العصر الفاطمي، فلم يبق منها سوى المظهر ابعيد عن الجانب الديني.ويبدو أن هذا التقليد المتبع عند بناء المدن كان شائعاً أيـضاً عنـد الفراعنة حيث كانت تقتضي بعض الطقوس الدينية عند إقامة نوع من المعابد أن يقـوم فرعون بتثبيت أوتاد أربعة في الاتجاهات التي تحدد موضع إقامة المعبد ثم تشد أحبال بين هذه الأوتاد، ولذلك سميت تلك الطقوس بمراسم (شد الحبل)، ثم يبدأ بعد ذلك حرث أرض المكان الذي حدده بنفسه أربع مرات تشكل بعدها قوالب اللبن الأربعـة الـتي ستوضع في زوايا المعبد المزمع إقامته، ولهذا يخلط التراب بالماء ويضرب أربع مرات قبل صب الطين في قوالب الطوب لتشكيله ويقوم بعد ذلك بنثر حبات البخور على الأوتاد التي عينها للمعبد[٦٩]. وهو الطقس الذي نقلته لنا الكتابات التاريخية عن بناء معبـد (الملكة حتشبسوت أو معبد الدير البحري) على الشاطئ الغربي للنيل في مواجهة طيبة (الأقصر) .

"إذ كان اليوم الذي حددوه للطقس المعروف باسم (شد الحبل) ووضـع حجـر الأساس فرصة لعمل احتفال كبير وقد سارت حتشبسوت في المقدمة ووراءها وزيـر الجنوب وجميع مديري الإدارات وكهنة آمون، وحفروا حفرة في كل ركن من الأركان الأربعة في الأساسات المحفورة وذبحوا ثوراً وقطعوه إلى أجزاء ثم سار الكهنة إلى تلـك الحفرة وملئوها باللحم وغير ذلك من المأكولات ودعوا الآلهة ألا يتعرض فرعـون لأي ألم من آلام الجوع في العالم الآخر .. ولقد عثر رجال الآثار على ودائع الأساس في معبد حتشبسوت بالدير البحري، كما عثروا على أرجل وأضلاع من لحم الثيران وعثـروا أيضاً على أرغفة من الخبز المخروطية الشكل وعلى كعكات مستديرة وعثـروا أيـضاً على شعير وتين وعنب وعناب وبلح وبعض الخضروات والسمان ونماذج صغيرة لأواني

النبيذ ..كما عثرروا أيضاً على شئ فريد وهو مجموعة من نماذج أدوات البنـــاء الـــتي ينتظر أن يستخدمها العمال ومن بينها قدوم النجار وفأسه ومطرقته وأزميلـــه وبوتقـــة صاهر المعادن، كما عثروا على قالب صانع الطوب وفأسه الخشبي وغرباله الذي يغربل به الرمال .." (٧٠).

وربما انتقلت هذه التقاليد القديمة إلى اليونان والرومان فتشير الأساطير الرومانيـــة القديمة إلى أن رومولوس زجر الطير عندما أراد إرساء الحجر الأساســـي لمدينـــة رومـــا وتقول بعض الروايات أنه استخدم في تحديده المدينة عصاه السحرية للإشارة بها ويصف سيسيرو هذه الأسطورة على نحو آخر فيقول :"إن رومولوس ــ عندما قام بتشييد مدينة روما ــ حفر حفرة دائرية على النحو الذي كان متبعاً منذ القدم لجلب الفأل الحـــسن، وكانت تقذف في تلك الحفرة حفنة من تراب أرض وطن كل واحد من الذين يشهدون هذا الحفل، وكانت هذه الحفرة بمثابة الطريق إلى العالم الآخر الذي يوصـــل الأحيـــاء بالأموات.وفي أثناء حفر هذه الحفرة كانت تستحضر أرواح الأسلاف لـــتقطن هـــذا المكان وتخالط بعدئذ الأهالي، وبهذه الطريقة يدخل الأحياء والأموات المدينة في الوقت نفسه ، ثم أقام على هذه الحفرة محراباً لذكرى الأسلاف، وارتدى بعد ذلك رداء خاصاً بالطقوس الدينية وحجب رأسه وأخذ يخطط حدود المدينة الحديثة معتمداً على محـــراث ذي سلاح برونزي يجره ثور وبقرة، وقد حمل رومولوس المحراث عن الأرض في موضـــع أبواب المدينة الأربعة التي تنفتح نحو الاتجاهات الرئيسية الأربعة (٧١).

ولقد تبقى من هذا التقليد عادة دفن بعض المستندات والنقود في أساسات المبـــاني التي تقام، ونجد بقايا لهذا التقليد في الهند حيث تسكب في حفرات على مقربة من المعابد دماء الفديات المقدمة كم يدفن فيها بعض المعادن النفيسة، ويقال إن رومولـــوس دعـــا أرواح الأسلاف إلى السكنى تحت أرض مدينته الجديدة ليضمن إقامة الأحياء والأموات فيها، ومن اليسير أن تتضح لنا أهمية زجر الطير في هذه الأسطورة التي قيل إنها حـــدثت

سنة ٧٥٣ق م.وفيها ترتبط عادة زجر الطير بطقوس دينية أخرى، فعلى الرغم مـــن أن الأسطورة لم تفسر الغرض المقصود من إقامة محراب فوق الحفـــرة الدائريـــة، فهنـــاك احتمال بأن يكون هذا المحراب قد أقيم لغرض التنجيم أو زجر الطير والمعابد القديمة أياً كانت حضارتها.

وعلى حد قول سيسرو: كان عند الرومان أيضاً عادة نصب خيمـــة أو فـــساطيط خاصة بالتنجيم، حيث كانت طقوس التنجيم تؤدي بطرق منصوص عليها لا تحتمـــل التعديل أو التغيير خشية جلب الفأل السيء أو النحس وربما ذكرنا هذا بتقليد مماثـــل كان منتشراً عند عرب الجاهلية حيث كان لهم خيام حمراء من الجلد تعلوهـــا قبـــاب تستخدم لغرض التنجيم، وكان يتحتم أن يتم هذا التنجيم على مقربة من الكعبة حيث كانت تقام حولها تلك الخيام المسماة بالقباب.وجرت عادة عرب الجاهلية عند تعبدهم بجوار القبة أن يصفقوا ويصدروا أنواعاً من الصفير، ولا ريب أن في هذا التقليد تشابهاً بين هذا النوع من التعبد الذي يأتي على صورة صفير أو تصفيق مع قصة بناء القـــاهرة على يد جوهر الصقلي واستخدامه الأجراس لبدء العمل في البناء(٧٢).

ولعل الربط بين خراب كلٍ من القاهرة والإسكندرية وبين ظهور الغـــراب يرجـــع لبقايا الاعتقاد الشعبي في أسطورية الغراب بما يحمله من دلالات وارتباطـــه بأحـــداث تاريخية ذات طابع (مأساوي)، فهو طائر تشاءمت به العرب كلها، بل "أن كثيرا مـــن الشعوب منذ العصور القديمة كانت تحس إزاء هذا الطائر إحساسا يشوبه التقـــديس أو الأسطورة"(٧٣).، دون أن يفكر الناس بصيده، ولعـــل وروده في قـــصة نـــوح عليه السلام وأسطورة الطوفان البابلية أثر في ذلك، كما أنه هو الذي دل قابيل كيف يدفن أخـــاه هابيل، وهو دليل عبد المطلب على موضع "زمزم"، وهذا يعني أنـــه أشـــبه بالكـــاهن والدليل فهو يحمل رسالة من وراء حجب الغيب، وقد غذى هذا الـــشعور المـــوروث الشعبي بقوله: "أشأم من غراب البين" وقولهم:" ما هو إلا غـــراب نـــوح. عليه السلام"(٧٤)،

ويبدو أن أحاديث الناس عن الغراب أخذت تترى لتزيد التطيّر منه رسوخا لا سيما تلك الأحاديث (المنمقة المزخرفة) التي ابتدعها الخيال الشعبي لتدخل في مجال الأساطير من أوسع الأبواب فيما يتعلق بالتأصيل لنشأة وعمران القاهرة والإسكندرية على حد سواء، ولعل الخيال الشعبي قد استصفى من الأساطير القديمة رمزيتها التي تعززها الخبرة الاجتماعية من أن الغراب قد جلب الخراب والشؤم على الإسكندرية والقاهرة بعدما كانتا في أوج ازدهارهما وانحصار ما كانتا عليه من مظاهر الحضارة والفخامة، مثلما كان الحال مع مدينة "أمسوس" المندثرة حيث كانت "الغربان قد كثرت في أيام الملك لوجيم، وصارت تفسد الزروع والغلال، فعمل أربع منارات في جوانب مدينة أمسوس، وجعل على كل منارة صورة غراب، وعليه صورة الحية قد التوت، فلما عاين الغربان ذلك، نفروا عن المدينة" (٧٥).

وعموماً سوف نجد أنه قد ارتبط بالحيوان ــ الطيور خاصة ــ نوع من السحر عرف بالزجر والطيرة، والزجر هو التفاؤل أو التشاؤم من آخر، وهو يعني التنبؤ بالمستقبل من خلال حركة الحيوان. وكان هذا النوع من التنبؤ معروفاً عند الكثير من الشعوب القديمة، عرفه الكلدانيون والسومريون والحيثيون واليونانيون والرومان، كما كان معروفاً عند العرب وغيرهم من الشعوب. وقد تحدث عنه ابن الأثير وذكره ابن خلدون في مقدمته، وقال هو "ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان " فربطه بالكهانة الناشئة عن صفاء الروح ربطاً كاملاً. والطيور والثعالب والأرانب من الحيوانات التي استعان بها الزاجر، فكان الرجل يعمد إلى واحد منها فيرميه بحصاه أو يصيح فيه ، فأن ولاه في طيرانه ميامنه تفاءل، وإن ولاه مياسره تشاءم منه وتطير به. وربما لاحظ الزاجر حركة الحيوان أثناء ذبحه وهو يرتجف رجفة الموت(٧٦). وقد توسع أهل الزجر فيه حتى شمل كل المخلوقات، فحركات الإبل والخيل وسكناتها كلها ذات دلالة تنبؤية. وتشير الأساطير القديمة إلى أن (روملوس) زجر الطير

عندما أراد إرساء حجر الأساس لمدينة روما، فنبأته الطير بأن الفأل حسن [٧٧]. ويـــذكر البعض أن الأصل في الطيرة هو زجر الطير ثم صار للوحش. وقال أحد شعراء الجاهليـــة [٧٨]:

(عوى الذئب فاستأنست للذئب إذْ*** عوى وصوتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ)

وإنا لنجد لزجر الطير بقايا في معتقدات العرب في العصر الجاهلي تذكرنا بها هـــذه أليبات التي قيلت في صدر الإسلام رغم تلاشي هذا التقليد في هذه الأثناء، فجاء التنويه بالزجر كتقليد ومظهر من الماضي :

(ولا السانحات البارحات عشية*** أمر سليم القرن، أم مر أغبر) [٧٩]

كما كانت الآثار المصرية محل اهتمام الكثيرين من مؤرخي العـــرب والمـــسلمين، ولكنهم للأسف كانوا قد فقدوا المفتاح الذي يمكن أن يفتح أمـــامهم أســـرار تلـــك الحضارة العظيمة المغلقة، ولذلك فقد جاءت تفسيراهم وشروحهم التاريخية مجردة تماما من النظرة العلمية؛ لذلك ادعوا أن آثار مصر العظيمة من عمل المردة والـــشياطين في الماضي السحيق وشطح الخيال بالبعض فظنها تحوي كنـــوز الفـــراعين القـــدامى، ثم استخدموا المعابد كمحاجر باعتبارها مورداً سهلاً للحجارة المطلوبة البناء، وحطمـــوا بعض المعابد والمدن الأثرية للبحث عن كنوز مزعومة، من تلك المدن التي كانت حقـــلاً خصباً لهذا المجال مدينة "عين شمس" إذ كان من عجائبها: "أن يحمل منذ أول الإســـلام حجارتها إلى غيرها من البلاد وما تفنى" [٨٠].

واحتفى الخيال الشعبي بتلك المدينة فجاءت رؤيتها لها مثقلة بالعناصر الأســـطورية والخيالية التي لا نجدها أحيانا إلا في قصص وحكايات ألف ليلة وليلة حيـــث يـــصفها المؤرخون بقولهم: "مدينة قديمة أزلية، هي كانت مدينة فرعون وفيها آثار كثيرة .. وفيها بركة عظيمة، وقد نقرت في حجر صلد، وحواليها كراسي من رخام، فكـــان يجلـــس

فرعون عليها، وتملأ بالخمر، وحواليها أنهار العسل، وأنواع المشروبات، وبالقرب منها صورة من رخام، يخيَّل للناظر أنها تتكلم، ذكر أنها كانت ماشطة فرعون، وبالقرب منها صنمان من حجارة .. أحدهما يبكي والآخر يضحك..." [٨١].

حاول المقريزي التأريخ للمدينة فقال: "كان يقال لها في القديم "رعمساس" كانت عين شمس هيكلاً يحج الناس إليه، ويقصدونه من أقطار الأرض في جملة ما كان يحج إليه من الهياكل..." [٨٢]، و "بها أحدى نزه الدنيا، يسار فيه يومين بين بساتين مشتبكة وأشجار ملتفة، وفواكه فاخرة، ورياض ناضرة،وهي حفير هامان وزير فرعون.." [٨٣].

مدينة كهذه كان لا بد للعناصر الأسطورية أن تجد محلاً بها في أخبار تلك المدينة وأن تمتلئ سيرتها بالعديد من سمات الأسطورة الموزَّعة في شتى كتب المؤرخين الذين كتبوا عنها متأثرين، بروح الموروث الشعبي المثقل بحكايات الجن والعفاريت المساعدة في عمران مدن مصر، فقال القزويني: "... قال أبو حامد الأندلسي: بعين شمس تماثيل عملتها الجن لسليمان عليه السلام.." [٨٤]، ويضيف الغرناطي: "كان بها هيكل الشمس فخرب.. وكان قد بقي منها عمودان على رأس كل واحد منهما صورة إنسان على دابة وعلى رأسيهما شبه الصومعتين من نحاس، فإذا جرى النيل، قطر من رأس كل واحد منهما ماء لا يتجاوز نصف العمود الذي هو مركب عليه والموضوع الذي يصل إليه الماء لا يزال أخضر رطبا" [٨٥].

ويمكن القول أنه لو كان المؤرخون قادرين على قراءة الكتابة المصرية القديمة، ليغيروا تماما جميع أقوالهم التي ذكرها عن تاريخ مصر، والتي كادت أن تكون بأجمعها تأكيداً للخرافات والمعلومات الموغلة في الغرابة، والتي تثير خيال كل من يسمعها، وهو ما كان يستهوي الناس ومحبي الاستطلاع والمعرفة عن العالم القديم، ويحسب للمقدسي أنه رفض الكثير من الخرافات التي شاعت في عصره حول آثار مدينة عين شمس فقال: "وبعين شمس شبه منارتين طويلتين قطعة واحدة، على رأسهما شبه حربة تسميان

المسلتين، وثمّ أيضا على هذا العمل دونهما ، وسمعت فيهما أشياء لا يقبلها العقل وقرأت في كتاب الطلسمات أنهما طلسمان للتماسيح ويجوز هذا ..." [٨٦].

أضفى الموروث الشعبي على مدينة عين شمس أبعاداً أسطورية حين تخطي حدود العالم المحسوس ليصل إلى تماثيلها العجائبية التي تتداخل مع العالم اللامرئي والتي يحتمل اقتباس



جامع أحمد بن طولون

لوحة ٢

بنيتها من تراث أقدم. من أمثلة ذلك ما تناقله المؤرخون حول حادثة موت أحمد بن طولون: "قال جامع السيرة الطولونية: كان بعين شمس صنم بمقدار الرجل المعتدل الخلق من كدان أبيض محكم الصنعة يتخيل من استعراضه أنه ناطق، فوصف لأحمد بن طولون، فاشتقاق إلى تأمله فنهاه ندوسه عنه، وقال ما رآه وال قط إلا عزل، فركب إليه هذا في سنة ثمان وخمسين ومائتين وتأمله، ثم دعا بالقطاعين، وأمرهم باجتثاثه من الأرض، ولم

يترك منه شيئا"(٨٧). " فلما رجع حُمَّ من يومه ولزم الفراش فسلسل في المرض نحو عشرة أشهر.. فاستمر الأمير أحمد بعد ذلك في المرض حتى مات به" (٨٨).

برغم الحقيقة التاريخية التي حملتها الرواية وهي ثبوت اهتمام أحمد بن طولون بالبحث عن كنوز ودفائن المصريين القدماء، فإن الرواية نفسها تحمل ظلاً يتصل بعقيدة قديمة كانت تعد عنصراً بارزاً في الحكايات الخرافية؛ آلا وهي العقيدة "الفيتشية" التي يعرفها "تايلور" بأنها: "الاعتقاد في كائنات روحية متجسدة في الأشياء المادية أو متصلة بها أو تعمل من خلالها..." (٨٩). وقد ألمح اليعقوبي إلى شئ كهذا في سياق حديثه عن آثار الحضارة المصرية القديمة بقوله :"وكان من قولهم :أن الأرواح قديمة كانت في الفردوس الأعلى .. وكانت عندهم من هذه الأرواح آلهة تنزل ، فتصير في الأصنام، فتتكلّم الأصنام لذلك " (٩٠).ويمكن رصد أفكار متشابهة حول الفكرة "الفيتشية " تنتشر في ربوع إفريقيا السوداء حيث تتجلى هناك فكرة وجود أشياء مادية تتمتع بقوى سحرية، وقد كتب هملهيبر يقول :"إذا كان لدى فرد أية متاعب فهو يتجه إلى ساحر القرية طالباً النصيحة وهذا الأخير ..قد ينصحه بالذهاب إلى أحد الفنانين ليحصل منه على شئ سحري AFETISH، والفيتيش هو دمية أو تمثال.والملاحظ أن عملية التعين هى التي تجعل من التمثال شيئاً له فعالية أو قوة سحرية.وتبعاً للفلسفة الإفريقية فإن الكلمة أو (النومو NOMMO) بما لها من قوة وتركيبة سحرية هى التي تخلق الصورة أو التمثال، وتسمى هذه العملية DESIGNATION OF THE IMAGEأي تعيين الصورة.فشكل التمثال ليس هو الأساس في التعيين، وإنما الكلمة بما لها من قوى سحرية.وعملية التعيين التي يقوم بها النحات الأفريقي تتم بأن يقول للتماثيل واحداً بعد الآخر، أنت كذا (ملك أوجد ..) وكما منحها القوة السحرية عن طريق الكلمة، فهو يستطيع أن يجردها من هذه القوة حين يقول لها إنك لا تعنين شيئاً، وتقول حكمة كهنة اليوروبا أن التسمية عملية خلق، وليس من الضروري أن تكون الشخوص المُعدة

للسحر ــ من أي خامة كانت ــ مطابقة في شكلها لأصحابها الحقيقيين، فبمجــرد أن ينويها الساحر أو الفنان لشخص ما فإنها تكون بديلاً كاملاً لهذا الشخص.فــإذا كــان الموضوع المطلوب له التمثال أو الصورة هو مرض، فإن ساحر القرية يتحــدث بقــوة (النومو) ــ أي الكلمة الخاصة به ــ إلى المريض من خلال الصورة، وهكذا يكون قريباً منه، والصورة تكون هى الدواء الفعال بعد خلق فعاليتها عن طريق الكلمة، والــشئ السحري THE FETISH يُطلب عادة لمناسبة خاصة، فإذا ما ثبت فعاليته في إحــدى الحالات فإن المرء يستعين به في مناسبات أخرى مثل شفاء الأمراض [٩١].

وفي مدينة "أنصنا" [٩٢] يتحالف السحر مع الأسطورة فيحيها، ولا تعود نتاجاً ميتــاً لعصور فائتة، أو سروداً لا طائل فيه إلا الإغراب أو الإمتاع، بل تظل طاقة حية لا تكف عن توليد الاعتقاد بما تحيط سحر من شيد تلك المدن، فتعد شهادة متجددة للمــصريين القدماء، يقول اليعقوبي عنها: "وأنصنا وهي مدينة قديمة، يقال أن سحرة فرعون كانوا منها، وأن بها بقية من السحر وهي في الجانب الشرقي من النيل..."[٩٣]، آثــار هــذا السحر يشير إليه (ابن رستة) في قوله: "أنصنا لا يقربها تمساح بته، والناس منه آمنــون، فإن وقع منها إلى ذلك الموضع أيام المد تمساح، بقي منقلباً على ظهره حتى أن الصبيان يجتمعون عليه، يغطونه في الماء، ويلعبون به، فإذا جاوز هذه القرية عاد ضارياً على ما لم يزل عليه.." [٩٤]. ويوضح ابن وصيف شاه سبب وجود التماسيح في مصر ويرجعه إلى أعمال السحر التي قام بها البربر تجاه مصر:"وقيل :إن الملك ماليق (أحد ملــوك مــصر القديمة في الأساطير العربية) لما غزا بلاد البربر، رأى بها مدينة وبها أقــوام وجــوههم كوجوه الآدميين وأرجلهم كأرجل البقر، وعلى أبدانهم شعر مثل شعر المــاعز، ولهــم أنياب بارزة مثل أنياب السباع، فلما حصرهم لم يقدر عليهم لشدة سحرهم، فتركهم ومضى، وقيل إنه رأي ببلاد البربر عجائب لم يسمع بمثلها في سائر البلاد .... وقيل لمــا رجع الملك ماليق إلى مصر فسحروا البربر مدينة مصر فكثير بها التماســيح والثعــابين

والعقارب والضفادع، وقد فاض النيل حتى غرقت أراض كثيرة في غير أوانه، فلما عاين الملك ذلك لَبسَ المسوح السود وافترش الرماد وسجد عليه، ودعا إلى الله تعالى بكشف النازلة بعد أن عجز عن تبطيل ذلك السحرة والكهنة، واستمر الملك ماليق في الملك حتى هلك "[٩٥].

ولعل الصورة التخيلية للبربر التي جمعت بين الصفات الإنسانية والحيوانية صدى للمعتقدات الشعبية التي كانت رائجة عند العرب حول الغيلان التي كانت نوعاً آخر من الجن يزعمون أن رجليها رجلا عنز[٩٦] وكانوا إذا اعترضتهم الغول في الفيافي يرتجزون، وفي رواية أن الجن خشيت أن يتزوج سليمان بلقيس فتفشى إليه أخبار الجن لأن أمها كانت جنية، فزعمت أنها غير عاقلة ولا مميزة، وأن رجليها كحافر فرس، وقيل كحافر حمار، وأنها شعراء الساقين[٩٧] . وقد توضح لنا تلك الروايات ان نظرة الناس إلى بعض الحيوانات أو الشعوب كانت تتعدى مظهرها الطبيعي .فكانوا يرون فيها قوة خارقة مما حملهم على الاعتقاد بأن الجن أو الأرواح تتقمص أحياناً أشكال الحيوان.فتظهر تارة في شكل حيوان، وتارة أخرى في شكل إنسان، بعض أجزاء جسمه حيوانية كحافر الحصان أو العنز وما شاكل ذلك.ولهذه الظاهرة امتداد في العقائد الشعبية المصرية حتى القرن التاسع عشر الميلادي، ولاسيما في الأحراز والأحجبة التي استخدمت في ذلك الوقت لأغراض متنوعة، وكانت تكتب إما على جلد غزال أو جلد ذئب أو خروف، ومنها أن التي يبغضها زوجها كانت تحمل على عضدها أو ساعدها حرزاً كتب على رق غزال .وقد ورد في قصة سيف بن ذي يزن "أن له بدلة من جلد الغزال ما يسلك فيها مارد ولا شيطان ومن تعرض له من الجان "[٩٨]

وربما تشابه هؤلاء البربر النصف آدميين مع ما كُتبَ في المسخ والتناسخ عند عرب الجاهلية.وكان المسخ والتناسخ عندهم سبيل العقاب والثواب، ففي الأول تنتقل الروح إلى أجساد البهائم المسخرة للأعمال الشاقة أو المعدة للذبح أو المرتطمة في الأقذار، وفي

الثاني تنتقل الروح لجسد يغاير نوع الجسد الذي فارقته، لأن النوع الذي أوجب لهـا طبعها الإشراف عليه والتعلق به لا يجوز أن تتعلق بغيره.والتناسخ مذهب قديم قال بـه أهل الهند والعرب في الجاهلية.فالمسخ تحويل الصورة إلى صورة دونها، وينكر المسخ أكثر الدهرية، وأهل الكتاب لم يقروا به، غير أنهم أجمعوا على أن الله جعل امرأة لـوط حجراً، وكانت العرب في الجاهلية تعتقد وقوع المسخ فزعمـوا أن عـشارين مـسخ أحدهما ضبعاً والآخر ذئباً، وزعموا أن سهيلاً كان عشاراً وأن الزهرة كانت امرأة اسمها زاهيد فمسخا نجمين(٩٩).

أما العريش فقد تأثر اسمها ببعض الأقوال التي تأخذ الألفاظ على ظواهرها، كقول الرحالة ابن حوقل: "إن الجفار بأجمعه كان أيام مصعب بن الوليد فرعون موسى، في غاية العمارة بالمياه والقرى والسكان، وأن قول الله تعالى: ﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعـون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ عن هذه المواضع، وأن العمارة كانت متصلة منه إلى اليمن، قال: ولذلك سميت العريش عريشاً.."(١٠٠).

وقد جُبل الوجدان الشعبي على استعارة بعض التراكيب الفنية من القصص الـديني الخاص بالأنبياء وتحميلها على بعض الأخبار الشعبية والتاريخية الخاصة بالمدن ؛ لما لسيَّر الأنبياء من دور فاعل في التاريخ الإنساني، كتجـسيد للـضمير الجمعـي للبـشرية، وكسجل لمسيرة الأفعال الروحية الإيمانية فنجد الخيال الشعبي الذي نقله لنا الرحالـة (أولياچلبي) يستعير هيكل قصة وضع مريم العذراء تحـت الـشجرة دون المـضمون ويسقطها على ميلاد مصرايم في مدينة العريش فيقول: "بعد الطوفان .. أذن سيدنا نوح عليه السلام إلى الكاهن قليمون وصهره المدعو بيطر بالعودة إلى أمسوس الـتي بناهـا جـده مصرايم، ووصلوا المدينة المسماه "العريش".... وفي أثناء اسـتراحتهم تحـت شـجرة سلمت من الطوفان، جاء المخاض لبنت الكاهن قليمون فولدت من زوجها بيصر بـن حام ولداً ذكراً اسموه أيضا مصرايم، فكان أول ولد جاء إلى الدنيا بعد الطوفان، وهو

"مصرايم بن بيطار، وقد أقاموا الاحتفالات والمهرجانات بالعريش مدة، وتبركوا بتلك الشجرة، التي كانوا يتفيأون ظلالها حيث أخذوا يعلقون بها خرقاً بالية وثياباً قديمة للذكرى .. وقد أقدم الملك مصرايم على زيارة المحل المسمى "بالعريش"، حيث ولدت أمه تحت الشجرة، التي كانت تستظل بها أثناء الوضع، فجاء إلى هذه الشجرة وأخذ يزيِّنها بأقمشة مزركشة وأحجار قيمة ثم عكف تحتها يعبد الله حق العبادة..."(١٠١)

**وعن تلك الشجرة يعلق القلقشندي: " وما أخال الآن بقاء الشجرتين التي تعلق فيها العوام الخرَقَ، ويقولون هذه مفاتيح الرمل عند الكُثُب المجنبة عن البحر الرومي قريباً من الزَّعْقَة"(١٠٢).

أما الواحات سواء أكانت هي التي تحدث عنها الجغرافيون والمؤرخون المسلمون تحتل موقعا على خريطة العالم الحقيقية، أو كان موقعها على خريطة من صنع الخيال الإنساني، فإنها ــ في الحالتين ــ تحتفظ بقدرتها العالية على الاستجابة للمستويات المختلفة للحلم والواقع، فهي في أحد وجوها تعبر عن حلم بمجتمع خيالي يطمح الإنسان لفك ألغازه التي تحول عوامل طبيعية دون معرفتها معرفة يقينية، فالواحات تمثل هامش عالم حضاري معروف لذلك تأخذ ملامحها الجغرافية والسيكولوجية من هذين العالمين. هذا هو بعينه ما نلمسه في رواية المؤرخين أثناء حديثهم عن رحلات الذين قصدوا(١٠٣) الواحات المصرية بقولهم: "بلاد الواحات كثيرة التمر والنخل وفيها مدن كثيرة مسورة وغير مسورة؛ وكل مدينة منها لها اسم يعود إلى ألواح، أريس ألواح، وتنيس ألواح، وألواح الخارج، وألواح صبروا، ... وزعموا أن في أقصى بلاد الواحات بلد يقال له (واح صبروا)، لا يقع عليه إلا من ضل في الصحراء، وفي النادر من الزمان، وأنه بلد عظيم الخيرات من النخل والزرع،وجميع الفواكه ومعادن الذهب، وأنه أخصب بلاد الدنيا .. وقد وقع في هذا البلد رجل من عرب بني قرة.. وأخبر بما رأى فيه من الخيرات، وبما في أيدي أربابه من الأموال.. فأهاج ذلك أمير بن قرة وكان اسمه

مقرب بن ماض، عزم على النهوض إليهم .. فنزل في رجوعه ذات ليلة ربوة من الأرض في بهاء تلك الصحراء،.فوجد بعض أصحابه في نواحي تلك الربوة بيتاً للأول فبحثـــوا عليه فإذا هو لبن من نحاس أحمر، فزادوا في البحث فوجدوا أساس سور من نحاس أحمـــر للأول، فأقروا جميع ما عندهم من الظهر من تلك العين، وساروا حتى أتوا مدينة ألواح الخارج فباعوا ذلك النحاس بأموال كثرة، ثم أرادوا أن يرجعوا إلى الربوة التي وجـــدوا فيها النحاس، فلم يقدروا عليها وضلوا طريقها ..." (١٠٤).

وتستمر الرواية في سرد أحداثها فتحكي عن مخلوق يرتاد (الواحات الخارجة) فتم القبض عليه: " فإذا بامرأة سوداء عظيمة الخلقة مفرطة الطول والعرض ، لا يفقه منـــها كلمة، فرآها مقرب بن ماض فهاله أمرها، فكلموها بكل لغة علموهـــا مـــن لغـــات السودان فلم تجاوب بواحدة منها وتكلمت بكلام لا يفهم، وبقيت عندهم أياما يأتمرون في أمرها، فقال لهم مقرب: نرى أن ترسل وتركب الخيل العتاق الـــسوابق والنجـــب العشار في إثرها إلى أن يوقف على موضعها، ويعلم حقيقة أمرها، فلما أرسلت، فأتـــت الخيل والنجب وبارت الرياح فلم يقفوا على حقيقة خبرها ويذكر أن بين بلاد ألـــواح وبلاد الجريد .. جزائر وهي كثيرة النخل والعيون ، لا عمران فيها، ولا أنـــيس بهـــا، ويقال أنه يسمع فيها أبداً عزف الجن" (١٠٥).

جدير بالذكر أن الأساطير والخرافات التي صاغها الوجدان الشعبي حول أصـــول المدن المصرية القديمة لم تتسرب إلى كتابات الرحالة والمؤرخين فحسب، بل نجد صداها في السِّير العربية والشعبية التي إن دلت فإنما تدل على أن وجدان الشعب قادر على طي الزمان والمكان، وفتح المغاليق الموصدة، وحل الطلسمات المجهولة في إطار من الخرافـــة والخوارق، التي لا تخضع لأبعاد الزمان ومقاييس المكان وطاقة البشر، ومعنى ذلـــك أن السِّير العربية والشعبية أصبحت مادة خصبة لدراسة العديد من العناصر الثقافيـــة ذات الجذور الضاربة في القدم سواء على المستوى المعتقدي أو علـــى مـــستوى الممارســـة

الفعلية، أو حتى على مستوى تطور "الحكاية" من ناحية الشكل الأدبي بدءا بالأسطورة ومروراً بالملحمة والحكاية الخرافية والحكاية الشعبية ووصولاً إلى الصياغات النهائية التي اتخذتها السيَّر الشعبية، والتي تعد الأسطورة من أبرز الأصول الثقافية القديمة التي تمثل مرجعية هامة للسيَّر الشعبية.

ومن السيَّر الشعبية التي مثلت الأساطير المرتبطة بالمدن المصرية أحدى المرجعيات الثقافية لها: سيرة "سيف بن ذي يزن"؛ والتي تمتلئ بالعديد من عناصر وسمات الأسطورة موزعة في شتى مواضع السيرة، من تلك السمات البارزة في السيرة ؛ هي سمة أسطورية المكان.

والمكان في سيرة (سيف بن ذي يزن) يتسم ببعد أسطوري واضح يقدمه لنا الخيال الشعبي مزجاً بين القياس على الأماكن المحسوسة المألوفة وبين التصوير الذي اصطنعه ذلك الخيال الأسطوري، ومن هنا تأتي "عجائبيتها وغرابتها ومطلقيتها" وذلك حتى لو تضمن تقديم هذه العوالم ذكر بعض المعارف الجغرافية اليسيرة؛ كأسماء البلدان والأنهار والجبال وغيرها، وعلى الرغم من أن السيرة ذكرت أسماء: الحبشة، اليمن، المغرب، مصر والشام، والقدس، واليونان، النيل، الفرات. إلا أن هذه الأسماء لم تدل على مواقع جغرافية واقعية، وإنما كانت دلالات الأسماء مجرد خلفية لعالم أسطوري بالفعل، ومن ذلك مصر التي وردت في السيرة في طور النشأة والتكوين في زمن يستحيل أن يكون هو زمن النشأة الفعلية لمصر أرضا وشعبا، كما أن أسماء البلدان والمدن المصرية (الجيزة ــ الروضة، الحسينية، بولاق الدكرور، دمنهور، إسنا، إخميم، ملوي، أسوان، غيرها .. وردت كأسماء أشخاص مصاحبين للبطل وكنوع من التأصيل لأسماء هذه البلدان[١٠٦].

لهذا رأى البعض أن سيرة سيف بن ذي يزن سيرة مصرية، خلقاً وإبداعاً على الرغم من نواتها التاريخية اليمنية المتمثلة في شخصية بطلها سيف، وهو أساساً بطل من أبطال

التحرير في العصر الجاهلي، وتتجلى مصريتها في محاورها وقضاياها الأساسية: نهر النيل، إنشاء المدن المصرية على ضفتي النهر، تعمير مصر، تعريب مصر ... الخ[١٠٧].

ولعل عودة عُجلي إلى كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين ورواياتهم السابقة عـــن أصول ونشأة المدن المصرية القديمة تؤكد حقيقة مؤداها أن المخيلـــة الـــشعبية ـــــ في العصور الإسلامية ـــ لم تكن تختلف كثيراً عن مخيلة المؤرخين والرحالـــة والمـــتعلمين أو المخيلة العلمية آنذاك .. حيث تتداخل الأساطير التعليلية والشعبية والدينية وتلتقي عند الخطوط العريضة لنشأة مصر، ومدنها. مما يعني أن القاص الشعبي كان على معرفة وثيقة بهذا الموروث الفولكلوري التاريخي، الجغرافي المتعلق بمصر، ومدنها ، ونيلها، على نحو يسمح له بإعادة إنتاج هذا الموروث (العلمي بمفهوم ذلك الزمان). وصياغته صـــياغة أدبية تحكي لنا قصة الصراع الملحمي بين النيل والمصريين أو بين المصريين ومدنهم.

هكذا إذن؛ كان احتفاء الموروث الشعبي الذي حفظته لنا الكتابات التاريخية عظيما بالمدن المصرية التي كان تاريخ بعضها يرجع إلى عصور تاريخية سحيقة، كما أن معظمها يحمل من الآثار المادية ما يدل على أن ثمة حضارة تليدة هي التي أفرزت مثل هذه الآثار العظيمة، بيد أن انقطاع أخبار هذه الحضارة القديمة؛ نتيجة للفشل في حل رموز اللغـــة المصرية القديمة أفسح المجال أمام الخيال لسد الثغرة الناجمة عن نقص المعلومـــات مـــن ناحية، والتعبير عن الرؤية الشعبية للتاريخ الذي أنتج هـــذه الحـــضارة مـــن ناحيـــة أخرى[١٠٨].

هوامش الفصل السادس

(١)أرنست كاسيرر: الدولة والأسطورة (ترجمة:أحمد محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م)، صفحات متنوعة ؛ كارم محمود: الأسطورة فجر الإبداع، ص ٤٢٢.

(٢) فكرة المدينة المفقودة تعد من الأفكار الشائعة في ثقافات العديد من الشعوب.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ص ٩

(٤) المقريزي: الخطط، ج١، ص ١٢٨؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج٣، ص٣١٥.
(٥)المقريزي: الخطط، ج١ ، ص ١٢٩؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٢٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ١٤، ص ١٥.
(٦) أولياچلبي: سياحتنامه مصر، ص ٣٦.
(٧)القلقشندي : صبح الأعشى، ج٣، ص٣٨١.
(٨)السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ٤١.
(٩) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ص٥٠.
(١٠)الخطط، ج١، ص ١٢٩.
(١١) العقرب :الصورة النموذجية لهذا الكائن العنكبوتي الخطر من أقدم النقوش الهيروغليفية المعروفة . وقد استعمل لكتابة اسم حاكم من عصر ما قبل الأسرات، وهو الملك العقرب وكان العقرب إلهاً عبد بأسماء مختلفة كما كانت تعاويذ يستخدمها الناس ضد لدغة أي نوع من الزواحف، ووردت في أساطير مصر القديمة حيث تجرأت العقارب التي هي أعداء البشر وخصوم الآلهة ذات مرة، على أن تلدغ الألهة ولكن الآلهة كانوا أقوي من السم واستطاع البشر بواسطة السحر أن يجعلوا لحمهم كلحم الآلهة .جورج بوزنر وآخرون :معجم الحضارة المصرية القديمة، ص٢٣٤
(١٢)ابن إياس :بدائع الزهور في وقائع الزهور،ج١، ص ١٠-١١.ح وانظر ابن وصيف شاه : فضائل مصر وأخبارها، ص٢٠
(١٣)المرجع السابق، ص١١؛ سياحتنا مه مصر، ص ٣٠.
(١٤)ابن إياس :المصدر السابق ، ص ١٠.
(١٥) أحمد أمين :قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية (ط١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٣م)، ص٢٧٨.
(١٦) محمود نصار :غاية الحكيم للمجريطي (٣٤٣هـ)(مكتبة الجمهورية، القاهرة، ب .ت)،ص١٦-٢٣، وانظر أيضاً سليمان حسن :الرموز التشكيلية، ص٣٧
(١٧) بكوت الرماح الخازندار الظاهري :علم الفروسية وسياسة الخيل (تحقيق :محمود عبد الرحيم صالح، مطابع الحرس الوطني، الرياض١٩٨٦م)،ص١٢٤
(١٨) ثناء أنس الوجود : رمز الأفعى في التراث العربي (سلسلة ذاكرة الكتابة، القاهرة ١٩٩٩م)، ص٧٧- ٧٨
(١٩)أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة، ص٥٦
(٢٠) أولياجلبي: سياحتنا مه مصر، ص ٣٥ ص ٣٦.

(٢١)الخطط، ج١، ص ١٣٤؛ القلقشندى : صبح الأعشى، ج٣، ص٣١٥.

(٢٢) ابن محشرة: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٨٣؛ قارن. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص ٩٧؛ عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ١١٦، الاصطخري: المسالك والممالك، ص ٥٤؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص ١٣٤.

(٢٣)ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص ٦٧؛ القزويني: آثار البلاد، ص ٢٧٤؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٦٩؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص ٢١٤.

(٢٤) الثابت تاريخياً أن مصر تعرضت للعديد من محاولات غزوها من الشرق فقد دخل الآشوريون عن طريق حدودها الشمالية الشرقية ووقعت مصر فريسة، في يد "آشور آخي الدين" ٦٧٠ق.م ومن بعدهم الفرس سنة ٥٢٥ ق.م،وقد قدم الآشوريين من شمال العراق إلى مصر غازين : وقد أوضح احتكاك هذا الجنس بالمصريين طبيعة الشخصية المصرية فقد قاومت هذا الغزو حتى طردته، وباسم الدين راح كهان وادي النيل يبشرون، ويشجعون الأمراء المصريين حتى تحقق لهم النصر . انظر :عبد العزيز صالح، تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر والعراق (القاهرة ١٩٧٣م)، ص ٢٧٢.

(٢٥) ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص ٦١.

(٢٦) سعد الخادم : الفن الشعبي والمعتقدات السحرية، ص٣٥.

(٢٧) الثابت تاريخياً أن مصر تعرضت للعديد من محاولات غزوها من الجنوب أيضاً فقد دخل الأثيوبيون مصر من الجنوب وتولوا حكمها خلال الأسرة الخامسة والعشرين ما بين ٧٣٠–٦٦٥ق.م بعد أن طردوا الليبيين، ولم يعتبر الأثيوبيون أنفسهم دخلاء على مصر، بل رددوا في متونهم أنهم أحلاف طيبة، وأتباع الدين الصحيح لآلهة آمون . انظر: عبد العزيز صالح، تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر والعراق (القاهرة ١٩٧٣م)، ص ٢٧٢.

(٢٨) الخطط، ج١، ص ١٣١،

(٢٩) عيد النيروز: هو عيد رأس السنة القبطية في أول شهر توت ويغلب على الظن أن عادة الاحتفال بهذا العيد متوارثة من قدماء المصريين على الرغم من اسمه الفارسي (ومعناه اليوم الجديد) فقد كان المصريون في عصر الفراعنة يحتفلون بهذا اليوم أكراما لنهر النيل، وفي عصر سلاطين المماليك كان الاحتفال بعيد النيروز يأخذ شكل (احتفالات العامة)، إذ اعتبر ذلك اليوم بمثابة عطلة عامة، فكانت الأسواق تغلق في ذلك اليوم كما كانت المدارس تعطل، ويذكر السيوطي وابن تغري بردي: أن هذا العيد أُبطل نهائياً منذ سنة ٧٠٢ هـ، انظر: المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٩٢٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ٢ ٢٦٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٢٠٢؛ قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي(ط. الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م)، ص ١١٠.

(٣٠) الخطط، ج١، ص١٣٩.

(٣١) بن وصيف شاه : جواهر البحور، ص١٧.

(٣٢) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٧٥.

(٣٣) الخطط، ج١، ص ١٣٩

(٣٤) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٧٠.

(٣٥) الخطط، ج١، ص ١٤٤.

(٣٦) أوليلچلبي: سياحتنا مه مصر، ص ٤٢-٤٣؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٤٤.

(٣٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ص ١٦؛ ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٩٠ : ص ٩١.

(٣٨) الصفدي: تاريخ الفيوم وبلاده، ص ٤.

(٣٩) ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ٣٠.

(٤٠) ابن بطوطة: الرحلة، ص ١٧.

(٤١) الخطط، ج٢، ص ١٤٤؛ العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص ٤٩٢.

(٤٢) صمم الاسكندر على بناء مدينة مقدونية في الأراضي المصرية لتنزع طرق التجارة من الفينيقيين حلفاء الفرس إلى أيدي المصريين الأصدقاء: ومن ثم جاء اختياره لقرية راقودة المجهولة لكي تتحول إلى أعظم مدينة عرفها التاريخ ووجد في راقودة مكاناً جيرياً صلباً يرتفع عن سطح الدلتا وقريب من المياه العذبة. انظر: سيد أحمد الناصري: الإغريق تاريخهم وحضارتهم، ص ٥٣٤.

(٤٣) قهر الإسكندر الفرس في معركة حاسمة كانت بداية النهاية للإمبراطورية الفارسية، وهي معركة (جاوجاميلا) في أول أكتوبر عام ٣٣١ ق.م. وقد وفدت العناصر الفارسية إلى مصر مرتين، كانت الأولى على يد قمبيز، واستمر بقاؤهم أكثر من قرن خلال الأسرة السابعة والعشرين . والثانية على يد كسرى الثاني عام ٦١٦ق . م، وقد صبغت مصر بعض الأسرات الفارسية بعاداقا فسمّوا أبناءهم بأسماء مصرية، واتجهوا بدعوقم إلى الأرباب المصرية وساهم بعض ملوكهم في إنجاز معابد مصرية في الدلتا والواحات. انظر: سيد أحمد الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارقم، ص ٥٣٦.

(٤٤) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٧٠ ، ص ٧١.

(٤٥) ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٩٣؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص ١٤٤.

(٤٦) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص ٤٩٤؛الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٤٧، ٤٨.

(٤٧) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ٣٩؛ الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص ٥٧، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٤٥.

(٤٨) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢١١.

(٤٩) الرازي (عمر بن محمد بن عبد الله) (ت ٧٢٨ هـ): مسامرة الندمان ومؤانسة الإخوان (تحقيق: وليد مشوح، الطبعة الأولى، مركز زايد للتراث، الأمارات ٢٠٠٣م)، ص ١٧٧.

(٥٠) محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص ١٢٤؛ كارم عزيز: الأسطورة فجر الإبداع ، ص ١٠٦.

(٥١) جاء في أساطير العرب أنّ (إرم ذات العماد) مدينة عجيبة بناها شدّاد بن عاد من حجارة الذهب واللؤلؤ والجواهر فكانت فتنة باهرة للعيون لا يقدر القادم إليها من بعيد أن ينظر إليها إذا واجهها في ضوء النهار، ثمّ أقفرت هذه المدينة العجيبة واختفت في الصحراء، فهي في مكان محجوب عامرة بقصورها السحريّة وكنوزها المباحة، ولكن لا وصول إليها، وقد طلبها كثيرون فهلكوا أو ضلّوا وعادوا قانعين من الغنيمة بالإياب"وتعد من المدن المسحورة تلك المدن التي عرفت في زمن ما واختفت بصورة غامضة، وارتبطت بشكل ما بالغرابة والعجائبيّة نحو إرم ذات العماد،محمد الصالح :الرحلات الخيالية في الشعر العربي الحديث (منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٠م)،ص١٧٧.

(٥٢) لبي

(٥٣) ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ١٠٠

(٥٤) البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ج١، ص ١٩٨؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٤٤؛ اسحق بن المنجم: آكام المرجان، ص ٢٢

(٥٥) المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ٣٧٠.

(٥٦)الغرناطي: تحفة الألباب، ص ٥٧؛ الأبشهي: المستطرف في كل فن مستطرف، ج١، ص ٥٤٦.

(٥٧) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ١٤٥.

(٥٨) ابن محشرة: الاستبصار، ص ٩٩.

(٥٩) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور ص ٧٢.

(٦٠) اكتسبت القاهرة ومدن المشرق العربي في مخيلة الناس أبعادا ودلالات اقتربت من الأسطورة والخرافة، وأخذ هذا الشرق يتمتع في تلك المخيلة بصفة تكاد تكون «نمطية» تنطوي على الصدق حينا، وعلى الكثير من التصورات والأوهام الغامضة في أحيان أخرى، ولعل هذه التصورات، التي راحت تتضخم عبر العصور، جاءت من القصص والروايات التي تروى عن الشرق، ولا شك أن أهم عمل ساهم في صياغة هذه التصورات، وأطلق العنان للمخيلة، هو كتاب «ألف ليلة وليلة» الذي يقدم

وبشكل مدهش قصصا خرافية تتحدث عن الأسفار في الصحراء والبحار، وعن الجن، والأقزام، واللصوص، وعن الليالي الملاح، وعن جمال النساء الشرقيات، وعن الوقائع والحوادث الخارقة...وذلك في سرد يومي متلاحق ترويه شهرزاد لزوجها شهريار تجنبا لعقوبة الموت التي تنتظرها إن هي أخفقت في خلق التشويق لدى شهريار، فالخدعة قائمة على أن ينتظر بشغف الليلة التالية ليسمع بقية القصة، وبهذا المعنى فإن شهرزاد حافظت على حياتها عبر فضيلة القص المباركة على عكس سابقاتها اللواتي قتلن . فالشرق في هذا العمل وفي غيره من الأعمال هو متحف للأعراق، والاثنيات، والثقافات المختلفة، وهو فضاء تتعدد فيه الآلهة والقديسون، الأشرار والأتقياء، وهو موطن حافل بالخرافة والأساطير القادمة من تاريخ غابر قديم قدم مدن هذا الجزء من العالم.

(٦١) آن وولف: كم تبعد القاهرة؟ ص ١٧١، ص ١٧٢.

(٦٢) ابن سعيد الأندلسي: النجوم الزاهرة في حضرة القاهرة(القسم الخاص بالقاهرة، تحقيق : حسين نصار مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٠م)، ص ٢٩.

(٦٣) عبد الرحمن بن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً (تحقيق: محمد الطنجي، سلسلة الذخائر، ألعدد ١٠٠، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص ٢٤٦.

(٦٤) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٨١؛ الإسحاقي: أخبار الأول، ص١١٦؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص ٢٤.

(٦٥) أولياچلبي: سياحتنا مه مصر، ص ٣٩٣.

(٦٦) ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص ١٨٢؛ المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ص ٤٢٤؛ ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٩٢، ص ٩٣؛ أولياچلبي: سياحتنا مه مصر، ص ٣٩٤.

(٦٧) يعتقد العامة في مصر أن هناك ساعات في النهار بل أياماً مخصوصة لا يحسن بالمرء أن يأتي فيها عملا لأنها منحوسة، وهذا الاعتقاد في الأيام سعدها ونحسها قديم إذ كان المصريون يعتقدون أن الأيام تكون سعيدة أو منحوسة طبقا لما وقع فيها من حوادث سعيدة أو كريهة في أساطيرهم الدينية، فاليوم الأول من أمشير الذي رفعت فيه السماء وكذا اليوم السابع والعشرون من هاتور الذي عقد فيه صلح بين الإلهين حورس وسيت وتراضيا فيه على اقتسام العالم كانا يومين كلهما سعد وبركة، كما كانوا يعتبرون شهر توت أقدس شهور السنة لأنه يرمز إلى "تحوت" إله الحكمة أما اليوم الرابع عشر من طوبة الذي بكت فيه إيزيس ونفتيس على أوزوريس، فقد كان يوماً منحوسا، وكان هذا الاعتقاد من القوة في العصر الفرعوني حيث أن كثيراً من الأعمال كالبدء في سفر بعيد أو عقد صفة تجارية أو ما إليها كان يؤجل لهذه الأسباب، ويشير أدولف إرمان في كتابه ديانة مصر القديمة : أن لدينا من الدولة الوسطى تقويم عن شهر يعين ثمانية عشر يوماً طيبة، وتسعة أيام سيئة، وثلاثة أيام بين بين . ومن الدولة الحديثة لدينا كتاب

كبير يزودنا ببيانات مماثلة عن جزء كبير من السنة، فاليوم قد يكون سعداً أو نحساً تبعاً لهذا الحادث أو ذاك مما جرى فيه من قصص الآلهة وما زال المصريون يعتقدون في ذلك ويؤجلون أعمالاً لهذا السبب عينه. أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة (ترجمة :عبد المنعم أبو بكر، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٧م)، ص٣٥١. محرم كمال: آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية،(مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٧م)، ص ٢٥؛ وليم نظير: العادات المصرية بين الأمس واليوم (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٦٧م)، ص ٢٢.

(٦٨) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ٧١.

(٦٩) سعد الخادم :الفن الشعبي والمعتقدات السحرية، ص١٣٦.

(٧٠) ونفرد هولمز : كانت ملكة علي مصر (ترجمة سعد أحمد، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م)، ص٥٨.

(٧١) نفسه، ص١٣٧

(٧٢) نفسه، ص١٣٨وما بعدها.

(٧٣) جيمس فريزر: الفولكلور في العهد القديم(الجزء الثاني: ترجمة نبيلة إبراهيم،ط الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢م)، ص ١٣٣.

(٧٤) انظر البغدادي (عبد القادر بن عمر): خـــزانـــة الأدب (الجزء الرابع، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، مكتبة الخانكي، القاهرة ١٩٨٦م)، ص ٧٦٢؛ الحافظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): الحـــيـــوان، ج٢، (تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة البابلي، القاهرة ١٩٤٠م)، ص ٣٢١.

(٧٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ١٠.

(٧٦) سليمان محمود حسن :الرموز التشكيلية في السحر الشعبي (الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٩م)، ص٧٠.

(٧٧) سعد الخادم : الفن الشعبي والمعتقدات السحرية، ص١٣٩.

(٧٨) جواد علي :المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٨م)، ج٢، ص٨٦، ج٦، ص٧٨٦،٧٨٧

(٧٩) انظر سعد الخادم : الفن الشعبي، ص١٤٠

(٨٠) ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص ٧٠.

(٨١) ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٣٤؛ اسحق المنجم: آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة، ص ٢٥، ص ٢٦؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٤٢٢؛ اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٧؛

الخطط، ج١، ص ٢٢٨؛ ابن الوردي: فريدة العجائب ، ص ٢٢، الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ١٤٥.

(٨٢) الخطط، ج١، ص ٢٢٨.

(٨٣) ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ٣٤.

(٨٤) القزويني: آثار البلاد، ص ٢٢٥.

(٨٥) الغرناطي: تحفة الألباب، ص ٥٢.

(٨٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢١١.

(٨٧) المقريزي: الخطط، ج١، ص ٢٣٠؛ابن عبد الظاهر:الروضة البهية الزاهرة، ص١٢١.

(٨٨) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص ٣٩؛ابن عبد الظاهر:الروضة البهية الزاهرة، ص١٢١.

(٨٩) كارم محمود: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص ٣٦٦.

(٩٠) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، المجلد الأول، ص١٨٨.

(٩١) سليمان حسن :الرموز التشكيلية، ص٩٨.

(٩٢) أنصنا: تسمى الآن قرية الشيخ عبادة، وتقع في مركز ملوي محافظة المنيا.

(٩٣) اليعقوبي: كتاب البلدان، ص ٣٣١، ؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٤٠؛ الدمشقي: نخبة الدهر، ص ٣٤.

(٩٤) ابن رستة (أبي علي أحمد بن عمر): الأعلاق النفيسة (المجلد السابع، مطبعة بريل، ليدن ١٨٩١)، ص ٨١؛ قارن المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ص ٤٠٤؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٤٤؛ ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٨٥؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٤٠.

(٩٥) ابن وصيف شاه : جواهر البحور ووقائع الأمور، ص٢٢.

(٩٦) المسعودي :مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ٢٠٩

(٩٧) سعد الخادم :الفن الشعبي، ص٢٢

(٩٨) سعد الخادم : الفن الشعبي، ص٢٤

(٩٩) نفسه، ص٢٥

(١٠٠) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٤٤؛ النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز(تقديم : أحمد هريدي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م)، ص ١٧١.

(١٠١) أوليا‌چلبي: سياحتنا مه مصر، ص ٣٤، ص ٣٧؛ القلقشندى : صبح الأعشى، ج٣، ص٣١٢.

** الرواية قد تعكس بعض ملامح تضمنتها أفكار أقدم ترتبط بالعبادات الطوطمية والطقوس الخاصة بها، فلم يكن تقديس الأشجار بين العرب ـــ قبل الإسلام ـــ بأقل من تقديس الأصنام والجبال والآبار، ذلك لاعتقادهم أن هذه الأشجار فيها أيضا "قوى روحية" كامنة فيها وأن هذه القوى أثراً خطيراً في حياتهم، ويبدو أن الاعتقاد بوجود الأرواح أو الحياة في الأشجار كان مقصوراً على أنواع بعينها مردها إلى ضخامة هذه الأشجار وقوتها وعُمرها الكثير أو نفعها. نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي. (الطبعة الأولى، دار الإرشاد، بيروت ١٩٧٠م)، ص ٦٩.

(١٠٢) القلقشندى : صبح الأعشى، ج٣، ص٣١٢.

(١٠٣) لقد تميّزت تلك الرحلات الخياليّة عموماً باختيارها الأماكن الغريبة والمسحورة التي تأوي إليها الشياطين والجنّ مراحاً ربما لتعرض من خلاله نظرتها إلى المجتمع الإنساني المعاصر فتعرّض بمفاسده وتفضح نقائصه، وتدعو من طرف خفي إلى الحياة الإنسانية الكريمة القائمة على الروحانيّة سمة رابطة بين بني البشر.

(١٠٤) لعل مدينة النحاس هذه صدى من أصداء الاعتقاد العام حول خواص النحاس السحرية، وعلاقة النحاس بعالم السحر قوية حتى أن مدينة بأسرها قد حشيت خوارق سميت مدينة النحاس في ليالي ألف ليلة وليلة وقد عرفت هذه المدينة العجيبة من قديم، بل عرفت بهذه الصورة نفسها التي نراها عليها في الليالي محاطة بالسور العجيب يذكر المسعودي في مروج الذهب فيقول: "وخبر مدينة الصفر وقبة الرصاص التي بمفاوز الأندلس، ما كان من أنفسهم أنهم وصلوا إلى نعيم الدنيا والآخرة"، ج٤، ص ٩٥؛والملاحظ أن التأريخ ليس غاية ألف ليلة وليلة، ولا تقديم أنماط المجتمع وطبقاته ولا قص أخبار علومه وتطورها، ولا الحديث عن العمران والفتوحات، ولا عن الإصلاح وشؤونه، ولا بيان الظلم وألوانه، ولا التطلع إلى العدل والعلوم الجديدة، وإنما هي غاية محصورة في العبرة والاعتبار وأخذ العظة والإفادة من سلوكٍ أو تصرفٍ لشخصيةِ النظر: سهير القلماوي، ألف ليلة وليلة، ص ١٦٠.

(١٠٥) ابن مخشرة: الاستبصار، ص ١٤٦، ص ١٤٧، ص ١٤٨؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٦٠٠؛ والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٩٠؛ البكري: المسالك والممالك، ص ١٥؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٥٤.

(١٠٦) كارم محمود عزيز: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص ٣٦٩ ، ص ٣٩٥.

(١٠٧) محمد رجب النجار: الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد ١١٠، القاهرة، ٢٠٠٧م)، ص ١٠٧.

(١٠٨) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٧٢.

الفصل السابع

رؤية الرحالة للريف في مصر

تعد دراسة المدينة ناقصة ما لم تدرس علاقة المدينة بإقليمها وريفها المحيط بها فهناك تفاعل وثيق بين المدينة وريفها يتكون من مجموعة الأفعال وردود الأفعال المتبادلة بينهما مما يخلق مركباً إقليماً متميزاً[١]، فتوفير الغذاء مطلب أساسي لنشأة المدن واستمرارها حياتياً[٢]، ومن هنا وجدت علاقة بين المدن المصرية والريف المصري الذي يمدها بما تحتاج إليه أو أن تحصل على ما تحتاج إليه عن طريق التجارة والتبادل أو غير ذلك من الأساليب وإيجاد قاعدة مشتركة من المصالح بحيث تعم الإفادة والاستفادة على الجميع .

وقد جاء في اللسان: الريف يعني الخصب والسعة في المأكل والجمع أرياف، والريف ماقارب الماء من أرض العرب وغيرها والجمع أرياف وريوف، قال أبو منصور: الريف حيث يكون الخضر والمياه والريف أرض فيها زرع وخصب "ورافت الماشية" أي رعت في الريف ومنه حيث لا من أهل الريف[٣] وجاء في القاموس للفيروز آبادي بأن الريف مكان للخصب والوفرة في المأكل والمشرب[٤]" وقال القلقشندى أن أصل الريف في لغة العرب موضوع الزرع والشجر إلا أنه أغلب بالديار المصرية على أسفل الأرض منها[٥]

ويؤكد الماوردي على أن الاجتماع البشري يبدأ بالريف في المزارع ولا يخفي الماوردي إيثاره للريف الزراعي على الوجود المديني وأن سبب التطور البشري يؤدي حتماً إلى الحضر والمدينة، والتي حاول أن يحتفظ لها بفضائل الريف عندما آثر "مصر المزارع السواد" على "مصر الفرصة والتجارة"[٦].

وأورد ابن خلدون نفس الفكرة في قوله: "..... ومما يراعي المزارع فإن الزروع هي الأقوات فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله ومن ذلك الشجر للحطب والبناء"(٧) والريفية نمط حياه، كما أن الريف هو البيئة الجغرافية للقرية، وهو البيئة الجغرافية لمحلات عمرانية ذات خصائص سكانية واقتصادية واجتماعية وعمرانية محددة تلك الخصائص تجعل هذه المحلات ذات شخصية جغرافية متميزة عن سواها من المحلات الأخرى(٨).



والقرية بمعنى " قريت" أي جمعت الشيء والأصل " قر" في مكان بمعنى سكن، واستقر بمعنى أقام، وهذا قار أي هذا ساكن والمحلات أو الحلات ومفردها "محلة وحلة"، وتجمع أحياناً " محال" وهي المواضع التي يحل بها القوم أو ينزلون(٩) وفي كفاية المتحفظ نجد القرية: كل مكان اتصلت به الأبنية جمع بناء واتخذ مجهولاً أي اتخذه أهله قراراً أي مكان يستقرون فيه، وجمعه قرى(١٠) ويرى رمزي أن القرية والبلدة وناحية كلمات مترادفة مستعملة في مصر من الفتح العربي الأول، وأن كلمة كفر استعملت دلالة على القرية الصغيرة في عهد الفاطميين والأيوبيين والمماليك(١١).

فالقرية هي عبارة عن مجموعة الأبنية والمساكن الريفية ذات الخصائص المحددة التي ترتبط بطبيعة العمل الزراعي وما يتعلق به (١٢).وفي القرن الرابع الهجري نجد أن

الأصطخري يميز بين الريف والصعيد في كتابة " المسالك والممالك"، فيقول: "... ويسمى مائلاً من النيل عند الفسطاط الصعيد وما تسفل منه الريف ..."[١٣] .

بينما نجد الإدريسي في القرن السادس الهجري يذكر أن: "الريف هو ما كان من النيل جنوباً وأكثر أهل هذه القرى قبط .)"[١٤] ويضيف ابن دقماق نقلاً عن ابن حوقل قوله: " ... ويعرف شمالي النيل بأسفل من الفسطاط بالحوف وجنوبيه بالريف ومعظم رساتيق مصر وقراها بالوجهين القبلي والبحري ...ويضيف ابن دقماق: "ويسمى ما سفل عن مصر الريف وأسفل الأرض وهذا الوجه عرضة من حدود الإسكندرية إلى طرف الحوف الشرقي عند أول مغازة القلزم نحو ثمان مراحل..."[١٥]

وقد أحصى ابن عبد الحكم[١٦] قرى مصر فقال: "وكانت قرى مصر بالصعيد وأسفل الأرضين ألفين وثلاث مائة وخمساً وتسعين قرية، بالصعيد تسع مئة وست وخمسون قرية وبأسفل الأرض ألف وأربع مئة وتسع وثلاثون قرية" .وقال المقريزي: "وفي شعبان من سنة سبع وثلاثين وثمانمائة" أمر السلطان الأشراف برسباي كاتب ديوان الجيش أن أحْص قرى مصر كلها: قبليها وبحريها فأحصيت فكانت ألفين ومائة وسبعين قرية، وقال: وقد ذكر المسيحي أنها عشرة آلاف قرية فانظر التفاوت بين الزمنين[١٧] .



وكما هو متعارف عليه؛ أن وادي النيل في شطره المصري عبارة عن تكوين فيضي من ترسيبات الطمي الذي يجلبه النيل في فيضانه السنوي، ومن ثم كانت الزراعة وما تزال إلى حد كبير عصب الاقتصاد القومي المصري[١٨]، وقد لاحظ الرحالة الذين زاروا مصر في العصور الإسلامية وما أكثرهم من الشرق والغرب ازدهار العمران الريفي في مصر وامتدت الأراضي الزراعية وتوالت القرى وراء بعضها .

وحديث رحالة القرنين السادس والسابع الهجريين يتفاوت فيما بينهم من حيث الغنى في الحديث عن القرى والزراعة في مصر فمنهم من كان حديثه عن القرى والزراعة ليس في غنى حديثه عن المدن وفي المقابل نجد من استأثرت المدن بكل اهتمامه ورأي بعين الغريب وسجل ما لم تلحظه أعين المقيمين، وما لم تسجله أقلام المعاصرين .

وكان أول ما لفت انتباه الرحالة المسلمين والأوروبيين الذين زاروا مصر في هذين القرنين هو اتخاذ القرى شكلا خطياً موازياً لمجرى النهر وفرعيه في مصر في انتظام وتناسق واتصال وعلى طول طرق المواصلات التي تمثلت في النهر آنذاك .وينوه إلى ذلك ابن جبير في قوله: "... إلى موضع يعرف بدمنهور و ... في بسيط من الأرض أفيح – واسع – متصل من الإسكندرية إليه وإلى مصر والبسيط كله محرث يعمه النيل بفيضه والقرى فيها يميناً وشمالاً لا تحصى كثرة .... والعمارة متصلة والقرى منتظمة في طريقنا ..."[١٩]

ويذكر ابن بطوطة أنه: ".. ركبت النيل مصعداً إلى مصر ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض..."[٢٠]، أما الرحالة الغربي بيرو طافور يذكر أثناء مغادرته دمياط متجهاً إلى القاهرة: "ميمماً صعداً في النهر الذي تتناثر على شاطئيه القرى حتى تصل إلى حافة الماء ..."[٢١] وأشار الإدريسي لانتظام القرى على ضفتي النهر بقوله: ".. وليس في أرض مصر مما يحوز ضفتي النيل شيء قفر، وإنما هو كله معمور بالبساتين والأشجار والمدن والقرى..." .[٢٢]

وكان من الطبيعي أن يشاهد الرحالة قرى مصر منتشرة على مناهل المياه والخلجان مثل الرحالة الإدريسي حيث شاهد: "على هذه الخلجان ... قرى عامرة متصلة ..."[٢٣] وشاهد بأحد خلجان الإسكندرية: "على فوهته وأسفل منه مزارع وقرى متصلة في ضفة المشرق تتصل بأعلى منوف السفلى ..."[٢٤]. ويشير ابن بطوطة إلى أن: "أهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل، فإذا أمد ترعها فاضت على المزارع ..."[٢٥] أما ناصر خسرو فيذكر أن: "هناك على ضفتي النيل كثير من المدن والقرى يطول


الشادوف وطرق الـــري

وصفها ..."[٢٦] أما الرحالة العبدري فيؤكد أنه: "... ليس في الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل"[٢٧].

ووصف الرحالة العبدري الريف في المنطقة الواقعة من القاهرة إلى الإسكندرية بقوله: "... إذا كان الماء قد نضب على الريف فسافرنا على طريقة والعمارة عليه متصلة مدناً وقرى إلى الإسكندرية... ومدنها وقراها أكثر من أن تعد وهي ذات بساتين ونخل وشجر ويفتن حسنها الناظر...."[٢٨] ووصف الريف في المنطقة الواقعة بين

الصالحية والقاهرة فقال: "ومنها – الصالحية – إلى قاعدة مصر قرى ظاهرة متصلة وعمارة متظاهرة متأصلة مسيرة خمسة أيام لا يتعذر بها مرام..."(٢٩)

أما صاحب الاستبصار فتحدث عن مصر قائلاً: ".. وهي من أسوان إلى الإسكندرية وخصبها وزرعها وفواكهها كثير جداً يسقى جميعاً بالنيل..."(٣٠) وسبقه المسعودي في القرن الرابع الهجري بقوله: "... أن جنانها – مصر – كانت متصلة بحافتي النيل من أوله إلى آخره من حد أسوان إلى رشيد .."(٣١) وقد تحدث الرحالة عن بعض المحاصيل في مصر فتحدث ابن جبير عن القمح وجودته قائلاً: "... موضع يعرف بمنفلوط ... ليس في الصعيد مثلها وقمحها يجلب إلى مصر لطيبة ورزانة حبته قد اشتهر عندهم بذلك، فالتجار يصعدون في المراكب لاستجلابه..."(٣٢) وأشار عبد اللطيف البغدادي إلى طريقة عمل وجبة النيدة من القمح فيذكر أنها: "تتخذ من القمح بأن ينبت ثم يطبخ حتى يخرج نشاه وقوته في الماء ..."(٣٣) وأشار إلى أسعار القمح وما وصلت إليه في وقت الأزمات الاقتصادية في سنة ٥٩٥ هـ أن سعر القمح في هذه السنة وصل إلى خمسة دنانير وأنه في المدن الكبرى مثل قوص والإسكندرية فبلغ ستة دنانير .(٣٤)

ويحسب للرحالة العراقي عبد اللطيف البغدادي إفراده فصلاً كاملاً في كتاب رحلته المسماة "الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" وهو الفصل الثاني من المقالة الأولى ويعد من أكثر فصول الكتاب تفصيلاً وتحليلاً لما رآه من محاصيل ونباتات وصفاً مباشراً وحدثنا عن البذور والجذور والسوق والأوراق وقدم تحليلات علمية بوصفه طبيب رحالة متخصص لهذه المحاصيل وفائدتها وأماكن زراعتها وأماكن وجودها في مصر والبلدان الأخرى وتحدث بإسهاب عن محاصيل البامية والملوخية والخبازي واللبخ والجميز والقلقاس والموز الأخضر والزنجبيل والليمون بأنواعه والتفاح والبرسيم "القرط" والتمور بأنواعها والبطيخ والخيار والبصل .. إلخ.(٣٥)

كما أشار لاختصاص بعض المناطق والقرى في مصر بنبات ومحاصيل معينة مثل البلسم والأفيون حيث وجد الأول في عين شمس في موقع محاط عليه محتفظ به مساحته نحو سبعة أفدنة(٣٦) وهي نفس المنطقة التي رآها الرحالة الغربي بيرو طافور في القرن التاسع الهجري في قوله: "..... المطرية التي يأخذون منها البلسم وهي على بعد فرسخ من المدينة".(٣٧) أما الإدريسي فيقول: "...وبعين شمس مما يلي الفسطاط ينبت البلسان..."(٣٨).

واكتسبت قرى أسيوط الشهرة في غالبية كتابات الرحالة بزراعة نبات الأفيون وقصب السكر(٣٩) وأشار القزويني أن بها: "... ثلاثين ألف فدان.. وأن بها الأفيون المصري الذي يحمل إلى سائر البلاد.. وبها سائر أنواع السكر ومنها يحمل إلى جميع الدنيا .."(٤٠) ووصف لنا الرحالة الإدريسي معظم قرى مصر وريفها وما اشتهر به من المحاصيل والنباتات الشتوية والصيفية إضافة إلى البساتين وأشجار الفاكهة في أنحاء البلاد إضافة لانتشار نخيل التمر بشكل خاص في قرى الوجه القبلي(٤١) إضافة إلى الأرز الذي يحتاج إلى كميات كبيرة من المياه الدائمة ولذلك تكثر زراعته في منخفض الفيوم وشمال الدلتا، وعنه يقول: " والفيوم مدينة كبيرة ذات بساتين وأشجار وفواكه وغلات وأكثر غلاتها الأرز وهو الأكثر في سائر حبوبها .."(٤٢). وتحدث عن ثراء مصر وريفها فقال أن: "لها في جميع جوانبها بساتين وجنات وشجر ونخل وقصب سكر وكل ذلك يسقى بماء النيل ومزارعها ممتدة من أسوان إلى حد الإسكندرية ويقيم الماء في أرضهم بالريف منذ ابتداء الحر إلى الخريف ثم ينضب فيزرع عليه ..."(٤٣).

وقد اختصت بعض القرى في مصر بغلات يكثر وجودها فيها وأشار الإدريسي في أغلب حديثه عن القرى بما اشتهرت به فيصف قرية الحمى الكبيرة بأنها: "قرية عامرة ولها بساتين وكروم ومزارع وقصب .. وقرية الشامين ... يزرع فيها قصب السكر والبصل والقثاء وهذه أكبر غلاتها وأكثرها وهي بذلك مختصة ... وصحرشت الصغرى

... وهي قرية عامرة وبها من غلات السمسم والقنب وأنواع الحبوب كل حسن ... إلى مدينة القيروان ... وهي قرية يزرع بها غلات الكمون والبصل والثوم برسم قصر الملك ... قرية حانوت... وهي برسم زراعة الكتان وهو غلتها وعليها يعول أهلها ونبات الكتان يجود فيها."(٤٤).

كما لاحظ ابن جبير ريف مدينة دندرة: "مشتهرة بطيب الرطب وكثرة النخيل"(٤٥) وقد لاحظ ابن جبير انفراد قوص عن مدن الصعيد باتساع المنطقة الزراعية بها فيذكر ناصر خسرو الذي شاهد هذه المدينة عند زيارته لمصر: "أنه كان حولها نخل وبساتين كثيرة .."(٤٦) وقال صاحب نخبة الدهر في عجائب البر: "أن بمصر ينبت فيها نبات لا يوجد بغيرها."(٤٧) .أما القزويني فوجد قفط: ".. كثيرة البساتين والمزارع وبها النخيل والأترج والليمون .."(٤٨) وشاهد قرى إخميم: "عامرة بالنخيل والزرع على النيل الشرقي .."(٤٩) وكثر زراعة الزنبق والليمون بدمياط والبطيخ الدميري المنسوب لقرية دميرة الموجودة بطلخا .(٥٠)

ووجد الرحالة الأندلسي ابن سعيد مصر والقاهرة عامرة بالمحاصيل التي تأتي من ريف مصر وذكر: ".. ما فيها من الثمرات والفواكه الرمان والموز والتفاح وأما الإجاص – الكمثرى – فقليل غال وكذلك الخوخ وفيها الورد والنرجس والنسرين والنيلوفر والبنفسج والليمون المصبغ وغير المصبغ كثير، وكذلك النارنج والبطيخ الأخضر والأصفر وأما العنب فقليل غال ولكثرة ما يعصرون العنب في أرياف النيل لا يصل منه إلا القليل .."(٥١) وأشار لذلك قبله صاحب كتاب الجغرافية في قوله: ".. وأقل فواكههم العنب وأكثر فواكههم التمر .."(٥٢).

ووصف لنا الرحالة الهروي ما شاهده من اجتماع نباتات ومحاصيل في مصر وديارها وريفها، فقال: ".. رأيت بها في أوان واحد مجتمع ورد ثلاثة ألوان وياسمينا لونين ونيلوفراً لونين وآساً ونسرينا وريحانا وخيرياً وبنفسجاً ومنثوراً ونبقاً وأتونجا وليمونا

مركباً وطلعاً ورطباً وموزاً وجميزاً وحصرماً وعنباً وتيناً أخضر ولوزاً وقثاء وفقوساً وبطيخاً وباذنجاناً وباقلاء أخضر ويقطينا وحمصاً أخضر وخساً وجوزاً أخضراً والبقول والرمان وهليونا وقصب سكر وهذا ما رأيته في غيرها."(٥٣)

وتحدث بعض رحالة القرنين السادس والسابع الهجريين عن مقياس النيل وألوان استحقاق الخراج وأثر ذلك على الريف في مصر. فيصف ابن جبير مقياس الروضة بقوله: "... ويتصل بهذا الجامع المقياس الذي يعتبر فيه قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنة واستشعار ابتدائه في شهر يونيه ومعظم انتهائه أغشت – أي أغسطس – وآخره أول شهر أكتوبر وهذا المقياس عمود رخام أبيض مثمن في موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه .."(٥٤)

وأشار إلى أوان استحقاق الخراج في ريف مصر، فقال: ".. والمتوسط عندهم ما استوفى سبع عشرة ذراعاً وهو الأحسن عندهم من الزيادة المذكورة والذي يستحق به السلطان خراجه في بلاد مصر ست عشرة ذراعاً فصاعداً، وعليها يعطي البشارة للذي يراعي الزيادة كل يوم والزيادة في أقسام الذراع المذكورة .... وإن قصر عن ست عشرة ذراعاً فلا مجبى للسلطان في ذلك العام ولا خراج ..."(٥٥)

كما وصفه الإدريسي بقوله: ".. وهذه الجزيرة تسمى دار المقياس ... وهي دار كبيرة يحيط بها من داخلها في كل وجه أقبية دائرة على عمد وفي وسط الدار فسيقه عمود رخام قائم وفيه رسوم أعداد أذرع وأصابع بينها وعلى رأس العمود بنيان متقن من الحجر ..."(٥٦).

وتحدث باستفاضة أكثر من ابن جبير عن أوان استحقاق الخراج فيذكر: (.. وزيادة ماء النيل تكون في شهر أغشت والوفاء من مائة ستة عشر ذراعاً، وهو الذي يروي أرض السلطان باعتدال، فإذا بلغ النيل ثمانية عشر ذراعاً روى جميع الأرضيين التي هناك



مشاهدات في الـريف المصري

فإن بلغ عشرين ذراعاً فهو ضرر وأقل زيادة تكون اثني عشر ذراعاً والذراع أربعة وعشرون أصبعاً فما زاد على الثمانية عشر أضر لأنه يقلع الشجر ويهدم وما نقص عن اثني عشر كان بذلك النقص والجدب وقلة الزراعة..)[٥٧] ولاحظ الرحالة (ابن بطوطة)



الذي زار مصر خلال الثلث الاول من القرن الثامن الهجري أن البلاد كانت تروى كلها من ستة عشر ذراعاً وهي الغاية القصوى التي يتم عندها خراج السلطان فإن زاد ذراعاً كان الخصب في العام والصلاح التام فإن بلغ ثماني عشرة ذراعاً أضر بالضياع

وأعقب الوباء[٥٨] وقد سجل لنا هذا القياس الرحالة الذين زاروا مصر منذ القرن الرابع الهجري ومن تلاهم بعد ذلك من الرحالة والوافدين، منهم المسعودي[٥٩].

أما الرحالة العبدري (القرن السابع الهجري) يصف خراج مصر بأنه: (... لا نهر يحيي منه إلا جزء مما يحيي النيل) وتحدث عن أوان الخراج بقوله: (... وابتداؤه بالتنفس في حزيران وهو شهر يونيه فإذا انتهت الزيادة ستة عشر ذراعاً تم خراج السلطان وخصب الناس الكافي ..)[٦٠] .كما أشار لطرق الري وأسلوبه في مصر بقوله: (... وصورة السقى به أن أهل كل بلد لهم خلج – مفردها خليج – تخرج منه فإذا جاء مد أترعها ففاضت على المزارع وسقتها كما تسقى سائر الأنهار وقد علموا أين ينتهي سقى كل مقياس)[٦١].

وشاهد عبد اللطيف بن يوسف البغدادي في سنة ٥٩٨ هـ المقياس وكل أعين الناس في مصر ترتقبه وتتوجس خفية من استمرار نقصان مياه النيل، فيقول: (... وانحسر عن المقياس نحو ثمانمائة ذراع ... فأما هذه السنة فإن زيادته تأخرت إلى الخامس والعشرين من أبيب لم يزد في هذه المدة سوى أصابع حتى ساءت ظنون الناس وشملهم اليأس وظنوا أن حادثاً وقع بفوهته وعند مبدأ جريته ..)[٦٢] وقد أشار الرحالة المسعودي المتوفى في سنة ٣٤٦ هـ إلى مقاييس معرفة زيادة النيل في مصر التي أنشئت قبل الفتح الإسلامي وبعده فذكر المقاييس التي قبل الإسلام وأشار لوجودها في مدينة منف وآخر في أقصى الصعيد وثالث في إخميم أما المقاييس التي أقيمت بعد الفتح الإسلامي، فهي مقاييس حلوان وإقامة عبد العزيز بن مروان وآخر بالجزيرة والذي كان يؤخذ به أيام زيادة المسعودي لمصر سنة ٣٣٢ هـ بالفسطاط .[٦٣]

بينما نجد طافور يشير لوجود مقياس للنيل بجانب: (مدينة بابليون حيث يشقها النهر تقوم في الماء ثلاثة أعمدة ذات خطوط معينة وكتابات قديمة، فإذا كان الوقت شهر سبتمبر وقد ارتفع النهر أقيم الحراس عليها حيث يرقبون كل ساعة زيادة المياه ..)[٦٤]

وشاهد ابن شاهين (القرن الثامن الهجري) المقياس وهو مكان مشرف بوسطه عامود في وسط فسقية ينزل إليها بسلالم وعليه قبة معقودة تظهر زيادة النيل ونقصانه من ذلك العمود وهو مقسم أصابع وأذرع وبه مسجد ومحراب ...)[٦٥].

وتحدث ابن بطوطة عن خراج إحدى قرى الوجه البحري، فقال: (.. رأيت هذه القرية – قرية تروجة – فإن مجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهباً . وإنما عظمت مجابي ديار مصر، لأن جميع أملاكها لبيت المال ..)[٦٦] كما أفرد الرحالة عبد اللطيف البغدادي فصلاً كاملاً للحديث عن قياس النيل والخراج الواجب على الريف وهو الفصل الأول من المقالة الثانية وجاء بعنوان: (في النيل وكيفية زيادته ونقصانه وقوانين ذلك ..)[٦٧].

ويبدو من مصادر أدب الرحلات في تلك الفترة أن الريف قد عرف بعض القرى ذات الأسوار، وقد أشار ابن جبير لهذا في سياق حديثه عن القرى التي شاهدها في طريق رحلته بالصعيد: (... موضع يعرف بأنصنا مياسراً لنا وهي قرية مسيحية جميلة .. كان لها سور عتيق هدمه صلاح الدين ..)[٦٨] ويشير لقرية منشأة السودان بقوله: (.. وقد قام أمام هذه القرية بينها وبين النيل رصيف عال من الحجارة كأنه السور يضرب فيه النيل .. .. فالقرية بسببه في أمن من أتيه ..)[٦٩]ويلاحظ أنه قد اختلف وظائف السور القروي في مصر عن نظيره في منطقة بلاد الشام، فكان الأول يقوم بمهمة حماية القرية من فيضان النيل ومخاطره أما السور الثاني فكان يقوم بمهمة حماية القرى من غارات الأعداء أو الجيران أو للسيطرة على القرى الأخرى إذا زاد فيه الحصن مثل قول ابن جبير: (.. واجتزنا في طريقنا على حصن كبير يعرف بالزاب وهي مظلة على قرى وعمائر متصلة وعلى قرية مسورة تعرف بإسكندرونة وذلك لمطالعة مركب بها ..)[٧٠]

ووفقاً لما شاهده الرحالة الفارسي ناصر خسرو فقد: (شيدت قرى مصر كلها على المرتفعات والتلول، وذلك حتى لا تغرق فإن الماء يغمر البلاد كلها وقت الفيضان

وحينئذ يسيرون من قرية لأخرى بالزوارق ..)[٧١] ويضيف ابن جبير قوله:(موضع يعرف بدمنهور وهو بلد مسور في بسيط من الأرض أفيح – واسع – متصل من الإسكندرية إليه إلى مصر والبسيط كله محرث يعمه النيل بفيضه والقرى فيها يميناً وشمالاً لا تحصي كثرة ..)[٧٢]

أما السوق فقد ظل من مكونات القرى المصرية ولكنه لم يعد سوقاً وحيداً تميز به القرية وإنما زاد عدد الأسواق مع اتساع القرى وزيادة عدد السكان وارتفاع أعداد القرى في الريف المصري والتي قدرها المقريزي بما يقرب من ألفين وخمسمائة قرية [٧٣] وقدر البغدادي عدد سكان بعض القرى نحو: (عشرة آلاف نسمة ...)[٧٤]

ويبدو من مصادر الرحلات أن الريف المصري قد عرف الأسواق الدورية التي كانت تقام في يوم معين من أيام الأسبوع، وقد أشار لهذا المقريزي في خططه بقوله أنه كان للجيزة في كل يوم أحد سوق عظيم: (.. يجئ إليه من النواحي أصناف كثيرة جداً ويجتمع فيه خلق عظيم)[٧٥] . وشاهده ابن جبير أثناء رحلته في مصر، وقال: (... قرية كبيرة حفيلة البنيان تعرف بالجيزة لها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة يجتمع إليها ...)[٧٦]

ويعد السوق بالنسبة للريف عنصراً هاماً جداً إذا اعتبرها الرحالة والمؤرخون من المكونات الأساسية لعمارة القرية واتساعها بل أن الأسواق كانت في مقدمة حديث أغلب الرحالة أثناء وصفهم للقرى التي نزلوا بها أو مروا عليها .[٧٧] وعلى كل حال انتشرت الأسواق في أنحاء الريف المصري بشكلٍ متصل تبعاً لطبيعة توزع التجمعات السكانية فقد شاهد ابن بطوطة أن المسافر في النيل لا يستدعي أن يحمل الزاد معه، وذلك: "لأنه مهما أراد النزول للشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك"[٧٨]

أما قرى أسوان فقد أقيمت فيها أسواق محلية كانت تعقد كل أسبوع وهي صورة مصغرة لسوق المدينة الأسبوعي وكان بائعوا السلع المختلفة يجتمعون في ركن من أركان السوق ولهذا كان يسهل على المشتري تمييز كل سلعة عن الأخرى.(٧٩) أشار لنا الإدريسي عن أسواق ذات طبيعة دورية في غالبية قرى ريف مصر وحرص على ذكر يوم السوق وفي ذلك قوله: (قرية قدقوس وهي قرية كبيرة ذات بساتين وزروع ولها سوق نافقة وهي يوم الأربعاء .... قرية دمسيس .... وهي قرية عامرة آهلة ولها سوق وهو يوم السبت ..)(٨٠).

وأشار النابلسي لوجود الدكاكين الصغيرة بجانب الأسواق في غالبية قرى وريف مصر (٨١) وأشار البغدادي لوجود دكاكين للعطارة في قرية أطفيح (٨٢) وهي من قرى مركز الصف بالجيزة (٨٣).

وغالباً يرجع سبب تخصيص يوم معلوم لسوق القرية حتى يتسنى لها خدمة المنطقة المحيطة بها حيث يؤمها الفلاحون والتجار والجلابة . وهؤلاء الجلابة كانوا تجاراً يأتون بالغلال من الريف ثم يقومون بشحنها في مراكب لبيعها في المدن والأقاليم.(٨٤) نوه ابن جبير لهؤلاء (الجلابة) في سياق وصفه لمنفلوط واشتهارها بمحصول القمح الجيد والذي: (ليس في الصعيد مثلها وقمحها يجلب إلى مصر لطيبة ورزانة حبته قد اشتهر عندهم بذلك، فالتجار يصعدون في المراكب لاستجلابه..)(٨٥) أما الرحالة ابن سعيد الأندلسي فقد أشار إلى المحاصيل التي تصل إلى القاهرة والفسطاط آتية من الريف مثل: (... العنب والتين فقليل غال ولكثرة ما يعصرون العنب في أرياف النيل لا يصل منه إلا القليل ...)(٨٦).

ويضيف الإدريسي ق ٦ هـ: (... قرية دمسيس .. هي قرية عامرة آهلة ولها سوق يوم السبت وسوقها يباع بها ويشتري من الثياب والأمتعة كل طريفة والتجار يقصدونها لنفاقها)(٨٧) وكانت الأسواق همزة الوصل بين القرية والمدينة، فقد كانت العلاقة وثيقة

بينهما حيث تعتبر أسواق المدن منفذ رئيسي في تسويق منتجات الريف، وقامت القرى بإمداد أسواق المدن بسائر المنتجات والغلال والحبوب والخضروات والثروة الحيوانية وغيرها، وأهم هذه السلع بالطبع القمح السلعة الإستراتيجية الأولى في مصر، والتي من خلالها يمكن أن يتأثر القرار السياسي في مصر وسجل التاريخ الإسلامي والوسيط بل والمعاصر حافل بمثل هذه الشواهد حتى الآن، ثم يأتي بعده الشعير والفول .

كما شاهد الرحالة ناصر خسرو وكيف: (يؤتى بالفاكهة والأغذية لتنيس من قرى مصر .. وتجلب كل الحاجيات لمدينة مصر – الفسطاط – من جميع البلاد ويباع بعضها في الأسواق ...)[88] ومن دلائل النشاط التجاري بين القرى والمدن ما لاحظه الرحالة الذين زاروا مصر: (... أن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى دمياط بأنواع الخيرات والمرافق ...)[89] إضافة إلى كون المدن ملاذاً لكثير من أهل الريف في وقت الأزمات والمجاعات وفي هذا ما قرره الرحالة البغدادي في سياق حديثه عن حوادث سنة ٥٩٥ هـ بقوله: (... وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد .. وانضوى أهل السواد والريف إلى أمهات البلاد .. ودخل إلى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم ...)[90]

ونوه البغدادي إلى متاجرة أهل الريف في الآثار القديمة التي يجدونها في أرضهم، وكانت المدينة هي المنفذ الطبيعي لبيع هذه الآثار، فيقول: (... يجلبه أهل الريف إلى المدينة ويباع بالشيء النزر ولقد اشتريت ثلاثة رؤوس مملوءة منه بنصف درهم مصري ...)[91] وقال الكندي أن: (في كل مدينة منها آثار عجيبة من الأبنية والصخور والرخام والبرابي وتلك المدن كلها تأتي منها.السفن تحمل الطعام والمتاع والآلات إلى الفسطاط تحمل السفينة الواحدة ما يحمله خمسمائة بعير .[92] ووجدت بالمدن معامل لتصنيع قصب السكر المجلوب من الريف مثل مدينة شنشا التي يقول عنها الإدريسي: (... وهي مدينة حسنة كثيرة الأشجار والمزارع وبها معاصير لقصب السكر)[93]

ويشير لذلك ابن بطوطة في قوله: (... مدينة منلوي وهي صغيرة مبينة على مسافة ميلين من النيل ... وبهذه المدينة إحدى عشرة معصرة للسكر ...)[٩٤]

وللجامع أهمية في مكونات قرى ريف مصر بحيث أن كثيراً من المعاصرين الرحالة والمؤرخين دأبوا على ذكر الجامع في بداية الحديث عن معالم أية قرية في ريف مصر[٩٥] ولم تعد الجوامع في القرنين السادس والسابع الهجري قاصرة على المدن ولكنها ظهرت



في القرى الهامة أيضاً: (... فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف " بطنتدة " وهي من القرى الفسيحة الآهلة فأبصرنا بها مجمعاً حفيلاً وخطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة ... مررنا عليه موضع يعرف بقليوب .. فيه الأسواق الجميلة ومسجد جامع كبير حفيل)[٩٦]

كما كان الجامع أو شيء يشيد في تلك الحقبة عند اختطاط القرى الجديدة[٩٧] وقد ذكر ياقوت الحموي والسائح الهروي في سياق حديثهما عن قرية " سيلة " أنها: (قرية من أعمال الفيوم بها مسجد يعقوب)[٩٨] ويقول الهروي:" اللاهون بلد به مسجد يوسف الصديق عليه السلام والسد الذي بناه[٩٩] لرد الماء إلى الفيوم"[١٠٠]، وألمح القزويني لوجود مسجد في قرية أفيق بقوله: (... أفيق قرية من قرى مصر ... فذهبت

إلى أفيق فرأيت المؤذن لما فرغ من الآذان...)[١٠١] ووجد الرحالة في ريف مصر الكثير من المشاهد والزوايا في القرنين السادس والسابع الهجري، وكانت هذه الزوايا تقام في الأساس للتفرغ للعبادة سيما لمن اشتهر بالكرامات والخوارق والفراسة، ووجدنا أن كثير من الأمراء الأثرياء يقيموها في كثير من القرى لمن يعتقدون فيهم التقوى والصلاح[١٠٢] وأسهب الرحاب الهروي في الحديث عن هذه المشاهد والزوايا، فقال في غير موضع: (... غيفا: قرية عند مدينة بلبيس بها مشهد ... شأنه وبياض قريتان سميتا بأسماء بنات يعقوب... وبهما قبورهما ... منية العطار: قبالتها من الشرق قرية تعرف بشميرف بها مشهد الخضر عليه السلام وله فضيلة ظاهرة ...)[١٠٣].

وكانت زاوية الشيخ (محمد بن عبد الله المرشدي) (ت ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م) التي وجدت في قرية بني مرشد مقصداً لزيارة السلاطين والأمراء والعلماء والغرباء والرحالة[١٠٤] وقد قصدها الرحالة ابن بطوطة أثناء زيارته للإسكندرية[١٠٥] كما حرص ابن بطوطة على زيارة هذه الزوايا المنتشرة في قرى مصر في طريق رحلته ونزل بكثير منها مثل زاوية الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات في البرلس وزاوية الشيخ شمس الدين القلوي في نسترو وغيرها من الزوايا[١٠٦] وأشار إلى تنافس أمراء مصر في: (... أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا ...)[١٠٧]

ولأن الدوافع الدينية كانت وراء أكثر ارتحال رحالة القرنين السادس والسابع الهجري فطوفوا مصر بحسهم الديني بحثاً عن المشاهد المباركة وزوايا الزهاد والمتعبدين وأشهر هؤلاء الرحالة في ذلك المضمار هو أبي الحسن علي بن أبي بكر الهروي المتوفي سنة ٦١١ هـ حتى أنه صنف كتابه بعنوان (الإشارات إلى معرفة الزيارات) وقوامه ذكر الآثار والعمائر الدينية التي زارها الهروي[١٠٨] ومن بعده جاء موفق الدين بن عثمان وصنف كتاب تحت عنوان (مرشد الزوار إلى قبور الأبرار) وتوفى عثمان في سنة

٦١٥ هـ[١٠٩] ثم تكشف رحلات ابن جبير وابن بطوطة وعلى بن محمد القرشي القلصادي والقاسم بن يوسف السبتي التجيبي عن ولعهم بهذه الزيارة والدوافع[١١٠].

وكما شاهد الرحالة في القرى المصرية المسجد والزاوية والمشهد شاهدوا أيضاً الكنائس والتي أدخلها الرحالة ابن جبير في إطار المشهد حيث ضمت المشاهد في منهج ابن جبير: المقابر والموالد وآثار الأنبياء والعلماء والأولياء والمواقع الإسلامية والمعابد والكنائس والآثار غير الإسلامية .[١١١]

وذكر الإدريسي أن: (... أكثر رساتيق[١١٢] مصر وقراها في الجوف والريف هو ما كان من النيل جنوباً وأكثر هذه القرى قبط نصارى يعقوبية[١١٣] ولهم الكنائس الكثيرة ...)[١١٤] كما شاهد أبي الحسن الهروي في الطريق إلى النوبة بمصر: (مشهد الرديني وهو موضوع مبارك وما وراءه عمارة غير مكنسة للنوبة يحجون إليها ويزوروها وقد شعثها المسلمون عند وصولهم إليها ..)[١١٥] وأشار لبئر مبارك يقال: (إن المسيح اغتسل منها) في قرية المطرية .[١١٦]

وقال صاحب الاستبصار أن: (من العجائب المذكورة بأرض مصر في قرية يقال لها بدرسانة كنيسة قديمة للروم...)[١١٧] وأشار البغدادي عن الأقباط في الريف الصعيدي وتحدث عن الهياكل والبرابي في أكثر من موضع[١١٨] ووصف القزويني الأديرة الموجودة بقرى وريف مصر مثل دير أبي هور: (.. بسرياقوس من أعمال مصر وهي بيعة عامرة كثيرة الرهبان ..ودير أتريب بأرض مصر يعرف بمارت مريم عليها السلام ... ودير الطير على شاطئ النيل ... ودير نهيا بالجيزة من أرض مصر من أحسن الديارات وأنزهها وأطيبها موضعاً وأجلها موقعاً عامر بالرهبان ...)[١١٩] ولم تكن الأديرة بالكثرة في القرنين السادس والسابع الهجري حتى وصلت في منتصف القرن التاسع في عهد المقريزي: (... أديرة الوجه القبلي هي متلاشية آيلة إلى الدثور بعد كثرة عمارتها ووفرة

أعداد رهبانها وسعة أرزاقهم وكثرة ما كان يحمل إليهم وأما الوجه البحري فكان فيه أديرة كثيرة خربت وبقي منها بقية ...)[١٢٠]

يمكن القول أن الرحالة في العصر الإسلامي والوسيط قد وصفوا مصر بقسميها العلوي والسفلي، وإن كان الوصف لا يقترب إلى الكمال إلا أنه حوى العديد من المبالغات وترديد الحكايات الشعبية والأساطير التي اختزنها الوجدان الشعبي وحملها رؤيته للأحداث والظواهر من حوله. كما أن هذه الكتابات القلمية لقدامى الرحالة قد حوت العديد من التفصيلات عن مكونات المدن والريف في مصر وأسهب البعض وأجمل آخرون .

فلم تنل الدور في الريف عناية المؤرخين والرحالة مثل ما نالته المنشآت الأخرى أو الآثار القديمة، وربما مرجع ذلك لتفاهة المنزل القروي مقارنة مع الهياكل والبرابي والآثار المصرية التي انتشرت في قرى ومدن مصر، ورغم تعدد وتنوع الكتابات عن هذه الآثار العظيمة من قبل رحالة القرون السابقة عن القرن السادس والسابع الهجريين إلا أن معظم الرحالة اندفعوا لمشاهدة هذه الآثار مدفوعين بالفضول الشديد لكشف تاريخ هذه المنشآت لم يجدوا سوى الأسطورة والموروثات الشعبية التي تروي ظمأ تعطشهم لمعرفة الحقيقة التي تدور حول المدن المصرية القديمة بما تحويه من أخبارا العجائب والتي توضح مدى إعجاب الرحالة والرواة و انبهارهم بإنجازات الحضارة المصرية القديمة، وهو الأمر الذي يبدو واضحاً من خلال تلك القصص الخيالية عن الأعمال الإعجازية لملوك مصر القديمة .[١٢١]

رغم هذا فقد كشفت كتابات الرحالة عن عدم اهتمام المواطنين بآثار أجدادهم وامتداد يد العبث والسرقة لهذه الآثار ولا يرعون حرمة الموتى وأن الباعث الدافع على عمليات السرقة والنهب هو ما كانت تحتويه هذه المقابر من كنوز ثمينة، ورغم جهل الرحالة في القرنين السادس والسابع الهجريين كغيرهم من الرحالة باللغة

الهيروغليفية إلا أنهم حرصوا على إلقاء الضوء على هذه الآثار واهتموا بوصف العديد من المعابد ولكنهم عجزوا في أغلب الأحيان عن تحديد أسماء هذه المعابد، فاكتفوا بالإشارة لوجود رسومات متعددة وحروف وطلاسم اختلطت عندهم بالغموض والخرافات والأساطير مع رواسب القصص النبوي والقرآني عن الفراعنة والأنبياء والرسل الذين ولدوا أو عاشوا في مصر ومحاولة الربط بينهم وبين هذه الآثار التي لا تحصى عدداً .

ويذكر الرحالة أبو حامد الأندلسي المتوفي ٥٦٥ هـ أن: (في مصر وغيرها من أنواع البنيان وعجائب الآثار ما لا يمكّن إحصاؤه ....)[١٢٢] وخصص الرحالة البغدادي الفصل الرابع من مقالته الأولى في الحديث عن هذه الآثار تحت عنوان (في اختصاص ما شوهد من آثارها القديمة) .[١٢٣]

وكان الدار في ريف الصعيد تبني على مرتفع من الأرض تجنباً لمخاطر الفيضانات وتتكون من طابق واحد واستخدم في بنائه الطوب اللبن[١٢٤] وكانت أغلب الدور تبنى بالطوب اللبن[١٢٥] المصنع من طمي النيل بعد لته بالتبن والقصب[١٢٦].

وفي سياق حديث الرحالة البغدادي عن حوادث سنة خمس وتسعين وخمسمائة وحوادث سنة ثمان وتسعين وخمسمائة أمدنا بمعلومات عما كان يستخدمه أهل الريف من المواد الخام المتوفرة لديهم في بناء منازلهم بما يتلاءم مع قدراتهم الاقتصادية وظروفهم البيئية وعاداتهم الاجتماعية مثل الطين والخشب في السقوف والأبواب والزروب – جمع زريبة وهي مكان الماشية – وما بها من أفران وتنانير وغيرها وأشار لوجود بيوت الطين بالجيزة .[١٢٧]

كما حدثنا صاحب الإشارة إلى محاسن التجارة المتوفي في القرن السادس الهجري أن: (أهل الريف أقاموا صوامع لتخزين الغلال صنعت من الطين وزودت بطاقات يتخللها الضوء إلى الحبوب المخزنة)[١٢٨] .ووجد ببعض القرى حمامات وإن كان ذلك قد اقتصر

على قرى ضواحي القاهرة أو التي تجاورها[١٢٩] ولم تشر مصادر أدب الرحلات لوجود مدارس بالقرى المصرية وإن كانت إحدى الوثائق التاريخية المسجلة بتاريخ ٧ من ذي القعدة سنة (٧٥٩ هـ /١٣٥٨م) تفاجئنا بأنه كان يوجد مدرسة في إحدى القرى المصرية.[١٣٠]

مجمل القول؛ إن الفلاح المصري اجتهد في أن يكون منظر البيت مزرياً لا يستلفت النظر ولا يثير أي مطمع لأن رجال الإدارة بما اتصفوا به من الصلف والاستبداد في أكثر حقب التاريخ المصري وخاصة بالريف كانوا لا يدعون شيئاً ذا قيمة في بيت الفلاح إلا أخذوه فكأن هذه الهيئة المشوهة التي تبدو عليها بيوت الفلاحين في القرى هي في الحقيقة نتيجة ظروف تاريخية ووسيلة حماية مقصودة وتتصل بالتطور التاريخي للبلاد، وهذا يزيد من أهميتها بوصفها جزءاً من تطور الظروف السياسية والاجتماعية لمصر[١٣١] في العصور الإسلامية، وقد قدم لنا رحالة وعلماء الحملة الفرنسية صورة واضحة عما كانت عليه الدور والقرى في ريف مصر: (فقد بنيت كل هذه القرى التي لفتت انتباهنا من الطين بطريقة تبدو معها وكأنها أكوام من الطين المجفف ويبدو أن بيوت هذه القرى قد بنيت من الطوب ومنازل هذه القرى واطئة وقلما ترتفع فوق الأرض لأكثر من اثني عشر قدماً، وتعلو بعض هذه البيوت أبراج حمام ... فضلاً عن ذلك فبيوت القرى مجرد أكواخ قذرة قبيحة المنظر ...)[١٣٢].

ولاحظت المستشرقة وينفريد بلا كمان أثناء ارتحالها إلى مصر هذه الصورة المتكررة في بيوت الفلاحين ووصفتها بأنها: (... في كثير من الحالات مجرد أكواخ قذرة يصعب العيش فيها من الطوب اللبن وأحياناً تغطي جدرانها بطبقة رقيقة من الطين المخلوط بالتبن ... وتقطع القرى طرقات ضيقة يصعب في كثير من الحالات وصفها بأنها شوارع ...)[١٣٣] كما تحدثت الرحالة والجغرافيون المسلمون في القرنين السادس والسابع الهجري عن تدرج أحجام القرى في الريف المصري باستعمال مسميات شملت ادرجاً

حجمياً حيث جاء ذكر قرية كبيرة وقرية حسنة وقرية صغيرة وقرية جامعة وقرية من أعيان القرى وقرية لها كافة مرافق المدن وبالطبع ذكرت القرى الصغيرة ذات الأحجام الصغيرة جداً، ولقد أثر في تحديد هذه الأحجام والمسميات ضوابط كالسكان والموارد والإنتاج والجامع والمنبر .[١٣٤]

ومن أمثلة ذلك وصف ابن جبير لبعض القرى التي نزل بها في طريق رحلته فيقول: (... موضع يعرف ببرمة فكان مبيتنا بها وهي قرية كبيرة فيها السوق وجميع المرافق ... فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف بطندته وهي من القرى الفسيحة الآهلة ... قرية كبيرة الشأن حفيلة البنيان تعرف بالجيزة ... ومنها موضع عرف (بأنصنا) مياسراً لنا وهي قرية فسيحة بها آثار قديمة ... منشأة السودان ... وهي قرية معمورة ...)[١٣٥]

بينما يقول البغدادي: (... والقرى الكبار كقوص والأشمونين والمحلة)[١٣٦] نجد الإدريسي يتحدث عن تدرج أحجام القرى في الريف في أكثر من موضع قائلاً: (... ومنها إلى شلقان خمسة أميال وهي قرية كبيرة عامرة ... منية الحوفي وهي قرية ومنية كبيرة ... قرية قدقوس وهي قرية كبيرة جداً ذات بساتين وزورع ولها سوق نافقة وهي يوم الأربعاء ... قرية دمسيس ... وهي قرية عامرة آهلة ولها سوق وهو يوم السبت ... قرية السنطة وهي قرية جليلة عامرة ... قباب البازيار اثنا عشر ميلاً وهي قرية كبيرة ...)[١٣٧] وأشار لذلك ابن بطوطة في قوله: (... قرية تروجه ... قرية كبيرة)[١٣٨] ويصنف نوع آخر من القرى تحت مسمى (قرية حسنة) وتتواتر هذه العبارة في أغلب كتابات الرحالة كقول ابن جبير: (البلينة وهي قرية حسنة كثيرة النخل ..)[١٣٩] وأيضاً يقول الإدريسي: (...منية إسنا بالشرقي من الخليج وهي قرية حسنة ولها سوق في يوم معلوم...)[١٤٠] ويذكر: (... طنت وهي قرية حسنة كثيرة المزارع والغلات ...)[١٤١].

ووجدت بعض القرى التي كانت في الماضي مدن وحواضر فيقول ابن جبير: (... منشأة السودان على الشط الغربي من النيل هي قرية معمورة، ويقال أنها كانت في القدم مدينة كبيرة ...)[١٤٢] بينما يقول الإدريسي: (.. سنديون وكانت قبل ذلك مدينة لكنها دثرت وبقي منها معالم وقرى متصلة ..)[١٤٣] .وقد يزيد حجم القرية عن المألوف فتصنف كالمدينة، وفي ذلك قول الإدريسي: (.. وهي قرية وضياع كالمدينة يعمل فيها شراب العسل المفوه المشهور في جميع الأرض ...)[١٤٤] ويضيف: (... شابور وهي مدينة كالقرية الجامعية ...)[١٤٥] لهذا فإن أغلب المقاييس التي استعملت لتمييز المدن والقرى متقاربة وتزيد القرى في ذلك بكثرة البساتين والنخيل والمياه والفواكه، وأنها أي القرى إذا كبر حجمها، وزاد فيها العمل الحضري على العمل الريفي، ربما استحالت إلى مدينة وعموماً فإن أهم سمات القرية عند الرحالة والجغرافيين المسلمين وجود جامع ووجود منبر، فإن التشديد في التمييز يكون على ضوابط أخرى هي كثرة الأهالي وتوافر المياه والإنتاج ومع ذلك كله فإن التحديد الدقيق أمر غير سهل.

هوامش الفصل السابع

(١) جمال حمدان : جغرافية المدن ، مرجع سابق ، صـــ ٣٢٤ .

(٢) محمد عبد الستار عثمان ، مقال سابق ، صـــ ٢٢٨.

(٣) اللسان : مصدر سابق ، ص ١٢٦٨ .

(٤) القاموس المحيط ، جـــ ٣ ، طبعة دار الفكر ، فصل الراء باب الفاء .

(٥) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـــ ٣ ، صـــ ٣٨٢ .

(٦) يوسف طعماس : الموقع الموضوع ، مرجع سابق ، صـــ ١٠٦ .

(٧) ابن خلدون : المقدمة ، مصدر سابق ، صـــ ٣٨٦ .

(٨) أحمد البدوي : المحلات العمرانية ، رسالة دكتوراه ، صـــ٦ ، صـــ٧

(٩) اللسان ، الجزء ١١ ، مصدر سابق ، صـــ ١٦٣ .

(١٠) شرح كفاية المتحفظ : مصدر ، سبق ذكره ، صـ ٤٤١

(١١) محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ ، القسم الأول ، البلاد المندرسة ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص٥ .

(١٢) أحمد البدوي : رسالة دكتوراه ، صـ٨ .

(١٣) الأصخري : المسالك والممالك ، مصدر سابق ، صـ ٤٠

(١٤) الإدريسي : نزهة المشتاق ، صـ ٣٤٣ .

(١٥) ابن دقماق : الانتصار ، ق الثاني ، صـ ٤٢ .

(١٦) ابن عبد الحكم : هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفي ٢٥٧ هـ مؤرخ وعالم بالحديث ، مصري المولد والوفاة ومن كتبه (فتوح مصر والمغرب والأندلس) .

(١٧) ابن ظهير : الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، مصدر سابق ، صـ ١٣ .

(١٨) قاسم عبده قاسم : النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٧٨ ، صـ١٣ .

(١٩) رحلة ابن جبير : ط مكتبة مصر ، صـ ٣٥ : صـ ٣٦ .

(٢٠) رحلة ابن بطوطة : صـ ٢٥ .

(٢١) رحلة طافور : صـ ٦٣ .

(٢٢) الإدريسي : نزهة المشتاق ، صـ ٣٢٤ .

(٢٣) الإدريسي : نزهة المشتاق ، صـ ٣٣١ .

(٢٤) المصدر السابق : صـ ٣٤٢ .

(٢٥) ابن بطوطة : الرحالة ، صـ ٣٠ .

(٢٦) سفر نامة : مصدر سابق ، صـ ١٣١ .

(٢٧) رحلة العبدري : مصدر سابق : صـ ٣١٣ .

(٢٨) المصدر السابق : صـ ٤٨٠ .

(٢٩) المصدر نفسه : صـ ٤٧٩ .

(٣٠) الاستبصار في عجائب الأمصار : صـ ٤٥ .

(٣١) المسعودي : مروج الذهب ، جـ ١ ، صـ ٣٨١ .

(٣٢) ابن جبير : بيروت ، صـ ٥٨ .

(٣٣) عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ، صـ ١١٨ .

(٣٤) المصدر السابق ، صـ ١٤٢ .
(٣٥) المصدر نفسه ، صـ ٦٠ : صـ ٧٩ .
(٣٦) المصدر نفسه ، صـ ٦٥ .
(٣٧) رحلة طافور : صـ ٧٠ .
(٣٨) الإدريسي : نزهة المشتاق ، صـ ٣٢٦ .
(٣٩) البغدادي : صـ ٧٦ – القزويني ، صـ ١٤٧ – الاستبصار ، صـ ٨٤ – سفر نامة ، صـ ١٣١ .
(٤٠) القزويني : آثار البلاد ، جـ ١ ، صـ ١٤٧ .
(٤١) الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراف الآفاق ، صفحات متنوعة .
(٤٢) المصدر السابق ، صـ ٣٢٧ .
(٤٣) المصدر نفسه : صـ ٣٢٤ .
(٤٤) نفس المصدر : صـ ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ .
(٤٥) رحلة ابن جبير : صـ ٦٧ .
(٤٦) ناصر خسرو : سفر نامة ، صـ ٧١ – ابن بطوطة : الرحلة ، صـ ٥٢ .
(٤٧) الدمشقي الأنصاري : نخبة الدهر : مصدر سابق ، صـ ٢٣٣ .
(٤٨) القزويني : آثار البلاد ، جـ ١ ، صـ ٢٤١ .
(٤٩) المصدر السابق : صـ ١٣٩ .
(٥٠) عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ، صـ ٧٨ ، صـ ٧٩ وانظر : محمد رمزي : القاموس الجغرافي : ق٢ ، جـ٢ ، صـ ٨٦ .
(٥١) ابن سعيد الأندلسي : النجوم الزاهرة ، صـ ٣١ .
(٥٢) أبي عبد الله الزهري : كتاب الجغرافية ، صـ ٥٠ .
(٥٣) أبي الحسن الهروي : الإشارات ، صـ ٤٩ .
(٥٤) رحلة ابن جبير : مصر ، صـ ٥٢ .
(٥٥) المصدر السابق : صـ ٥٣ .
(٥٦) الإدريسي : نزهة المشتاق ، صـ ٣٢٥ .
(٥٧) المصدر السابق : صـ ٣٢٦ .
(٥٨) ابن بطوطة : صـ ٣٥ ، وانظر أيضاً : القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ ٣ ، صـ ٢٩٦.

(٥٩) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ١ ، صـ ٣٧٩ .
(٦٠) رحلة العبدري : صـ ٣١٣ .
(٦١) المصدر السابق ، صـ ٣١٤ .
(٦٢) الإفادة والاعتبار : مصدر سابق ، صـ ١٥٢ .
(٦٣) المسعودي : المصدر السابق ، صـ ٣٨٠ ، صـ ٣٨١ .
(٦٤) رحلة طافور : صـ ٧٣ .
(٦٥) زبدة كشف المماليك : صـ ١٩ .
(٦٦) ابن بطوطة : صـ ١٩ .
(٦٧) الإفادة والاعتبار : صـ ١٢٥ : صـ ١٣١ .
(٦٨) رحلة ابن جبير : مصدر سابق ، صـ ٥٧ .
(٦٩) المصدر السابق ، صـ ٦٦ .
(٧٠) ابن جبير : صـ ٢٨٦ .
(٧١) ناصر خسرو : سفر نامة ، صـ ٩٧ .
(٧٢) ابن جبير : المصدر السابق ، صـ ٣٦ .
(٧٣) المقريزي : الخطط ، جـ ١ ، صـ ٧٣ .
(٧٤) رحلة البغدادي : مصدر سابق ، صـ ١٤٠ .
(٧٥) المقريزي : الخطط صـ ٢٠٥ .
(٧٦) رحلة ابن جبير : مصر ، صـ ٥٢ .
(٧٧) المصدر السابق : صـ ٣٤ : صـ ٣٧ – المقريزي : الخطط ، جـ ٢ ، صـ ٥٢٤ : صـ ٦٢٤ .
(٧٨) ابن بطوطة : مصدر سابق ، صـ ٢٥ .
(٧٩) – Klunzinger : upper Egypt ; its people and its products, London, 1878 , p.20
(٨٠) الإدريسي : نزهة المشتاق ، صـ ٣٣٤ .
(٨١) النابلسي : كتاب تاريخ الفيوم ، مصدر سابق ، صفحات منوعة .
(٨٢) البغدادي : الإفادة ، صـ ١٣٥ .
(٨٣) محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، ق٢ ، جـ ٣ ، صـ ٢٥ .
(٨٤) مجدي بحر : القرية المصرية ، صـ ١٩٤ .

(٨٥) رحلة ابن جبير : طبعة مكتبة مصر ، صـ ٦١ .

(٨٦) ابن سعيد : النجوم الزاهرة ، صـ ٣١ .

(٨٧) الإدريسي : المصدر السابق ، صـ ٣٣٤ .

(٨٨) ناصر خسرو : سفر نامة ، صـ ٩٥ ، صـ ١١٩ .

(٨٩) ابن بطوطة : الرحلة ، صـ ٣٢ – وانظر Dopp : L' Egypt au commencement – P. 23.

(٩٠) البغدادي : الإفادة والاعتبار ، صـ ١٣٢ .

(٩١) المصدر السابق : صـ ١٠٩ .

(٩٢) الكندي (عمر بن محمد بن يوسف الكندي) : فضائل مصر ، تحقيق إبراهيم أحمد العدوي – علي محمد عمر ، مكتبة وهبة والقاهرة ١٩٧٠ ، صـ ٤٨ .

(٩٣) الإدريسي : نزهة المشتاق ، صـ ٣٣٥ .

(٩٤) ابن بطوطة : الرحلة ، صـ ٣٩ .

(٩٥) الرحالة الهروي : الإشارات صـ ٣٧ : صـ ٥٠ – النابلسي : تاريخ الفيوم ، صـ ٣٢ ، صـ ١٧٦ – المقريزي : الخطط ، جـ ١ صـ ٣٨٥ ، جـ ٢ ، صـ ٥٤ ، ٥٣٨ ، ٦٢٤ – ابن جبير : الرحلة ، صـ ٢٩ إلى صـ ٨٠ (طبعة مصر) .

(٩٦) رحلة ابن جبير : المصدر السابق ، صـ ٣٦ .

(٩٧) النويري : نهاية الأرب ، جـ ٣٠ ، صـ ١٥٢ – المقريزي : الخطط جـ ١ ، صـ ٣٤٤ – ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ١ ، صـ ٤٥٨ .

(٩٨) ياقوت الحمدي : معجم البلدان ، جـ ٣ صـ ٣٠٠ – الهروي السائح : الإشارات ، صـ ٤٤ .

(٩٩) الإشارات : صـ ٤٣ .

(١٠٠) ياقوت الحمدي : البلدان ، جـ ٥ ، صـ ٩ .

(١٠١) القزويني : آثار البلاد ، صـ ١٤٩ .

(١٠٢) ابن تغري بردي : النجوم والزاهرة ، جـ ١١ ، صـ ١١٨ ، صـ ١١٩ نقلاً عن مجدي عبد الرشيد ، صـ ٢٨٠ ..

(١٠٣) الهروي : الإشارات ، صـ ٣٨ : صـ ٤٧ – ياقوت الحمدي : البلدان جـ ٣ صـ ٣٦٥ .

(١٠٤) مجدي عبد الرشيد : مرجع سابق ، صـ ٢٨٠ .

(١٠٥) رحلة ابن بطوطة : صـ ٢٠ .

(١٠٦) المصدر السابق : صـ ٢١ ، صـ ٢٢ .
(١٠٧) نفس المصدر ، صـ ٣٣ .
(١٠٨) زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون ، صـ ٩٠ .
(١٠٩)موفق الدين بن عثمان (ت ٦١٥ هـ) : مرشد الزوار إلى قبور الأبرار تحقيق محمد فتحي ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٩٩٥ م .
(١١٠) حسين نصار : أدب الرحلات ، صـ ٢٦ .
(١١١) حسين نصار : مقدمة الطبعة الثانية لرحلة ابن جبير ، نشر مكتبة مصر ، صـ ١٢ – وانظر : قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك صـ ١٨٤ – حسين نصار : أدب الرحلات ، صـ ١١٧ ، صـ ١١٨ .
(١١٢) الرستاق : يقول عنه الرحالة أسلمة بن منقذ في المنازل والديار : (الرستاق : أرض السواد والقرى ، ويقال فيه أيضاً رزتاق ورزداق ورسداق وهو فارسي معرب معناه بيوت مجتمعة ويقال : أرأيت لو أن رجلاً من أهل المدينة اشترى ضيعة برستاق ؟) . (أسامة بن منقذ : المنازل والديار مصدر سابق ، صـ ٢٤٢) .
(١١٣) اليعقوبية : ومنها اليعاقبة : هم الذين يعتقدون أن الله واحد قديم وأنه لم يكن جسم ولا إنسان ثم تجسم وتأنس في حين يعتقد الملكانيين أن الله اسم لثلاثة معان ، وأنه واحد لثلاثة وثلاثة لواحد . (المقريزي : الخطط ، جـ ٣ ، صـ ٥٥١ – وانظر : قاسم عبده قاسم أهل الذمة في مصر العصور الوسطى (طبعة ثانية ، دار المعارف ١٩٧٩م ، صـ ١٠٣ : ١٠٤) .
(١١٤) الإدريسي : نزهة المشتاق ، صـ ٣٤٣ .
(١١٥) الهروي : الإشارات ، صـ ٤٥ .
(١١٦) المصدر السابق : صـ ٣٨ .
(١١٧) الاستبصار في عجائب الأمصار : صـ ٦٣ .
(١١٨) عبد اللطيف البغدادي : الإفادة : صفحات متنوعة .
(١١٩) القزويني : آثار البلاد : جـ ١ ، صـ ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ .
(١٢٠) المقريزي : الخطط ، جـ ٣ ، صـ ٥٥٣ – ٥٥٥ – ٥٥٩ .
(١٢١) قاسم عبده قاسم : بين التاريخ والفولكلور ، مرجع سابق ، صـ ٦٨ .
(١٢٢) أبي حامد الأندلسي : (أبي حامد محمد بن عبد الرحيم) ت ٥٦٥ ، هـ : تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ، تحقيق علي عمر ، ط الأولى ، الثقافة الدينية ، القاهرة ٢٠٠٣ ، ص ٦٠ .

(١٢٣) رحلة عبد اللطيف البغدادي : صـ ٨٩ : صـ ١١٢ .

(١٢٤) محمد أحمد محمد : مظاهر الحضارة في الوجه القبلي ، رسالة دكتوراة صـ ٢٢٧ .

(١٢٥) الإفادة والاعتبار : صـ ٦٨ .

(١٢٦) ابن سعيد : النجوم الزاهرة ، صـ ٢٤ ، ٢٥ - البغدادي : الإفادة ، صـ ١٣٥ .

(١٢٧) رحلة البغدادي ، المصدر السابق ، صفحات متنوعة .

(١٢٨) الدمشقي : (أبو الفضل جعفر بن علي) ت ٥٧٠ هـ : الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأغراض ورديها وغشوش المدلسين فيها ، مطبعة المؤيد ، القاهرة ١٣١٨ هـ ، صـ ٣٠

(١٢٩) المقريزي : الخطط ، جـ ٢ ، صـ ٥٤٢ - الصير في : نزهة النفوس جـ ٣ ، صـ ٤٩.

(١٣٠) وثيقة ٦/٣٧ دار الوثائق بالقاهرة (مجموعة المحكمة الشرعية) نقلاً عن كتاب تذكرة البنيه، نقلاً عن مجدي بحر ، القرية المصرية ، مرجع سابق ، صـ ٢٠٠٣ .

(١٣١) حسين مؤنس : الحضارة ، مرجع سابق ، صـ ٣٧٤ .

(١٣٢) جولوا : موسوعة وصف مصر ، الجزء الثالث ، ترجمة زهير الشايب ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ ، صـ ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(١٣٣) وينفريد بلا كمان : الناس في صعيد مصر ، مرجع سابق ، صـ ١٣ .

(١٣٤) عبد الجبار ناجي : مفهوم العرب للمدينة الإسلامية ، مجلة المدينة العربية ، العدد ١٤ ، أكتوبر ١٩٨٤ ص : ص ٤٦ : ٥٦ - كذلك عدد ديسمبر ١٩٨٤ ص : ص ٥٨ : ٦٨ .

(١٣٥) رحلة ابن جبير : نشر بيروت ، ص ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٨ .

(١٣٦) رحلة عبد اللطيف البغدادي : صـ ١٣٨ .

(١٣٧) الإدريسي : نزهة المشتاق ، صـ ٣٣٠ : صـ ٣٣٧ .

(١٣٨) ابن بطوطة : الرحلة ، صـ ١٩ .

(١٣٩) رحلة ابن جبير : صـ ٦٠ .

(١٤٠) الإدريسي : المصدر السابق ، صـ ٣٣٤ .

(١٤١) المصدر نفسه : صـ ٣٣١ .

(١٤٢) رحلة ابن جبير : المصدر السابق ، صـ ٦٠ .

(١٤٣) الإدريسي : نزهة المشتاق ، صـ ٣٤٢ .

(١٤٤) المصدر السابق : صـ ٣٣٠ .

(١٤٥) نفس المصدر : صـ ٣٤١ .

الفصل الثامن

صورة نهر النيل في كتابات الرحالة

ذات ليلة منذ أكثر من نيف ونصف قرن من الزمان، تساءل "شوقي" مخاطباً النيل في مجراه: مِنْ أيِّ عهدٍ في القُرى تَتَدفَّقُ... وبأي كَفٍّ في المدائن تُغْدِقُ... ومِنْ السماءِ نزلْتَ أم فُجِّرت من علْيا الجِنان جداوِلاً تترقرق ...؟! وبأيِّ عَيْنٍ، أم بأيَّة مُزْنةٍ ... أم أيِّ طوفانٍ تفيض وتَفْهَق؟!.

هذه التساؤلات التي أطلقها "شوقي" تمجيداً للنيل.. كانت صدى للتساؤلات المماثلة التي طالما ترددت في شمال الوادي عبر آلاف السنين، فقد عنى المفكرون في جميع العصور منذ بدء التاريخ بنهر النيل، ووصفه، وتتبع منابعه، وحوضه، ومصبه، وكثرت المحاولات لتفسير أحواله وظواهره المختلفة، وهذه الأمور جميعها هي ما يطلق عليها "جغزافية النيل".

وكان الاهتمام بالنيل راجعاً إلي أن جميع من سَكَنَ مصر أو خالط أهلها أو زارها أو جاورها، يعلم تمام العلم أن النيل هو السبب في ثراء مصر ورخائها، وأنه الركيزة الأولي التي قامت عليها حضارتها المبكرة، تلك الحضارة النبيلة الراقية منذ آلاف السنين، والتي كان لها الفضل علي العالم كله، حيث نهل أبناؤه من وادي النيل مبادئ هذه الحضارة والعمران، يوم لم يكن حضارة ولا عمران إلا ما نشأ ونما في أحضان هذا الوادي الخصيب[1].

لذلك كان من الطبيعي أن يصبح نهر النيل محط اهتمام المصريين وغيرهم منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا. فلا يوجد نهر في العالم كله له من الفضل علي إقليم وساكينه، مالنهر النيل من الفضل على مصر وساكنى مصر. ولذا بدأت محاولات استكشاف النهر منذ بدء المصري القديم يتحول إلي الزراعة، وعلي الرغم من قلة

المعلومات المتاحة للمصريين القدماء عن أعالي النيل، إلا أنهم سرعان ما اتصلوا بغيرهم من الشعوب والبلاد التي تسكن وادي النيل في جنوب مصر، وهم بذلك كانوا مجدين في الاستكشاف والاتصال بالبلاد الأخرى(٢).

واستمرت محاولات المصريين القدماء لكشف النهر، ثم جاء اليونان واستمروا في البحث والاستقصاء عن النهر ومنابعه، وكان أشهرهم بطليموس الجغرافي(٣). واستمرت محاولات العرب في القرون الأولي للهجرة، ثم محاولاتهم في العصور الوسطي، والحقيقة أن العرب نقلوا كتاب بطليموس عن النيل إلي لغتهم، وكان مرجعهم الأكبر في كتاباتهم الجغرافية، ولكنهم زادوا على بطليموس أشياء كثيرة إلا فيما يختص بأعالي النيل، فكانت كتاباتهم، في ذلك قليلة.

ومن الملاحظ أيضا أن الزيادات التي أضافها العرب على ما ذكره بطليموس عن النيل لم تكن صحيحة، بل كانت تشوبها الخرافات والأساطير في أحيان كثيرة، وقد اتضحت هذه الصورة في كتابات الجغرافيين والمؤرخين في العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)، الذين نقلوا ما أورده القدماء من العرب وغيرهم عن نهر النيل، ولم تزد معلوماتهم كثيرا عما أخذوه من القدماء(٤).

وخير مثال لذلك اتفاقهم جميعاً على أن نهر النيل ينبع من جبال القمر خلف خط الاستواء من عشرة عيون في الأرض – والبعض ذكر أنها اثنى عشرة عيناً –(٥) تجتمع في عشرة روافد، تجتمع كل خمسة منها لتصب في بحيرة، ثم تجتمع هذه المياه مرة أخري في بحيرة واحدة حيث يخرج نهر النيل(٦). وسنجد أن رحلة اكتشاف منابع النيل في الكتابات التاريخية قد استوعبت القصص والأساطير الشعبية الإسلامية مع الرواسب الأسطورية الفرعونية والقبطية إلي جانب بعض قصص الإسرائيليات، لتصب كلها في مجري واحد، غايته – في المخيلة الشعبية– اكتشاف منابع نهر النيل التي ظلت لغزاً محيراً آلاف السنين.

وقام الوجدان الشعبي برحلة شديدة الحيوية والاستنارة، يلم فيها بمنابع النيل ويبتدع لغة يتواصل بها مع النيل، واستكشاف مجاهله والوقوف على أسراره وخوافيه، وراح يعمل على تخليق تفسيرات لما يغمض عليه، ويطلق على الأشياء مسميات ويؤلف لها تاريخا موضوعياً متسقاً، يُجيبُ فيه على ما قد يخطر بباله من تساؤلات حول شريان حياته. ويمكن أن نلمح أثر ذلك في كتب الجغرافيا أو الكتب التي تحدثت عن فضائل مصر، والتي تتفق جميعاً في أنها تنقل المأثور والمتواتر من الأساطير عن منطقة منابع نهر النيل، ولكن وصفهم لمجري النهر من منطقة الجنادل جنوب أسوان، حتى مصبه في البحر المتوسط تتسم بالدقة ؛لأنهم شاهدوا النهر في هذه المنطقة وعاينوا مجراه، ونظراً لأن مجري النيل في أعاليه كان عقبة كؤوداً في وجه من حاول تتبع مجرى النهر الأعلى حتى منطقة المنابع(٧). فقد تصورت الأساطير والخرافات التي أوردها كُتَّابُ ذلك العصر منطقة المنابع أرضا خيالية. تنبتُ فيها قضبان الذهب والفضة والنحاس والحديد، كما يجري فيها بحر من الزفت تنبعثُ منه الروائح الكريهة، التي تقضي علي كل من يحاول الاقتراب من المنطقة التي تصوره أنها تعج بأحجار مغناطيسية تجتذب كل من ينظرُ إليها، وتقضي عليه. هذا الموقف الوجداني يعكس بطبيعة الحال مدي الجهل بالطبيعة الجغرافية لمنطقة منابع نهر النيل ولكنه في الوقت ذاته يكشف عن مدي الرهبة والخوف الكامنين في أعماق اللاشعور تجاه النهر الذي عليه قوام الحياة في مصر.

ولما كان المصريون ما يزالون تحت رحمة النهرِ الكبير، ولم يتمكنوا من تطويعه وضبط مياهه، فإنهم ظلوا يخشونه ويترقبون مواسم فيضانه بمزيج من القلق والرهبة، والأمل. فانعكس هذا الموقف العقلي والوجداني في أساطيرهم وتصوراتهم عن نهر النيل، ومنطقة منابعه ووصل إلينا الواقع يحمل مبالغات تصل إلي حد الإغراب، والدهشة مما يحق لنا أنّ نطلق عليه الأخبار الأسطورية(٨).

هذه الأخبار الأسطورية تعكس لنا بالضرورة شغف الناس بتقصي أصول ومنابع النيل، وما جُبِلَ عليه الناس من حب الاستطلاع واستكشاف المجهول، والذي يُثير فيهم نوازع تدفع بهم إلي تعويض النقص الحاد في معارفهم بالخيال المتخم بالخرافات، التي أدت إلي التشويش والارتباك في تصوراتهم. وقد أشار التلمساني إلي ذلك بقوله: "وفي أصل النيل أقوال للناس حتى ذهب بعضهم إلي أن مجراه من جبال الثلج، وهي بجبل قاق، وأنه يخرق البحر الأخضر، بقدرة الله تعالي، إلي أنه يأتي إلي بحيرة الزنج. قال المالكيُ لهذا الكلام: ولولا ذلك يعني دخوله في البحر المالح وما يختلط به منه، لما كان يُستطاع أن يشرب منه لشدة حلاوته وقال قوم: مبدؤه من خلق خط الاستواء بإحدى عشرة درجة، وقال قوم مبدؤه من جبل القمر، وإنه ينبع من اثنتي عشرة عيناً واختلف في سبب زيادته ونقصانه فقال قوم: لا يعلم ذلك إلا الله عز وجل"(٩) وعده البعض " أحد عجائب العالم إذ لا يعرف له منبع"(١٠) "ولم يعز أصله إلي مكان"(١١).

بيد أن هذه الكتابات التي ذكرت أن النيل يخرج من جبل القمر. تذكر أيضا أن مجري نهر النيل كان من عمل البشر، إذ يذكر المؤرخون: " يقال والله أعلم: إن أول من ملك مصر عند قسمة الأرض بين ولد آدم، زمن آنوش، بوصية آدم عليه السلام، ملك يقال له نقراوش بن أضرم، وهو أول من اتخذ المصانع، وعمل الطلسمات، وأقام الأساطين، وزبر عليها التواريخ وبني في المدن.وهو الذي حضر النيل وعمقه ووسعه، وكان قبل ذلك ينقطع ويستنقع"(١٢).

ورواية أخرى تقول: "أن مصرام هو الذي بني مدينة مصر، وإليه تنسب، وكان عالماً بعلم الكهانة، والطلسمات، وكان قد كتب علي أبواب مصر، أنا مصرام بن تبليل قد بنيت هذه المدينة، وأودعت بها الطلسمات الصادقة، والصور الناطقة، وهو الذي ساوي الأرض، حتى أتى منبع النيل، وبني به الجسور والقناطر، وأصلح مكان مجراه، قطع منها الجبال التي كانت تعوق جريان النيل.. واستمر سابحاً في الأرض نحواً

من ثلاثين سنة، ثم هلك وتولي من بعده أخوه عيقام وقد توجه عيقام إلي خلف الاستواء وبني هناك قلعة من نحاس أصفر. في سفح جبل القمر، الذي ينحدر من أعلاه النيل وصنع هناك خمسة وثلاثين تمثالاً من النحاس، يخرج من حلوها ماء النيل، ويصب في بطائح هناك، ثم ينحدر إلي أرض مصر بقانون وتدبير بما يكون فيه لأهل مصر المنفعة دون الفساد. وقدر ذلك علي ستة عشر ذراعاً تروي أرض مصر جميعها من هذه الستة عشر واستمر عيقام ساكناً في القصر النحاس[١٣] الذي بناه علي سطح جبل القمر حتى هلك "[١٤].

هكذا تصورت الأساطير أن نهر النيل تم حفره بأيدي البشر، وتمضي الأسطورة عند المقريزي لتضيف عن نهر النيل أنه:" لم يكن قبل ذلك معتدل الجري، بل كان ينبطح ويتفرق في الأرض حتى وجه إلي النوبة الملك نقراوس المهندسين فهندسوه، وساقوا منه أنهاراً إلي مواضع كثيرة من مدنهم، التي بنوها وساقوا منه نهراً إلي مدينة أمسوس. ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان، وكانت أيام (البودشير) بن فقط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، عدل جانبي النيل تعديلاً ثانياً بعدما أتلفه الطوفان"[١٥]. كما يشير القلقشندي إلى أن:" نقراووس بن مصريم بن براجيل بن رزائيل بن غرباب بن آدم عليه السلام نزلها في سبعين رجلاً من بني غرباب الجبابرة، فعمروها، وهو الذي هندس نيلها وحفره حتى أجراه، ووجه إلى البرية جماعة هندسوه وأصلحوه، وبنى المدن وأثار المعادن وعمل الطلسمات "[١٦]

وهناك أسطورة أخرى تناقلتها المصادر العربية التي حاولت البحث عن منابع النيل ومنطقة مجراه الأعلى، وهي خليط من المعلومات الجغرافية والخرافات، فقد نقل النويري عن الإدريسي الجغرافي الشهير (ت٥٦٠هـ) أن اسم البطيحة الكبيرة (البحيرة) التي يخرج منها النيل " كوري" منسوبة إلي طائفة من السودان: " يسكن حولها متوحشون، يأكلون من يقع إليه من الناس فإذا خرج منها النيل، يشق بلاد

كوري ثم بلاد غنم وهم طائفة من السودان بين كانم والنوبة"[١٧]، ويعتقد بعض الجغرافيين أن النيل يغوص في الرمال، ويختص في المنطقة الواقعة ما بين بلاد كانم وبلاد النوبة. ولا يظهر مرة أخرى سوي عند بلاد النوبة مثلما يغوص نهر الفرات الذي ببلاد العراق"[١٨].

ولعل المسعودي أظهر اهتماماً بالنيل، يظهر من حين لحين في أكثر من جزء من أجزاء كتابة الموسوم بـ (مروج الذهب). فذكر مصر في كتابه يأتي طبيعياً بعد ذكر ملوك الروم وبعد ظهور الإسلام إلا أن ذكره للنيل لا يرتبط بهذا التسلسل المنطقي لأحداث التاريخ في العالم القديم، فالنيل هنا يستهويه ويستغرق اهتمامه في أكثر من موضع من كتابه بصرف النظر عن الحديث عن مصر، أو الارتباط بالتسلسل التاريخي أو الجغرافي الذي التزمه في نقلات حديثه وتدوينه لتاريخ العالم، فهو يذهب في سياق حديثه عن الإسكندرية إلي بعض الروايات الشعبية التي دارت حول حفر النيل بأيدي البشر في تناسق وتناغم أسرين بين الحقيقية والخرافة بقوله: "وقد كان الاسكندر بن الفيلقوس المقدوني بني الإسكندرية علي هذا الخليج من النيل، وكان يتفجر إليه عظيم ماء النيل ويسقي الإسكندرية، وبلاد مريوط وكان بلد مريوط هذا في نهاية العمارة، والجبال المتصلة بأرض برقة من بلاد المغرب وكانت السفن تجري في النيل فتتصل أسران بالإسكندرية، وقد بلط أرض نيلها في المدينة بالرخام والمرمر، فانقطع الماء لعوارض سدت صفحاتها ومنعت النيل من دخوله، وقيل لعل غير ذلك منعت من تنفسه، وردت الماء إلي كثافة لا يحملها كتابنا هذا، فصار شربهم من الآبار، وصار النيل على نحو يوم منهم "[١٩]

بيد أنه ينفرد الجغرافي المصري أبو محمد الأسواني[٢٠] في كتابه "أخبار النوبة" الذي وضع في القرن الرابع الهجري – لمساعدة الفاطميين في الدفاع عن دار الإسلام من جهة النيل الأعلى– ينفرد هذا المؤلف بإيراد معلومات تكاد تكون أقرب الأشياء إلي

الدقة عن النيل أكثر من غيره من الجغرافيين، فالنيل عنده يتكون من ثمانية أو تسعة أنهار: نهر عطبره، النيل الأبيض، النيل الأزرق والذي يسميه بـ"النيل الأخضر" الذي يأتي من الجنوب الشرقي، وهو صافي جداً رغم لونه القاتم، حتى أن الأسماك تشاهد في قعره، ويمضي النيلان الأبيض والأزرق بعد لقائهما، ثم يمتزجان في هياج الأمواج وتأتي الأنهار الأربعة الأخرى، وكلها دائمة الجريان ماعدا واحد منها من الحبشة وتصب في النيل الأزرق الذي يلتقي فيما بعد بنهر عطبره، قبل أن يلتقي بالنيل الأبيض.

ووصف الأسواني للنيل وروافده يكاد يقترب من الواقع وهو لا يأخذ بالأساطير إلا قليلا فيما يتصل بأنهار الحبشة الأربعة، لأن أحدهما يخرج من بلاد الزنج، وهو يقر مثل غيره من الجغرافيين بأن منابع النيلين؛ الأبيض والأزرق مجهولة. وحصيلة البحث الجغرافي الإسلامي، أن أساطير مصر ونهرها تتمفصل على حجر زاوية مصر الإسلامية، وما قبل الإسلامية في آن واحد[٢١].

ما يهمنا في الروايات السابقة، خصوصية الزمن المتصل بالنيل عندما قررت إحدى الروايات أن مصرايم ظل سابحا نحو ثلاثين سنة، وهي حسابات زمنية غير مألوفة عند البشر إذ هو ليس وقتاً عادياً بالمفهوم الإنساني، ووفقاً للقدرة الإنسانية على السيِّر، كما أن هذه "اللامعقولية" في زمن الحادثة تجعله زمناً خاصاً يخرج عن فهمنا نحن المتلقين للزمن، كما أنه يبعد عن زمن التجربة الواقعية اليومية وتحديداتها مما يضفي عليه سمة "الأسطورية" . فضلا عن أن تلك الروايات كشفت – بقصد أو بدون وعي – عما وقر في أذهان ومخيلة الناس من تصورات مفادها أن نهر النيل تم شقه بأيدي البشر وتقدم لنا تصورا خياليا عن كيفية خروج منابع النهر من تحت جبل القمر، ولكن هذه الأساطير لا تكتفي بهذا وإنما تتحدث عن تحكم البشر من ملوك مصر القدامى في مجرى النيل في منطقة المنابع. فقد رأينا كيف جرى الحديث عن أن الذين

ملكوا مصر من نسل نوح ﷺ قد حفروا مجرى النيل، ورتبوا نوعاً من السدود أو القناطر التي اتخذت شكل التماثيل. والتي يمكن بواسطتها التحكم في مقدار المياه[٢٢]. كما تتحدث هذه الأساطير عن أعمال جبارة جرت بعد الطوفان لإعادة صيانة ضفتي النهر وتعديل مجراه. ولعل عبارة "بعد الطوفان" هى التي حذت ببعض الرحالة والمؤرخين، إلى قسمة تاريخ مصر. إلى ما قبل الطوفان وما بعد الطوفان، وكأن الطوفان فاصلاً بين عهدين ــ أسطوري وتاريخي ــ والذي انسحب بدوره علي التقسيم التاريخي للمنطقة أيضاً.

كما أن تلك التصورات الأسطورية عن تدخل ملوك مصر القدامى في حفر مجرى النيل، فضلا عن تداخل التقديرات الزمنية المبالغ فيها، تجعلنا نقف عاجزين عن استخلاص الفيصل بين الحقيقة والخيال، فقد تكون نابعة من تدخل خيال القصاصين فيها أو انبهار المؤرخين والرحالة الذين سطروها بضخامة الآثار المادية، التي تخلَّفَتْ عن عصر المصريين القدماء، كالمعابد الشاهقة، والأهرامات العملاقة والمسلات الشامخة، مما كان لهذا كله أثره البالغ على عاملين لا يخلوان من مبالغات هما: عامل القياس، وعامل الزمن.

فالعامل الأول المتصل بالقياس، فأنه يدور حول القوة الخارقة التي جعلت من متسرايم يحفر النيل بيده إضافة للتصور الشعبي عن وجود أُناسٍ عمالقة: "يتمتعون بمثل هذه القوة وطول القامة .

أما العامل الثاني، وهو عامل الزمن المتصل بمصرايم الذي حفر النيل وظل سابحا وراءه لمعرفة منابعه بنحو ثلاثين سنة إلي غير تلك التقديرات الزمنية التي ربما استقاها المؤرخون والجغرافيون من أغوار الذاكرة الشعبية للناس والتي من الممكن تأثرها بالمصادر الإغريقية وخاصة أرسطو الذي كان يري أن منابع النيل تقع عند سلسلة جبال تسمي جبال الفضة[٢٣].

على أيّة حال، فإن تلك التصورات الخيالية لجريان النيل، وحفر مجراه، وفروعه، وترعه وخلجانه، ولمنطقة منابع النيل ومجراه الأعلى، تظل شاهداً حياً علي ما أنشأهُ الشعبُ لنفسه عن نفسه، وما امتلكه من ملكات ذهنية تصل به إلي حد الموهبة في القدرة على تصوير موقفه الشعبي من شريان حياته وقدرته على التعبير عن ذاتيته العامة.

وهناك تصور آخر لمنطقة منابع نهر النيل ساقه الجغرافيون والمؤرخون العرب، فقد زعم البعض بأن نهر النيل ونهر السند ينبعان من أصل واحد. ودليلهم في ذلك: "اتفاق زيادهما وكون التماسيح فيهما"(٢٤). وأضاف البعض أنه: "لا يوجد نهر يشابه النيل غير نهر الملتان بالهند وهو نهر يخرج أصله من جيجون.. وفيه تماسيح وفرس البحر على هيئة النيل.." (٢٥).

وقد غضب المؤرخ والرحالة (المسعودي) من هذا القول ونقده بشدة فنراه يقول: " وقد زعم عمر بن بحر الجاحظ: أن نهر مهران الذي هو نهر السند من نيل مصر، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه، فلست أدري كيف وقع له هذا الدليل، وذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان، وهو كتاب في نهاية الغثاثة ؛ لأن الرجل لم يسلك البحار، ولا أكثر الأسفار، ولا يعرف المسالك والأمصار، وإنما كان حاطب ليل ينقل من كتب الورّاقين. أو لم يعلم أن نهر مهران السند يخرج من أعين مشهورة في أعالي بلاد السند"(٢٦).

وغضبة المسعودي هنا لها ما يبررها، فقد كثر الخطأ الجغرافي والتصور الخرافي في الكتابات التاريخية و الجغرافية، نتيجة جهل بأبسط قواعد الجغرافيا من ناحية، ونتيجة القصور عن محاولة استقصاء ما هو قائم وموجود. والاكتفاء بما ورد في الأخبار والكتب، وإن خالف العقل والمنطق وبسبب ذلك؛ نسب البعض نهر النيل إلي أنهار الجنة الأرضية، التي كان مكانها يقع في أقصى الشرق، وعلى الناحية الأخرى من بحر

الظلمات، وفقا للتصورات الخيالية الشائعة آنذاك حيث كانت النظرية السائدة في ذلك الوقت تقول: " أن سائر مياه الأرض، وأنهارها تخرج من الصخرة بالأرض المقدسة"(٢٧) وفي قول آخر:"أن أنهار الجنة مكانها في أقصى الشرق وعلى الناحية الأخرى من بحر الظلمات"(٢٨). وقال ابن زولاق في تاريخ مصر:"أن النيل يجري من تحت سدرة المنتهي وأنه لو تفضي أثاره لوجد في أول جريانه أوراق الجنة"(٢٩).وهو في المخيلة الشعبية:" نهر العسل ويرفعه جبريل عند رفع القرآن ومن لم يعرف فليسأل!!"(٣٠).

يُقال: ولذلك يذب إلي كل إلي أكل البلطي من السمك، لأنه يتتبع أوراق الجنة فيرعاها، ويشهد لصحة ما ذكره ما روى عن النبي صلي الله عليه وسلم قال" عليكم بالجيزوم(٣١) فإنه يرعى من حشيش الجنة"(٣٢).

الراجح؛أن هذا التصور الأسطوري للنيل ونسبته إلي أنهار الجنة نوع من التعبير الوجداني الشعبي عن الامتنان والحب للنيل النبيل الذي وهب المصريين بلدا عاش فيهم، ولم يرضوا عنه بديلا طوال تاريخهم الممتد إلي فجر الضمير الإنساني. كما أن هذه المحاولات الأسطورية لإلحاق نهر النيل بالجنة نوع من التشريف والتكريم، الذي أسبغته العقلية الشعبية على النهر الذي ارتبطت به حياتهم ارتباطا كاملا سواء في الزراعة والتجارة والصناعة أو في المواصلات أو في الفن والأدب.

ولما كان المصريون قد جعلوا من النيل إلهاً قبل اعتناقهم المسيحية والإسلام، فإنهم ظلوا يحتفظون لهذا النهر بمكانة رفيعة في وجدانهم بحيث حاولت أساطيرهم أن تجعله من أنهار الجنة وهي محاولة لم تقف عند الاستعانة بالتصور الأسطوري فحسب بل تعدته إلي السيَّر والملاحم العربية التي أخذها الشعب المصري كما يأخذ الفنان موضوعا بارزاً من موضوعات التاريخ أو واقعة عظيمة من وقائع الأبطال ولاءم بينهما وبين مطالب حياته الوجدانية، وخير مثال لذلك، سيرة (سيف بن ذي-

يزن)[٣٣] و(سيرة بني هلال) [٣٤]، واللتان تردد فيهما سمات بارزة مكتسبة من النيل[٣٥]، مما تشكل منهما عناصر لعوالم مائية أسطورية غير محددة في عالم السير، منها تلك المنطقة غير المحددة في سيرة(سيف بن ذي يزن) حيث تتداخل الأساطير التعليلية والشعبية والدينية وتلتقي عند (القبة) والتي فيها صخرة من الياقوت الأحمر لها لمعان يأخذ البصر، يخرج من جوانبها الأربعة ماء أبيض من اللبن، وأحلي من العسل، ورائحته أزكي من المسك شذىً وعطراً[٣٦]. أنه الماء الذي ينحدر منه النيل، من تحت القبة فوق الجبل "الثلجي" العالي، هناك حيث " النهران الظاهران والصلاة على ملة الخليل إبراهيم ﷺ" وحيث الياقوت ووهج اللمعان والظفر بالوصول إلي منبع النيل في السيرة[٣٧] تلك السيرة (سيف بن ذي يزن) هي سيرة مصرية، خلقاً وإبداعاً، على الرغم من نواتها التاريخية اليمنية المتمثلة في شخصية بطلها سيف، وهو أساسا بطل من أبطال التحرير في العصر الجاهلي وتتجلى مصريتها في التأصيل لنشأة مصر أرضا وشعبا وعمرانا ولبدء جريان نهر النيل، ذلك الحدث في ذاته إن شئنا التاريخ له فإنه – بلا أدنى شك– سيصبح خارج إطار العصور التاريخية، وينتمي بشدة إلي عصور الأسطورة؛ مما يجعله يتخطى حدود الزمن الذي تنتمي إليه أحداث السيرة على اتساعها، هذا علاوة على أن فكرة النشأة والتكوين هي إحدى الأفكار الأسطورية البارزة والتي يلزمها إطار زمني أسطوري خالص[٣٨] ولعل مقارنة السيرة بما جاء في الكتابات التاريخية يجعلنا ندرك حقيقة مؤداها أن المخيلة الشعبية، – في العصور الإسلامية– لم تكن تختلف كثيرا عن مخيلة المتعلمين أو المخيلة العلمية آنذاك فيما يتصل بمنابع النيل ومدى الاختلاف حولها.

وقد أحسن (ابن الوزان الزيَّاتي) حين ناقش هذا الخلاف بقوله: "توجد آراء مختلفة حول موضوع أصل النيل فالبعض يقولون أنه يأتي من جبل يدعى جبل القمر ويدعي آخرون أنه ينبع في سهول مهجورة في حضيض هذا الجبل، عن طريق بضعة ينابيع شديدة التباعد بعضها عن بعض، ويؤكد أنصار الرأي الأول أن النهر يهبط من الجبل

مع عنفوان شديد حتى أنه ليدخل تحت الأرض ويخرج بعدئذ بواسطة عيون مختلفة ولكن هذين الرأيين ليسا أكثر من التراضين إذ لم ير أحد أبداً شيئا من ذلك ولا يزال من غير الممكن رؤية ذلك عيانا"(٣٩)، ولهذا نجد: "أن الأقوال في أول مجرى النيل كثيرة، والشائع أن واحداً ما وقف على أوله بالمشاهدة، وجعل كل واحد منهم سببا يبرر به عدم مشاهدة منطقة المنابع"(٤٠).

إلا أن الواضح أن الوجدان الشعبي كان على معرفة وثيقة بهذا الموروث الفولكلوري الجغرافي المتعلق بمصر ونيلها على نحو يسمح له بإعادة إنتاج هذا الموروث العلمي بمفهوم ذلك الزمان، وصياغته صياغة تقدم لنا القراءة الشعبية لقصة الصراع الملحمي بين النيل والمصريين وكيف كان النهر في بداية الموقف (العنصر الطبيعي) بل إلها يعبد وكلها، أمور تتفق، كثيراً وقصة (حايد بن أبي شالوم) التي وردت تارة في الأساطير الإسلامية ــ (الإسرائيليات) ــ أو الفكر الديني الشعبي وتارة في الفكر الجغرافي القديم. وتضمنت أحداثا مواقفاً متباينة بحيث لا يكاد يتضح فيها أي نوع من المنطق. حيث نجد أفعالا خارقة تقع في مكان مجهول غالبا أو في لا مكان كما أنها تقع في زمان معين أو في لا زمان واشتملت على عوالم غريبة لها فهمها الخاص بفكرة الزمن فتقول الأسطورة:- "أن رجلا من بني العيص يقال له حايد بن أبي شالوم بن العيص بن اسحق بن إبراهيم عليه السلام، وأنه خرج هاربا من ملك من ملوكهم حتى دخل أرض مصر، فأقام فيها سنين، فلما رأى أعاجيب نيلها، وما يأتي به نذر لله تعالى ألا يفارق ساحله حتى بلغ منتهاه، ومن حيث يخرج أو يموت قبل ذلك، فسار عليه ثلاثين سنة في العمران، وثلاثين سنة أخرى في الخراب حتى انتهى إلى بحر أخضر، فنظر إلى النيل يشق مقبلا، فصعد على البحر فإذا رجل قائم يصلي تحت شجرة من تفاح، فلما رآه استأنس به وسلم عليه، فسأله الرجل صاحب الشجرة وقال له: من أنت؟ قال أني حايد أبن أبي

شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ. فمن أنت؟ قال: عمران بن فلان بن العيص[٤١].

قال: فما الذي جاء بك ها هنا يا عمران؟ قال: جاء بي الذي جاء بك حتى انتهيت إلى هذا الموضع، فأوحى الله تعالى إلي أن أقف هنا حتى يأتيني أمره فقال له حايد: أخبرني يا عمران ما انتهى إليك أمر هذا النيل، وهل بلغك في الكتب أن أحداً من بني آدم يبلغه؟ قال عمران: نعم. قد بلغني أن رجلاً من بني العيص يبلغه، لا أظنه غيرك يا حايد، قال له: يا عمران فأخبرني كيف الطريق إليه؟ فقال له عمران: لست أخبرك بشئ إلا أن تجعل لي ما أسألك، قال وما ذاك يا عمران؟ قال: إذا رجعت إليّ وأنا حيٌ أقمت عندي حتى يوحي الله إلي بأمره أو يتوفاني الله فتدفنني. قال: ذلك لك عليَّ، فقال له: سر كما أنت على هذا البحر، فإنه ستأتي دابة ترى آخرها ولا ترى أولها، فلا يهولنك أمرها، أركبها فإنها دابة معادية للشمس؛ إذا طلعت أهوت إليها لتلقمها حتى تحول بينها وبين حجبها، إذا غربت أهوت إليها لتلقمها، فتذهب بك إلى جانب البحر، فسر عليها حتى تنتهي إلى النيل، فسر عليه، فإنك ستبلغ أرضاً من حديد جبالها، وأشجارها وسهولها من حديد، فإن أنت جزتها وقعت على أرض من نحاس، جبالها وأشجارها وسهولها من نحاس، فإن أنت جزتها وقعت في أرض من فضة، فإن أنت جزتها وقعت في أرض من ذهب جبالها وأشجارها وسهولها من ذهب. فيها ينتهي إليك علم النيل .. فسار حتى انتهى إلى أرض الذهب فإذا فيها قبة من ذهب لها أربعة أبواب، فنظر إلى ما ينحدر من فوق ذلك السور حتى يستقر في القبة، ثم ينصرف في الأبواب الأربعة؛ فأما ثلاثة فتغيض في الأرض وأما واحد فيسير على وجه الأرض قال حايد: فيشق على وجه الأرض وهو النيل، فشرب منه واستراح، ... فقال له: يا حايد أنه سيأتيك من الجنة رزق فلا تؤثر عليه شيئا من الدنيا، فإنه لا ينبغي لشئ من الجنة أن يؤثر عليه شئ من الدنيا، فإن فعلت بقي منك ما بقي.

فبينما هو كذلك واقف إذ نزل عنقود من عنب فيه ثلاثة أصناف: صنف لونه كالزبرجد الأخضر، وصنف لونه كالياقوت الأحمر، وصنف لونه كاللؤلؤ الأبيض، ثم قال: يا حايد أما أن هذا من حصرم الجنة وليس من طيب عنبها فارجع يا حايد فقد انتهى إليك علم النيل، فقال: هذه الثلاثة التي تفيض في الأرض ما هي؟ قال: أحدها الفرات والآخر دجلة، والآخر جيجان، فارجع.

"فرجع حتى انتهى إلى الدابة التي ركبها فركبها، فلما أهوت الشمس لتغرب قذفت به من جانب البحر، فأقبل حتى أتى عمران، فوجده ميتاً فدفنه وأقام على قبره ثلاثة أيام، فأقبل عليه شيخ مشبه بالناس أغر من السجود، فسلم عليه وقال: يا حايد، ما انتهى إليك من علم النيل؟، فأخبره فقال له: هكذا نجده في الكتب، ثم أخرج بعض التفاح، وقال وهو ينظر في عينيه: ألا تأكل منه؟ قال معي رزق قد أعطيته من الجنة، ونبهت ألاّ أؤثر عليه شيئا من الدنيا، قال: صدقت يا حايد.. وهل رأيت في الدنيا مثل هذا التفاح؟ إنما أنبت لعمران في الأرض وليست في الدنيا وإنما هذه الشجرة من الجنة، أخرجها الله تعالى لعمران يأكل منها تفاحة، فعضها، فلما عضها غض يده قال له: أتعرفه؟ (يقصد التفاح) هو الذي أخرج أباك من الجنة، أما إنك لو سلمت هذا الذي كان معك لأكل منه أهل الدنيا قبل أن ينفد، ثم أقبل حايد حتى دخل مصر، فأخبرهم بهذا الخبر، ثم مات حايد بأرض مصر"(٤٢).

فالزمن ــ كما رأينا آنفا ــ يقترب بشدة من كونه زمناً أسطورياً عندما استخدم الضمير الشعبي وحدات زمنية خاصة للإشارة إلى المسافات بين المواقع الجغرافية اتسمت بـــ "اللامعقولية" فمثلا (جايد) سار ثلاثين سنة في العامر وثلاثين سنة في الخراب وهي وحدات زمنية ووقتية غير مألوفة للبشر، فالسنين تأخذ أزماناً مختلفة عن الأزمان التي نعرفها لهذه المصطلحات في استخدامنا الإنساني، وقد بدا المكان في تلك الرحلة الخيالية ذا طبيعة خاصة له معاييره وخصائصه التي لا تخضع لمقاييس

الواقع.فجاء المكان واسعاً لانهاية لامتداده، فهو في الفضاء وما وراء البحار، وفي رحاب الجنة الإلهية تارة، وضيق محدّد في أودية الجانّ والنحاس والذهب والياقوت والزمرد، أو وراء الشمس آناً آخر وهو في أغوار النفس الإنسانية الغامضة، أو هو خيالي يقع فيها وراء الحياة الكونية والإنسانية، وتنوّعت الشخصيّات في الرحلة من إنسانية إلى حيوانية إلى شيطانية ولعلنا نلمح في القصة السابقة صورة قريبة الملامح جداً من فرس البحر الذي كانت تعرفه مياه النيل حتى الصعيد في العصور القديمة .

كما نشهد حيواناً ضخماً يشبه الهايشة في سيرة (سيف بن ذي يزن) التي يعلو ظهرها في حذر وهي نائمة، وعند الفجر تتحول بجسدها إلى ناحية الشمس فتنقله بهذا من شاطئ إلى شاطئ عابرة به عرض البحر الممتد الكبير فهذه القصة الواردة في سيف بن ذي يزن شبيهة بحكاية عمران الذي عبر البحر متعلقاً بظهر دابة بحرية ضخمة، يوردها المسعودي في مروج الذهب فيقول:"منها خبر عمران [بن جابر] الذي صعد في النيل، فأدرك غايته، وعَبر البحر على ظهر دابة تعلق بشعرها وَهي دابة ينجر منها على الأرض شبر من قوائمها تُغَادي قرن الشمس من مبدأ طلوعها إلى حال غروبها[فاغرة فاها نحوها لتبتلع – عند نفسها- الشمس] فَعَبَرَ – على ما وصفنا من تعلقه بشعرها- البحر، ودار بدورانها طالباً لعين الشمس، حتى صار إلى ذلك الجانب، فرأى النيل منحدراً من قصور الذهب من الجنة"(٤٣). إلا أن المسعودي يحترز فيما يحكي فيعقب قائلاً:" إلى غير ذلك من خرافات حشدية عن أصحاب الحديث"(٤٤). كما استلهم الضمير الشعبي القصص الديني المتعلق بــ(رحلة المعراج) (٤٥) الواردة بالسيرة النبوية في سرد بعض أحداث الأسطورة، لما للمعراج من أثر في إثارة لخيال الناس وللرواة. فكان نواة لحياكة قصص ذات طابع أسطوري تؤدي وظائفها الاجتماعية / الثقافية وتلبي احتياجات الوجدان الشعبي، ويجد فيها مجالاً خصباً يقدم من خلالها تصوراته الخاصة لسيِّر الأنبياء وما اتصل بهم من موضوعات تخص العالم الآخر، وذكرها الفكر الديني ولم يقدمها له بأبعادها المختلفة، مثل الجنة وأنهارها. كما

تحمل قصة أكل حايد من التفاح بعض الشبه في الفكرة دون التفاصيل بقصة الغواية وخروج آدم من الجنة، والتي تواترت في القصص الديني، كما وردت في الإصحاح الثالث من سفر التكوين. فالذاكرة الشعبية هنا تدمج في داخلها الموروثات السابقة عليها وتعيد انتاجها بشكل معدل، يساهم في صياغة وحي المؤمنين، كما أن ظهور الخضر (عليه السلام) في وصف طريقة معرفة منابع النيل ــ في بعض الروايات ــ متعاصراً مع البطل، لا يعني مثلاً أن أحداثها وقعت في زمن موسى (عليه السلام) أو بعده بقليل؛ ذلك لأن الخضر بذاته شخصية تتمتع في التراث العربي بأبعاد أسطورية واضحة؛ منها اكتسابه الخلود[٤٦]، ومن هنا فإن وجود الخضر في تلك الرواية الأسطورية لا يشير إلى زمن بعينه ووجوده كذلك في نسيج زمن كهذا يضفي شيئا من "المطلقية" على زمن الرواية، والمطلقية كما هو معلوم إحدى سمات الزمن الأسطوري.

كما أن الرواية السابقة تعكس التصور الشعبي لمنطقة منابع النيل التي جعلوها جزءاً من الجنة، والحوار المثير بين أبطال هذه القصة يوضح لنا بجلاء أبعاد الحب والاحترام الذي حمله الوجدان الشعبي لنهر النيل قوام الحياة المصرية ومصدر استمرارها، ومن المهم أن نشير إلى أن هذا التراث الأسطوري المتعلق بنهر النيل لم يكن وليد الفترة التي اتخذت فيها مصر ثقافتها العربية واعتنقت الدين الإسلامي، ولكنه استمرار لموروث شعبي تناقلته الأجيال عبر تاريخ مصر وهذا الموروث الشعبي يخلط بين أساطير مصرية قديمة وتصورات شائعة عن الجنة وثمارها، وهكذا فإن التصور الشعبي عن منطقة منابع نهر النيل، كما اتضح من نصوص الأساطير العربية، كان في حقيقته نتاجا لخيال المصريين ووجدانهم بسبب العجز عن معرفة الحقائق الجغرافية حول منطقة أعالي نهر النيل ومنابعه، ومن ناحية أخرى، كانت هذه الأساطير نوعا من الموروث الشعبي المصري حول النيل، والذي ظل موضوعا للتداول الشفوي والمكتوب طوال عصور التاريخ المصري، وإن جرت عليه بعض التحويرات والتعديلات بحيث يتوافق مع

التطورات الاجتماعية والثقافية، وبحيث يلبي الحاجة الاجتماعية والثقافية لأبناء هذا المجتمع ـ وقد حرص الذين كتبوا عن فضائل مصر في المصادر التاريخية والجغرافية العربية على أن يجمعوا هذا التراث الشعبي ويدونوه في كتبهم باعتباره نوعاً من الحقائق المسلم بها(٤٧).

وإذا كان المجرى الأعلى لنهر النيل ومنطقة المنابع قد احتلا هذه المكانة في نصوص الأساطير العربية، فإن فيضان النهر السنوي قد آثار اهتمام كل من كتبوا عن فضائل مصر وتاريخها وجغرافيتها من المؤلفين العرب، وكان الفيضان وأسبابه مرتعا لخيال هؤلاء وأولئك جميعاً ومجالا لتخمينهم وقد اعتمدوا ف هذا المجال إلى ما نقلوه من كتب القدماء وما جمعوه من الموروث الشعبي المتداول، فقد كان بلوغ الزيادة في نهر النيل عند تمام الستة عشر ذراعا، يعتبر علامة الوفاء أي وفاء النيل ـ وعندئذ يستحق تحصيل الخراج الذي للسلطان كاملا(٤٨)، وتسمى زيادة الستة عشر ذراعا هذه "بماء السلطان". ويذكر المسعودي: أن أتم الزيادات نفعا للبلاد هي زيادة السبعة عشر ذراعا، وذلك لأنها تروي جميع البلاد، أما إذا زادت عن ذلك ووصلت إلى ثمانية عشر ذراعا فإن المياه تغطي رُبع أراضي البلاد حتى يفوق أوان الزرع، وهو ما اصطلح على تسميته استبحار الأراضي، وفي هذه الحالة يعقب انصراف تلك الزيادة حدوث الأوبئة والأمراض بمصر(٤٩).

ومن الملاحظ أيضا على بعض كتابات المؤرخين المسلمين عند نهر النيل، أنه حاولوا إرجاع زيادة أو نقص مياه النيل إلى حركة الشمس والقمر في البروج السماوية، وبسبب النور والظلمة، والبدر والمحاق"(٥٠)، فارجعوا زيادة ماء النيل إلى المد الذي يكون في البحر؛ فإذا فاض ماء البحر تراجع النيل وفاض على الأراضي، وفسروا ذلك بأن حركة البحر التي أطلق عليها (المد والجذر) تحدث في كل يوم وليلة مرتين، وفي كل شهر قمري مرتين، وفي كل سنة مرتين(٥١).

بل أن بعض الجغرافيين والمؤرخين ذكروا أنه لمعرفة زيادة النيل أو نقصانه في كل سنة قبل حدوثها، فإن ذلك يستطلع ويستنتج من حركة القمر والشمس في البروج وقسموا البروج إلى نارية، وترابية، ومائية، وهوائية، وذكروا أن القمر إذا كان في البروج النارية فهذا يدل على قلة الماء ونقصانه، وإن كان القمر في البروج الترابية تكون مياه النيل متوسطة، وإن كان القمر في البروج المائية فهذا يدل على كثرة مياه النيل وتوقع حدوث استبحار الأراضي، أما إذا كان القمر في البروج الهوائية فإن مياه النيل تكون كثيرة المنافع قليلة الضرر[٥٢]، وأضاف صاحب "ذكر ما جاء في النوروز"[٥٣]، أنه إذا صادف النوروز يوم الأحد للشمس، فإن النيل يكون متوسطاً في طلوعه، ويخرج زرعاً جيداً .. وإذا صادف النوروز يوم الاثنين للقمر، فإن النيل يكون مقبلاً مباركاً لطلوعه، ويحسن الزرع .. وإن صادف النوروز يوم الثلاثاء للمريخ، فإن النيل يجري بلا توقف يكون وسطاً .. وإذا وافق النوروز يوم الجمعة للزُّهرة، فإن النيل يكون مباركاً ولا يغلو شيء، ويكثر صيد البر والبحر، ويعدل السلطان، وينجب الزرَّع، ويقل الشر . وإن وافق النوروز يوم السبت لزُحَل، فإن النيل يكون غالباً يبلغ ثمانية عشر ذراعاً، ويغلو الزيت، ويقع الوباء في العلماءِ وأكابرِ الناس ومتوسِّطى العرب، ويكون آخر السنة خيراً "[٥٤].

كما أن كتابات أولئك المؤلفين حاولت إكساب النيل طابع القداسة في هذا الصدد أيضاً، فقد ذكر بعضهم أن الله سبحانه وتعالى يأمر كل الأنهار والعيون أن تمد نهر النيل بمياهها وقت الفيضان، فإذا اكتفى الناس برى أراضيهم وزراعاتهم أمر الله النيل أن يعود كما كان[٥٥] ومن الملاحظ أيضاً أن العلماء المسلمين الذين كتبوا عن نهر النيل في العصور الوسطى لاحظوا أن ماء النيل يخضر مع بداية الزيادة، وقد ذكر المقريزي أن عامة أهل مصر كانوا يقولون عن هذا الاخضرار "قد توخَّم النيل"[٥٦]، ويرون أن الشرب منه حينئذ مضر.

أما عن سبب هذا الاخضرار في ماء النيل فيرجعونه إلى لجوء الحيوانات ــ خاصة الفيلة ــ إلى البحيرات التي في أعالي النيل، فترقد فيها بأعدادها الهائلة لمقاومة شدة الحر هناك، ولذلك يتغير لون ماء تلك البحيرات، وعندما تهطل الأمطار في الجنوب وتتكاثر السيول في تلك البحيرات، تدفع هذه المياه الخضراء أمامها فتصل إلى مصر بهذا اللون مع الزيادة، ثم يعقب ذلك احمرار المياه وتكورها لاختلاطها بالطين والصخور المتفتتة التي تجرفها الأمطار من منطقة الجبال بالحبشة[٥٧].

ويضيف الاقفهسي في كتابة "أخبار نيل مصر" نقلا عن مروج الذهب تفسيراً آخر لاخضرار ماء النيل عند بدء الزيادة، فيذكر أن بعض البحيرات في أعالي النيل تنقطه عن النيل في فترة نقص المياه فتمكث في البحيرات فترة طويلة فيخضر لونها، فلما تأتِ الزيادة في المياه نتيجة للأمطار، تصب هذه السبحيرات مياهها في النيل فيخضر مادة مع الزيادة[٥٨].

هذا المحصول الوفير من الأساطير عن النهر المعطاء يعبر في الواقع عن توق الإنسان إلى المعرفة ومحاولة فهم الطبيعة من حوله والوقوف على أصولها وأسرارها دون أن يتكئ على أية مرجعية علمية فاستيقظ فيه النيل الإنساني العظيم الباعث على الرغبة في إماطة اللثام عن أغوار المجهول عن منابع النيل فخرجت من خيالاته حملات استكشافية امتلأ الحديث عنها بالعديد من العناصر الأسطورية من جن وشياطين وقصور مطلسمة وجبال شاهقة ووديان مخيفة ومغارات وكهوف إلى بحيرات وإنها غامضة وجزر عجيبة ومن عالم البشر إلى عوالم الجن والسحرة والمخلوقات العجيبة وغيرها ويمكن تنضيد معظم الروايات التي قيلت في ذلك الشأن فيما يلي:أورد ابن معصوم في رحلته أن: "جماعة صعدوا هذا الجبل (جبل القمر) ليحيطوا خبراً بمبدأ النيل فرأوا وراء بحراً عجاجاً أسود كالليل، يشقه نهر أبيض كالنهار وهو النيل"[٥٩].

ويقال أن: "ملكاً من ملوك مصر الأول، جهز أناساً للوقوف علـــى أول النيـــل فانتهوا إلى جبال من نحاس، فلما طلعت عليهم الشمس، انعكست علـــيهم أشـــعة الشمس الواقعة عليها فأحرقتهم، وقيل أنهم انتهوا إلى جبال براقة كـــالبلور، فلمـــا انعكست عليهم الأشعة الواقعة عليها فأحرقتهم"(٦٠).

ثمة روايات عديدة عن حملات استكشاف قبل الإسلام تداولتها كتابات المؤرخين منها: "كان الوليد بن درمع العمليقي، قد خرج في جيش كثيف ينتقل في البلـــدان، ويقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها، فلما صار إلى الشام انتهى إله خبر مـــصر، ثم سنح له أن يخرج ليقف على مصب النيل فيعرف ما بحافتيه من الأمم، فأقام ثـــلاث سنين يستعد لخروجه، وخرج في جيش عظيم فلم يمر على أمة إلا أبادها، ومر علـــى أمم السودان وجاوزهم ومر على الأرض الذهب، فرأى قضبانا نابتة من ذهـــب، ولم يزلْ يسير حتى بلغ البطيحة التي ينصب ماء النيل فيها من الأنهار التي تخرج من تحت جبل القمر، سار حتى بلغ هيكل الشمس وتجاوزه حتى بلغ جبل القمر وهـــو جبـــل عال"(٦١).

وعن محاولات كشف منابع النيل بعد الفتح الإسلامي لمـــصر، أورد المؤرخـــون قصصاً عديدة منها، قد حدث:"أن سافر أناس إلى منابع النيل عدة مـــرات في أيـــام السلطان المؤيد بلغوها بعد ثمانية أشهر وعادوا منها حاملين أمتعة وسلعاً"(٦٢). ويشير ابن عميرة إلى أن: "الملك الصالح نجم الدين أيوب، اشتهى أن يعرف أصل النيل فأمر أن يشتري عبيداً صغاراً زنوجاً أو ما شاكلهم، ثم يستوعبوا، ويـــسلموا لـــصيادي السمك والتجار ليعلموهم صنعة البحر، صيد السمك، لتكون قوتهم، فإذا مهروا في ذلك، يصنع لهم مراكب صغار ليركبوا فيها ويأتوه بخبر النيل.."(٦٣)، ويقول: "ناصر خسرو": "يُقال أن حقيقة منابع النيل لم تعرف، وسمعت أن سلطان مصر، أرسل بعثة لتتبع شاطئ النيل سنة كاملة، ودرسه، ولكن أحداً لم يعرف حقيقة منبعه"(٦٤).

كما تحكي رواية أخرى وقائع مثيرة عن: "أن بعض خلفاء مصر أمر قوماً بالمسير إلى حيث مجرى النيل، فساروا حتى انتهوا إلى جبل عال، والماء يترل من أعلاه، وله دوي وهدير لا يكاد يسمع أحدهم كلام صاحبه، ثم أصعدوا واحداً منهم إلى أعلى الجبل، فلما وصل رقص وصفق وضحك، ثم مضى في الجبل ولم يعد ولم يعلم أصحابه ما شأنه، ثم ثانيا: ففعل مثل الأول، فصعد ثالث، وقال: أربطوا وسطي حبلاً فإذا وصلت وفعلت مثل ما فعلا فاجذبوني، ففعلوا، فلما صار في أعلى الجبل فعل كفعلهما، فجذبوه إليهم. فقيل: إنه خُرِسَ ولم يرد جواباً، ومات من ساعته، فرجع القوم ولم يعلموا غير ذلك والله أعلم..."(٦٥).ويفسر ابن معصوم سبب ما حدث لهؤلاء الناس بقوله: "أنهم رأوا حجر الباهت وهو نوع من المغناطيس في لون المرقشيشا يتلألأ حسنا، إذا رآه الإنسان ضحك حتى يموت ولا يمسك عنه البتة"(٦٦).

ما يهمنا في الروايات السابقة هو أن الضمير الشعبي في صياغته لهذا النوع من الحكايات قد استفاد من بعض التفصيلات والأسماء التاريخية في نسج الرواية لكي يضفي على روايته مصداقية زائفة لغرس الإيحاء بمصداقية ما يُروي، وإلباسه ثوب الحقيقة بهتانا، على الرغم من اتجاهه الأسطوري الواضح، مع حرص الراوي على إثارة ملكه التخيل لدى المتلقي، المهم أن مثل هذا النوع من القصص يوضح مدى الاهتمام الذي استحوذ على الناس لمعرفة أصل الأشياء كما يؤكد على رفض العقلية الشعبية فكرة الاعتراف بالجهل فيما يتعلق بالنهر الذي ارتبطت به حياة الناس وجوداً وعدماً.

كما أن نهر النيل أخذ قسطاً موفوراً واهتمامًا ملحوظاً من القصص الديني، من جانب المؤرخين والجغرافيين، خاصة في العصر المملوكي سواء أكان ذلك القصص مما ورد في القرآن الكريم، أو في الأحاديث النبوية الشريفة، أو مما أُثر عن الصحابة والسلف الصالح، أو من أقوال المفسرين للقرآن الكريم، وعلماء اللغة، بل أن الكثير

من مؤلفات ذلك العصر احتوت على الكثير من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ﷺ، والتي تنسب النيل إلى أنهار الجنة؛ وتصبغه بصبغة القدسية، وتضفي عليه صفة الإيمان[٦٧] فهو:" سيد الأنهار، سخر الله له كل الأنهار والعيون لتمده بمائها وقت زيادته؛ فإذا وَفَّى زيادته وزُرعت الأراضي، أمر الله النيل أن يعود كما كان"[٦٨].

ويبدو أن هذا الاعتقاد الذي سيطر على أفكار الجغرافيين والمؤرخين المسلمين نتج من حقيقة أن الزيادة تحدث في مياه نهر النيل صيفا، في حين أن مياه معظم الأنهار المعروفة تنقص في ذلك الفصل من السنة.

ويشير الشوكاني إلى أن: " المؤرخين توسعوا في ذكر الأحاديث الباطلة في فضائل البلدان ولا سيما بلدانهم، فإنهم يتساهلون في ذلك غاية التساهل، ويذكرون الموضوع ولا ينبهون عليه، والكذب في هذا قد كثر وجاوز الحد، وسببه: ما جبلت عليه القلوب من حب الأوطان والشغف بالمنشأ"[٦٩]، واستهدف المؤرخون عند سرد الأحاديث والقصص الديني أثبات أسماء الرواة في تسلسل لغرس الإيحاء بمصداقيته ما يروي، وإلباسه ثوب الحقيقة في محاولة دائبة للربط بين نهر النيل والقصص الديني والأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ أو ضمن المأثور عن الصحابة والسلف الصالح، فقد اهتم الكُتّاب العرب ببيان أنه لم يرد اسم نهر سوى نهر النيل في القرآن الكريم، ويقول السيوطي: "نهر النيل من سادات الأنهار، وأشراف البحار؛ لأنه يخرج من الجنة على ما ورد به خبر صاحب الشريعة ﷺ، وليس في أنهار الدنيا نهر يسمى بحرا غير نيل مصر لكبره واستبحاره"[٧٠]، والعرب تسميه بحراً"[٧١]، وليس في العالم ما يسمى بحراً ونهراً سواه"[٧٢]، كما لم يسم نهر من الأنهار في القرآن سوى النيل في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص / ٧]، قال:" وأجمع المفسرون على أن المراد باليم هنا نيل مصر"[٧٣].

كذلك امتلأت المؤلفات المعاصرة بأحاديث كثيرة منسوبة إلى الرسول ﷺ تنسب نهر النيل إلى أنهار الجنة، وتضفي عليه صفة القدسية، ومن طبيعة الأمـور أن النـهر الذي كان إلهاً في عصور الوثنية (حابي) لا يمكن أن يحتفظ بألوهيته في ظل الإسـلام دين التوحيد، ولكن أهمية نهر النيل في حياة البلاد وساكنيها جعلت النـهر يحـتفظ ببعض من صفات القدسية في وجدانهم وفي آدابهم، وقد نسب إلى النبي ﷺ قولـه في حديث المعراج: "ثم رفعت إلى سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان، نهـران ظاهران، فقلت ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظـاهران فالنيل والفرات"[٧٤]. ويلاحظ أن حديث المعراج نفسه ملـئ بالمبالغـات المـثيرة والتصورات الباهرة، ولذلك كان انتشارها الواسع بين عوام الناس الذين تعلقوا بهـا وأخذوا بما فيها من خيال خاصة وأن القصص القرآني لم يذكرها إلا مروراً عـابراً. فكانت فرصة سانحة كي يلجأ الخيال الشعبي إلى كل الوسائل المتاحة لديـه لإثبـات موقفه خاصة لما تثيره المعجزة من خيال ومن رغبة في المبالغة والمغالاة.

أسطورية النهر لم تتكون دفعة واحدة، وإنما استمر كل جيل يضيف إليهـا مـن خياله ما يوائم تصورات عصره، وما يزيد من تأثيرها في نفوس محبيه، فتباينت أساطير النيل بحسب الزمان والمكان، ولا يوجد مصدر تناول أي جانب من جوانب الحضارة المصرية إلا وللنيل فيه مكان ومكانة، فقد ظلت أسطورية تـسيطر علـى أذهـان وعواطف الناس لقرون طويلة، ظن الوجدان الشعبي فيها أن النيل نزل على أجنحـة الملائكة؛ وأن جبريل عليه السلام نزل بالنيل والفرات على جناحيه: "فكان النيـل علـى جناحه الأيسر، والفرات على جناحه الأيمن، وقال بعض الفضلاء: أن هذا يدل على أن ماء النيل أخف من ماء الفرات لأن الشئ الثقيل من عادته يحمل علـى الجانـب الأيمن، والخفيف على الجانب الأيسر"[٧٥].

وجاءت رؤية الناس لنيلهم مثقلة بالخيال الذي يكشف عن ماهية القراءة الشعبية للتاريخ ــ وهي قراءة تعد سندا لوجودهم الآني ودعما لهويتـــهم تحقيقـــا للـــذات الجماعية التي تصر على إثبات دورها في صياغة التاريخ بشكل مباشر أو غير مباشر ــ لإزاحة الغبار الذي غطى حياة نهر النيل الذي عليه قوام حياقم، فتضافرت سوياً عناصر الخيال وعناصر التاريخ بشكل متناغم بات واضحاً في إســـهاب المـــؤرخين والجغرافيين، وكُتّاب الفضائل في سياق وصفهم لعجائب النيل، والتفاعل البشري مع أسماك وحيوانات النيل المائية والي قدموها لنا مزجاً بين القيـــاس علـــى الكائنـــات المحسوسة المألوفة. وبين التصور الذي اصطنعه ذلك الخيال من هنا تـــأتي عجائبيتـــها ومطلقيتها، مثل التمساح الذي اعتقدوا أنه لا يوجد سوى في نهري النيل والـــسند وكان ذلك دليلا ــ في رأيهم ــ على أن النهرين يخرجان من منبع واحد قرب الجنة الأرضية[٧٦].

كما واصلت الكائنات المائية التي تعيش في نهر النيل القيام بـــدورها البـــارز في المعتقد الشعبي المصري، والتي صبغت صورها مزجا بين النموذج المألوف والخيـــال الأسطوري ففي "كوكب الروضة" يشير السيوطي إلى أنه يوجد في نهر النيل شـــيخ البحر، وهو سمكة على صورة آدمي، وله لحية طويلة، ويكون بناحية دمياط، وهـــو مشئوم، فإذا رأى في مكان دل على القحط والموت، والفتن، ويقـــال: أن دميـــاط تنكب حتى يظهر عندها.." [٧٧].

كما أشار المؤرخون إلى ما أحاط بحيوان "السقنقور" الشبيه بالتمساح من خيال: "إذا وضعه خارج الماء فما قصد الماء صار تمساحا، وما قد البر صار ســـقنقوراً"[٧٨]، كما أنه:"يعض الإنسان ويطلب الماء فإن وجده دخل فيه، وإن لم يجده بال وتمرغ في بوله، وإذا فعل ذلك مات المعضوض لوقته، وسلم السقنقور، فإن اتفـــق أن ســـبق

المعضوض إلى الماء فدخله قبل دخول السقنقور الماء وتمرّغه في بوله مات السقنقور لوقته، وسلم المعضوض "(٧٩).

وبرغم النزعة العلمية لدى الرحالة عبد اللطيف البغدادي إلا أنه وقع تحت تأثير العجيب والغريب في نيل مصر بقوله: "السرب وهي سمك يحدث لآكلها أحلام ردية مفزعة، ولا سيما الغريب، ومن لم يعتدها، والأحدوثات فيها مشهورة"(٨٠)، ويحسب لأبن حوقل نقده لتلك الخرافة بقوله:" وأكلتها أنا وجماعة من ذوي التحصيل فشهدوا بكذب هذه الحكاية"(٨١)، وأشار المقريزي إلى عجائب السمكة المعروفة بـ (سمكة الرعادة):"ونفعها في البرء من الحمى، إذا علقت على المحموم"(٨٢).ويقول عنها:" قال ابن البيطار عن جالينوس هو الحيوان البحري الذي يحدث الخدر وزعم قوم أنه إذا أدني من رأس من يشتكي الصداع سكن صداعه، إن أدني من مقعدته من انقلبت مقعدته أصلحها . وكنت أنا _ يقصد المقريزي نفسه _ جربت الأمرين جميعاً فلم أجده يفعل ولا واحداً منهما ففكرت أني أدنيته من رأس المصدوع والحيوان ما هو حيّ لأنني ظننت أنه على هذه الحال يكون دواء يمكن أن يسكن الصداع بمنزلة الأدوية فوجدته ينفع ما دام حيّاً "(٨٣). وأشار القزويني إلى أن من عجائب أسماك النيل:" أن في النيل موضع يجتمع فيه السمك في كل سنة يوماً معلوماً، فالإنسان يصيد بيده ما يشاء ثم يتفرق إلى ذلك اليوم من السنة القابلة"(٨٤). ويبدو أن القزويني يتحدث عن حقيقة ربما مفقودة عن النيل حالياً إذ أن الثابت أن فكرة ظهور تجمعات للأسماك في منطقة معينة في يوم معلوم له نظائر في مناطق بحرية أخري من العالم(٨٥).

وربما كان ظهور تلك الكائنات في نهر النيل عند العامة، يهدف أساسا للحفاظ على المياه من العبث والتعدي فنسجوا حول شريان حياتهم أساطير حافظة، وصلت إلى حد العبادة والتقديس أحيانا، لا سيما وأن تقديس مصادر المياه ما زال معتقداً لدى كثير من العامة إلى اليوم.

والماء هو مصدر الخصب والحياة، وهناك كثير من العادات والتقاليد تحمل هـــذه الرموز ومنها التعميد بالماء[٨٦] وقطرات الزيت كمصدرين للخصب والنور، وبالتالي لا يمكن أن نغفل الروابط بين هذا الحطام الرمزي في المعتقدات، وبين بروز العنـــصر المائي في أساطير الخلق في مصر القديمة مع المحيط الأزلي الذي يعد عاملاً مـــشتركا في جل أساطير الخليقة في العالم كله، وموارد المياه عند الإنسان مكان مقدس، فالمكان في مفهومه غير متجانس دنيويا ودينيا، وأن كانت شعائر دينية معينة تستمر في الحيـــاة وتقع موارد المياه من ضمنها، وتحافظ على قدسية هذه الموارد.

وإذا حاولنا الوصول إلي الجذور الأسطورية للمياه فسنري أنها كانت تلعب دوراً بالغ الأهمية في المعتقدات والديانات القديمة والحديثة وسنجد شواهده ودلائل تـــشير إلي أي حد يقدسها الناس منذ حقب موغلة في الزمن، وصلاة الاستسقاء الجاهليـــة ذات دلالة تاريخية ودينية منذ القدم وكانت تعد من طقوس العرب الدينية القديمـــة، وكانت تشير بالمثل إلي تقديس الناس للماء لا بذاتها وإنما بالنظر إلي الأرواح التي تحل فيها. بيد أن خروج هذه الموارد المائية من دوائر الشعائر الدينية وارتباطها مباشـــرة بخطة تنظيمية عقلية، تقوم عليها جهات معينة مثل ما قام به المـــصري مـــن تنظـــيم للحصول علي مياه النيل بشق الترع، والقنوات والنهوض بإقامة الجسور، والسدود عند الفيضان ومع ظهور شبكات المياه الحديثة تخفف المصري من القلق في تأمينها أو انقطاعها. فابتعدت عن مياه النيل صفة القداسة، كما أننا اليوم نقف أمام نهر النيـــل وخزانات المياه الرئيسية في قري ومدن مصر فلا يثير فينا هذا الوقوف أية مـــشاعر قدسية !!!

هوامش الفصل الثامن

(١)محمد عوض محمد: نهر النيل (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠١م)، ص٧

(٢)نفسه ، ص١٣.

(٣)محمد عوض محمد: نهر النيل، ص١٦-١٧؛ أبو اليسر فرح: النيل في المصادر الإغريقية (الطبعة الأولي، دار عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠٤م)، ص٨٠-٨١

(٤)الأقفهسي: أخبار نيل مصر،ص٧-٩ .

(٥)أطل المؤرخون علي النيل من نافذة النبؤات ،ومن طاقة الرموز حين جعلوا النيل ينبع من اثني عشر عينا ،وهو العدد الذي استفاد قدسيته من رمزيته الزمانية والمكانية (الكوزمولوجية)، فعدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً والأئمة اثنا عشر، وكان من معجزات موسي عليه السلام العصا التي ضرب بها الحجرْ فانفجرت منه اثنتا عشر عينا لكل سبط عين.المقريزي: الخطط، جـ٢،ص٣٩٤؛ النواجي : حلبة الكميت ، ص٢٩٦.

(٦)التلمساني: سكردان السلطان، ص٦٤، السيوطي: كوكب الروضة، ص ١٢٦ ،ص١٢٧، ابن محشرة: الاستبصار،ص٤٥،المسعودي: مروج الذهب،جـ١،ص٩٨، الخوارزمي:كتاب صورة الأرض، ص١٠٦-١٠٩، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٢، ص٢٩٠-٢٩١،المنوفى: الفيض المديد في أخبار النيل السعيد،ص٤-٥.

(٧)من الشائع أن المصريين كانوا يعتقدون أن منابع النيل تقع عند الشلال الأول جنوبي أسوان، وإن الكبش الذي كان حيواناً مقدسا لديهم، يحرس هذه المنابع وربما يصور لنا (ديودور الصقلي) ما كان يشاع من أمر منابع النيل بقوله: "أن كهنة مصر حدثوه بأن النيل يستمد مياهه من المياه المحيطة بالعالم المسكون" ولم يقبل ديودور هذه الفكرة لأنه ليس هناك ما يؤيدها، بل أن الكهنة من وجهة نظر ديودور: يحلون مشكلة غامضة بشكل يحتوى علي المزيد من الغموض، أبو اليسر فرح: النيل في المصادر الإغريقية. ص٨٠-٨١.

(٨)قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (الطبعة الأولي،دار المعارف،القاهرة ١٩٧٨م)،ص١٠١؛ قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٩١.

(٩)التلمساني: سكردان السلطان، ص ٣٦٤- ٣٦٥ ، السيوطي: كوكب الروضة، ص١٢٧، الأقفهسي: كتاب أخبار نيل مصر، ص ٥٧- ٥٨ ، المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص٩٨؛ الخطط ،ج١، ص ٥٣-٥٤ ، النواجي: حلبة الكميت، ص٢٩٦.

(١٠)الحميري: الروض المعطار، ص٥٨٦.

(١١)ابن حوقل: صورة الأرض،ص١٧٣.

(١٢)ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص٥٠.

(١٣)وجود النحاس في القصور والمدن والتماثيل يتكرر كثيراً فيما يتعلق بمنابع النيل وعلاقة النحاس بعالم السحر قوية في الآداب الشعبية- ولعل هذا صدي من أصداء الاعتقاد العام حول خواص النحاس السحرية ، وهو كثير الظهور في وصف الأبواب السحرية عادة والقصور والتماثيل العجائبية.

(١٤)ابن إياس : بدائع الزهور ،ج١، ص١٠، ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص١٥٤- ١٥٥.

(١٥)المقريزي: الخطط، ج١، ص ٥١- ٥٢.

(١٦)القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣١٣.

(١٧)النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الأرب في فنون الأدب (طبعة دار الكتب المصرية)، ج١، ص٢٦٢، الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ،ج١، ص ٢٨.

(١٨)الإدريسي: نزهة المشتاق،ج١، ص٢٨، المنوفي: الفيض المديد في النيل السعيد، ورقة ٥-٦،الخطط، ج١، ص٦٧- ٦٨.

(١٩)المسعودي:مروج الذهب، جـــ١، ص٨٣.

(٢٠) أبو محمد الأسواني : من أهم المصادر التي اعتمد عليها المقريزي في كتابه (الخطط) وذكر أنه أكثر الناس علماً بالنيل غير أن كتابه لم يصلنا (مفقود) .

(٢١)سيد خميس: وصل ما انقطع قراءات في التراث العربي الإسلامي(سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢م)، ص ٧٥-٧٦.

(٢٢)قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص٩٤.

(٢٣) أبو اليسر فرح: النيل في المصادر الإغريقية،ص ٨٧.

(٢٤) السيوطى: حسن المحاضرة، جـــ٢، ص١٨٦، محمود سليم: النيل في عصر سلاطين المماليك (سلسلة المكتبة الثقافية، العدد ١٣٢، ص٢٦.

(٢٥) الهروى: الإشارات إلي معرفة الزيارات، ص٤١، الحميري: الروض المعطار،ص٥٨٦.

(٢٦) المسعودي: مروج الذهب، جـــ١، ص٩٩، التنبيه والإشراف، ص٤٩، الأقفهسي: كتاب أخبار نيل مصر، ص٥٩.

(٢٧) الأقفهسي: كتاب أخبار النيل، ص٣٩.

(٢٨) بحر الظلمات هو بحر الأقيانوس، وهو المحيط الأطلنطي.

(٢٩) انظر: تاريخ مصر وفضائلها،ص١٦؛ النواجي : حلبة الكميت، ص٢٦٩.

(٣٠) السيوطي (جلال الدين السيوطي) : مقامات جلال الدين السيوطي "مقامة في وصف روضة مصر تسمى ببلبل الروضة " (الجزء الأول، تحقيق:سمير الدروبي، سلسلة الذخائر، العدد١٦٣ ، القاهرة٢٠٠٧ م) ، ص ٢٨٨.

(٣١)الجيزوم: اسم فرس من خيل الملائكة، انظر الجوهرى: الصحاح، جـ٥، ص١٨٩٩(تحقيق: أحمد عبد الغفور، دار الكتاب العربي، مصر د.ت)؛ النهاية في غريب الحديث والأثر، جـ١، ص٢٧٤.

(٣٢)الأقفهسي: مصدر سابق، ص٣٩.

(٣٣)من المعروف أن سيف بن ذي يزن – في التراث التاريخي العربي– ملك من ملوك التبابعة الحميريين وبطل من أبطال التحرير اليمني، عندما أعلن الثورة سنة٥٧٥م للتخلص من نير الاستعمار الحبشي لبلاده بقيادة ملكها اليهودي ذي نواس على نحو ما رواه لنا وهب بن منبه في التيجان،وتعد تلك السيرة تحديداً من أخصب السيِّر الشعبية العربية والتي امتلأت بالعناصر الأسطورية المتعددة والمتنوعة ، وأكثرها لجوءاً إلى الخيال الجامح الذي يشي في الكثير من مواضعها بالاتكاء على الفكر الأسطوري كمرجعية فكرية ، وعلى بعض الحوادث الأسطورية المنضفرة داخل بنيتها. ويكاد يتفق عظم الباحثين في مجال الأدب الشعبي العربي على أنه ، على الرغم من أن الأحداث في السيِّر الشعبية العربية تتحرك على خلفيات تاريخية أو شبه تاريخية ، تمثل كل منها حلقة من حلقات الصراع بين الشعب العربي وبين أعدائه ، إلا أن تلك الأحداث تنم عن أصول ميثولوچية ومعتقدات دينية وطقوس وممارسات سحرية قديمة عرفتها المجتمعات القديمة التي شكلت فيما مضى حضارات المنطقة العربية. انظر: محمد رجب النجار: الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي، ص٢٠٥؛ كارم محمود عزيز: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص٣٧١-٣٧٣.

(٣٤)السيرة الهلالية :من القصص الشعبي الذي شاع في مصر ،وقد بدأت هذه السيرة في صورة غنائية ،ثم أخذت صورة قصصية منذ القرن السادس الهجري ،وتدور أحداث هذه السيرة حول أسرة بني هلال التي انتقلت من نجد إلى البلاد الإسلامية المختلفة ، واستقر بعضها بمصر ، وتفرق الكثيرون منها في الشمال الأفريقي والأندلسي وكانت لهم وقائع في تونس .وقد صورت هذه القصة بعض جوانب الشخصية المصرية من خلال السخرية التي عامل بها المصريون حكامهم

كما تبدو في هذه العبارة التي أطلقها أحد المصريين معلقا على طمع الهلاليين في حكم مصر والاستغلال بها حيث قال "ولكن العرب لايملأون أعين المصريين "كما أن الشعب المصري قد هذب هذه السيرة وحضّرها وارتفع بها ومصّرها رغم نواتها العربية .عبد اللطيف حمزة :الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية حتى مجيء الحملة الفرنسية (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠م)،ص٢٦٤-٢٧٣.

(٣٥)الأدب الشعبي الذي اهتمّ بسير الأبطال مثل (سيف بن ذي يزن) أو(الزير سالم) أو(الهلالية) قد حُجر عليه في المقاهي، والمجالس، ولم يُدون التدوين المعروف لدينا الآن إلا بعد أوقات طويلة من معرفته وانتشاره، ولأن المقاهي يرتادها العامة فقد ظلّ الأدب الشعبي تابعاً لهذه الطبقة التي لم تنل الرضا من قبل الطبقات العليا طبقة الحكام، والولاة، والتجار، والقضاة، والعلماء، والمتكلمين. وبسبب عدم التدوين ظلت سِير الأدب الشعبي وأخباره، وحوادثه تستطيل وتمتدّ تبعاً لمواهب الحكواتي وقدرته، وتبعاً لشغف السامعين لما يقصّ عليهم، فإن استمتعوا طالبوه بالمزيد، وعندئذ يشتغل ذهن الحكواتي بالتوصيل، والترقيع، ولحم حكاية بأخرى على نحو قد يكون بعيداً تماماً في أسلوبه عن أسلوب قصة الأول، لذلك نجد تعدد الأساليب الكتابية في نصوص الأدب الشعبي قبل أن تُصاغ كلها بروح واحدة من قبل كاتب بعينه، وفي عصر محدد أيضاً. ولذلك نجد مجاورة الواقعي للخيالي ومخالطة المؤنس بالغرائبي، والقريب بالبعيد، والصافي بالمزيج. وفي كل الأحوال كان تقويم الأدب الشعبي تقويماً بعيداً عن الحقيقة الفنية التي يتمتع بها، وذلك من حيث النظر إليه باعتباره خالياً من الوظيفة الاجتماعية، وأنه وجد من أجل السلوى، والدعابة، والتندر ليس إلاّ، وهو في أحسن أحواله حوادث وأخبار في الاطلاع عليها عبرة لمن يريد الاعتبار، للنظر إلى الافتتاح الذي استهلت به "ألف ليلة وليلة "والذي يحدد غايات الليالي كلها، جملةً لا تفصيلاً.. "إن سير الأولين صارت عبرة للآخرين، لكي يرى الإنسان العبر التي حصلت لغيره فيعتبر، ويطالع حديث الأمم السالفة وما جرى لهم فيزتجر، فسبحان من جعل حديث الأولين عبرة لقوم آخرين".

(٣٦)قارن ذلك الوصف مع ما ورد عند المسعودي وغيره من المؤرخين حول تلك المنطقة .مروج الذهب ، ج١ ،ص١٢٣.

(٣٧)محمد رجب النجار: الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي، ص١١٥، عبد الحميد يونس: مجتمعنا (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م) ص٢٥-٢٦، كارم محمود: الأسطورة فجر الإبداع، ص٣٩٦ ،قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص٨٩ :١٠٥

(٣٨)كارم محمود: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص٣٩١.

(٣٩)ابن الوزان الزيَّاتي (جان ليون الأفريقي الحسن بن محمد الوزان الزياتي): وصف أفريـــــقيا. (ترجمة: عبد الرحمن حميدة، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٦م)، ص ٦٣٢.

(٤٠)ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (الجزء الأول، تحقيق، أحمد تركي، القاهرة ١٩٤٢م)، ص ٩٧-٨١؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٤٧.

(٤١)ورد عند ابن إياس في (بدائع الزهور) أن الرجل صاحب الشجرة هو : "أبو إلياس الخضر". انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ص ٢٥.

(٤٢)ابن ظهيرة:الفضائل الباهرة، ص ١٧١-١٧٤؛،ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ١٤٢، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٠-١٨٢؛ السيوطي: كوكب الروضة، ص ١٣٢-١٣٣؛ الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول، ص ١٨٨-١٨٩؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص٥٢، ابن إياس: بدائع الزهور، ص ٢٤-٢٦.

(٤٣)المسعودي : مروج الذهب ، ج١، ص١٢٣.

(٤٤)نفسه ، ص١٢٣.

(٤٥)كانت الرحلة الخياليّة في الملاحم والسيَر وسيلة للإنسان للوصول إلى عالم الموتى المجهول تارة، وصفحة يستشرف من خلالها آفاق المستقبل وغامض الغيب تارة أخرى، كما تبدو تلك الرحلة الخياليّة صورة معكوسة للحياة الاجتماعية =في عصر صاحبها. ثمّ جاء الإسلام فأعطى المسلمين تصوّراً غنياً وعميقاً عن اليوم الآخر، وهو حقّ وصدق، كما أغنى خيالهم، وأشبع نفوسهم، وأراح أرواحهم بحديث الإسراء والمعراج، وكان الاعتقاد به ركناً من أركان الإيمان لديهم، ولذلك استقر في نفوسهم وأشبع لديهم الرغبة في معرفة العالم الآخر. ولهذا كلّه لم يظهر نصّ أدبي يتصوّر الرحلة إلى العالم الآخر إلاّ في عصور متأخرة، ولعلّ أول ما ظهر في هذا المجال هو قصة الإسراء والمعراج بأسطوريتها التي توسّعت في حديث الرسول ﷺ عن الإسراء والمعراج، وهي نصّ شعبيّ نسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما ويبدو أنّ تلك الرحلة الخياليّة حاولت استشراف الغيب وساعدت على إرواء ظمأ النفس التوّاقة لمعرفة شيء عن مصائر البشر بعد

الموت.وكذلك كان الأمر في رحلة جلجامش تعبيراً عن توق الإنسان إلى المعرفة وكشف المجهول ومحاولته معرفة سرّ الحياة والخلود. والقضاء على قوة الموت والفناء.

(٤٦)فاز الخضر ﷺ بالخلود في الموروث الشعبي حتى أصبح رمزاً لاستمرار الحياة ونجد بقايا ذلك في عادة جرت عليها بعض الأمهات، عندما يشرق الطفل وتخاف على حياته تقول له "خضر" كأنها تطلب له حياة (الخضرﷺ)، والخضر في الموروثات الشعبية هو الذي قام بدفن آدمﷺ، وهو صاحب موسى، ووزير ذي القرنين، وصاحب الظهورات التي تدل على المقامات وعنه يقول أحد المؤرخين : "سيدنا الخضر النبي : رجلاً مسناً ذا تجارب وتدبيرات عظيمة في جيش الاسكندر، وكان معه في رحلاته في أنحاء العالم، ويقال أنه لا يزال حياً يرزق ..".أوليايچلبي: سياحتنامه مصر، ص ٥٠.

(٤٧)قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٩٩.

(٤٨) المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ٣٤٣

(٤٩)المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ٣٤٢.

(٥٠)المصدر السابق،ص ٩٨.

(٥١)لمزيد من التفاصيل عند المد والجزر اليومي والشهري والسنوي، راجع ما ذكره المقريزي في الخطط، ج١، ص ٥٤-٥٥.

(٥٢)المنوفي: الفيض المديد في أخبار النيل السعيد، ص ١٧-١٨؛ راجع أيضا الخطط، ج١، ص ٦٧-٦٨.

(٥٣)النيروز : كلمة فارسية معربة ، وأصلها في الفارسية نوروز معناها اليوم الجديد.

(٥٤)مؤلف مجهول : ذكر ما جاء في النوروز (تحقيق عبد السلام هارون ، نوادر المخطوطات ، ج٢ ، سلسلة الذخائر، العدد٧١ ، القاهرة ٢٠٠١م)،ص٥٥.

(٥٥)المقريزي: الخطط، ج١، ص ٤٩-٥٠؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٦٩.

(٥٦)المقريزي: الخطط، ج١ ، ٥٦.

(٥٧)المقريزي، ج١، ص ٥٦-٤٦؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١، صـــ ٦٢٤؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٦٤؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٤٨، يذكر الدكتور محمد عوض محمد "أنه يوجد بعض البحيرات في منطقة منابع النيل الاستوائية أشبه بالمستنقعات لكثرة الأعشاب والنباتات المائية بها، وتقلة عمقها وانخفاض مستواها عن مستوى

بحرة فكتوريا، لذلك يتغير لون المياه بها إلى اللون الأخضر"، وهذا الرأي يتفق إلى حد كبير مع ما ذكره المسعودي سابقا. محمد عوض محمد: نهر النيل، ص ٤٩-٦٣.

(٥٨)مروج الذهب، ج١، ص ٣٥٢؛ الأقفهسي: أخبار نيل مصر، ص ٦٥.

(٥٩)ابن معصوم (علي صدر الدين أحمد) (ت ١١٢٠ هـ)، رحلة ابن معصوم المدني: سلوة الغريب وأسوة الأديب(تحقيق : شاكر هادي، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٨م)، ص ١٥٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٤.

(٦٠)السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٤.

(٦١)المقريزي: الخطط، ج١، ص ٥٢-٥٣.

(٦٢)أوليلچلبي، سياحتنامه مصر، ص ٤٣٠.

(٦٣)أ

(٦٤)ناصر خسرو علوي: سفرنامة (ترجمة: يحيى الخشاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد ١٢٢، القاهرة ١٩٩٣م)، ص ٩٦.

(٦٥)ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٦٦)ابن معصوم: الرحلة، ص ١٥٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٤.

(٦٧)المقريزي: الخطط، ج١، ص ٤٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٠٢-٣٠٣، السيوطي: الكلام على النيل، ص ١٣-١٩؛ كوكب الروضة، ص ٤٩-٥١؛ الأقفهسي: أخبار نيل مصر، ص ٣٧-٤٠.

(٦٨)ابن الظهيرة: الفضائل الباهرة ، ص ١٦٩؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص ٤٩-٥٠-٦٠؛السيوطي : بلبل الروضة ، ص٢٨٧

(٦٩)الشوكاني (محمد بن علي) (ت ١٢٥٠ هـ): الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة(تحقيق: عبد الرحمن اليماني، الطبعة الأولى، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٩٠م)، ص ٤٣٦.

(٧٠)السيوطي: كوكب الروضة، ص ١٠٤(.

(٧١)ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٤٧.

(٧٢)ابن معصوم: الرحلة، ص ٣١٢.

(٧٣)السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٧٩.

(٧٤)المقريزي: الخطط، ج١، ص ٥٠ ؛ السيوطي: كوكب الروضة، ص ١١٥؛، النويري: نهاية الأدب، ج١، ص ٢٦٣ .

(٧٥)ابن الأخوة (محمد بن أحمد القرشي) (ت ٧٢٩ هـ): معالم القربة في أحكام الحسبة(طبعة كمبردج ١٩٣٧م)، ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٧٦)السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٦؛ الهروي: الإشارات، ص ٤١.

(٧٧)السيوطي: كوكب الروضة، ص ١٤٥؛ حسن المحاضرة ج٢، ص ١٨٨.

(٧٨)السيوطي: كوكب الروضة، ص ١٤١؛ حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٨؛ القزويني: عجائب المخلوقات، ص ١٠١.

(٧٩)المقريزي : الخطط ،ج١ ، ص٦٦؛ عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ٨٥.؛ أوليلچلبي: نسياحتنامه، ص ٤٤٤.

(٨٠)عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ٨٨؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٥٦؛ المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٢٠٨.

(٨١)ابن حوقل : صورة الأرض، ص ١٥٧.

(٨٢)المقريزي : الخطط ، جـ١ ،ص٢٨؛ القزويني : عجائب المخلوقات، ص ١٦٩؛المسعودي: مروج الذهب و ج١ ، ص٣٥٦.

(٨٣)المقريزي : الخطط ، جـ١، ص٦٦؛ المسعودي: مروج الذهب و ج١ ، ص٣٥٦.

(٨٤)القزويني : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، ص١٦٩.

(٨٥)يوجد نظائر لخاصية أسماك النيل التي تحدث عنها القزويني في وقتنا الحاضر فيظهر سمك يسمي بـــ (سمك الحريد) في سواحل جزيرة فرسان بالبحر الأحمر[أحدى الجزر التابعة لمنطقة جازان السعودية] ومن الغريب أن هذا السمك لايظهر إلا في فترة واحدة من كل عام في الفترة الواقعة بين شهري إبريل ومايو ، وظهوره يكون في الصباح ومن النادر جداً خروجه إلى الشاطئ بعد الظهر و ويقوم العامة بصيده بأيديهم أو بواسطة أسياخ حديدية مدببه و ، ومن الحكايات الشعبية التي تشاع حول(الحريد) لدي أهل الجزيرة أن هذه الأسماك قادمة من بلاد الهند وأن أسماكاً أخرى تختلف عن أسماك الحريد تسمي (الحماميق) ومفردها (حُمَيقة) تظهر عند الهنود في نفس الموسم تهديها شواطئ جزيرتهم إلى الشواطئ الهندية مقابل ما تهديه شواطئ تلك البلاد إلى

سكان هذه الجزر. انظر :إبراهيم عبد الله مفتاح:فُرَسَان الناس والبحر والتاريخ (الطبعة الثانية ، شركة المدينة المنورة للطباعة ، جازان ٢٠٠٥م)، ص١٢٥-١٢٧.

(٨٦)التعميد هو أول الطقوس المسيحية وأهمها على الإطلاق، فبدونه لا يمكن أداء باقي الطقوس الأخرى فهو شرط أساسي للخلاص ودخول ملكوت الرب طبقاً لكلمات عيسي ابن مريم ﷺ: «ما من أحد يمكنه أن يدخل ملكوت الله إلا إذا ولد من الماء والروح» (يوحنا ٥:٣) ويجري أثناء التعميد تجديد روح المولود من خلال غمره في الماء ثلاثا باسم الأب والابن والروح القدس وبذلك يكون قد توحد مع المسيح وهيئة الكنيسة ويجب تعميد المواليد في أسرع وقت ممكن بمجرد بلوغهم ثمانين يوما للبنات وأربعين يوما للغلمان، وبعد غمر المولود في الماء ثلاثا ترسم شارة الصليب اثنين وثلاثين مرة بالزيت على بشرة المولود ذكرا كان أم أنثى.

الفصل التاسع

وصف الرحالة لطرق الحج والتجارة في مصر

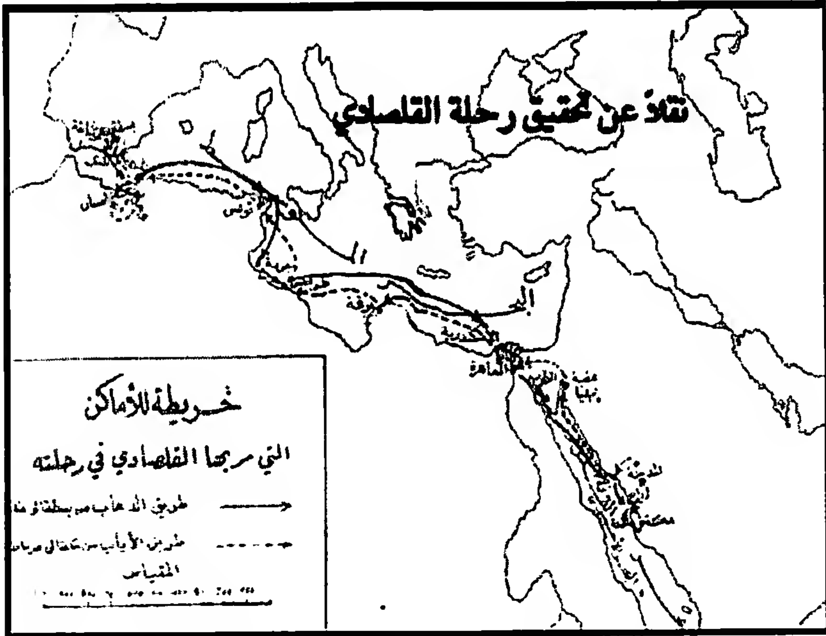
إن أحد الأغراض الرئيسية من تدوين مذكرات غالبية رحالة القرنين السادس والسابع الهجريين هو إطلاع مواطنيهم على طرق الحج إلى مكة المكرمة ووصف أحوال هذه الطرق وما يقابله المسافر فيها، ولذا حرص بعض الرحالة على تدوين طرق حجهم وعودقم بل أنهم أزجوا النصح لمواطنيهم أي الطرق يسلكون في حجهم بعد أن مروا بتجارب عديدة على طول خط الرحلة.

ويتضح لنا أن الرحالة الذين زاروا مصر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين تابعوا خطا الحجاج والرحالة من قبلهم في وصف مدن مصر وطرق الحج والتجارة في ظل الظروف والأحداث المحدقة بالمنطقة العربية، وما كان يتم من تحسين للخدمات في طرق مصر التجارية، وقدموا صورة واقعية للإجراءات الأمنية على طرق الحج والتجارة في مصر، وهدف الكثير من الرحالة إلى إرشاد من يقرأ مذكراقم وقد تحدثوا عن الطرق الصالحة للسفر والأحوال السياسية والأمنية على طول خط الرحلة في مصر.

وقد هيأ لمصر بموقعها الجغرافي أن تتصل في سهولة ويسر مع جيرانها سكان الجزيرة العربية ثم بلاد الهند والصين عبر المحيط الهندي وقد نوه بذلك الرحالة و المؤرخون العرب عندما وصفوا مصر بأنها: (.. فرضة الدنيا يحمل خيرها إلى ما سواها فساحلها بمدينة القلزم يحمل منه إلى الحرمين واليمن والهند والصين وعمان والسند. إلخ..)[1] إضافة لذلك كانت التجارة عموماً من العوامل الهامة التي أدت إلى نشأة المدن واعتبرت من المعايير التي تميزها ومن هنا برزت أهمية اختيار المدينة على الطرق الرئيسية وتوسط هذا الموقع ليقرب من أطراف التبادل التجاري فينعكس ذلك على اقتصادها رخاء وثراء

وهكذا كان موقع القاهرة ومن قبلها عواصم مصر الإسلامية الفسطاط والعسكر والقطائع. هو ضرورة أملته الظروف الجغرافية وحددته عند ملتقى طرق عدة ذلك أن طريقين رئيسيين يعتبران من أهم طرق العالم القديم كانا يلتقيان عنده وكان أحدهما يتجه من الشرق إلى الغرب ماراً ببغداد ودمشق والواحات الموجودة في الصحراء الغربية وليبيا وبلاد المغرب والآخر كان يصل البلاد الأوروبية الواقعة على شواطئ البحر المتوسط ببلاد السودان وشبه الجزيرة العربية والهند والشرق الأقصى، ولم تستطيع هذه الصحاري المحيطة بالقاهرة أن تحد وتقلل من نشاط تدفق الناس عليها فأصبحت خدمة القوافل التجارية المارة بالقاهرة من أهم وظائفها.

فعندها تتجمع ثم تبدأ بعد ذلك في الانتشار في مختلف من وبلدان العالم القديم، وكذلك أثبت التاريخ أن جوهر كان موفقاً في اختيار موقع القاهرة حيث يضيق عند مجرى النيل، وحيث تتخلل الجزر المكان الذي تشرف عليه القاهرة والتي هي أشبه بممر طبيعي يسهل للناس الانتقال من ضفة إلى أخرى ويهون عليهم أمر ذلك كثيراً.[٢]



وامتد تأثير الطرق المؤدية للمدينة في تحديد اتجاهات أبوابها فقد وجدت الأبواب الرئيسية في أسوار القاهرة في سوريها الشمالي والجنوبي وهما الاتجاهان الرئيسيان في حركة المرور القادم إليها أو الخارج منها ارتباطاً بحركة المرور في الوادي كله.(٣)

وحددت أهمية الطرق البحرية مواقع كثير من المدن الإسلامية وإذا كان الاتجاه في بداية الأمر في اختيار مواقع المدن البعيدة عن ساحل البحر خوفاً من اغتيال الأعداء لها كما حدث في الفسطاط (٤).فقد ذكر القزويني بأن عمرو بن العاص قال لأصحابه: (.. أين تريدون أن تنزلوا ؟ قالوا: يا أيها الأمير نرجع إلى فسطاطك لنكون على ماء وصحراء فرجعوا إليها وخط كل قوم بها خطاً بنوا فيها وسمي بالفسطاط.. فلما كانت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة قدم صلاح الدين وأمر ببناء سور على الفسطاط والقاهرة ...)(٥) وأشار البغدادي إلى أن أرض مصر هي: (.. واد يكتنفه جبلان شرقي وغربي والشرقي أعظمهما يبتديان من أسوان ويتقاربان باسنا حتى يكادا يتماسان ثم ينفرجان

قليلاً قليلاً وكلما امتد طولاً انفرجا عرضاً حتى إذا حاذيا الفسطاط كان بينهما مسافة يوم فما دونه)[٦]

وقد ذكر المقريزي في خططه أن عمرو بن العاص: (لما فتح الإسكندرية رأي بيوتها وبنائها مفروغاً منها هم أن يسكنها وقال مساكن قد كفيناها، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بيني وبين المسلمين ماء. قال نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل فكتب عمرو إلى عمرو أني لا أحب أن تنزل بالمسلمين متر لا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف فتحول عمرو من الإسكندرية إلى الفسطاط..)[٧]

وكان لانتشار الإسلام في مصر وشمال إفريقيا وزيادة عدد سكان مصر وتوالي الهجرات عليها واستقبالها لرحلات الهروب العديدة والزيادة المطردة في أعداد من اعتنق الإسلام في جميع أنحاء العالم وبروز ثقل مصر في العالم الإسلامي من الناحية السياسية والثقافية حتى وصفها ابن بطوطة بقوله: (وهي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأرضية المتناهية في كثرة العمارة... تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها... قهرت قاهرتها الأمم وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم..)[٨]

وأدى كل هذا إلى تدفق الحجيج والتجار بأعداد كبيرة من المغرب مروراً بالأراضي المصرية مما أوجب فرض عناية خاصة بطرق الحج والتجارة وتنبه الناس إلى ضرورة المحافظة على مظهر الطريق الذي يسلكونه ووصفه والمحافظة عليه[٩] فكان النابهون منهم يدونون مشاهداتهم ويعملون على أن ينفعوا المؤمنين بتجاربهم فيصفون رحلاتهم تسجيلاً لفضلهم وهداية لغيرهم ولفتاً لنظر أولي الأمر إلى ما يجب إصلاحه.[١٠]

ونجد الجغرافيون والرحالة قد كتبوا ودونوا الكثير من المعلومات عن الطرق الرئيسية التي تربط أقاليم المدن المصرية والطرق الثانوية الفرعية وما عليها من محطات رئيسية ومنازل ومناهل وفي بعض الأحيان وضع الرحالة والجغرافيون المسلمون

المسافات التي تفصل هذه المحطات بعضها عن بعض وقد حددت المسافات بالأميال والفراسخ أو بنظام المرحلة وهي المسافة التي قطعها المسافرون على مدى يوم كامل.

ومن خلال ما دونه رحالة القرنين السادس والسابع الهجريين نجد أن عيذاب قد أخذت بعد انتقال الدولة الفاطمية إلى مصر أي منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري تقوم بدور رئيسي في تجارة الشرق الأقصى والبحر الأحمر فضلاً عن كونها قاعدة للبحرية المصرية في البحر الأحمر تنطلق منها جيوش وأساطيل مصر والخلافة لتأمين هذه المنطقة من عدوان ملك البجة ولضمان تبعيتها لسلطان مصر وعبر هذه التبعية ناصر خسرو الذي زار مصر ومكث فيها ثلاث سنوات[١١] (٤٣٩هـ – ٤٤٢ هـ / ١٠٤٧ – ١٠٥٠ م) ووصل إلى عيذاب ومكث فيها ثلاثة أشهر من العام الأخير وذلك في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله وقال في وضوح أن: (.. مدينة عيذاب تابعة لسلطان مصر)[١٢]

وفي القرن السادس الهجري نرى الإدريسي المتوفى (عام ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م) يقول أن مدينة عيذاب يتولها عامل من قبل رئيس البجة وعامل من قبل ملك مصر يقتسمون جبايتها بنصفين(١٣) وعادت سيطرة مصر كاملة على ميناء عيذاب مرة أخرى في عهد بني أيوب وقد أشار لذلك ابن جبير المتوفى عام ٦١٤ هـ / ١٢١٧م الذي وصل عيذاب في عهد صلاح الدين[١٤] وفي عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ – ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م) استطاع سلاطين المماليك إحكام قبضتهم على عيذاب منذ عهد الظاهر بيبرس[١٥].

ويرجع تطور ميناء عيذاب في القرن السادس الهجري أساساً لسياسة الفاطميين من قبل في حسن معاملة التجار الأجانب والترحيب بهم وتوفير الأمن والاستقرار في دولتهم التي سيطرت بسيادتها على المغرب ومصر والشام والحجاز على هذه المنطقة الإستراتيجية الهامة في المشرق والمغرب والتي تتحكم في تجارة المرور بين الشرق الأقصى وأوروبا(١٦) وازدادت أهميتها ابتداء من سنة ٤٦٠ هـ بسبب شدة المستنصرية وخراب الوجه البحري وتحول قوافل التجارة وركب الحجاج المصريين والمغاربة من طريق شبه جزيرة سيناء وشمال الحجاز إلى طريق النيل من الفسطاط حتى فقط أو قوص



ومنها كانوا يعبرون الصحراء الشرقية إلى عيذاب ومن عيذاب يعبرون البحر الأحمر إلى جدة بواسطة الجلاب.(١٧)

وترتبط قوص بعيذاب بطريقين أولهما يعرف بطريق العبدين وهو الطريق الذي سلكه ابن جبير أثناء رحلته في الصعيد الأعلى وهو أقصر مسافة من الطريق الثاني المعروف بدون قنا وهو طريق يمر على شاطئ النيل، وقد حفظ لنا ابن جبير وصفاً للأماكن التي مر بها في طريق العبدين فذكر من: (..المبرز في قوص موضع بقبلي البلد قريب منه فسيح الساحة محدق النخيل تجمع فيه رحال الحجاج والجار ويوزون فيه ما يحتاج وزنه على الجمالين ويرحلون منه إلى موضع يعرف بالحاجر تبيت فيه القافلة... وقلنا بموضع يعرف (بقلاع الضياع) ثم كان المبيت بموضع يعرف (بمحط اللقيطة).. فنزلنا على ماء ينسب للعبدين.. والقصد إلى (عيذاب) من قوص على طريقين: أحدهما يعرف بطريق العبدين وهي هذه إلى سلكنها وهي أقصد مسافة والأخرى طريق دون مرية وهي قرية على شاطئ النيل..)[١٨]ويصف الرحالة ابن جبير حالة الأمن في هذا الطريق بأنها كانت على خير وجه قائلاً: (أنك تلقي بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها.. فتبقى بمكانها إلى أن يتسلمها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المار عليها من أطوار الناس..)[١٩]

واهتم المؤرخون والجغرافيون والرحالة من العرب وغيرهم بذكر حلقات من تاريخ أسوان والمنطقة التي في شمالها حتى مدينة قوص ولكن أهميتها لم تأت بسبب قربها من الحدود الجنوبية للديار المصرية فحسب بل زاد من أهميتها عامل ميل العرب إلى السفر عن طريق البر إلى الحجاز والإقلال بقدر الإمكان من السفر بطريق البحر ومن ثم أخذ العرب بعد الفتح الإسلامي يتخذون تلك المنطقة معبراً إلى ساحل بحر القلزم أي البحر الأحمر ومنه إلى الحجاز إذ يقول المقريزي: (كان يسلك من أسوان إلى ميناء عيذاب على بحر القلزم ومنها إلى الحجاز واليمن والهند..) ويروى عن المسعودي أنه كتب يقول:(ومدينة أسوان يسكنها خلق من عرب قحطان ونزار ابن ربيعة ومضر وخلق كثير من قريش وأكثرهم من الحجاز..).

وكان لتعرض أسوان والمنطقة التي في شمالها حتى مدينة قوص لغارات النوبة والبجة داعياً لأن يتخذ المسلمون حيطتهم بتشييد القلاع والحصون على حدود مصر الجنوبية فجعلوا لهم بجزيرة تعرف (ببلاق) بينها وبين أسوان أربعة أميال وكانت حصناً جليلاً للمسلمين على حد قول المقريزي قرب الجنادل، وفيها إناس كثيرون.[٢٠] لهذا كان الرحالة والحجاج التجار يسلكون نفس هذا الطريق في العودة كما أن قوافل التجارة اليمنية والحبشية والهندية كانت تأتي إلى مصر بهذا الطريق أيضاً.[٢١]

وقد استمر استخدام الحجاج المصريين والمغاربة لهذا الطريق زيادة على مائتي سنة إلى كانت سنة ٦٦٦ هـ في عهد الظاهر بيبرس الذي زار مكة المكرمة بعدما استرد أيلة من أيدي الصليبيين سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) فسار بطريق أيلة سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م - ١٢٦٨م عن طريق سيناء إلى وديان الحجاز وكانت هذه المسافة أقصر وتأخذ في الذهاب والعودة ثلاثة وعشرين يوماً حتى يزيح الخوف من قلوب الناس ويطمئنهم على خلو الطريق من الصليبيين وصارت آيلة طريقاً للحج منذ تلك الفترة حتى سنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٨٥ م فعاد الطريق البحري والإبحار من السويس إلى جدة[٢٢] إضافة أن الحروب الصليبية التي كان عاملاً من عوامل نجاح طريق عيذاب قوص كانت قد خف حدتها فعادت المياه إلى مجاريها وانتشر الأمن في الطريق الشمالي ابتداء من سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨م [٢٣] وبرغم ذلك ظل هذا الطريق يحتفظ ببعض الحيوية إلى أن أمر السلطان برسباي بتخريب عيذاب في سنة ٨٣١ هـ / ١٤٢٧م[٢٤]

وقد ذكر إبراهيم رفعت باشا (١٢٧٣ - ١٣٥٣ هـ / ١٨٥٧ - ١٩٣٥م): (مكث حجاج مصر والمغرب يحجون من سنة بضع وخمسين وأربعمائة إلى سنة ست وستين وستمائة أي من سنة الفتنة التي كانت في عهد الخليفة المستنصر بالله أوبي تميم.. وانقطع الحج إلى السنة التي كسا فيها الملك الظاهر بيبرس البندقداري الكعبة). [٢٥] كذلك أحس الرحالة ناصر خسرو بالأمن في طريق عيذاب وسجل هذا الانطباع في قوله: (.. أما الأمن الذي رآه هناك فإنني لم أره في بلد من قبل..)[٢٦]

وكان مرسى عيذاب شبه جزيرة صغيرة المساحة ويشبهها ابن دقماق بالضيعة[٢٧] ويصف الحميري مساكنها، فيذكر أن أكثر بيوتها أخصاص وفي موضع آخر يذكر أن بعضها من حجارة[٢٨].واستمر طريق قوص – عيذاب – جدة الطريق الرئيسي لحجاج مصر والمغرب زيادة عن مائتي سنة على الرغم من الأخطار والأهوال التي كان يتعرض لها الحجاج في قطعهم لهذا الطريق في الذهاب والعودة في الطريق من قوص إلى عيذاب وكان الحجاج يقطعونه في سبعة عشر يوماً وفيه كان يفتقد الحجاج الماء ثلاثة أيام متتالية وتارة أربعة.[٢٩]

وقد عانى الحجاج من أهل عيذاب ووضح ذلك ابن جبير بقوله: (.. ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت..)[٣٠] أوجز ابن جبير طريق العودة من جدة إلى عيذاب فيصفه: (.. والركوب من جدة إليها آفة للحجاج عظيمة إلا الأقل منهم ممن يسلمه الله عز وجل..)[٣١] وقد سلك ناصر خسرو الطريق من أسوان إلى عيذاب. في حين سلك ابن جبير الطريق من قوص إلى عيذاب ونلاحظ أن عدد المترددين من الحجاج على طريق قوص – عيذاب – جدة ازداد زيادة ملموسة منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وطوال القرن السادس الهجري وأصبحت عيذاب بالضرورة أهم المنافذ المصرية المطلة على البحر الأحمر للعبور إلى جدة[٣٢] وآثر الحجاج والتجار طريق قوص لأنها أصبحت المركز الإداري والعسكري للصعيد الذي يكفل الأمن للقوافل التي تخرج منها إلى عيذاب بينما كان أسوان أكثر عرضة للخطر القادم من الجنوب وبلاد البجة ولان واديها ضيق[٣٣] رغم أن أبا الفداء قد وصف طريق أسوان عيذاب بأنه خالي من الجبال المعترضة وأسهل من الطريق الذي يربط قوص بعيذاب[٣٤]. ويلاحظ بالنسبة للرحالة والحجاج المغاربة أن طريق الجنوب احتفظ بقيمة روحية لديهم فكانوا يحرصون بعد مغادرة القاهرة في طريقهم إلى الصعيد على زيارة أسكر وهي القرية التي قيل أن بها ولد موسى بن عمران عليه السلام وداره بها وموضع ولادته تزار من الأطراف[٣٥].

ونجد الإدريسي يشير إلى أن: (أهلها أخلاط والغالب عليهم أهل المغرب..)[٣٦] إضافة لازدياد أهميتها التجارية بين الشرق والغرب بعد غزو المغول لغرب آسيا في القرن السابع الهجري حيث تعطل الطريق التجاري البري من وسط آسيا وأصبح طريق البحر الأحمر من أكثر الطرق أمناً لبعده عن ميادين الحرب بين المغول والمماليك[٣٧].

إلى أن وضع الظاهر بيبرس يده على بلاد الحجاز وعلى محطات الطريق التجاري عبر البحر الأحمر وسار للحج عن طريق الشمال وهو نفس الطريق الذي سلكه الرحالة في تلك الفترة وفي مقدمتهم الرحالة العبدري الذي سافر لتأدية فريضة الحج سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م واتخذ في رحلته طريق إفريقيا الشمالي إلى الإسكندرية ومنها بالطريق البري إلى مكة ودون أخبار رحلته وأشار فيها إلى مواطنه ابن جبير الذي سلك الطريق الجنوبي قوص – عيذاب – جدة [٣٨]

وبدأت أهمية طريق أواسط سيناء (درب الحج) تظهر حيث سلكته شجرة الدر في طريقها للحج سنة ٦٤٨ هـ فقد جاء وصف المحمل الذي احتفل به لأول مرة احتفالاً رسمياً في عهد السلطانة شجرة الدر ما يلي إن أعظم ما اشتمل عليه موكب الحج الشريف المصري هو كسوة الكعبة وكانت الكسوة عرض فترة عشرة أيام في الحرم الحسيني وفي اليوم الحادي عشر يخرج المحمل في احتفال رسمي حتى يصل طريق درب الحج في مصر (هو بركة الحج) غير أن أهمية (درب الحج) بدأ رسمياً عندما ستر السلطان الظاهر بيبرس قافلة في هذا الطريق معها المحمل إلى الأراضي الحجازية وكانت قوافل الحجاج تحرسها جنود وعساكر السلاطين وقد اعتنوا بإصلاح طريق الحج كما أنشأوا فيها الخانات وكذلك القلاع والحصون وشحنوا بالعساكر والعتاد تأميناً للطريق ولم يتفهم الاهتمام بحفر الآبار وبناء البرك لسقي الحجاج وركائبهم[٣٩] ويبدو أن الاهتمام بهذا الطريق تفاوت بين الحين والآخر واتضح من ذلك من حديث طافور عن رحلته إلى

سيناء فقال: (ثم رحلنا عن القاهرة واجتزنا صحراء مصر التي لا حياة فيها ولقينا في ذلك مشقة كبرى واكتنفنا الخطر الجسيم).[٤٠]

ومن المعلوم أن الدول الإسلامية المستقلة التي قامت في مصر حرصت دائماً على بسط نفوذها السياسي والديني على الحرمين فدعى لحكام الدولة الطولونية والأخشيدية والفاطمية والأيوبية على منابر مكة والمدينة وكان أحرى بالسلطان بيبرس الذي قام بإحياء الخلافة العباسية في مصر وقام بحمايتها والذود عنها أن يقوم بحماية بيت الله الحرام في مكة وضريح الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة.[٤١]فذهب بيبرس بنفسه إلى الحجاز لتأكيد سلطانه على تلك البلاد من ناحية ولتأدية فريضة الحج من ناحية أخرى في سنة ٦٦٧ هـ فسار بطريقة آيلة عن طريق سيناء إلى شعاب ووديان الحجاز ليطمأن الناس على خلو الطريق من الصليبيين فعاد الطريق البحري والإبحار من السويس لجدة[٤٢].

ويبدأ هذا الطريق من مدينة الفسطاط، حيث يتجمع الحجاج من جميع أمصار شمال إفريقيا والأندلس وبعد الخروج من الفسطاط يتجهون إلى البركة، ثم يرحلون من البركة إلى السويس ومنها نخل بسيناء[٤٣] وهذه القرية هي منازل لبني مرة بن عوف ويوجد بها آبار وبرك من الماء يستقي منها الحجاج[٤٤] ثم يرحل الحجاج إلى آيلة (العقبة) مسيرة عشرة أيام[٤٥] وهي مدينة على شاطئ البحر في منتصف ما بين مصر ومكة[٤٦] وتقع على ساحل بحر القلزم وهي بلدة على ساحل البحر الأحمر قرب آيلة[٤٧] وكان الحجاج يقيمون في آيلة يومين لوجود أسواق قديمة بها ويتوفر في آيلة المأكل والمشرب[٤٨] وقد وصف العبدري حجم قوافل الحجاج السالكة لهذا الطريق بالضخامة فيقول: (كان الركب في هذا العام قليلاً يتعجب الناس من قله بسبب خروج السلطان إلى جهاد عكة[٤٩] وذكر لي بعض من حج قبل هذا العام أنه أحصى في بعض الأعوام ما في الركب من الجمال فوجدت ثمانين ألف راحلة دون الدواب..)[٥٠] ومن آيلة يرحل الركب إلى حقل وهي مدينة تقع على ساحل بحر القلزم أيضاً وبها ماء عذب ثم يرحلون بعد ذلك

متجهين إلى مدين وبها ماء عين مغارة ويقيمون فيها ويتزودون بمائها[٥١] ويواصلون مسيرتهم إلى مكة.

وقد وصف أو إسحاق الحربي (ت ٢٧٤هـ) طريق الحجاج الشمالي في مصر بأنه يبدأ من: (... الفسطاط إلى الجب ومن الجب إلى الحضر ومن الحضر إلى البويب ومن البويب إلى منزل أم سعد ومن منزل أم سعد إلى عجرود ومن عجرود إلى القلزم ومن القلزم إلى الكرسي ومنها إلى الحفر ومنها إلى النخل ومنها إلى آيلة ومنها يفترق طريق الساحل والبرية فطريق البرية من آيلة إلى شرق البعل ومنها إلى مدين... أما طريق الساحل من آيلة إلى عينونا ومن عينونا إلى المصلى ومن المصلى إلى البنك ومن البنك إلى ظبة ومن ظبة إلى المرة....)[٥٢].

وكان طريق الحج العيذابي معروفاً (منذ بداية القرن الثالث الهجري لا سيما عند الحجاج المغاربة وكذلك الشأن بالنسبة لطريق القلزم وإن كان يلي في الأهمية الطريق البري عبر سيناء وطريق عيذاب وذلك لطول المسافة البحرية التي تقطعها السفن من القلزم إلى موانئ الحجاز وما يترتب على ذلك من المخاطر[٥٣]، ولم يصبح الطريق السنائي صالحاً للعبور إلى الحجاز إلا بعد أن عقد صلاح الدين مع الصليبيين اتفاقية الصلح التي وقعت في الرملة في ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ هـ[٥٤] وإذا كان قسم من حملة توران شاه إلى اليمن قد استخدم هذا الطريق في سنة ٥٦٩ هـ، فماذا كان الفرنج يستطيعون عمله أمام قوة عسكرية في إمكانها الدفاع عن نفسها وإذا كان المرور عبر العقبة قد تحقق مع قوة عسكرية فإن استخدام هذا الطريق السيناتي طريقاً تسلكه قوافل الحج لم يكن مأموناً بسبب القلاع الصليبية المتناثرة في الأطراف الجنوبية من الأردن وفلسطين في الكرك والشوبك وقلعة وادي موسى بالبتراء القريبة من خليج العقبة[٥٥] وأثبتت قلعة وادي موسى فعاليتها سنة ٥٧٨ هـ عندما نجح أرناط في تسيير بعض سفنه في خليج العقبة والإبحار جنوباً إلى عيذاب ومهاجمتها ونهب ما كان بها من بضائع

وحرق مراكب الحجاج والتجار وأحدثوا حوادث شنيعة حتى أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وإخراجه من الضريح المقدس(٥٦).

وبعد تحول طريق الحج إلى سيناء في ستينات القرن السابع الهجري بدأ سلوك الحجاج طريق قوص – عيذاب – يقل حتى اقتصر على نقل التجارة الشرقية من عيذاب إلى قوص(٥٧) ومع ذلك فقد ظل الحجاج المصريين والمغاربة يستخدمونه حتى وقت متأخر، مثال ذلك ما فعله الرحالة ابن بطوطة وغيره إذا سلك هذا الطريق في عام ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م للوصول إلى بلاد الحجاز(٥٨).

ووصف الرحالة الطرق التي سلكوها في رحلاتهم بدءاً من مركز الابتداء إلى محط الانتهاء فكان منهم من اقتصر على ذكر المنازل المختلفة في الطريق والمسافة بين كل مترلتين متعاقبتين وحال الحياة الموجودة في هذه المنازل لشدة الحاجة إليها أو فعل ذلك في بعض مراحل رحلته على حين أطال بل استطرد البعض إلى أشياء أخرى في غيرها(٥٩). وكانت الحاجة ماسة إلى تعيين محطات القوافل على طرق الحج الموصلة إلى مكة وكانت مادة هذه الأوصاف الخاصة بطرق المسافرين موفورة إلى حد ما في دواوين الحكومة تكملها أوصاف الرحالين فقد كانوا على الخصوص يعودون من رحلاتهم بمعلومات جديدة عن الممالك البعيدة عن شواطئ المحيط الهندي وفي جزائره البعيدة والكثيرة.(٦٠)

أما عن الماء – عصب الحياة – فقد حرص المماليك على توفيرها طوال الطريق إلى الحجاز والعمل على حفر الآبار وصيانتها وجعلها صالحة لخدمة المسلمين خاصة تلك التي كانت تصادف ركب الحج في أماكن ومحطات استراحة الحجاج للتزود منها بما يلزمهم من الماء العذب.وفي الطريق السينائي كان أول ما يقابله ركب الحج من تلك الآبار في عقبة آيلة بعد مسيرة ستة أيام من القاهرة حيث يستريح الركب بها يومين أو ثلاثة والموقع التالي لحط الرحال وأخذ قسط من الراحة في عيون القصب بعد مسيرة خمسة أيام حيث يتوافر بها ماء جار عذب وبعد مسيرة خمسة أيام أخرى يتوقف الركب

في الوجه للتزود منها بمائها العذب الطيب كما يتوقف الركب في الحوراء بعد مسيرة ثلاثة أيام ثم التزود بالماء في المغيرة على مسافة يومين ثم ينبع على مسافة يومين ومنها الدهناء مسيرة نصف يوم وبها ماء طيب ثم تصل القافلة إلى بدر وبها ماء عذب ومنها إلى رابع مسيرة ثلاثة أيام ليبدأ الحجاج في الإحرام وحظيت الآبار الموجودة في هذه الأماكن بالاهتمام والصيانة من جانب سلاطين المماليك حرصاً على توفير المياه لركب الحج(٦١).

**ومن وصف الرحالة لطريق رحلاتهم تتضح بعض الحقائق الآتية:

نجد عدم استطاعة عيذاب أن تنمو بعد أن حلت محل القلزم لفقدها الظهير الحي الذي يساندها وتطرف موقعها بعيداً عن العمران.

ويتشابه الطريقان بين قوص وعيذاب والمنطقة بين البركة والسويس فكان حجاج الطريقين يقيمون على الطريق حيثما توفر الماء العذب والغذاء الصالح ويبكرون بالرحيل كلما قل الماء أو ساءت الطبيعة وتشابه الطريقان في تعرض الحجاج لمضايقات واعتداءات الأعراب ومعاناة الحجاج في فترات مختلفة من فرض المكوس والإتاوات العالية عليهم وكان ضيق الحجاج والرحالة يقل كلما اهتمت السلطة بترضية قبائل الأعراب بالأعطيات والأموال أو توفير الحماية العسكرية للحجيج من رعاياها.

كما برزت ظاهرة زيادة إيجار الدواب من قبل الأعراب إلا منذ القرن الخامس الهجري وقد استمرت هذه المساوئ من الأعراب تجاه الحجاج إلى أن قام صلاح الدين في القرن السادس الهجري بأبطال المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج وأغدق الأعطيات على أهل عيذاب الذين كانوا يتحكمون في نقل الحجاج برفع زيادة إيجار الجلاب غير أن هؤلاء الأعراب كانوا يعودون إلى المغالاة في أخذ الأجور من الحجاج والإساءة إليهم عندما كانت تنقص أعطياتهم أو عندما كانت لا تصل إليهم(٦٢).

وكان لوجود بيئة غنية في وادي النيل أثر في اضمحلال النشاط الرعوي وتضاؤل مظاهر الحياة على الطريق الصحراوي في مصر شمالاً وجنوباً وقد وضح ذلك من خلال

مشاهدات أغلب رحالة العصور الوسطى.إضافة لما سبق كانا الطريقان بين قوص و عيذاب والبركة والسويس قاصرين على الآبار ولا عمارة فيهما على حد قول ابن جبير والعبدري، وقد حرص كلاهما على تعيين مواضع الآبار في هذه الطرق وحالة المياه.

ونلاحظ فقدان المسلمين لسيطرتهم على البحر المتوسط بينما عادت أوروبا إلى مد نفوذها عليه في القرنين السادس والسابع الهجريين، ففي رحلة ذهاب وإياب ابن جبير كانت السفن المستخدمة تابعة لجنوة كما كانت أغلب السفن المارة بعضها تابع للدولة البيزنطية ولم يشير إلى أي منها كان تابعاً للمسلمين وأشار لازدهار موانئ صقلية وعكا وصور، فيقول: (.. والفينا بها مركباً للروم الجنوبيين مقلعاً إلى الإسكندرية.... فلا نميز شرقاً من غرب مركبا للروم قصدنا إلى أن حاذانا فسئل عن مقصده فأخبر أنه يريد جزيرة صقلية وأنه من قرطاجنة...)[٦٣] وفي رحلة العودة يقول: (... ثم هبت علينا الريح الغربية من مكمنها دافعة في وجه المركب فأخذ رئيسه ومديره الرومي الجنوي، وكان بصيراً بصنعته حاذقاً في شغل الرياسة البحرية)[٦٤]

ويتضح ضيق الرحالة العرب والمسلمين من فقدان المسلمين لسيطرتهم على البحر المتوسط ومن ذلك اختفاء تسميته ببحر الروم كما كان شائعاً فاكتفى ابن جبير بتسميته بالبحر بدون تعيين وأشار إليه العبدري بـــ (بحر الغرب).وفي خلال القرن السادس الهجري ظهرت محاولة الصليبيين لمد نفوذهم في البحر الأحمر، وقيامهم بأعمال القرصنة فيه، وتصدت السلطات المصرية لكل هذه المحاولات التي كان من بين أهدافها تهديد الأماكن المقدسة في مكة والمدينة والعبث بالضريح المحمدي.

وتدل أقلام الرحالة على تأثر طرق الحج والتجارة والموانئ المصرية بالأحداث والظروف السياسية في المنطقة العربية ففقدت القلزم أهميتها كميناء أولي على البحر الأحمر خلال القرن السادس الهجري، وتحولت التجارة والمسافرون إلى عيذاب ثم عاد مرة أخرى بستعيد حيويته تدريجياً خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري.

ونجد تقليص تسمية (بحر القلزم) عند رحالة القرنين السادس والسابع الهجرين واستخدام عدة أسماء أخرى لهذا البحر عند ابن جبير والعبدري مثل بحر فرعون وبحر عيذاب وبحر جدة ولم يستخدم ابن جبير عبارة بحر القلزم إلا قليلاً كنية لطرفة الشمالي بينما أطلق عليه العبدري اسم بحر الشرق.

وبرغم التهاب الظروف السياسية في المشرق العربي طوال القرنين السادس والسابع الهجرين وتخلخل النظام الأمني على طرقها بالأمن والأمان وانعكس ذلك في أغلب كتابات رحالة تلك الفترة.ولسوف نجد أنه قد لفت انتباه الرحالة ازدهار التجارة الداخلية والخارجية في مصر في أوج التصادمات العسكرية في عصر الحروب الصليبية بسبب حرص كل من المسلمين والصليبيين على الموارد التي توفرها لهم عائدات التجارة، وقد أثار ذلك انتباه الرحالة المسلم (ابن جبير) في القرن السادس الهجري فقال أن: (.. اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع... والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال وأهل الحرب منشغلون بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب..)(٦٥) كما لاحظ الرحالة انتشار الأمن في ربوع مصر خاصة في منطقة الصعيد الأعلى مما كان عاملاً أساسياً للرخاء الذي ساد أنحاء الإقليم فضلاً عما كان التهديد الصليبي في شمال مصر نتائج إيجابية على نمو حركة التجارة في الإقليم.

أحوال طريق الحاج المصري من القرن الأول الهجري إلى القرن السابع الهجري

التاريخ	بعض ملاحظات على أحوال طريق الحاج المصري	المصدر
٧٩ هـ	تضرر حجاج الركب المصري بسبب هطول أمطار كثيرة في طريق ركبهم.	تاريخ الطبري / جـ ٦، صـ ٥٥٣
٩١ هـ	أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بتعبيد طرق ركب الحاج المصري وحفر الآبار في بعض القرى على هذا الطريق.	ابن الأثير / الكامل، جـ ٤، صـ ٥٥٤
٩٧ هـ	أمر الخليفة سليمان بن عبد الملك عامله في مصر	ابن الأثير / الكامل،

	بتوزيع المال على الحجاج القاصدين مكة	جـ ٥، ص ٢٦
٩٩ هـ	أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بتجديد تعبيد طريق ركب الحاج المصري	الطبري: تاريخ جـ ٤، ص ٥٣٣
١٠٤ هـ	أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك بحفر الآبار في طريق ركب الحاج المصري.	الطبري: تاريخ جـ ٧، ص ٢١
١٣٥ هـ	أمر الخليفة أبو العباس السفاح بإصلاح طريق الراكب المصري وحفر الآبار في منطقة الوجه لأنه علم بأن الأعراب منعوا الحجاج من شرب الماء العذب.	الطبري: تاريخ جـ ٧، ص ٢١
١٣٧ هـ	أمر الخليفة جعفر المنصور عامله على مصر بتوزيع أعطيات للأعراب القاطنين بطريق الركب المصري وأمر ببناء المساجد في هذا الطريق.	ابن الأثير: الكامل جـ٥: ص ٤٨٠
١٦١ هـ	أمر الخليفة المهدي عاملة في مصر بناء محطات في طريق الحاج المصري كما أمر بتعبيد الطرق وبتوزيع أموال على الأعراب الموجودين على طريق الحاج المصري.	ابن الأثير: الكامل جـ ٦، ص ٥٠
١٦٥ هـ	أمر المهدي صاحب البريد بإقامة محطات للبريد في طريق الحاج المصري ووزع فيها البغال والحمير الخاصة بهذا الغرض.	المسعودي: مروج الذهب، جـ ٢، ص ٢٤٩
١٧٠ هـ	أمر هارون الرشيد عاملة في مصر بإصلاح طريق الحاج المصري وبتوزيع أموال على الأعراب القاطنين في هذا الطريق.	الأنصاري الجزيري:درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٨٤هـ

		صـ ٢١٩،
٢٠٩ هـ	كان والي مكة صالح بن العباس قد كتب إلى المأمون يستأذنه في حفر الآبار وعمل البرك في طريق ركب الحاج المصري ولقد تم عمل بركة في السويس حيث أن حجاج المركب المصري لم يجدوا ماء في السويس في السنوات التي قبلها.	الجزيري / درر الفرائد صـ ٢٢١
٢٦٠ هـ	أصلح والي مصر أحمد بن طولون طريق ركب الحاج المصري ووزع الأعطيات على أعراب الطريق.	ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١ صـ ٦٩
٣٤٣هـ	حج بالناس محمد بن عبد الله العلوي ومن مكة أحمد بن الفضل بم عبدالله الهاشمي و جرى بين المصريين والعراقيين قتال بسبب الخطبة ، وكان الغلب لأصحاب معز الدولة فخطب بمكة والحجاز لمعز الدولة ولركن الدولة وبعدهما لابن طغج ومنع أصحاب معز الدولة أصحاب الأخشيد من الصلاة بمنى والخطبة ومنع أصحاب الأخشيد أصحاب معز الدولة من دخول مكة والطواف.	الجزيري: درر الفرائد صـ ٢٤٣
٣٤٤هـ	حج بالناس من بغداد محمد بن عبد الله العلوي وفيها اتفق أمير مصر وأمير بغداد على إفراد الخليفة بالخطبة وترك ابن بويه وابن الأخشيد وكان أمير بغداد محمد بن عبد اللهالعلويفمكر بهم وحضر حول الخطيب باستعداده فخطب لابن بويه وتمت الحيلة وعاقب كافور أمير الحج المصري وأغرقه.	الجزيري: درر الفرائد صـ ٢٤٤
٣٥٥هـ	نهبت بنو سليم حاج مصر والشام وكانوا عالمًا	الجزيري: درر

	كثيراً وأخذ جميع ما كان معهم من الأموال وكان معهم من الأموال وكان ما لا حد له ».	الفرائد صـ ٢٤٤
٣٦٣ هـ	اهتم الخليفة المعز لدين الله الفاطمي بطريق الحاج المصري وقام بتوزيع أعطيات على سكان هذا الطريق كما شملت أعطياته سكان مكة أيضاً.كما قام المعز لدين الله الفاطمي بتسليط بني هلال وغيرهم على الركب العراقي فقتل منهم خلق كثير ، وأقيمت الدعوة بالحرمين للمعز لدين الله وقطعت خطبة بني العباس	الجزيري: درر الفرائد صـ ٢٤٦
٣٦٤ هـ	خرج بنو هلال وطائفة من الأعراب على الحجاج فقتلوا خلقاً كثيراً وعطلوا من بقى منهم عن الحج في ذلك العام.	السيوطي: حسن المحاضرة جـ٢، صـ ٢٨٠
٣٦٧ هـ	قام أمير الحاج المصري الأمير باديس بن زيري بقطع أيدي اللصوص الذين ابتزوا الحجاج في ذلك العام.	السيوطي، جـ ٢، ص ٢٨١
٣٨٤ هـ	انفرد بالحج أهل مصر ولم يحج ركب العراق والشام لعدم أمان طريقهم.	السيوطي: حسن المحاضرة حـ ٢، صـ ٢٨١
٣٨٥ هـ	لم يحج ركب العراق والشام لعدم أمان الطريق وحج ركب الحاج المصري وكذلك الحال في سنة ٣٩٢ هـ لعيث الأعراب بالفساد في الطريق وكذلك ٣٩٣ هـ	السيوطي: حسن المحاضرة حـ ٢، ص ٢٨١
٣٩٧ هـ	انفرد المصريون بالحج ولم يحج أهل العراق لفساد الطريق بالأعراب وكسا الحاكم الكعبة القباطي البيض وكذلك في سنة ٣٣٩ هـ وكذلك في سنة ٤٠١ هـ	السيوطي: حسن المحاضرة جـ ٢ – صـ ٢٨١، ٢٨٢

٤١٠ هـ	في عهد الحاكم بأمر الله أعيد إصلاح طريق الحاج المصري	الجزيري: درر الفرائد صـ ٢٥٢
٤١٩ هـ	انقطع الحج في هذه السنة ولم يحج أحد من أهل المشرق ولا من أهل الديار المصرية.	السيوطي: حسن المحاضرة جـ ٢، صـ ٢٨٥
٤٢٠ هـ	حج أهل مصر دون غيرهم.	السيوطي: حسن المحاضرة جـ٢، صـ ٢٨٥
٤٢١ هـ	قطع على حجاج مصر الطريق وأخذت الروم أكثره	السيوطي: حسن المحاضرة جـ ٢، صـ ٢٨٥
٤٦٢ هـ	اعتدت قبائل حرب المقيمة في الجوف على ركب الحاج المصري ومنعوا حجاج الركب من شرب الماء	الجزيري: درر الفرائد جـ٢، صـ ٢٥٦
٤٨٦ هـ	انفرد المصريون بالحج وسنتين بعدها	السيوطي: حسن المحاضرة جـ٢، صـ ٢٨٩
٥١٢ هـ	اعتدت القبائل العربية (حرب) على حجاج الركب المصري وقطعوا عليهم الطريق ومنعوهم من دخول مكة المكرمة.	الجزيري: درر الفرائد: أتعاظ الحنفا، صـ ١٠٥
٥٤٥ هـ	اعتدت القبائل العربية على ركب الحجاج المصري واستولوا على أموالهم وهلك من الحجاج عدد كبير وفر البعض الآخر ووصلوا للمدينة	الجزيري: ددر الفرائد صـ ٢٦٠، التوفيقات الإلهامية صـ ٥٧٧
٥٥٠ هـ	أرسل الخليفة الفائز بنصر الله ووزيره الصالح طلائع بن رزيك إلى قاسم بن فليته شريف مكة	المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ ٣،

	مائة أردب من القمح عن طريق ناصر الدولة وإلى قوص.	صـ ٢٢٨
٥٥٣ هـ	علم حجاج الركب المصري بتربص الأعراب لهم فغيروا طريقهم وإن وجودوا صعوبة في ذلك ولكنهم نجحوا	الجزيري: درر الفرائد، صـ ٢٦١
٥٥٥ هـ	حج أسد الدين شريكوه مع حجاج الركب المصري ووزع على الأعراب أعطيات كثيرة ،وتصدق وفعل كل خير وأغنى أهل الحرمين وأمر ببناء رباطه في المدينة المنورة وأوصى إذا مات أن يحمل ويدفن فيه	أبو الفداد: المختصر في تاريخ البشر جـ٢ صـ ٤٢، الجزيري: درر الفرائد ، صـ٦٩٢
٥٦٠ هـ	اعتدى الأعراب البدو على ركب الحاج المصري وقطعوا الطريق وسلبوا الأموال والمتاع	الجزيري: درر الفرائد، صـ ٢٦٣
٥٦٩ هـ	أوقف صلاح الدين ناحية نقادة من أعمال قوص بناحية الصعيد الأعلى وثلث ناحية سندبيس من القليوبية على ٢٤ خادماً لخدمة الضريح النبوي.	المقريزي: السلوك جـ ١، صـ ٥٧
٥٧٢ هـ	أبطل صلاح الدين المكوس المأخوذة من الحجاج في البحر إلى مكة عن طريق عيذاب وهي سبعة دنانير مصرية ونصف على كل إنسان وعوض أمير مكة عن هذا المكس بألفي دينار وألف أردب قمح سوى إقطاعات بصعيد مصر واليمن وأرسل الأعطيات والصدقات لتوزيعها على سكان القرى المجاورة لمكة ولسكان مكة وقررت للمجاورين غلات تحمل إليهم.	المقريزي: السلوك جـ ١، صـ ٦٤ – جـ ٣ صـ٩٧، ٩٨ / ابن جبير: الرحلة صـ ٥٣، ٥٤، ٥٥ / ابن شداد: سيرة صلاح الدين، صـ ١١٢، ابن كثير: البداية جـ ١٢ صـ ٨٢٥

٥٧٧ هـ	أمر صلاح الدين والي قوص في سنة ٥٧٧ هـ بإبطال المكوس التي تستأتى من الحجاج وتجار اليمن وهي مكوس كانت تفرض على الحجاج في ديوان منية ابن الخصيب وأخميم وقوص كزكاة وفقاً لما ذكره ابن جبير وأصبحت الزكاة قاصرة على تجار عيذاب ممن فيهم واجب الذمة ولكن يبدو أن الأمر الصادر بإبطال المكوس لم ينفذ بدليل تحدث ابن جبير عن هذه المكوس أثناء مروره بهذه المدن في رحلته للحج عبر طريق قوص – عيذاب.	المقريزي: السلوك جـ١، صـ ٧٤ / ابن جبير: الرحلة صـ ٦٤: ٦٦ / الأسعد بن مماتي: قوانين الدواوين، صـ ٣٢٧
٥٧٨ هـ	اعترض أرناط الحجاج في عيذاب وأحرق نحو الستة عشر مركباً وأخذ مركب للحجاج وقافلة كبيرة وقتلوا الجميع وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار اليمن وأحرقوا أطعمة كثيرة على الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة.	ابن جبير: الرحلة صـ ٩٥، ٦٠ / الجريري: الإعلام والتبيين، صـ ٨١، ابن كثير: البداية جـ ٢، صـ٨٣٧، صـ ٨٣٩
٥٨٠ هـ	تابوتي نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وأسد الدين شيركوه نقلاً للمدينة المنورة عن طريق قوص – عيذاب.	المقريزي: السلوك جـ ١، صـ ٨٧ وما يليها.
٥٨٠ هـ	في ٢٢ من المحرم ٥٨٠ هـ ورد الخبر بغرق أربعة جلاب كانت تحمل ١٣٠٠ حاج هلكوا جميعهم	المقريزي:السلوك جـ١، صـ ٨٧
٥٨٢ هـ	اعتدى عبيد الأشراف أمراء مكة على حجاج الركب المصري وقطعوا عليهم الطريق ونهبوا أموالهم	الجريزي: درر الفرائد، صـ ٢٦٦
٥٨٣ هـ	طلب السلطان صلاح الدين عساكر النواحي	الجريري: الإعلام

	ليحمي الحجاج من اعتداءات الفرنج على طريق الحج.	والتبيين، صـ ٨١
٥٨٨ هـ	عقد صلاح الدين صلح الرملة وأصبح الطريق السيناني صالحاً للعبور	المقريزي: السلوك جـ ١، صـ ١١٠
٥٩٢ هـ	ورد الخبر بأن قوص وأعمالها فيها أمراض فاشية وأموات لا تتلاحق فخرج الشريف ابن ثعلب في ١٤ شوال سنة ٥٩٢ هـ سائراً بالحجاج وخيم على سقاية ريدان سالكاً الطريق الشمالي.	المقريزي: السلوك جـ١، صـ ١١٠، ١٣٣
٦٤٨ هـ	أرادت شجرة الدر الحج وفضلت الذهاب عن طريق البر فأمرت بإصلاح الطريق وحفر الآبار وبناء البرك على طول درب الحاج المصري وقامت بتوزيع الهدايا على الأعراب القاطنين بطريق الحاج المصري وتعتبر أول من أعاد استخدام الطريق السيناني من السلاطين. وهي أول ملكة مصرية تكسو الكعبة المشرفة عندما ذهبت لأداء فريضة الحج ، وهو العام الذي بدأ فيه الاحتفال بالمحمل السلطاني ، وتولت مصر منذ ذلك الوقت تكاليف الكسوة السنوية للكعبة	العيني:عقد الجمان ، ج١ ،ص٣٦٤،المقريزي: السلوك جـ ١، صـ ٧٥ / محمد إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ١، صـ ٦٩، محمد لبيب: الرحلة الحجازية، صـ ٣١
٦٤٩ هـ	أدى الأمير حسام الدين أبو علي فريضة الحج عن طريق عيذاب.	المقريزي: السلوك جـ ١، صـ ٣٨١
٦٥٨هـ	أرسل بيبرس بعثة لتعمير قلعة السويس لتكون على أهبة الاستعداد ضد تدخل سلاطين اليمن في شئون الحجاز ولتكون مفتاح الطريق البري عبر شبه جزيرة سيناء لتأمين الحجاج والتجار.	ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧، صـ ١٩٤.
٦٦٠ هـ	أسقط بيبرس المكوس في عيذاب وعين عليها والياً من قبله لتشجيع التجار للتردد على مصر.	المقريزي: السلوك جـ١ صـ ٤٣٧ /

		ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٢ صـ ٤٠٢
٦٦١ هـ	رأى بيبرس ضرورة الاستيلاء على حصن الكرك الذي كان بيد الأمير المغيث عمر بن العادل بن الكامل بن أيوب لتأمين التجارة والحج لتحكمه في الطريق البري عبر الوادي الواقع شرق صحراء سيناء وتأمين حدود مصر الشمالية. وكسا الملك الصالح بيبرس الصالحي الكعبة الشريفة وهو أول من كساها من ملوك الترك بمصر.	ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧، صـ ١٩٢
٦٦٢ هـ	كلف بيبرس الخازندرا والي قوص للتوجه بحملة لتأديب حاكم سواكن بسبب عرقلته للتجار والحجاج فتوجه والي قوص إلى عيذاب ثم إلى سواكن.	المقريزي: السلوك جـ ١، صـ ٥٠٦ / ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٧ صـ ١٣٨
٦٦٥هـ/٦٦٦هـ	سعى بيبرس لطرد الصليبيين من ميناء آيلة الواقعة على رأس خليج العقبة وأمر بإقامة القلاع والمحطات والخانات وحفر الآبار لتوفير الماء لارتواء التجار والحجاج والدواب وتأمين هذا الطريق وأخرج قافلة الحج عبر شبه جزيرة سيناء وبدأ سلوك الحجاج لصحراء عيذاب يقل.	أبو الفداء: تقويم البلدان صـ ٨٦ / المقريزي: الخطط جـ١، صـ ٣٥٧/ إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ٢ صـ٣٠٦ / الخطط التوفيقية جـ١، صـ ٨٤
٦٦٧ هـ	قام بيبرس بأداء فريضة الحج وتصدق السلطان بمال عظيم في الحرم الشريف على الفقراء	المقريزي: السلوك جـ١، صـ ٥٨٠

	والمجاورين وفرق كساوي على أهل الحرم وصار كواحد من الناس لا يحجبه أحد ولا يحرسه.	– ٥٨١؛ الجزيري: درر الفوائد،صـ٢٨٣
٦٦٧ هـ	أنعم بيبرس على أمير مكة وأغدق عليه وكذلك عمه لتأكيد سلطانه عليهما جميعاً وعدم التعرض للحجاج والتجار وإقامة الخطبة باسم بيبرس وضرب السكة وغسل الكعبة بيديه وأرسل الكسوة إلى الكعبة.	المقريزي: السلوك جـ ١، صـ ٥٨١ / الخطط: جـ١ صـ٢٠٢ / النويري: نهاية الأرب، جـ٣، صـ ١٦٦، ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر صـ٨٩
٦٦٨هـ	حج بالناس أمير يقال له التنيسي ، وجاء بكسوة الكعبة من جهة الظاهر صاحب مصر	الجزيري: درر الفرائد صـ ٢٨٣
٦٦٩هـ	لم يحج أحد من مصر ، وحج ركب كبير من بغداد	الجزيري: درر الفرائد صـ ٢٨٣
٦٧٠ هـ/ ٦٧١هـ	هاجم دواد ملك النوبة عيذاب لسلب التجار والحجاج في سنة ٦٧٠ هـ ثم أعاد الهجوم في العام التالي سنة ٦٧١ هـ على كل من أسوان والقوصية فخرب ما فيها من أسواق وعاد ببعض الأسرى.	مفضل ابن أبي الفضائل: النهج السديد والدرر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد صـ ٣٧٥، العيني: عقد الجمان، صـ ١٠٥
٦٧٤هـ/٦٧٥هـ	أرسل حملة بقيادة الأمير قراسنقر لتأديب ملك النوبة وتسليم عمه شكندة كل ما يتم فتحه من	مفضل ابن أبي الفضائل: النهج

	بلاد النوبة وإطلاق سراح الأسرى وحملت أمتعة الملك داود وعبيده للسلطان وتأمين طرق التجارة والحج.	السديد ٣٩٨ / ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ ٧ صـ ٤٧ / النويري: نهاية الأرب جـ ٢٨، صـ ٢٥٩
٦٧٥ هـ	استحدث الظاهر بيبرس دوران المحمل الرجبي لأعلام الناس أن الطريق من مصر إلى الحجاز آمن ولعدم التخوف من الطريق.	السيوطي: حسن المحاضرة جـ٢، صـ٢٩٦ / علي مبارك: الخطط التوفيقية جـ١ صـ٢٩ ابن أياس: بائع الزهور جـ٢، صـ٨٨، ٣٠١
٦٨٠ هـ	أمر السلطان قلاوون الشريف علم الدين صاحب سواكن بأن يوفق بين عرب جهينة ورفاعة خوفاً من فساد الطريق والاعتداء على قوافل الحج والتجارة.	المقريزي: السلوك، جـ١ صـ٧٠٠ / ابن الفرات جـ٨ صـ٧٣، ٧٤ / الأدفوي صـ١٥٠، ١٥١
٦٨١ هـ	طافوا بكسوة ولعبت مماليك المنصور بالرماح والسلاح.	السيوطي: حسن المحاضرة جـ٢، صـ ٢٩٧
٦٨٦ هـ	جهز السلطان قلاوون حملة سنة ٦٨٦ هـ بقيادة الأمير أيدمر المسروري لإخضاع ملك النوبة	المقريزي: السلوك، جـ١ صـ٧٣٦،

	لاعتدائه على القوافل.	٧٣٧
٦٨٧ هـ	أصدر المنصور سيف الدين قلاوون مرسوم أمان من إنشاء محيي الدين بن عبد الظاهر سيرة مع التجار الذين يصلون إلى مصر من بلاد الهند والصين وفارس والعراق والحجاز واليمن وبلاد الفيوم.	القلقشندي: صبح الأعشى جـ١٣، صـ ٣٤٠: ٣٤٢
٧٠٠هـ	زُينت مصر والقاهرة بسبب دوران المحمل وكسوة البيت والحجرة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام كما جرت به العادة من ركوب القضاة والأمراء والمقدمين وجميع العسكر وجميع الخطباء والأئمة والمؤذنين والقراء والوعاظ وجميع أرباب الدولة بمصر والقاهرة قدام المحمل الشريف والسبيل السلطاني ، وكان يوماً مشهوداً ، وتولى إمرة الحاج في هذه السنة الأمير الكبير سيف الدين بكتمر الجوكندار أمير خازندار الملكي المنصوري ، واهتم الأمير المذكور في هذا السفر للحج ،وأنفق من ماله نحو خمسة وثمانين ألف دينار مصرية.	الأنصاري الجزيري:درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٨٤هـ ، صـ٦٩٤.

هوامش الفصل التاسع

(١) المقريزي: الخطط جـ ١، مصدر سابق، صـ ٢٨.

(٢) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، س عالم المعرفة ع ١٢٨، الكويت ١٩٨٨، ص ٩٩.

(٣) المرجع السابق، صـ ١٠٠.

(٤) المرجع نفسه، نفس الصحة.

(٥) القزويني: آثار البلاد، مصدر سابق، صـ ٢٣٦.

(٦) البغدادي: الإفادة والاعتبار، مصدر سابق، صـ ٥٥.

(٧) المقريزي: الخطط جـ ٢، صـ ٧٥.

(٨) ابن بطوطة: الرحلة جـ ١، مصدر سابق، صـ ٢٥، صـ ٢٦.

(٩) سعد عبد العزيز بعد الراشد: درب زبيدة طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة دراسة تاريخية وحضارة أثرية، ط أولى دار الوطن للنشر والإعلام، الرياض، ١٩٩٣، صـ ٢٧، صـ ٢٨.

(١٠) زكي محمد حسن: الرحالة والمسلمون، مرجع سابق، صـ ٧.

(١١) رجب محمد عبد الحليم: ميناء عيذاب ووادي العلاقي وأثرهما في علاقة مصر بالسودان نهاية القرن ٩ هـ / ١٥ م، سلسلة تاريخ المصريين، ع ١٦٤، القاهرة ١٩٩٧، صـ ٢٦٢.

(١٢) سفر نامه: مصدر سابق، صـ ١٣٣.

(١٣) نزهة المشتاق: جـ ١، صـ ١٣٤: ١٣٥.

(١٤) ابن جبير: الرحلة، طبعة مصر، صـ ٦٥، - رجب عبد الحليم: ميناء عيذاب، مرجع سابق، صـ ٢٦٤.

(١٥) النويري: مصدر سابق، جـ ٣، صـ ٣٤٤ - ٣٤٩.

(١٦) أحمد دراج: عيذاب، مجلة نهضة إفريقية، السنة الأولى، العدد التاسع، يوليو ١٩٥٨م.

(١٧) ناصر خسرو: سفر نامه، صـ ٧٢.

(١٨) ابن جبير: الرحلة، مصر، صـ ٦٨: ٧١.

(١٩) المصدر السابق: صـ ٧٢.

(٢٠) فريد شافعي: العمارة العربية، مرجع سابق، صـ ٥٣٣، صـ ٥٣٥.

(٢١) محمد عبد القادر موافي: المنشآت المعمارية، رسالة ماجستير، مرجع سابق، صـ ٧٥.

(٢٢) نعوم شقير: تاريخ سيناء، صـ ٢٦٢.

(٢٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧، صـ ١٩٤، - نعوم شقير: تاريخ سيناء، صـ ٦٣.

(٢٤) المقريزي: الخطط، جـ ١، صـ ٣١٦ - القلقشندي، صبح الأعشى جـ ٥، صـ ١٧ - أبو الفداء: معجم البلدان، صـ ٨٥.

(٢٥) إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين، الجزء الثاني، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٤٤ صـ ٣٠٦.

(٢٦) ناصر خسرو: سفر نامه، صـ ٦٢.

(٢٧) ابن دقماق: الانتصار، ق١، صـ ٣٥.

(٢٨) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، صـ ٤٣٢.

(٢٩) ابن جبير: الرحلة صـ ٣٧، ٤١ – المقريزي: الخطط، جـ ١ صـ ٢٠٢.

(٣٠) المصدر السابق، صـ ٦٥.

(٣١) المصدر نفسه، صـ ٦٤.

(٣٢) Garcin (Jean claude) un centre musulman de la haute Egypt Medievale: Ques, pub. Institut Francais d' Archeologie orientale du Caire, t. vl, 1976. P. 96 – 98.

(٣٣) السيد عبد العزيز سالم: البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٣، صـ٥٥.

(٣٤) أبو الفداء: مصدر سابق، صـ ١٠٥.

(٣٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان جـ ١، صـ ١٨٢ – الهروي: الإشارات صـ ٤٢ ،

(٣٦) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ ١، صـ ١٢٩.

(٣٧) محمد الأشقر: تجار التوابل، مرجع سابق، صـ ٢٩٠.

(٣٨) زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون، صـ ١٣٢.

(٣٩) محمود عبد الرازق عوض: سيناء في مختلف العصور، ط ٢، القاهرة ١٩٩٩ م، صـ ٢٠٨ – ٢٠٩.

(٤٠) رحلة طافور: مصدر سابق، صـ ٧٥.

(٤١) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، صـ ١١١.

(٤٢) محمد عبد القادر موافي: المنشآت المعمارية، صـ ٧٦.

(٤٣) الجزيرة الأنصاري (عبد القادر بن محمد) (٩١١ – ٩٧٧ هـ / ١٥٠٦ – ١٥٧٠م): درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، المطبعة السفلية، القاهرة ١٣٨٤ هـ، صـ ٤٤٩.

(٤٤) ياقوت الحمدي: معجم البلدان، جـ ٥، صـ ٢٧٤.

(٤٥) العبدري: الرحلة، صـ ٣٣٤.

(٤٦) ياقوت: المعجم، جـ ١، صـ ٢٩٢.

(٤٧) المصدر السابق: جـ ٤، صـ ٣٨٧.

(٤٨) المصدر السابق: جـ١، صـ ٢٩٢.

(٤٩) عكة: مدينة ساحل بحر الشام من عمل الأردن وهي مدينة حصينة لها سور (ياقوت جـ٤ / ١٧٣).

(٥٠) العبدري: الرحلة، صـ ٣٣٥.

(٥١) الجزيري: درر الفرائد، ص ٤٥٠.

(٥٢) أبو إسحاق الحربي ت ٢٧٤ هـ: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والنشر، الرياض ١٩٦٩، صـ ٦٤٩: صـ ٦٥١.

(٥٣) السيد عبد العزيز سالم: البحر الأحمر، مرجع سابق، صـ ٥٠.

(٥٤) المقريزي: السلوك، جـ ١، صـ ١١٠.

(٥٥) السيد عبد العزيز: المرجع السابق، صـ ١٧٤.

(٥٦) Garcin, op. cit. p. 136

(٥٧) ابن جبير: الرحلة، طبعة مكتبة مصر، صـ ٥٩، ٦٠.

(٥٨) السيد عبد العزيز سالم: مرجع سابق، صـ ٦١.

(٥٩) رحلة ابن بطوطة: صـ ٧١ - الادفوي، صـ ١٠٠، ١٠١، ٥٢٤.

(٦٠) حسين نصار: أدب الرحلة، مرجع سابق، صـ ١١٤.

(٦١) دائرة المعارف الإسلامية، طبعة الشعب، المجلد الثاني عشر، صـ٨٧.

(٦٢) العبدري: الرحلة صـ ١٥٧ - ١٦٥، محمد محمد التهامي: الإصلاحات المملوكة في الأراضي الحجازية، مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الحادية عشرة، الرياض ١٩٨٥، صـ ٨٧.

(٦٣) ابن جبير: الرحلة صـ ٧٣: ٧٨ - العبدري: الرحلة صـ ٣٢٩: صـ ٣٣٥.

(٦٤) المصدر السابق، صـ ٢٩٥.

(٦٥) رحلة ابن جبير، نشر مصر، صـ ٢٦٠، وانظر: قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، مرجع سابق، صـ ٢١٥.

الخاتمـــــــــــــــــــة

تلك كانت رؤية الجغرافيين والرحالة العــرب والمــسلمين للعمــران المــصري في القرنين السادس والــسابع الهجــريين ، وبعــد دراســة العمــران في كتابــات رحالة تلك الفترة تتمخض الدراسة بــبعض النتــائج والملاحظــات الهامــة الــتي تشير إلى أن العمران هو أحد الموضــوعات الجغرافيــة الــتي لا نــستطيع تفــسير الكثير من ظواهره الحاضرة إلا من خلال دراسة عمليــة التطــور الــتي مــر بهــا وعمران الحاضر يكتسب عمقاً ومعني بالرجوع إلى عمران الماضي.

وقد أعانت مذكرات وكتابات الرحالة في تلــك الفتــرة علــى تقــديم المــادة الأولية الوافرة للجغرافية الاجتماعية لمصر بعد تأصل الحضارة العربيــة فيهــا ممــا يساعد بالتالي على تفسير بعض ملامح الشخصية الحــضارية الخاصــة بهــا فــضلاً عما قدمته هذه المذكرات والكتابــات مــن تقــديم صــورة جليــة للطبوغرافيــة التاريخية بمصر آنذاك والمزج الدقيق بين الجغرافيــا والتــاريخ في تناســق حيــوي وهام.

ويتضح من هذه الدراسة ـــ التي فوق راحة اليــد الآن ـــ أن مــصر ضــمت العديد من المعالم العمرانية المتباينة المولــد المختلفــة النــشأة ، فمنــها العريقــة ، ومنها المعاصرة للفترة قيد البحث كمــا أنهــا تــضم المراكــز الحــضرية وكــذا الريفية وتاريخ مصر بوصفه سلسلة يتــصل فيهــا الماضــي والحاضــر بالمــستقبل يرسم ويحدد لنا البنيــان الاجتمــاعي والاقتــصادي للعمــران في مــصر خــلال هذين القرنين ، وأن دراسة هذا البنيــان في المراحــل التاريخيــة الــسابقة توضــح أبعاد الظاهرة المدروسة وهي العمران من خلال رؤية الآخر له.

وألقت هذه الدراسة الضوء على مساهمات رحالة القرنين السادس والسابع الهجريين في وصف ورصد النمو الحضاري لمصر في فترة الحروب الصليبية والتي كان للعمران فيها دوراً استراتيجياً في جعل مصر تمثل أحد أهم خطوط الدفاع الحضاري أمام الغزو الغربي والأوروبي ، وقدمت كتاباتهم إشارات هامة للعمران ودوره السياسي والحربي مثل الجسور والأسوار والقلاع وقد تركزت هذه الإشارات على وصف مظهرها الخارجي وحصانتها من عدمها وبداية انتشار هذا النوع من العمران في مصر بداية القرن السادس الهجري.

وإذا قيل أن القرن الرابع الهجري يمثل قمة ازدهار الحضارة العربية فإن العمران كان لا يزال في تطور حتى القرن السادس الهجري حيث لاحظ الرحالة آنذاك ازدهار العمارة والفنون الإسلامية في هذا العصر مثل تشييد عدد كبير من الأبنية المتنوعة الأغراض مثل الجوامع والمدارس والأضرحة والحمامات والوكالات والأسبلة والكتاتيب حتى ذاع بناء المدافن الكبيرة في القرن التالي له.

وأوضحت في هذه الدراسة رؤية الرحالة لتطور ونمو مدلولات السكن واستقرار الحضرية عند العرب الفاتحين وتطويعهم للغة بما يلائم واقعهم الجديد وهو ما يحاوله الجغرافيون اليوم من البحث عن كلمات للدلالة عن واقع تغير ومظاهر جديدة ومستويات للعمران لم تعرف من قبل.ونلاحظ خلال كتابات الرحالة من العرب والمسلمين وضعهم تصور للتخطيط المادي للمدن المصرية بعد تطبعها بالطابع العربي الإسلامي مع احتفاظها بالروح

المصرية السابقة عن الفتح الإسلامي في توائم فريد أدى لتمييزها عن غيرها من مراكز الاستيطان التي صنفها الرحالة تصنيفاً دقيقاً والتي أمكن تحديد هذه المعايير كالسياسي منها وما يرتبط به من وجود السلطة الإدارية والقضائية وكبر المساحة وكثافة السكان ووجود الأسواق وتوافر المرافق العامة كالحمامات والمساجد الجامعة ومصادر مياه الشرب إضافة للعوامل الأخرى المساعدة على ازدهار حياة المدن المصرية وأمنها كالأسوار.

ويلاحظ من خلال هذه الدراسة أن أغلب المقاييس التي استعملها الرحالة لتمييز المدن والقرى في مصر متقاربة وتزيد القرى في ذلك بكثرة البساتين والنخل والمياه والفواكه وكانت القرى إذا زاد حجمها وزاد فيها العمل الحضري على العمل الريفي ربما استحالت إلى مدينة أو قرية جامعة أقرب للمدن منها إلى القرى بيد أن أهم سمات المدن في رأي الرحالة المسلمين وجود جامع ومنبر يميزها عن القرية غير أن الدراسة لم تفصل بين المدينة والقرية في مصر بل ذهبت إلى توثيق العلاقة بين المدينة والريف في مصر بل أن دراسة المدينة تعد منافصة ما لم تدرس علاقة المدينة بإقليمها وريفها المحيط غير أن الدراسة أوضحت ما أشار إليه الرحالة إلى ما اختصت به المدن والأمصار الإسلامية في مصر بمؤسسات دينية ودنيوية ميزتها عن القرى والريف كالمساجد الجامعة والحمامات والأسواق والحوانيت والمصانع والأسوار إضافة لبعض المؤسسات الإدارية كدواوين الحكومة.

كذلك فإن الرحالة الذين زاروا مصر في العصور الوسطى – وما أكثرهم في القرنين السادس والسابع الهجريين من الشرق والغرب – بسواء أدركوا

أهمية نهر النيل في توثيق العلاقة بين الريف والمدينة المصرية وأثره في عمرانها فكتبوا عنه الكثير وعن المدن والقرى المتراصة على ضفتيه واصفين العمران فيهما.وأظهرت الدراسة ما كتبه الرحالة في القرنين السادس والسابع للهجرة عن أثر الغارات الصليبية المتقطعة على مدن مصر الساحلية من تدهور متباين في أحوال بعضها وتأثير ذلك على مدن مصر الساحلية من تدهور متباين في أحوال بعضها وتأثير ذلك على استغلال بعض الأنظمة الحاكمة لهذه الاعتداءات كزريعة لتطبيق إجراءات أمنية صارمة في الثغور والموانئ المصرية تميزت بالصلف والقسوة في معاملة كل قادم إلى مصر مما أدى إلى ترك انطباع سيء لدى بعض الرحالة الذين زاروا مصر في العصور الوسطى.

وساهمت الدراسة في إيضاح وجود علاقة بين زيادة العمران والرخاء والترف وبين قلته والبؤس والضيق وتدرج الحال من الرخاء إلى الشدة حسب درجة العمران إضافة إلى أن التدهور السكاني يؤدي إلى تدهور عمراني بالمدن التي تفقد الظهير الحي المساند لها ومثال ذلك مدينة عيذاب المصرية التي لم تستطيع أن تنمو وتكبر بعد أن حلت محل القلزم لفقدها الظهير الحي الذي يساندها وتطرف موقعها وبعدها عن العمران.

وأبرزت أقلام الرحالة اختلاف الأهداف التي أنشئت من أجلها بعض المدن في مصر ، فمنها ما بدا على هيئة معسكرات حربية ثم تطور إلى هيئة مدينة مثل الفسطاط ومنها ما أنشئ كعواصم وحواضر للدولة الحاكمة كالقاهرة ، فضلاً عما اتضح لنا من الإحساس الطاغي لدى رحالة القرنين السادس والسابع الهجري بإيجابية عاصمة مصر عند زيارتهم لها حيث كانت

العاصمة المصرية من أكثر المدن حديثاً ووصفاً بعد الإسكندرية باعتبارها قلب مصر سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وحضارياً وعمرانياً. ورغم إشارتهم لما لعبته بعض الأقاليم من أدوار تاريخية مرموقة ووصفهم للمكونات العمرانية بها غير أن الواضح أن هذه الأقاليم وما لعبته من أدوار إنما لعبته بصفتها أقاليم حدود وتخوم معرضة للأخطار الخارجية ، أم الأقاليم العادية في كتابات الرحالة فليس لها تاريخ تقريباً واقتصر وصفهم لهذه الأقاليم سريعاً ولم يقف أغلب الرحالة أمام عمران الأقاليم مثلما وقف كل منهم مشدوداً مشهوداً أمام عمران العاصمة المصرية.

وتتبعت الدراسة ما سطرته أقلام الرحالة عن مكونات المدن المصرية والتي جاء البعض منها وليد الظروف والأحداث السياسية والحربية في المنطقة وبداية ظهور أنواع جديدة من العمران في مصر بداية من القرن السادس الهجري وتطوره في القرن السابع للهجرة وتأثر هذه المكونات بزيادة رحلات الهروب والتضخم السكاني بمصر ونتيجة الظروف الداخلية والخارجية آنذاك كما تناولت الدراسة ما لاحظه الكثير من الرحالة لحركة البناء والتشييد في المجتمع المصري من عمائر مدنية وتناولت فيها العواصم والمدن والمارستانات والحمامات والقناطر والقصور والدور والقلاع وغيرها. وكذلك العمائر الدينية وتحدثت فيها عن الجوامع والمساجد والكنائس والزوايا والرباطات إضافة للعمائر التجارية كالقياسر والفنادق والأسواق وعلاقتها بالمساجد والجوامع في مصر.

ولكون الخيال ميدانه طلق تختلط فيه الصور وتتوالد كما تشاء دون قيد حتى ليصعب إيجاد الفواصل أحياناً عندما نؤصل لنشأة مصر أرضاً وشعباً وعمراناً فذلك الحدث في ذاته إن شئنا التأريخ له فإنه بلا أدنى شك سيصبح خارج إطار العصور التاريخية وينتمي بشدة إلى عصور الأسطورة مما يجعله يتخطى حدود الزمن وهو ما نتلمسه في كتابات المؤرخين في سياق محاولاتهم للتأصيل لنشأة المدن المصرية وتسجيلهم لتجاربهم ومشاهداتهم الواقعية متعدين منطق العقل أحياناً ومقتربين من الخيال الشعبي والانغماس في عالم الأساطير في وصفهم التفصيلي لمدن مصر التي قد يكون لها وجود فعلي ملموس أو مدن لا وجود لها في عالم الواقع التي كثيراً ما كانت مرتعاً خصباً للخيال تلعب فيه الملائكة وبعض المخلوقات الأسطورية دوراً لا بأس به لاسيما المعالم العمرانية والآثار الإسلامية في مصر التي لفتت انتباه المؤرخين والرحالة مثلما لفتت أنظارهم طبيعة الأرض والنباتات والثروات الطبيعية والآثار المصرية واختلطت الخرافات والعجائب التي سمعوها من أهل مصر ،بالحقائق التي عاينوها وشاهدوها بأنفسهم أو نقلوها عن الكتب والروايات الموثوقة وخلفوا لنا تفاصيل عديدة عن المباني العظمى التي شيدها حكام مصر، وما دار حولها من غرائب وحكايات خيالية، منبعها الموروث الشعبي

وفي المصادر العربية اجتمع الخيال بالواقع، فأخرجا لنا صورة نادرة عن نهر النيل.لم تخل دون وجود روايات وتقارير "جغرافية" اقتربت من الحقيقة، إلى حد ما خلت من المساحة الأسطورية، وإن لم تخل من الخيال الذي عوض الجهل بالحقائق الجغرافية بطبيعة الحال. وإذا تتبعنا سيرة النيل في الكتابات

التاريخية لوجدنا أن الخيال يسبق الواقع في وجوده لـديها، خاصـة فيمـا يتعلـق بمنطقة منابع النيل. بيد أن وصفهم لمجرى النـهر مـن منطقـة الجنـادل جنـوب أسوان حتى مصبه في البحر المتوسط تتسم بالدقة؛ لأنهم شـاهدوا النـهر في هـذه المنطقة وعاينوا مجراه وربما كان لهذا الخيال الأسطوري عـن تـاريخ النيـل يـد في تقديس واحترام الناس للنيل وحين أُبعـد النيـل عـن الأسـاطير والخيـال ازداد بُعد العامة عن تقديسه، واحترامه وزادوا في جفائهم له.

وعرضت الدراسة لأحد الأغراض الرئيسية مـن تـدوين معظـم الرحالـة في القرنين السادس والسابع الهجريين لرحلاتهم وهو إطلاع مـواطنيهم علـى طـرق الحج والتجارة هداية لغيرهم وتسجيلاً لفضلهم ولفتـاً لنظـر أولي الأمـر إلى مـا يجب إصلاحه لغيرهم وتـسجيلاً لفـضلهم.وعرضـنا لخـط سـير درب الحـاج المصري كما وصفه الرحالة والصعوبات التي كانـت تـواجههم في خـط سـيرهم وعموماً إذا تتبعنا تطور مصر العمراني من خـلال مـا رسمـه الرحالـة بـأقلامهم وما سطرته براعتهم بالتتابع في أزمنـة مختلفـة قبـل وبعـد القـرنين الـسادس والسابع للهجرة بادئين باليعقوبي ثم ابن خرداذبـة وابـن رسـته ثم ابـن حوقـل فالإدريسي وابن جبير والهروي ومـن بعـدهم عبـد اللطيـف البغـدادي وابـن سعيد فالقزويني والعبدري مروراً بـابن بطوطـة وابـن شـاهين وابـن خلـدون وغيرهم الكثير.. نجد الخط العمراني في انحدار باستمرار وقـد ضـرب لنـا بعـض لرحالة مثال واضح في مدن شمال شرقي الدلتا حيث الجـزر الـتي كانـت واقعـة في بحيرة المنزلة التي كانت تسمى بحيرة تذيس مثـل تنـيس وديبـق وشـطا ومـا بلغته من ثقل اقتصادي بـدأ في الانحـدار بدايـة مـن أواخـر القـرن الخـامس الهجري وبداية القرن السادس الهجري.

كما تأكدت من خلال الدراسة فاعلية تغير الأحداث السياسية واختلاف شكل الخريطة السياسية للعالم الإسلامي على مدن مصر وعواصمها في نشأتها أو تطور عمرانها. وكشف لنا أوصاف الجغرافيين والرحالة للمدن في مصر عن مظاهر التغير التي تحدث فيها سواء كان هذا التغير تطوراً لعمران المدينة وازدهارها أو انحداراً وتخلفاً ربما يؤدي بها إلى التحول من منزلة المدينة إلى البلد أو القرية وربما ينتهي بها الحال إلى الأندراس ، مثلما شاهدنا ذلك من خلال أوصاف الرحالة للمدن المصرية والأحداث المختلفة التي كانوا بمثابة شاهد عيان عليها أو عن غيرهم ويرتبط هذا التغير والتبدل بعوامل مختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية منها ما يؤدي إلى ذبول بعض المدن واندراسها ومنها ما يساعد على بقائها واستمرارها.

ومن خلال كل ما تقدم فقد قدمت هذه الدراسة أقوال وآراء ونقد الرحالة المسلمين لما شاهدوه وعايشوه من أحداث وظواهر ومظاهر عمرانية ومدى مطابقة أقوالهم للأحوال السائدة آنذاك حسب كتابات المؤرخين والكتاب المصريين وغير المصريين فقد قدمت نقداً وإيضاحاً للكثير من النقاط التي قد تكون فاتت هؤلاء الرحالة باعتبار أن الرحالة عادة ما هو إلا عابر سبيل ينتقد بعينه ما يراه ظاهراً أو واضحاً أمامه دون أن يتعمق في البحث عن أسبابه أو ما يكشف عن ظواهره فأوضحنا هذا من خلال عرضنا للخلفية التاريخية والعمرانية لنتفهم هذه الظواهر على أسس تاريخية وجغرافية عميقة.

ويتبين لنا من خلال كتابات الرحالة ورؤيتهم لمكونات المدن المصرية وحياة وأحوال هذه المدن في مصر في القرنين السادس والسابع الهجريين مراحل الازدهار الحضاري والعمراني والاقتصادي أو السياسي المصري لتميط اللثام عن أسباب ذلك وكيفيته ثم أثر ذلك على سياسة مصر وأثر الأحداث السياسية على العمران في مصر.

وخلصت الدراسة إلى أن كلاً من القرنين السادس والسابع الهجريين يمثلان وحدة عمرانية ممتدة حيث تضمن كليهما نفس المكونات الأساسية للمدن المصرية مع تفاوت اهتمام السلطة بعناصر بعينها دون الأخرى ولكون ذلك يأتي استجابة للمتطلبات الاجتماعية ،الثقافية والسياسية، العسكرية لكل حقبة على حدة ، كما لوحظ من خلال المقارنة زيادة في انتشار بعض المكونات العمرانية في القرن السابع الهجري عنه في القرن السادس الهجري.

وختاماً... فما من خاتمة فنحن لم نبدأ بعد. في دراسة وتحليل مصادر أدب الرحلات في تراثنا العربي ،على الوجه الأمثل. ولم نبرز دلالات ما حملته من أخبار وحكايات شعبية لا نزال نرفضها في البحث، ولا نعتمد عليها بالرغم أنها كانت هي التاريخ الذي يصدقه آلاف وآلاف من الناس – عامة وخاصة – والتي كانت هي التاريخ الذي عاش ولا يزال يعيش عليه الكثير ممن يفوقون قراء الكتب العلمية عدداً وإيماناً بصدق التاريخ.. فلنبدأ

اللهم هبنا القوة لنغير بها ما يمكن أن يتغير ، والصبر على أن نتحمل ما لا يتغير، والحكمة لنميز بها، بين ما يمكن وما لا يمكن أن يتغير، والقدرة على أن نفتح في حائط الجهل شقاً يسيراً، يدخل منه شعاع من النور، كهذا الذي

صنعه الحسن بن الهيثم في حجرة السجن ،الذي كان فيه فأنشأ بهذا الشعاع المفرد علماً خالداً، هو علم البصريات. التماساً لنيل أجرىْ المجتهد المصيب، أو أجر المجتهد المخطئ، ممن علمنا هذه الفضائل، وزرعها في نفوسنا وكان لنا عوناً في كل دروب العلم، وحسبنا أن نبقى مدينين لهم بذلك ما حيينا، فهم خير الأهل والأحبة والمربين.

ربنا زدنا علماً وتواضعاً ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾

أسانيد الدراسة

- المخطوطات العربيـــة:

١. ابن بسام: (شمس الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين)، كتاب أنيس الجليس فى أخبار تنيس والجزائر، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ١٠٠ بلـــدان، تيمور .

٢. البلوى: (خالد بن عيسى البلوى)، تاج المفرق فى تحلية علماء أهل المشرق، مخطوط بدار الكتب المصرية، جغرافيـــا رقـــم ٤٠٠ ميكـــروفيلم، رقـــم ٤٥٧٧٣.

٣. أبي صالح الأرمنى: (أبو المكارم جرجس بن مسعود)، أخبار نواحى مـــصر وأقطاعها، مخطوط بمكتبة الإسكندرية، رقـــم الحفـــظ ٩٥٢٩ج، تـــاريخ، تسلسل ١٣٣.

٤. الأبشيهي: (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتحـــي الأبـــشيهي الحلـــي) (٧٩٠-٨٥٠هـــ): المستطرف في كل فن مـــستظرف، جـــزآن، الطبعـــة لأخيرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٢م

٥. ابن الأخوة: (محمد بن محمد بن أحمد القرشي) (ت٧٢٩هـــ): معالم القربـــة في أحكام الحسبة، طبعة كمبردج ١٩٣٧م

- المصادر العربيـــة:

١. الإدريسى: (أبي عبد الله محمـــد بـــن محمـــد بـــن عبـــد الله الـــشريف)، (ت٥٦٠هـــ/١١٦٥م)، صفة المغرب وارض السودان ومصر والأنـــدلس (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق فى اختـــراق الآفـــاق)، ليـــدن ١٨٦٤-١٨٦٦م .

٢. ـــــــ: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، المجلـــد الأول، مكتبـــة الثقافـــة الدينية، القاهرة، ١٩٩٩م.

٣. إدريس أفندى: إدريس أفندى فى مصر مــذكرات الفنـــان والمستـــشرق الفرنسى بريس دافين فى مصر (١٨٠٧-١٨٧٩م)، جمعها وترجمها: أنـــور لوقا، القاهرة، ١٩٩١م.
٤. الأدفوى: (كمال الدين ابو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر بن على) (ت ٧٤٨هـــ/ ١٣٤٧م)، الطابع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، مصر، ١٩١٤م.
٥. ابن الأزرق:(أبو عبد الله محمد بـــن الأزرق الأندلـــسى)(ت٨٩٦هـــــ/ ١٤٩١م)، بدائع السلك فى طبائع الملك،الجزء الأول، دراسة وتحقيق:محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، تونس،١٩٧٧.
٦. أسامة بن منقذ: (أبو المظفر بن مرشد بن على بن مقلد بن نـــصر) (٤٨٨-٥٨٤هـــ/ ١٠٩٥-١١٨٨م)، ديوان أسامة بن منقذ تحقيق: أحمد أحمـــد بدوى، حامد عبد المجيد، وزارة المعارف، القاهرة،١٩٥٣م.
٧. ـــــــ: المنازل والديار، تحقيق: مصطفى حجازى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامى، القاهرة، ١٣٨٧هـــ/ ١٩٦٨م.
٨. ـــــــ: كتاب العصا، تحقيق: عبـــد الـــسلام هـــارون، ضـــمن نـــوادر المخطوطات، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٧٢.
٩. ـــــــ: الاعتبار، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠٢م.
١٠. الإسحاقي:(محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد بن عبد الغني بـــن على المنوفي): أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، سلسلة الذخائر، العدد ٣٥، القاهرة ١٩٩٨م
١١. أسحق بن حسين المنجم: آكام المرجان فى ذكر المدائن المشهورة فى كـــل مكان لأحد علماء القرن الخامس الهجرى، الشركة التونـــسية للتوزيـــع، تونس، ١٩٧٨.
١٢. الإصطخري: (أبي اسحق إبراهيم محمد الفارسي): المـــسالك والممالـــك، تحقيق: محمد عبد العال، سلسلة الذخائر، العدد ١١٩، القاهرة ٢٠٠٤م

١٣. أولياچلبي: سياحتنا مه مصر، ترجمة محمد على عونه، تحقيق: عبد الوهاب عزام، وأحمد السعيد سليمان، مراجعة: أحمد فؤاد متولي، الطبعة الأولى، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٥م

١٤. ـــــ:الرحلة الحجازية، ترجمة: الصفصافي أحمد المرسي، الطبعة الأولى،دار الآفاق العربية ،القاهرة ١٩٩٩م

١٥. ابن إياس: (أبو البركات محمد بن أحمد) (ت ٩٣٠هـ): كتاب تاريخ مصر المسمى بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الأول، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق، مصر المحمية، القاهرة ١٣١١هـ

١٦. ابن إياس: كتاب تاريخ مصر المسمى بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الجزء الخامس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥م

١٧. ابن بسام: (محمد بن أحمد بن بسام)، أنيس الجليس فى أخبار تنيس، تحقيق: جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٠م.

١٨. ابن بطوطة: (عبد الله بن محمد اللواتى)، مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار، تهذيب أحمد العوامرى بالاشتراك، جزآن، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٣م.

١٩. ـــــ: رحلة ابن بطوطة، تقديم: كرم البستانى، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٠م.

٢٠. بطرس البستانى: كتاب قطر المحيط، القاهرة، بدون تاريخ .

٢١. البغدادى: (صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق) (ت٧٣٩هـ)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، مختصر معجم البلدان لياقوت، تحقيق: على محمد البجاوى، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، عيسى البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٥٥م.

٢٢. البندارى: (الفتح بن على)، سنا البرق الشامى اختصار البندارى من كتاب البرق الشامى للعماد الكاتب الأصفهانى، تحقيق: فتحية النبراوى، مكتبة الخانكى،القاهرة، ١٩٧٩م.

٢٣. التحيبى: (القاسم بن يوسف السبتى)، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، تونس ١٩٧٥.
٢٤. ابن جبير: (أبو الحسين محمد بن أحمـــد الكنـــانى) (١١٤٥م-١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة بمصر، القاهرة، ١٩٠٨م.
٢٥. ـــــ: رحلة ابن جبير، تحقيق: حسين نصار، مكتبـــة مـــصر، القـــاهرة، ١٩٩٢م.
٢٦. ـــــ: رحلة ابن جبير، تقديم: محمد مصطفى زيادة، طبعة بيروت، بـــدون تاريخ.
٢٧. البكري: (محمد بن أبي السرور البكري) (ت١٠٨٧هـــــ): الروضـــة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة، تحقيق وتعليق: عبد الرازق عيسى، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٩٧م
٢٨. البلوي: (خالد بن عيسى) (ت٧٦٥هـــ): تاج المفرق في تحليـــة علمـــاء المشرق، الجزء الأول، تحقيق: الحسن السائح، صـــندوق إحيـــاء التـــراث الإسلامي، الإمارات، بدون تاريخ
٢٩. البلوي (أبي محمد عبدالله بن محمد المديني البلوي):سيرة أحمد بن طولـــون (تحقيق:محمد كرد علي) ، سلسلة الذخائر ، العدد ٥٥ القاهرة ١٩٩٩م
٣٠. بنيامين:(ابن يونه التطيلي النباري الأندلسي)(٥٦١-٥٦٩هـــ): رحلـــة بنيامين التطيلي، ترجمة: عزرا حداد، دراسة: عبد الرحمن الـــشيخ، الطبعـــة الأولي، المجمع الثقافي، أبو ظبي ٢٠٠٢م
٣١. البيروني: (أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني)(ت١٠٥٠:٤٤٢م): الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق: إدوارد ساخو (ليبزج ١٩٢٣
٣٢. التجيبي: (أبو القاسم بن يوسف السبتي) (ت٧٣٠هـــ): مستفاد الرحلـــة والاغتراب، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتـــاب، تـــونس: ليبيا، ١٩٧٥م
٣٣. ابن تغري بردي: (جمال الدين يوسف أبو المحاسن) (ت٨٧٤هـــ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٢م

٣٤. الجبرتي: (عبد الرحمن بن حسن): عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مجموعة أجزاء، تحقيق: عبدالرحيم عبدالرحمن، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة٢٠٠٣م

٣٥. ابن جبير: (أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني)(١١٤٥م:٥٣٩هـ-١٢١٧م:٦١٤هـ): رحلة ابن جبير، تحقيق: حسين نصار، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٩٢م

٣٦. الجزيرى الأنصارى: (عبد القادر بن محمد) (٩١١-٩٧٧هـ/١٥٠٦-١٥٧٠م)، درر الفرائد المنظمة-فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٤هـ.

٣٧. جوزيف بتس: (رحلة الحاج يوسف إلى مصر ومكة والمدينة ١٦٨٠م)، سلسلة الألف كتاب الثانى، ع١٨٩،ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٥م.

٣٨. ابن الحاج: (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى الفاسى والمالكى) (٧٣٧هـ/ ١٤٧٣م)،المدخل إلى الشرع الشريف، الطبعة الأولى، الجزء الثانى، المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة،١٩٢٩.

٣٩. أبى حامد الأندلسى: (أبى حامد محمد بن عبد الرحيم) (ت٥٦٥هـ)، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق: على عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٤٠. الحربى: (أبو اسحاق الحربى) (ت ٢٧٤هـ)، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض ١٩٦٩.

٤١. الحميرى (محمد بن عبد المنعم) (ت ٩٠٠هـ)، الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت،١٩٧٩.

٤٢. ابن حوقل: (أبو القاسم النصيبى)، صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩.

٤٣. ابن خرداذبة: (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) ت ٣٠٠هـ/٩١٢م، كتاب المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٣م.
٤٤. ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون) (ت٨٠٨هـ)، المختار من المقدمة، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٧م.
٤٥. ـــــ: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، تقديم عبادة كحيلة، س الذخائر، ع ١٠٠، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٤٦. ـــــ: مقدمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ .
٤٧. ابن خلكان: (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد) (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، الجزء الثالث، تحقيق: محمد محيى الدين، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٤٨م.
٤٨. ـــــ: وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق: يوسف على طويل، مريم قاسم طويل، المجلد الأول، الجزء الثالث، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
٤٩. ابن دقماق: (إبراهيم بن محمد بن أيدمر) (ت٨٠٩هـ): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، منشورات المكتب التجارى، بيروت، بدون تاريخ.
٥٠. الدمشقي: (أبو الفضل جعفر بن علي) (ت ٥٧٠هـ)، الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأغراض ورد لهما وغشوش المدلسين فيها، مطبعة المؤيد، القاهرة، ١٣١٨هـ.
٥١. الرازى: (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر)، مختار الصحاح، ترتيب: محمود خاطر، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٩.
٥٢. ابن رستة: (أبي على أحمد بن عمر بن رستة)، الأعلاق النفيسة، المجلد السابع، طبعة ليدن، ١٨٩١م.
٥٣. الزمخشرى: (جار الله أبي القاسم محمود بن عمر)، أساس البلاغة، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٨٥م.

٥٤. الزهرى: (أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهـــرى) (ت أواســـط القـــرن السادس الهجرى)، كتاب الجغرافية،تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٠م.
٥٥. ابن سعيد الأندلسى: (على بن موسى بـــن محمـــد بـــن عبـــد الملـــك) (ت٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة، القسم الخاص بالقاهرة، تحقيق: حسين نـــصار، مطبعـــة دار الكتـــب، القـــاهرة، ١٩٧٠م.
٥٦. ـــــــ: المغرب فى حلى المغرب، تحقيق: شوقى ضيف، الطبعـــة الثالثـــة، الجزء الأولى، دار المعادن، القاهرة،١٩٧٨.
٥٧. ـــــــ: المغرب فى حلى المغرب، تحقيق وتعليق: زكى محمد حسن، شوقى ضيف، سيدة كاشف، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، س الذخائر، ع ٨٩، القاهرة، ٢٠٠٣م..
٥٨. ابن سيدة: (أبو الحسن على بن ســـيدة)، المخـــصص، الجـــزء الثـــانى، القاهرة،١٣١٩هـ.
٥٩. السيوطى: (جلال الدين عبد الرحمن)، حسن المحاضرة فى أخبـــار مـــصر القاهرة، جزآن، المكتبة التجارية بمصر، القاهرة، ١٩٠٨م.
٦٠. ـــــــ:(جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر الشافعي)(ت٩١١هـ): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، الجزء الأول، تحقيق: محمد أبـــو الفـــضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٧م
٦١. ـــــــ: كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة، تحقيق: محمـــد الششتاوي، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٧م
٦٢. ـــــــ:مقامات جلال الدين السيوطي "مقامة في وصف روضـــة مـــصر تسمى بلبل الروضة " (الجزء الأول، تحقيق/سمير الدروبي، سلسلة الذخائر، العدد١٦٣) ، القاهرة٢٠٠٧
٦٣. الشافعي: (محمد بن أبي السرور الـــصديق) (ت ١٠٨٧هـــ): القـــول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب، تحقيق: السيد إبـــراهيم

سالم، مراجعة: إبراهيم الإبياري، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القــاهرة ١٩٦٢

٦٤. أبو شامة: (شهاب الدين عبد الرحمن المقدســى)، الروضــتين فى أخبــار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: محمد حلمى محمد، الجزء الأول، القسم الثانى، القاهرة، ١٩٦٢.

٦٥. شمس الدين: (أبى عبد الله محمد أبى طالب الأنصارى)، نخبــة الــدهر فى عجائب البر والبحر، طبعة بطريبورغ، مطبعــة الأكاديميــة الأمبراطوريــة، ١٨٦٥م.

٦٦. أبــو صــالح الأرمــنى: (أبــو المكــارم جــرجس بــن مــسعود) ت ٦٠٥هـ/١٢٠٩م، كنائس مصر وأديرة مصر، أكسفورد، ١٨٩٥م.

٦٧. أبى الصلت: (أبى الصلت أمية بن عبــد العزيــز الأندلــسى) ت ٥٢٨، الرسالة المصرية، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ضمن نوادر المخطوطات، الجزء الأول، الطبعة الثانية، القاهرة،١٩٨٢.

٦٨. طافور: (بيروطافور)، رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر المــيلادى، ترجمة حسن حبشى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م.

٦٩. الطاهر: (الطاهر أحمد الزاوى)، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، الجزء الرابع، الطبعة الثانية، مطبعــة عيــسى البــابى الحلبى، بدون تاريخ.

٧٠. الطبرى: (أبو جعفر محمد بن جرير) ت ٣١٠هـ/٩٢٢م، تاريخ الأمــم والملوك،الطبعة الأولى، المطبعة الحسينية بمصر، الجــزء الثالــث، القــاهرة، ١٩٣٩.

٧١. الظاهرى: (غرس الدين خليل بن شاهين)، كتاب زبدة كشف الممالــك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس ١٨٩٥م.

٧٢. ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيــق مــصطفى السقا وكامل المهندس، مركز تحقيق التراث، دار الكتب، القاهرة ١٩٦٩م

٧٣. ابن عبد الحكم: (عبد الرحمن بن عبد الله) ت ٢٥٧هـ/ ٨٧١م)، فتوح مصر وأخبار طبع تورى، ليدن ١٩٢٠.
٧٤. ابن عبد الظاهر: (محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر المصري)(ت٦٩٢هـ): الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق: أيمن سيد، الطبعة الأولى، الدار العربية للكتاب، القاهرة ١٩٩٦م
٧٥. عبد اللطيف البغدادى: الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تقديم: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٨م.
٧٦. العبدرى: (أبي عبد الله محمد بن سعود) (ت٧٠٠هـ/١٣٠٠م)، رحلة العبدرى، تحقيق: على إبراهيم كردى، الطبعة الأولى، دمشق،١٩٩٩م.
٧٧. العمرى: (شهاب الدين أحمد بن فضل الله) (ت٧٤٢هـ)، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، الجزء الأول، تحقيق: أحمد زكى، القاهرة.
٧٨. ــــــ: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الثالث، تحقيق: أحمد الشاذلي، المجمع الثقافي، أبو ظبي ٢٠٠٣م
٧٩. الغرناطى: (أبي حامد محمد بن عبد الرحيم الأندلسى) (ت٥٦٥هـ)، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق: على عمر، ط أولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٨٠. أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، الجزء الثالث، القاهرة، المطبعة الحسينية بمصر، بدون تاريخ.
٨١. الفيروز آبادى: (محمد الدين بن يعقوب)، القاموس المحيط، ط٢، (١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م).
٨٢. القزويني: (زكريا بن محمد بن محمود)، آثار البلاد وأخبار العباد، جزآن، الطبعة الأولى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٨٣. ــــــ:عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تقديم وتحقيق: محمد بن يوسف القاضي، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦م

٨٤. القلصادى: (أبي الحسن على القلصادى)، رحلة القلصادى، تحقيق: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس،١٩٧٨.
٨٥. القلقشندى: (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علــى) (ت٨٢١هــــ)، صبح الأعشى فى صناعة الأنشا، ١٤ جزء، القاهرة، ١٩١٣.
٨٦. ابن كثير: (الحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشى) (ت٧٧٤هــــ)، البداية والنهاية،الطبعة السادسة، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠١م.
٨٧. الكرخى: (أبي أسحق إبراهيم بن محمد الأصطخرى)، المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر، القاهرة، ١٩٦٢.
٨٨. الكندى: (عمر بن محمد بن يوسف)، فضائل مــصر، تحقيــق: إبــراهيم العدوى، على عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧١.
٨٩. ــــــ: فضائل مصر المحروسة ، تحقيق: على محمد عمر ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ١٩٩٧م
٩٠. أبو المحاسن: (جمال الدين يوسف ابن تغرى بردى) (ت٨٧٤هــ)، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، الجزء الخامس، القــاهرة، ١٣٥٣هــــ/ ١٩٣٥م.
٩١. ــــــ: منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، الجــزء الثالث، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ط المجلس الأعلى للشئون الإســلامية، القاهرة، ١٩٩٠م.
٩٢. ابن محشرة: (كاتب مراكــشى مجهــول) (ت ٥٩٨هــــ/ ١٢٠١م)، الاستبصار فى عجائب الأمصار، نشر وتحقيق، سعد زغلول عبد الحميــد، الإسكندرية، ١٩٥٨م.
٩٣. محمد بن الطيب الفاسى: شرح كفاية المتحفظ تحرير الروايــة فى تقريــر الكفاية، تحقيق: على حسين البواب، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.
٩٤. مؤلف مجهول: حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تحقيق: يوسف الهادى، الطبعة الأولى، الدار الثقافية للنشر، القاهرة،١٩٩٩م.

٩٥. المسعودى: (أبو الحسن على الحسين) (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الأول، الطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٣٠٣هـ.
٩٦. ـــــ: أخبار الزمان ومن إبادة الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة، الطبعة الأولى، الرياض، ١٤١٥هـ
٩٧. المقدسى: (شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر)، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، مطبعة ليدن١٩٠٩م.
٩٨. المقرى: (أبى العباس أحمد بن محمد التلمسانى) (ت١٠٤١هـ)، نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، الجزء الثانى، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦٨م.
٩٩. المقريزى: (تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد) (ت٨٤٥هـ/١٤٤١مم)، ترجمة لأحمد بن جبير بمقدمة الرحلة، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة بمصر، القاهرة،١٩٠٨م.
١٠٠. ـــــ: السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، نشر محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٦م.
١٠١. ـــــ:، أتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، الجزء الثالث، تحقيق: محمد حلمى أحمد، القاهرة،١٩٧٣.
١٠٢. ـــــ: إغاثة الأمة بكشف الغمة س مكتبة الأسرة / القاهرة، ١٩٩٩م.
١٠٣. ابن مماتي: (الأسعد بن مماتي الوزير الأيوبي)(ت٦٠٦هـ): قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣م
١٠٤. موفق الدين: (موفق الدين بن عثمان)(ت٦١٥): مرشد الزوار إلى قبور الأبرار المسمى الدر المنظم في زيارة الجبل المقطم، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٥م
١٠٥. المنذرى: (عبد العظيم بن عبد القوى) (ت٦٥٦هـ)، التكملة لوفيات النقلة، بيروت، ١٩٨١م.

١٠٦. موفق الدين: (موفق الدين بن عثمان) (ت٦١٥هـ)، مرشد الزوار إلى قبور الأبرار، تحقيق: محمد فتحي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة،١٩٩٥م.
١٠٧. المنجد فى اللغة والآداب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، الطبعة ١٨، بيروت،١٩٦٦.
١٠٨. النابلسي: (أبو عثمان النابلسى الصفدى الشافعى) (٦٦٠هـ)،تاريخ الفيوم وبلاده، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م.
١٠٩. ناصر خسرو علوى: سفر نامة، ترجمة: يحيى الخشاب، تقديم عبد الوهاب عزام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.
١١٠. ابن النديم: (محمد بن إسحاق الوراق)(ت٣٨٠هـ): الفهرست، جزآن، تحقيق: محمد عوني وإيمان السعيد، سلسلة الذخائر، العددان ١٤٩، ١٥٠، القاهرة ٢٠٠٦م
١١١. النواجي(شمس الدين محمد بن الحسن)(ت٨٥٩هـ):حلبة الكميت في الأدب والنوادر والفكاهات المتعلقة بالخمريات ،سلسلة الذخائر ، العدد٢٧، القاهرة ١٩٩٨م
١١٢. النويرى: (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى) (٦٧٧هـ/٧٣٣م)، نهاية الأرب فى فنون الأدب، السفر الأول، سلسلة تراثنا، وزارة الثقافة، مصر، القاهرة،١٩٧٩.
١١٣. الهروى: (أبي الحسن على بن أبي بكر الهروى) (ت٦١١هـ)، الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢.
١١٤. هيردوت: هيردوت يتحدث عن مصر، ترجمة: محمد خفاقة، دار القلم، القاهرة ١٩٦٦م
١١٥. ابن الوزان: (الحسن بن محمد الوزان الزياتي المعروف بجان ليون الإفريقي)(ت٩٥٧هـ): وصف إفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، مراجعة: على عبد الواحد، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٥م

١١٦. ابن الوردي: (سراج الدين أبي حفص عمر): خريدة العجائب وفريدة الغرائب، الطبعة الأخيرة، مكتبة عبد السلام شقرون، بدون تاريخ

١١٧. ابن الوكيل: (أبو الحجاج يوسف بن محمد الملواني)(ت١١٣١هـ): تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق: محمد الششتاوي، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٩م

١١٨. ياقوت الحموى: (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى) (ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان، ٥ مجلدات، ط بيروت، ١٩٥٥، وطبعة عام١٩٥٧م.

١١٩. اليعقوبى: (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م)، كتاب البلدان، ليدن، ١٧٩٢م.

١٢٠. ــــــ: تاريخ اليعقوبي، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت ١٩٦٠م

• المراجع العربيـــة:

١- إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين (الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية)، جزآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٤هـ.

٢- إبراهيم بن ضويان: منار السبيل فى شرح العليل على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: زهير الشاويش، الجزء الأول، الطبعة الرابعة، بيروت،١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٣- ــــــ: منار السبيل فى شرح الدليل، الجزء الثانى، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٠هـ.

٤- إبراهيم العدوى: ابن عبد الحكم، مطبعة لجنة البيان العربى، القاهرة،١٩٦٣.

٥- أحمد أحمد بدوى: الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة، القاهرة، بدون تاريخ.

٦- أحمد البدوى محمد الشريعى: دراسات فى جغرافية العمـــران، دار الفكـــر العربى، القاهرة، ١٩٩٥م.
٧- أحمد رمضان أحمد: المجتمع الإسلامى فى بلاد الشلام فى عـــصر الحـــروب الصليبية، الجهاز المركـــزى للكتـــب الجامعيـــة، القـــاهرة، ١٩٧٧م.
٨- ــــــــــ: الرحلة والرحالة المسلمون، دار بن سند، الرياض، بدون.
٩- أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى، ط أولى، دار المعارف، دون تاريخ.
١٠- أحمد العوامرى، محمد أحمد جاد المولى: مقدمة مهذب رحلة ابـــن بطوطـــة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأســـفار، الجزء الأول، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٣م.
١١- أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، مكتبة وهبـــة، القاهرة، ١٩٨٣.
١٢- أحمد عبد الغفور عطار: الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم، بيروت، ١٩٧٧م.
١٣- أحمد عيسى إبراهيم: تاريخ البيمارستان فى الإسلام، الطبعة الثانيـــة، دار الرائد العربى، بيروت،١٩٨١م.
١٤- أحمد مختار العبادى: قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩م.
١٥- ــــــــــ: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإســـلامية فى مـــصر والشام، دار النهضة العربية، ١٩٨١م.
١٦- آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة فى الإسلام، ترجمة: محمد عبد الهادى أبو ريدة، الجزء الثـــانى س الألف كتاب الثانى، الطبعة الثالثة، القاهرة، ٢٠٠٣م.
١٧- إسماعيل العربى: دور المسلمين فى تقدم الجغرافيا الوصفية والفلكية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٤م.

١٨- أغناطيوس كراتشكوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافى، ترجمة: صلاح الدين هاشم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،١٩٦٥م.
١٩- ألفرد . ج. بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،١٩٤٦م.
٢٠- إلهام محمد على ذهنى: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، س مصر النهضة، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٩١م.
٢١- ـــــ: مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر، س تاريخ المصريين، ع ٥٢، القاهرة،١٩٩٢م.
٢٢- ـــــ: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر، س مصر النهضة، ع ٥١، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٩٩٥م.
٢٣- أمين بسيونى: مصر الدور، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٩٨٦م.
٢٤- أيمن فؤاد سيد: المدارس فى مصر قبل العصر الأيوبى، ضمن كتاب تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية، س تاريخ المصريين، ع ٥١، القاهرة، ١٩٩٢م.
٢٥- البدراوى زهران: الصراع اللغوى فى عصر الحروب الصليبية، س كتابك، ع ١٦٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.
٢٦- بيتر فارب: بنو الإنسان، ترجمة: زهير الكرمى، س عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٠م.
٢٧- بيريل سمالى: المؤرخون فى العصور الوسطى، ترجمة: قاسم عبده قاسم، ط٢، دار المعارف،القاهرة، ١٩٨٤م.
٢٨- جان صدقة: الرحالة العرب، الطبعة الأولى، دار الشواف، ١٩٩٣م.
٢٩- جاستون فييت: المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى، ترجمة: محمد وهبى ضمن كتاب (فى مصر الإسلامية)، القاهرة، ١٩٣٧م.

٣٠- جمال حمدان: جغرافية المدن، القاهرة، ١٩٧٧م.

٣١- ـــــــ: القاهـــرة، كتاب الهلال، القاهرة، ١٩٩٣م.

٣٢- ـــــــ: شخصية مصر، كتاب الهلال، ١٩٩٤م.

٣٣- ـــــــ: شخصية مصر، س مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٣٤- جمال الدين الشيال: الجاسوسية فى حروب بنى أيوب، دراسات فى التاريخ الإسلامى، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ .

٣٥- جوزيف نسيم يوسف: لويس التاسع فى الـــشرق الأوســـط (١٢٥٠-١٢٥٤م) الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المـــصرية، القـــاهرة، ١٩٥٦م.

٣٦- حسن إبراهيم حسن: تـــاريخ الإســـلام الـــسياسى والـــدينى والثقـــافى والاجتماعى، أربعة أجزاء، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٨م.

٣٧- حسن حسن عبد الوهاب: ورقات من الحضارة الإسلامية، القسم الثانى، القاهرة، ١٩٨٩م.

٣٨- حسن عباس: أسامة بن منقذ حياته وآثاره، الجزء الأول، حياته وشـــعره، الإسكندرية، بدون .

٣٩- حسنى محمود حسين: آداب الرحلة عند العرب، الهيئة المـــصرية العامـــة، القاهرة، ١٩٧٦م.

٤٠- حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيون فىالأندلس، مكتبة مـــدبولى، القاهرة،١٩٨٦م.

٤١- ـــــــ: أدب الرحلات، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، القاهرة،١٩٩١م.

٤٢- ـــــــ: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، القاهرة،١٩٩٢م.

٤٣- ـــــــ: الحضارة دراسة فى أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عـــالم المعرفة، العدد ٢٣٧، الطبعة الثانية، الكويت،١٩٩٨م.

٤٤- حسين محمد فهيم: قصة الأنثروبولوجيا، فصول فى تاريخ علم الإنـــسان، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٨٩، الكويت، ١٩٨٥م.

٤٥- ــــــــ: أدب الــرحلات، سلــسلة عــالم المعرفــة، العــدد١٣٨، الكويت،١٩٨٩م.
٤٦- حسين نصار: مقدمة رحلة ابن جبير، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٩٢م.
٤٧- حمد الجاسر: ملخص رحلتى ابن عبد السلام الدرعى المغربى، الطبعة الثانية، دار الرفاعى، الرياض، ١٩٨٣م.
٤٨- حمد صالح السحيبانى: الضعف المعنوى وأثره فى سقوط الأمم عصر ملوك الطوائف فى الأندلس أنموذجا، الطبعة الأولى، دار مجلة البيان، الرياض، ٢٠٠٢م.
٤٩- حمد بن ناصر الدخيل: من أعلام الحضارة الإسلامية، الطبعــة الأولى، دار السبيل، الرياض، ١٩٩٣م.
٥٠- دائرة المعارف الإسلامية: المجلد الثانى عشر، طبعة الشعب، دون تاريخ.
٥١- رجب محمد عبد الحليم: ميناء عيذاب ووادى العلاقى وأثرهما فى علاقــة مصر بالسودان حتى نهاية القرن ٩هــ/١٥م، ضمن أبحــاث ندوة الحدود السودانية عبر التاريخ، س تاريخ المــصريين، ع ١٦٤، القاهرة، ١٩٩٩م.
٥٢- روبيرتو روبنياتشى: مدينة القاهرة كما يصفها العالم الجغرافى الإدريــسى، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٧١م.
٥٣- زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، دار المعــارف، القاهرة، ١٩٤٥م.
٥٤- ــــــ: مقدمة كتاب المغرب فى حلى المغرب، الجزء الأول، القسم الخاص بمصر، س الذخائر، ع ٨٩، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٥٥- زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فــاروق بيفــون، كمال دسوقى، منشورات المكتب التجارى، الطبعة الثانيــة، بيروت،١٩٦٩م.

٥٦- سعد عبد العزيز الراشد: درب زبيدة طريق الحج من الكوفـــة إلى مكـــة، الطبعة الأولى، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٩٩٣م.

٥٧- سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى، الجزء الأول، الطبعـــة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م.

٥٨- ـــــــ: الأيوبيون والمماليك فى مصر والـــشام، دار النهـــضة العربيـــة، القاهرة، ١٩٧٠.

٥٩- ـــــــ: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربيـــة، القاهرة، ١٩٩٢م.

٦٠- ـــــــ: العلم بين المسجد والمدرسة، ضمن تـــاريخ المـــدارس فى مـــصر الإسلامية، س تاريخ المصريين، ع ٥١، القاهرة،١٩٩٢م.

٦١- ـــــــ: الظاهر بيبرس، س تاريخ المصريين، القاهرة،٢٠٠١م.

٦٢- سفتيلانا باتسييفا: العمران البشرى فى مقدمة ابن خلدون، ترجمة رضوان إبراهيم، الطبعة الأولى، الهيئة المـــصرية العامـــة للكتـــاب، القاهرة،١٩٨٦م.

٦٣- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٨٢م.

٦٤- ـــــــ: البحر الأحمر فى التاريخ الإسلامى، مؤسسة شـــباب الجامعـــة، الإسكندرية، ١٩٩٣.

٦٥- سيد على الحريرى: الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، الطبعة الثانيـــة، مطبعة النيل بمصر، القاهرة، ١٩١١م.

٦٦- شلبى إبراهيم الجعيدى: طبقـــة العامـــة فى مـــصر فى العـــصر الأيـــوبى (٥٦٧هـــ/٦٤٨هـــ/ ١١٧١-١٢٥٠م)، س تـــاريخ المصريين، ع ٢١٢، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٦٧- شوقى ضيف: الرحلات، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

٦٨- صفى على محمد عبد الله: مدن مصر الصناعية فى العصر الإسلامى إلى نهاية

عـــصر الفـــاطميين، س تـــاريخ المـــصريين، ع ١٦٩، القاهرة، ٢٠٠٠م.
٦٩- صلاح الدين الشامي: الفكر الجغرافي ســيرة ومــسيرة، الطبعــة الأولى، الإسكندرية، ١٩٨٠م.
٧٠- صلاح هريدى: دور الصعيدى فى مصر العثمانية،القاهرة، ١٩٨٢م.
٧١- طلعت أحمد محمد عبده:الجغرافيا التاريخية فى البلايستوسين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩١م.
٧٢- عباس الطرابيلى: شوارع لها تاريخ سياحة فى عقــل الأمــة، س مكتبــة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٠م.
٧٣- عبد الله بن حمد الحقيل: رحلات إلى الشرق والغرب، ط أولى، دار أضواء، الرياض، ١٩٩٣م.
٧٤- عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٠م.
٧٥- عبد الرحمن زكي: القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائــد إلى جبرتــى المؤرخ، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، ١٩٦٦م.
٧٦- ــــــ: قلعة صلاح الدين الأيوبي وما حولها من الآثار، الهيئــة المــصرية العامة، القاهرة، ١٩٧١م.
٧٧- ــــــ: السيف فى ا لعالم الإسلامى، دار الكتاب العربى، بدون تاريخ .
٧٨- عبد الرحمن عبد الله الشيخ: مقدمة رحلة عبد اللطيــف البغــدادى، ط الثانية، القاهرة، ١٩٩٨م.
٧٩- عبد الفتاح محمد وهيبة: الجغرافيا التاريخية بين النظريــة والتطبيــق، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠.
٨٠- ــــــ: جغرافية العمران، منشأة المعارف، الإسكندرية، بدون تاريخ.
٨١- عبد المنعم ماجد: العمران نظرية لابن خلدون فى تفسيرالتاريخ، بحوث فى تاريخ الحــضارة الإســلامية، مؤســسة شــباب الجامعــة، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

٨٢- عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٤٩.
٨٣- ـــــــ: الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، الطبعة الثامنة، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٨م.
٨٤- عبد الوهاب زيتون: الحروب الصليبية هل انتهت، ط١، دار المعرفة، دمشق، ١٩٩٢م.
٨٥- عثمان على محمد عطا: الأزمات الاقتصادية فى مصر فى العصر المملوكى وأثرها السياسى والاقتصادى، سلسلة تاريخ المصريين، ع ٢١٣، القاهرة، ٢٠٠٢ .
٨٦- عثمان موافى: لون من أدب الرحلات دراسة نقدية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧٣ .
٨٧- عصام محمد شبارو: السلاطين فى المشرق العربى معالم دورهم السياسى والحضارى، دار النهضة العربية، بيروت،١٩٩٤.
٨٨- عفاف سيد صبرة: المدارس فى العصر الأيوبى، دراسة فى تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية، س تاريخ المصريين، العدد ٥١، القاهرة، ١٩٩٢م.
٨٩- على إبراهيم حسن: مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٥٤م.
٩٠- ـــــــ: استخدام المصادر وطرق البحث فى التاريخ الإسلامى والتاريخ الوسيط، ط٣، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة، ١٩٨٠م.
٩١- على السيد على، قاسم عبده قاسم: الأيوبيون والمماليك، التاريخ السياسى والعسكرى، الطبعة الثانية، دار عين، القاهرة، ١٩٩٦م.
٩٢- على عبد الله الدفاع: رواد علم الغرافيا فى الحضارة العربية والإسلامية، الطبعة الثانية، مكتبة التوبة، الرياض، ١٩٩٣م.
٩٣- على مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، الجزء الأول، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩م .

٩٤- عمر فروخ: عبقرية العرب فى العلم والفلسفة، الطبعة الرابعة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٥م.
٩٥- فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى، القاهرة، ١٩٧٤م.
٩٦- فرانشسكو جابر يسللى: قاهر الناصر خسرو، أبحاث الندرة الدولية لتاريخ القاهرة، الجزء الثانى، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧١م.
٩٧- فريد شافعى: العمارة العربية فى مصر الإسلامية عصر الولاة، المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠م.
٩٨- فؤاد قنديل: أدب الرحلة فى التراث العربى، مكتبة الشباب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، يوليو،١٩٩٥م.
٩٩- قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، دار المعارف، ١٩٧٨م.
١٠٠ ـــــــ: أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى، الطبعة الثانية، دار المعارف، ١٩٧٩م.
١٠١ ـــــــ: دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة،١٩٨٣م.
١٠٢ ـــــــ: الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق، العربية للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٨٥م.
١٠٣ ـــــــ: الرؤية الحضارية للتاريخ قراءة فى التراث التاريخى العربى، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة،١٩٨٥م.
١٠٤ ـــــــ: ماهية الحروب الصليبية، الطبعة الأولى، دار عين للدراسات، القاهرة، ١٩٩٣م.
١٠٥ ـــــــ: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسى والاجتماعى، الطبعة الأولى، دار عين للدراسات، القاهرة، ١٩٩٨م.
١٠٦ ـــــــ: بين التاريخ والفولكلور، الطبعة الثانية، دار عين، القاهرة، ١٩٩٨م.

١٠٧ كريستل كسلر: عمارة الأضرحة فى داخل مدينة القاهرة، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، الجزء الثانى، القاهرة، ١٩٧١م.
١٠٨ كلود كاهن: تجار القاهرة الأجانب فى عهد الفاطميين والأيوبيين، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، الجزء الثانى، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧١م.
١٠٩ كليليا سارنللى تشيركوا: زيارة الرحالة العربى الأندلسى الشهاب أحمد الحجرى لمدينة القاهرة فى القرن السابع عشر، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، الجزء الثانى، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧١م.
١١٠ كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية فى مصر، سلسلة كتابك، ع ٣٠، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.
١١١ لودو فيكو دى فارتيما: رحلات فارتيما الحاج يونس المصرى، ترجمة وتعليق: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، س الألف كتاب الثانى، ع ١٣٤، القاهرة، ١٩٩٤م.
١١٢ ليفى بروفنسال: الحضارة العربية فى أسبانيا، ترجمة: الظاهر مكى، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.
١١٣ ـــــــ: دائرة المعارف الإسلامية، م ١٠، مادة زاوية، ط الشعب، دون تاريخ.
١١٤ مجدى عبد الرشيد بحر: القرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك، س تاريخ المصريين، ع ١٧٠، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٩م.
١١٥ مجدى محمد شمس الدين: فنون أندلسية فى الأدب العامى المملوكى، جـ١، القاهرة، مايو ٢٠٠٤م.
١١٦ محاسن محمد الوقاد: الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية، س تاريخ المصريين، ع ١٥٢، القاهرة، ١٩٩٩م.
١١٧ محمد خليفة حسن: آثار الفكر الاستشراقى فى المجتمعات الإسلامية، الطبعة الأولى، دار عين للدراسات، القاهرة، ١٩٩٧م.

١١٨ محمد رمزى: القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، القسم الأول، البلاد المندرسة، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٥٤ .

١١٩ محمد زغلول سلام: الأدب فى العصر الأيوبى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.

١٢٠ ـــــ: الأدب فى العصر المملوكي، جزآن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.

١٢١ محمد عبد الله عنان: مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، مكتبة الأسرة، ١٩٩٧م.

١٢٢ محمد عبد المنعم خفاجة: قصة الأدب فى مصر، جـ٢، ط١، القاهرة، ١٩٥٦.

١٢٣ محمد عبد الغنى الأشقر: تجارة التوابل فى مصر فى العصر المملوكى، س تاريخ المصريين، ع ١٣٧، القاهرة،١٩٩٩م.

١٢٤ محمد غريب جودة: موجز تاريخ العالم، سلسلة مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م.

١٢٥ محمد محمود محمدين: الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمان، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.

١٢٦ محمد مصطفى زيادة وآخرون: كفاحنا ضد الغزاة، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٥٧م.

١٢٧ ـــــ: مقدمة رحلة ابن جبير، طبعة بيروت، بدون تاريخ.

١٢٨ محمد مؤنس أحمد عوض: الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية،الطبعة الأولى، دار عين للدراسات، القاهرة، ١٩٩٥م.

١٢٩ محمود أحمد: جامع عمرو بن العاص، مطبوعات وزارة المعارف العمومية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٣م.

١٣٠ مصطفى محمد كمال: الشريف الإدريسي وأثره فى الجغرافيا، الطبعة الأولى للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر، القاهرة، ١٩٦٤.
١٣١ ممدوح حليم: الكتاب المقدس ينبوع الخلاص، دار القديس يوحنا الحبيب، القاهرة، ١٩٩٩م.
١٣٢ ندى عبد الرحمن يوسف: معجم لغة دواوين شعراء المعلقات تاصيلاً ودلالة وصرفا، الطبعة الأولى، لبنان، ١٩٩٣م.
١٣٣ نعمت إسماعيل علام: فنون الشرق الأوسط فى العصور الإسلامية، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.
١٣٤ نعيم زكى فهمى: طرق التجارة ومحطاتها بين الشرق والغرب آواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٧٣م.
١٣٥ نقولا زيادة: الرحالة العرب، س الألف كتاب، ع ٩٧، دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٦م.
١٣٦ ــــــ: الجغرافيا والرحلات عند العرب، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٦ م.
١٣٧ نورمان ف. كانتور: التاريخ الوسيط قصة حاضرة البداية والنهاية، القسم الثانى، ترجمة: قاسم عبده قاسم، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م.
١٣٨ هارى إلمر بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة: محمد عبد الرحمن، مراجعة: سعيد عبد الفتاح عاشور، جزآن، القاهرة،١٩٨٧م.
١٣٩ هويدا عبد العظيم رمضان: المجتمع فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى العصر الفاطمى، جزآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
١٤٠ وينفر يد بلاكمان: الناس فى صعيد مصر العادات والتقاليد، ترجمة: أحمد محمود، الطبعة الأولى، دار عين، القاهرة: ١٩٩٥م.

١٤١- يوسف إلياس الدبس: من تاريخ سوريا الدنيوى والديني، جـ٦، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥م.
١٤٢- يوسف تونى: معجم المصطلحات الجغرافية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٧م.
١٤٣- يوشع براور: عالم الصليبيين، ترجمة: قاسم عبده قاسم، محمد خليفة حسن، الطبعة الأولى، دار عين، القاهرة، ١٩٩٩م.

- الرسائل العلميـة
- أولاً: رسائل الدكتوراه:

أحمد البدوى محمد محمد الشريعى: المحلات العمرانية على ترعة بحر مويس، دراسة كرتوجرافية، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية آداب الزقازيق، ١٩٨٧.
حلمى محمد سالم:حرف وصناعات الأطعمة والأشربة فى عصر المماليك، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية آداب الإسكندرية، ١٩٧٠.
سعاد محمد حسن: الحمامات فى مصر الإسلامية، دراسة آثرية معمارية، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية آثار القاهرة، ١٩٨٣.
محمد أحمد محمد أحمد: مظاهر الحياة فى الوجه القبلى منذ قيام الدولة الأيوبية حتى نهاية العصر المملوكى، رسالة دكتوراه، غير منشورة، جامعة أسيوط، كلية الآداب، فرع سوهاج، ١٩٨٣.
محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية بالقاهرة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أسيوط، كلية الآداب، ١٩٨٠.

● ثانياً: رسائل الماجستير:

٦ أحمد عبد الكريم سليمان: الحياة الزراعية فى مصر فى العصر المملوكى، رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٧٢.

٧ عبد الحميد حسين محمود حمودة: الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى الصعيد الأعلى فى العصر الفاطمى، رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب الزقازيق، ١٩٨٨م.

٨ عبد الغنى عبد العاطى: التعليم فى مصر زمن الأيوبيين، رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٧٥م.

٩ عصمت عبد الله مجاهد: الحياة الاجتماعية والثقافية فى مصر فى عصر الدولة الأيوبية (٥٦٧هـ - ٦٤٨هـ)، رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب الزقازيق، ٢٠٠٠م.

٠ علاء طه رزق: عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب الزقازيق، ١٩٨٩.

١ محمد السيد مطر: الرحلة عند شعراء المعلقات، دراسة موضوعية وفنية، رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب بنها، ١٩٩٦.

٢ محمد صبرى عبد الحميد إسماعيل: مركز بنها دراسة فى جغرافية العمران الريفى، رسالة ماجستير، آداب بنها، ١٩٩٣.

٣ محمد عبد القادر موافى: المنشآت المعمارية المملوكية فى شرق الدلتا، رسالة ماجستير، آداب الزقازيق، ١٩٨٥.

● ثالثاً: الدوريـــات:

١٤- أحمد دراج: عيذاب، مجلة نهضة أفريقية، السنة الأولى، العدد التاسع، يوليو،١٩٥٨م.

١٥- أحمد فؤاد باشا: العلوم الجغرافية فى التراث الإسلامى، مجلة المنهل، العدد ٥٣٨، المجلد ٥٨، العام ٦٢، لعام ١٩٩٧م.

١٦- أندريا نيترشايدت: الشخصية المصرية ،مجلة المعرفة، العدد ٩٦، مايو ٢٠٠٣م.

١٧- جمال حمدان: مصر فلتة جغرافية، مجلة المعرفة، العدد ٩٦، مايو ٢٠٠٣م (مقال مقتبس).
١٨- حجاجى إبراهيم محمد: القلاع وتطور الفكرة الهندسية، مجلة المنهل، العدد ٤٥٤، السنة ٥٣، المجلد ٤٨، لعام ١٩٨٧م.
١٩- حسن عبد الوهاب: الإسكندرية فى العصر الإسلامى، مجلة الكتاب، عدد يناير ١٩٤٧م.
٢٠- راتب سكر: مؤثرات الزمان والمكان فى أدب أسامة بن منقذ، مجلة العرب، السعودية، أبريل ٢٠٠٣م.
٢١- سليمان عبد الغنى مالكى: طريق ركب الحاج العراقى من الكوفة إلى مكة، مجلة الدارة، العدد الثانى، السنة التاسعة، ١٩٨٣م.
٢٢- ــــــــ: طريق حجاج الشام ومصر منذ الفتح الإسلامى إلى منتصف القرن السابع الهجرى، مجلة الدارة، العدد الأول، السنة العاشرة، ١٩٨٤م.
٢٣- صلاح أحمد البهنسى: الحمامات العامة فى العالم الإسلامى، المنهل، العدد ٥٧١، المجلد ٦١ لعام ٦٦، ٢٠٠١م.
٢٤- عبد الجبار ناجى: مفهوم العرب للمدينة الإسلامية، مجلة المدن العربية، أعداد ١٤، ١٥ لسنة ١٩٨٤.
٢٥- عبد الله بن حمد الحقيل: الحج فى أدب الرحلات، جريدة الجزيرة السعودية، العدد ١١٠٧٨، لعام ٢٠٠٣م.
٢٦- عبد الله عبد السلام: الاستحكامات الحربية الإسلامية فى اليمن، المنهل، ع ٥٧١، ٢٠٠١م.
٢٧- عبد القدوس الأنصارى: مع ابن جبير فى رحلته، مجلة المنهل، العدد ٣٥، لسنة ١٩٨٦م.
٢٨- عطية عودة أبو سرحان: أثر الرحالة المسلمين فى تعريف المجتمعات الإسلامية، مجلة الفيصل، العدد ٢٥ لسنة ١٩٧٩.

٢٩- فريد شافعي: قاهرة المعز كانت حصنا لا مدينة، مجلة منبر الإسلام، مجلد ٢٢، لسنة ١٩٦٥ .
٣٠- قاسم عبده قاسم: رحلتان أندلسيتان إلى القاهرة، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، المجلد السادس والعشرون، مدريد، ١٩٩٤.
٣١- كمال الدين سامح: أصالة العمارة والفنون الإسلامية بمصر، مجلة المنهل، العدد ٤٥٤، السنة ٥٣، المجلد ٤٨ لعام ١٩٨٧.
٣٢- محمد رشيد الفيل: أثر التجارة والرحلات فى تطوير المعرفة الجغرافية عند العرب، المؤثر الجغرافى الإسلامى الأول، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، م ٣، ١٩٨٤.
٣٣- محمد عبد الستار عثمان: العمارة الحربية الإسلامية بين النظرية والتطبيق، مجلة كلية الملك خالد العسكرية، عدد ٧، سنة ١٤٠٥هـ.
٣٤- ـــــــ: المفهوم الإسلامى لتخطيط المدينة، مجلة المنهل، العدد ٤٥٤، السنة ٥٣، المجلد ٤٨، لعام ١٩٨٧م.
٣٥- محمد عبد العزيز الدباغ: رحلة ابن جبير بين ويليام رايت وعبد القدوس الأنصارى، مجلة المنهل، العدد ٤٧١، السنة ٥٥، المجلد ٥٠ لعام ١٩٨٩م.
٣٦- محمد الفاسى: الرحالة الشهير أبو عبد الله محمد العبدرى، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، مجلد ٩، ١٠، مدريد، لعام ١٩٦٢م.
٣٧- محمد محمد التهامى: الإصلاحات المملوكية فى الأراضى الحجازية، مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الحادية عشرة، يونيو ١٩٨٥م.
٣٨- محمد مصطفى: السلطان قايتباى كما رآه الرحالة الألمانى أرنولد فون هارف، مجلة الهلال، جـ٤، المجلد ٦٣، أبريل، ١٩٥٥م.
٣٩- منصور الحازمى: رحلات العرب فى جزيرة العرب، مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة الخامسة، السعدية، ١٩٨٠.

٤٠. وليد عبد الله عبد العزيز المنيس: التفسير الشرعي للتمدن، رسائل جغرافية، رقم ٦٢، قسم الجغرافية والجمعية الجغرافية الكويتية، جامعة الكويت، ١٩٨٤.

٤١. ـــــــ: جغرافية الحضر دراسة منهجية فى جهود المسلمين فى تطويرها، مجلة المنهل، العدد ٥٣٨، المجلد ٥٨، للعام ٦٢، مارس ١٩٩٧م.

٤٢. يوسف الشاروني: الرحلة فى الأدب العربي الحديث، مجلة القاهرة، العدد ٦٦، القاهرة، ١٩٨٦.

٤٣. يوسف طعماس: دور العرب فى تطور العلوم البحرية، مجلة المنهل، عدد فبراير، ١٩٩٧م.

٤٤. ـــــــ: الموقع والموضع بين الأصالة العربية والمعاصرة، مجلة المنهل، عدد مارس، ١٩٩٧م.

٤٥. يوسف فضل حسن: المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية إلى السودان، مجلة الجمعية المصرية، المجلد الثالث عشر، القاهرة، ١٩٦٧م.

- المراجع الأجنبية

1- Carre (Jean – Marie) voyageurs et ecvivains fvacai sen Egypt , le Caire 1956.

2- Carrre (Jean – Marie): Vayageurs et Ecrivains Francaiis en Egypte (Le Caihe, 1932.

3- De La Ronciere, Charilles: La Decouvcrte de l'Afriaue au Moyen Age. Le Caire 1925.

4- Dopp (P.H): L' Egypt au commence ment du quan zieme siecle. Le Caire 1950.

5- Doyzy: Suplement Oux Dictonnaire Arabes, Vol. Leydch 1991.

6- E. Ashtor: Le Cout de lavie dons L'Egypte Medievale, Journal of the Economicand Social . History of the orient , (JESHO) Vol. III Part 1. Leiden 1960.

7- Garcin (Jean claude): un centre musulman de la haute Egypt medievale: ques, pub institut francais d'archeologie orientale du caire , T. V. 1976.

8- Heyd: Histoire du commerce du levant, au mayen – age , T.I, leipsig, 1923.

9- Hou Ston, J.M.A Social Geography of Euroope, London 1953.

10- Kiunzinger: Upper Egypt , its people and its products, London , 1878.

11- Machenzie: Ayyudid Cairo, Cairo the American University , 1992.

12- Maillet: Descriptonde L'Egypte. L'abbe le mas crier composee sur les memoires de M.Maillet encien consul de france au Caire paris 1735.

13- Mohk house, E.J. A Dictionary of Geography, London, 1940.

14- Nolz, R. " Man – Madeland Forms is thenile Deha Ceog . Rev. April 1969.

15- P.H.Dopp . Le Caire vu par les Vayageurs occidentaux du Moyen Age B.S.G.E. 1951.

16- Palerne, Jean: Le Voyage en Egypt 1581 . Le Caire , 1970.

17- Thenaud, Jean: Le voyage D'outremer (Egypte – Mont Sinay – palestine) paris 1884.

18- Webeba , A.F. the agriculture, of Egypt during the Arab period unpublished M.A. thes is , London 1952.

صدر من هذه السلسلة

١- د. عبد العظيم رمضان: مصطفى كامل في محكمة التاريخ، ط١، ١٩٨٧، ط٢، ١٩٩٤.

٢- رشوان محمود جاب الله: علي ماهر، ١٩٨٧.

٣- د. عبد السلام عبد الحليم عامر: ثورة يوليو والطبقة العاملة، ١٩٨٧.

٤- د. محمد نعمان جلال: التيارات الفكرية في مصر المعاصرة، ١٩٨٧.

٥- د. علية عبد السميع الجنزوري: غارات أوربا على الشواطئ المصرية في العصور الوسطى، ١٩٨٧.

٦- لمعي المطيعي: هؤلاء الرجال من مصر، ج١، ١٩٨٧.

٧- د. عبد المنعم ماجد: هؤلاء الرجال من مصر، ١٩٨٧.

٨- د. علي بركات: رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية، ١٩٨٧.

٩- د. محمد أنيس: صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل، ١٩٨٧.

١٠- محمود فوزي: توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية، ١٩٨٧.

١١- شكري القاضي: مائة شخصية مصرية وشخصية، ١٩٨٧.

١٢- د. نبيل راغب: هدى شعراوي وعصر أكتوبر، ١٩٨٨.

١٣- د.عبدالعظيم رمضان:أكذوبة الاستعمار المصري للسودان: رؤية تاريخية، ط١،١٩٨٨، ط٢،١٩٩٤.

١٤- د.سيدة إسماعيل كاشف: مصر في عصر الولاة من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، ١٩٨٨.

١٥- د. علي حسن الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ١٩٨٨.

١٦- د. حلمي أحمد شلبي: فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعي في مصر: دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ - ١٩٥٢)، ١٩٨٨.

١٧- د. محمد نور فرحات: القضاء الشرعي في مصر في العصر العثماني، ١٩٨٨.

١٨- د. علي السيد محمود: الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، ١٩٨٨.

١٩- د. أحمد محمود صابون: مصر القديمة وقصة توحيد القطرين، ١٩٨٨.

٢٠- د. محمد أنيس: دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩: المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمي، ١٩٨٨.

٢١- د. توفيق الطويل: التصوف في مصر إبان العصر العثماني، ج١، ١٩٨٨.

٢٢- جمال بدوي: نظرات في تاريخ مصر، ١٩٨٨.

٢٣- د. توفيق الطويل: التصوف في مصر إبان العصر العثماني، ج٢، ١٩٨٨.

٢٤- د. نجوى كامل: الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية ١٩١٩ - ١٩٣٦، ١٩٨٩.
٢٥- هاملتون جب، هارولد بوين: المجتمع الإسلامي والغرب، ج١، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، ١٩٨٩.
٢٦- د. سعيد إسماعيل علي: تاريخ الفكر التربوي في مصر الحديثة، ١٩٨٩.
٢٧- ألفريد ج. بتلر: فتح العرب لمصر، ج١، ترجمة محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩.
٢٨- ألفريد ج. بتلر: فتح العرب لمصر، ج٢، ترجمة محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩.
٢٩- د. سيدة إسماعيل كاشف: مصر في عصر الإخشيديين، ١٩٨٩.
٣٠- د. حلمي أحمد شلبي: الموظفون في مصر في عهد محمد علي، ١٩٨٩.
٣١- شكري القاضي: خمسون شخصية مصرية وشخصية، ١٩٨٩.
٣٢- لمعي المطيعي: هؤلاء الرجال من مصر، ج٢، ١٩٨٧.
٣٣- د. خالد محمود الكومي: مصر وقضايا الجنوب الأفريقي: نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية، ١٩٨٩.
٣٤- د. يونان لبيب رزق، محمد مزين: تاريخ العلاقات المصرية المغربية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢، ١٩٩٠.
٣٥- عبد الحميد توفيق زكي: أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة، ١٩٩٠.
٣٦- هاملتون جب، هارولد بوين: المجتمع الإسلامي والغرب، ج٢، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، ١٩٩٠.
٣٧- د.سليمان صالح: الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد: تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن، ١٩٩٠.
٣٨- د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني، ١٩٩٠.
٣٩- د. جميل عبيد: قصة احتلال محمد علي لليونان ١٨٢٤ - ١٨٢٧، ١٩٩٠.
٤٠- د. عبد المنعم الجميعي: الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨، ١٩٩٠.
٤١- د. رفعت السعيد: محمد فريد الموقف والمأساة، رؤية عصرية، ١٩٩١.
٤٢- محمد شفيق غربال: تكوين مصر عبر العصور، ١٩٩٠.
٤٣- إبراهيم عبد العزيز: رحلة في عقول مصرية، ١٩٩٠.
٤٤- د. محمد عفيفي: الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، ١٩٩١.
٤٥- وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج١، ترجمة وتعليق د. حسن حبشي، ١٩٩١.
٤٦- د. عبد الرءوف أحمد عمرو: تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٩- ١٩٥٩، ١٩٩١.

٤٧- د. لطيفة محمد سالم: تاريخ القضاء المصري الحديث، ١٩٩١.
٤٨- د. زبيدة عطا: الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي، ١٩٩١.
٤٩- د. عبد العظيم رمضان: العلاقات المصرية الإسرائيلية ١٩٤٨ – ١٩٧٩، ١٩٩٢.
٥٠- د. سهير إسكندر: الصحافة المصرية والقضايا والوطنية ١٩٤٦ – ١٩٥٤، ١٩٩٣.
٥١- تحرير: عبد العظيم رمضان: تاريخ المدارس في مصر الإسلامية (أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة في أبريل ١٩٩١) ، ١٩٩٢.
٥٢- د. إلهام ذهني: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، ١٩٩٢.
٥٣- د.محمد كمال الدين عز الدين: أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة، ١٩٩٢.
٥٤- د. محمد عفيفي: الأقباط في مصر في العصر العثماني، ١٩٩٢.
٥٥- وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٢، ترجمة وتعليق د. حسن حبشي، ١٩٩٢.
٥٦- د. حلمي أحمد شلبي: المجتمع الريفي في عصر محمد علي: دراسة عن إقليم المنوفية، ١٩٩٢.
٥٧- د. سيدة إسماعيل كاشف: مصر الإسلامية وأهل الذمة، ١٩٩٢.
٥٨- د. إبراهيم عبد الله المسلمي: أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة، ١٩٩٣.
٥٩- د. عبد السلام عبد الحليم عامر: الرأسمالية الصناعية في مصر من التمصير إلى التأميم ١٩٥٧ – ١٩٦١، ١٩٩٣.
٦٠- عبد الحميد توفيق زكي: المعاصرون من رواد الموسيقى العربية، ١٩٩٣.
٦١- د. عبد العظيم رمضان: تاريخ الإسكندرية في العصر الحديث، ١٩٩٣.
٦٢- لمعي المطيعي: هؤلاء الرجال من مصر، ج٣، ١٩٩٣.
٦٣- د. سيدة إسماعيل كاشف، د. جمال الدين سرور، د. سعيد عبد الفتاح عاشور: موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر الإسلامية، أعدها للنشر د. عبد العظيم رمضان، ١٩٩٣.
٦٤- د. محمد نعمان جلال: مصر وحقوق الإنسان بين الحقيقة والافتراء، دراسة وثائقية، ١٩٩٣.
٦٥- د. سهام نصار: موقف الصحافة المصرية من الصهيونية ١٨٩٧ – ١٩١٧، ١٩٩٣.
٦٦- د. ريمان عبد الكريم أحمد: المرأة في مصر في العصر الفاطمي، ١٩٩٣.
٦٧- تحرير: عبد العظيم رمضان: مساعي السلام العربية الإسرائيلية، الأصول التاريخية (أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس في أبريل ١٩٩٣،
٦٨- وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٣، ترجمة وتعليق د. حسن حبشي، ١٩٩٣.
٦٩- د. محمد أبو الإسعاد: نوبة موسى ودورها في الحياة المصرية ١٨٨٦ – ١٩٥١، ١٩٩٣.
٧٠- أ. س. ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ترجمة وتعليق د. حسن حبشي، ١٩٩٤.

٧١- تريفور إيفانز: مذكرات اللورد كيلرن ١٩٣٤ - ١٩٤٦، ج١، ترجمة د. عبد الـــرءوف أحمـــد عمرو، ١٩٩٤.

٧٢- د. أمينة أحمد إمام: رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية في العصر الفاطمي (٣٥٨ - ٥٦٧هـــ)، ١٩٩٤.

٧٣- د. رءوف عباس حامد: تاريخ جامعة القاهرة، ١٩٩٤.

٧٤- د. سمير يحيى الجمال: تاريخ الطب والصيدلة المصرية، ج١: في العصر الفرعوني، ١٩٩٤.

٧٥- د. سلام شافعي محمود: أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، ١٩٩٥.

٧٦- د. سعيد إسماعيل علي: دور التعليم المصري في النضال الوطني زمن الاحتلال البريطاني، ١٩٩٥.

٧٧- وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ترجمة وتعليق د. حسن حبشي، ١٩٩٤.

٧٨- نعمات أحمد عتمان: تاريخ الصحافة السكندرية ١٨٧٣ - ١٨٩٩، ١٩٩٥.

٧٩- فريد دي يونج: تاريخ الطرق الصوفية في مصر في القرن التاسع عشر، ترجمة عبد الحميد فهمـــي الجمال، ١٩٩٥.

٨٠- د.السيد حسين جلال:قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوربي ١٨٨٢ - ١٩٠٤، ١٩٩٥.

٨١- د. رمزي ميخائيل: تاريخ السياسة والصحافة المصرية من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر، ١٩٩٥.

٨٢- د. سيدة إسماعيل كاشف: مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، ١٩٩٤.

٨٣- أحمد شفيق باشا: مذكراتي في نصف قرن، ج١، ١٩٩٤.

٨٤- أحمد شفيق باشا: مذكراتي في نصف قرن، ج٢، القسم الأول، ١٩٩٤.

٨٥- د. حلمي أحمد شلبي: تاريخ الإذاعة المصرية: دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢)، ١٩٩٥.

٨٦- د.أحمد الشربيني: تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية(١٨٤٠- ١٩١٤)، ١٩٩٥.

٨٧- تريفور إيفانز: مذكرات اللورد كيلرن ١٩٣٤ - ١٩٤٦، ج٢، ترجمة د. عبد الـــرءوف أحمـــد عمرو، ١٩٩٤.

٨٨- عبد الحميد توفيق زكي: التذوق الموسيقي وتاريخ الموسيقى المصرية، ١٩٩٠.

٨٩- د. عبد الحميد حامد سليمان: تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني، ١٩٩٥.

٩٠- د. نريمان عبد الكريم: معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، ١٩٩٦.

٩١- بيكر مانسفيلد: تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط، ترجمة عبد الحميد فهمي الجمال، ١٩٩٦.

٩٢- د. نجوى كامل: الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦)، ١٩٩٦.

٩٣- د. نبيه بيومي عبد الله: قضايا عربية في البرلمان المصري (١٩٢٤ - ١٩٥٨)، ١٩٩٦.

٩٤- د. سهير إسكندر: الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤)، ١٩٩٦.

٩٥- تحرير: د. عبد العظيم رمضان: مصر وأفريقيا، الجذور التاريخية للمشكلات الأفريقية المعاصرة (أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة).

٩٦- مالكولم كير: عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠)، ترجمة د. عبد الرءوف أحمد عمرو.

٩٧- د. إيمان عامر: العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

٩٨- د. محمد سيد محمد: هيكل والسياسة الأسبوعية.

٩٩- د. سمير يحيى الجمال: تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليوناني - الروماني)، ج٢.

١٠٠- د.عبد العزيز صالح، د. جمال مختار، د. محمد إبراهيم بكر، د. إبراهيم نصحي، د. فاروق القاضي: موسوعة تاريخ مصر عبر العصور (تاريخ مصر القديمة) ، أعدها للنشر د. عبد العظيم رمضان.

١٠١- اللواء مصطفى عبد المجيد نصير، اللواء عبد المجيد كفافي، اللواء سعد عبد الحفيظ، السفير جمال منصور: ثورة يوليو والحقيقة الغائبة.

١٠٢- د. تيسير أبو عرجة: المقطم جريدة الاحتلال البريطاني في مصر (١٨٨٩ - ١٩٥٢).

١٠٣- د. علي بركات: رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره.

١٠٤- د. فاطمة علم الدين عبد الواحد: تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢).

١٠٥- د. أحمد فارس عبد المنعم: السلطة السياسية في مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ - ١٩٨٧).

١٠٦- د. سليمان صالح: الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد (تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن).

١٠٧- دليب هيرو: الأصولية الإسلامية، ترجمة عبد الحميد فهمي الجمال.

١٠٨- سليم خليل نقاش: مصر للمصريين، ج٤.

١٠٩- سليم خليل نقاش: مصر للمصريين، ج٥.

١١٠- البيومي إسماعيل الشربيني: مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) ، ج١.

١١١- البيومي إسماعيل الشربيني: مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) ، ج٢.

١١٢- د. محمد الجوادي: إسماعيل باشا صدقي.

١١٣- د. عز الدين إسماعيل: الزبير باشا ودوره في السودان في عصر الحكم المصري.

١١٤- أحمد رشدي صالح: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي.

١١٥- أحمد شفيق باشا: مذكراتي في نصف قرن، ج٢.

١١٦- علاء الدين وحيد: أديب إسحاق عاشق الحرية.

١١٧- عبد الرازق إبراهيم عيسى: تاريخ القضاء في مصر العثمانية ١٥١٧ - ١٧٩٨.

١١٨- د. البيومي إسماعيل الشربيني: النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك.

١١٩- حسين محمد أحمد يوسف: النقابات في مصر الرومانية.

١٢٠- لويس جرجس: يوميات من التاريخ المصري الحديث.

١٢١- د. محمد عبد الحميد الحناوي: الجلاء ووحدة وادي النيل (١٩٤٥ - ١٩٥٤).

١٢٢- سليم خليل نقاش: مصر للمصريين، ج٦.

١٢٣- د. سعيد عبد الفتاح عاشور: السيد أحمد البدوي.

١٢٤- د. محمد نعمان جلال: العلاقات المصرية الباكستانية في نصف قرن.

١٢٥- سليم خليل نقاش: مصر للمصريين، ج٧.

١٢٦- سليم خليل نقاش: مصر للمصريين، ج٨.

١٢٧- إبراهيم محمد إبراهيم: مقدمات الوحدة المصرية السورية ١٩٤٣ - ١٩٥٨.

١٢٨- جمال بدوي: معارك صحفية.

١٢٩- د. يحيى محمد محمود: الدين العام وأثره في تطور الدين المصري (١٨٧٦ - ١٩٤٣).

١٣٠- سمير فريد: تاريخ نقابات الفنانين في مصر (١٩٨٧ - ١٩٩٧).

١٣١- ترجمة: د. عبد الرءوف أحمد عمرو: الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢.

١٣٢- د. ماجدة محمد محمود: دار المندوب السامي في مصر، ج١.

١٣٣- د. ماجدة محمد محمود: دار المندوب السامي في مصر، ج٢.

١٣٤- ترجمة: جمال سعيد عبد الغني: الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني للدارندلي.

١٣٥- د. محاسن محمد الوقاد: اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجنيـــزة ٦٤٨ - ٩٢٣هـــ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م.

١٣٦- تقديم : عبد العظيم رمضان: أوراق يوسف صديق.

١٣٧- د. محمد عبد الغني الأشقر: تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي.

١٣٨- السيد يوسف: الأخوان المسلمون وجذور التطرف الديني والإرهاب في مصر.

١٣٩- محمد قابيل: موسوعة الغناء المصري في القرن العشرين.

١٤٠- طارق عبد العاطي غنيم: سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عـــشر (١٢٢٦ - ١٢٦٥هـــ/ ١٨١١ - ١٨٤٨م.

١٤١- لطفي أحمد نصار: وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك.

١٤٢- أحمد شفيق باشا: مذكراتي في نصف قرن، ج٢، ط٢، ١٩٩٩.

١٤٣- د. منيرة محمد الهمشري: دبلوماسية البطالمة في القرنين الثاني والأول ق.م.

١٤٤- د. عبد العليم خلاف: كشوف مصر الأفريقية في عهد الخديو إسماعيل.

١٤٥- د.منيرة محمد الهمشري:النظام الإداري والاقتصادي في مصر في عهد دقلديانوس(٢٨٤-٣٠٥م).

١٤٦- د. أحمد عبد الرازق: المرأة في مصر المملوكية.

١٤٧- د. رفعت السعيد: حسن البنا: متى.. كيف.. لماذا؟

١٤٨- د. سمير فوزي: القديس مرقص وتأسيس كنيسة الإسكندرية، ترجمة نسيم مجلي.

١٤٩- حسام محمد عبد المعطي: العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر.

١٥٠- د. سمير يحيى الجمال: تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها).

١٥١- السيد يوسف: جمال الدين الأفغاني والثورة الشاملة.

١٥٢- د. محاسن محمد الوقاد: الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية (٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م).

١٥٣- د. علية عبد السميع الجنزوري: الحروب الصليبية: المقدمات السياسية.

١٥٤- د. علية عبد السميع الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى.

١٥٥- د. عبد الحميد البطريق: عصر محمد علي ونهضة مصر في القرن التاسع عشر(١٨٠٥- ١٨٨٣).

١٥٦- د. سمير يحيى الجمال: تاريخ الطب والصيدلة في العصر الإسلامي، ج٣.

١٥٧- د. سمير يحيى الجمال: تاريخ الطب والصيدلة في العصر الإسلامي، ج٤.

١٥٨- د.محمد عبد الغني الأشقر: نائب السلطنة المملوكية في مصر (٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م).

١٥٩- د. محمد فريد حشيش: حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢) ج١.

١٦٠- د. محمد فريد حشيش: حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢) ج٢.

١٦١- سلاطين باشا: السيف والنار في السودان.

١٦٢- د. تمام همام تمام: السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦- ١٩٥٣).

١٦٣- محمد سيد العشماوي: مصر والحملة الفرنسية.

١٦٤- تحرير: د. عبد العظيم رمضان: الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ (أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة) بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة في الفترة: ٢٠ - ٢١ ديسمبر ١٩٩٧.

١٦٥- سامي سليمان محمد السهم: التعليم والتغيير الاجتماعي في مصر في القرن التاسع عشر.

١٦٦- السيد يوسف: مذكرات معتقل سياسي (صفحة من تاريخ مصر).

١٦٧- د. صفي علي محمد عبد الله: الحركة العلمية والأدبية في الفسطاط منذ الفتح العربي إلى نهاية الدولة الإخشيدية.

١٦٨- يسري عبد الغني: مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات.

١٦٩- د. صفي علي محمد عبد الله: مدن مصر الصناعية في العصر الإسلامي إلى نهاية الفاطميين (٢١ - ٥٦٧هـ/ ٦٤٢- ١١٧١م).

١٧٠- مجدي عبد الرشيد بحر: القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك(٦٤٨- ٩٣٢هـــ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م.

١٧١- محمد رفعت الإمام: تاريخ الجالية الأرمنية في مصر في القرن التاسع عشر.

١٧٢- فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة في مصر من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي، ج١.

١٧٣- فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة في مصر من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي، ج٢.

١٧٤- د. أحمد عبد الحليم دراز: مصر وليبيا فيما بين القرن السابع والقرن الرابع ق.م.

١٧٥- عادل إبراهيم الطويل: محمد توفيق نسيم باشا ودوره في الحياة السياسية.

١٧٦- د. عبد الحميد حامد سليمان: الملاحة الدولية في مصر العثمانية (١٥١٧- ١٧٩٨).

١٧٧- لواء د. صلاح سالم: سياسة مصر العسكرية إزاء حروب الشرق الأوسط.

١٧٨- د. سحر علي حنفي: العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى في القرن الثامن عشر.

١٧٩- د. عفاف مسعد السيد العبد: دور الحامية العثمانية في تاريخ مصر (١٥٦٤ – ١٦٠٩م).

١٨٠- د. عبد العظيم رمضان: الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس.

١٨١- ترجمة وتعليق: د. حسن حبشي: الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد، ج١).

١٨٢- ترجمة وتعليق: د. حسن حبشي: الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد، ج٢).

١٨٣- شاهد على العصر: مذكرات محمد لطفي جمعة.

١٨٤- ياسر عبد المنعم محاريق: المنوفية في القرن الثامن عشر.

١٨٥- د. أحمد سيد أحمد: تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري.

١٨٦- د. أحمد صبحي منصور: العقائد الدينية في مصر الإسلامية (بين الإسلام والتصوف).

١٨٧- د. عادل عبد الحافظ حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠- ١٥١٧م)، ج١.

١٨٨- د. عادل عبد الحافظ حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠- ١٥١٧م)، ج٢.

١٨٩- عرفة عبده علي: يهود مصر منذ عصر الفراعنة حتى عام ٢٠٠٠م.

١٩٠- د.عبد الحميد عبد الجليل أحمد شلبي:العلاقات السياسية بين مصر والعراق (١٩٥١- ١٩٦٣م).

١٩١- د. محسن علي شومان: اليهود في مصر العثمانية حتى أوائل القرن التاسع عشر، ج١.

١٩٢- د. محسن علي شومان: اليهود في مصر العثمانية حتى أوائل القرن التاسع عشر، ج٢.

١٩٣- د. عبد الله شحاتة: الإمام محمد عبده بين المنهج الديني والمنهج الاجتماعي.

١٩٤- د. فتحي الصنفاوي: تاريخ الآلات الموسيقية الشعبية.

١٩٥- د. نريمان عبد الكريم أحمد: مجتمع أفريقيا في عصر الولاة.

١٩٦- د. عبد العظيم محمد سعودي: تاريخ تطور الري في مصر (١٨٨٢- ١٩١٤).

١٩٧- د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة.

١٩٨- د. عادل عبد الحافظ حمزة: العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية .

١٩٩- د. بهاء الدين إبراهيم: المعبد في الدولة الحديثة في مصر الفرعونية.

٢٠٠- تحرير د. عبد العظيم رمضان: تاريخ سواحل مصر الشمالية عبر العصور (أعمال الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع كلية الآداب جامعة الإسكندرية من ٢٢- ٢٣ أبريل ١٩٩٨).

٢٠١- سميرة فهمي على عمر: إمارة الحج في مصر العثمانية ١٥١٧- ١٧٩٨.

٢٠٢- د. ماجدة محمد محمود: المندوبون الساميون في مصر.

٢٠٣- فتحي أبو طالب: الصراع الدولي على عدن والدور المصري.

٢٠٤- د. مرفت صبحي غالي: العلاقات الاقتصادية بين مصر وبريطانيا (١٩٣٥- ١٩٤٥).

٢٠٥- السيد محمد أحمد عطا: تاريخ الغربية وأعمالها في العصر الإسلامي(٢١- ٥٦٧هـ/ ٦٤٢- ١١٧١م)

٢٠٦- سليم خليل نقاش: مصر للمصريين، ج٩.

٢٠٧- د. سعيد عبد الفتاح عاشور: الظاهر بيبرس.

٢٠٨- لواء د. كمال أحمد عامر: الدور المصري والعربي في حرب تحرير الكويت، ج١.

٢٠٩- لواء د. كمال أحمد عامر: الدور المصري والعربي في حرب تحرير الكويت، ج٢.

٢١٠- د. سعيد عبد الفتاح عاشور: قبرص والحروب الصليبية.

٢١١- د. علية عبد السميع الجزوري: إمارة الرها الصليبية.

٢١٢- شلبي إبراهيم الجعيدي: العامة في مصر في العصر الأيوبي (٥٦٧- ٦٤٨هـ/ ١١٧١- ١٢٥٠م).

٢١٣- عثمان علي محمد عطا: الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي (٦٤٨- ٩٣٢هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م).

٢١٤- د.علية عبد السميع الجزوري:الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى.

٢١٥- د. إصلاح عبد الحميد ريحان: الفتح الإسلامي لمدينة كابول (٣١هـ/ ٦٥١م).

٢١٦- د. فرغلي تسن هريدي: الرأسمالية الأجنبية في مصر (١٩٣٧- ١٩٥٧) ، ج١.

٢١٧- د. سيد عشماوي: العيب في الذات الملكية (١٨٨٢- ١٩٥٢).

٢١٨- د. السيد محمد أحمد عطا: إقليم الغربية في عصر الأيوبيين والمماليك (٥٦٧- ٩٣٢هـ/ ١١٧١- ١٥١٧م).

٢١٩- د. عبد العظيم رمضان: ثورة ١٩١٩ في ضوء مذكرات سعد زغلول.

٢٢٠- د. حمادة حسني أحمد محمد: التنظيمات السياسية لثورة يوليو.
٢٢١- ونستون تشرشل: حرب النهر، ترجمة عز الدين محمود.
٢٢٢- د. عبد الحميد زايد: مصر الخالدة (مقدمة في تاريخ مصر الفرعونية منذ أقدم العصور حتى عـــام ٣٢٣ق.م)، ج١.
٢٢٣- د. عبد الحميد زايد: مصر الخالدة (مقدمة في تاريخ مصر الفرعونية منذ أقدم العصور حتى عـــام ٣٢٣ق.م)، ج٢.
٢٢٤- إعداد وتقديم: د. عبد العظيم رمضان: الدور الوطني للكنيسة المصرية عبر العصور (أعمال ندوة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة).
٢٢٥- د. سيد محمد موسى حمد: مصر ودول حوض النيل.
٢٢٦- د. عبد العزيز محمد الشناوي: السخرة في حفر قناة السويس.
٢٢٧- أمل محمود فهمي: العلاقات المصرية العثمانية على عهد الاحتلال البريطاني (١٨٨٢- ١٩١٤)
٢٢٨- د. حسن حبشي: تاريخ العالم الإسلامي، ج١.
٢٢٩- ترجمة: د. حسن حبشي: ذيل وليم الصوري.
٢٣٠- د. عز الدين إسماعيل أحمد: تاريخ الجيش المصري في عصور ما قبل التاريخ.
٢٣١- د. سمير عبد المقصود السيد: الشوام في مصر منذ الفتح العثماني حتى أوائل القرن التاسع عشر.
٢٣٢- د. فرغلي تسن هريدي: الرأسمالية الأجنبية في مصر (١٩٣٧- ١٩٥٧) ، ج٢.
٢٣٣- محمود قاسم: الفيلم التاريخي في مصر.
٢٣٤- د. أنتوني سوريال عبد السيد: العلاقات المصرية الأثيوبية، ج١.
٢٣٥- د. أنتوني سوريال عبد السيد: العلاقات المصرية الأثيوبية، ج٢.
٢٣٦- د. أحمد محمد عبد الحليم دراز: مصر وفلسطين فيما بين القرنين الحادي عشر والثامن ق.م.
٢٣٧- تحرير: د. عبد العظيم رمضان: حكومة مصر عبر العصور (أعمال لجنة التاريخ والآثار بـــالمجلس الأعلى للثقافة من ٢٢- ٢٣ أبريل).
٢٣٨- د. سيدة إسماعيل كاشف: الوليد بن عبد الملك (٨٦- ٩٦هـــ/ ٧٠٥- ٧١٥م).
٢٣٩- د. سيدة إسماعيل كاشف: عبد العزيز بن مروان.
٢٤٠- د. حسين كفافي: هنري كوريـل الأسطورة والوجه الآخر.
٢٤١- د. سليمان محمد حسين: تجار القاهرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر.
٢٤٢- د. عبد المنعم إبراهيم الجميعي: عصر محمد علي: دراسة وثائقية).
٢٤٣- مصطفى الغريب محمد: محمد حسين هيكل ودوره في السياسة المصرية (١٨٨٨- ١٩٥٦).

٢٤٤- د. أحمد عبد اللطيف حنفي محمد: المغاربة والأندلسيون في مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي، ج١، الدراسات السياسية.

٢٤٥- د. أحمد عبد اللطيف حنفي محمد: المغاربة والأندلسيون في مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي، ج٢، الدراسات الحضارية.

٢٤٦- عبده مباشر: ، إسلام توفيق: حرب الاستنزاف، ج١.

٢٤٧- عبده مباشر: ، إسلام توفيق: حرب الاستنزاف، ج٢.

٢٤٨- السيد يوسف: عبد الرحمن الكواكبي رائد القومية العربية وشهيد الحرية.

٢٤٩- د. محمد فريد حشيش: معاهدة ١٩٣٦، ج١، العلاقات المصرية البريطانية.

٢٥٠- د. محمد فريد حشيش: معاهدة ١٩٣٦، ج٢، نصوص محاضر المفاوضات.

٢٥١- د. عزت قرني: تاريخ الفكر السياسي والاجتماعي في مصر الحديثة (١٨٣٤- ١٩١٤).

٢٥٢- أحمد محمود جمعة: إنشاء جامعة الدول العربية، ج١.

٢٥٣- أحمد محمود جمعة: إنشاء جامعة الدول العربية، ج٢.

٢٥٤- أحمد محمود جمعة: إنشاء جامعة الدول العربية، ج٣.

٢٥٥- د. مرفت أسعد عطاالله: العلاقات بين مصر ولبنان في عهد محمد علي.

٢٥٦- د. السيد حسين جلال: قناة السويس والأطماع الاستعمارية الدولية.

٢٥٧- سمير عبد الله سليمان: الدواوين في مصر خلال العصر الفاطمي (٣٥٨- ٥٦٧هـ/ ٩٦٩- ١١٧١م).

٢٥٨- د. محمد صبحي عبد الحكيم: مدينة الإسكندرية.

٢٥٩- د. حسن حبشي: تاريخ العالم الإسلامي، ج٢.

٢٦٠- د. محمد مؤنس عوض: رواد تاريخ العصور الوسطى.

٢٦١- د. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ج١.

٢٦٢- د. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ج٢.

٢٦٣- أحمد حسين: مذكرات أحمد حسين.

٢٦٤- جان إيف إمبرور: الإسكندرية ملكة الحضارات، ترجمة فاطمة عبد الله محمود، مراجعة د. محمود ماهر طه.

٢٦٥- د. إصلاح عبد الحميد ريحان: هرات من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الثاني الهجري.

٢٦٦- د. نريمان عبد الكريم أحمد: دراسات في تاريخ مصر الإسلامية.

٢٦٧- طارق الكومي: أمراء أسرة محمد علي ودورهم في المجتمع.

٢٦٨- المشكلة الفلسطينية وموقف مصر حكومة وشعباً منها (١٩١٧- ١٩٣٩).

٢٦٩- د. أحمد دراج: المماليك والفرنجة في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، ٢٠٠٧.

٢٧٠- محمد قابيل: فرسان اللحن الجميل: الموجي – بليغ- الطويل، ٢٠٠٩.

٢٧١- مجدي رشاد عبد الغني: العلاقات المصرية الليبية (١٩٤٥- ١٩٦٩)، ٢٠٠٧.

٢٧٢- محمد بن صفصاف: حركة محمد عبده وعبد الحميد بن باديس الإصلاحية وأبعادهـا الـسياسية والاقتصادية والاجتماعية، ج١، ٢٠٠٨.

٢٧٣- محمد بن صفصاف: حركة محمد عبده وعبد الحميد بن باديس الإصلاحية وأبعادهـا الـسياسية والاقتصادية والاجتماعية، ج٢، ٢٠٠٨.

٢٧٤- د. عبد الواحد النبوي: المعارضة في البرلمان المصري (١٩٢٤- ١٩٣٦)، ٢٠٠٨.

٢٧٥- د. حسام محمد عبد المعطي: العائلة والثروة، البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية، ٢٠٠٨.

٢٧٦- جرجس حنين: الأطيان والضرائب في القطر المصري، ٢٠٠٨.

٢٧٧- د. عبد الحميد ناصف: دير سانت كاترين في العصر العثماني، ٢٠٠٨.

٢٧٨- د. إيمان المهدي: الخبز في مصر القديمة، ٢٠٠٨.

٢٧٩- د. باسنت فتحي: تعددية التعليم الابتدائي في مصر ١٩٢٣ - ١٩٩٣، ٢٠٠٨.

٢٨٠- محمد مبروك : الإدارة المالية في عصر محمد علي ، ٢٠٠٩.

٢٨١- إبراهيم ماضي: زي أمراء المماليك في مصر والشام ، ٢٠٠٩.

٢٨٢- د. صفاء حافظ: الموانئ والثغور المصرية من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي، ٢٠٠٩.

٢٨٣- د. رضا أسعد: أعيان الريف المصري في العصر العثماني، ٢٠٠٩.

٢٨٤- د. جمال كمال محمود: الأرض والفلاح في صعيد مصر في العصر العثماني، ٢٠١٠.

٢٨٥- د. بثينة إبراهيم مرسي إبراهيم: تطور الديانة المصرية القديمة ٢٠١٠.

٢٨٦- زوات عرفان: مصر واليمن في النصف الأول من القرن التاسع عشر ٢٠١٠.

٢٨٧- د. على شلبي: مصر الفتاة ٢٠١٠.

وبين يديك العدد الأخير:

٢٨٨- د. عمرو عبد العزيز: العمران المصري بين الرحلة والأسطورة ٢٠١٠.

منافذ بيع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة ساقية
عبد المنعم الصاوى

الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو
من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب
أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز
ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة
ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة جامعة القاهرة

بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى - الجيزة

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى اكاديمية الفنون - الجيزة

ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (١) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقاً

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة

٥ ش الثورة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

مكتبـــات ووكــــلاء

البيع بالدول العربية

لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة - بيروت - هاتف: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣
ص. ب : ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
بيروت - الفرع الجديد - شارع الصيدانى - الحمراء - رأس بيروت - بناية سنتر ماريا.
ص. ب : ١١٣/٥٧٥٢
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

سوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع - سوريا - دمشق - شارع كرجيه حداد - المتفرع من شارع ٢٩ أيار - ص. ب: ٧٣٦٦ - الجمهورية العربية السورية

تونس

دار المعارف

طريق تونس كلم 131 المنطقة الصناعية بأكودة
ص. ب: 215 - 4000 سوسة - تونس .

المملكة العربية السعودية

١ - مؤسسة العبيكان - الرياض - تقاطع طريق الملك فهد مع طريق العروبة (ص. ب: ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ - هاتف : ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات والأدوات الكتابية - جدة - الشرفية - شارع الستين - ص. ب: ٣٠٧٤٦ جدة : ٢١٤٨٧ - هاتف : المكتب: ٦٥٧٠٧٢٢ - ٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٦٥٧٠٦٢٨.

٣ - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع - الرياض - المملكة العربية السعودية - ص. ب: ١٧٥٢٢ - الرياض: ١١٤٩٤ - هاتف : ٤٥٩٣٤٥١.

٤ - مؤسسة عبد الرحمن السديرى الخيرية - الجوف - المملكة العربية السعودية - دار الجوف للعلوم ص. ب: ٤٥٨ الجوف - هاتف: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠ فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٨٠

الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف : ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ - دار اليازورى العلمية للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
هاتف : ٩٦٢٤٦٢٦٦٢٦ +
تلى فاكس : ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +
ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الأردن.

الجزائر

١ - دار كتاب الغد للنشر والطباعة والتوزيع
حى 72 مسكن م. ب. أ. ع. عمارة هـ محل ٠٢ - جيجل - هاتف : 034477122 - فاكس : 034495697
موبايل : 0661448800

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg